ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة

ترجمة
لويس اسكندر





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبيَّة

في عصر

بسكال وموليير وكرومول وملتن

وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد الثامن







بيروت

تونس

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب ـ بيروت ـ لبنان

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل التاسع عشر



الكتاب الثالث

محيـــط القارة

١٦٤٨ — ١٧١٥



الفصل الثانى عشر

الصراع على البلطيق

١٦٤٨ ـ ١٧٢١

١ ـ السويد المغامرة : ١٦٤٨ ـ ١٧٠٠

ان التاريخ شظية من البيولوجيا ـ انه اللحظة البشرية فى موكب الأنواع • وهو أيضا وليد الجغرافيا ـ لأنه فعل الأرض والبحر والهواء ، وأشكالها ونتاجها ، وتأثيرها فى رغبة الانسان ومصيره • فلنتأمل هنا أيضا تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق فى القرن السابع عشر• فالسويد فى شماله ، واستونيا وليفونيا ولتوانيا فى شرقه ، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة ، وفى جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا ، وفى غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجى على منافذ البلطيق الضيقة الى بحر الشمال والاطلنطى • لقد كان هذا سجنا جغرافيا سيصطرع نزلاؤه على السيطرة على تلك المياه والمضايق ، والشواطىء والثغور ، ومسالك التجارة ودروب الهرب برا أو بحرا • هنا خلقت الجغرافيا التاريخ •

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دورا صغيرا فى مسرحية البلطيق • ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدى ملوكها وأرجلهم • وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضايق الاسكاجراك والكاتيجات (١٦٤٥) وبقيت النرويج خاضعة لها ، ولكنها فى ١٦٦٠ فقدت أقاليم السويد الجنوبية • وشعر فردريك الثالث (١٦٤٨ ـ٧٠) بحاجته الى سلطة ممركزة تتصدى للتحديات الخارجية ، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية ، مستعينا على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى • وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (١٦٧٠ ـ ٩٩) معينا له فى بيدر شوماخر ، كونت جريفنفلد ، الذى ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيرا من أكفأ الوزراء فى عصر الدبلوماسية الذهبى ذاك • أصلح مالية الدولة ، ودفع التجارة والصناعة

قدما ، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية . واستن الكونت سياسة السلم ، ولكن الملك الجديد كان تواقا لاستعادة القـــوة والاقاليـــم التى كانت الدنمرك تملكها فيما مضي . ومن ثم ففى ١٦٧٥ جدّد الحرب القديمة مع السويد ، ولكنه هزم ، وثبّتت من جديد ســيادة الســويد على اسكندناوة .

وقد تعاقب على عرش السويد فى تلك الحقبة طائفة ممتــازة من الملوك الأشداء ، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم فى ذلك منافس غير لويس الرابع عشر . ولو أتيح لهم ســند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنســا ، ولاســتطاع الشــعب السويدى ـ بوحى من منجزات الجوستافين ، والكارلين الثــلاثة ، ووزرائهم العظام ـ أن يموّل ازدهارا ثقافيا يتناسب مع انتصــاراتهم وتطلعاتهم . غير أن الحروب التى عززت قوتهم اســتنزفت ثروتهم ، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وان تكللت بامجــاد البطولة . وانه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الأمم هذا القدر الكبير من المنجزات فى الخارج على ما بها من ضعف شــديد . فســكانها لم يجاوزوا مليونا ونصفا ، ينقسمون طبقات لم تتعلم الى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض فى سلام . وكان النبلاء يتسلطون على الملك ، ويقررون لأنفســهم شراء أراضي من أملاك التــاج بشروط ميسرة ، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديدا أعجزها عن تغــذية التجارة التى أطلقت الحرب عقالها ، وكانت الأملاك الخارجية عبئــا لا تبرره غير العزة القومية . ان حنكة الوزراء المخلصين وحدها هى التى دفعت عن البلاد خطر الافلاس الذى بدا أنه ثمن المجد .

كان شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة ، ورفيــق لعبها ، وعاشقها ، وخلفها بعد أن نزلت له عن العرش فى ١٦٥٤ . وقد درأ خطر الافلاس بأكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التى سطوا عليها . واستطاعت الدولة بفضل هذا « الاختزال » لأملاك الاقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتهــا على الوفــاء بديونها . ورغبة فى استكمال النقص فى العملة الفضــية والذهبية ، عهد شارل الى يوهان بالسترو بانشاء مصرف قومى واصدار نقود ورقية

(١٦٥٦) - وهى أول ما صدر منها فى أوربا . وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية الاقتصاد حينا ، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء به نقدا عند الطلب ، فاوقفت التجربة . ونقل الملك المقدام اثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التى اختصت بها ريجا الى السويد ، فارسي بذلك أسس قاعدة صناعية اقوى تستند اليها سياسته العسكرية .

اما هدفه الذى جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه . فالامارات التي كسبها جوستافس اهولفس على أرض القارة تهدد بالثورة ، والحكومة البولندية تأبى أن تعترف بشارل العاشر ملكا على السويد ، ولكن بولنده أضعفها تمرد القوزاق ، وقد خفت الروسيا لنجدة القوزاق ، وكان الأمل ولا ريب يراودها فى شق طريق لها الى البلطيق . ثم ان للسويد جيشا حسن التدريب خافت أن تسرحه ، وخير سبيل الى اعاشته أن يخوض حربا ظافرة . ورأى شارل فى هذه الظروف كلها ما يزكى الهجوم على بولنده . وعارض الفلاحون ورجال الدين ، فاسترضاهم بالزعم بان مشروعه ليس الا حربا مقدسة لحماية حركة الاصلاح البروتستنتى وتوسيع نطاقها (١٦٥٥) (١) .

ولكن تبين أن بولنده بلد يسهل غزوه ، ويصعب اخضاعه . كانت مقاومتها فى الغرب ضعيفة لما حاق بها فى الشرق من خلل وما عانته من غارات العدو . ودخل شارل وارسو ، وهدأ النبلاء البولنديين بوعده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة ، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين ، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته . ولما حاول فردريك وليم ، « ناخب براندنبورج الأكبر » الافادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها اقطاعة بولندية) ، سيّر شارل جيشه غربا بسرعة نابليونية وحاصر الناخب فى عاصمته ، وارغمه على توقيع معاهدة كونيجزبيرج (يناير ١٩٥٦) . واعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل ببروسيا الشرقية باعتبارها اقطاعة سويدية ، ووافق على ان يؤدى للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها ، ووعد بان يمد الجيش السويدى بألف وخمسمائة مقاتل .

غير أن الخصومة الدينية التى اثارها شارل هزمته . ذلك ان البابا اسكندر السابع والامبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

من نفوذ ليؤلفا حلفا ضد السويد ، لا بل ان الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا الى الحلفاء فى تصميمهم على كبح جماح الفاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم . فهرع قافلا الى بولندة ، وهزم قوة بولندية جديدة ، واحتل وارسو من جديد (يوليو ١٦٥٦) . غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد أن ثارت حماستها الدينية ، والقى شارل نفسه – وهو بلا صديق رغم انتصاره – وقد أحدق به الأعداء من كل حدب . وهجره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولندة . أما شارل – الذى كان خبيرا بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملى – فقد اكتسح البلاد غربا فى هجوم على الدنموك ، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميلا من الجليد (يناير ١٦٥٧) ، وهزم الدنمركيين ، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدى (٢٧ فبراير) . وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية ، ووافقت على أن تغلق مضيق الساوند فى وجه أعداء السويد . فلما تباطأ الدنمركيون فى تنفيذ هذه الشروط استأنف شارل الحرب ، وحاصر كوبنهاجن . وعقد العزم الآن على خلع فردريك الثالث ، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد .

ولكن القوة البحرية هزمته . ذلك أن انجلترة والأقاليم المتحدة ، وهما أعظم أمم العصر البحرية آنذاك ، اتفقتا الآن – رغم ما بينهما عادة من عداء – على ألا تقبض أى دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد . ففى أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند ، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن ، وساقت أمامها الأسطول السويدى الصغير الى ثغوره فى أرض الوطن . وأقسم شارل أن يقاتل الى النهاية . ولكن الشدائد التى عاناها فى حملاته كانت قد فعلت فيه فعلها ، فبينما كان يخطب الديت السويدى فى جوتيبورج أخذته الحمى . وما لبث أن قضي نحبه فى ربيع حياته (١٣ فبراير ١٦٦٠) .

وكان ابنه شارل الحادى عشر (١٦٠٠ – ٩٧) لا يزال فى الخامسة ، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح اوليفا

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو ، يونيو ١٦٦٠) • ونزلت الملكية البولندية عن دعواها فى تاج السويد ، وثبتت تبعية ليفونيا للسويد ، ونالت براندنبورج الحق الكامل فى بروسيا الشرقية ، واحتفظت السويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكانى) واقاليمها على أرض القارة (بريمن ، وفيردن ، وبومرانيا) ، ولكنها انضمت الى الدنمرك فى ضمان حق السفن الأجنبية فى دخول البلطيق • وبعد عام وقعت السويد وبولنده فى كارديس صلحا فاترا مع قيصر الروس • واستمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاما بوسائل أخرى غير الحرب •

كانت هذه المعاهدات نصرا لا يستهان به للسويد ، ولكن البلاد أشرفت مرة أخرى على الافلاس • وكافح عضوان من مجلس الوصاية هما جوستاف بوندى وبير براهى للحد من النفقات الحكومية ، ولكن المستشار ماجنس دى لا جاردى أضاف الى الديون القديمة ديونا جديدة ، وأتاح للنبلاء ولأصدقائه ولنفسه جنى المنافع على حساب الخزانة ، وفى سبيل تلقى المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (١٦٧٢) قبل أن ينقض لويس الرابع عشر على الاقاليم المتحدة ، حليفة السويد ، بأيام معدودات فقط • وما لبثت السويد أن وجدت نفسها تخوض حربا ضد الدنمرك ، وبراندنبورج ، وهولندة • وهزمت على يد الناخب الأكبر فى فيربيللن (١٨ يونيو ١٦٧٥) ، واجتاح أعداؤها أقاليمها القارية ، وغزا جيش دنمركى « سكانى » من جديد ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند « ١ يونيو ١٦٧٦) •

وأنقذ السويد ملكها الشاب شارل الحادى عشر ، الذى اضطلع الآن بزمام الأمر ، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيها بسالته الشخصية جنوده ، فدحروا الدنمركيين فى لوند ولاندسكرونا • وبفضل هذين الانتصارين وتأييد لويس الرابع عشر استردت السويد كل ما فقدته • وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية ، هو الكونت يوهان جيلنشتييرنا ، مع الكونت جريفنفلد - لا فى الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسب ، بل فى ابرام حلف عسكرى وتجارى بينهما • واتفقت الدولتان على عملة مشتركة ، وكانت الوحدة الاسكندناوية كلها قاب قوسين أو أدنى حين قطع هذا التطور موت

جيلنشتييرنا وهو فى الخامسة والاربعين (١٦٨٠) ٠ وحافظت الأمتان على السلام عشرين عاما ٠

وكان جيلنشتييرنا قد علم الملك الشاب أن السويد لن تستطيع الابقاء على مكانتها بين الدول العظيمة اذا مضي نبلاؤها فى التهام أراضي التاج ، وهو أمر يهوى بالملكية الى ذل الفقر وبالدولة الى درك العجز ٠ وفى ١٦٨٢ اتخذ شارل الحادى عشر خطوة حاسمة ٠ فاستأنف بتأييد من رجال الدين والفلاحين وأهل المدن ، فى تدقيق وشمول يحفزهما السخط « اختزال » أراضي النبلاء ، أى استرداد ما فقدته الملكية من ضياعها ٠ ثم حقق فى فساد الموظفين وعاقبه ، وبلغ بايرادات الدولة النقطة التى أتاحت للسويد القدرة من جديد على الاحتفاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها ٠ ولم يكن شارل الحادى عشر بالملك المحبب جدا الى شعبه ، ولكنه كان ملكا عظيما ٠ فلقد آثر انتصارات السلام الأقل ضجيجا على انتصارات الحرب ، وذلك رغم ما خلف فى الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون ٠ وقد وطد حكم الملكية المطلق، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لاقطاعية رجعية فوضوية ٠

وفى هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابها وفنونها ٠ وبلغت العمارة السويدية أوجها فى القصر الملكى الفخم الضخم باستوكهولم ، الذى صممه (١٦٩٣ — ٩٧) نيقوديموس تيسين ٠ وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردى (الايطالى) ومارلو (الانجليزى) مجتمعين ، فهو يتغنى غناء شجيا بكراهية الانسان ، ويلقى حتفه بطعنات السلاح فى شجاريحان قضي عليه وهو بعد فى السادسة والثلاثين ٠ وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتى سماها Kunga Skald (١٦٩٧) اشادة بمآثر شارل الحادى عشر ٠ ومات الملك فى تلك السنة ، بعد أن أنقذ وعمر بلدا كاد يدمره من بعده ابنه الأشهر منه ٠

وكان هذا الابن ، شارل الثانى عشر ، قد بلغ الخامسة عشرة ٠ ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد ، فقد دُرّب أولا وقبل كل شيء على فنون القتال ٠ فهيأته العابه كلها للأعمال العسكرية، وتعلم الرياضيات فرعا من العلوم الحربية ، وقرأ من اللاتينية ما يكفيه

لأن يستوحى من سيرة الاسكندر التى كتبها كنتوس كورتيوس طمـــوح التفوق فى السلاح ان لم يكن الطموح لغزو العالم . واذ كان فارع القامة ، وسيما ، قويا ، لا يثقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم ، فقد استمتع بحياة الجندى ، وتجلد لما فيها من حرمان ، وهزأ بالخطر والموت ، وتطلب هذه الصلابة عينها فى جنده . ولم يأبه كثيرا بالنســـاء ، فلم يتزوج قط وان خطبت وده الكثيرات . وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة خشبية ثقيلة لا أكثر ، ويركب خيله بسرعة طائشة ، ويسبح فى ميـاه تغطى الثلوج نصفها ، ويلتذ المعارك الزائفة التى كاد هو وأصـــدقاؤه يلقون حتفهم فيها غير مرة . وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية بعض فضائل الخلق والعقل : صراحة تزدرى الاعيب الدبلوماســـية ، واحساس بالشرف تشوبه لحظات شاذة من القسوة الوحشية ، وعقــل يلتقط لب الأمور لتوّه ، ولا يطيق المداخـل الملتـــوية فى التفكير أو التدبير ، وكبرياء صموت لم يغب عنها قط محتــده الملكى ولم تعترف قط بالهزيمة . وآية ذلك أنه فى حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة نابليون ، ولم يقطع على نفسه يمينا تحدّ من سلطته ، فلما تشكك أحد رجال الدين فى صواب خلع السلطة المطلقـــة على فتى لم يتجـــاوز الخامسة عشرة ، حكم عليه شارل أولا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى السجن المؤبد .

كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى ، تحكم فنلنده ، واينجريا ، واستونيا ، وليفونيا ،وبومرانيا ، وبريمن ، وكانت تهيمن على البلطيق وتقوم سدا حائلا بين روسيا وبين ذلك البحر . ورأت روسيا ، وبولنده ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، فى حداثة سن ملك الســـويد فرصة لمد حدودها دعما لتجارتها ومواردها . وكان « العامل الهدّام » فى هذا الحل الجغرافى فارسا ليفونيا يدعى يوهان فون باتكول ، انخرط فى سلك الجيش السويدى بوصفه من رعايا السويد ، وارتقى الى رتبـــة النقيب . وفى ١٦٨٩ و ١٦٩٢ احتج بشدة على « اختزال » شارل الحادى عشر لضياع النبلاء فى ليفونيا ، فاتهم بالخيانة ، وفر الى بولنده ، ثم التمس من شارل الثانى عشر أن يعفو عنــه فرفض ، وفى ١٦٩٨ اقترح على أوغسطس الثانى ملك بولنده وسكسونيا تأليف حلف ضد السويد من بولنده ، وسكسونيا ، وبراندنبورج ، والدنمـــرك ، وروســـيا . ورأى

أوغسطس أن الخطة جاءت فى أوانها ، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول فى حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (٢٥ سبتمبر ١٦٩٩) . وذهب باتكول الى موسكو . وفى نوفمبر وقع بطرس الأكبر مع مبعوثى سكسونيا والدنمرك اتفاقا لتقطيع أوصال السويد .

٢ ـ بولنده وسوبيسكى : ١٦٤٨ ـ ٩٩

فى مستهل هذه الحقبة أثر حدثان تأثيرا عميقا فى تاريخ بولنده ففى ١٦٥٢ هزم عضو واحد من أعضاء البرلمان البولندى Sejm للمرة الأولى قانونا بممارسته حق « الفيتو المطلق » ، الذى كان يسمح لأى نائب فى ذلك البرلمان بابطال قرار أية أغلبية . ذلك أن النظام فى الماضي كان يشترط موافقة جميع الأقاليم قبل اقرار أى قانون ، وكانت أقلية ضئيلة أحيانا تجعل التشريع مستحيلا ، ولكن فردا من الأفراد لم يؤكد الى ذلك الحين الحق فى نقض اقتراح يقبله الباقون كلهم . وقد استطاع « الفيتو المطلق » لنائب واحد أن « ينسف » أو ينهى ثمانى وأربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التى عقدها البرلمان بعد ١٦٥٢ . وقد افترضت الخطة أنه ما من أغلبية تستطيع بحق أن تطغى على أقلية مهما صغرت . ولم يكن مبعثها النظرية الشعبية بل الكبرياء الاقطاعية ، اذ اعتبر كل مالك نفسه سيدا أعلى فى أرضه . وأسفر هذا عن أكبر قدر من الاستقلال المحلى والعقم الجماعى . ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان ، والبرلمان خاضعا للفيتو المطلق ، فقد كانت السياسة القومية المتسقة ضربا من المحال عادة . وبعد تسع سنوات من الفتيو الأول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبوؤة لافتة للنظر ، قال :

« أتمنى على الله أن يتبين أننى نبى كذاب ، ولكنى أقول لكم انكم ان لم تجدوا علاجا لهذا الشر (أى الفيتو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية . سوف يحاول الموسكوفيون ان يقتطعوا بالاتيناتنا الروسية ربما الى الفستولا . وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى . وسوف تلقى النمسا بثقلها على كراكو . وسوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحريات التى تتمتع بها اليوم » (٢) .

وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها تقريبا ٠

وكانت ثورة القوزاق فى أوكرانيا (١٦٤٨) حدثا لا يفوقه فى أهميته التاريخية سوى هذا الفيتو ٠ ذلك أن دمج لتوانيا مع بولنده فى « اتحاد لوبلين » (١٥٦٩) أخضع اقليم أوكرانيا ، الذى يجرى فيه نهر الدنيير ، لحكم غلب عليه العنصر البولندى ، وكان أكثر سكان الاقليم من قوزاق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا بالحرب ٠ وحاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض فى أوكرانيا أن يرسوا فيها أسس الأحوال الاقطاعية ، وثبّط الكاثوليك البولنديون ممارسة تلك الحرية التى كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الارثوذكسية ٠ وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر ، وتزعمها حينا زعيم حربى (هتمان) غنى يدعى بوجدان شميلنيكى ، وناصرها تتار القرم المسلمون ٠ وفى ٢٦ مايو ١٦٤٨ دحر التتار والقوزاق الجيش البولندى الرئيسي فى كورسون ، وسرت الحماسة للثورة بين الأغنياء والفقراء على السواء ٠

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع فى ٢٠ مايو عرش بولنده فى هذه الأثناء مثارا لنزاع بين النبلاء استمر حتى ٢٠ نوفمبر ، حين اختارت هيئة الديت الانتخابية جون الثانى كازيمير ٠ أما شيملنيكى فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيوش البولندية المعززة الا بقبول المعونة والسيادة الأجنبيتين ، فاختار الاستنجاد بروسيا الأرثوذكسية ٠ وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس ، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهى عليمة بأن معناه الحرب مع بولنده ، وبمقتضى « قانون بيريياسلاف » ١٨ يناير ١٦٥٤ ، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسي ٠ وكفل للاقليم الاستقلال الذاتى تحت حكم زعيم حربى ينتخبه القوزاق ويصدق على انتخابه القيصر ٠

وفى الحرب التى تلتذلك بين بولنده وروسيا، حول تتار القرم الذين آثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية ـ حولوا معونتهم من القوزاق الى البولنديين ٠ وفى ٨ اغسطس ١٦٥٥ استولى الروس على فلنو ، وذبحوا آلافا من الأهالى، وأحرقوا المدينة وسووها بالتراب٠ وبينماكان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية ، قاد شارل العاشر

جيشا سويديا الى غربى بولنده واستولى على وارسو (٨ سـبتمبر) • وانهارت المقاومة البولندية • وأعلن النبـلاء البولنـديون ، بل حتى الجيش البولندى ، الخضوع للفاتح واقسموا يمين الولاء له (٣) • وأرسل له كروموبل تهانئه لأنه قبض على أحد قرون البابا (٤) ، وأكد شـارل لـ « حامى الجمهورية » (كروموبل) أنه عما قليل لن يبقى فى بولنده بابوى واحد (٥) ، ومع ذلك وعد بالتسامح الدينى فى بولنده •

على أن خططه أحبطها جيشه الظـافر • ذلك أنه الجيش أفلت زمامه ، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار • وقاوم الحصار دير ياسنا جورا ، القريب من تشستوتشوا ، مقاومة باسلة ، وأثار نجاحه الذى عد من المعجزات حماسة الجماهير الدينية ، وأهاب الكهنة الكاثوليك بالأمة أن تطرد الغزاة الكفار ، وبادر الفلاحون الى امتشاق الحسام ، ففرت الحامية التى تركها شارل فى وارسو أمام الحشد الزاحف وأعيد كازيمير الى عاصمته (١٦ يونيو ١٦٥٦) وانقلب التتار عـلى روسيا ، ووقعت روسيا هدنة مع بولندة مؤثرة جيرتها على جيرة السويد (١٦٥٦) • وأفضي موت شارل العاشر فجاة الى صلح أوليفا (٣ مايو ١٦٦٠) الذى انهى الحرب بين بولندة والسويد • وفى ١٦٥٩ استؤنف الصراع مع روسيا • وبعد ثمانية أعوام من الفوضي والحملات وذبذبات الولاء القوزاقى ، نالت روسيا بمقتضي صلح أندروسوفو (٢٠ ينـاير ١٦٦٧) سمولينسك ، وكيف ، وأوكرانيا شرقى الدنيبر • وظلت تجزئة أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولنده (١٧٧٢) •

ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولنده (١٦٦٨) بعد أن أرهقتـه الحرب وأضناه الفيتو مطلق ، واعتكف فى نيفير بفرنسا ، وعاش حياة هادئة بين الدرس والصلاة الى أن مات (١٦٧٢) • وخاض خلفه ميخائيل فسنيوفيكى حربا مدمرة مع العثمـانيين ، وبمقتضي صـلح بوكزاكز (١٦٧٢) اعترفت بولندة بالسيادة العثمانية على أوكرانيـا الغربية ، وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلاطين تبلغ ٢٢٠,٠٠٠ دوكاتية • وفى تلك الحرب اكتشفت بولندة عبقرية جان سوبيسكى الحربيـة ، فلمـا مات فسنيوفيكى (١٦٧٣) ، انتخب الديت أعظم ملوك بولنـدة قاطبـة (١٦٧٤) بعد أن ضيّع وقتا ثمينا على عادته •

أما جان هذا ـ الذى يسمى الآن يوحنا الثالث ـ فكان يبلغ الرابعة والأربعين اذ ذاك ٠ وقد حالفه الحظ فى مولده ، لأن أباه كان الحاكم العسكرى لكراكو ، أما أمه فكانت حفيدة القائد البولندى ستانسلاس زولكيفسكى الذى استولى على موسكو فى ١٦١٠ ، وكان حب الحرب يسرى فى دم جان ٠ وبفضل تعليمه فى جامعة كراكو وأسفاره فى المانيا والاراضي المنخفضة وانجلترة وفرنسا ، حيث قضي بباريس قرابة عام ، أصبح رجلا مثقفا فضلا عن بسالته ومهارته الحربيتين ٠ وفى ١٦٤٨ مات أبوه ، عقب اختياره ممثلا لبولنده فى معاهدة وستفاليا ٠ وسارع جان بالعودة الى أرض الوطن ، وانضم الى الجيش البولندى فى قتال الثوار القوزاق ٠ ولما غزا السويديون بولنده ، وفر جان كازيمير ، كان سوبيسكى واحدا من الموظفين البولنديين الذين ارتضوا شارل العاشر ملكا على بولندة ، وظل يخدم عاما فى الجيش السويدى ٠ ولكن حين ثار البولنديون علىالغزاة عاد سوبيسكى الى ولائه القومى، وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء رفعه الى منصب القائد العام للجيوش البولندية فى ١٦٦٥٠ وفى تلك السنة تزوج المرأة الممتازة التى أصحبت نصف حياته والمشكل لسيرته ٠

هذه المرأة ، واسمها ماريا كازيميرا ، التى كان يجرى فى عروقها الدم الفرنسي الملكى ، ولدت فى نيفير عام ١٦٤١ ، وربيت فى فرنسا وبولندة ٠ وفى وارسو يوم كانت فى الثالثة عشرة ألهب حسنها ومرحها عاطفة سوبيسكى وهو فى الخامسة والعشرين ٠ ولكن سعود الحرب ونحوسها أقصته عنها ، فلما عاد وجدها زوجة لنبيل فاسق يدعى جان زامويسكى ٠ واذ كانت ماريا مهملة من زوجها ، فقد قبلت سوبيسكى وصيفا مرافقا ٠ ويبدو أنها حافظت على عهودها الزوجية ، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكى حالما يفسخ زواجها من زامويسكى ٠ على أن الزوج كفاها مئونة هذا الشرط بموته ٠ وما لبث العاشقان أن تزوجا ، وأصبح غرامهما الطويل أسطورة فى التاريخ البولندى ٠ وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى ، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكائهم ، والولع بصنع الملوك أو ارشادهم٠ وقد بدأت ماريا من يوم زواجهاتخطط لكى تبوىء سوبيسكى عرش بولنده ٠

وكان حبها أحيانا حبا لا يقيم وزنا لصوت الضمير كما قد يكون الحب . ففى ١٦٦٩ يبدو أن سوبيسكى قبل المال الفرنسي ليؤيد كردينالا فرنسيا ضد فسنيوفيكى . وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان الى غيره من النبلاء فى مؤامرات تستهدف خلع الملك لانه جبان لا يصلح للدفاع عن بولنده ضد العثمانيين ولا رغبة له فى هذا الدفاع . وقاد بنفسه رجاله الى انتصارات أربعة خلال عشرة أيام . وفى ١١ نوفمبر ١٦٧٣ ، وهو اليوم الذى مات فيه الملك ، دحر سوبيسكى العثمانيين فى خوتين ببسارابيا . وجعله هذا النصر المرشح المنطقى لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء المحدقين به من كل جانب الا لأصلب القتال وأشده تصميما . ولكى يدعم المنطق حضر الى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل . ولعب المال الفرنسي دورا فى انتخابه ، ولكن هذا كان يتفق وسنّة العصر تمام الاتفاق .

ولقد كان ملكا بجسمه وروحه كما كان باسمه . وصفه الأجانب بأنه « من اكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية » فى أوربا ، « له طلعة نبيلة شماء، وعينان تشعان نورا ونارا(٦) » قوى البدن، مثابر على الأنجاب، متطلع العقل متيقظه . وقد حفز حبه الطبيعى للتملك اسراف حبيبته ماريزنيكا ، ولكنه كثيرا ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب جنده من جيبه ، وبيع أملاكه ليشترى لهم البنادق (٧) . وقد استحق كل ما أخذ ، لأنه أنقذ بولنده وأوربا جميعا .

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة فى هدفها ، وهو ردّ العثمانيين الى آسيا ، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم المسيحى الغربى بفيينا . وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع السلطان العثمانى ، ومحاولات الامبراطور أن يزج به فى الحروب التركية ، وكان ليوبولد الأول يأمل اذا وفق فى محاولاته هذه أن تطلق يد النمسا فى تملك الأراضي الدانيوبية أو المجرية التى كانت كل من النمسا وبولنده تدعى الحق فيها لنفسها . وبينما كان سوبيسكى يتحسس طريقه غاضبا وسط هذه المتاهة ، تاقت نفسه لحرية تخطيط السياسة واصدار الأوامر دون أن يكون خاضعا فى كل خطوة للبرلمان والفيتو المطلق . وحسد لويس الرابع عشر والامبراطور على سلطتهما فى اتخاذ القرارات بصورة قاطعة ثم اصدار الأوامر دون ابطاء .

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين ، الذين تقدموا الآن شمالا حتى بلغوا لفوف . وهناك ، وبقوة لا تزيد على خمسة آلاف فارس ، هزم عشرين الف تركى (٢٤ أغسطس ١٦٧٥) . وبمقتضي معاهدة زورافنو (١٧ أكتوبر ١٦٧٦) أكره العثمانيين على النزول عن حقهم المزعوم فى الجزية ، والاعتراف بسيادة بولندة على أوكرانيا الغربية . ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من أوربا . فدعا الامبراطور للانضمام اليه فى حرب ضروس يخوضانها مع الترك ، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تاكيدا بالا يهاجمه لويس الرابع عشر فى الغرب ان أرسل جيوشه الى الشرق ، ورجا سوبيسكى فرنسا أن تعطى النمسا هذا التأكيد ، ولكن لويس الرابع عشر أبى (٨) . وتحول سوبيسكى أكثر فاكثر الى التحالف مع النمسا . فلما حاول العملاء الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فضح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية . وفى رد الفعل التالى ضد فرنسا وقع البرلمان (١ أبريل ١٦٨٣) حلفا مع الامبراطورية ، واتفق على أن تحشد بولنده أربعين الف مقاتل ، والامبراطورية ستين الفا . فاذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو ، خف الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها .

وفى يوليو زحف العثمانيون على فيينا . وفى اغسطس غادر سوبيسكى والجيش البولندى وارسو بهذا الهدف المعلن ، وهو « أن يمضوا الى الحرب المقدسة ، ويردوا بعون الله الحرية القديمة لفيينا المحاصرة ، فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحى المتخاذل (٩) » . وبدا أن أنبل ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جديد . ووصل البولنديون الى العاصمة المحاصرة فى الوقت المناسب ، لأن المرض والجوع كادا يفتكان باكثر المدافعين عنها . وقاد سوبيسكى بشخصه جيشي بولنده والامبراطورية المجتمعين فى معركة من أحسم المعارك فى التاريخ الأوربى (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) . ولقى نصف البولنديين الذين تبعوه فى هذه الحرب الصليبية ـ وعددهم خمسة وعشرون الفا ـ حتفهم فى المعركة أو فى طريقهم اليها .

ثم قفل الى بولنده مكللا بنصر يشوبه شعرر الخيبة . واستقبلته وارسو فخورة به بطلا لأوربا ، ولكن الامبراطور كان قد خيّب آماله فى

تزويج ابنه من ارشيدوقة النمسا . ولكى يؤمن ملكا لابنه حاول فتح ملدافيا ، وانتصر فى جميع المعارك الا معاركه مع الجو والقدر ، وعاد الى بلده صفر اليدين .

ووسط ضجيج السياسة وصخبها ، وفى الفترات التى تخللت الحرب جعل من بلاطه مركز احياء ثقافى . فلقد كان هو نفسه رجلا واسع الاطلاع: درس جاليليو وهارفى ، وديكارت وجاسندى ، وقرأ بسكال ، وكورنيى ، وموليير . ومع أنه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التأييد سياسة للدولة ، فانه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستنت واليهود(١٠) واحبه اليهود كما أحبوا قيصر من قبل . وكان يريد ، وان لم يستطع ، أن ينقذ من الموت رجلا من احرار الفكر أعرب عن بعض شكوكه فى وجود الله (١٦٨٩) (١١) ، وكان هذا أول احراق لمهرطق فى تاريخ بولنده . ثم مضت بولنده فى انجاب شعرائها ، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها الأفذاذ . فنظم فاكلاو بوتوكى ملحمة عن انتصار بولنده فى خوتين ، وكتب فسبازيان كوشوفسكى ملاحم مماثلة ، ومجموعة مزامير بولندية فى نثر شعرى ، أما أندرزى مورزيتن ، فبعد أن ترجم « أمينتا » تاسو و « سيد » كورنيى ، أظهر فى غنائياته تأثير الشعر الفرنسي والايطالى فى بولنده . وقد شجع سوبيسكى التأثير الفرنسي ، لأنه كان معجبا بكل شيء فى فرنسا الا سياستها . واستقدم المصورين والمثالين الفرنسيين والايطاليين ليعملوا فى وارسو ، واستخدم المعماريين ، ولا سيما الأبطاليين منهم ، ليشيدوا قصورا بطراز الباروك فى فيلانوف ، وزولكييف ، وييافوروف . وبنيت الكنائس الفخمة ابان حكمه : كنيسة القديس بطرس فى فلنو وكنيستا الصليب المقدس والراهبات البندكتيات فى وارسو . وأقبل أندرياس شلوتر من المانيا لحفر الزخارف للقصر المبنى فى فيلانوف ، ولقصر كرازنسكى فى العاصمة . ووسط هذه التأثيرات الغربية فى الفن ، غلب التأثير الشرقى فى الملبس والمظهر : العباءة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الألوان ، والشاربان المفتولان الى اعلا كأنهما سيفان أحدبان .

وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب ، وعناد زوجته ، وفشله فى جعل الملك وراثيا فى أسرته . وكان الفيتو المطلق سيفا مصلتا فوق رأسه على الدوام . ولم يستطع أن يصلح من حال الفلاحين ، لأن

سادتهم سيطروا على البرلمان ، ولم يستطع اكراه الأغنياء على دفع الضرائب ، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان ، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبين، لأنهم أبوا أن يكون له جيش دائم. ومات من تبولن الدم فى ١٧ يونيو ١٦٩٦ ، لاكسير القلب كما زعمت الرواية ، بل آسفا على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التى رفعه اليها .

وتخطى الديت ابنه وباع التاج الى فردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا ، الذى تحول فى غير عناء من البروتستنتية الى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثانى ملك بولنده . وكان شخصية عجيبة فى ذاته . ويسميه التاريخ أوغسطس القوى ، لانه كان الرياضي الشديد البأس فى جسمه وفراشه ، وقد نسبت اليه اسطورة انجاب ٣٥٤ طفلا غير شرعى(١٢) . وفى يناير ١٦٩٩ وقع فى كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها فى أوكرانيا الغربية . فلما شعر اوغسطس بالأمان فى الجنوب والشرق ، استمع الى باتكول ، وربط بولنده بحلف مع الدنمرك وروسيا لاقتسام السويد .

٣ - روسيا تتجه الى الغرب : ١٦٤٥ - ٩٩

استطاع كل من المتآمرين الثلاثة أن يختلق عذرا ويدعى استفزازا ما . فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرك ، وغزا بولنده واستولى على عاصمتها ، وكان جوستافس ادولفس قد دعم قوة السويد فى ليفونيا واينجريا دعما أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقا فى البلطيق دون موافقة السويد . أما الدب الروسي الحبيس فكان يحرق الأرم لمرأى المخارج كلها مغلقة فى الغرب ، والمنافذ الى البحر الأسود كلها يسدها التتار والترك . ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا - الى سيبيريا ، وذلك يبدو الطريق الى الشدائد والهمجية . لقد كانت أسباب الراحة ومفاتن الحياة تومىء لروسيا أن تتجه غربا ، وكان الغرب مصمما على أن يبقى روسيا بلدا شرقيا .

وحين اعتلى الكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القياصرة كانت روسيا لاتزال يطغى عليها طابع العصر الوسيط . فهى لم تعرف القانون الرومانى ، ولا انسانية النهضة الأوربية ، ولا اصلاح الحركة

البروتستنتية . وفى عهد الكسيس صيغ القانون الروسي من جديد (أولوزينى ١٦٤٩) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينية . فمثلا ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع انسان الى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج أو يغفل الذهاب الى الكنيسة فى الصوم الكبير . وهذه الجرائم وعشرات غيرها تعاقب بالجلد . وكان الكسيس ذاته متعصبا فى تدينه رغم ما فى طبعه من لطف وسماحة ، وكثيرا ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم فى الكنيسة ، وقد انحنى فى احدى المناسبات الفا وخمسمائة انحناءة (١٣) . وكان يبتهج باطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره ، ولكنه كان يعاقب كل انشقاق سياسي أو دينى عقابا صارما ، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه ، ويسمح لاستغلال الفلاحين وفساد للحكومة أن يستشريا الى درجة أشعلت الثورةفى موسكو، ونوفجورود ، وبسكوف ، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون . وقد الف قوزاقى من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصابة لصوص ، وسلب الأغنياء وقتلهم ، ونصب نفسه سيدا على استراخان وزارتسين (التى اصبحت ستالنجراد) . ثم اقام جمهورية قوزاقية على الفولجا ، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو . وانتهى أمره بأن أسر وعذّب حتى مات (١٦٧١) ، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة .

على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى الى هذه البيئة الوسيطة فقد اقتضت الحروب مع بولنده اتصالات اكثر مع الغرب . واقبل الدبلوماسيون والتجار فى أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم « أوربا » . وشهد نهر دوينا وثغرا ريجا واركانجل تجارة نامية مع الدول الغربية . ودعى الفنيون الاجانب لتطوير المناجم ، وتنظيم الصناعة ، وصنع السلاح . ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حوالى ١٦٥٠ فى أحد أحياء موسكو ، وجلب الالمان والبولنديون مسحة من الادب والموسيقى الغربيين الى هذه المستوطنة ، وزودوا الاسر الروسية بمدرسين خصوصيين للاتينية . وكان لالكسيس نفسه أوركسترا المانى . وقد سمح لوزيره ارتامون ماتفيف باستيراد الاثاث الغربى والعادات الفرنسية ، الى حد اباحة اختلاط النساء بالرجال فى المجتمع ، ولما

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الاكبر الى الكسيس أوصافا للدرامات والأوبرات والباليهات الفلورنسية ، سمح الكسيس ببناء مسرح فى موسكو وبعرض المسرحيات ، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس . وقد سبقت احداها ، وهى « استير » ، تمثيلية راسين التى تحمل هذا الاسم بسبعة عشر عاما . ولما شعر الكسيس انه أذنب باختلافه الى هذه الحفلات التمثيلية ، ذكرها لكاهن اعترافه ، فاباح له هذه المتع الجديدة (١٤) . وتزوج ماتفيف سيدة اسكتلندية تنتمى لأسرة هاملتن الشهيرة ، وقد تبنيا وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا ناريشكينا ، وقد اتخذها الكسيس زوجة ثانية له .

على ان مغامرات التغريب هذه اثارت رد فعل وطنيا ، فشجب بعض الروس الارثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شرا قد يغرى الشباب بالأفكار غير الأرثوذكسية . وأحس الجيل المخضرم أن أى تغيير فى العادات أو الايمان أو الطقوس يزيح حجرا فى بناء المجتمع ، ويقلقل الاحجار كلها ، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خرابا . وكان الدين فى روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة . ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت الى ذلك الحين محدودة جدا ، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التى اعان تكرارها المنوّم على الاستقرار والسلام الاجتماعيين والنفسيين . ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقا حتى يحدث الأثر المنوّم ، وأى تغيير فى التتابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة ، ومن هنا كان لابد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية ، وكل كلمة من كلمات الصلوات ، على حالها كما كانت منذ قرون . وقد وقع خلاف من اشد الخلافات والانقسامات مرارة فى التاريخ الروسي حين ادخل نيكون ، بطريرك موسكو ، على الطقوس بعض الاصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية . فقد دله الاكليريكيون الذين درسوا اليونانية على اخطاء كثيرة فى النصوص التى تستعملها الكنيسة الروسية ، فامر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها ، فمثلا تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك Jisus بدلا من Isus ، وأن ترسم علامة الصليب بثلاثة أصابع لا اصبعين ، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) فى صلاة معينة من اثنتى عشرة الى أربع ، وأن تحطم الأيقونات التى يظهر فيها التأثير الايطالى ويستبدل بها أيقونات تتبع

النماذج البيزنطية . وتقرر بصفة عامة أن يطابق مطابقة أوثق بين الشعائر الروسية وأصولها البيزنطية . وقد أنزلت رتب بعض رجال الكنيسة الروس الذين ابوا قبول هذه التغييرات أو أوقع عليهم الحرم أو نفوا الى سيبيريا . وساءت القيصر أساليب نيكون الدكتاتورية ، فنفاه فى ١٦٦٧ الى دير ناء . وانقسمت الكنيسة الروسية الى حزبين ، فأما الكنيسة الرسمية التى يؤيدها ألكسيس فقد قبلت الاصلاحات ، وأما المخالفون (راسكولنيكى) أو قدامى المؤمنين (ستاروفيرتسي) فقد تطوروا الى هيئة منشقة اضطهدتها الارثوذكسية الجديدة بالنار والحديد . وقد أحرق زعيمهم أفاكوم على الخازوق (١٦٨١) بأمر القيصر فيودور . وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين أنفسهم مؤثرين الموت على دفع الضرائب لحكومة كانت فى نظرهم عدوا للمسيح . وهذه الفوضي الدينية كانت بعض التركة التى ورثها بطرس الأكبر .

ومهد موت الكسيس (١٦٧٦) لصراع عنيف بين أبنائه . فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكى ولدا عليلا يدعى فيودور (المولود فى ١٦٦٢) ، وآخر أعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى ايفان(المولود فى ١٦٦٦) ، وست بنات كانت أكفاهن وأشدهن طموحا صوفيا ألكسيفنا (المولودة فى ١٦٥٧) . وخلف من زوجته الثانية ناتاليا ناروبشكينا ولده الأشهر بطرس (المولود فى ١٦٧٢) . وورث فيودور العرش ، ولكنه مات فى ١٦٨٢ . وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية ، بوصاية أمه ، لما رأوه من عجز ايفان الشديد . ولكن أخوات بطرس لأبيه كن يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها ، فحرضن جنود حامية موسكو (السترلتسي) ، تتزعمهن صوفيا ، على أن يغزوا الكرملين ويصروا على تنصيب ايفان . وناشد ماتفيف ، حاضن ناتاليا ، الجند أن ينسحبوا ، فانتزعوه من قبضة بطرس ، وقتلوه على مرأى من الصبى ذى العشرة الاعوام ، وقتلوا أخوة ناتاليا ونفرا من أنصارها ، وأكرهوا البويار على قبول ايفان قيصرا ، يشاركه بطرس تابعا له ، وصوفيا وصية عليه . ولعل هذه الفظائع أسهمت فى إصابة بطرس بتلك التشنجات التى نغصت حياته فيما بعد ، وهى على أى حال أعطته دروسا لا تنسي فى العنف والوحشية .

واعتكفت ناتاليا مع بطرس فى احدى ضواحي موسكو المسماة بريوبرازينسكى. وحكمت صوفيا البلاد بكفاية. وقد استنكرت عزل النساء فى مساكنهن (التيريم أى الحريم terem) ، وظهرت أمام الناس سافرة، ورأست فى غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون رءوسهم أسفا وحسرة على هذه الوقاحة ، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم أكثر من معظم الرجال المحيطين بها ، وكانت ميالة الى الاصلاح والى الأفكار الغربية ، واختارت رئيسا لوزرائها ، وربما عشيقا لها ، رجلا افتتن بحياة الغرب . وكان هذا الرجل ، وهو الأمير فازيلى جوليتسين ، يكتب اللاتينية ، ويعجب بفرنسا ، ويجمل قصره بالصور وقطع نسيج جوبلان المرسومة ، ويقتنى مكتبة كبيرة تضم كتبا لاتينية وبولندية وألمانية . والظاهر أن قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل فى بناء ثلاثة آلاف مسكن حجرى بموسكو فى سنوات وصايته السبع ، فى حين كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب . ويبدو أنه كان يخطط لعتق أرقاء الأرض (١٥) . وفى عهده الغى الاسترقاق بسبب الدين ، وكفّت الحكومة عن دفن القتلة أحياء ، والغيت عقوبة الاعدام على التفوه بعبارات التحريض . على ان جهوده فى الاصلاح أودى بها فشله فى قيادة الجيش ، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك ، وفى الحالتين أساء ادارة تموين الجند ، فعادوا مهزومين متمردين ، وأعطى سخطهم بطرس الاشارة للقبض على زمام السلطة .

٤ ـ بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه ، ومن معلميه الخصوصيين ، ومن جولاته فى شوارع موسكو . ولم يكن مبكر النضج ، ولكنه كان تواقا الى العمل ، طلعة ، ذكيا ، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب كالساعات ، والاسلحة ، والأدوات . وهفت نفسه الى روسيا تنافس الغرب فى فنون الصناعة والحرب . وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنين ـ كبناء القلاع ، ومهاجمتها ، والدفاع عنها . وحلم ببحرية روسية قبل أن يتاح لروسيا الوصول الى بحر لا يتجمد ؛ فبنى قوارب أكبر فأكبر ، حتى اضطر الى رحلة ثمانين ميلا من موسكو ليجد فى بيريسلافل بحيرة يستطيع أن يعوّم فيها أسطوله الصغير .

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة أخت غير شقيقة ، اغتصبت مع فازيلى جوليتسين سلطة ايفان وسلطته • وفى ١٨ يوليو ١٦٨٩ ، انضم بطرس الى ايفان فى الموكب الذى كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو من قبضة البولنديين • ومشت صوفيا فى الموكب على غير ما قضت به التقاليد • فأمرها بطرس ، وقد بلغ الآن السابعة عشرة ، أن تنسحب ، ولكنها أصرت على السير ، فغادر المدينة غاضبا ، وبحث عن حلفاء ضد الوصية • فوجدهم فى « البويار » الذين لم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم على الرضي بحكم امرأة ، وفى حامية موسكو (الستريلتسي) ، التىكان رجالها على استعداد للخدع الحربية والاسلاب بعد أن صدتهم صوفيا غير مرة • وحرك بوريس جوليتسين ، ابن عم الوزير ، الانقلاب بارساله رسالة مزورة الى بطرس زعمت أن صوفيا تدبّر القبض عليه • وفر بطرس وتبعته أمه ، وأخته ، وزوجته التى تزوجها مؤخرا ، الى دير ترويتسكو — سرجيفسكايا ، على خمسة وأربعين ميلا من موسكو • ومن هناك أرسل الأوامر لكل كولونيل فى الحامية بالذهاب الى الدير المذكور • ونهتهم صوفيا عن الذهاب ، ولكن كثيرين ذهبوا • وسرعان ما أقبل زعماء الأشراف ، ثم يواقيم بطريرك موسكو • واستدعى فازيلى جوليتسين ، فخضع ، ونفى الى قرية قريبة من أركانجل • وقبض على نفر من مؤيدى صوفيا ، وعذب بعضهم ، وأعدم آخرون • وكتب بطرس لأيفان يستأذنه فى تقلد زمام الحكم ، فاعطى ايفان الاذن أو افترض أنه أعطاه ، وأمر بطرس صوفيا أن ترحل الى دير للراهبات ، فاحتجت ، وتمردت ، ثم استسلمت • وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين ، ولكن حظر عليها أن تبرح الدير • وفى ١٦ أكتوبر ١٦٨٩ دخل بطرس موسكو ، ورحب به ايفان ، فتقلد زمام السلطة العليا • واعتزل ايفان الحياة العامة فى لباقة ، ومات بعد سبع سنوات •

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم • فترك الحكومة لبوريس جوليتسين المتزمت الرجعى ، وليواقيم ، وغيرهما ، بينما انفق هو كثيرا من وقته فى المستوطنة الأجنبية • وهناك صنع أصدقاء جددا كانوا ذوى أثر قوى فى تطوره • ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسكتلندى ، المقاتل المغامر الذى كان الآن ضابطا فى الجيش الرومي وهو فى الخامسة والخمسين ، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب • ثم فرانسوا

ليفور ، الذى ولد فى جنيف ، وكان الآن لواء فى الرابعة والثلاثين . وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طلعته وسرعة خاطره وأساليبه اللطيفة ، فكان يتناول الطعام معه مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، الأمر الذى أفزع اهل موسكو ، فهم ينظرون الى جميع الاجانب نظرتهم الى المهرطقين الاشرار . وقد فضل بطرس عشرة هذين الأجنبيين على عشرة الروس ، لأنه رآهما أكثر تحضرا وان لم يقلا عن الروس اسرافا فى الشراب ، وقد فاقا الروس كثيرا فى معارفهما الصناعية والعلمية والحربية ، وكان حديثهما أرقى وملاهيهما أرفع . ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل فى امور الدين ـ فجوردون كان كاثوليكيا ، وليفور بروتستنتيا ـ ووقف فى ابتسام عرابا للأطفال الكاثوليك والبروتستنت على السواء عند جرن المعمودية . ثم تعلم من لغتى الالمان والهولنديين ما يكفى لتحقيق اهدافه .

أما أهدافه هذه فهى أن يجعل روسيا شديدة البأس فى الحرب ، منافسة للغرب فى فنون السلم . لقد تعلم من النزيل الهولندى ، البارون فون كيلر ، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم ببناء السفن الجيدة . وتاقت نفسه لايجاد منفذ الى البحر ، ولبناء أسطول بحرى . ولم يكن له منفذ بحرى الا فى أركانجل ، التى كان يكتنفها الجليد نصف العام . ومع ذلك اتخذ طريقه اليها فى ١٦٩٣ . واشترى سفينة حربية هولندية رأسية فى الميناء ، فلما تغلب على خوفه من البحر وأبحر على هذه السفينة أسكرته الفرحة ، وكتب الى ليفور يقول : « ستقودها أنت ، وسأخدم أنا بحارا بسيطا فيها (١٦) » . وارتدى سترة قبطان هولندى ، واختلط مغتبطا بالبحارة الهولنديين فى حانات الثغر . لقد كان الهواء الملح الذى هب عليه من ذلك البحر البارد نسمة منعشة من الغرب ، من ذلك الاقليم ، اقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن ، الذى كان يناديه فى اغراء يزداد قوة يوما بعد يوم .

وكان هناك طريقان عمليان الى الغرب : أولهما طريق البلطيق الذى تسده السويد وبولنده ، وثانيهما طريق البحر الأسود ، الذى يسده التتار والترك . وكان التتار والترك يسيطران عند آزوف على مصب الدون ، ويغيران المرة بعد المرة على الأراضي الموسكوفية ، ويأسران الروس ـ أحيانا عشرين الفا فى مئة واحدة ـ ليبيعوهم عبيدا فى

الاستانة . وفى ١٦٩٥ أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلهى بالألعاب الى التمرس بالحرب ، وأن يزحف مخترقا السهوب ، ويبحر هابطا الأنهار ، ويهاجم آزوف . واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم - جولوفين ، وجوردون ، وليفور . وعمل بطرس بتواضع مدفعيا برتبة رقيب فى فوج بريوبرازينسكى . وأسيئت ادارة العملية ، وكان الجند سيئى التدريب ، وبعد أربعة عشر أسبوعا من التضحيات أقلع الروس عن الحصار ، وعاد بطرس الى موسكو وهو يقسم ليدربن جيشا أفضل ويعيدن الكرة .

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج . وفى مايو ١٦٩٦ أبحر هابطا الدون على رأس ٧٥٠٠٠ رجل ، واستانف حصار آزوف . وفى يوليو ، ويفضل بسالة قوزاق الدون على الأخص ، استولى الروس على المدينة . وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير فى فورونيز ليعمل فى البحر الاسود . وفى سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الاراضي ، وجنّد العمال ، وجلبت الآلات الأجنبية . وبعث خمسون من أشراف الروس على نفقتهم الى ايطاليا ، وهولنده ، وانجلتره ، ليتعلموا فن بناء السفن . وفى ١٠ مارس ١٦٩٧ تبعهم بطرس .

ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضي الى بلاد تدنسها الهرطقة لافزعتها الفكرة وروعتها . لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلا ومائتى تابع ، يرأسها ليفور ، لتزور « أوربا » وتبحث عن حلفاء ضد الترك . وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعى الا باسم بطرس ميخايلوف ، ويستعمل ختما عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة « رتبتى تلميذ ، وأنا فى حاجة الى معلمين (١٧) » فلما خرج بطرس من روسيا ، لم يدقق فى الاحتفاظ بهذا التنكر ، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث ، والملك وليم الثالث فى انجلتره ، والامبراطور ليوبولد الأول فى فيينا ، بوصفه قيصر روسيا . ولقد صدم أهل القصور ، حتى وهو يسفر عن مقامه الملكى ، بجلافة سلوكه وحديثه ، وبقذارته واهماله ، وبعزوفه عن استعمال السكين والشوكة (١٨) . ولكنه شق طريقه .

ولقيت السفارة المصاعب - التى لم ينسها بطرس قط - فى سفرها الى ريجا مخترقة ليفونيا السويدية . ومن هناك أسرع الى كونيجزبيرج . حيث وقّع مع الناخب معاهدة تجارة وصداقة . وفى براندنبورج درس المدفعية والتحصين على يد مهندس حربى بروسي أعطاه شهادة بتقدمه . وفى كوبنبروجى أقنعته صوفيا ، ناخبة هانوفر الأرملة ، وابنتها صوفيه شارلوت ، ناخبة براندنبورج ، هو وبطانته بالعشاء والرقص معهما وقد وصفته الناخبة الأرملة فيما بعد بهذه العبارات :

« ان القيصر رجل فارع الطول ، دقيق الملامح ، رائع السمت ، له ذهن شديد الحيوية ، وبديهة حاضرة ... وليت عاداته اقل جلافة ... كان مرحا جدا ، كثير الحديث ، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا .... اخبرنا أنه يعمل فى بناء السفن ، وأرانا يديه ، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التى خلفها بهما العمل ... انه رجل شديد الغرابة ... طيب القلب جدا ، نبيل العاطفة الى حد عجيب ... ولم يشرب حتى يثمل فى حضرتنا ، ولكن ما ان بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده فى الشراب ... وهو حساس لمفاتن الجمال ... ولكنى لم أجد فيه ميلا للتودد للنساء ... وفى أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشداتنا عظامنا ، وأبدى القيصر دهشته بقوله ان للنساء الألمانيات عظاما قاسية الى حد رهيب (١٩) » .

ومن كوبنبروجى ، أبحرت السفارة هابطة الرين الى هولنده وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة فى امستردام ، ومضى الى زاندام ، وكانت يومها مركزا كبيرا لبناء السفن (١٨ أغسطس ١٦٩٧) . فقد سمع الكثير ، حتى فى روسيا ، عن مهارة بناة السفن فى هذه المدينة الجميلة . وتعرف فى شوارعها على صانع عرفه فى موسكو ، اسمه جيريت كيست . وطلب اليه بطرس أن يتستر على تنكره ، واقترح ان يسكن كوخ كيست الخشبى الصغير . وهناك مكث أسبوعا يرتدى زى عامل هولندى ، وينفق نهاره فى مراقبة نجارى السفن وهم يشتغلون ، ويجد فى ليله متسعا لمنازلة فتاة تخدم فى حانة الحى . وفى سنوات لاحقة زار جوزف الثانى ونابليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس ، وجمّله القيصر اسكندر الأول بلوحة رخامية ، وكتب شاعر

مولندى على الحائط بيتا مشهورا : لا شيء يصغر فى نظر الرجل العظيم (٢٠) » .

فلما ضاق بطرس بالجموع التى تبعته فى كل خطوة بزاندام ، عاد الى أمستردام وسفارته . وهنا أيضا أصر على التنكر ، ولكنه سمى نفسه الآن « النجار بطرس الزاندامى » . واقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط فى سلك عملها بأحواض السفن فى أوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من أتباعه طوال شهور أربعة ، وعاونوا فى بناء سفينة وانزالها الى الماء . ولم يسمح بأى تفرقة بينه وبين العمال الآخرين ، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم . وكان فى الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن ، وتبين مذكراته مبلغ دقة هذه الدراسات . ووجد متسعا من الوقت لزيارة المصانع ، والورش ، ومتاحف التشريح ، والحدائق النباتية ، والمسارح ، والمستشفيات . وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافى ، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك ، واصطحب بطانته الى مدرج تشريح بويرهافى . ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن ، والعمارة على شينفويت ، والميكانيكا على فان درهيدن . وتعلم كيف يخلع الأسنان ، ولقى بعض مساعديه عنتا من جراء حماسته فى علاج الأسنان . ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم . واشترى فى الأسواق ، وخالط الناس ، وتعجب من حرفهم المتنوعة ، وتعلم أن يصلح ملابسه ويرقع حذاءه . واحتسي الجعة والنبيذ مع الهولنديين فى مشاربهم . وأغلب الظن أن التاريخ لم يشهد رجلا أشوق منه الى تشرب الحياة وتذوقها .

وفى هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره . فوجه برسائله أعمال حكومتها النائبة عنه . واستخدم وأرسل الى روسيا عدة قباطنة بحريين ، وخمسة وثلاثين ملازما ، واثنين وسبعين مرشدا ، وخمسين طبيبا ، وأربعة طباخين ، و ٣٤٥ بحارا . وبعث الى روسيا على عجل ٢٦٠ صندوقا من البنادق ، وقماش القلوع ، والبوصلات ، وعظم الحوت والفلين ، والمراسي ، والعدد ، وحتى ثمانى قطع من الرخام ليشتغل عليها النحاتون الروس (٢١) . ولكن اهتمامه كان يفتر اذا اتصل الأمر بتهذيب العادات ، أو لطائف المجتمع ، أو دقائق الفكر ، ولم يكن لحيه

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات ، وعلى أية حال ، لا ضير فى أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة . أما الآن فمهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية الى روسيا « حتى اذا تمكنا منها تمكنا كاملا استطعنا عند عودتنا الى الوطن أن ننتصر على أعداء يسوع المسيح (٢٢) » وهو يقصد الاستيلاء على الآستانة واطلاق روسيا من سجنها لتعبر البوسفور الى العالم .

وبعد أن قضى فى هولنده أربعة شهور طلب الى وليم الثالث الاذن له بزيارة انجلتره ، شبه متنكر أيضا . وبعث وليم باليخت الملكى ليأتى به ، ووصل بطرس الى لندن فى يناير ١٦٩٨ . ومع أن الوقت كان شتاء فانه زار أرصفة الموانىء والمؤسسات البحرية ، والجمعية الملكية ، ودار ضرب النقود ، ولعله التقى بنيوتن هناك . وقلب ايفلين بيته وهيا أرضه بعناية فى دبتفورد لبطرس وجماعته ، وقد منحت الحكومة الانجليزية السر جون بعد ذلك ٣٥٠ جنيها ليصلح التلف الذى أحدثه الروس . وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب الى فراشه مبكرا ، والاستيقاظ فى الرابعة ، والسير الى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفى فمه « بيبة » . واتخذ ممثلة كبيرة خليلة له ، وقد شكت من ضآلة المال الذى نقدها اياه . وتسلم درجة الدكتوراة فى القانون فى اكسفورد ، وحضر الخدمات البروتستنتية فى لياقة توقع معها القساوسة الانجليز أنه سيحول روسيا الى حركة الاصلاح البروتستانتى . وحاول الأسقف بيرنت التأثير عليه ، فوجده محبا للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز ، وخلص الى أن القيصر « هيأته الطبيعة فيما يبدو لأن يكون نجار سفن أكثر منه ملكا عظيما (٢٣) » .

وأبحر بطرس عائدا الى أمستردام بعد أن أنفق أربعة أشهر فى انجلتره ، وانضم الى بعثته ، وواصل معهم رحلته الى فيينا مرورا بلیبزج ودرسدن (٢٦ يونيو ١٦٩٨) . وعبثا حاول ، طوال شهر نفد خلاله صبره ، أن يضم الامبراطور اليه فى حلف ضد تركيا . وقد تلطف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحلمون بروسيا الكاثوليكية الرومانية . وبينما هو على وشك مغادرة فيينا ، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موسكو تمردت ، وأنها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم . فخف

من فوره الى روسيا ، ولكن قرب كراكو وصله تاكيد بأن الثورة أخمدت. ولبث أربعة أيام فى رافا مع أوغسطس الثانى ملك بولنده . وأدهشه وأبهجه ن يجد ملكا يستطيع أن يباريه فى قوة البدن ، وصيد الوحوش ، والاسراف فى الشراب . وقد أحب أحدهما الآخر ، وتعانقا ، وتناقشا فى أى البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهما ، السويد أم تركيا . وفى ٤ سبتمبر وصل بطرس الى موسكو بعد ثمانية عشر شهرا من رحلة عينت فى رأى ماكولى « حقبة فى التاريخ ــ لا تاريخ بلده فحسب ... بل تاريخ العالم (٢٤) » . لقد اكتشفت روسيا أوربا ، واكتشفت اوربا روسيا . وبدأ ليبنتز يدرس الروسية .

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفيى القرن السابع عشر . انه لم يغتفر قط لحامية موسكو اشتراكهم فى قتل أخواله وماتفيف ، وفى تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة . ولم يكن فى خطته لتنظيم جيش جديد مكان لهذا « الحرس الامبراطورى » المثير للمتاعب . فلما نمى اليه أن صوفيا فاوضتهم من ديرها ليعيدوها الى الحكم ، وأنهم هددوا ليفور وغيره من أهل « المستوطنة الألمانية » ، وأنهم أذاعوا الشائعات بأنه يخون ديانة روسيا فى ولعه بالغرب ، استحال غضبه تشنجا يطلب الانتقام . فامر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليحملهم على الاعتراف بدور صوفيا فى تمردهم ، ولكنهم تجلدوا لأروع ضروب العذاب دون أن يحملوها أى تبعة ، وأمر بتعذيب اتباعها بنفس الهدف والنتيجة . وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهبنة ، وأحكم حبسها فى ديرها ، حيث ماتت بعد ست سنوات . ثم أعدم ألفا من رجال الحامية قتل بطرس منهم خمسة بيده ، وأكره مساعديه على أن يقتدوا به ، ولكن ليفور أبى . وما وافى عام ١٧٠٥ حتى كانت حامية موسكو (السترلتسي) قد اختفت من التاريخ .

وشرع بطرس من فوره فى بناء جيش جديد . وكان الجيش القديم قوامه رجال الحامية ، والمرتزقة الاجانب ، والمجندون من الفلاحين جمعهم الأشراف . فاستبدل بطرس بهذا الخليط جيشا دائما عدته ٢١٠,٠٠٠ مقاتل بتجنيده رجلا من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين ، وألبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية « أوربية » ودربوا على تكتيك الغرب . اما مدة الخدمة لجميع الرتب فهي مدى الحياة . وفضلا عن

هذا دعا بطرس ١٠٠٠٠ر١٠٠ قوزاقي للخدمة . وبنيت السفن على عجل على البحيرات ، والأنهار ، والبحار ، فما وافى عام ١٧٠٥ حتى كان للبحرية الروسية ثمان وأربعون بارجة ، وثمانمائة سفينة أصغر منها ، و ٠٠٠ر٢٨ بحار .

كان هذا كله لا يزال فى طريق التنفيذ ، ناقصا لم يكتمل بعد ، حين جاء باتكول الى موسكو واقترح أن ينضم بطرس الى فردريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثانى ملك بولنده ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق . ورأى بطرس أن كل هذه السفن التى يجرى بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر ، وهى تؤثر البحر المتوسط الدافىء — ولكن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية الى حد يفت فى العضد . وكانت الآستانة عصية على الهجوم ، والنمسا وفرنسا الآن صديقتين للأتراك . فعلى روسيا اذن أن تتطلع الى الباب الآخر ، وأن تلتمس لها منفذا فى الشمال . وكان من سوء التوقيت أن يحضر المبعوثون السويديون الى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كاردس التى تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام . ولكن الجغرافيا والتجارة تهزءان بالمعاهدات . ثم الم يكن ساحل البلطيق بين نهرى نيفا ونارفا — ولايتا اينجريا وكاريليا — من قبل ملكا لروسيا ، ولم يسلم للسويد فى ١٦١٦ الا لأن روسيا كانت فى فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة ؟ فلم لا تسترد القوة ما أخذ بالقوة ؟ وعلى ذلك ، ففى ٢٢ نوفمبر ١٦٩٩ انضم بطرس الى الحلف ضد السويد ، واتخذ أهبته لشق طريقه الى البلطيق . وفى ٨ أغسطس ١٧٠٠ أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تأمينها ، وذلك بابرامه صلحا مع تركيا . فى ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية .

٥ — شارل الثانى عشر والحرب الشمالية الكبرى :

١٧٠٠ — ٢١

ونمى الى استوكهولم نبأ غامض عن اتفاق الحلف . فالتأم المجلس الملكى ليناقش اجراءات الدفاع . وكان الرأى الغالب وجوب فتح باب المفاوضات مع أحد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه . واستمع شارل

مليا وهو صامت ، ثم انتفض قائما وقال : « أيها السادة ، لقد عقدت النية على ألا أخوض حربا ظالمة ما حييت ولكنى ... لن أنهى حربا عادلة الا بالقضاء المبرم على أعدائى (٢٥) » . ثم طلق كل لهو وترف واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر . وكان جيشه وبحريته مستعدين ، فغادر معهما استوكهولم فى ٢٤ أبريل ١٧٠٠ ليبدأ واحدة من أروع السير الحربية فى التاريخ . ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط .

وبدأ بمهاجمة الدنمرك ، فقد كان عليه أن يحمى ولايات السويد الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولنده وروسيا . ثم قاد سفنه عبر مضيق الساوند – المفترض أنه لا يصلح للملاحة – بما عهد فيه من جرأة وسرعة ، رغم اعتراض أميرال بحريته ، ورسا على سييلاند ، التى لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (٤ أغسطس ١٧٠٠) . وسارع فردريك الرابع ملك الدنمرك الى ابرام صلح ترافندال معه (١٨ أغسطس) خشية أن تسقط عاصمته ، ودفع تعويضا قدره ٢٠٠,٠٠٠ ريال دنمركى ، وأقسم انه لن يهاجم السويد أبدا .

وفى مايو ١٧٠٠ حاول أوغسطس الثانى الاستيلاء على ريجا . ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج ، القائد السويدى البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، والذى اكتسب لقب « فوبان السويد » لمهارته فى فن التحصين . وتقهقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنه بغزوه اينجريا . واستجاب بطرس بأن أمر أربعين الف مقاتل بحصار نارفا . وأراد شارل الثانى عشر أن يساعد دالبيرج ، فنقل جيشه بالبحر الى برناو (بارنو) ، على خليج ريجا ، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل منتصرا ، اتجه شمالا . واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجاة فى مؤخرة جيش بطرس . وأخذ القيصر على غرة ، فبدر منه ما بدا جبنا معيبا ، اذ ترك الجيش (الذى كان يخدم فيه ملازما فقط) ، وفرّ الى نوفجورود وموسكو . وأغلب الظن انه عرف أن مجنديه الغشم سينهارون فى أول امتحان لهم ، ولم يكن فى وسعه أن يترك العدو يأسره ، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حيا منه ميتا . أما الجيش الروسي ، الذى بلغ أربعين الفا ، والذى كان يقوده الامير المجرى كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة ، فقد هزمه جنود شارل الثمانية الآلاف فى موقعة نارفا (٢٠ نوفمبر ١٧٠٠) ، وكانت أول نكسة فى حياة بطرس بعد صباه .

والح القواد السويديون على شارل فى أن يزحف على موسـكو ويجهز على بطرس . ولكن جيش شارل كان صغيرا ، والشتاء حل ، وكل شجاعة ، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب ، لابد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلا عن مشكلة اطعـام الجيش فى أرض معادية . ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبرا على ورق) هل يستطيع أن يركن الى ملك الدنمرك ، أو ملك بولنده ، فى ألا يغزو أحدهما السويد وجيشها الرئيسي وقائدها نائيان عن أرض الوطن ؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها ، سار جنوبا الى بولنده ، واحتل وارسو دون عناء (١٧٠٢) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاما ، وخلع أوغسطس ، ونصب ستانيسلاس لزكزنسكى ملكا على بولنده (١٧٠٤) . لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء ، ولكن الدب الروسي لم يكد يبدأ النزال .

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب ، بل نظم جيشا آخـر وجهزه . ولكى يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار، وصنع ثلاثمائة مدفع ، وأنشئت مدرسة لتدريب رجـال المدفعيـة . وسرعان ما أخذت القوات المجندة الجديدة فى احراز الانتصـارات ، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها فى الاستيلاء على نينسكانس ، عند مصب نيفا (١٧٠٣) ، وهنا شرع القيصر لتوه فى بناء « بطرسبرج » دون أن يدرك الى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه ، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه الى البحر . وبينما كان شارل مشـغولا فى بولنده ، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا . وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة ، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (٢٠ أغسطس ١٧٠٤) ، وثأر المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبة ، وضع لها بطرس حدا فى النهاية بأن قتل بيديه اثنى عشر من الروس المتعطشين للدماء .

وفى بولنده بدا أن انتصار شارل كامل . فقد وقـع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلزكزنسكى رلكا ، وتخلى عن أحلافه ضد السويد ، وأسلم لشارل الرجل الذى نظم الحلف أولا ، فحطم جسـد يوهان فون باتكول على دولاب التعذيب ثم قطع رأسـه (١٧٠٧) . ووجد بطرس نفسه وحيدا أمام هذا الارهاب السويدى الشاب . فحاول

أن يرشو الوزارة الانجليزية لترتب له صلحا ، ولكنهــا رفضــت أن تتدخل • ومضى عامل بطرس رأسا الى ملبره ، فوافق على الوســاطة لقاء امارة فى روسيا (٢٦) ، وعرض عليه بطرس كييف أو فلاديمير أو سيبيريا ، وضمانا من خمسين ألف طالير فى العـــام ، و « ياقوتة ماسية لا يملك نظيرها أى ملك أوربى » (٢٧) ، ولكن هذه المفاوضات أخفقت • وتعاطف الساسة الغربيون مع شارل ، واحتقروا أوغسطس ، وخافوا من بطرس ، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غربا ، فان أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافى (٢٨) •

وفى أول يناير ١٧٠٨ عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مأمون على رأس ٤٤٫٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان • فوصل الى جرودنو فى اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط • ذلك أن رأى القيصر استقر على الدفاع بالعمــق والتخريب • فأمـــر جيوشه بأن تتقهقر ، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد ، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها ، وأمــر الفـــلاحين بأن يخفوا قمحهم فى باطن الأرض أو تحت الثلوج ، ويشتتوا ماشيتهم فى الغابات والمستنقعات • وعهد الى الزعيم القوزاقى ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن « روسيا الصغيرة » وأوكرانيا • وكان مازيبا قد نشيء وصيفا فى البلاط البولندى ، وبأمر من نبيل بولندى أغوى ايفــان زوجتـــه ربط عريانا على حصان أوكرانى وحشي ، وأرهب الحصـــان عمـــدا بضربات سوط واطلاق مسدس عند أذنه (كمــا ســـيروى بيرون) ، واندفع الحصان خلال الأحراج والغابات الى مسارحه الأولى ، ولــكن مازيبا ظل على قيد الحياة وان تمزق لحمه وسال دمه ، وارتقى حتى أصبح زعيما لقوزان زابوروج • وتظاهر بالولاء لبطرس ، ولكنه كـره أوتقراطية القيصر ، وترقب الفرصة للثورة • فلما ســـمع بأن بطرس يتقهقر وشارل يتقدم ، قرر أن فرصته قد حانت • فأرسل الى شـــارل يعرض عليه التعاون معه •

ولعل هذا العرض هو الذى حدا بشارل الى المضي فى زحفـــه المتهور داخل روسيا • وبدأت سياسة « الأرض المحرقة » تؤتى ثمارها، فلم يجد السويديون غير برية متفحمة فى طريقهم وأخذوا يتضورون جوعا • وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا ،

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير فى طريقها . وعلل شارل نفسه بأن مازيبا سينضم اليه بالامداد وقوة قوزاق الدنيبر كاملة ، ولكن بطرس ، الذى توجس من خيانة مازيبا ، جرد جيشا بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه ، وفوجىء الزعيم قبل أن يستطيع ايقاظ فرسانه ، ففر الى شارل عند هوركى جالبا معه ألفا وثلثمائة رجل فقط . وزحف شارل جنوبا ليستولى على عاصمة مازيبا ، واسمها باتورين ، ويأخذ مؤنها ، ولكن منشيكوف سبقه اليها ، وأحرق المدينة وسواها بالتراب ، وعين زعيما مواليا لروسيا . واستعمل بطرس كل سلاح ، فثنى القوزاق عن الانضمام الى السويديين بمنشورات وصفت الغزاة بانهم مهرطقون « ينكرون عقائد الدين الصحيح ويبصقون على صورة العذراء المقدسة » (٢٩) . ولم يبق لشارل من أمل الا فى أن يخف التتار والترك لنجدته انتقاما لاستيلاء بطرس على آزوف .

ولكن أحدا لم يأت ، وكان شتاء ١٧٠٨ - ٩ عدوا رهيبا للسويديين . كان شتاء قارسا جدا فى كل أرجاء أوربا ، فتجمد البلطيق الى عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد ، وفى ألمانيا ماتت أشجار الفاكهة ، وغطى الجليد الرون فى فرنسا ، والقنوات فى البندقية . وفى أوكرانيا كست الثلوج الأرض ، من أول أكتوبر الى ٥ أبريل ، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها ، وتجمد اللعاب فى طريقه من الفم الى الأرض ، وتجمد النبيذ والمسكرات فأصبحت كتلا صلبة ، واستحال اشعال الحطب فى العراء ، وكانت الريح ماضية كالمدى فى هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه الناس . واحتمل جنود شارل فى تجلد صامت بينما لقى ألفان منهم حتفهم جوعا أو بردا . قال شاهد عيان « كنت ترى بعضهم بغير أيد ، وبعضهم بغير أرجل ، وبعضهم بغير آذان أو أنوف ، وكثيرين يزحفون فى سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (٣٠) » وأمرهم شارل بالسير قدما ، أملا فى أنهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسي فى مكان ما ويظفر بروسيا كلها فى نصر ساحق واحد . وكان أينما التقى بالعدو ، فى هولوفكزين ، وسركوفا ، وأوبرسيا ، ينتصر بفضل التفوق فى القيادة والشجاعة ، على قوات كثيرا ما بلغت عشرة أضعاف

قواته . ولكن حين انتهى ذلك الشتاء ، كان جيشه قد تقلص من ٤٤٫٠٠٠ الى ٢٤٫٠٠٠ مقاتل .

وفى ١١ مايو وصل الى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلا جنوب غربى خركوف . هنالك لمح شارل أخيرا جيش بطرس ، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل . وبينما كان فى احدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصة فى قدمه . فلم يعبأ بالجرح . وانتزع الرصاصة فى هدوء بسكينه ، ولكنه حين عاد الى معسكره أغمى عليه ، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه ، وكل بها الجنرال كارل رينسكيول ، وأمره بأن يهاجم العدو فى الغد (٢٦ يونيو) . وفى بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم ، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت امرة شارل . ورغبة فى استنفار جنوده أمر شارل أن يحمل الى ساحة القتال على محفة ، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته . وركب بطرس الى المقدمة رغم أنه مازال رسميا مجرد ملازم فى الجيش ، مستنهضا همم جنده ، ولكن رصاصة مرقت خلال قبعته ، وثانية صدها صليب ذهبى على صدره . وأسعفته الآن سنواته التى أعد فيها المدفعية ودربها ، فكانت مدافعه تطلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون . فلما نضبت ذخيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم ، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوسا منه . أما شارل فقد امتطى جوادا وفر مع مازيبا وألف مقاتل عبر الدنيبر الى أرض تركية . وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، والروس ٤٫٤٣٥ ولكنهم أسروا ١٨٫٦٧٠ فيهم قائدان وضباط كثيرون . وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة ، ولكنه استخدم الأسرى فى التحصينات والأشغال العامة . وأشاد ليبتنر بانسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف فى صف الروس (٣١) . ووافقه بطرس ، وكتب يقول : « الآن بعون الله أرسيت أساسات بطرسبرج وأمنتها الى الأبد (٣٢) » .

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها . فقد فر لزكزنسكى الى الالزاس ، واعتلى أوغسطس الثانى عرش بولنده من جديد . واستولت روسيا على امارات البلطيق وكل أوكرانيا . وعادت الدنمرك

الى الحلف ضد السويد ، وغزت سكانى ، ولكنها ردت على أعقابها . واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجـزء من بومرانيا . وارتفع شأن روسيا وازدادت عزة وكبرياء . وعرض لويس الرابع عشر التحالف مع بطرس ، فرفضه هذا ، ولكنه رضي أن يستقبل مبعوثا للويس .

أما شارل فانه لم يعترف بأنه هزم هزيمة ساحقة . وأغدق الأتراك الشاكرون صنيع أى انسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكى كل أسباب التكريم ، باستثناء الامتيازات الملكية . ففى بندر (وهى اليوم تيغينا) القريبة من الدنيستر ، احتفظ ببلاطه ، وتلقى من السـلطان أحمد الثالث المئونة له ولألف وثمنمائة سويدى بقوا فى خدمته . وحالما التأم جرح قدمه استانف التمرينات العسكرية ودرب جيشه الصـــغير . وشاع عنه أنه اعتنق الاسلام لزهده فى الخمر واختلافه الى الصلاة العامة بانتظام . ولم يدخر وسيلة ليقنع السلطان أو الصدر الأعظـــم بشـن الحرب على روسيا ، وبهذا الأمل رفض أن تعيده الى الســـويد سـفن فرنسية وضعت تحت تصرفه . وبذلت محاولة لتسميمه ، ولكنها كشفت فى أوانها . وطالب بطرس بأن يسلم اليه مازيبا باعتباره مواطنـــا روسيا خائنا ، ولكن شارل أبى أن يسمح بهذا ، وقطع مازيبا العقـدة بأن مات (١٧١٠) .

ان كل انتصار يولد أعداء جددا أو يلهب الأعداء القدامى . وقد استطاع شارل أن يقنع السلطان بأن قـــوة روســـيا المتزايـدة ، التى لا يكبحها الآن كابح فى الشمال ، ستتحدى هيمنة الترك على البحـــر الاسود والبوسفور ان عاجلا أو آجلا . فأعلن السلطان الحـــرب على روسيا ، وجرد عليها ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة الصدر الأعظم . وأخـذ بطرس على غرة ، فلم يستطع أن يحشد أكثر من ٣٨٫٠٠٠ مقاتل فى الجنوب ليصد هذا السيل الجارف . وخذله حلفاؤه البلغار والصرب . فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانيا الشرقى) اضطر بطرس لمنازلة الترك ، لأن الاقليم المحيط به كان قد دمر . ولم يكن لديه غير مئونة يومين . وتوقع الهزيمة والموت ، فارسل تعليماته الى موسكو لانتخاب قيصر جديد اذا تحققت مخـاوفه ، ثم اعتكف فى خيمته ومنع أى انسان من الدخول عليه . ولكن زوجته الثانية كاترين

اتفقت مع قواده على أن الاستسلام خير من الانتحـــار الجمـــاعى . وواجهت غضب بطرس اذ حملت اليه خطابا طلبت اليه التوقيع عليه ، يطلب فيه الى الصدر الأعظم شروط الصلح . ووقع بطرس يائســا . وجمعت كاترين كل مجوهراتها ، واقترضت مالا من الضباط ، وبعثت بطرس شافيروف نائب المستشار ، مســلحا بـ ٢٣٠٠٠٠ روبـل ، ليفـاوض الوزير فى شروط الصــلح . وأخــذ الوزير الروبــلات والمجوهرات ، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتـاده دون عائق ، شريطة أن يسلم آزوف ، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها ويسمح لشارل بالعودة الى السويد فى أمان ، وألا يتدخل بعدهـا فى شئون بولنده . ولم يتردد بطرس فى بذل هذه الوعود (أول أغسطس ١٧١١) وانصرف بجنوده . وأقبل شارل مستعدا لخوض المعــركة ، ولكنه استشاط غضبا حين وجد الصلح أمامه . فحمل الســلطان على طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب ، ولكن شافيروف، الذى حمل معه ٨٤٩٠٠ دوكاتية ، أقنــع الوزير الجــديد بتثبيت معاهدة بروت .

وأعيت السلطان هذه العقد ، فطلب الى شارل أن يرحــل عن تركيا ، ولكنه أبى . فارسل السلطان قوة تركية عدتهـا اثنا عشر الف رجل لاجلائه ، واستطاع شارل بأربعين رجلا أن يصمد لهم ثمــانى ساعات ، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه ، وأخيرا قهـره اثنا عشر أنكشاريا (أول فبراير ١٧١٣) . فنقل الى ديموتيكا قـرب أدرنه ، ولكن سمح له بان يمكث فيها عشرين شهرا بينما كان وزير جديد يفكر فى مقاتلة روسيا . فلما تضاءل هذا الامل وافق شارل على العــودة للسويد . فزود بالحرس العسكريين والهادايا والأموال . وغادر ديموتيكا (٢٠ سبتمبر ١٧١٤) ، وأخترق الأفلاق وترانسلفانيا والنمسا ، وفى منتصف ليلة ١١ نوفمبر وصل الى بومرانيــا وثغــرها وحصــنها سترالسوند ، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة . وكانت هى وفيسمار الى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة .

وكان اصرار شارل قبيل ذلك على حكم الســويد من تركيــا ، ورفضه بذل أى تنازلات لبطرس ، قد جرا الخراب على الامبراطورية

)السويدية ٠ ففى أول أغسطس ١٧١٤ كان جورج ناخب هانوفـر قـد أصبح جورج الأول ملك انجلترة ٠ فلما عقد العزم على استخدام قـوته الجديدة فى ضم بريمين وفيردين الى هانوفر ، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا فى حلف جديد ضد الســويد ، وعزز الأســطول الانجليزى الأسطول الدنمركى فى المضايق ٠ ووجد شارل نفسه حبيسا فى سترالسوند ، فى حرب مع انجلتره ، وهانوفـر ، والدنمـرك ، وسكسونيا ، وبروسيا ، وروسيا ٠ وظل يقاوم الحصار هناك اثنى عشر شهرا بستة وثلاثين الف مقاتل ، يقود حاميته المرة بعد المرة فى هجمات بطولية عقيمة ٠ فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة واسوارها ، ولم يكن مفر من التسليم ، قفز شارل فى سفينة صغيرة ، وأبحر بها وسط نيران العـــدو ، وبلغ كارلســـكرونا على ســاحل الســويد (١٢ ديسمبر ١٧١٥) ٠

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليائس ، ولكنه أبى أن يعود اليها الا قائد ظافرا ٠ فأمر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، وصادر جميع السلع الجـــديدية ليبنى بها أسطولا جـــديدا ، وفرض الضرائب على كل شيء تقريبـــا يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة ٠ فاذعنوا صامتين ، ظنا منهم بانه ربما قد جن ، ولكنه مع ذلك عظيم ٠ وجاهد البارون جيورج فون جورتز ، كبير وزرائه الآن ، ليحطم الحلف ٠ ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الأسلاب ، فحاول أن يعقد صـلحا بين السويد وروسيا ، ويعين ثورة أسرة ســتيوارت فى انجلتره ، ولكن خططه باءت بالفشل ٠ وما وافى خريف ١٧١٧ حتى كان شارل قد حشد جيشا من عشرين ألف مقاتل ٠ فى تلك السنة ، ثم فى ١٧١٨ ، غـــزا النرويج ، أملا فى أن يكسب أرضا تعوضه ما فقد على أرض القارة ٠ وفى ديسمبر حاصر قلعة فريدريكستين ٠ وفى اليوم الثانى عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الأمامى واذا رصاصة نرويجيــة تصيبه فى صدغه الأيمن فترديه قتيلا لفــوره ٠ وكان يومهـــا فى السادســة والثلاثين ٠

لقد مات كما عاش ، مشدوها ببسالته ٠ كان قائدا مغوارا ، كسب انتصارات لا تصدق فى ظروف معاكسة جدا ولكنه عشق الحرب عشـــق

المخمور بها ، ولم يشبع من الانتصـــارات ، وفى ســبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات الى حد أشرف على الجنون . وقد أفسدت الكبرياء كرمه وسماحته ، كان يعطى كثيرا ، ويطلب أكثر ، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت امبراطوريته وماء وجهه . ولكن التـــاريخ يغتفر له أخطـــاءه ، لأنه لم يكن البـــادىء بـ « الحرب الشمالية العظمى » ، هذه الحرب التى أبى أن يختمهـــا الا بالانتصار .

أما الحكومة السويدية ، التى ندر أن جنحت الى التطرف ، فقد سارعت بمفاوضات الصلح . وبمقتضي معـــاهدتى استوكهولم (٢٠ نوفمبر ١٧١٩ و ١ فبراير ١٧٢٠) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر ، وعن ستيتين لبروسيا ، ورفضت أول الأمر مطـــالب بطرس بجميـــع الأراضي السويدية فى البلطيق الشرقى ، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التى استنزفت الحروب دماءها ، وخربت أراضيهـــا الساحلية ومدنها . وأخيرا ، وبمقتضي معاهدة نيستاد (٣٠ أغسطس ١٧٢١) حصلت روسيا على ليفونيا ، واستونيا ، واينجريا ، وجزء من فنلنده . وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة ، وجعل منهـــا « دولة عظمى » .

أما القيصر المكدود ، المكتهل ، الظافر رغم ذلك ، والذى وصل الى بطرسبرج ومعه نبأ السلام ، وهتاف السلام ، السلام « مير ! ميرا!» فقد حياه شعبه أبا لوطنه ، وامبراطورا لأقاليم روسيا كلها ، ولقبـــه ببطرس الأكبر .

الفصل الثالث عشر

بطـرس الأكبـر

١٦٩٨ ـ ١٧٢٥

١ ـ الهمجـى

أراد فولتير « أن يعرف ما الخطوات التى انتقل بهـا الناس من الهمجية الى المدنية (١) » فلا عجب اذن أن أثار بطرس اهتمامه ، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد ، ان لم يكن تلك العملية ، فى بدنه وروحه وشعبه . أو استمع الى ملك « أكبر » آخر ، هو فردريك الثانى ملك بروسيا ، يكتب الى فولتير عن بطرس فى شيء من الخلط :

« لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقـا . ولم يكن مشرع وطنـه فحسب ، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهما تاما . وكان معماريا ، ومشرحا ، وجراحا ... وجنديا خبيرا ، واقتصاديا بارعا .. .. ولم يعوزه الا تعليم أقل همجيـة وضراوة (٢) ليكون المثـل لجميـع الملوك » .

ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجى الضارى ، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء ، مما هز جهـازه العصبى وعـوده الشراسة . وكان حتى فى شبابه يعـانى من تقلص عصبى لاارادى فى عضلاته ربما استفحل بعد ذلك بالأفراط فى الخمر وبالمرض السرى(٣) . كتب بيرنيت بعد أن زاره بانجلتره فى ١٦٩٨ (٤) يقول : « انه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله » . وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر « من المشهور أن هذا الملك ... كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء . وكان ضرب من التشنج يعتريه ، يحدث به فى فترة قد تمتد ساعات حالة من الاكتئاب تجعله لا يطيق النظر الى انسان ولو كان أقرب أصحابه . وكان يسبق هذه النوبة دائما التـواء شديد فى العنق نحو الجانب الأيسر ، وتقلص عنيـف فى عضـلات

الوجه (٥) » • ومع ذلك كان متين البناء قوى البـــدن • وروى أنه حين التقى بأوغسطس الثانى تباريا فى ثنى الأطـــباق الفضـــية فى أيديهما • وقد صوره نيلر عام ١٦٩٨ شابا يتقلد السلاح وشعارات الملك، غاية فى اللطف والبراءة ، بعد ذلك نجده مصورا تصويرا أكثر واقعية، فهو عملاق محدودب ، طوله ستة أقدام وثمانى بوصات ونصف ، ذو وجه تام الاستدارة ، وعينين واسعتين وأنف كبير ، وشعر بنى يتساقط فى خصل لا تقص الا نادرا • ولا تكاد نظرته الآمرة الناهية تنسجم وثوبه المهمل المهوش ، وجواربه الخشنة المرفوة ، وحذاءه المرقع ترقيعـــا بدائيا • ومع أنه نظم أمة بأسرها الا أنه كان يترك محيطة المباشر فى فوضى أينما ذهب • ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقته استغراقا ضن معه على التوافه بأى وقت •

وأما عاداته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تأنق حتى لتحســبه فلاحا لا ملكا ــ لولا أنه كان خلوا من صبر الفلاحين الروس المتبلد • بل لقد كانت عاداته أحيانا أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون • مرة رأى تمثالا لآلة الذكر فى مجموعة عاديات ببرلين ، فأمر زوجته أن تقبله ، فلما رفضت كاترين هددهـا بضرب عنقها ، ولكنها أصرت على الرفض ، ولم يهـــدىء من ثائرته الا تقديم التحفة هدية له يزين بها حجرته الخاصـــة (٦) • وكان فى أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال أنكر الألفاظ وأفحشها • وكثيرا ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة ، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه ، ومرة ركل ليفـــور • وكان ولعـــه بـ « المقالب » يتخذ أحيانا صورا قاسية ، من ذلك أنه ألزم أحـــد مساعديه بأن يأكل السلاحف ، وآخـــر بأن يشرب قـــارورة كاملة من الخل ، وفتيات صغيرات بأن يبتلعن حصة جندى من البراندى • وكان يجد لذة شاذة فى تطبيب الأسنان ، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من الم فى أسنانهم ، فكلابته دائمـا فى متناوله • ولما شكا اليه تابعه من أن زوجته تحتج بألم مزعوم فى ضرسها لتحرمه من متع الزواج ، أرسل فى طلبها ، وخلع لها ضرسا سليما ، وقال لها أن تنتظر المزيد اذا ظلت عزباء (٧) •

ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التى يمكن أن يعتذر عنهـا

بأنها طبيعية أو ضرورية فى زمانه ومكانه . حقـا لقـد ألف الروس القسوة ، ولعلهم كانوا أقل حساسية للألم من ذوى الأعصـاب الأكثـر رهافة ، وربما كانوا فى حاجة الى تاديب صارم ، بيد أن قيام بطرس شخصيا تقريبا بذبح حامية موسكو يوحى بلذة سادية بالقسوة ، وشبق للدماء ، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضي تقطيع اثنين من المتآمرين شرائح حتى يموتا (٨) . لقد كان فى بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان ، وأعوزه ذلك الاحساس بالعدالة الذى كبح نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الأكبر . أما انتهاكاته لوعوده القاطعـة فكانت تنسجم تماما وسنة العصر .

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقـع الحياة . فلقد اضطلع بكل أعباء الدولة ، وبمهمة أخطر بكثير هى مهمة تحويل شعب شرقى الى الحضارة الغربية ، ومن ثم بدا الشراب والقصف مع أصحابه تخففا يستحقه . وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفـلاحين التى تزعم أن الشراب فرحة الروسي . وكان مما يقيس به قدر الرجـل قدرته على احتمال الشراب . وحين كان فى باريس راهـن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب أكثر ، ويظل أثبت جنانا ، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية ، ومضت المباراة ساعة ، فلما تدحرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنـه اليـه لأنه « أنقـذ شرف روسيا (٩) » . وحوالى عام ١٦٩٠ ألف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها « جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين » » (السوبور) . وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكى قيصرا للسوبور ، وقبل بطرس منصـبا أدنى (كما فعل فى الجيش والبحرية) ، وكثيرا ما كان فى الحيـاة الواقعية يتظاهر بان رومودانوفسكى هو قيصر روسيا . وكان « سوبور» السكارى هذا مكرسا رسميا لعبادة باخوس وفينوس ، وكانت له شعائر معقدة ، تقلد فى سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية ، والكثير من هذه الشعائر السـاخرة كان من وضع بطرس نفسه . وشارك السوبور فى كثير من احتفـالات الدولة الرسمية . فلما تزوج بطريركه الهزلى نيكيتا زاتوف ، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاما ، عروسا فى الستين ، صمم بطرس وأدار احتفالا بذيئا مزينا (١٧١٥) ، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنبـا الى جنب مع الدببة والغزلان والتيوس ، ويعزف السفراء على النـاى أو الأرغن اليدوى ، ويدق بطرس على الطبل (١٠) .

كان حبه للفكاهة صخابا لا يعرف القيود ، وكثيرا ما أسف حتى استحال تهريجا . وكان بلاطه يعج بالمهرجين والأقـــزام الذين كانوا عنصرا لا غنى عنه لكل احتفال . وذات مرة ركب القيصر ، الذى ناهز سبعة أقدام طولا وراح يلعب دور جليفر أمام الليليبوتيين ، فى موكب على رأس أربعة وعشرين قزمـــا راكبين . وكان يقتنى فى فترة من الفترات اثنين وسبعين قزما فى بلاطه ، ويقدم بعضهم على المائدة فى فطائر هائلة الحجم . كذلك كان عنده عمالقة ، ولكن أكثرهم أرسـلوا هـــدية لفردريك وليم ملك بروســـيا لينخرطوا فى جيش عمالقتـــه « المسلات » . وقد أهدى الى بطرس عدة زنوج وكان يقــدرهم تقديرا كبيرا ، وبعث بعضهم الى باريس ليتعلموا ، وأصــبح أحـــدهم قائدا روسيا ، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين .

الى الآن صورنا بطرس رجلا ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية ، رجلا من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح ، تواقا الى التحضر ولكنـه يحسد الغرب ـ لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله ، وعلى تجارته وصناعته وثروته . وكانت فضائله موجهة الى هذه الغـــايات باعتبارها مقومات الحضارة . ومن هنا فضوله الذى لا يشبع . فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير ، ثم كيف السبيل الى تسييره ســيرا أفضل . وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجرى هنا وهناك ليرى هذا وذاك حتى أثناء الليل . كان فى غمرة من أفكاره ، فأذهل بذلك ليبنتز ، الذى كان فى غمرة أخرى من أفكاره ، ولكن أفـــكار بطرس كانت نفعية لاخفاء فيها . فقد كان له عقل مفتـــوح لأى شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب . وفى وسط أمة متدينة تدينا عابسا ، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة ، كان مبرأ من التحيز كأنه الطفل أو الحكيم ، يجرب الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، وحتى الالحاد . كان مقلدا أكثر منه مبتكرا ، نقل الأفكار المجلوبة أكثر ممـا تصورها ، ولكن فى محاولته لرفع أمته الى مستوى المنافسة مع الغرب ، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولا ، ثم تحاول التفوق عليه . ان المحاكاة لم تكن قط بمثـــل هـــذه الأصالة .

وقد رفعه تفانيه الدءوب فى سبيل هذا الهدف من الهمجيـة الى

العظمة . واذا كان قد سخر وافنى ملايين الروس لتحقيق غاياته فانه افنى نفسه ايضا فى محاولته اعطاء روسيا جيشا عصريا ، وحكومة اكفأ ، وصناعات أكثر تنوعا وانتاجا ، وتجارة أوسع ، وثغورا تستطيع أن تتصل بالعالم . كان يتوخى القصد فى كل شىء الا الحياة البشرية ، التى كانت السلعة الوحيدة التى تزخر بها روسيا . وكان أول اجراء له تقريبا حين تقلد زمام الحكم أنه طرد جيش الخدم وموظفى القصر الذين غص بهم البيت المالك ، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرابط الملكية ، وأطاح بثلاثمائة من الطهاة وصبيانهم ، وخفض عدد الجالسين الى مائدة الملك حتى فى الأعياد الى ستة عشر على الأكثر ، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية ، وحول الى الدولة المبالغ التى كانت الى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات . وكان أبوه الكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية ١٠ر٧٣٤ ديسياتينا (٢٨ر٩٨٢ فدانا) من الأرض المزروعة وخمسين ألف بيت ، تغل ريعا قدره ٢٠٠ر٠٠٠ روبل فى العام . فنزل بطرس عن هذا كله تقريبا لخزانة الدولة ، ولم يحتفظ لنفسه الا بالميراث القديم لأسرة رومانوف — وهو ثمانمائة « نفس » فى اقليم نوفجورود . وعلى عكس لويس الرابع عشر ، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته فى الواقع الى بضعة أصدقاء ، مع احتفال بين الحين والحين ، غير رسمى وأحيانا صاخب ، ليضفى بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب . وكثيرا ما استحال اقتصاده شحا شديدا . فكان يبخس موظفى قصره أجورهم ، ويقتر فى حساب نفقة القصر اليومية من الطعام ، ولا يدعو أصدقاءه لغداء أو عشاء بل لرحلات خلوية يدفع فيها كل منهم نصيبه ، ولما اشتكت البغايا اللاتى يرفهن عنه من ضآلة أتعابهن أجاب بأنه ينقدهن قدر ما ينقد رامى القنابل اليدوية ، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة .

أما النساء فكن أحداثا عارضة قليلة الخطر فى حياته باستثناء واحد . ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال . نعم كانت له حاجات جنسية ، ولكنه أشبعها دون احتفال . ولم يكن يحب أن ينام وحيدا ، ولكن لا شأن لهذا بالجنس ، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة ، ولعله كان يحتاج الى شخص قريب منه اذا دهمته تشنجاته فى الليل . وحين بلغ السابعة عشرة ، ورغبة فى تهدئة أمه ، تزوج يودوكسيا لوبوخينا ، التى وصفت بأنها « جميلة غبية » ، فلما وجد احدى

الصفتين أكثر دواما من الأخرى أهملها ، وعاد الى أصحابه ومراكبه • واتخذ سلسلة من الخليلات العابرات ، كن فى الكثير الغالب وضيعات الاصل رقيقات الحال • ومرة كان فردريك الثانى ملك الدنمرك يمـزح معه فى أمر اتخاذه محظية فأجـابه بطرس « ياأخى ، ان عاهراتى لا يكلفننى الكثير ، أما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التى تستطيع أن تنفقها فى وجوه أفضل (١١) » • وقد عمل ليفور ومينشـيكوف قوادين له ، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية • ولا بد أن هذه المرأة أوتيت قدرة فذة رفعتها ـ كما رفعت تيودورا خليلة جستنيان من قبل ـ الى عرش الامبراطورية بعد أن كانت مومسا •

أما هذه المرأة ، التى ستصبح كاترين الأولى ، فقد ولدت حوالى ١٦٨٥ بليفونيا من أسرة وضيعة • ولما تيتمت رباهـا الراعى اللوثرى جلوك خادمة فى مارينبورج ، وعلمها مبادىء المسيحية ولكنه لم يعلمها الأبجدية ، ولم تتعلم القرءاة قط • وفى ١٧٠٢ حاصر جيش روسي يقوده شيريميتيف مارينبورج • فلما يئس قائد الحامية من الدفـاع قرر أن ينسف القلعة وهو فيها • ونمى الى القس جلوك ما نوى القائد ، فأخـذ أسرته وخادمته وفر الى المعسكر الروسي • فأرسل الى موسكو ، ولكن كاترين أبقيت لترفه عن الجنود • وارتقت منهـم الى شيريميتيف ، فمينشيكوف ، فبطرس • فى تلك الحروب والأخطار كان على المـرأة الفقيرة أن تتلطف لتأكل • ويبدو أن كاترين ظلت حينا تخـدم كلا من مينشيكوف والقيصر • وقد أحباها لأنها كانت نظيفة ، بشوشة ، لطيفة، متفهمة ، فهى مثلا لم تصر على أن تكون الخليلة الوحيدة ، ووجـد بطرس فيها ترفيها مرحا بعد ضجيج السياسة أو الحـرب وغضبات المخظيات الغيورات • ورافقته فى حملاته ، وعاشت عيشة الجنـود ، وقصت شعرها ، وافترشت الارض ، ولم تجفل حـين رأت الرجـال يصرعهم الرصاص الى جوارها • فاذا دهمت بطـرس احـدى نوبات تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه ، كانت تتحدث اليه ملاطفه ، وتربته، وتهدىء روعه ، وتدعه ينام وزأسه على صدرها • واذا افترقا كتب الى « كاترينوشكا » حبيبته رسائل تفيض حنانا معابثا ولكنه مخلص • ثم غدت ضرورة لا غنى له عنها • ولم يحل عام ١٧١٠ حتى كانت زوجته فى كل شيء الا شرعا • وولدت له عدة أطفال • وفى ١٧١١ عاونت على انقاذه فى البروث • وفى ١٧١٢ اعترف بها زوجة له علانيـة • وفى ١٧٢٢ توجها امبراطورة •

وكان تأثيرها عليه طيبا من نواح كثيرة • فهذه الصبية الفلاحة هذبت من طباع ذلك الملك الفظ • لقد حدت من ولعه بالمسكر ، وفى عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التى يعاقر فيها الخمر ويقصف مع أصحابه وتأمره بهدوء قائلة : « عد الى البيت أيها الأب الصغير » فيطيعها • وكانت تغضي عن مغازلاته بعد الزواج • ولم تبذل محاولة للتأثير عليه فى مجرى السياسة ، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر أمر مستقبلها ، ومستقبل أقربائها ، وأصدقائها • وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضيع بسلوكها مسلك ملاك الرحمة ، ففى حالات عديدة أنقذت أشخاصاً من العقوبات التى أراد بطرس أن ينزلها بهم ، فاذا أصر على الصرامة كان عليه ن يخفى الأمر عنها • وقد استغلت سلطانها عليه ببيع وساطتها ، وبهذه الطريقة جمعت ثروة فى الخفاء ، استثمرت بعضها بحكمة تحت أسماء مستعارة فى همبورج أو أمستردام • فهل نلومها لأنها نشدت شيئا من الضمان فى زمن كل شيء فيه رهن بنزوة رجل واحد ، وكل روسيا فيه فى تقلب وتغير ؟ •

٢ ـ الثورة البطرسية

ورث بطرس السلطة المطلقة ، وتقبلها قضية مسلمة ، ولم يتطرق اليه قط شك فى ضرورتها • فالحكم بمجلس تشريعى (دوما) من النبلاء (البويار) سيعيد الانفصالية الاقطاعية والفوضي القومية أو الركود ، والحكم بمجلس ديمقراطى مستحيل فى بلد مازال بدائيا من الناحيتين الفكرية والخلقية ، ووافق بطرس كروموبل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحده القادر على تنظيم الخليط البشرى المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمعات الأعداء المتعطشين للأرض • ولم ينظر الى نفسه نظرته الى حكم مستبد بل الى خادم للأمة ومستقبلها ، وكان هذا الى حد كبير ايمانا مخلصا ، نصف صادق على الأقل •

ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين فى مملكته ، فكان عادة يستيقظ فى الخامسة صباحا ويكد أربع عشرة ساعة فى اليوم • لا ينام أكثر من ست ساعات فى الليل ، ولكنه يتقيل • ومثل هذا البرنامج لم يكن بالأمر غير العملى فى صيف سانت بطرسبورج ، حيث النهار يبزغ فى الثالثة صباحا ويستمر الى العاشرة مساء ، أما فى الشتاء

فكان لابد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذى يبدأ حوالى الثالثة عصرا ويستمر الى التاسعة من صباح الغد ٠

وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الأرخميدية لثورة لم تكن موقعا مثاليا لعاصمة دولة نظرا لشدة قربها من الساحل ، ولكنها مع هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلا من البحر ، فى نقطة يتفرع فيها نهر نيفا الى فرعين ، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونستاد التى شادها (١٧١٠) على جزيرة فى مدخل الخليج ٠ أما المدينة نفسها فقد أسست فى ١٧٠٣ على غرار أمستردام ٠ واذ كان الكثير من هذا الموقع تغمره المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعامات - أو فى عبارة روسية حزينة ، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسرا لارساء هذه الأسس وتشييد المدينة ٠ ففى ١٧٠٨ أرسل نحو ٤٠٫٠٠٠ رجل للقيام بهذا العمل ، وفى ١٧٠٩ أرسل ٤٠٫٠٠٠ آخرون ، وفى ١٧١١ أرسل ٤٦٫٠٠٠ ، وفى ١٧١٣ أرسل ٤٠٫٠٠٠ فوق ما سبق ٠ وكانوا ينقدون نصف روبل فى الشهر ، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة ٠ وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا فى البناء يموتون بالآلاف ٠ واذ لم يكن هناك عجلات يدوية ، فقد كان الرجال ينقلون المواد فى قفاطينهم المرفوعة ٠ كذلك صودر الحجر ، فحرم مرسوم صدر فى ١٧١٤ تشييد بيوت بالحجر فى أى مكان بروسيا الا فى سانت بطرسبورج ، أما فى المدينة نفسها فقد أمر كل شريف فى البلاد بأن يبنى له مسكنا من الحجر٠ وفعل الأشراف محتجين ، اذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوا بطرس عشقه للبحر ٠ أما بطرس فكلف بعض مهرة الصناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخا كالأكواخ التى رآها فى زاندام ، بحيطان من جذوع الشجر ، وسقف من الحصباء ، وحجرات صغيرة ٠ وكان يكره القصور ، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية فى بيترهوف (وهى الآن بترودفوريتس) على المشارف الجنوبية للمدينة ٠ وقد دمر هذا « القصر الصيفى » فى الحرب العالمية الثانية ٠ وفى ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهى الآن بوشكين) ، شاد كوخا صيفيا لحبيبته كاتيرينوشكا ٠

ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرسبورج عاصمة بالاضافة الى كونها ميناء ، فقد كانت شديدة القرب الى عدوته السويد ٠

ولكنه قرر اجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارل الثانى عشر فى بلطاوه • وكان تواقا الى الهرب من جو موسكو الكنسي القاتم وروحها القومية الضيقة ، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب • وعليه فقد جعلها عاصمة له فى ١٧١٢ • وحزن أهل موسكو ، وتنبأوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية • كتب بوشكين يقول : « ان موسكو أحنت رأسها أمام العاصمة الجديدة ، كما تنحنى أرملة الامبراطور أمام امبراطورة شابة (١٢) ». لقد كان فى بطرس من شدة الشوق الى تغريب روسيا ما دفعه الى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها اليه جرا ، ثم أمرها أن تتطلع من خلال «نافذته على الغرب ×» • وفى سبيل هذا الهدف ، وفى سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية ، ضحى بكل الاعتبارات الاخرى • صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر فى السنة ، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر • وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنطية ، والفولجا جعلها آسيوية ، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أوربية (١٤) •

وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق الى الغرب • وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه ، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئا . فتلفت أخشابها ، وتحطمت صواريها فى الريح ، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذى حكمت عليها به الجغرافيا ، وهى أن تكون بلدا حبيسا فى اليابس مغلقا دون الاطلنطى ، منتظرا غزو الفضاء ليقفز متجاوزا حواجزه الى العالم • وبهذا المعنى كانت موسكو على حق : فقوة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس ، بجيوشه ورقعته الواسعة • وعليه فقد ثارت موسكو لنفسها فى ١٩١٧ وأصبحت العاصمة من جديد •

أما أعظم اصلاحات بطرس دواما فهو اعادته تنظيم الجيش •

× الظاهر أن هذه العبارة استعملها أول مرة الكونت فرانشسكو الجاروتى فى ١٧٣٩ (١٣) •

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقودهم سادتهم الاقطاعيون الذين لهم عليهم حق الولاء أولا ، وكانوا يفتقرون الى النظام ، ويعوزهم السلاح الجيد . وقد قوض بطرس سلطان النبلاء حين انشأ جيشا دائما مدده من التجنيد الاجبارى ، وعتاده من أحدث أسلحة الغرب ، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودربوا على الهدف الجديد ، هدف خدمة روسيا فى فخر لا خدمة اقليم ضيق واقطاعى بغيض . والضرورة الحربية هى التى أملت على بطرس ثورته ، فما كان فى استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقا الى البلطيق أو البحر المتوسط ، وما كان فى استطاعته أن يفعل هذا بغير جيش عصرى ، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها ، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسي من حيث عاداته وأهدافه وروحه . لقد كان عملا ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد .

وقد استهله على طريقته المندفعة الهوائية بلحى الرجال المحيطين به وزيهم . ففى ١٦٩٨ ، عقب عودته من الغرب ، حلق لحيته الخفيفة ، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حذوه ، باستثناء بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وبعد قليل أرسل مرسوم الى جميع أرجاء روسيا يقضي بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم ، ولهم أن يبقوا على شواربهم . وكانت اللحية أشبه برمز دينى فى روسيا ، أطلقها الانبياء والرسل من قبل ، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطريرك أوريان الجالس على كرسي البطريركية آنذاك حلق اللحى بوصفه عملا مهرطقا خارجا على الدين . وقبل بطرس التحدى : فحلق اللحية سيكون رمزا على الحداثة ، وعلى الرغبة فى دخول الحضارة الغربية . وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجة الماسة الى الاحتفاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغنى . يقول كتاب تاريخ قديم « كان الكثير من شيوخ الروس يحرصون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع فى نعوشهم مخافة ألا يسمح لهم بدخول الجنة بدونه (١٥) » .

وبعد اللحى جاء دور الزى الروسي . هنا أيضا شعر بطرس أن

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزى الغربى . فقطع بنفسه الاكمام الطويلة التى يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش . وقال لأحدهم « انظر ، هذه الاشياء تعوق حركتك . فلا أمان لك فى أى مكان ما دمت تلبسها . تارة تقلب كوبا ، وتارة أخرى تغمسها سـهوا فى الصلصة . أوص بصنع غطاء لحذائك منها (١٦) . وعليه صدر أمـر (يناير ١٧٠٠) يقضي على جميع رجال الحاشية والموظفين فى روسيا باتخاذ الزى الغربى . وكان على الوافدين على موسكو أو الراحلين عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة - وكانوا يرسلونها الى الكاحل - وبين دفع غرامة . كذلك حثت النساء على ارتداء الـزى الغربى ، وكانت مقاومتهن أقل من مقاومة الرجال ، فالنساء فى عالم الازياء دعاة للثورة فى كل عام .

وقضي بطرس على حجاب المرأة الروسية بقدوة أسرته أكثر ممـا قضي عليه بالقوانين . وكان أبوه الكسيس وأمه ناتاليا سباقين فى هذا الطريق ، ثم وسعته أخته لأبيه صوفيا . أما بطرس فقد دعا النسـاء للقاءات اجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن ، ويرقصـن ، ويعزفن ، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين . ثم أصدر المراسيم التى تحظر على الآباء تزويج بنيهم وبناتهم على غير ارادتهم، وتشترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج ، وفى هذه الفترة ينبغى السماح للخطيبين باللقاء المتكرر ، وبفسخ الخطبة ان أرادا . وابتهجت النساء بالخروج من الحريم « التيريم » وبدأن سباقا فى اتخاذ الأزياء الجديدة ، وكان بعض الزيادة فى ولادة الأطفال غير الشرعيين حجة تذرع بها رجال الدين ليقاوموا ثورة بطرس .

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود فى سبيله . ذلك أن رجال الاكليروس أدركوا أن اصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم . فناحوا وولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية فى روسيا ، وخامرتهم الظنون فى ايمانه بأى عقيدة دينية . وسمعوا فى اشـمئزاز شـديد بالتقليدات الساخرة التى كان هو وخلصاؤه يهزأون فيهـا بالطقوس الأرثوذكسية . وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية الى الاديار الشاسعة التى لا حصر لها ، ويشتهى الموارد الهـائلة التى

تتمتع بها هذه المؤسسات . فلما مات البطـريرك أوريان (أكتـوبر ١٧٠٠) ، امتنع بطرس عمدا عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفسه رئيسا للكنيسة على نحو ما فعل هنرى الثامن فى انجلتره ، وتزعم حركة اصلاح دينى فى روسيا . وظل منصب البطريرك شاغرا احدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الارثوذكسية زعيما يتصدى لاصلاحات بطرس . وفى ١٧٢١ ألغى المنصب كله ، وأحل مكانه « مجمعا مقدسا » من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل علمانى . وفى ١٧٠١ نقل ادارة الممتلكات الكنسية الى احدى مصالح الحـكومة ، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية ، وأخضع تعيين الاساقفة لتصديق الحكومة . ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصبين ، وحدت من عدد مراكز صنع المعجزات . وقضي على الرجال ألا يقطعوا على أنفسـهم نذور الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء ألا ينذرن أنفسـهن نهائيـا للرهبنة قبل الخمسين (١٧) . وتقرر الزام الرهبان بالقيام بعمـل نافع . وأجرت الحكومة تعدادا للممتلكات والايرادات الديرية ، وترك بعض الايـراد للأديـار ، وخصص البـاقى لانشـاء المـدارس والمستشفيات (١٨) .

واستسلم معظم الاكليروس لحركة الاصلاح الدينى الروسي هذه ، وهو اصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسها هنرى الثامن . وندد بعض المخالفين ببطرس عدوا للمسيح ، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له . فأمر بالقبض على زعماء هذا التمـرد ، وتصرف معهم بطريقته العادية . فجلد البعض ونفوا الى سيبيريا ، وسـجن البعض مدى الحياة ، ومات أحدهم من التعذيب ، وأحرق اثنان منهم حرقا بطيئا حتى الموت (١٩) .

وفى غير هذا كان بطرس متمشيا مع الغرب فى التسامح الدينى . فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن السـياسة . وفى سانت بطرسبورج ، وبهدف تشجيع التجارة ، سمح ببنـاء الكنائس الكلفنية واللوثرية والكاثوليكية على « النيفسكى بروسبكت » ، الذى أصبح يلقب « مكان التسامح (٢٠) » وحمى الرهبان الكبوشيين الذين دخلوا روسيا ، ولكنه نفى اليسوعيين (١٧١٠) لمثايرتهم الشديدة على

الدعوة لكنيسة روما • وكانت اصلاحات بطرس الدينية بوجه عام أبقى اصلاحاته كلها ، فقد أنهت العصور الوسطى فى روسيا •

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحهــا ، من حكم الكهنة وملاك الأراضي الى حكم الدولة الذى كاد يصل الى حـد التنظيم العسكرى الصارم • فقد أخضـع بطرس النبـلاء لارادته ، وأكرههم على خدمة الشعب ، وأعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية الخدمة الاجتماعية التى تؤدى • فنبتت أرستقراطية جديدة ، تتألف من موظفى الجيش والبحرية ودواوين الدولة • ورأس الحـكومة مجلس شيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك الى عشرين) يعينهم القيصر ، وكان يديرها تسع هيئات أو « كليات » تختص بالضرائب والدخـل ، والمصروفات ، والحسابات والرقابة ، والتجارة ، والصناعة ، والعلاقات الخارجية ، والحرب ، والبحرية ، والقضاء ، وكان حكام الاقاليم الاثنا عشر ، أو « الجوبيرنييا » والمجالس التح تحكم المدن ، مسئولين أمام مجلس الشيوخ • وقسم سكان كل مدينة الى طبقـات ثلاث : التجـار الأغنياء والمهنيين ، والمدرسين والحرفيين ، والاجـراء والعمـال ، والطبقة الاولى وحدها هى التى يجوز انتخابهـا للمجلس البـلدى (الماجسترا) ، والطبقتان الاوليان وحدهما لهمـا حـق التصويت ، ولكن لكل دافعى الضرائب الذكور الحق فى الاشتراك فى اجتمـاعات المدينة • وظهر « المير » أو مجتمع القـرية ، لا بوصـفه مؤسسـة ديمقراطية ، بل هيئة مسئولة بجملتها عن ضريبة الرءوس التى أدخلت فى ١٧١٩ • وحد الاشراف المركزى من الاستقلال المحـلى ، ولم يكن هناك أى تفكير فى النظـم الديمقراطيـة ، لأن التغيير السريع الذى اختطه بطرس لا سبيل الى تحقيقه — ان كان هناك سبيل على الاطلاق — الا بالسلطة الدكتاتورية •

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السـياسة ، لأن مجتمعا زراعيا خالصا لا يمكن أن يحتفظ باسـتقلاله طويلا أمام دول أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح • وقد أورد اقتصادى ألمانى عاصر ذلك العهد رأيا سيثبت صوابه القرنان التاليـان له — وهـو أن الامة التى لا تصدر فى الأكثر غير الخامات والحاصلات الزراعيـة لن تلبث أن

تخضع للدولل المنتجة والمصدرة للسلع المصـــنوعة أولا (٢١) • وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة الا القليل من اهتمـــامه • وبدلا من أن يخفف منرق الأرض طبقه على الصناعة • وقد علم الفلاحين بقـدوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بان يستبدل بالمناجل ذات المقبض القصير sickles مناجـــل ذات مقبضين seythes • وقد الف الروس حرق أراضي الغابات للحصـــول على رماد مخصـب للتربة ، فحظر بطرس هذا العمل ، لأنه احتـــاج لألواح الخشـب لســـفنه ، وللأشجار لصواريه • وأدخل زراعة التبغ ، والتوت ، والكروم ، وافتتح تربية الخيل والغنم فى روسيا •

على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع • وكانت أولى مشاكله توفير الخامات • فشجع نشر التعدين ، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكيتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف أبدوا الجرأة والمهـارة فى التعدين وتشغيل المعادن ، وحث ملاك الأراضي على أن يشـــجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم ، فان قصروا فى هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمى فقط يؤدونه لهم • فما وافى عام ١٧١٠ حتى كفت روسيا عن اســـتيراد الحـــديد ، وقبل موت بطرس كانت تصدره (٢٢) •

تم استقدم مهرة الصناع ومديرى الصناعة الأجانب ، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنـون الصـــناعية • وافتتح انجليزى بموسكو مصنعا لدبغ الجلود وصنع الأحذية ، وأمر بطرس كل مدينــة فى روسيا بأن تبعث وفدا من الحذائين الى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعيها الواطىء والعالى ، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة فى هذه الصناعة بتشغيلهم فى سفن العبيد • ورغبة فى تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها ، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة • وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة • وروع اميرال بحـرى أصحاب التقاليد ، وأبهج القيصر ، بصنعه المقصبات الحريرية • وصنع فـلاح طلاء (لاكيه) يفوق أى نظير له فى « أوربا » باستثناء الطلاء البندقى وقبل أن ينتهى حكم بطرس كان فى روسيا ٢٢٣ مصنعا ، بعضهـــا

لا يستهان بحجمه ، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو ١٦٢ر١ عاملا ، واستخدم أحد مصانع النسيج ٧٤٢ رجلا ، وآخر ٧٣٠ ، ووظفت مؤسسة للتعدين ٦٨٣ شخصا (٢٣) . نعم كان فى روسيا مصانع قبل بطرس ، ولكن ليس على هذا النطاق . وكثير من المصانع الجديدة بدأته الحكومة ثم سلم للأهالى ليديروه ، ولكنهم مع هـذا كانوا يتلقون اعانات من الدولة ، ويخضعون لأشراف دقيق من الحـكومة . وكانت الرسـوم الجمركية المرتفعة الحامية درعا يقى الصناعة الوليدة من المنافسة الأجنبية .

ولجأ بطرس الى تجنيد الرجال قسرا ليزود بهم المصانع . ولم يتوفر من العمال الا القليل ، فحول الفلاحين صناعا طوعا أو كرها . وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأقنان من ملاك الأراضي ويشغلوهم فى المصانع . وزودت المشـاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضي الدولة ومزارعها (٢٤) . وحدث ما يحدث فى معظـم المحـاولات الحكومية للتصنيع السريع ، اذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تتغلب غريزة التملك على العادات والتقاليد ، وتقود العمـال من ميـادين وأساليب عتيقة الى أعمال وأنظمة جديدة . فطورت قنية صناعية ، على كره من بطرس بوجه عام ، وعن عمد من خلفائه . واعتذر بطرس عنها فى مرسوم ١٧٢٣ ، فقال :

« ألا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالاكراه ؟ أما أن الراغبين فى الاشتغال بالصناعة قلة فصحيح ، لأن شعبنا أشبه بالأطفال ، يأبون البدء بتعلم الأبجدية ما لم يكرههم عليها معلموهم . ويبدو لهم هذا التعـلم غاية فى الصعوبة أول الأمر ، ولكنهم ما ان يتعلموها حتى يحمـدوا لمعلميهم صنيعهم ، ونحن نسمع اليوم الكثير من آيات الحمد والشكر على الاصلاحات التى أتت أكلها فعلا ... فعلينا فى مسائل الصـناعة أن نعمل ونلزم ، ونعين بالتعليم (٢٥) » .

ولكن الصناعة لا تتطور الا بتجارة تبيع منتجاتها . ولكى يشجع بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار . وفرض نمـو صناعة كبيرة لبناء السفن فى أركانجل وسانت بطرسبورج . وحـاول انشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية فى سفن روسية ولكنه أخفق

لأن الفلاح الروسي الذى ضربت جذوره فى الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية · وفى داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة · ولكن الأنهار كانت وفيرة ، تغذيها ثلوج الشمال وأمطار الجنوب ، فاذا تجمدت الانهار ففى صلابة تتحمل بفضلها الانتقال شأنها شأن الطرق المجمدة · وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات ـ تصل النيفا والدوينا بالفولجا ، والفولجا بالدون ، فيربط البلطيق والبحر الأبيض بالبحر الأسود وبحر فزوين · وأرسى بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة ، وافتتح فى ١٧٠٨ القناة الموصلة بين النيفا والفولجا ، ولكن كان لا بد أن أن تنقضى عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة ، وقد لقى الألوف من العمال حتفهم فى هذه المحاولة ·

وأكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير فى روسيا · وقد حصل على بعضه باعطاء الحكومة احتكار انتاج وبيع الملح ، والتبغ ، والقار ، والدهون ، والبوتاس ، والراتنج ، والغراء ، والراوند ، والكافيار ، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط · وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ أربعمائة فى المائة ، أما الملح فتواضع ربحه الى مائة فى المائة ، ولكن القيصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة ، فبعد أن أبرم الصلح مع السويد ألغاها بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقالها · وبقيت التجارة الخارجية خاضعة لرسوم التوريد والتصدير ، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين ١٧٠٠ وموت بطرس فى ١٧٢٥ · وكان أكثرها تنقله سفن أجنبية ، وما بقى منها فى أيد روسية كانت تعرقله الرشوة التى استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية ·

أما نظام الضرائب فكان شاملا · فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وادارته · ففرضت الضرائب على القبعات والأحذية ، وخلايا النحل ، والحجرات ، وأقباء الخمور والمؤن ، والمداخن ، والمواليد ، والزيجات ، واللحى · أما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة ، فاستبدل بها

بطرس ضريبة على « الأنفس » أينما وجدت ، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الاكليروس . وارتفعت ايرادات الدولة من ۱٫٤۰۰٫۰۰۰ روبل فى ۱٦۸۰ الى ۸٫٥۰۰٫۰۰۰ فى ۱۷۲٤ — خصص خمسة وسبعون فى المائة منها للجيش والبحرية . ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف فى عهد بطرس ، لأنه لم يستطع مقاومة اغراء الربح المؤقت بغش العملة .

وكان افتقار الجميع — من الملك الى الفلاح — للنزاهة معطلا لسير الاقتصاد ، وجمع الضرائب ، وأحكام القضاء ، وتنفيذ القوانين . وقد قرر بطرس الحكم بالاعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون « الهدايا » ولكن احد مساعديه نبهه الى أنه ان نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتا . ومع ذلك قتل بعضهم . من ذلك أن الأمير ماتفى جاجارين ، حاكم سيبيريا ، أثرى ثراء صارخا ، فزين تمثاله المصنوع للعذراء بمجوهرات بلغت قيمتها ۱۳۰٫۰۰۰ روبل ، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العذراء ، فلما عرف شنق جاجارين . وفى ۱۷۱٤ قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب ، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج ، ورئيس تموين الدولة ، ورئيس الأميرالية ، وحاكما نارفا وريفيل ، وعدد من أعضاء السناتو . وشنق بعضهم ، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة ، وجدعت أنوف البعض ، وجلد البعض بالعصي . ولما أمر بطرس بوقف الجلد توسل اليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين « اسمح لنا يا أبتاه أن نجلدهم أكثر قليلا لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا (٢٦) » . واستشرى الفساد ، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجائز أن يسرق لولا أن يديه شدتا الى الصليب .

وفى وسط هذا النضال ، نضال ارادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة ، وجد بطرس وقتا حاول فيه احداث ثورة ثقافية أيضا . لقد كان يكره الخرافة ، ويتوق الى أن يحل محلها التعليم والعلم . وكان الروس الى عهده يؤرخون من خلق العالم كما افترضوه ، ويبدأون السنين بشهر سبتمبر . ففى ۱٦۹۹ جعل بطرس

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليوليـــانى ، كما تســـتعمله الدول البروتستنتية ، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير ، وتؤرخ من مولد المسيح . وتذمر الشعب ، فكيف يختار الله منتصـــف الشـــتاء زمانا للخليقة ؟ وانفذ بطرس ما أراد ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجورى ، الذى قبلته أوربا الكاثوليكية فى ١٥٨٢ ، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك « الحيلة البابوية » كان يســلب عدة قديســين أرثوذكس أعيادهم المقدسة .

ووفق القيصر الذى لم يهدأ له بال فى مشروع آخر لا يقل عنتا ، هو اصلاح الأبجدية . ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسـية كانت تســتعمل الأبجدية السلافونية القديمة ، ولكن الطبقات الصناعية والتجـــارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية . فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية . واستورد المطابع واستقدم الطـــباعين من الأراضي المنخفضة ، وبدأ (١٧٠٣) أول جريدة روسية ، وهى « جازيتة سانت بطرسبورج » ، وأمر بنشر كتب فى التكنولوجيا والعلوم ، ومول النشر ، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج ، وأنشأ المحفوظات الروسـية بأن جمع فى المكتبة مخطوطات الاديار وسجلاتها وأخبارها . وفتـــح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الارســـتقراطية . وحاول أن ينشيء فى كل اقليم « مدرسة للرياضيات » ، وفى موسكو أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » على غرار المدارس الألمانيـة لتعليم اللغات والأدب ، والفلسفة ، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طـــول البقاء . وفى ١٧٢٤ نظم أكاديمية سانت بطرسبورج ، وجلب اليهـــا علماء أفذاذا كجوزيف دليل ليعلم الفلك ، ودانيال برنوللى ليعـــلم الرياضيات . وبالحاح من ليبنتز كلف (١٧٢٤) فيتوس بيرنج ، الملاح الدنمركى ، بأن يرأس بعثة الى كمشتكا ليتبين هل آســـيا وامريكا متصلتان طبيعيا . وقد أقلع بيرنج بعد وفاة بطرس .

أما المسرح الروسي فكان على عهد الكسيس لايقـدم غير الحفلات الخاصة . فرخص بطرس مسرحا على الميدان الأحمر وفتحه للجمهور ، واستقدم الممثلين الألمان ، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة ، منهـــا بعض ملاهى موليير . وجلب الموسيقيين الأجانب لتأليف الأوركسترات. وأدخلت فى روسيا السوناتا والكونشرتو ، واتخذت الموسيقى العلمانية

الروسية أشكالا أوربية من تآلف الألحان وامتزاجهـا • وأوصي بطرس بشراء اللوحات والتماثيل ، ولا سيما الايطالية منها ، وجمعهـا هى وغيرها من الآثار الفنية فى متحف للفن فى سانت بطرسبورج فتحـه لجميع الزوار مجانا ، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهـم (٢٧) • ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص بأسلوب الغـرب • وبنيت بعض الكنـائس أيام الكسيس ، ولكن قـل منها ما بنى أيام بطرس • ووجد المعماريون الآن أنه أربح لهم أن يبنوا القصور •

ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التى اقتلعت القديم من جذوره ، فلابد من انقضاء وقت حتى يمكن الاحساس بدفعة بطرس فى الشعر • وقد صدر كتاب جرىء قبل وفاته بعام ، وهو « كتاب الفقر والغنى » بقلم ايفـان بوسوشـكوف الذى وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم ، وظاهر بقوة اصلاحات القيصر • وقد جاء فى الكتاب « من سوء الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده ، ومعه عشرة أشخاص ، فى محاولة رفع الأمة فى حين يحاول الملايين خفضها (٢٨) » • وندد ايفان بظلم الفلاحين ، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية ، وصدم القيصر بأن طلب جمـع ممثلين لجميـع الطبقات ليكتبوا دستورا جديدا ومدونة قوانين لروسيا • وقبض عـلى بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضـعة شـهور ، ومات فى السـجن فى ١٧٢٦ •

٣ - العقابيـل

ازدادت المقاومة لاصلاحات بطرس من سنة الى سنة • ذلك أن الروس ألفوا الفقر ، والعذاب ، والاستبداد ، ولكنهم لم يسبق لهم قط - حتى تحت حكم ايفان الرهيب - أن اثقلوا بمثل هذه الأعباء ، أو دفعوا مثل هذه الضرائب ، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا فى ساحة القتـال فحسب بل فى أشغال السخرة جوعا وبردا واعياء ومرضا • كتب ليفور صديق بطرس المحبوب فى ١٧٢٣ يقول « ان الشقاء يشتد من يوم الى يوم ، والشوارع تمتلىء بناس يحاولون بيع أطفالهم ••• والحـكومة لا تدفع مالا لا للجنود ، ولا لرجال البحـرية ، ولا لموظفى الادارات

الحكومية ، ولا لأحد (٢٩) » . وحير القيصر ازدياد الفقر وسط اصلاحاته ، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة ، وأقام ستين منظمة لتوزيع الصدقات .

ولكن التسول استمر ، والجريمة انتشرت . وكاد يسيطر على الطرق الأقنان الآبقون من الرق ، والجنود والعمال المسخرون الذين هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت . ونظموا أنفسهم أحيانا أفواجا عدتها مئات حاصرت المدن واستولت عليها . ذكر قائد فى ١٧١٨ « ان موسكو مباءة للسطو ، وكل شيء فيها خرب ، وعدد الخارجين على القانون يتضاعف ، واعدام المذنبين لا يتوقف أبدا » . وأقام المواطنون المتاريس فى بعض شوارع موسكو ، وأحاطوا بعض البيوت بأسوار عالية اتقاء اللصوص . وحاول بطرس منع السرقة بالعقاب الصارم ، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم ، وأن تجدع أنوف الساطين على المنازل ، الخ . ولكن هذه العقوبات لم تردع المجرمين . فقد شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك فرق يذكر في نظرهم بين عقوبة الاعدام وبين السجن المؤبد الذى يقضونه راسفين فى أغلال القنية أو السخرة ، واحتملوا أبشع ضروب العذاب بتجلد من ماتت أعصابهم .

واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد عجب الكثيرون أن أحدا لم يقتله . كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة ، ولأنه رفع الطبقات الصناعية والتجارية مقاما وثراء ، وكرهه الفلاحون لأنه سخرهم فى عمل اقتلعهم من أوطانهم ، ومن أسرهم فى كثير من الحالات ، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى جعل المسيح ذاته خادما للحكومة ، وارتاب فيه كل الروس تقريبا لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار « الوثنية » ، وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباته الوحشية . ان روسيا لم ترد هذا التغريب ، انها تمقت الغرب مقتا شديدا ، والاحتفاظ بروحها القومية كان يقتضيها أن تكون « سلافية الميول » ونشبت حركات تمرد يائسة بموسكو ١٦٩٨ ، وبأستراخان فى ١٧٠٥ ، وعلى طول الفولجا فى ١٧٠٧ ، وفى أوقات متفرقة فى أرجاء الامبراطورية وخلال العهد كله .

أما بطرس فقد رمز الى الصراع وزاده حدة بالعودة الى الغرب مرتين . ففى خريف ١٧١١ ذهب الى ألمانيا ليرأس فى تورجو مراسيم زواج ابنه . وهناك استقبل ليبنتز ، الذى اقترح عليه انشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها . وعاد القيصر الى سانت بطرسبورج فى يناير ١٧١٢ ، ولكنه فى أكتوبر ، وسط حملة شنها الى السويد ، استشفى بمياه كارلسباد ، وزار فتنبرج . وأخذه بعض القساوسة اللوثريين الى البيت الذى قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان ، وأروه الحبر على الحائط ، وطلبوا اليه أن يكتب تعليقا عليه ، فكتب « ان الحبر جديد تماما ، فواضح اذن أن القصة غير صحيحة (٣٠) » . وعاد بطرس الى عاصمته الجديدة فى أبريل ١٧١٣ . وفى فبراير ١٧١٦ انطلق الى الغرب مرة أخرى ، فزار ألمانيا وهولندة ، وفى مايو ١٧١٧ بلغ باريس آملا أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر . ولما التقى بطرس بالملك الصبى ذى السبعة الأعوام ، رفعه ليقبله ، وبعد أيام ، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكى ، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعدا السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون. وأنفق فى باريس ستة أسابيع متفرجا ، مستوعبا كل جوانب الحياة فى المدينة ـ السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية . وصوره الرسامان ريجو وناتييه . وزار مدام دمانتنون العجوز فى سان ـ سير . ومن باريس ذهب الى سبا ، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك ، لأنه كان اذ ذاك يشكو عللا كثيرة ـ ولحقت به زوجته كاترين فى برلين . واكتشفت أن له خليلة ، ولكنها اغتفرت ذلك جريا على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوربية . فلما وصل الى سانت بطرسبورج (٢٠ أكتوبر ١٧١٦) واجه أزمة من أسوأ الأزمات فى حياته .

ذلك أن ابنه ألكسيس ، الذى كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدما فى اصلاحاته ، انتهى الى كره الكثير من تلك البدع ، وكره الأساليب التى كانت تفرض بها فرضا . وكان فى بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس . وكان ضيئل الجسم ، هيابا ، ضعيفا ، ولوعا بالكتب ، مخلصا للكنيسة الارثوذكسية ، لأنه ربى على التقوى بينما كان بطرس منطلقا الى الحرب والغرب . وحين بلغ ألكسيس

التاسعة رأى أمه تقضي الى الدير (١٦٩٩) ، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة يتحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع ، وسأل أباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال فى سبيل مدينة نائية كنارفا ، واشمأز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيب سفك الدماء .

وبينما كان بطرس مشغولا ببناء سانت بطرسبورج ، مكث ألكسيس بموسكو ، وأحب كنائسها وأساليب حياتها القديمة . وقد كره تمزيق البطربركية ومصادرة الدولةللممتلكات الديرية. وعلمه كاهن اعترافه أن يدافع عن الكنيسة دائما أيا كان الثمن . وغدا ألكسيس المعبود ومعقد الآمال للجماعات الكنسية والارستقراطية التى أبغضت علمنة بطرس لروسيا وتغريبها ، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذى يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع . وكان بطرس لا يراه الا لماما ، فاذا رآه وبخه عادة ، وضربه أحيانا ، كما فعل حين اكتشف القيصر أن الصبى زار أمه خفية فى ديرها . وأوشك استياء الفتى أن يكون كرها . واعتراف لكاهنه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه . ولم ير اجناتيف فى هذا اثما ، فقال لألكسيس « ان الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته ، لأنه حمل الشعب أحمالا ثقالا (٣١) » .

وفى ١٧٠٨ بعث بطرس ابنه الى درسدن ليدرس الهندسة وفن التحصين . وفى ١٧١١ تزوج ألكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرستينا صوفيا ، أميرة برنزويك ــ فولنفبوتل . ولم يستطع أن يغتفر لها رفضها التخلى عن مذهبها اللوثرى واعتناق المذهب الأرثوذكسي الروسى . واتخذ الخليلات حتى من المواخير ، وأفرط فى الشراب . وعقب أن ولدت له شارلوت طفلا زارها بصحبة مومس (٣٢) . وبعد عام ماتت زوجته وهى تلد (١٧١٥) . واستدعاه بطرس الى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور « اننى لا أضن بحياتى ، ولا بحياة أحد من رعاياى ، ولن استثنيك من هذه القاعدة . فعليك أن تصلح من حالك ، وأن تجعل نفسك نافعا للدولة ، فان لم تفعل حرمتك من الميراث (٣٣) » . وحاول ألكسيس تهدئة ثائرة أبيه بالتخلى عن حقوقه فى العرش ، وقال انه سيقنع بالعيش عيشة هادئة فى الريف . وشعر بطرس بأن هذا ليس حلا . ففى ٣٠ يناير ١٧١٦ كتب الى ألكسيس يقول :

« لا أستطيع تصديق يمينك ... لقـــد قـــال داود ان كل البشر كذابون ، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذوو اللحى الطويلة .. .. فكل الناس يعرفون أنك تكره أعمالى التى اعملها فى ســبيل هذه الأمة ، غير ضنين بصحتى ، وأنك بعد موتى ستقضي عليها ، ولهذا السبب فان بقاءك كما تريد أن تبقى ، بغير وجهة محددة ، ضرب من المحال . وعليه فاما أن تغير من خلقك ، وتصبح دون نفاق خلفى الكفء ، أو تصبح راهبا . فاجبنى فورا .. .. فان لم تفعل عاملتك كما اعامل المجرمين (٣٤) » .

وأشار عليه أصدقاؤه بالرهبانية ، وقال أحدهم ، « ان قلنســوة الراهب لا تسمر فوق انسان ، ففى الامكان خلعهـــا » وكتب الكسيس لأبيه بأنه راغب فى الرهبانية . ولانت قناة بطرس ، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأى . ووصل القيصر الى الغرب (فبراير ١٧١٦) . وفى ٢٩ يونيو نصحت ناتاليا ، أخت بطرس ، الكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه فى حمى الامبراطور . وفى سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوبنهاجن يقول ان نصف العام قد انتهى ، وان على الكسيس أن يدخل الدير فورا ، أو يلحق بأبيه فى الدنمرك مستعدا للخدمة العســكرية . وتظاهر الكسيس بأنه ذاهب الى أبيه ، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ ، ثم انطـــلق لا الى كوبنهـــاجن بل الى فيينا (١٠ نوفمبر) . وهناك التمس من نائب المستشار الامبراطورى أن يحصـــل له على حماية الامبراطور شارل السادس قائلا « ان أبى غضوب محب للثأر الى حد لا يصدق ، وهو لا يرحم أحدا ، ولو ردنى الامبراطور الى أبى لكان فى هذا حتفى (٣٥) » . وأرسله نائب المستشار الى قلعـــة ابرنبيرج بالتيرول . وهناك ظل مختبئا متنكرا ، تحت الرقابة ولكنــه مزود بكل أسباب الراحة ، وسمح له بالاحتفاظ بخليلته أفروسينيا مرتدية ثياب الوصيف . وتعقبه جواسيس بطرس الى مخبئــه ، وأنذر الكسيس ففر الى نابلى حيث كان تحت الحراسة فى « كاستيل سانتيلمو » . وعثر عليه عملاء بطرس وألحوا عليه فى العودة الى روسيا واثقا من رأفة أبيه به . فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع أفروســينيا معتزلا فى الريف . ووعد بطرس بهذا فى خطاب بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٧١٧ . ورتب الكسيس أن تظل أفروسينيا بايطاليا حتى تضع مولودها . وكان أثنــاء رحلته الطويلة الى روسيا يبعث لها بأرق الرسائل .

ووصل موسكو فى آخر يناير ٠ وفى ٣ فبراير استقبله بطرس فى اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة ٠ والتمس ألكسيس العفو من أبيه وهو جاث ودموعه تسيل ٠ ومنحه بطرس العفو ، ولكنه حرمه من وراثة العرش ، وأعلن ابن كاترين ، بطرس بتروفتش ، البالغ من العمر ثلاث سنين ، وريثا للعرش ٠ وأقسم ألكسيس يمين الولاء لولى العهد الجديد ٠ وعلق بطرس عفوه الآن على شرط ، هو اعتراف ألكسيس بشركائه فى مقاومة اصلاحات أبيه ٠ وورط ألكسيس الكثيرين ، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهم ، ونفى عديدون الى سيبيريا ، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أبشع تعذيب ٠ أما ألكسيس ، الذى ترك حرا فى الظاهر ، فقد أسكن بيتا قريبا من قصر القيصر فى سانت بطرسبورج ، ومنح معاشا سنويا قدره أربعون ألف روبل ٠ وكتب الى أفروسينيا يقول ان أباه يحسن معاملته وأنه دعاه الى مائدته ، وكان يتطلع الى مجيئها ، والى الحياة السعيدة معها فى هدوء الريف ٠

ووصلت فى أبريل ، فقبض عليها فورا ، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحانا صارما ، فانهارت ، واعترفت بأن ألكسيس اغتبط لنبأ حركات التمرد على أبيه ، وأنه أعرب عن نيته حين يعتلى العرش فى هجران سانت بطرسبورج والبحرية ، وخفض عدد الجيش الى ضرورات الدفاع ٠ ولم يكن هذا شرا مما كان بطرس يعلمه من قبل ، فترك ألكسيس طليقا شهرين آخرين ٠ ثم أثارته مفاجآت جديدة لا علم لنا بها ، فأعلن أنه سحب عفوه عن ألكسيس ، لأن هذا العفو افترض اعترافه الكامل ، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل ٠ وفى ١٤ يونيو قبض على ألكسيس وسجن فى قلعة القديسين بطرس وبولس ٠

وفى ١٩ يونيو ١٧١٨ ، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليا ، عذب لأول مرة ، فجلد خمسا وعشرين جلدة ٠ واعترف بأنه تمنى موت أبيه ، وبأن كاهنه قال له « اننا جميعا نتمنى موته » ٠ ثم ووجه بأفروسينيا ، التى أعادت ما قالته للقيصر من قبل ، ومع ذلك أقسم أنه سيحبها حتى الموت ٠ وقال معترفا « شيئا فشيئا أصبح شخص أبى ذاته ، لا كل شيء عنه فحسب ، بغيضا فى عينى » واعترف بأنه لو اقتضاه الامر لاستعان بالامبراطور « فى قهر التاج بالقوة (٣٦) » ٠ وفى ٢٤ يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جلدة لم تنتزع منه مزيدا من

الاعترافات • وقضت المحكمة العليا بأنه مذنب بالخيانة وحكمت عليه بالاعدام • والتمس ألكسيس السماح له بمعانقة خليلته قبل اعدامه ، ولا علم لنا هل أجيب الى طلبه • ولم يوقع بطرس على الحكم • ثم اعيد استجواب ألكسيس مرتين (٢٥ و ٢٦ يونيو) وهو يعذب ، وفى المرة الثانية بحضور القيصر والحاشية ، وقال ليفور فيما بعد « أكدوا لى أن أباه جلده الجلدات الأولى بنفسه ، وان كنت غير واثق من صدق هذا القول (٣٧) » • فى ذلك المساء مات ألكسيس فى سجنه ، والظاهر أن موته كان من آثار تعذيبه • وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن يقطعوا أوردته ، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل ، أهو من أعمال الرأفة به أم الطمع فى سبيل مصلحة ولدها • أما أفروسينيا فنالت نصيبا من ثروة ألكسيس ، وتزوجت ضابطا فى الحرس ، وعاشت حياة مريحة ثلاثين سنة أخرى فى سانت بطرسبورج •

وكان بطرس يأمل أن يربى ابنه من كاترين ليخلفه ، ولكن الصبى مات فى ١٧١٩ • وأنجبت كاترين ولدين آخرين ، بطرس وبولس ، ولكنهما ماتا قبل القيصر • وعزى نفسه بالألقاب الفخمة التى خلعت عليه بعد صلحه مع السويد • وفى ذلك العام ، (١٧٢١) ، خلع مجلس الشيوخ والمجمع المقدس لقب الامبراطورة على كاترين • وبعد أن أمهل بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشيط ، وجه قواته شطر فارس • وكان يرجو أن يستخلص طريق قوافل الى وسط آسيا ، وأخيرا الى الهند ، ويسيطر عليه ، وأخبره مبلغوه أن فى الامكان العثور على الذهب فى الطريق ، وكان سباقا الى توقع الامكانات الصناعية لزيت القوقاز والشرق الأوسط (٣٨) • وفى ١٧٢٢ جرد أسطولا على قزوين لمهاجمة فارس ، فاستولى على باكو وبعض سواحل قزوين الفارسية ، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه ، وانى المرض على جزء من جيشه ، وعاد بطرس من حملة ١٧٢٤ مرهقا ، متشائما ، مشرفا على الموت •

ذلك أنه كان يشكو مرض الزهرى سنوات طويلة (٣٩) ، ويعانى من العقاقير التى تعاطاها للعلاج منه • وزاد ادمانه السكر الطين بله ، واجتمعت عليه انفعالات الحرب ، والثورة ، وحركات التمرد ، وعنف

الأرهاب ، لتنهك جسمه العملاق فى النهاية • وفى نوفمبر ١٧٢٤ قفز الى النيفا المتجمد ليساعد على انقاذ ملاحين على سفينة جانحة • وظل يعمل طوال الليل فى مياه غمرته حتى خصره • وفى الغد أصيب بحمى ، ولكنه شفى منها ، واستأنف برنامجا حافلا بألوان النشاط • وفى ٢٥ يناير لزم فراشه اثر التهاب مؤلم فى المثانة • وأبى أن يسلم بأن منيته دنت حتى ٢ فبراير ، فاعترف ببعض ذنوبه ، وتناول الأسرار المقدسة • وفى السادس من الشهر وقع اعلانا بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة • وقد روع أتباعه بصرخات الألم • وطلب لوحا يكتب عليه وصيته ، ولكن ما ان كتب هاتين الكلمتين « أعطوا جميع » حتى وقع القلم من يده • وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت ستا وثلاثين ساعة ، ولم يفق منها قط • وأذيع نبأ موته فى ٨ فبراير ١٧٢٥ ، وكان يومها فى الثانية والخمسين •

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوسا طويلا رهيبا قد انجاب عن صدرها آخر الأمر • وابتهج ملكا السويد وبولنده ، وتوقعا أن تتردى روسيا فى مهاوى الفوضي ، وتكف عن أن تكون خطرا يهدد الغرب • ورفعت روسيا القديمة ، روسيا العصور الوسطى ، عقيرتها وطلبت عودا الى الماضي • لقد دفعت الامة دفعا مفرطا فى العنف ، وأوذيت فى روحها وكبريائها بهذا التقليد الاعمى للغرب • وانتشرت الرجعية انتشارا واسعا وانتصرت ، وترك الكثير من الاصلاحات ليموت من افتقاره الى التأييد • واختزلت البيروقراطية الادارية ، ولكن اطارها احتفظ بحياته حتى ١٩١٧ ، واستعاد النبلاء الكثير من سلطانهم القديم ، واستردوا حقوقهم فيما تحويه أراضيهم من أخشاب ومعادن • أما الطبقة الصناعية والتجارية التى طفر بها بطرس فقد عادت الى خضوعها الماضي • وانهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص فى الآلات ، أو العجز فى العمال أو الادارة • واضمحلت الرأسمالية الوليدة ، وظلت روسيا الاقتصادية مائتى عام أخرى كما كانت أساسا قبل الثورة البطرسية • أما الاصلاحات التجارية فكانت أوفر حظا ، فاستمرت التجارة مع الغرب فى ازدياد مطرد ، وأثمرت الاتصالات بأوربا شيئا من التهذيب فى السلوك ، ولكن الأزياء الوطنية القديمة

عادت فى عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ - ٩٦) ، وعاد الناس يطلقون لحاهم فى عهد الاسكندر الثانى (١٨٥٥ - ٨١) • واستمر الفساد ، ولم يبد على الاخلاق أنها جنت شيئا من وراء العهد ، ولعل ما ضربه بطرس لشعبه من مثال فى السكر ، والاباحية ، والتوحش ، خلف الشعب أسوأ خلقا من ذى قبل • ولم يبق من التغييرات الا ما ضرب جذوره فى الزمن •

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفرا بحب الناس ، ومع ذلك كان انجازه هائلا • واخفاقاته تنهض شاهدا على قيود العبقرية وحدودها عاملا من العوامل المؤثرة فى التاريخ ، ولكن فى البصمة التى تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية • فلقد أعطى روسيا جيشا وبحرية ، وفتح الثغور التى اتاحت لها الاتجار مع الغرب فى السلع والأفكار ، وأرسي صناعة التعدين وتشغيل المعادن ، وانشأ للمدارس وأسس اكاديمية • وبجذبة وحشية واحدة انتزع روسيا من براثن آسيا وأدخلها أوربا ، وجعلها عاملا مؤثرا فى الشئون الاوربية • فمنذ الآن ستضطر أوربا لأن تحسب حسابا أكثر فاكثر لقلب القارة الشاسع ذاك ، ولتلك الجماهير الصلبة ، الصابرة ، المتجلدة ، ومصيرها المحتوم •

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية المتغيرة
١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ اعادة تنظيم ألمانيا

هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ الى ١٣٥٠٠٠٠٠ . وبعد عام أفاقت التربة التى روتها دماء البشر ، ولكنها ظلت تنتظر مجىء الرجال . وكان هناك وفرة فى النساء وندرة فى الرجال . وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة الى تعدد الزوجات كما ورد فى العهد القديم . ففى مؤتمر فرانكونيا المنعقد فى فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتى : ـ

« لا يقبل فى الأديار الرجال دون الستين ... وعلى القساوسة ومساعديهم (اذا لم يكونوا قد رسموا) ، وكهنة المؤسسات الدينية ، أن ينزوجوا .... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين ، ويذكر كل رجل تذكيرا جديا ، وينبه مرارا من منبر الكنيسة ، الى التصرف على هذا النحو فى هذه المسألة (١) » .

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجات (٢) . وسرعان ما اعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين ، وأصرت الزوجات على ألا يقاسمهن أحد فى رجالهن . واستعاد السكان كثرتهم سريعا ، فما وافى عام ١٧٠٠ حتى ارتفع عددهم ثانية الى عشرين مليونا من الأنفس . وبنبت مجدبورج من جديد ، وبعثت الاسواق الحياة والنشاط فى ليبزج وفرانكفورت ـ أم ـ مين ، وخرجت همبورج وبريمن أقوى مما كانتا . على أن الصناعة والتجارة استغرقتا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذى كانتا عليه فى القرن السادس عشر . فالسويديون والهولنديون يسيطرون على مصاب الأودر ، والألب ، والرين ، والنقل بالمحيط يحدث ركودا نسبيا فى النقل البرى ،

فالطبقات الوسطى قد اضمحلت ،ولم يعد يحكم المدن رجال الأعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم .

وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطة هابسبورج الامبراطورية . ذلك أن فرنسا أذلتها ، وأذلت أسبانيا حليفة الامبراطورية . وغدا الأمراء الألمان فى مجموعهم أقوى من الامبراطور فلهم جيوشهم ، وقصورهم ، وعملتهم ، وهم يفصلون فى سياساتهم الخارجية ، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية ، بل ضد المصالح الامبراطورية . وكان هناك نحو مائتى امارة « زمنية » تستمتع الآن بهذا الاستقلال ، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفه أو أساقفة أو رؤساء ديورة يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ، واحدى وخمسون « مدينة حرة » ، لا تخضع لغير الامبراطور ، وخضوعها له لا يعدو أن يكون صوريا . واغتبطت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة بدلا من ألمانيا الموحدة .

وكانت براندنبورج ، اقليم الحدود الألمانى ، رمزا على الامبراطورية المحتضرة ، وعلى ألمانيا جديدة تتخذ لها شكلا جديدا . فهناك ، وعلى منأى من الامبراطور ، وفى مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة ، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لابقاء لدويلتهم الا بمواردها وقوتها . ففى القرن العاشر كان هنرى الصياد قد اقام « الحد الشمالى للسكسون » على طول الالب حصنا ضد الطوفان السلافى . وانتزع من الوند الصقالبة قلعتهم وعاصمتهم برنيبور (التى اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم الى الأودر . وظلت الاقاليم الواقعة بين الالب والأودر قرونا يتبادلها الألمان والصقالبة . ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولا أنشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن ، فى ١٤١١ - ١٦ ، هى وصوتها الانتخابى فى الديت الامبراطورى . ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا ، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهلم الثانى عن عرشه فى ١٩١٨ . وندر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق ، أو كرست نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية . وعلى عهد الناخب جون سجسموند (١٦٠٨ - ١٩) حصلت براندنبورج على دوقية كليف فى الغرب ودوقية بروسيا الشرقية فى الشرق ، بحيث غدا

اقليم الحدود بشيرا بمملكة بروسيا • وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج وليم (١٦١٩ — ٤٠) ، الذى أدت تقلباته فى حرب الثلاثين الى تدمير براندنبورج على أيدى الجنود السويديين • فهجرت القرى والمدن ، وخربت برلين ، وكادت الصناعة تتلاشي ، وهبط سكان اقليم الحدود من ٦٠٠٫٠٠٠ الى ٢١٠٫٠٠٠ واستطاع فردريك وليم ، الذى ورث هذه التركة الخربة (١٦٤٠) ، أن ينجز خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكم فيها ، معجزة من معجزات التعمير والتنمية ، حتى لقد اعترف له حتى معاصروره بلقب « الناخب الاكبر » • ولولاه لما كان فردريك الاكبر (كما سلم بهذا فردريك الاكبر نفسه) (٣) •

كان يبلغ العشرين حين ولى العرش — فتى وسيما ، أسود الشعر ، أسمر العينين ، يشق طريقه الى السلطة • كان قد نشيء على التقوى والنظام ، وأكمل تعليمه فى جامعة ليدن • وقد سبق بطرس قيصر الروس فى اعجابه بالهولنديين وبشجاعتهم الصامدة وجدهم واجتهادهم ، فاستقدم بعد ذلك ألوفا منهم ليعمروا وطنه المتعطش للسكان • ثم حصل بمقتضي صلح وستفاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة) ، وأسقفيتى مبندن وهالبرشتات ، والحق فى وراثة رآسة أسقفية مجدبورج الهامة ، وقد آلت اليه فى ١٦٨٠ ، واختتم فردريك وليم حكمه بملك مبعثر بدأ حهده ليصبح مملكة • وفى تاريخ مبكر — ١٦٥٤ — اقترح كبير وزرائه ، الكونت جيورج فردريك الفالدكى ، توحيد ألمانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (٤) • وبدا أن فردريك وليم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية • فلما اعتنق أوغسطس القوى أمير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندة فتح الطريق لألمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية — ولم تعترضه سوى قوة السويد •

ذلك أن معاهدات ١٦٤٨ كانت قد تركت نقطا استراتيجية هامة بألمانيا فى قبضة السويد ، وطالبت السويد بزعامة ألمانيا البروتستنتية استنادا الى تضحياتها وانتصاراتها فى حرب الثلاثين • فكيف تستطيع براندنبورج — بروسيا ، بمكوناتها التى تحدق بها الدول المنافسة من أقصي ألمانيا الى أقصاها ، أن تبلغ من القوة والمنعة حدا يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد ، أو تسلط سكسونيا ، الدولة الموحدة

المركزية السلطة ؟ وبدأ فردريك وليم بخطة وارادة همـا أول دعامات الحكم الكفء ، ثم جمع بالضرائب والاعانات الفرنسية المال الذى هـو ثانى دعامات الحكم الكفء ، وبالمال نظم جيشا ، هو ثالث دعامات الحكم الكفء ، فما حـل عام ١٦٥٦ حتى كان له أول جيش دائم فى أوربا ـ عدته ثمانية عشر ألف مقاتل شاكى السلاح ٠ وبهذه الوسيلة من وسائل الاقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع « اشتراكا » سنويا فى نفقات الحكومة المركزية ببرلين ، وبهذه الموارد أصبح مستقلا عن سلطان المال فى المجالس الاقليمية ، وحقق ما كان فى رأيه الشـكل العملى الوحيد للحكومة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسي والفكرى ـ وهو الحكم المطلق المركز ٠ وأعفى النبـلاء من الضرائب المباشرة ، ولكنه ألزم أبناءهم خدمته نبلاء صغارا « يونكر » فى وظائف الجيش والادارة العليا ٠ وكره هؤلاء « الصغار » هذه الخدمـة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتمـاعى المرموق ، ودربهم على الكفاية وعـزة النفس ، وربى فيهـم « روح الفريق » التى حلت محل ولاءات النظام القديم الاقطاعيـة ، والتى جعلت الجيش خادما لا لملاك الأراضي بل للحكومة ٠ وهكذا بدأ الجهاز العسكرى والاجتماعى الذى مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوربا ، والذى أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى ٠

على أن فردريك ولبم أعوزته صفة واحدة ـ هى عبقـرية ملوك السويد الحربية ٠ فقد ظل عشرين عاما ينقل قونه من جانب الأجانب فى صراعات السويد مع بولنده ، والامبراطورية مع فرنسا ، حافظـا بالجهد كيانه بالدبلوماسية ٠ ولكن حين غزا شـارل الحـادى عشر براندنبورج ، برر جيش فردريك وليم وجوده بهزيمته السـويديين فى فيربللين (١٦٧٥) ، وهذا النصر هو الذى أكسبه لقب الناخب الأكبر٠ وفى خاتمة المطاف ، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة ، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض ٠

بيد أن اصلاحاته الاقتصادية والادارية كانت أهم ـ فبفضل حضه حسن الاشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم ٠ وقد طور صناعة ناجحة للحرير بزرعه أشجار التوت على نطاق واسع ٠ وقلب الاتجاه الى اقتلاع أشجار الغابات ، فاشترط على الفـلاحين أن يغرس

كل منهم اثنتى عشرة شجرة قبل أن يتزوج • وصمم ومول شق قنـــاة فردريك وليم لتربط نهرى الأودر وسبرى • ولما ألغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت ، أصدر الناخب الأكبر « مرسوم بوتسدام » (نوفمـــبر ١٦٨٥) الذى دعا الهيجونوت المنكوبين للمجىء الى براندنبـــورج - بروسيا والاقامة فيها ، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها (٥)؛ وجاء عشرون ألفا ، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية ، وألفـــوا خمسة أفواج فى الجيش البروسي • وكان فردريك وليم نفسه ، كما كان سليله فردريك الأكبر ، يكد ويكدح فى الأدارة بهمة لاتنى ، وقد أرسي ذلك المبـدأ الذى قبـــله بعد ذلك القيصر بطـــرس و « المســـتبدون المستنيرون » من حكام القرن الثامن عشر ، ومؤداه أن على الملك أن يكون خادم الدولة المكرس • وقد أدرك أن التعصـب الدينى معطـــل للتطور الاقتصادى والسياسي ، فتفرد فى ألمانيا بأن سمح لشعبه بالبقاء على المذهب اللوثرى فى حين ظل هو على مذهبه الكلفنى ، ومنـــح الحرية الدينية للكاثوليك ، والموحدين ، واليهود •

ومات عام ١٦٨٨ وقد بلغ الثامنة والستين • وكانت وصيته التى قسم فيها ولاياته العديدة بين أبنائه كفيلة بأن تمحو ما أحدثه حكمه من أثر موحد ، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركـزية • واكتسب هذا الخلف - وهو فردريك الثالث - مودة الامبراطور ليوبولد الأول بالانضمام اليه ضد فرنسا ، ومن أجل هذا ، ومن أجل ثمانيـــة آلاف مقاتل ، منحه ليوبولد لقب « ملك بروسيا » • وقد توج باســـم فردريك الأول فى كونجزبرج فى ١٨ يناير ١٧٠١ ، وبدأت بروســـيا مسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية •

ومن المفاخر التى ازدان بها سجل فردريك انشاؤه جامعة هالى ، ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانيـــة فى النهـــوض بلطائف الثقافة والفكر فى برلين • وقد اشتهرت هذه الزوجة ، واسمها صوفيا شارلوت ، ابنة صوفيا ناخبة هانوفر ، بأنهـــا أجمل النســـاء وأذكاهن فى ألمانيا• فجلبت الى بلاط برلين من مقامها الطويل فى باريس مزيجا جذابا من الثقافة والظرف • وبالحاحها والحـــاح ليبنتز ، أنشـــأ فردريك أكاديمية برلين للعلوم ، التى قدر لها أن تصنع التاريخ فى عهد فردريك الثانى • وبنى الناخب لزوجته (١٦٩٦) القلعة أو القصر

(شلوس) الشهير فى الضاحية التى اتخذت اسمها ، شارلوتنبرج . وتوافد على صالونها فى قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة واحرار الفكر واليسوعيون والقساوسة اللوثريون ، وكانت شارلوت تحب أن تحفزهم لخوض المعارك اللاهوتية التى كانت أحيانا تستغرق الليل كله . هناك استوعبت زوجة أخيها ، كارولين ملكة انجلترة ، العلم والفن اللذين ستجفل لهما انجلترة . فلما حضرت الوفاة شارلوت (اذا صدقنا رواية حفيدها فردريك الأكبر) رفضت عروض القساوسة الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من أجلها ، وقالت لهم انها تموت فى سلام ، وانها تشعر بحب الاستطلاع أكثر من الرجاء أو الخوف ، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصل الأشياء « الذى لم يستطع حتى ليبنتنر أن يفسره لى قط » ، وعزت زوجها الشديد الولع بالمراسم بقولها ان موتها « سيتيح له فرصة تشييعها بجنازة فخمة (٦) ». لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم ، حملن ألمانيا والقرن السابع عشر ينزلق الى الثامن عشر .

أما بلاط برلين ، وهو واحد من نيف وثلثمائة بلاط أفنت آنئذ موارد الامبراطورية ، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسونى . وقد خلف أوغسطس القوى ، الذى حكم سكسونيا (١٦٩٤ — ٢٧٣٣) باسم الناخب فردريك أوغسطس الأول ، لأوربا رهطا من الأبناء غير الشرعيين ، ومنهم المارشال دى ساكس الشهير . وجعل عاصمته « أجمل مدينة فى ألمانيا (٧) » ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتها ، ولكن السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه ، واستعماله أموالهم ورجالهم فى حروب بولنده ، وترف بلاطه الباهظ التكاليف .

وقد أسهمت امارة هانوفر الناخبة فى التاريخ فى هذه الحقبة بايوائها ليبنتنر وضمها انجلتره . وفى ١٦٥٨ ، تزوجت صوفيا أميرة بالاتين المخلوعة ، وابنه اليزابيث ستيوارت (ملكه بوهيميا) ، من ارنست أوغسطس ، الذى أصبح ناخب هانوفر . وقد أربك علمها الواسع زوجها ، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة ، وتعرف من التاريخ الانجليزى أكثر مما يعرفه السفراء الانجليز فى بلاطها . وظلت حينا تحتفظ فى هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة . ولكنها كانت تتحرق شوقا للحصول على عرش انجلترة لولدها جورج : كان

دمها يختلج بالملوكية ، لأنها لم تنس قط أنها حفيدة جيمس الأول . وفى ١٧٠١ قرر البرلمان الانجليزى كما رأينا حق وراثة العرش لصوفيا و « ورثتها من دمها شريطة أن يكونوا من البروتستنت » . ونأملت فى سرور مشهد ولدها حين يصبح جورج الأول ، وفى كدر مشهد زوجته صوفيا دوروتيا ملكة له ، وتطلعت فى هدوء الى فسخ زواجهما . واشتبه جورج فى ان تكون زوجته خانته مع الكونت فيليب فون كونجزمارك ، فقتل بأمره ، وطلق صوفيا دوروتيا ، وسجنها من ١٦٩٤ الى أن ماتت فى ١٧٢٦ . وفى غضون هذا ماتت الناخبة الأرملة فى يونيو ١٧١٤ وقد بلغت الرابعة والثمانين ، قبل أن يهبط تاج انجلترة على رأس ولدها بشهرين فقط . وكذلك يتصرف الله الحظ العظيم ، من عرشه الكلى الوجود ، فى المصائر والدول والرجال .

٢ — الروح الألمانية

كان اصطراع الكاثوليكية والبروتستنتية على روح ألمانيا يخفف من غلوائه ، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتية « فياس خلف » . وتحول الى كنيسة روما فى هذه الفترة بعض الأمراء البروتستنت ، ومعظم الفضل فى هذا لأقناع اليسوعيين لهم . وتفوقت الكلفنية على اللوثرية التى نزعت الى الدجماطية السكسولاستية الجامدة . وانتقاضا على هذه الشكلية قبل كل شيء ، انتشرت الحركة « التقوية » التى حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحا باطنية من الوحدة مع الله . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر حمل جورج فوكس ، ووليم بن ، وروبرت باركلى ، انجيل طائفة « الكويكر » الى ألمانيا ، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت فى تطوير التقوية هناك ، ونلاحظ أن كتاب فيليب يعقوب سبينر Pia desideria (١٦٧٥) صدر بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات . ذلك أن سبينر ، بوصفه راعيا لكنيسة لوثرية فى فرانكفورت — أم — مين ، استكمل خدماتها بعبادات صوفية تؤديها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) فى منزله . وقد أطلق اسم التقوى Pietist ، كلفظ البيورتان والمثودست ، على هؤلاء العابدين نقادهم على سبيل السخرية ، فقبلوه ، وأصبح لهم شارة فخر متواضع . وتشبثوا فى حرارة بآمال

عصر السلام المرتقب (بعد مجىء المسيح) التى تعـزت بهـا بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب . ولم تكن فكرتهم عن المجىء الثانى للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة ، بل الهاما حارا نشيطا فى حياتهم اليومية . ففى أى لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض ، وسيهدىء صراع الأديان وينهى حكم القوة والحرب ، وسيقيم « كنيسة روحية » خالصة ، بغير تنظيم ، ولا طقوس ، ولا كهنـة ، تمارس فى فـرح مسيحية القلب السمحة الكريمة .

وواصل أوجست فرانكى الحركة تحدوه غيرة الأنبياء . وتأثرت نساء كثيرات بمسيحيته العملية وتطوعن فى قضية التقـوى الشخصية والبر العام . وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورتانية الانجليزية والهدوئية الفرنسية ، أثرت بدورها فى المثودية الانجليزية والشعر الألمـانى ، وأشعرت الناس بوجودها فى أمريكا ، حيث رحب بهـا كوتون ماذر برجاء فقال « ان العالم بدأ يشعر بدفء من النار الألهية التى تضطرم على هذا النحو فى قلب ألمانيا (٨) » . ولكن التقوية كالبيوريتانيـة آذت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة ، وترددت أحيـانا فى مهاوى الافتعال والرياء . فأغرقها فى القرن الثـامن عشر الطوفان العقلانى الذى تدفق من فرنسا .

وكان لانتصارات ريشـليو ، ومازاران ، ولويس الرابع عشر ، ولثراء البلاط الفرنسي وبهائه المتزايدين ، أثر لا يقاوم فى المجتمـع الألمانى خلال القرن التالى لصلح وستفاليا . وطغت النزعة العالمية حينا على القومية . وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء فى اللغة والآدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشـعور المستعارة . ولم يتكلم الارستقراطيون الالمان الا بالألمانية الا مع الخدمفقط . وكتب المؤلفون الألمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعـالم المثقف . واعترف ليبنتنر ، الذى كانت معظم كتابته بالفرنسـية ، بأن « العادات الألمانية تحولت قليلا الى الأناقة والأدب » بالقدوة الفرنسية ، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألمانى ، أو التسرب اليه (٩) .

ولم يعش من كتب هذا العهد الألمانية سوى كتاب واحد اسمه « سمبلسيوس سمبليسيسيموس » (١٦٦٩) بقلم هانز فون جريملز هاوزن . وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية ، ذات أحداث مترابطة ، لميلكيور فون فوشهايم ، وهو انسان ربع أحمق ، وربع فيلسوف ، ونصف وغد . أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو المانيا التى خلفتها ثلاثون عاما من الحرب بين الحياة والموت . ويبدأ ميلكيور هذا ربيبا لفلاح يصف المؤلف حياته فى عبارات مهذبة فيقول :ـ

« كان سيدى يملك الغنم والماعز والخنازير بدلا من الاتباع والخدم والسياس ، وكانت كلها تتبعنى فى السباق حتى أسوقها الى البيت . أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث ، والمعاول ، والبلط ، والفئوس ، والمجاريف ، ومذارى الروث والدريس ، التى كان يمارس استعمالها كل يوم ، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكرى ... واستخراج السباخ هو علم التحصينات عنده ، وامساك المحراث علم الاستراتيجية ، وتنظيف الاسطبل تسليته ومباراته الفروسيتان (١٠) ».

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفى ، وتعذب الأسرة لتكرهها على البوح بسر مؤن مختزنة لا وجود لها . ويهرب ميلكيور ويلتجىء الى ناسك عجوز يلقنه أول دروسه اللاهوتية . فاذا سئل عن اسمه أجاب « وغد أو رد مشانق » لأنه لم يسمع أحدا يدعوه الا بهذا الاسم ، أما اسم متبنيه ، جريا على القاعدة ذاتها ، فهو « صعلوك ، وبلطجى ، وكلب مخمور » . ويقبض عليه الجند ، فيأخذونه الى قصر حاكم هاناو ، وهناك يدرب على أن يكون مهرجا ، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسيسيموس . ثم يختطف ، ويصبح لصا ، ويعثر على كنز مخبوء ، ويصبح جنتلمانا ، ويغوى فتاة ، ويكره على زواجها ، ثم يهجرها ، ويعتنق الكاثوليكية ، ويزور قصبة الدنيا ، ويخسر ثروته ، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل ، ثم يضنيه طول التجوال ، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها . هذه « كانديد » أولى سابقة على قصة فولتير بقرن ، والفرق أن هجاءها تلطف منه الفكاهة الألمانية ، ولا يجمله الذكاء الفرنسي . وندد النقاد بالكتاب ، وأصبح من عيون الأدب ، وأشهر ثمار الأدب الألمانى بين لوثر وليسنج .

على أننا بجب ألا نتقبله صورة منصفة لألمانيا فى الجيل التالى للحرب . فربما كان الألمانى شديد الولع بالشراب ، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى فى كئوس شرابه ، وربما وصفته زوجته بالكلب المخمور ، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيرا منه ، وربت أبناءه تربية قوية متينة . وربما كان فى ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان فى فرنسا . وآية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة ، أميرة بالاتين (١٦٧١) التى تزوجت على غير رغبتها بـ « المسيو » فليب أورليان أرمل « مدام » هنرييتا المنحرف جنسيا ، لم تسل قط جمال هيدلبرج الهادىء ، وبعد أن عاشت ثلاثة واربعين عاما عيشا غير مريح مع ترف البلاط الفرنسي ، لم تفتأ تتوق الى « صحن طيب من الكرنب والسجق المدخن » مؤثرة اياه كثيرا على ما تقدمه باريس أو فرساى من قهوة أو شاى أو كاكاو (١١) . ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقير ، وصبرها على الملك أخى زوجها الذى أمر أو أذن بتدمير بلاتينات، على أنه — حتى وسط خرائب ألمانيا — وجدت نساء استطعن أن يعلمن اللباقة والانسانية للملوك المعطرين ، الموشحين ، المطرزين ، اللابسين البواريك .

٣ — الفنون فى ألمانيا

ثم ان هذا العصر كان من أكثر العصور انتاجا فى العمارة الألمانية ، على عكس كل التوقعات المعقولة ، فقد شهد أول تفتح للباروك الألمانى، الذى خلع واجهة جديدة من الفتنة والبهجة على كارلسروهى ، ومانهايم ، ودرسدن ، وبايرويت ، وفرنسبورج ، وفيينا . وكان زمان البنائين أمثال يوهان فيشر فون ايرلاخ ، ويعقوب برانتاور ، ويوهان وكيليان وكريستوف دينتسنهوفر ، وأندرياس شلوتر ، الذين كانت أسماؤهم خليقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالانجليزية اشتهار رين واينيجو جونز ، لولا سجن الحدود وبلبلة الألسن . على أن ما خلفوه دمر بعضه فى غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (١٦٨٩) ، وبعضه فى الحرب العالمية الثانية (١٢) . ان التاريخ سباق بين الفن والحرب .

وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب . ويشين سجلنا هذا ألا نشير فيه اشارة ولو عابرة لكتدرائية يوهان دينتسنهوفر فى فولدا أو

كنيسة ديره فى بانتز ، أو لأشغال كريستوف وكيليان دينتسنهوفر فى كنيستى القديسين نيقولا ويوحنا فى براغ • وفى ١٦٦٣ بدأ المعمارى الايطالى أجوستينو باريللى قصر نيمفينبورج خارج ميونيخ ، وأكمل يوسف افنر داخله فى مزيج موفق من العمد الكلاسيكية والزخرف الباروكى • لقد كانت الزينة هى الاغراء المتسلط على الباروك ، واستعملت باسراف فى الفستزال أو صالة الاحتفالات فى شلوس برلين، وفى جناح قصر زفينجر الذى بناه فى درسدن متاوس دانيال بوبلمان لأوغسطس القوى ، هنا تحول الباروك الى روكوك جميل أنسب لداخل مخدع منه لواجهة قصر • وقد تهدم معظمه فى الحرب العالمية الثانية ، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين ، وهو القصر الملكى الذى بدأه أندرياس شلوتر فى ١٦٩٨ •

أما أبرز المثالين الألمان فى هذا العصر فهو شلوتر • فقد انتشت المانيا كلها بتمثال الفارس الراكب الذى صنعه للناخب الأكبر Der Grosse Kurfurst والذى لم تنل منه كل قنابل الحرب ، والذى يرتفع الآن فى ميدان شارلوتنبورج خارج برلين • وفى كونجزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكا لبروسيا ، لا يقل روعة عن التمثال المذكور • ونحت يوليوس جليسكر رأسا للعذراء مريم ، حزينة فى صمت ، لمجموعة تماثيل للمسيح المصلوب فى كتدرائية بامبرج • وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم فى مقاعد المرتلين الرائعة فى كلوستركيرشي بسيليسيا ، ولكنهم غالوا فى الأثاث المنقوش نقشا مسرفا والذى أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهم من الذوق السليم •

ولم ينجب التصوير الألمانى روائع فى هذه الفترة ، الا اذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف باراديزو تسمى « شاب ذو قبعة رمادية (١٣) » • وقطع النسيج المرسوم التى صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبدع القطع • واشتهرت بلدة فارمبرون — ينابيع سيليسيا الحارة — بزجاجها المصقول ، وروجت درسدن استعمال « صينى درسدن » • وكان أوغسطس القوى كذلك « ملك القاشانى » ، وحين عثر على أنواع مناسبة من الطفل قرب مايسين ، اقام بها

(١٧٠٩) الفمائن التى انتجت أول خزف (برسـلان) صلب فى أوربا .

على أن الموسيقى هى التى وجدت فيها الروح الألمانية أبرز تعبير لها ، وكان هذا العهد بمثابة العشية التى بزغ بعدها صبح يوهـان سبستيان باخ . أما الاشكال والآلات فجاءت من ايطاليا ، ولكن الألمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة . فبينما تفوقت ايطاليا فى اتساق الأصوات ، وفرنسا فى الايقاع الرشيق ، تقدمت ألمانيا الى مكان الصدارة فى الليدة (الأغنية الألمانية) ، وموسيقى الأرغـن ، والكورال . وفى الحان ج . ف . كريجر المسماة « ١٢ سوناتا بكمانين» (١٦٨٨) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلا فى ثلاث حـركات ـ الالليجرو (الأعجل) ، واللارجو (البطىء جدا) ، والبريسـتو (السريع) . وكانت موسـيقى الآلات ، المتطـورة من رقصـات (كالبافان ، والسربنده ، والجافوت ، والجبج الخ) تعلن اسـتقلالها من الرقص والصوت جميعا .

وكان الطلب على الموسيقيين الايطاليين لايزال كبيرا فى ألمانيا . فملك كافاللى على ميونيخ ، كما ملك من بعده فيفالدى على دارمشتات. واستوردت الأوبرا الايطالية ، وعرضت أول عرض لهـا فى ألمانيـا بتورجاو (١٦٢٧) ، وتلت ذلك عروض أخرى فى ريجنسـبورج ، وفيينا ، ومبونيخ . وكانت أول أوبرا ألمانية (Singspiel) هى « آدم وحواء » من تلحين يوهان تايلى ، وقد أخرجت بهامبورج فى ١٦٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تتزعـم الأوبرا والدرامـا الألمانيتين طوال نصف قرن . هناك أنتج هندل « الميرا » و «نيرون» فى ١٧٠٥ ، و « دافنى » و « فلورندا » فى ١٧٠٦ ، قبل أن يذهب لغزو انجلترة . والاسم الكبير فى الأوبرا الألمانية فى ذلك العهد هـو راينهارد كايزر ، الذى أنتج ١١٦ أوبرا لفرقة هامبورج .

وبعد ١٦٤٤ انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الايطاليين فى التأليف للأرغن والكنيسة . وعبرت ترائيم باول جرهارت عن عقيدته اللوثرية العنيدة . وسيطر يان راينكن على الأرغـن فى كنيسـة « كاتريننكرشي » بهامبورج من ١٦٦٣ حتى وفـاته عـام ١٧٢٢ فى

الحادية والتسعين · وأصبح ديتريش بوكستيهودى ، المولود بالدنمرك، عازف الأرغن فى كنيسة مارينكرشي بلوبيك فى ١٦٦٨ ، واشـــتهرت حفلاته هناك ، لا سيما حفلات « موسيقى المســاء » التى جمعت بين الأرغن والأوركسترا والخورس ، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشي خمسين ميلا من آرنشتات الى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (١٤) · وقد عاش نحو سبعين من الألحان التى وضعها للأرغن ، وكثير منهــا مازال يعزف ، وقد أسهمت الحانه الكورالية فى تكوين أسلوب يوهان سبستيان · وسبق يوهان كوناو باخ عازفا على الأرغن فى كنيســـة توماســكرشي بليبزج ، وقد طـــور الســـوناتا للكلافير ، ولحـــن ألحانا (Partien) من نوع متتاليات باخ ·

وأخذت أسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى فى خصوبة مذهلة · وقد وصل الى علمنا أسماء نحو أربعمائة من آل باخ بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠: كلهم موسيقيون ، وستون منهم يشغلون مراكز هامة فى دنيا الموسيقى فى زمانهم · وقد ألفوا نوعا من النقابة العائلية التى تجتمع دوريا فى مقارهم بأيزيناخ ، أو آرنشتات ، أو ارفورت · وهم يؤلفون بلا جدال أكبر وأشهر أسرة فى التاريخ الثقافى ، ويثيرون الاعجـــاب لا لكثرة عددهم فحسب ، بل لاخلاصهم لفنهم ، وللثبات فى الهـــدف جرمانى صيل ، ولغزارة انتاجهم وقوة تاثيرهـــم · ولم تبرز أســـماؤهم فى الحوليات الموسيقية الا فى جيلهم الخامس ، بظهور يوهان كرستوف ويوهان ميكائيـــل باخ ، ابنى هينريش باخ ، عــــازف الأرغـــن فى آرنشتات · وكان يوهان كرستوف كبير عازفى الأرغن فى ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة ، رجلا بسيطا ، جادا ، مدققا فى عمله ، درب فرق الترتيل ولحن للأرغن وللأوركسترا · وأصبح أخوه يوهـــان ميكائيل عازف الأرغن فى جيرين فى ١٦٧٣ ، وظل هناك حتى مات فى ١٦٩٤، وأعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان· وكان لكريستوف باخ أخى هينريش ، وعازف الأرغن فى فيمار ، ابنان كانا عازفى كمان ، وأحدهما وهو أمبروزيوس كان أبا يوهان سبستيان · أما يوهان باخ ، أخو هينريش وكرستوف ، فكان عازف الأرغن فى ايرفورت من ١٦٤٧ الى ١٦٧٣ ، حين خلفه ابنه يوهان كرستيان باخ ، الذى خلفـــه فى ١٦٨٢ أخوه يوهان اجيديوس باخ · وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لتنجب وتعد يوهان سبستيان باخ ·

٤ - النمسا والأتراك العثمانيـون

ان فى فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حالها عقب حرب الثلاثين ، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته المانيـــا من ويلاتها ، ولكن خزانتها نضبت ، وجيوشها تهلهلت ، وهبط صلح وستفاليا بسمعة الأباطرة وقوتهم • على أن ظرفا واحدا كان فى صفها • ذلك أن ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الامبراطورى فى ١٦٥٨ وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاما ، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى ، فان النمسا أخذت تفيق من كبوتها سريعا • وكان ليوبولد ملكا على الأمارات الألمانية أسما لا فعلا ، ولكنه كان الملك الفعلى لبوهيميا وغربى المجـــر ، وكان يحكم دوقيات استيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، وكونتية التيرول • ولم يكن بالحاكم العظيم ، كان يكد ويكدح بشعور الواجب فى الادارة وتشكيل السياسة ، ولكنه افتقر الى الرؤية البعيدة التى أوتيها أســلافه من آل هابسبورج ، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم • وكان قد درب أصلا للكهانة ، ولم يفقد قط حبه لليسوعيين ، أو ينحـــرف كثيرا عـن ارشادهم • ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيهـــا ، فانه قبل المبدأ الذى يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكا ، ونفـــذ ســـياسته بأوتقراطية صارمة فى بوهيميا والمجر • وكان ميالا الى السلم ، ولكنه أكره أو سيق الى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين • وقد وجد فيما بين عمليات اراقة الدماء هذه وقتا للشعر والفن والموسيقى ، ألف الموسيقى بنفسه ، وشـــجع الأوبرا فى فيينا ، فعرضت بها أربعمائة أوبرا جديدة فى السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش • ويدلنا نقش يرجع الى عام ١٦٦٧ على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة ، ذات ثلاثة صفوف من الألواج ، وكل مقعد فيها مشغول • وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جدا •

وعلينا أن ننظر الى النمسا فى هذا العصر على أنها المدافـع عن الغرب ضد تركيا المنبعثة من جديد ، المعذبة بعدء أشد حكام الغرب بأسا ، فقد عاق صراع العالم المسيحى مع العالم الاسلامى وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا • وزادت المجر المشكلة تعقيدا ، لأن ثلثها

الغربى فقط هو الذى خضع لحكم الامبراطور ، وكان جزء منه بروتستنتيا يتوق الى التحرر . وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم ، والتى يغذوها أدبهم وما توارثوه من تقاليد يعتزون بها عن هونيادى يانوس وماتياس كورفينوس ، وكان ميكلوس زرينيى قد نشر قبيل هذه الفترة (١٦٥١) ملحمة تفيض بحب الوطن . وكان المجريون الذين أهانهم وظلمهم الحكم النمساوى والتسلط الكاثوليكى تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها .

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا ، وعاودوا ارهاب الغرب . ومن علامات الانتعاش أن شاعرا تركيا فحلا اسمه « نبى » راح يتغنى بمديح الوزراء الذين أغدقوا عليه المال ، وعلامة أخرى أن المال والذوق والورع التركى - كلها تضافرت لتشيد جامع يينى - وليدى البديع فى اسطنبول (١٦٥١ - ٨٠) . وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلى صدرا أعظم (١٦٥٦) ، استهل وهو فى السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة ، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات ، ولكن فى هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦٫٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة الى خيانة الدولة ، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم فى المتوسط . وأكره الخوف من العقاب المفسدين فى الادارة ودساسي الساسة فى الحريم على الاعتدال ، وأعيد النظام الى الجيش ، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم . فلما تمرد جورج راكوكزى الثانى ، أمير ترانسلفانيا ، على السيادة العثمانية ، اكتسح كوبريلى حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه ، وخلع راكوكزى ، وفرض على البلاد تعويضا باهظا ، وزاد الجزية التى تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنويا من خمسة عشر ألف فلورين الى خمسين ألفا .

وخلف هذا السبعينى الرهيب فى الوزارة ابنه أحمد كوبريلى . فلما نشبت ثورة أخرى فى ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيمينيى ، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الايطالى ريموندو دى مونتيكوكولى . ورد أحمد بالزحف بجيش عدته ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر . وطلب ليوبولد المعونة ، واستجابت الولايات الألمانية ، البروتستنتية

والكاثوليكية على السواء ، بالمال والرجال ، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندى بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين . ولكن المقاومة بدت أمرا ميئوسا منه حتى بعد هذ اكله ، وتوقعت أوربا سقوط فيينا ، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته . وكانت قوات مونتيكوكولى أقل كثيرا من قوات العدو ولكنها أفضل تزودا بالمدافع . ولم يجرؤ على لقاء الترك فى أرض مكشوفة تعطى ميزة للكثرة العددية ، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد ، على نحو ثمانين ميلا جنوبى فيينا ، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها الى ضفة النهر اليسرى . وكتب النصر لاستراتيجيته ، وللبطولة الفذة التى قاتل بها افراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس ١٦٦٤) ، فى معركة أنقذت أوربا مرة أخرى من آن يغرقها طوفان المسلمين .

ولكن ، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم ، فكذلك اضطر الامبراطور ، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم ، وجيشهم الذى مازال محتفظا بضخامته ، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين الى العودة لأوطانهم - اضطر الى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاما (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك ، واعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلقانيا ، ودفع للسلطان « هدية » بلغت ٢٠٠٫٠٠٠ فلورين . أما أحمد كوبريلى ، الذى خسر المعركة وكسب الحرب ، فقد عاد الى القسطنطينية مكللا بالغار .

وأنهى هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة (١٦٦٧) مؤقتا اتحاد العالم المسيحى ضد الترك . وفى ١٦٦٩ تولى احمد قيادة الحصار الطويل لكريت ، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة ، وسيطر الاسطول التركى مرة أخرى على البحر المتوسط . ولم يشعر حاكم غير يوحنا سوبيسكى ، ملك بولنده ، بان لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا . وقد أعلن عن هدفه فى شجاعة فقال ان « مقارعة الهمجى غزوا بغزو ، ومطاردته من نصر الى نصر ، على ذلك الحد نفسه الذى لفظه من أوربا ... والقذف به الى موطنه فى الصحارى ، وابادته ، واقامة امبراطورية بيزنطية على أنقاضه ، هذه المغامرة

وجدها هى الجديرة بأن تسمى مسيحية ، انها دون غيرها السامية الحكيمة (١٥) » • ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولنده ، ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد (١٦) •

ومات أحمد كوبريلى فى ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد فى الحادية والأربعين الكثير من الهزائم الرائعة ، بعد أن خسر « معارك فاصلة » ومد الأملاك التركية الى أوسع مداها الأوربى • وخلع السلطان محمد الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى ، الذى أبهج لويس الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا (١٧) • وشجع قره نشوب ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة امرى توكولى ، الذى ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية فى المجر النمساوية ، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على جميع أرجاء المجر اذا دعم الأتراك ثورته • أما ليوبولد فقد أقلع بعد فوات الوقت ، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الدينى فى المجر • وأرسل لويس الرابع عشر المدد المالى الى توكولى (١٨) ، ووعد سوبيسكى بالاستيلاء على سيليسيا والمجر اذا ربط بين بولنده وفرنسا فى حلف ضد الامبراطور • أما ليوبولد فلم يكن فى وسعه أن يعد سوبيسكى بأكثر من أرشيدوقة عروسا لابنه ، وبتعهد بتأييد جهود سوبيسكى لجعل العرش البولندى وراثيا فى فرعه من الأسرة المالكة • ولسنا نعرف على التحقيق دوافع الملك الى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين ، وكل ما نستطيعه أن نقول انها كانت من أعجب وأخطر الأحداث فى التاريخ الحديث •

وأحس قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون ، وبين الكاثوليكية والبروتستنتية ، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا ، وربما على أوربا بأسرها • وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة اسلامية فى القرن الخامس عشر ، وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعا ، فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا حتى يفتحوا روما ويربطوا خيلهم فى صحن كنيسة القديس بطرس (١٩) • وفى ١٦٨٢ حشد قره مصطفى فى أدرنة قواته ومؤنه التى أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركية أوربا ، وتظاهر أنه يخطط للهجوم على بولنده • وفى ٣١ مارس ١٦٨٣

بدأ السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا . وكان الجيش كلما تقدم يضم اليه الامداد من كل ولاية تركية فى طريقه ، فانضمت اليه فرق من الافلاق ، وملدافيا ، وترانسلفانيا ، حتى اذا بلغ أوسييك (اسزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠٫٠٠٠ مقاتل ، ويحوى بين صفوفه الابل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم (٢٠) . هناك أذاع توكولى اعلانا دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة الى دعم الهجوم على النمسا ، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ووعدهم بحرية العبادة فى حمى السلطان . ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة .

وعاد ليوبولد يستغيث بالامارات الألمانية ولكنها تباطأت . ووضع جنوده البالغ عددهم ٤٠٫٠٠٠ تحت امرة شارل الخامس دوق اللورين، الذى وصفه فولتير بأنه أنبل أمير فى العالم المسيحى (٢١) . وترك شارل حامية من ١٣٫٠٠٠ رجل فى فيينا ، ثم تقهقر الى تولن ، حيث انتظر وصول البولنديين . وفر ليوبولد الى باساو ، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل . فلقد كانت حصونها مهدمة ، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف . وفى ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة . وبعث ليوبولد الى سوبيسكى يرجوه أن يأتى فورا قبل أن نصل مشاته البطيئة الحركة قائلا « ان اسمك وحده ، الذى يرهبه العدو كثيرا ، كفيل بالنصر (٢٢) » . وأقبل سوبيسكى بثلاثة آلاف فارس . وفى ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣٫٠٠٠ مقاتل . وبعد يومين وصل ١٨٫٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية ، فأصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠٫٠٠٠ . ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعا ، وقلاعها تتهاوى تحت نيران المدفعية التركية ، فما هو الا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة .

وفى صباح ١٢ سبتمبر الباكر ، هاجم المسيحيون ـ الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكى العليا ـ الأتراك المحاصرين . ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين آتون ، ولا أن القوات المسيحية ستهجم أولا ، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة ، وزين ضباطه خنادقهم بقطع النسيج المرسوم والقرميد ، أما هو فزود خيمته بالحمامات ، والنافورات ، والحدائق ، والمحظيات . وأخذ خيرة جنده على غرة فى خنادقهم ، فمزقوا اربا اربا . وشاعت الفوضى فى جيشه

المخلط الذى جمعه من ولايات لا يثير حماستها ولاء للسلطان البعيد ، أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بانهم ينقذون أوربا والمسيحية . وبعد ثمانى ساعات قطع الظلام القتال . فلما بزغ الفجر الجديد وجد المسيحيون الذين مازالوا غير واثقين من النصر - لشدة فرحهم - أن الأتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠ر٠٠٠ قتيل ومعظم معدات الجيش فى المعسكر . أما المسيحيون ففقدوا ٣ر٠٠٠ رجل .

وأراد سوبيسكى أن يطادر الترك ، ولكن الجنود البولنديين رجوه أن يسمح لهم بالعودة الى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم . ودخل الملك الظافر فيينا وكتدرائيتها ليقدم الشكر لله ، وفى طريقه هتف له الشعب العارف بصنيعه منقذا من السماء ، وناضل أفراده ليلمسوا ثوبه ويقبلوا قدميه (٢٣) ، وأحسوا أنه ما من شيء فى سجل الفروسية يفوق مأثرته تلك . فلما عاد ليوبولد الى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم يلق غير استقبال فاتر من أهلها . وسأل معاونيه هل حدث أن أستقبل امبراطور مجرد ملك منتخب ، وما المراسم التى يجب اتباعها فى هذه الحالة . وتباطأ فى لقاء سوبيسكى ، وأخيرا حياه شاكرا له صنيعه شكرا متواضعا ، وقد توجس من أن يكون الدافع للبطل فى رغبته فى مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته (٢٤) . فلم تبدأ المطاردة الا فى ١٧ سبتمبر ، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين الا بعد ذلك بعشرة أيام . وعند باركانى ، قرب الدانوب ، أحرز سوبيسكى وشارل انتصارا حاسما آخر . ثم قاد الملك جيشه عودا الى بولنده بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا ، فدخل كركاو فى ليلة ميلاد ١٦٨٣ . وفى اليوم التالى أعدم السلطان قره مصطفى .

وألفت النمسا وبولنده والبندقية ، بالحاح البابا انوسنت الحادى عشر ، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤) . وفتح فرانشسكو موروزينى المورة (البلوبونيز) للبندقية ، وفى ١٦٨٦ حاصر أثينا واستولى عليها فى ٢٨ سبتمبر ، وأثناء هذا الحصار دمرت مدفعيته البروبيلايا والبارتينون ، اللذين استعملهما الأتراك مخزنا لبارودهم . وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا فى ١٦٨٨ ، والمورة فى ١٧١٥ . وفى غضون هذا هزم شارل اللورينى الترك فى جران (أزترجوم) فى ١٦٨٥ ، وفى السنة نفسها ، وبعد عشر أيام من

الحصار ، استولى على بودا ـ عاصمة المجر القديمة ـ التى كانت فى قبضة الأتراك منذ ١٥٤١ · وفى ١٦٨٧ قاد شارل القوات النمساوية الى النصر فى هاركانى ، قرب موهاكس ، حيث استهل انتصار سليمان القانونى عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثمانى · وأنهت معركه « موهاكس الثانية » هذه سلطة الأتراك فى المجر ، التى أصبحت الآن ملكا للملكية النمساوية · واعترفت ترانسلقانيا بسيادة الامبراطور الهابسبورجى ، وأدمجت (١٦٩٠) فى الامبراطورية النمساوية ـ المجرية · وفى ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافارى على بلغراد · وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحا الى القسطنطينية ، وأنه قد آن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوربا ·

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم · ذلك ان حرب البوربون مع الهابسبورج كانت فى نظر ذلك « الملك المسيحى جدا » أهم من الصراع بين المسيحية والاسلام · وكان يرقب فى غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم · وفى ١٦٨٨ ، استأنف حربه مع الامبراطور ، ضاربا صفحا عن ابرامه هدنة عشرين عاما معه قبل ذلك بأربع سنين فقط ، وأرسل جيشا الى البالاتينات · فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل لملاقاة الهجوم على الراين ، وتوقف الزحف على الترك ، وتجدد الهجوم التركى ·

واستوزر السلطان الجديد ، سليمان الثانى ، رجلا آخر من أسرة كوبريلى هو مصطفى أخو أحمد · وهدأ مصطفى خواطر المسيحيين فى تركية أوربا بتوسيعه حرية العبادة ، ونظم جيشا جديدا ، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠) · ولكنه قتل بعد سنة ، ودحر الأتراك عند سلانكامين · وتولى السلطان مصطفى الثانى قيادة الجيش بشخصه ، ولكن المسيحيين هزموه فى سنتا (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوى · وطلب مصطفى الصلح ، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولنده والبندقية ، مغتبطا لأن يده أطلقت فى محاربة لويس · ونزلت تركيا عن كل دعاواها فى ترانسلقانيا والمجر (فيما عدا « بنات » تيميسفار) ونزلت عن غربى أوكرانيا لبولنده ، وسلمت المورة ودلماشيا الشمالية للبندقية · واحتفظت بالبلقان كله ـ دلماشيا الجنوبية ، والبوسنه ، والصرب ، وبلغاريا ،

ورومانيا ، ومعظم اليونان ، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركى على العالم المسيحى .

ترى ما الذى هوى بقوة العثمانيين من أوجهـا أيام سـليمان لقانونى ؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط . لقـد كانت فـرص المتعة التى أتى بها النصر والثروة شديدة الاغراء ، فبدد السلاطين فى الحريم ما كانوا فى حاجة اليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء . واتسعت دولتهم اتساعا حال دون ادارتها ادارة فعـالة ، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود ، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريبا عن السلاطين . ولم يعد الجوع يحفز الترك ، ولا الأعداء يهددونهم ، فترددوا فى مهاوى الكسل والفساد ، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة الفوضى فى الاقتصاد والجيش . وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رواتبهـم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها ، واكتشفوا سطوتهم ، فاستغلوها كلما تعاظمت . وظفروا بحق الزواج ، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الأذن بالانخراط فى سلاحهم الذى كان من قبل وقفا على النخبـة المنتقاة ، وتنكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلا الانكشارية صـفوة المقاتلين فى أوربا . أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء فى لذات الجنس، فقد فشلوا فى ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية . وبينما كان الغـرب المسيحى يصنع مدافع أفضل ، ويطور استراتيجية وتكتيكا أرقى ، فى صراع الحياة والموت الذى دار على ساحات حرب الثلاثين ، وجـند الأتراك ، الذين كانوا تحت امرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعيـة فى العالم — وجدوا أنفسهم — كما حدث فى ليبانتو — متخلفين فى قوة النيران والاستراتيجية . وأرهقت الحرب ، التى قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم — هذه الحرب أرهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السـهلة على مشـاق المعركة . وكان لسيطرة الايمان القدرى ، غير التقدمى ، على الحيـاة والفكر أثرها فى خنق العلوم الأسلامية التى كان لها القدح المعلى فى العصور الوسطى ، وازدادت المعرفة فى الغرب وتخلفت فى الشرق . وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم الى جميع القارات ، تشق لها طرقا جديدة فى العباب ، بينما كانت معظم

التجارة العثمانية تزحف فى قوافل على اليابس . وترك الحكام الكسالى السقايات والقنوات تبلى ، بينما الفلاحون الذين قلبت الحرب حياتهم ينتظرون المطر فى ذل ومسكنة . واتخذ مسار الامبراطورية طريقه غربا ، الى أن وجد نفسه ثانية فى الشرق يوما وهو لا يزال يتحرك غربا .

وكان رد الأتراك على أعقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة . ذلك أن النمسا والمانيا تخولتا بعد تحررهما من ضغط الاسلام عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر ، الذى كان يمد ذراعيه فى الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين ، والبلاتينات ، وايطاليا ، وأسبانيا . وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فلم يبق منها غير الصورة . وانتهى الأمر بالامبرادلور الى النظر الى نفسه على أنه نمساوى لا رومانى ، وحلت الامبراطورية النمساوية ــ المجرية محل الرومانية المقدسة . وجعلت العروش الثلاثة ــ عروش النمسا ، والمجر ، وبوهيميا ــ وراثية فى أسرة هابسبورج (١٧١٣) ، فألغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية فى انتخاب ملوكهم . وعادت المجر الى الثورة (١٧٠٣ ــ ١١) بزعامة فرانسيس راكوكزى الثانى ، ولكن الثورة خمدت ، تاركة الحنين الى الحرية يتردد صداه فى الشعر والأغانى .

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر وبوهيميا لمنفعتها الخاصة ، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد . وارتفعت القصور الفاخرة للارستقراطية ، وأسكنت الكنائس الجميلة والأديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين . وأعاد الأمير بال استرهازى بناء قلعته الكبرى فى ايزنشتات ، حيث سيقود هايدن يوما فرقته الموسيقية ويؤلف ألحانه . وفى فيينا صمم دومنيكو مارتينللى قصر ليشتنشتين ، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوى . وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصرا شتويا فاخرا ، ووضع الخطط للمكتبة الملكية ، والقصر الامبراطورى فى شونبرون . وفى ١٧١٥ بدأ أعظم معماريى النمسا هذا

عمله فى كنيسة كارلسكرشي بفيينا ، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما . وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلا غربى فيينا شـــاد يعقوب برانتاور دير «كلوسترميلك» اكبر الاديار البندكتية وأروعها فى الأراضي الألمانية ، وهذا أوج الباروك النمساوى . وفى أعقاب الانتصار صمم يوهان ارنست تون ، رئيس الأساقفة الكفء الوجيه ، حديقة ميرابيل الشهيرة بسالزبورج ، وجملها بمنحوتات من صنع فيشرفون ارلاخ . وهـــكذا تحركت النمسا فى كبرياء وأبهة الى أعظم قرن فى تاريخها .

الفصل الخامس عشر

الجنوب المراح

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ ايطاليا الكاثوليكيـــة

من حكمة الفلاح الصامتة أن فى الامكان اصلاح التربة التى كانت يرهقها الثمر الوفير باراحتها فترة ، وربما بحرثها دون زرعها • وهكذا استراحت ايطاليا بعد خصوبة النهضة التى أرهقتها • وأبطأ تدفــق حيويتها العارمة ، وكأنها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الأعمـــال • فعلينا اذن الا نتوقع من ايطالية هذا العصر والعصر التــــالى له ـ بين برنينى وبونابرت ـ ثمارا كتلك التى تدفقت من معينها الفيـــاض فى قرونها الذهبية • اننا نلم بها هنا مرة أخرى ، قانعين اذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع فى مدنها التى تردد أصداء التاريخ أصـــواتا صغبرة تشهد بحياة لم تنطفىء جذوتها •

وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال ، فذلك من صميم روحها ، ولا سبيل الى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها • كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء ، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القـــوانين • وعلل الأغنياء هذا الظلم بأن الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين اذا رفعت أجورهم • أما النساء فكان يستغلهن الرجال والشعب ، الا أن يكن فى ربيع حسنهن • فى هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيـــا ، والجنس الاضعف آنذاك ، تجد عزاء فى خدمات الكنيسة • وكان ايمانها بالعدل الالهى سندا بعزيها عن قسوة الانسان ، وكانت خطايا السنتهم الحادة وجسدهم الوثنىيغتفرها دون تردد القساوســة المتســـامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يمـــلا نفوســـهم • وكانوا شاكرين لما تخلل أيامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحـة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين • وآمنوا بأن قديسيهم ، والأم العذراء الرحيمة ، سينقذونهم من أهوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

لله ، وبأن الغفرانات التى توزعها الكنيسة ستقصر مقامهم فى المطهر ، وانهم سيدخلون ، ان عاجلا أو آجلا ، فردوسا — يفوق جمـــاله حتى جمال ايطاليا — لن يكدر صفوه مــلاك ، ولا ضرائب ، ولا عشـــور ، ولا حرب ، ولا حزن ، ولا ألم .

وهكذا احتملوا بصبر ، ومرح ، وغناء ، ابتزازات كهنتهم الذين لم يخل منهم مكان ، والذين التهموا على الاقــل ثلث ايرادات الامة . وأحبوا كنائسهم كأنها جزر من السلام وسط حرب الحياة . وتأملوا بهاء كنيسة القديس بطرس وفخامة الفاتيكان فى فخر لا يخالطه اســـتياء ولا غبط ، فتلك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيهم ، وهى ملك للفقـــراء أكثر من الاغنياء ، وهى فى نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثوى لأول الرسل (بطرس) ، أو مسكنا لزعيم العالم المسيحى ، خادم خـــدام المسيح . واذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمـات التى توجــه للكنيسة ، فما ذلك الا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الاخلاق القائم على العقيدة الدينية ، ليصون ذلك الأيمان الذى جعل من نثر الكد والشقاء ملحمة شعرية .

أما ديوان التفتيش الأيطالى فكان رحيما نسبيا فى هذا العصر . وأشهر ضحاياه قس اسبانى يدعى مجـــويل دى مولينوس . ولد فى سرقسطه ، وسكن روما . وفى ١٦٧٥ نشر كتابه « المرشـــد الروحى » الذى يزعم فيه أنه وان كان التعبد للمسيح والكنيسة معينـــا على بلوغ أسمى الحالات الدينية ، الا أنه يجوز للعابد الذى انقطع للاتصـــــال المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس الكنسية . وفى نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الواثق من تحرره من الخطيئة الأخلاقية فى أن يتناول القربان دون أن يعترف للكاهن قبل التناول . واجتذب « مرشد » مولينوس النساء على الأخص فالتمست نصيحته المئات — ومنهن الأميرة بورجيزى والملكة كرستينا ، وأرسلن له الهدايا . واعتنقت راهبات كثيرات هــذه « الهدوئيـــة » الجديدة ، ونبذن أورادهن ، واستغرقن فى صلة فخور بالله . وشــكا العديد من الأساقفة الايطاليين من هذه الحركة التى قللت من شـــأن الخدمات والتبرعات الكنسية ، وناشدوا البابا انوسنت الحادى عشر أن يقمعها (١) . وهاجم اليسوعيون والفرنسيسكان مولينوس لأنه أكد على

الايمان دون « الأعمال » تاكيدا يكان يكون بروتستنتيا . وبسط عليه البابا حمايته حينا ، ولكن ديوان التفتيش الرومانى قبض عليه فى ١٦٨٥ ، ثم على نحو مائة من أتباعه . وكان قد جمع أربعة آلاف كراون ذهبى (٥٠٠٠٠ر٥٠ دولار ؟) يفرضه رسما صغيرا على المشورة التى يبذلها لمراسليه ، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف البريد على الخطابات التى تسلمها فى يوم القبض عليه ، والتى بلغت ثلاثا وعشرين دوكاتية (٥٠ر٢٨٧ دولارا ؟) (٢) .

وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهم الموجهة اليهم ، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب والتماثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله ، وأنه ثبط همم الأشخاص الذين أرادوا نذر أنفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية ، وأنه قاد تلاميذه الى الاعتقاد بأن لا شيء يأتونه بعد بلوغهم الاتحاد بالله يمكن أن يكون خطيئة . ولعله اعترف تحت ضغط السجن ، او التعذيب ، أو الخوف ، بأنه اغتفر تحطيم الصور ، وبأنه ثنى الأشخاص الذين رآهم لا يصلحون للرهبنة عن نذر أنفسهم لها ، واعترف بأنه ظل سنين كثيرة يمارس « أكثر الأعمال خروجا على اللياقة مع امرأتين » وأنه « لم ير ذلك اثما بل تطهيرا للنفس » ، وأنه بذلك « استمتع باتحاد أوثق مع الله« (٣) . وأدان ديوان التفتيش ثمانى وستين دعوى وجدها فى كتب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته، وفى ٣ سبتمبر ١٦٨٧ وجه اليه الاتهام فى احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون auto — da — fé وحضر جمع كبير ، وطالبوا بحرقه ، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه مدى الحياة . وقد مات فى السجن فى ١٦٩٧ .

ولعلنا نتعاطف أكثر مع « المهرطقين » الألبيين الذين بكاهم ملتن فى سونيتة سماها « حول المذبحة الأخيرة فى بييدمونت » . وبيان ذلك أنه كان يسكن الاودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا ، هم حفدة « الفالدنيز » الذين سبقوا حركة الاصلاح البروتستنتى وعاشوا بعدها ، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستنتية خلال عشرات التقلبات التى طرأت على القانون والحكومة

وفى ١٦٥٥ انضم الدوق شارل ايمانويل الثانى أمير سافوى الى لويس الرابع عشر فى تنظيم جيش لاكراه هؤلاء الفـــودوا على اعتنـــاق الكاثوليكية . وأثارت المذبحة التى أعقبت ذلك سخط كرومويل ، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد . ولكن بعد موت حـــامى الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد ، فلما ألغى مرسوم نانت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها فى استئصال شأفة البروتستنتية من الاقليم . وألقى الفودوا السلاح على وعد بالعفو العام ، وما لبث ثلاثة آلاف منهم ، مجردين من السلاح ، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (١٦٨٦) . وسمح للباقين منهم على قيد الحياة ، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية ، بالهجـرة الى أرباض جنيف . ثم جاء دوق آخر لسافوى يدعى فيكتـــور أمادبوس ، وجد نفسه فى مشكال السياسة حليفا لا لفرنسا بل عليها ، فدعا الفودوا للعودة الى اوديتهم (١٦٩٦) . فعادوا ، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة .

أما الفقراء فكانوا فى الولايات البابوية يعانون فقر اخوانهم فى كل مكان بأيطاليا وكانت الادارة البابوية (الكوريا) ، كأى حكومة ، نفرض الضرائب على رعاياها الى الحد الذى يهبط بعائدها ، فلم يتح لها قط من المال ما يكفى لأغراضها وموظفيها . وقد أنذر الكردينـــال ساكيتى البابا اسكندر السابع (١٦٦٣) بان جباة الضرائب يفقـرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس ، فقال : « ان أفراد الشعب ، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثيـــاب أو الأثاث ما يشبع جشع الجباة ، سيضطرون الى بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التى فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعيـة للكوريا (٤) ») . وشكا الكردينال من الرشوة فى القضاء البابوى ، ومن الاحـكام التى نباع وتشرى ، والدعاوى التى يطول نظرها سنين عـــديدة ، والعنف والطغيان يعانيهما الخاسرون الذين يجرءون على استئناف الحكم من موظف أدنى الى آخر أعلى . يقول ساكيتى « ان هذه المظالم افدح من تلك التى نكب بها بنو اسرائيل فى مصر . فالناس الذين لم يغلبـــوا بالسيف بل اخضعوا للكرسي البابوى .. .. يعاملون معـــاملة أكثـر وحشية من معاملة العبيد فى سوريا أو أفريقيا . فمنذا يستطيع أن يشهد

هذه الاشياء دون أن يذرف عليها دموع الحـــزن والأسي (٥) ؟ » وفى وسط فقر الجماهير كان العديد من الاسر النبيلة التى تربطها رابطـــة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتـلقى الهبـــات الســـخية من ايرادات الكنيسة ·

أما بابوات هذا العهد فلم يكونوا زهـــادا كبيوس الخامس ، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس ، انما كانوا فى العادة قوما طيبين ، أضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم ، أو يراقبـوا مئات الثغرات والاركان التى ينفذ من خلالها او يختبىء فيها الفساد فى ادارة الكنيسة · ولعل أى مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتســـاع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الاخطاء الملازمة لطبيعة الانسان · وقد جاهد انوسنت العاشر ، (١٦٤٤ — ٥٥) ، « النقى الحياة المسـتقيم المبدأ (٦) » ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح اســـتغلال النبـــلاء الجشعين للايرادات البابوية ، ويصون النظام والعـــدل فى ولاياته · وتبدو عليه — كما صوره فيلاسكويز — كل مظاهر الخلق القوى ، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه ، وترك أوليمبيا مايدالكينى ، زوجة أخيه الجشعة الطموح ، تؤثر فى تعييناته وسـياساته ، فكان الكرادلة والسفراء يتذللون أمامها ، وأثرت من هداياهم ثراء صارخا ، ولكن لما مات انوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على مأتمه (٧) ·

وروى أن كردينالا قال فى مجمع الكرادلة الذى اختار خليفتـــه « يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (٨) » · وقد وجـــدوه فى شخص فابيو كيجى ، الذى أصبح الاسكندر السابع (١٦٥٥ — ٦٧) · وقد بذل قصاراه ليطهر الادارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال ، ونفى أبناء أخيه النهمين الى سيينا ، وخفض الدين العـــام · غير أن الفساد الذى أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهـــره · فألقى السلاح ، وسمح لابناء اخيه بالعودة الى روما ، وخلع عليهم المناصب المجزية ، فجمع أحدهم بعد قليل ثروة طائلة (٩) · وانتقلت القوة من يدى الاسكندر المتعبتين الى الكرادلة ، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة فى حكم الكنيسة · وحلت أرستقراطية من الأمر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التى ثبتها مجمع ترنت من قبل البابوات ·

وجدد كلمنت التاسع (١٦٦٧ - ٦٩) الكفاح ضد محاباة الأقرباء . وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولكنه ولى ظهره لطلاب المناصب . وأقبل المئات من مسقط رأسه بيستويا ، واثقين من أنه سيعينهم على الاثراء ، ولكنه ردهم ، فهجوه هجوا ساخرا ، وهنا أيضا ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء فى الظالم أو المظلوم ، وان الناس هم أس البلاء المحيط بهم . وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل . فبينما أصدر سلفه - بتحريض من لويس الرابع عشر - مرسوما مثيرا للمتاعب ضد الجانسنيين ، عرض كلمنت هدنة فى ذلك النزاع الناشب داخل الكنيسة . ومن أسف أنه مات ولم يقض فى دست الحكم غير عامين .

وخلفه كلمنت العاشر (١٦٧٠ - ٧٦) وهو فى الثمانين ، فترك الامور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل) ، ولكنه أنهى عهده دون عيب يعيبه . وجاء انوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ - ٨٩) وكان - كما قال رانكى البروتستنتى - رجلا « تفرد بتواضعه ... غاية فى دماثة الخلق وهدوء الطبع » ، مدققا فى مسائل الأخلاق حازما فى شئون الاصلاح (١٠) . وقد أبطل « كلية » الموثقين الرسوليين التى قال مؤرخ كاثوليكى « ان التعيينات فيها كانت تباع وتشرى بانتظام (١١) » وألغى الكثير من المناصب والامتيازات ، والاعفاءات ، (التى لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة فى سنوات كثيرة ، وأرسى للنزاهة المالية سمعة مكنت الادارة البابوية من اقتراض المال بفائدة لا تزيد على ٣ ٪ . كتب فولتير يقول عنه « كان رجلا فاضلا ، وحبرا حكيما ، ولاهوتيا ضعيفا ، وأميرا شجاعا ، قوى العزيمة ، جليل القدر (١٢) » . وقد حاول عبثا أن يخفف من تعجل جيمس الثانى فى كثلكة انجلترة ، وأدان العنف الذى استعمله لويس الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وقال ، « ان الناس يجب أن يهدوا الى دور العبادة لا أن يجروا اليها جرا (١٣) » ولم يجد ما يدعوه لمحبة ذلك الملك المتكبر الذى ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة فى فرنسا ما يقرب من السلطة التى أكدها هنرى الثامن لنفسه فى انجلتره . ولكى يقلل انوسنت الحادى عشر من الجرائم فى روما الغى حق اللجوء الذى سبق منحه لمساكن السفراء ، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه ،

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية ، وفى ١٦٨٧ دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك . ووبخ البابا السفير ، وأوقع حرما على كنيسة القديس لويس التى كان يصلى فيها السفير فى روما . واحتكم لويس الى مجمع عام ، وسجن ممثل البابا فى فرنسا ، واستولى على أقليم افنيون الذى كان ملكا للبابا منذ ١٣٤٨ . ومن هنا نظرة انوسنت الحادى عشر الهادئة المطمئنة الى الحملة التى جـردها وليم أورنج الثالث ، البروتستنتى ، لخلع جيمس الثـانى الكاثوليكى وادخال انجلترة فى حلف ضد فرنسا . وقد تعاون البابا مع جهود ليبنتز لاعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ووافـق على تنازلات أعلنت جامعات ألمانيا البروتستنتية رضاءها عنها ، وقد وصفه أحـد الانجليز بأنه « بابا بروتستنتى (١٤) » .

وتوفى انوسنت الحادى عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه ، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (١٦٨٩ - ٩١) وانوسنت الثانى عشر (١٦٩١ - ١٧٠٠) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجـوء ، وردت أفنيون للبابوية ، ونقل الاكليروس الفرنسي ولاءه من الملك الى البابا وأعاد الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية . وفى حـرب الوراثة الاسبانية وجد كلمنت الحادى عشر (١٧٠٠ - ٢١) نفسه وقد تورط فى انقسامات أوربا العنيفة ، فكان يلقى بنفوذه مترددا تارة فى جانب وتارة فى جانب آخر ، وفى النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروه - حتى صقلية وسردانيا ، وهما - فنيـا - اقطاعتان بابويتان . كذلك كانت معاهدة وستفاليا قد تجاهلت احتجاجات انوسنت العاشر . لقد استلزم اشتداد النزعة القومية اضعاف البابوية ، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم فى تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين فى الحياة الاوربية .

٢ - الفـن الايطالى

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شـئون الدنيا وشئون الدين . كان رجال الكنيسة لايزالون أغنى رعاة الفن ، يوصون بالمبانى ، والصور والتماثيل ، والزخارف ، ولكن الارستقراطية

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس ، وتوددت الى الاجيال القادمة بالصور ، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية • وفى ايطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنبا الى جنب فى انحدار بهى من النهضة الأوربية •

وكانت تورين تتخذ طريقها الى الثراء تحت حكم أدواق سافوى • وقد صمم جوارينو جوارينى لكتدرائية سان جوفانى باتيستا « كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو » أى كنيسة الكفن الأقدس (الذى اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامى كفن فيه جسد المسيح) • وقد انهارت قبة كنيسة سان فيلييو الكبرى ، التى بدأها جوارينى ، قبيل أن تكتمل ، فرممها فيليبو ايوفارا ، الذى ولد سنة ١٦٧٦ قبل موت جوارينى بسبع سنوات • ولعلنا نلتقى بايوفارا مرة أخرى •

وفى جنوة كان أروع بناء شيد فى هذا العهد هو قصر دوراتزو الذي بناه فالكونى وكانتونى فى ١٦٥٠ ، واشتراه بيت سافوى فى١٨١٧ ، واستخدم بعد ذلك قصرا ملكيا للأسرة • وقد تحطمت قاعة مراياه الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت رائدة لقاعة مرايا فرساى (١٦٧٨) ، فليس صحيحا اذن أن مارس (اله الحرب) عشق فينوس يوما ما • أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو ، وقد نجد انموذجا من فنه فى لوحة « مجمع اليهود » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو ، أو لوحة « الغداء البوهيمى » المحفوظة باللوفر •

وواصلت البندقية انجابها للأبطال والفنانين • وأى عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك ؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالى وبحارته يهاجمون كريت ، وكانت يومها مستعمرة للبندقية ، وهلك فى تلك الحملات العنيفة ١٠٠٫٠٠٠ تركى (١٥) ، ومع أن جيشا عدته ٥٠٫٠٠٠ مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة فى الجزيرة ، فان العاصمة صمدت للحصار عشرين عاما ، وصدت اثنين وثلاثين هجوما • وفى ١٦٦٧ أرسل فرانشسكو موروزينى ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعا • وأخيرا سلمت (١٦٦٨) ، ولكن أحدا لم يعد يتكلم على تدهور البندقية • وفى ١٦٩٣ ، عندما تقلد موروزينى امرة الاسطول البندقى ، تقهقر الاتراك حين اقترب منهم وقد روعهم

اسمه فقط . وكان لا يزال من ذلك الطراز من الرجال الذى صوره تنتوريتو وفيرونيزى — الشجاعة المجسمة التى لا تعرف الرحمة .

وكان بالداسارى لونجينا رجلا آخر من هذا الطراز السبعينى . فقبل سنوات كثيرة (١٦٣٢) صمم كنيسة « سانتا ماريا ديللا سالوتى » — أميرة البحيرات الجليلة ، أما الآن ، وبعد سبعة وأربعين عاما ، فقد شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى — قصرا متينا بديعا بأعمدته المزدوجة وكرانيشه المتعددة ، ثم بنى (وهو فى السادسة والسبعين) قصر ريتزونيكو ، الذى سيموت فيه الشاعر براوننج . وهناك نبت آخر، صلب العود ، حمل البذرة البندقية الى نصف القارة ، وهو سبستيانو ريتشي ، الذى ولد (١٦٥٩) بمدينة بللونو فى اقليم فنيتسيا ، وذهب الى فلورنسة ليزخرف قصر ماروتشيللى ، ثم سار على أقل الدروب ضنكا — الى ميلان ، وبولونيا ، وبياتشينزا ، وروما ، وفيينا ، ولندن. وأنفق عشر سنوات فى انجلترة ، ورسم صورا فى مستشفى تشلسي ، وبيرلنجتن هاوس ، وقصر هامبتن كورت ، وكاد يظفر بمهمة زخرفة كنيسة القديس بولس الجديدة . ثم مضي الى باريس ، حيث انتخب عضوا فى أكاديمية الفنون الجميلة . ولوحته « ديانا والحوريات (١٦)» غلمة كلوحات بوشيه ، لطيفة كلوحات كوريدجو . وعمر ريتشي حتى ١٧٣٤ ، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر ، ومهد الطريق للعصر الذهبى للتصوير البندقى أيام تيبولو .

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماما . فاشتهر كارلو تشينيانى برسومه الجصية فى كتدرائية فورلى . وكشف جوزيبى ماريا كرسبى (لو سبانيولو) فى « صورته الذاتية (١٧) » عن رجل مستغرق فى الفن ، متناس كل متاعبه اذا اتيح له أن يرسم . وقد صور جوفانى باتيستا سالفى (« الساسوفيراتو ») فى لوحته « العذراء تصلى (١٨) » ما فى المحبة من انكار للذات ، وارانا فى لوحته « العذراء والطفل (١٩) » مجرد امرأة بسيطة ، سعيدة بوليدها (البامبينو) ، كأى امرأة تراها فى أى يوم بين فقراء ايطاليا .

وقد حكم فلورنسه وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار أذواق توسكانيا ، فرديناند الثانى وكوزيمو الثالث . وفى ١٦٥٩ بدأت

سيينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور : فكانت أحياؤهـــا العشرة تنظم موكبا بملابس بهية يسير فى شوارع زينت بالعمائر ، والرايات ، والزهور ، ونساء مرحات لابسات ثيابا جذابة ، ثم يتبارى فرســـان الأحياء بجنون فى سباق على معطف السيدة العذراء التى كوست المدينة التقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد • ولم تملك فلورنســـة الآن من المصورين الا الصغار • وواصل كارلو دولتشي ، بفن أضعف ، صور جيدو رينى العاطفية ، المتأملة فى السماء ، التى رسمها للعذراء والقديسين ، والعالم كله يعرف لوحته « القديسة سيسيليا (٢٠) » • ورسم يوستوس سوسترمانس ، الذى هاجر من فلاندر الى فلورنسة ، لوحات تعد من العجائب التى تشد الانتباه فى قاعة بيتى - وليس أقلها رأس جاليليو الرائع الجليل • كذلك كان يبدو موسي وهو يشرع الناموس ، لا كمـــا نراه فى وحش ميكلانجلو ذى القرون •

وكان الفن فى روما يفيق من قيود الحركة المعارضـة للاصـــلاح البروتستنتى • فعاد البابوات بقدر أخف الى روح النهضة ، وشجعوا الأدب ، والدراما ، والعمارة ، والنحت ، والصوير • ورمم انوســـنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفانى فى لاتيرانو • وكلف الاسكندر السابع برنينى بأن ينحت نطاقا رباعيـــا من حراس مصـــنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (١٦٥٥ - ٦٧) - فنحت ٢٨٤ عمودا و ٨٨ ركيزة ، ووفق فى صنعها الى تحويل الذهب الى حجر • وفى عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديللا باتشي ، حيث كانت عرافات رفائيل لا تزال تتأمل القدر • واشـــترك جيرولامو داينالدى مع ابنه كارلو فى تشييد كنيسة سانتاجنيزى الجميلة فى ميدان نافونا • واشترك الوالد والولد ثانية فى تصميم كنيسة « يسوع ومريم » ، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا فى كامبيتللى ليضم تمثـــالا للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون ١٦٥٦ • وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم فى فخامة القصور • وارتفع الآن قصر دوريا وبهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة ، وفى كنيسة « يسوع ومريم » حفر فرانشسكو كافالليني لأسرة بولونيتى مقبرة لابد أنها اثارت حسد الاحياء للأموات •

وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم مازال حيا فى روما -

وقد خطب أهلها ود كارلو ماراتى ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، باعتباره زعيم المصورين فى الباروك الحديث . وصورته لكلمنت التاسع (٢١) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، وصورته «العذراء مع القديسين فى الفردوس»(٢٢) تكرار لعشرات مثلها ، ولكنها صورة جميلة . وحين أراد كلمنت الحادى عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية فى الفاتيكان عهد الى ماراتى بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرها على الرسوم ، فأداهـا بكفاية . واختار اليسوعيون جوفانى باتيسنا جاوللى (الباتشتشو) ليرسم قبو كنيستهم الأم « الجيزو » ، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من أقدر فنانى عصره ، هو أندريا بوتسو ، الذى التحق بالطريقة وهو فى الثالثة والعشرين ، وصمم فى تلك الكنيسـة مذبح القديس اجناتيوس - وهو من روائع الباروك . وفى ١٦٩٢ نشر بوتسو مقالا عن المنظور فى التصوير والعمارة أثار ضجة فى عدة لغات . واستهواه موضوعه كما استهوى أوتشيللو موضوعه قبل قرنين ، فطور دراساته لطائف « الخداعية » ، كما يرى فى صوره الجصية فى فراسكاتى . ودعاه الأمير فون ليشتنتشتين الى فيينا ، فأفنى نفسه بكثرة المهـام التى اضطلع بها ، ومات هناك فى ١٧٠٩ بالغا من العمر سبعة وستين عاما.

كان أعظم المصورين الايطاليين الآن فى نابلى . فكل شيء أينع وازدهر هناك - الموسيقى والفن ، والأدب ، والسياسـة ، والدراما ، والجوع ، والقتل ، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهائجـون أبدا ، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاتنه ، المطـاردة المرحـة ، العنيفة ، الشجية . وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحيـاة هـذه . وكان أبوه معماريا ، وعلمه عم له التصوير ، وكان زوج أخته تلميذا لريبيرا ، وقد أذن لسلفاتور نفسه فى الوقت المناسب بالالتحاق بذلك المرسم الجليل . وعلمه استاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية . واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التى ترى فى متحف نابلى القومى أو فى اللوفر . ومن المعارك انتقل الى مشاهد الطبيعة ، ولكن هنا أيضا آثرت روحـه الوحشية رسم الطبيعة فى سورات غضبها ، كما يرى فى لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والارض المظلمة يضيئها فجـاة برق يحطـم الصخور ويصوح الاشجار فى طرفة عين . وأقنعه لانفرانكو بالذهاب الى

روما والتودد للكرادلة ، فذهب وأثرى هناك ، ولكنه هـرع قافلا الى نابلى ١٦٤٦ ليشترك فى ثورة مازانيللو . فلما فشلت عاد الى روما ، وصور كبار رجال الكنيسة ، وكتب هجاء ساخرا تهكم فيه بالترف الكنسي . ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دى مديتشي ليذهب ويعيش معه فى فلورنسة ، وهناك مكث تسع سنوات ، يرسم ، ويعزف الموسيقى ، ويقرض الشعر ، ويشارك فى التمثيليات . وحين عاد الى روما ثانية ، سكن بيتا فى التل البنسي ، حيث عاش بوسان ولوران من قبل . وتقاطر عليه أقطاب الكنيسة ، ليصورهم مغضين عن هجائياته ، مؤثرين فرشاته على قلمه ، وكان احب الفنانين الى الناس فى ايطاليا طوال عشر سنوات . وقد رسم صور القديسين والاساطير المألوفة ، ولكنه فى محفوراته استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعذبين ، وهذه المحفورات من أبدع آثاره .

ولم ينافسه فى شهرته غير رجل آخر من أهل نابلى ، هو لوكا جوردانو . وكان فنانا وهو بعد فى الثامنة ، ثم رسم فى كنيسة سانتا ماريا لانوفا ملاكين بلغا من الجمال والرشاقة مبلغا جعل الحاكم يأخذه العجب حين رآهما ، ويرسل للصبى بعض القطع الذهبية مع توصية لريبيرا . وظل يدرس على يد ذلك الاستاذ الغارق فى تأملاته ، ويدهش كل انسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأساليب . وتاق للذهاب الى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة ، ولكن أباه عارض فى ذهابه ، لأنه يرتزق من بيع صور لوكا ورسومه . ففر لوكا سرا ، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة فى الفاتيكان ، وفى كنيسة القديس بطرس ، وفى قصر فارنيزى . وتبعه أبوه ، وحصل على قوته هنا أيضا ببيع صور ابنه العارضة ، ويروى أن السر فى تلقيبه « فا ــ برستو » هو حث أبيه له على السرعة .

فلما استوعب فن روما مضي الى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صورا لا تكاد تختلف عن روائعهما . ولكنه رسم الى ذلك صورا أصيلة ظفرت بالاستحسان ، وفى وسعنا الحكم عليها من لوحته « انزال المسيح عن الصليب » المحفوظة بأكاديمية البندقية . ولما عاد الى نابلى زخرف اثنتى عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معهما منافسوه حيلة الا أن يتسقطوا له الهنات . ثم دعاه كوزيمو الثالث الى فلورنسة

(١٦٧٩) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية فى كنيسة كورسينى.

وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين رأى ما أحرزه لوكا من نجاح ، فمات بعد قليل (٢٣) ، وتروى لنا ايطاليا المحبة لفنانيها من الاساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها . وفى رواية أخرى أن نائب الملك الأسبانى فى نابلى أوصي برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسس زافير ، وثار غضبه حين وجد أن شيئا لم ينجز فى هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة ، وما راعه بعد يومين الا أن يجد العمل كاملا وجميلا . وقال نائب الملك « ان راسم هذه الصورة اما ملاك واما شيطان (٢٤) » .

وطبقت شهرة الملاك الشيطانى الآفاق حتى بلغت مدريد ، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثانى لينضم للبلاط الاسبانى . ومع أن الملك كان مشرفا على الافلاس فانه وصل الفنان بألف وخمسمائة دوكاتيه ، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة . فلما بلغ جوردانو مدريد (١٦٩٢) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق . وما لبث أن بدأ العمل فى الاسكوريال وهو فى السابعة والستين . فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير ، وعلى قبو الكنيسة رسم « صورة طبق الأصل » من السماوات ، ترينا شارل الخامس وفيليب الثانى فى الفردوس - وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من الثالوث الأقدس لآل هابسبورج . وفى السنتين التاليتين رسم عددا كبيرا من الصور الجصية يعدها مؤرخو الفن الاسبان خير ما رسم فى الاسكوريال (٢٥) . وفى « القصر » بمدريد ، وفى بوين ريتيرو ، وفى كنائس طليطلة والعاصمة ، رسم صورا بلغت من الكثرة ، وأنفق فيها من الجهد ، ما جعل منافسيه يعيرونه بانه يعمل ثمانى ساعات فى اليوم وفى أيام الأعياد . كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة ، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشترى الجواهر الغالية استثمارا آمنا لماله لأن كل شيء فى هذه الدنيا سيتغير ويتبدل الا غرور الانسان . وقد كرمه كل البلاط ، ووسفه شارل الثانى فى لحظة صفاء بأنه أعظم من ملك .

ومات شارل فى ١٧٠٠ ، ومكث جوردانو فى أسبانيا رغم ما تلا

ذلك من حرب الوراثة الاسبانية ، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكليفات سخية عسيرة . ثم عاد الى ايطاليا فى ١٧٠٢ ، وتخلف فى روما ليلثم قدم البابا ، ووصل الى نابلى والغار يكلله . وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو ، المطل على المدينة ، رسم فى ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطا وحذقا لا يكادان يصدقان فى رجل بلغ الثانية والسبعين (١٧٠٤) . وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوها « ايه يا نابلى ، يا نسمة حياتى (٢٦) » .

ولم يعدله شهرة عند وفاته فنان آخر فى جيله . ونافس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك فى شراء صوره ، وفى انجلترة النائية تغنى مافيو برايور بمديح « جوردان الالهى » وأعجب عامة الناس بغنى الوانه ، وبأس أشخاصه ، وجلال أفكاره ، وقوة عرضه . ولكن الفنانين - بعد أن أفاقوا من هذا الخدر العام - بينوا علامات التعجل فى انتاج لوكا فا - برستو ، والخلط المتناقض بين الافكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية فى المشهد الواحد ، والمواقف المفتعلة ، والافراط فى الاضاءة الساطعة ، والافتقار الى التناسق والهدوء . ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمن طويل ، اذ عرف المصور القدير بأنه ذلك الذى يحبه جمهور الشعب (٢٧) . ومن العسير تفنيد هذا التعريف ما دمنا نفتقر الى معيار موضوعى للامتياز أو سلامة الذوق ، ولكنا قد نجد أدنى محك ذاتى للعظمة فى مبلغ تاثير انسان ما فى الزمان والمكان ، وأدنى مقياس ذاتى للشهرة فى قدرتها على البقاء . ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة ، وهو لا يشعر بأى أذى من جراء شهرته الآفلة .

وكان الفنان فرانشسكو سولمينا يناهز الثامنة والاربعين حين مات فا - برستو ، ولكن سنى عمره التسعين بلغت بمدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر . وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتى كاسينو ، ورسم فرانشسكو الخورس ، وتهدم هذا وذاك فى الحرب العالمية الثانية . ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولمينا ، ففى فيينا « اغتصاب أوريثيا » وهى نشوة بضة من عضلات الذكر ومنعطفات الانثى ، وفى اللوفر نرى صدى وتحديا لرفائيل فى لوحته « هليودوروس يطرد من الهيكل » ، وفى كريمونا صورة « مادونا

أدولورانا » وبصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود اذا كان فى الجنة الكثير من أمثاله .

٣ - أوديسة كرستينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية . ففيها أيضا مئات من الموسيقيين ، والشعراء ، والمسرحيين ، والعلماء ، والمؤرخين . وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب ، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم . وكانت أوهام مارينى الموشاة مازالت عدواها تسرى فى الشعر الايطالى ، ولكن لذع هجائيات تاسونى ، وحرارة نزعة مارينى الحسية ، وتدفق مقاطع تاسو الفوار ، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الايطالى حافزا والهاما مازالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر .

أما أعظم الشعراء الغنائيين فى العصور الحديثة(٢٨) ، اذا صدقنا ماكولى ، فهو فنتشنزو دا فيليكايا . وقد شدا هذا الشاعر بتخليص سوبيسكى لفيينا فى قصائد غنائية شاكرة ، ورحب بمجىء كرستينا الى روما فى نملق نشوان ، ووصف فى خزى ساخط اخضاع وطنه للجيوش الدخيلة ، يقول :

« ايطاليا ، ايه يا ايطاليا ، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك ، فأصبح سجل الويل والثبور موسوما على جبينك الى الأبد ! ليت ميراثك كان جمالا أقل وبأسا أشد ! حتى يجدك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذلك ، أكثر ارهابا أو أقل جمالا (٢٩) » .

على أن هنرى هالام ، الذى طوف لغويا خبيرا بكل الآداب الأوربية ، ذهب الى أن كارلو اليساندرو جيدى ، لا فيليكايا ، هو الذى « ارتفع الى أسمى ذروة بلغها أى شاعر غنائى ايطالى » و .. أن « قصيدته الغنائية فى الحظ على الاقل تعدل أى قصيدة غنائية أخرى فى الايطالية (٣٠) . » ، ولا يستطيع أحد لم يتمكن بعد من الايطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولى وهالام ولا بين جيدى وبترارك ، ولا بين فيليكايا وبيرون أوشلى أوكيتس .

كان جيدى واحدا من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم فى صالون كرستينا بروما . وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الآفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب ، بل راعية ونموذجا للعلم ، والمضيفة الحفية بسالماسيوس وديكارت . وكان تخليها عن التاج فى سبيل المذهب، وتحولها عن البروتستنتية التى مات أبوها من قبل لينقذها ، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرائها لتلثم قدمى البابا - كانت هذه كلها أحداثا لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربى .

كانت فى ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (١٦٥٤). وأعطاها ابن عمها شارل العاشر ، الذى اختارته ليتبوأ عرشها ، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها ، وقرر لها الديت السويدى دخلا كبيرا ، وحقوق ملكة على حاشيتها . فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة فى الدنمرك ، وهناك صدمت مشاعر الأهالى بنزولها ببيت مالى يهودى كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكيلا ماليا لها . واجتازت هولندة البروتستنتية متنكرة ، ولكنها اتخذت زيها السافر فى أنتورب الكاثوليكية . وهناك استقبلها استقبالا ملكيا الأرشيدوق ليوبولد ، واليزابث ملكة بوهيميا السابقة (وهى ملكة مخلوعة أخرى) ، وابنتها الأميرة اليزابث (وهى تلميذة أخرى لديكارت) . ثم واصلت رحلتها الى بروكسل ، حيث استقبلت بالألعاب النارية ، والصواريخ ، وطلقات المدافع ، والجموع الهاتفة المصفقة . وأسلمت نفسها حينا فى اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثيليات ، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها ، وفى عشية عيد الميلاد أرتدت سرا عن المذهب اللوثرى ، وأعلنت عزمها على ألا تستمع الى مزيد من المواعظ (٣١) » ، ثم أطالت مكثها فى فلاندر ريثما تعد الكوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسميا فى الكنيسة وايطاليا . وبعد أن غادرت بروكسل أخترقت النمسا فى رحلة وئيدة . وفى انزبروك جهرت رسميا باعتناقها المذهب الكاثوليكى . وكانت رحلتها فى ايطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالا. فتزينت المدينة تلو المدينة لتحييها ، ونظمت المهرجانات والعروض تكريما لها فى مانتوا ، وبولونيا ، وفاينزا ، وريمينى ، وبيزارو ،

وأنكونا ، وأخيراً (١٩ ديسمبر ١٦٥٥) دخلت روما وسط مهرجان من الأضواء هزأ بتنكرها . وفى الغد مضت الى الفاتيكان حيث رحب بها البابا اسكندر السابع . وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتها مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمى الذى رتبه لها كبار رجال الكنيسة ، فمرت بقوس نصر ، وبالبورتا ديلبوبولو (باب الشعب) ، الى المدينة ممتطية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل ، بين صفوف الجند وحشود الاهالى وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الاصلاح البروتستنتى بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية .

فلما اكتمل هذا كله ، سمح لكرستينا بأن تتصرف فى وقتها كما تشاء ، تستقبل الأساقفة ، والحكام ، والعلماء ، وتزور المتاحف ، والمكتبات ، والأكاديميات ، والأطلال ، وتدهش مرشديها بمعلوماتها فى تاريخ ايطاليا وآدابها وفنونها . وأغرقتها كبار الأسر بالولائم والهدايا والتحيات ، ووقع الكردينال كولونا فى غرامها وهو فى الخمسين ، وعزف لها ألحان حبه ، ولم يكن بد من نفيه انقاذا لكرامة الكنيسة . وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت فى منافسات الحزبين الفرنسي والأسبانى فى البلاط البابوى . وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة فى تمويل حربها مع بولنده ، فرهنت مجوهراتها ، وتلقت قرضا من البابا .

وفى يوليو ١٦٥٦ خرجت فى زيارة لفرنسا . وهناك أيضا لقيت ما تلقى الملكات من تكريم . ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم ، وخرج ألف فارس لاستقبالها ، وهتفت لها الجموع ، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بازهارهم الخطابية ، ووصفها دوق جيز ذلك العهد ، الذى أوفده مازاران لمرافقتها ، بهذه العبارات :

« ليست طويلة ، ولكن لها خصرا ممتلئا وشفتين كبيرتين وذراعين حلوتين ، ويدا بضة حسنة التكوين ، ولكنها أقرب الى يد الرجل منها الى يد المرأة ... ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره ... وأنفها معقوف ، وفمها كبير نوعا ولكنه ليس منفرا ... وعيناها بديعتان تشعان نارا ... وعلى رأسها غطاء عجيب جدا ...

باروكة رجل ، كثة عالية ... ترتدى جذاء رجل ، ولها نبرات صوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريبا ، ـ تتظاهر بلعب دور المرأة المسترجلة (الامازونة) .. وهى غاية فى التادب والمجاملة ، وتتكلم ثمانى لغات ، لا سيما الفرنسية ـ وكأنها ولدت فى باريس ، انها تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا ، مضافا اليها الصوربون ، وتفهم التصوير فهما جديرا بالاعجاب ، وكذلك تفهم كل ما عداه . انها لشخصية غاية فى الغرابة (٣٢) » .

وأنزلت جناح الملك فى اللوفر . ثم صحبها دوق جيز بعد ذلك الى كومبيين ، حيث استقبلها لويس الرابع عشر ، وكان يومها فتى وسيما فى الثامنة عشرة . والتفت سيدات القصر حولها كالفراشات ، ولكن أربكهن استرجالها فى اللباس والحديث . وذهبت مدام دموتفيل الى انها « تبدو لأول وهلة وكأنها احدى الغجريات سيئات السيرة » ولكن « بعد ذلك ... بدأت آلف لباسها .. ولاحظت أن عينيها جميلتان متألقتان ، وأن فى وجهها رقة ، ولطفا يمتزج بالكبرياء . وأخيرا أدركت فى دهشة أنها أرضتنى (٣٣) » . على انه يمكن القول عموما أن النساء اللاتى وشين ما فى المجتمع الفرنسي من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة ، هؤلاء ساءهن اهمال كرستينا لملبسها ، و « افراطها فى الضحك ، وتحررها فى حديثها سواء عن الدين أو عن المواضيع التى تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيدا من التحفظ فيها .. وقد جهرت بانها تحتقر جميع النساء لجهلهن ، ووجدت لذة فى التحدث الى الرجال سواء فى المواضيع الطيبة أو الخبيثة . وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط (٣٤) » . ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسي قسون فى الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجادة . قال « لم يكن فى البلاط الفرنسي امرأة واحدة وهبت ذكاءها (٣٥) » . أما كرستينا فقد حكمت على سيدات البلاط بأنهن شديدات التكلف ، وعلى الرجال بأنهم شديدو التخنث ، وعلى الفريقين بالافتقار الى الاخلاص . وفى سنليس ، فى طريقها عائدة من كومبيين الى باريس ، طلبت أن ترى « آنسة تدعى نينون (دلانكلو) ، مشهورة بالرذيلة ، والتهتك ، والجمال ، والذكاء . ولم تبد أى علامة من علامات الاحترام الا لهذه المرأة وحدها ، دون سائر النساء اللائى رأتهن فى فرنسا (٣٦) » . وقد

وجدت نينون جبيسة مؤقتا فى دير للراهبات . وتحدثت اليها كرستينا فى مرح ، وأقرتها على امتناعهـــا عن الزواج (٣٧) . ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافيـــة وأهم آثارها الفنيـــة (نوفمبر ١٦٥٦) .

وفى سبتمبر ١٦٥٧ زارت فرنسا ثانيـــة . ولم تســـتقبل ذلك الاستقبال الرسمى السابق ، ولكنها أنزلت فونتنبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك . وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالا مشروعا لحقوقهـــا الملكية على حاشيتها . وتفصيل ذلك أن ياورها المركيز موناديســـكى اشترك فى مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله . وزاد الموقف سوءا باتهامه رجلا آخر من حاشيتها بالتآمر عليها . فواجهته برسائله التى تثبت التهمة عليه ، وأمرت قسيسا أن يسمع اعترافه ويمنحه غفـــران الكنيسة ، ثم أصدرت الامر لحراسها فاعدموا المركيز . وصعقت فرنسا ، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدى من حقوق على أتباعها صدمهم هذا الاستعمال الفجائى التعسفى لسلطتها فى مســـكن يملكه ملك فرنسا . وسمح لكرستينا بأن تنفـــق الشـــتاء فى باريس ، وتستمتع بالتمثيليات وحفلات الرقص ، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت الى ايطاليا (مايو ١٦٥٨) .

وقد سبب لها قطع الدخل الذى يأتيها من الســـويد من الحـــرج الشديد ما جعلها فيما روى تطلب الى الامبراطور ليوبولد الأول جيشا تقوده بنفسها ضد شارل العاشر ، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوى من اثنى عشر ألف سكودى قرره لها البـــابا الاســـكندر السابع . وقد زارت السويد مرتين (١٦٦٠ ، ١٦٦٧) لتستعيد دخلها ، وربما تاجها . ورد اليها دخلها ، ولكنها لم تلق ترحيبا فى استكهولم ، واتهمها رجال الدين اللوثريون بأنهـــا تتآمر لتحـــول الأمـــة الى الكاثوليكية ، ومنعت من الاستماع الى القداس فى مسكنها . وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف فى هامبورج . ومنها أرســـلت مندوبين الى وارسو فى ١٦٦٨ ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولنده الذى خلا باعتزال يوحنا كازيمير . وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها ، ولكن الديت البولندى رفضها لأسباب كثيرة ، منها رفضها أن تتزوج . وقد قالت ان امبراطورية العـــالم بأسرها لن تحملهـــا على الرضـــا

بالزواج (٣٨) . ثم عادت الى ايطاليـــا فى ١٦٦٨ ، ومكثت بهـــا حتى ماتت .

وكانت تلك السنوات العشرون الأخيرة أجمل سنى عمـــرها . وأصبح جناحها فى قصر كورسينى أهم الصالونات فى روما ، وملتقى الاساقفة ، والعلماء ، والملحنين ، والنبلاء ، والدبلوماسيين الأجانب . هناك رحبت بأليساندرو سكارلاتى ، وتلقت من أركانجلو كوريللى اهداء أول سوناتاته المنشورة . وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرهـــا من التحف المنتقاة بذوق كان مثار اعجاب الخبراء ، أما المخطوطات التى جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات . وكانت تثبط الاسلوب المتكلف الذى نما فى الشـــعر الايطالى ، وأثرت على جيدى ليتزعم حركة تعود الى نقاء اللغـــة ، واســـتقامة التعبير ، اللذين ســـادا فى أيام أسرة مديتشي . وكانت مذكراتها مثالا للكلام البسيط القوى ، و « أقوالها المأثورة » . آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا ، لم تسمح لتقواها بأن تفســـد استمتاعها بالحياة . ولم تكن متعصبة ، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين فى تنفيذ قانون فسخ مرسوم نانت ، وكتبت تقول « انى أنظر الى فرنسا نظرتى الى مريضة بتر ذراعاها وساقاها علاجا لمرض كانت تشفى منه تماما بممارسة اللطف والصبر (٣٩) » . وذهب بيل الى أن هـــذه العواطف بقية متخلفة من تربيتها البروتستنتية ، فوبخته على هـــذا التفسير ، فكتب اليها معتذرا ، فغفرت له شريطة أن يوافيهـــا بكتب جديدة أو غريبة (٤٠) .

وماتت عام ١٦٨٩ بالغة الثالثة والستين ، ودفنت فى كنيســـة القديس بطرس . وبعد موتهـــا بثلاث ســـنوات أسس جوفانى ماريا كريسكمبينى تخليدا لذكراها « الاكاديمية الاركادية » وأكثر أعضائها الاوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها . وواصلوا الصلة القديمـــة بين الشعر والرعوية ، وسموا أنفسهم رعاة ، واتخذوا أسماء ريفية ، وعقدوا اجتماعاتهم فى الحقول . وأنشأوا فروعا فى مدن ايطاليا الرئيسية ، ومع احتفاظهم بالحيل البارعة فى بنيان قصائدهم ، فانهـــم أنهـــوا تسلط الأوهام على الشعر الايطالى .

٤ - من مونتيفردى الى سكارلاتى

كانت الموسيقى فى ذلك المجتمع المرح ، مجتمع ايطاليا القرن السابع عشر ، نغمة الحياة ونسيمها . لقد خاض هذا الشـعب المشبوب العاطفة الحروب فى الأوبرات ، وحارب معارك الحب فى أغانيـــه الشعرية ، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم ارادته .

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال . وأصبح الأرغن الآن منفاخا مزينا له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين ، بالأضافة الى أنابيب متنوعة ، وكان هناك بالطبع أراغن متنقلة للشارع . وفى تاريخ مبكر (١٥٩٨) نسمع بآلة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت « البيانو أى فورتى » (أى الخافت والقوى) ورد ذكرها فى قائمة الآلات التى يملكها ويعزف عليها الدوق الفونسو الثانى فى مودينا ، ولكنا مازلنا نجهل الفرق بينها وبين « البيـلن القيثـــارى » بنوعيه elavieembalo (الهاربسيكورد) و spinetta . وينقضي قرن قبل أن نســمع بالبيانو فورت ثانية . وفى ١٧٠٩ عرض بارتولوميو كريستوفورى آلة موسيقية سماها gravicemblo col pianoe forte ، وكان صـــانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديــــاند دى مديتشي بفلورنسة . وكانت هذه الآلة تختلف اختلافا هاما وان كان طفيفا عن الهاربسيكورد . فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقـــرع وترا ، وفى الامكان خفض الصوت أو رفعه بتنويع لمس الأصابع للمفتاح - بينما النغمات فى الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تنبعث بواسطة ريشــة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتنقر الوتر ، ولا يمـــكن أحداث تنويع فى قوة الصوت× . وحل البيانوفورت بالتدريج محــل الهاربسيكورد فى القرن الثامن عشر ، لا لأنه يستطيع أن يعزف الأصوات « الخافته والعالية » فحسب ، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير .

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة lyre) فى القرن

× فى متحف المترويولتان للفنون بنيويورك احد بيانات كريستوفورى الذى يرجع تاريجه الى ١٧٢٠ .

السادس عشر ، لاسيما فى بريشا × . فجلب أندريا أماتى فن صنع الكمان الى كريمونا ، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه فى هذه الحرفة ، الى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه أندريا جارنيرى وأنطونيو ستراديفاى . وآل جارنيرى مثال آخر من الأسر التى جرى فيها النبوغ فى نفس الحرفة ، فهناك أندريا وولداه بييترو « دى مانتوا » وجوزيبى الأول ، وحفيده بييترو الثانى « دى فينيتسيا » وحفيد أخيه جوزيبى الثانى « ديل جيزو » - الذى جعل باجانينى يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية . وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفارى يرجع تاريخه الى ١٦٦٦ ، حين كان فى الثانية والعشرين ، وقد كتب عليه « أنطونيوس ستراديفاريوس الومنوس نيكول أماتى فاتشيبات آنو ١٦٦٦ » ويلى هذا شعاره الشخصي - وهو صليب مالطى والحرفان الأولان من اسمه ، أ . س ، داخل دائرة مزدوجة . وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر « سترافيداريوس » . وقد ألف العمل دون انقطاع ، والقصد فى الطعام ، وعاش ثلاثة وتسعين عاما ، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصقل ما أصبحت معه عبارة « غنى مثل ستراديفارى » مرادفا كريمونيا للثراء العريض . والمعروف أنه صنع ١١٦ر١ كمانا ، وفيولا ، وفيولنسيلو ، وبقيت منها على قيد الحياة ٥٤٠ كمانا ، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (٤١) . وقد ضاع سر الطلاء الذى كان يصقل به آلاته .

وشجع هذا التحسن فى الآلات تطور الاوركسترا ، وتاليف الموسيقى الآلاتية وأداءها . واكتشف المؤلفون والعازفون فى الكمان مرونة فى الحركة وتنوعا فى النغم يستحيلان على الصوت البشرى ، اذ كان فى استطاعتهم أن يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقى بيسر يفوق الوصف فعلا ، وأن يبنوا التنويعات ويتلاعبوا بها ، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقتحموا الجديد من الايقاعات ، والتطويرات ، والتجارب . وأمكن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التاليف من الرقص ومن الأغنية على السواء ، واستطاع التاليف أن يحلق على

× زعم فلودزيميرز كامينسكى فى ١٩٦١ انه وجد أوصافا للكمان فى مخطوطات بولندية ترجع للقرن الرابع عشر - لوس أنجيليس تايمز ، ١١ اغسطس ١٩٦١ .

جناحيه هو فى الجديد من المتتاليات ، والتجميعات ، والأشكال . وكان تومازو فيتالى سباقا بسوناتات الكمان التى لم يعرف لها مثيل من قبل فى عنى الابتكار ، والتى أعانت على ارساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والنشيطة . أما أركانجيلو كوريللى ، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفا وعازفا ماهرا ، للموسيقى الحجرية التى شاعت فى القرن الثامن عشر بسوناتاته التى وضعها للكمان ، وكان له هو وفيتالى فى ايطاليا ، وكوناو وهينريش فون بيبر فى المانيا ، الفضل فى اعطاء السوناتا بناء وشكلا باعتبارها قطعة « تعزف » بالآلات فقط ، مقابل « الكانتاتات » التى هى مؤلفات تغنى بالصوت . وكوريللى هو الذى قرر شكل « الكونشرتو جروسو » ـ كمانان وفيولنتشيللو واحدة تقود أوركسترا وتريا ـ بألحان بسيطة مشجيه مثل « كونشرتو عيد الميلاد » (١٧١٢) ، ففتح بذلك طريقا لكونشرتو فيفالدى وهندل ومتتابعات باخ الأوركسترية وقد احتفظت ألحان كوريللى بشعبيتها فى القرن الثامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرنى وهو يكتب حوالى عام ١٧٨٠ أن شهرتها ستبقى «ما بقى النظام الحالى للموسيقى مبعث بهجة لآذان البشر(١٤٢)»

وكما أصبح كوريللى المؤلف المفضل للكمان ، فكذلك هيمن أليساندرو شتراديللا على موسيقى هذا العصر الصوتية ، بالأصوات الفردية ، والثنائية ، والثلاثية ، والأوراتوريوات . وكانت حياته ذاتها دراما فى الموسيقى ، وقد حولت الى تمثيلية وأوبرا . ذلك أنه أحرز فى عمله مدرسا للغناء بالبندقية نجاحا محزنا . فقد فرت معه لروما احدى تلميذاته الأرستقراطيات ، واسمها أورتنسيا ، مع أنها كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقى ألفيزى كونتارينى . وأرسل عضو الشيوخ فتاكا ليقتلوه . ولكن حين سمعه هؤلاء القتلة المرهفو الحس يرتل الدور الرئيسي فى لحنه « أوراتوريو دى سان جوفانى باتيستا » فى كنيسة سان جوفانى باللاتيرانو ، تأثروا بالموسيقى (كما تقول القصة) تأثرا جعلهم يقلعون عن القيام بما كلفوا به ، ويحذرونه هو ورفيقته ليلتمسا مخبأ آمنا . وفر العشيقان الى تورينو ، ولكن سرعان ما أشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر . وأرسل كونتارينى فاتكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه ، فهاجماه ، وتركاه وهما

يحسبانه قد مات . ولكنه أفاق ، وتزوج أورتنسيا ، ورحل معها الى جنوه . وهناك عثر عليهما مأجورو عضو الشيوخ ، فطعناهما طعنات أودت بحياتهما (١٦٨٢) (٤٣) . وظل الأوراتوريو الذى قيل انه أنقذ حياته محتفظا بشعبيته قرنا كاملا ، وقد مهد السبيل أمام هندل .

وغدت الأبرا الآن هوسا فى ايطاليا . فالبندقية وحدها كان بها ست عشرة دارا للأوبرا فى ١٦٩٩ ، وقد استمعت الى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامى ١٦٦٢ و ١٦٨٠ (٤٤) . كذلك أقبلت نابلى على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت . أما فى روما فقد أصبحت الأوبرا رمزا على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدما ، وقد ألف كلمنت التاسع نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن يرتقى عرش البابوية (٤٥) . وكان هناك أضمحلال مؤقت فى جودة الأوبرا الايطالية بعد مونتفردى ففقدت الحبكات بعض وقارها ودلالتها ، وازدادت سخفا وعنفا . وطور فرانشسكو كافاللى ، أحد تلاميذ مونتفردى ، اللحن المنفرد باعتبـاره أحلى جزء من العرض ، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الالحان الدرامية ، وكانت تحتمل فترات الاستراحة بصبر نافد . وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونترالتو ، ولكن البريمادونات بدأن الآن ينافسن الملكات . ووجه ملتن أغنيات لاتينيـة الىليونورا بارونى ، وخرجتنابلى على بكرة أبيها لترحب بأم ليونورا ، أدريانا بازيلى ، أعظم المغنيات السوبرانو اثارة للأحاسيس فى زمانها - ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت فى هذا العصر الغاية التى ما بعدهـا غاية . يقول مولمنتى أن مسرح سان كاسيانو ، فى بندقية القرن السابع عشر ، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصرا ملكيـا ، وغـابة ، ومحيطا ، وجبل أوليمب ، والجنة ، ومرة علقت قاعـة رقص كاملة الاضاءة ، بكل أثاثها وراقصيها ، فوق المسرح الثابت ، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة (٤٦) . وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينقذ الأوبرا من الاغنية ، فأعطى مزيدا من الاتساع والبروز للاستهلال ، ومن المنطق والرصانة للرواية ، ثم نوع الغنـاء يالريستاتيف . وكان تشستى وكوريللى كلاهمـا مبعـوثين موسيقيين ، حملا الأوبرا الايطالية الواحد الى باريس على عهد لويس الرابع عشر ، والآخر الى فيينا على عهد ليوبولد الأول . وهكذا كانت

أوربا شمال جبال الألب ، فى فن الأوبرا ، مستعمرة ايطالية (٤٧) ٠

وكان أبرز ملحنى الأوبرا الآن أليساندرو سكارلاتى ٠ ولقد طغت شهره ابنه دومنيكو اليوم على شهرته ، ولكن اسم « سكارلاتى » كان الى عهد قريب يعنى أليساندرو ، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور ٠ وقد وفد أليساندرو على روما وهو فى الثالثه عشرة ، ودرس حينا على كاريسيمى ، ولحن للكانتاتات ، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته ، وفى العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة L'errore innocente (الغلطة البريئة) وقد أعجبت الأوبرا كرستينا ملكة السويد ، فبسطت جناحها على أليساندرو ، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحها الخاص ٠ وفى ١٦٨٤ قبل وظيفة « المايسترو دى كابللا » لنائب الملك الاسبانى فى نابلى ، وظل يشغلها ثمانية عشر عاما ، يخرج الاوبرات فى تتابع سريع حتى بلغت عند وفاته على الاقل ١١٤ ، لا يعيش منها اليوم سوى نصفها ، ولعل سوليمينا رسم فى هذه الفترة اللوحة الممتازة التى ترى فى كونسرفاتوريو نابلى الموسيقى - وجه نحيل ، يفيض حساسية ، وتركيزا ، وعزيمة ٠

وجاءت حرب الوراثة الاسبانية فكدرت صفاء نابلى ، وتأخر صرف راتب سكارلاتى كثيرا حتى اضطر للرحيل الى فلورنسة مع زوجته وأسرته ، ولحن وأخرج الأوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند ٠ وبعد عام انتقل الى روما رئيسا لفرقة مرتلى الكنيسة للكردينال بييترو أوتوبونى ، وكان كنسيا مرحا مثقفا ، خلف كرستينا قطبا وراعيا للفنون فى روما ، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخليلات (٤٨) ٠ وفى ١٧٠٧ ذهب أليساندرو الى البندقية حيث أخرج رائعته Mitridate Eupatore وهى أوبرا تتميز بخلوها تماما من تشويق الحب ٠ فى ذلك العام دانت نابلى للحكم النمساوى ، فدعا نائب الملك سكارلاتى ليعود الى سابق وظيفته ، فوافق ، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته ، حين بلغ أوج شهرته ٠

وقد قررت أوبراته أسلوبا دام نصف قرن ٠ جعل الاستهلال مؤلفا هاما لا يرتبط بالأوبرا ، وقسمه الى ثلاث حركات ظلت قياسية حتى

مجىء موتسارت : الالليجرو ، والاداجيو ، والالليجرو . أما اللحن (الاريا) فأعطاه سيطرته النموذجية فى القرن الثامن عشر وشكله الاعادى da capo ، الذى يعيد فيه القسم الثالث الأول ، ونفث فيه الحرارة العاطفة ، والحنان ، والتلوين الرومانسي ، وجعله أداة لابداعات المغنين فى العزف والارتجال ، ولكن تكراره قطع الوجدان والحركة قطعا مفتعلا . وقد قاوم حينا طلب الجماهير للألحان العاطفية ، وأخيرا أذعن ، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاما تحظى بألف انتصار دون أن تنتج آثارا قادرة على مغالية تقلبات الذوق . واضمحلت الأوبرا حتى أيقظها جلوك لحياة وشكل جديدين ، فى فيينا (١٧٦٢) ، وباريس ، بجمال أوبرا Orfeo ed Euridice المقيم .

٥ - البرتغال : ١٦٤٠ - ١٧٠٠

حين توج دوق براجانزا ملكا باسم يوحنا الرابع (١٦٤٠) بدأت البرتغال حربا امتدت ثمانية وعشرين عاما لتدافع عن استقلالها الذى استردته من أسبانيا . وقدمت لها فرنسا يد المعونة حتى ١٦٥٩ ، حين وافق مازاران فى صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال . واتجه الفونسو السادس الى انجلترة طالبا العون . وأوفدت كاترين أميرة براجانزا الى لندن عروسا لتشارلز الثانى (١٦٦٣) ، حاملة معها صداقا هو بومباى ، وطنجه ، و ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . وأرسلت انجلترة الجند والسلاح مقابل ذلك . وبهذه المعونة وغيرها ، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء ، راحوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر ، حتى اعترفت أسبانيا رسميا بمقتضى معاهدة لشبونة (١٦٦٨) باستقلال البرتغال .

وعزز بيدرو الثانى العلاقات مع انجلترة بمعاهدة ميثوين (١٧٠٣) . فوافقت كل من الأمتين على أن تمنح الأخرى تعريفات تفضيلية ، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصنوعة من انجلترة وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال . وهكذا شربت انجلترة القرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو ، بدلا من الكلاريت « الصافى clear » من بوردو . وقد وفر هذا التحالف الاقتصادى للبرتغال ... اتها الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا .

وفى ١٦٩٣ كشفت مناجم ذهب ميناس جيرايس فى البرازيل ، وسرعان ما غلت لبيدرو الثانى من سبائك الذهب ما أتاح له أن يحكم بعد ١٦٩٧ دون حاجة لدعوة الكورنيز (المجلس التشريعى) للموافقة على منحه المال ، وأن يحتفظ فى لشبونه ببلاط من أفخم البلاطات فى أوربا . على أن الذهب الأمريكى نمخض فى البرتغال عن نفس النتائج التى تمخض عنها فى أسبانيا : فقد استعمل لشراء السلع المصنوعة من الخارج بدلا من تمويل المشاريع الصناعية فى الداخل ، وظل الاقتصاد الوطنى اقتصادا زراعيا كسولا ، وحتى الكروم المحيطة بأوبورتو وقعت فى قبضة الانجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالى الذى حصلوا عليه من التجارة الانجليزية .

وواصل المؤلفون البرتغاليون تنشيط الأدب بالأعمال . من ذلك ان فرانشسكو مانويل دى ميلو اللشبونى التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة الى فلاندر بعد أن درس فى كلية أنتاو اليسوعية ، وخاض معارك عدة كتبت له فيها الحياة ، وقاتل فى صف ملك أسبانيا فى التمرد القتلونى وألف تاريخا له (تاريخ حرب قتلونيا) فى كتاب من عيون الأدب الكثيرة التى أسهم بها البرتغاليون فى الأدب الأسبانى . فلما أعلنت البرتغال تحررها من ربقة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع ، ولقى عرضه ترحيبا ، وجهز أسطولا برتغاليا وتولى قيادته ، ثم وقع فى غرام كونتيسة فيللانوفا الساحرة ، فقبض عليه بايعاز من زوجها ، وقضي تسع سنين فى السجن . فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفى الى البرازيل ، ذهب ليعيش فى باهيا (بايا) ، حيث كتب Apologos dialogaes . وسمح له بالعودة فى ١٦٥٩ . فأصدر فى السنين السبع الباقية فى أجله مؤلفات فى الأخلاق والأدب ، وبعض الشعر ، وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية موليير « البورجوازى مدعى النبل » . ومع أنه كتب بالاسبانية ، فان البرتغال تحسبه بحق أبنا من ألمع أبنائها .

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا ، الذى ولد فى لشبونه (١٦٠٨) ، وأخذ فى طفولته الى البرازيل ، وتلقى العلم على يد اليسوعيين فى باهيا ، وانضم الى طريقتهم ، وأدهش الناس جميعا حين اقترح فى مواعظ وكتيبات بليغة على الحكومات أن تمارس المسيحية . فلما

بعث فى مهمة الى البرتغال (١٦٤١) أثر فى يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تأثيرا حدا به الى تعيينه عضوا فى المجلس الملكى، وهناك شارك بنصيب غير صغير فى التخطيط للانتصارات التى ردت لوطنه استقلاله • ثم هز الافكار الراسخة بالمطالبة باصلاح ديوان التفتيش ، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة ، والسماح لليهود بدخول البرتغال ، والغاء التمييز بين « المسيحيين القدامى » و « المسيحيين الجدد » (أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية) • وكان مثالا ، من أمثلة كثيرة ، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور •

فلما عاد الى البرازيل (١٦٥٢) ، أرسل مبعوثا الى مارانهاو ، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعى حتى نفى الى البرتغال (١٦٥٤) • ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين ، وحصل على شيء من التخفيف عنهم • فلما عاد الى أمريكا الجنوبية (١٦٥٥) ، أنفق ست سنوات كان فيها « رسول البرازيل » ، يقطع مئات الأميال على الأمازون وروافده ، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة ، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة ، ويدافع عنهم ضد سادتهم فى شجاعة حملت هؤلاء أيضا على الحصول على أمر بنقله الى البرتغال (١٦٦١) • وهناك قبض عليه ديوان التفتيش متهما اياه بأن كتاباته تحتوى على هرطقات خطرة وتطرفات تستحق الادانة (١٦٦٥) • وهالته الاحوال فى سجون الديوان – اذ رأى خمسة رجال محشورين فى زنزانة عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر ، لا يدخلها الضوء الطبيعى الا من شق فى السقف ، ولا تغير فيها الأوانى الا مرة فى الأسبوع (٤٩) • وأطلق سراحه بعد سنتين ، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم • فذهب الى روما (١٦٦٩) ، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه ، واستهوى الكرادلة والعامة بفصاحته • وعبثا التمست منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحى • وقد عرض على البابا اتهاما مفصلا لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاهية البرتغال • وأمر كلمنت بأن تحال الى روما كل القضايا المعروضة.

على ديوان التفتيش البرتغالى ، وعطل انوسنت الحـــادى عشر تلك الهيئة خمس سنوات .

وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته ، فابحـــر مـــرة أخرى الى البرازيل (١٦٨١) ، وجاهد هناك معلما ومرسلا يسوعيا حتى أدركته الوفاة وهو فى التاسعة والثمانين . وتحتوى مؤلفاته التى يضمها سبعة وعشرون مجلدا ، على الكثير من الألغاز الغيبية ، ولكن عظاته النى فورنت بعظات بوسوية ، وضعته فى صف « فحول اللغـــة البرتغالية (٥٠) » ، وخدمـــاته وطنيـــا ومصـــلحا حملت الشـــاعر البرونستنتى صذى على أن يسلكه فى عداد أعظم ســـاسة وطنـــه وزمانه (٥١) .

٦ ـ انهيار أســبانيا : ١٦٦٥ ـ ١٧٠٠

كانت أسبانيا فى ١٦٦٥ لا تزال أعظم الامبراطوريات فى العالم المسيحى . حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وسردانيا ، وصقلية ، ومملكة نابلى ، ودوقية ميلان ، ومساحات شاسعة فى أمريكا الشمالية والجنوبية . ولكنها كانت فد فقدت القوة البحرية والحربيـــة اللازمة للسيطرة علىتجارة هذا الملك المبعثر ومصـــيره . وكانت أســـاطيلها الثمننة قد دمرها الانجـــليز (١٥٨٨) والهولنـــديون (١٦٣٩) ، وهزمت جيوسها هزائم فاصلة فى روكروا (١٦٤٣) ولينز (١٦٤٨)، واعترف دبلوماسيوها فى صلح البرانس (١٦٥٩) بانتصار فرنســا ، وكان اقتصادها يعنمد على ندفق الذهب والفضة من أمريكا ، وهـــذا التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولنـــدى أو الانجليزى . ونقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبى واحتقار شعبها للمتاجرة . وكان الكثىر من التجارة الاسبانية يحمل فى ســـفن أجنبية . ونقص عدد السفن الاسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا ٧٥ ٪ فى عام ١٧٠٠ عنه فى عام ١٦٠٠ . وكانت البضائع المصنوعة تستورد من انجلتره وهولنده ، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصـــدير النبيذ أو الزيت أو الحديد أو الصوف ، والباقى يدفع سبائك ذهبيـــة ، ومعنى ذلك أن الذهب الامريكى انما كان يمر مرورا بأسبانيا والبرتغـــال فى طريقه الى انجلتره وفرنسا والاقاليم المتحدة . وكانت قرطبـــة وبلنسية

فى حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها . وكان طرد المغاربة قد آذى الزراعة ، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالية . وبلغت حال الطرق من السوء وحال النقل من التخلف مبلغا وجدت معه المدن القريبة من البحر ، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحة ، أنه أرخص لها أن تستورد البضائع ، حتى الغلال ، من الخارج عن أن تجلبها من مصادرها فى أسبانيا . وحاولت الضرائب الباهظة ، بما فيها ضريبة بيع ارتفعت الى ١٤ ٪ ، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم الى حد لا يصدق ، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله . وهبط مستوى المعيشة هبوطا حمل أعدادا لا تحصي من الاسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيرا وطنهم . وارتفعت وفيات الأطفال ، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعدد أفراد الأسرة . فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهبانا عقيمين أو راهبات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة فى أراض نائية . وفقدت اشبيليه ، وطليطلة ، وبرجوس ، وسقوبية بعض سكانها . وهبط سكان مدريد فى القرن السابع عشر من ٤٠٠٫٠٠٠ الى ٢٠٠٫٠٠٠ (٥٢) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب .

وفى وسط الفقر المنتشر المتكاثف كدست الطبقات العليا ثروتها وعرضتها على الأنظار . وأمسك النبلاء ، الذين طال اثراؤهم باستغلال الأهالى أو بالكنوز المستوردة ، عن استثمار ثروتهم فى الصناعة أو التجارة ، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعدن النفيس ، وبالملاهى الغالية والأثاث الفخم . من ذلك أن دوق ألفا كان يملك ٧٫٢٠٠ من صحاف الفضة و ٩٫٦٠٠ من الآنية الفضية الأخرى ، وأن أمير ستليانو صنع لزوجته محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلها حدا لم يسمح باستعمالها . كذلك احتفظت الكنيسة بغناها ، واستكثرت منه (٥٣) ، وسط الفاقة المحيطة بها . ورأى رئيس أساقفة سنتياجو أن يبنى كنيسة كاملة من الفضة ، فلما ثنوه عن ذلك بناها كلها بالرخام (٥٤) . لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله .

أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة البأس ، بل أشد بأسا من الحكومة . وقلت الإحتفالات التى يصدر فيها الحكم بالموت على المهرطقين عن ذى قبل ، لا لشيء الا لأن الهرطقة كانت قد أبيدت

حرقا . وكانت القيود التى أعجزت الكاثوليك فى انجلتره لا تقـاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار فى أسبانيا . وعجـز كروموبل عـن حماية التجار الانجليز هناك . وقبض ديوان التفتيش فى ١٦٩١ على الخادم البروتستنتى للسفير الانجليزى ، وفى تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الأنجليكانى الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلا . واسـتمر حرق اليهود المتنصرين الذين اتهموا بأنهم يضمرون يهوديتهم . وبنى ديوان التفتيش لنفسه فى ميورقه قصرا جميلا من الثروة التى صادرها فى تحقيق واحد (٥٥) . وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وان حاول كثير من النبلاء تثبيطها . فلما أعرب شارل الثـانى فى ١٦٨٠ عن رغبته فى أن يشهد احتفالا بحرق المهرطقين ، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجا للمشهد المقدس ، وفى أثناء قيامهم بالعمـل كانوا يشجعون بعضهم بعضا على الاسراع والاجتهاد بألوان من الحض الدينى ، لقد كان حقا جهدا من جهود المحبة . وحضر شارل وعروسه الشابة فى كل أبهة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجينا ، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت فى مرجل فى الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخـم احتفال بحرق المهرطقين فى تاريخ أسبانيا ، ونشر كتـاب من ٣٠٨ صفحة يصف الحدث ويخلد ذكراه (٥٦) . وفى ١٦٩٦ عين شـارل « هيئه كبرى » لفحص مفاسد ديوان التفتيش ، فقدمت تقـريرا أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها ، ولكن الرئيس العام للديوان اقنـع الملك بأن يلقى بهذا « الاتهام الرهيب » فى زوايا النسيان . فلما طلبه فليب الخامس فى ١٧٠١ لم يعثر على نسـخة منـه (٥٧) . على أن الديوان خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه .

أما الكنيسة فقد حاولت أن تفتدى ثروتها وتدعم الايمان بتمويلها للفن . ففى ١٦٧٧صمم فرانشسكو دى هيريرا ايلموزو كتدرائية سرقسطة الثانية التى سميت « ديل بيلار » لأنها تفاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء . وجاءت العمارة الباروكيـة الآن الى أسبانيا ، وبين عشية وضحاها تحول المزاج الاسـبانى من الاكتئـاب القوطى الى الاسراف الزخرفى . وأشـهر المعماريين هنـا خـوزى شوريجويرا ، وقد أصـبح لفظ « شوربجويريسكا » حينا علمـا على الباروك الاسبانى . ولد فى سلمنقه عام ١٦٦٥ ، وأبدى نشاطا مفرطا

فى العمارة والنحت وصناعة الاثاث والتصوير • فلما وفد على مدريد فى الثالثة والعشرين دخل فى مسابقة لتصميم نعش لجنازة الملكة ماريا لويزا ، ففاز بالجائزة ، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربيـــة بفضل هذا البناء المختلط (٥٨) ، المؤلف من أعمدة عجيبة الشـــكل وكرانيش مكسرة ، والمزين بالهياكل العظمية والعظـــام المتقاطعـــة والجماجم • ثم عاد الى سلمنقة حوالى ١٦٩٠ ، وظل يكد فيها عشر سنين ، يزخرف الكتدرائية ، ويبنى المذبح العالى فى كنيسة القـديس اسطفان ، والبهو الفخم فى مجلس المدينة • وفى مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما ، ولما مات (١٧٢٥) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيقولا ، وفى أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رءوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم • وهاجر الى المكسيك لون معتدل نوعا ما من باروك شوريجويرا ، وهناك أثمر بعض المبانى التى تعد من أجمل ما شيد فى أمريكا الشمالية •

وظل النحت تعبيرا قويا عن الروح الاسبانية • وكان مصدر هذه القوة أحيانا واقعية شاذة ، كما نراها بتفصيل دموى فى رأس يوحنـــا المعمدان أو غيره من القديسين مقطـوعى الرءوس • وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقـديس بولس (٥٩) • وظلت حجب المذبح لونا أثيرا من ألوان الفـــن ، فنرى بيدرو رولدان ينحت الحجب الكبرى فى كنيسة الأبرشية الملحقة بالكتدرائية ، وفى مستشفى دى لا كاريداد فى اشبيلية ، وابنته لويزا رولدانا ، مثاله أسبانيا الفذة تنحت فى كتدرائية قادس مجموعة تماثيل تتركز حـول « نوســترا سينورا دى لاس أنجوستياس » (سيدة الأحزان) • وهيمن بيدرو دى مينا على العصر بتماثيل عراياه (وما أندرها فى الفن الاسبانى) ، وتماثيل السيدة العذراء ، ومقاعد المرتلين فى كتدرائية ملقا ، ويعـد تمثاله « سا نفرانسسكو » فى كتدرائية اشبيلية من أروع أمثلة النحت الأسبانى • وحوالى نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك غيره من تدهور عام • فأثقلت الحشوات بالزخارف ، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم ، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية ، واللون دائما ، فى جهد للوصول الى أبسط التصور والذوق الجماهيريين •

وولى عصر العمالقـــة فى التصـــور الاســـبانى ، ولـــكن

بقى الكثير من صغار الأبطال . فكان خوان كارينو دى ميراندا ، الذى خلف فيلاسكويز مصورا للبلاط ، محبوبا كسلفه تقريبا - رجلا متواضعا لطيفا ، يبلغ به الاستغراق فى عمله مبلغا ينسيه أحيانا هل أكل أو لم يأكل . وقد سرت صوره لشارل الثانى وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو ، ولكن كارينو رفض هذا التشريف لأنه رآه فوق ما يستحق . وفى تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة « الكنتاريللو دى مييل » (برطمان العسل) . وتفصيل ذلك أن فنانا مغمورا يدعى جريجوريو أوتاندى رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجرا مائة دوكاتية ، فاستكثرن عليه الأجر ، ولكن وافقن على تحكيم كاربنو . وقبل أن يسمع كارينو بالأمر ، أهداه أوتاندى برطمان عسل ، ورجاه فى أن يضع اللمسات الأخيرة للوحة . ففعل ، وتحسنت الصورة كثيرا . ودهش كارينو حين طلبت اليه الراهبات تقييمها . فرفض ، ولكن فنانا ثالثا قدرها بمائتى دوكاتية ، وكتم السر حتى دفع الثمن .

وفى ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه ، وهو كلوديو كويللو ، الذى ظل يرسم آناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال . فصادقه كارينو ، وحصل له على اذن بأن يدرس وينسخ أعمال تنسيانو وروبنز وفانديك فى قاعات الفن الملكية . وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج ، وفى ١٦٨٤ ، وقبل موت كارينو بعام ، عين كويللو مصورا للملك . وقد أحرز الشهرة فى وطنه بلوحته « ساجرادا فورما » أى القربانه المقدسة ، التى ظهرت فيها هده القربانة تقدم الى شارل الثانى لوضعها على مذبح فى الاسكوريال . والاسطورة التى من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا . تقول الرواية انه فى أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم ، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم ، هدت للتو أحد مدنسيها الى الكاثوليكية ، وحملت القربانة التى استنقذت الى فيينا فى احترام واجلال ، وأرسلت هدية الى فيليب الثانى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تعرض دوريا ، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين . وصور كويللو الملك وكبار حاشيته راكعين فى تعبد أمام الخبز المعجز . وظهر فى الصورة نحو خمسين

شخصا ، كلهم تقريبا صاحب شخصية متميزة ، وقد رتبوا فى منظور ذى عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ (٦٠) . بعد هذا العمل الذى اقتضاه الفراغ منه عامين ، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة فى العاصمة غير منازع . وبعد ست سنوات (١٦٩٢) حجبه بغته وصول لوكا فاريريستو جوردانو من ايطاليا ، وكلف لوكا على الفور بالدور الأول فى زخرفة الاسكوريال من جديد . وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو . وأنهى كويللو الصور التى كلف بها ، ولكنه ألقى فرشاته جانبا . وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد فى الحادية والخمسين ، وقيل قهرا وغيرة (٦١) .

وخلال ذلك شهدت اشبيلية ميلاد ووفاة (١٦٣٠ - ٩٠) آخر فنان عظيم فى التصوير الأسبانى قبل جويا ، وهو خوان دى فالديس ليال . وكان مثل كويللو برتغالى الأبوين أسبانى المولد . وبعد أن أنفق سنوات فى قرطبة ، رحل الى اشبيلية ليتحدى تفوق موريللو . وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمات . وقد صور العذراء فى صعودها ، ولكنه وضع قلبه وقوته فى صور أخرى لا تعرف هوادة فى الغض من لذات الحياة والايماء الى الموت الذى لا مهرب منه . فرسم القديس انطونيوس يتولى فى هلع عن فتنة النساء (٦٢) . وصورت لوحته « ان اكتو أوكولى » (أى فى طرفة عين) الموت هيكلا عظميا يطفىء شمعة الحياة التى يكشف ضوءها القصير الأجل ، فى فوضى إختلطت على أرض الحجرة ، عدة الاطماع الدنيوية ومجد العالم - الكتب ، والسلاح ، وتاج أسقف ، وتاج ملك ، وسلسلة لطائفة « الفروة الذهبية » . وفى صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهياكل والجماجم ، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوى احدى كفتيه على شعارات فارس ، والأخرى على شارات أسقف ، والكفة الأولى كتب عليها « نيماس » أى لا أكثر ، والثانية « نيمينوس » أى لا أقل - فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين فى موازين الله . ورأى موريللو أول الصورتين ، فقال لفالديس « انها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها دون أن يمسك بأنفه (٦٣) » - وهى عبارة يمكن أن تفسر بأنها ثناء على واقعية المصور ، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط .

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد ، فلم يشرفه أديب عظيم ، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة . أما الجامعات فكانت تنزوى وسط الخراب والظلامية السائدين ، ففى جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب فى هذه الفترة من ٧٫٨٠٠ الى ٢٫٠٧٦ (٦٤) . وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء الى الكنيسة ، وظلت أسبانيا طوال قرن توصد أبوابها كأنها صومعة عابد فى وجه حركات الذهن الأوربى . وتربع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزا للعهد .

وبيان ذلك أن شارل الثانى أصبح ملكا وهو بعد فى الرابعة (١٦٦٥) وفى سنى حداثته كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسما ، أما حاكمها الفعلى فكان كاهن اعترافها اليسوعى يوهانز ابرهارد نيذارد ، ثم عشيقها فرناندو فالنزويلا . وتفاقمت الفوضى ، وكانت الوزاره الكفء التى تولاها دون خوان نمساوى آخر ، أقصر أجلا من أن توقف الانحلال . وفى ١٦٧٧ تقلد الملك ذو الستة عشر عاما الحكم وجلس عاجزا على قمة هذا الصرح المنهار . ولعل التزاوج المتصل بين أفراده أسرة هابسبورج أسهم فى ضعف بدنه وعقله . وكانت الذقن الهابسبورجية فى شارل بارزة بروزا أعجزه عن مضغ طعامه ، ولسانه من الكبر بحيث لم يكد كلامه يفهم . وظل الى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين . وكان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يتلق من التعليم الا القليل ، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره . ويصفه مؤرخ أسبانى كبير بأنه « عليل ، أبله شديد التعلق بالخرافات» ، وكان « يعتقد انه ممسوس ، وكان ألعوبه لأطماع كل من أحاطوا به (٦٥) » . وقد تزوج مرتين ، ولكن « كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (٦٦) » . هذا القصير الأعرج ، المصروع ، الخرف ، المصلع تماما قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين ، كان دائما على شفا الموت ، ولكنه حير العالم المسيحى المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة .

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن مأساة أوربية . فقد ازدادت الحكومة اقترابا من الافلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

الامريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها ، وحتى المائدة الملكيـــة اضطرت الى التقتير فى خدمة الملك • أما البيروقراطية الادارية التى قلت رواتبها فكانت فاسدة متراخية • واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يقتتلون للحصول على الخبز ، وسطت عصابات من الجياع على البيوت لتسرق وتقتل ، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد • أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشتتوا وانضموا الى المجرمين •

ووسط الفوضي والقلق والخراب واجه الملك المسكين ، الكسيح ، نصف المعتوه ، الشاعر بدنو أجله ، فى حيرة وتذبذب ، مشكلة الفصل فى وراثة عرشه • واذ كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقا ، فان سطرا واحدا بخطه كان يكفى للتوصية بامبراطوريته التى تمتد رقعتها فى أربع قارات ، اما للنمسا واما لفرنسا • وانتصرت أمه للنمسا ، ولكن شارل كان يكره تآمرها كما يكره جشع زوجته الالمانية الخبيث • وذكره السفير الفرنسي بأنه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد ، فان تنازلها عن الوراثة قـد بطــل ، وكان لويس يلح مطالبا بحقوقها ، ويملك القوة لفرض مطلبه • فلو أن شارل داس هذه الحقوق لا شتعلت أوربا بنيران الحرب ، وربما تمزقت أسبانيا اربا فى هذا الصراع • وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار ، وبكى واشتكى من أن ساحرة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها • وبينما كان يستمع الى الحجج التى زادته اختلاطا حاصر مثيرو الشغب قصره صائحين فى طلب الخبز •

وفى سبتمبر ١٧٠٠ لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسي، وهو أحد الأحزاب التى أحاطت به ، رئيس أســاقفة طليطلة ـ وكان كبير أساقفة أسبانيا ـ الى صفه ، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهــار ، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الامبراطورية الاسبانية سليمة واســتخدامها معقــلا للكنيســة

الكاثوليكية • ونصح البابا انوسنت الثانى عشر شارل بتفضيل فرنسا ، وذلك تحت الحاح لويس • وخيرا أذعن شارل ، ووقع الوصية المشئومة التى خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو ، حفيد ملك فرنسا (٣ اكتوبر ١٧٠٠) • وفى أول نوفمبر مات شارل ، غير متجاوز التاسعة والثلاثين ، وكأنه شبخ فى الثمانين • وهكذا كانت خاتمة فرع الهابسبورج الاسبانى فى غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة •

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية
١٥٦٤ ـ ١٧١٥

١ ـ الصفارديم ×

ان بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرنا من الشدة والثأر أشبه بلحن كئيب فى تاريخ الجهل ، والكراهية ، والشجاعة ، والمرونة . ذلك أنهم بعد أن حرموا الوطن ، وأكرهوا على التماس الملجأ فى جيوب عنصرية بين أعداء عتاة ، وتعرضوا فى كل لحظة للاهانة والظلم ، وللمصادرة أو الطرد و المذابح الفجائية ، دون أن يكون لهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصبر والمكر والتصميم اليائس والايمان بدينهم ـ فانهم عاشوا مغالبين خطوبا وشدائد لم يقو على مغالبتها شعب آخر فى التاريخ ، ولم تتحطم ارادتهم قط ، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المشترعين والأنبياء العبرانيين الذين وضعوا الاسس الروحية للعالم الغربى .

وكان استئصال شأفة اليهود فى أسبانيا الآن كاملا تقريبا ، فلم يكن لهم من بقاء الاكتيار مختبىء فى الدم الاسبانى ، حتى أن أسقفا أسبانيا استطاع أن يعرب عام ١٥٩٥ عن ارتياحه لأن اليهود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين ، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أتقياء (٢) . ولكن ديوان التفتيش لم يوافقه على رأيه هذا ففى ١٦٥٤ أحرق عشرة رجال فى كوينكا واثنا عشر فى غرناطة ، وفى ١٦٦٠ قبض على واحد وثمانين فى اشبيلية ، وأحرق سبعة ، بتهمة التمسك سرا بالشعائر اليهودية (٣) .

× ترد لفظة « صفارد » فى التوراة (١) اسما لاقليم فى غربى آسيا انزل فيه المنفيون اليهود بعد استيلاء البابليين على أورشليم . وفى تاريخ لاحق أصبحت الكلمة اصطلاحا عبريا على اسبانيا ، فاصبح اليهود من أصل اسبانى أو برتغالى يسمون الصفارديم .

وفى البرتغال ، على الأخص ، واصل الكثير من المتنصرين فى الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها فى عزلة بيوتهم ، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لأنهم مرتدون (relapsos) بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٩٥ (٤) — ووجد اليهود المتسترون مكانا قلقا فى الحياة البرتغالية كتابا ، وأساتذة ، وتجارا ، وماليين ، بل ورهبانا وقسيسين ، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم · وكان ألمع الأطباء يهودا متخفين ، وفى لشبونة طورت أسرة مندیس شركة مصرفية من أعظم الشركات فى أوربا ·

وبعد أن اندمجت البرتغال فى أسبانيا (١٥٨٠) ، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالى ، ففى السنين العشرين التالية أقيم خمسون احتفالا لادانة المهرطقين ، وحكم على ١٦٢ بالاعدام ، وعلى ٢ر٩٧٩ تائبا بالعقوبات التكفيرية ، وأحرق فى لشبونة (١٦٠٣) راهب فرنسسكانى يدعى دیوجودا أسومساو ، يبلغ الخامسة والعشرين ، بعد أن اعترف باعتناقه اليهودية (٥) · وهاجر الى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالى أشد وحشية من نظيره الأسبانى · وفى ١٦٠٤ ، بفضل رشوة قدرها ١ر٨٦٠ر٠٠٠ دوكاتية دفعوها لفيليب الثالث ، ورشا أقل لوزرائه ، أقنعوا الملك بأن يحصل من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه قضاة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية فقط · فأطلق فى يوم واحد (١٦ يناير ١٦٠٥) سراح ٤١٠ من هؤلاء الضحايا · ولكن مفعول هذه الرشا وأمثالها كان يضعف بمضي الوقت . ولم يلبث الارهاب البرتغالى أن عاد سيرته الاولى عقب موت فيليب الثالث (١٦٢١) · ففى ١٦٢٣ قبض على مائة من « المسيحيين المحدثين » فى بلدة مونتمور أو نوفو · وفى كوامبرا ، مركز المملكة الثقافى ، قبض على ٢٤٧ فى ١٦٢٦ ، وعلى ٢١٨ فى ١٦٢٩ ، وعلى ٢٤٧ فى ١٦٣١ · وخلال عشرين عاما (١٦٢٠ — ٤٠) أحرق ٢٣٠ يهوديا برتغاليا شخصيا ، و ١٦١ دمية تمثلهم بعد أن هربوا ؛ و « صولح » ٤ر٩٩٥ بعقوبات أخف (٦) · وفر آلاف المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا ، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم الى أركان المسكونة كلها ·

والتمست الكثرة العظمى من منفييى الصــفارديم ملاذا فى بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا الى مستوطنات يهودية فى شمال أفريقية وسالونيك ، والقاهرة ، والآســتانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وايران . فى هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية ، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدنى . وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا بوصفهم أطباء فحسب ، بل مشاركين فى شئون الدولة . من ذلك أن يوســف ناصي ، أحد المارانو كان مقربا لســليم الثانى ، وكان بصــفته دوق ناكسوس (١٥٦٦) يتسلم ايراد عشر جزر فى الأرخبيل(٧) . وكان يهودى ألمانى يدعى سليمان بن ناتان أشكنازى ســفيرا لتركيــا فى فيينا فى ١٥٧١ ، ودخل فى مفاوضات هناك لابرام صلح أنهى الحرب حينا مع الباب العالى .

أما فى ايطاليا فان حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعــا لحاجات الادواق والبابوات وأمزجتهم . ففى ميلان ونابلى ، وكلاهمــا كانت تحكمه أسبانيا ، كادت الحياة تستحيل عليهم ، وفى عام ١٦٦٩ طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الاســبانية . أما فى بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الأدواق التوسكانيون الحــرية الكاملة تقريبا ، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين . وصدر فى ١٥٩٣ مرسوم للتجار فى هاتين المدينتين كان فى حقيقتــه دعوة موجهة للمارانو « نود ألا يقوم أى ... تحقيق دينى ، أو افتقاد ، او تنديد ، أو اتهام . ضدكم أو ضد أسركم ، حتى ولو كانوا فيما مضي يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمســيحيين ، أو تســموا بأســماء المسيحيين (٨) » ونجحت الخطة ، وازدهرت ليفورنو ، واشــتهرت جاليتها اليهودية — التى لم تفقها عددا سوى جالبتى رما والبندقيــة — بثقافتها كما اشتهرت بثرائها .

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفا من علاقاتهم بتركيا ، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهــم عنصرا ذا قيمة لا فى التجارة والمالية فحسب بل فى الصناعة أيضــا ، فقد استخدمت المشاريع اليهــودية فى البندقيــة أربعــة آلاف عامل مسيحى (٩) . واستوطنها اليهود الألمان والشرقيون كما اســتوطنها اليهود الصفارديم ، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايتــه من ديوان

التفتيش . وكانوا كلهم تقريبا يعيشون فى حى اليهود ، « الجوديكا »، ولكنهم لم يلزموا بسكناه ، وكان هذا « الغيت ghetto » يضم الكثير من الأسر الغنية ، والبيوت الجميلة ، ومجمعا مؤثثا تأثيثا فاخرا بنى فى ١٥٨٤ ، ثم أعيد بناؤه فى ١٦٥٥ باشراف المعمارى الشهير بلداسارى لونحينا . وكان يهود البندقية الستة الآلاف أرقى ثقافة من أى جالية يهودية فى هذا العصر .

واستقرت فى فرارا حوالى ١٥٦٠ مستوطنة من المارانو القادمين أصلا من البرتغال ، ولكنها شتتت فى ١٨٥١ بأمر البابا ، الذى فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالى . وفى مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود ، ولكنهم يسلبونهم دوريا بالتبرعات و « القروض » ؛ وفى ١٦١٠ أجبر جميع يهود مانتوا على مسكنى حى مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح فى الفجر (١٠) . فلما تفشي الطاعون فى مانتوا اتهم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه اليها ، وحين استولى جنود الامبراطور على المدينة ابان حرب الوراثة المانتوية ، نهبوا حى اليهود تماما ، واغتصبوا ٨٠٠٫٠٠٠ سكودى جواهر ونقودا ، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم الا ما يستطيعون حمله (١١) .

أما فى روما ، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود ، فانهم بعد عام ١٥٦٥ (باستثناء سيكستوس الخامس) أصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم . فأمر بيوس الخامس (١٥٦٦) جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقا كاملا كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية . فلا بد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلا ماديا عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعارا أو ثوبا مميزا ، ولاحق لهم فى تملك الأرض ، ولا فى أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد فى أية مدينة . وفى ١٥٦٩ ، بمقتضي مرسوم بابوى اتهم اليهود بالربا ، والقوادة ، والشعوذة ، وفنون السحر ، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتى انكونا وروما (١٢) . وحرم جريجورى الثالث عشر (١٥٨١) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، وجدد (فى ١٥٨٤) الزام اليهود بالاستماع الى مواعظ هدفها هدايتهم

الى المسيحية • وأنهى سبكسنوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت . ففتح حى اليهود (١٥٨٦) ، وسمح لليهود أن يسكنوا أنى شاءوا في الولايات البابوية ، وأعفاهم من ارتداء أى شارة أو لباس مميز ، وأذن لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية ، ومنحهم حرية العبادة كاملة ، وأمر المسيحيين بأن يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام والرأفة (١٣) • ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل ، فقد جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (١٥٩٣) • وما حل عام ١٦٤٠ حتى كان جميع يهود ايطاليا تقريبا يسكنون الغيت ، فاذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة أو الانتماء الى الطوائف الحرفية • وقد وصف مونتينى أثناء جولته فى روما عام ١٥٨١ كيف كان اليهود فى السبت يلزمون بارسال ستين من شبابهم الى كنيسة ستانجيلو فى بسكيريا ليستمعوا الى عظات تحضهم على اعتناق المسيحية (١٤) • وقد شهد جون ايفلين احتفالا كهذا فى روما (٧ يناير ١٦٤٥) ، ولاحظ أن « الاهتداء أمر نادر جدا » وكان كثير من خصائص اليهود المنفرة ، سواء البدنية والخلقية ، نتيجة لطول الحبس والذل والفقر •

أما فى فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، أما من الناحية الفعلية فقد أكسبتهم أهميتهم فى الصناعة والتجارة والمالية تسامحا صامتا • وقد أكد كولبير فى أحد أوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من مشروعات اليهود التجارية (١٥) • واستقر لاجئو المارانو فى بوردو وبايون ، وبلغ اسهامهم فى الحياة الاقتصادية لجنوب غربى فرنسا مبلغا حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائرهم اليهودية فى تخف يقل شيئا فشيئا • ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو فى ١٦٧٥ ، خشي مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المرتاعين فى أعداد كبيرة عن المدينة ثراءها ، فبدونهم – كما قال ناظر ملكى فى تقريره – ستخرب لا محالة تجارة بوردو والاقليم بأسره (١٦) » • وبسط لويس الرابع عشر حمايته على الجالية اليهودية فى متز ، فلما عذب القضاة المحليون يهوديا حتى الموت (١٦٧٠) لاتهامه بقتل طفل قتلا طقسيا أدان الملك اعدام الرجل قائلا انه جريمة قتل ارتكبها القضاء ، وأمر

ـأن تعرض بعد ذلك الاتهـــامات الجنائيـــة لليهـــود على المجـلس الملكى (١٧) • وقرب ختام حكم لويس ، حين أفضت حـــرب الوراثة الاسبانية بالحكومة الفرنسية الى شقا الافلاس ، وضع المالى اليهـودى صموئيل برنار نروته تحت تصرف الملك ، ودان الملك المتكبر بالشـكر المعونه « أعظم مصرفى فى أوربا (١٨) » •

٢ - أورشليم الهولنـــدية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دورا (مبالغا فيـــه احيانا) (١٩) فى انتقال الزعامة التجـارية من هاتين الدولتين الى الأراضي المنخفضة • هناك قصد اليهود المنفيون أنتـــورب أولا ، ولكن فى ١٥٤٩ أمر شارل الخامس بأن يطـرد من الأراضي المنخفضـــة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال فى الســـنوات الخمس الاخيرة • والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم ، ولكنه نفذ ، واستأنف المهاجرون الجدد بحثهم عن وطن يلجاون اليه • وفقدت أنتورب تفوقها التجارى لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئيـــة ، بل للخطـــوب التى ألمت بالمدينه فى حرب التحرير ومعاهدة وستفاليا ، التى أقفلت السلب فى وجه الملاحة •

واجتذبت حرية العبادة فى الاقاليم المتحـــدة ، تلك الحــــرية المتزايدة رغم ما شابها من نقص ، اليهود الى المدن الهولنـــدية - الى لاهاى ، وروتردام ، وهارلم ، وأهم من ذلك كله أمستردام • هنـــاك ظهر يهود المارانو فى ١٥٩٣ ، وبعد أربع سنين افتتحوا مجمعا لهم • وكانت العبرية لغة عبادتهم ، والاسبانية أو البرتغالية لغتهم فى حياتهم اليومية • وفى ١٦١٥ ، وبعد تقرير وضعه هوجو جروتيوس ، أقرت سلطات المدينة رسميا وجود الجالية اليهودية ، ومنحتها حرية العباده، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحى (٢٠) ، ومن هنا هذا الذعر الذى استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطقات أوريل أكوستا وباروخ ســـبينوزا أسس العقيـــدة المسيحية •

وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار فى الثغـــر المزدهـــر وكانوا يدبرون قسما هاما من التجارة الهولندية مع شـــبه الجـــزيرة

الاسبانية ، ومع جزر الهند الشرقية والغربية . وفى احدى المناسبات ، فى زفاف فتاة يهودية ، كان أربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جملتها أربعون مليون فلورين (٢١) . وفى ١٦٨٨ ، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التى قام بها ليظفر بتاج انجلتره ، أقرضه اسحاق سواسو - فيما روى - مليـــونى فلورين دون فائدة قائلا « اذا حالفك الحظ ستردها الى ، والا فانى راض بأن أخسرها (٢٢) » . وكان بعض هذا الثراء لافتا للنظر فوق ما ينبغى ، مثال ذلك أن داود بنتو أسرف فى تزيين بيته اسرافا حمـــل الســــلطات المدنيـــة على توبيخه (٢٣) ، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (٢٤) . وكان من وراء هـــذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة ، حفلت بالعلمـــاء والأحبـــار والأطباء والشعراء والرياضيين والفلاســفة . وكانت المدارس توفـــر التعليم ، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسي بن اسرائيـــل فى ١٦٢٧ عددا كبيرا من الكتب والنشرات ، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهـــودية فى الكتب . وفى ١٦٧١ - ٧٥ دلت الجالية البرتغالية - اليهودية على ثرائها بتشييد المجمع البـــديع الذى ما زال أحد معالم امستردام ، وقيل ان المسيحيين ساهموا فى تكريسه. لقد كانت لحظة سعيدة فى حياة اليهود المحدثين .

على أن هذه الشمس كان يشوبها الكلف . فحوالى ســـنة ١٦٣٠ وفد اليهود الأشكنازيم (أى الشرقيون ×) على أمستردام من بولنده والمانيا . وكانوا يتكلمون لهجتهم الألمانية ، وأنشأوا مجمعا خاصا بهم ، وتكاثروا سريعا ، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصفارديم ، الذين كانوا فخورين بما بزوهم به من لغة ، وثقافـــة ، ولباس ، وثروة ، ونظروا الى التزاوج مع اليهود الاشكنازيم كأنه مروق عن الدين . وتكون داخل جماعة الصفارديم انقسام طبقى ، فكان صغار الحرفيين والفقراء

× يظهر لفظ « اشكنازى » لاول مرة فى الاصحاح العاشر والعدد الثالث من سفر التكوين اسما لحفيد بعيد من أحفاد نوح ، وفى الاصحاح ١١ والعـــدد ٢٧ من سفر أرميا اطلق على مملكة فى غرب آسيا ، واطلقه الاحبار فى العصـــور الوسطى على المانيا لأسباب نجهلها ، واصبح لفظ « الاشكنازيم » مرادفا ليهود المانيا ، وبولنده ، وروسيا .

المتكاثرون ينددون بـ « أصحاب الملايين » الذين يسيطرون على سياسة المجمع وموظفيه • وقد ورد فى هجاء معاصر.« ان الريال يحل ويربط ، وهو يرفع الجهال الى أكبر المناصب فى المجتمع (٢٥) » • وكان القادة الفكريون ـ شارل ليفى مورتيرا ، واسحاق أبوآب دا فونسيكا ، ومنسي بن اسرائيل ـ رجالا ذوى كفاية ونزاهة ، ولكنهم كانوا محافظين بحذر فى شئون السياسة والدين والاخلاق • وأصبحوا متزمتين تزمت الأسبان الذين اضطهدوا أسلافهم ، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (٢٦) •

وترك منسي بن اسرائيل بصمته على التاريخ بفتح انجلتره لليهود من جديد • ولد فى لاروشيل لأبوين من المارانو وصلا حديثا من لشبونة ، وأخذ الى امستردام فى طفولته ، وانقطع لدرس العبرية والاسبانية والبرتغالية واللاتينية والانجليزية ، واختير وهو فى الثامنة عشرة واعظا لمجمع نيفه شالوم • وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه « ال كونسليادور » ليوفق بين التناقضات المزعومة فى التوراة • وكان له الكثيرون من المراسلين والاصدقاء المسيحيين ـ هويت ، وجروتيوس ، وكرستينا ملكة السويد ، وديونيسيوس فوسيوس الذى ترجم كتابه الى اللاتينية ، ورمبرانت الذى حفر صورته فى ١٦٣٦ • وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بقرب مجيء « مسيا » يحكم الأرض •

ذلك أن منسي كان قبلانيا ومثاليا صوفيا يحلم بقرب العثور على أسباط اسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها ، وبأنهم ربما كانوا الهنود الامريكيين ، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة الى انجلتره واسكندناوه، وبأن الارض المقدسة ستعاد عندئذ لاسرائيل فى كل مجد المسيا • وراسله البيورتان من شيعة الملكية الخامسة فى انجلتره ، ومع أن مسيحهم المنتظر لم يكن مسيحه ، فانهم رحبوا بآرائه فى قرب مجيء ملكوت الله • واذ وجد هذا التشجيع فانه نشر (١٦٥٠) رسالة عن تطلعات اسرائيل ، يناشد فيها السلطات أن ترد اليهود الى انجلتره • وقدمه لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة الى البرلمان الانجليزى ، وبين أن عودة اليهود الى وطنهم سيسبقها طبقا لنبوات الكتاب المقدس تشتتهم فى جميع الاقطار ، ورجا الحكومة الانجليزية أن تعين على

تحقيق هذا الشرط الأولى بقبول اليهود فى انجلتره والسماح لهم بممارسة دينهم وبناء مجامعهم • وأعرب عن أمله فى أن يؤذن له بالمجىء الى انجلتره ليساعد فى تكوين مجتمع عبرى •

وكان كرومويل ميالا لاجابة هذا الطلب ، فقال « ان تعاطفى عظيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله وأعطاه ناموسه (٢٧) »• وبعث اللورد مدلسكس ، ربما ممثلا للبرلمان برسالة اقرار بالجميل وشكر « لأخى العزيز ، الفيلسوف العبرى ، منسي بن اسرائيل » • وزار السفير الانجليزى فى هولنده منسي ، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس ١٦٥١) • ولكن فى أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحة وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية ، وأفضت المنافسة التجارية الى الحرب الهولندية الاولى (١٦٥٢ ـ ٥٤) ، وكان على منسي أن يتريث حتى تواتيه الفرصة ، وتلقى « برلمان بيربون » (١٦٥٣) بالرضا طلبه المجدد ، وأرسل اليه اذنا بدخول انجلتره فى أمان ، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة ، وفى أكتوبر ١٦٥٥ عبر منسي وابنه البحر الى انجلتره •

٣ ـ انجلتره واليهود

لم يكن مسموحا لليهود بالعيش فى انجلترة فى الفترة بين طردهم منها فى ١٢٩٠ وتقلد كرومويل السلطة فى ١٦٤٩ •وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين فى القرى ، وبعض تجارهم وأطبائهم فى المدن، ولكن كل ما كان يعرفه الاليزابيثى تقريبا عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية • من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية باراباس وشكسبير شخصية شيلوك •

وظن بعض النقاد (٢٨) أن شكسبير كتب « تاجر البندقيه » استجابة لاقتراح من فرقته بالافادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارتها فى انجلترة حديثا قضية رودريجو لوبيز ، الذى أعدم عام ١٥٩٤ لما قبل من محاولته تسميم الملكة اليزابث • وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن فى ١٥٥٩ ، وشق طريقه الى التفوق فى مهنة الطب • واستخدمه ايرل ليستر طبيبا له ، فاتهم

مساعدته على التخلص من أعدائه بالسم ، وفى ١٥٨٦ أصبح كبير أطباء الملكة . وقد عالج فيمن عالج ايرل اسكس الثانى ، ولكنه أثار عداءه لأنه إفتشي سر علله . وحوالى ١٥٩٠ انضم الى فرانسس والسنجهام فى دسائس مع بلاط أسبانيا ضد دوم أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال ، وتلقى خاتما من الماس قدر يومها بمائة جنيه ، من عملاء فيليب الثانى فيما يبدو . وفى ١٥٩٣ قبض على اسطفان داجاما فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو ، وقبض على آخرين ، واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك فى مؤامرة ضد اليزابث . ونزعم انهام الطبيب اسكس ، الذى كان يؤيد أنطونيو ، فلما وضع لوبيز على دولاب التعذيب ، اعترف بأنه تلقى وتكتم عرضا بخمسين ألف دوكاتية ليدس السم للملكة ، ولكنه زعم أنه لم يقصد الا لسلب مال ملك أسبانيا . فشنق هو واثنان آخران وافرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعا . وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه أنه يحب الملكة ويحب المسيح ، وهو ما أثار احتقار المتفرجين (٢٩) . وأخرج شكسبير ، الميال الى اسكس ، « تاجر البندقية » بعد هذا الاعدام بشهرين ، ولا بد أن كثيرا من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التى أراد شيلوك البطش بها كان أنطونيو .

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس ، الذى عجلت به ترجمة الملك جيمس ، من حده العداء لليهود لأنها وثقت معرفة انجلترة بالعهد القديم . وتغلغلت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيورتان وعباراتهم . وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الاول ، وكان يهوه رب الجنود ــ على نحو ما ــ أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد . ورسم الكثير من الكتائب لبيورتانية أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل « ذوو الجوانب الحديدية » الى المعركة وهم يتغنون بأغانى كتابية . واذ قبل لبيورتان أدب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فانهم أحسوا بأنهم مضطرون الى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسته أن اليهود ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وسمى بعض جماعة « المسوين » أنفسهم يهودا (٣٠) . وشعر كثير من البيورتان أن تأكيد المسيح الصريح لناموس موسي يرجح رفض بولس اياه ، وحملوا جميع

المسيحيين المتمسكين بالكتـــاب المقدس على الالتزام بممارســة ذلك الناموس . واقترح احد قادة البيوريتان ، وهو اللواء توماس هاريسون ، وكان من الصق مساعدى كروмويل به ، جعل الشريعة الموسوية جزءا من القانون الانجليزى (٣١) . وفى ١٩٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الاحد الوثني الى السبت اليهودى . فالانجليز أيضا هم الآن — فى زعم البيوريتان — شعب الله المختار .

وكانت جماعة صغيرة من المارانو سكنت لندن على عهد جيمس الأول (١٦٠٣ — ٢٥) . وكانوا أول الأمر يختلفـون الى الصـلوات المسيحية ، ولكنهم بعد ذلك لم يعبأوا باخفاء ولائهم لليهودية . وشارك الماليون اليهود أمثال انطونيو كارفاجال فى تلبيـة حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (٣٢) . فلما تقلد كرومويل السلطة استخدم التجار المارانو مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا ، ولاحظ فى شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه الى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية .

وبعد أن وصل منسي بن اسرائيل الى انجلترة بقليل اســتقبله كرومويل ، ووضع مسكنا فى لندن تحت تصرفه . وقدم منسي ملتمسا ، ونشر عن طريق الصحف « اعلانا » بالمبررات الدينيـة والاقتصـادية الداعية للأذن اليهود بدخول انجلترة . وبين السبب فى أن اليهـود اضطرتهم القيود القانونية ، وعدم أمنهم المادى والمالى ، الى الزهد فى الزراعة والاقبال على التجارة . وأشار الى أن يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار فى التجارة لا من اقراض المال ، وأنهم لا يتعاملون بالربا بل يضعون أموالهم السائلة فى مصارف ويقنعون بفائدة قدرها خمسة فى المائة على ودائعهم . ودلل على انعدام أى اساس للأسطورة التى زعمت أن اليهود يقتلون الاطفال المسيحيين ليستعملوا دمهـم فى الشـعائر الدينية . وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم . واختتم بطلب السماح لليهود بدخول انجلترة ، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة ، وبأن يمنحوا الحرية الدينية ، والحماية من العنف وأن يقضي أحبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم دون اضرار بالقانون والمصالح الانجليزية .

وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٥ ، جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمرا من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود • ودافع هو شخصيا عن الفكرة بقوة وفصاحة ، مؤكدا الجانب الدينى والاقتصادى اذ لا بد من تبشير اليهود بالانجيل الطاهر ، ولكن « أنستطيع تبشيرهم اذا لم نحتمل عيشهم بين ظهرانينا (٣٣) ؟ » ولم تلق حججه تعاطفا كثيرا • وأصر رجال الدين على أن لا مكان لليهود فى دولة مسيحيه واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدى الانجليز • وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام فى انجلترة « الا بأذن خاص من سموه (٣٤) » •

لقد كان الرأى العام معاديا لقبولهم عداء طاغيا • وذاعت شائعات زعمت أن اليهود اذا سمح لهم بدخول انجلترة سيحولون كتدرائية القديس بولس الى مجمع يهودى • وأصدر وليم برين (١٦٥٥ ـ ٥٦) كتابا سماه « اعتراض موجز » جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الاطفال ، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الانجليزى فى كتابه Historiomastix ورد بيورتانى متحمس يدعى توماس كوليز على برين ، ولكنه أضعف حججه بمطالبته باكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار • ونشر منسي نفسه (١٦٥٦) « دفاعا » ناشد فيه روح الانصاف فى الشعب الانجليزى • وقال أيستطيعون حقا أن يصدقوا «تلك الفرية العجيبة الرهيبة••• التى تزعم أن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير، بتخميره بدم بعض المسيحيين الذين قتلوهم لذلك الغرض ؟ » وقال كم من مرة فى التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب ، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد اعدامهم • ثم اختتم بايمان وحرارة مؤثرين قائلا :

« والى الشعب الانجليزى الأكرم أرفع رجائى المتواضع بأن يعيدوا قراءة حججي دون تحيز ، ••• مسلما نفسي تماما الى فضلهم ورضاهم، متضرعا الى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذى وعد به (النبى) صفنيا ، يوم نخدمه تعالى جميعا برأى واحد ، وبطريقة واحدة ، ويكون لنا كلنا رأى واحد ، وأنه بما أن اسمه واحد ، فكذلك تكون مخافته واحدة ، ونرى جود الرب (تبارك اسمه الى الابد) وتعزيات صهيون (٣٥) » •

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الانجليزى ، ولم يظفر منسي بقبول رسمى لليهود . وطرح كرومويل المشكلة جانبا فى غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته ، ولكنه أجاز منسي بمعاش سنوى قدره مائة جنيه (لم يدفع قط) من الخزانة العامة . وفى سبتمبر ١٦٥٧ مات ابن منسى . وأعانته منحة من حامى الجمهورية على نقل جثة ولده الى هولنـــده لدفنها ، ولكن « الرسول المبعوث الى انجلترة » مات فى مدلبـــورج فى ٢٠ نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهده الحزن ، غير مخلف من المال ما يكفى لتشييع جنازته .

على أنه فى واقع الامر لم يفشل فى مهمتـــه . كتب ايفلين فى « يوميته » تحت يوم ١٤ ديسمبر ١٦٥٥ « الآن قبل اليهود » لم يبح عودتهم الى انجلترة شرعا أى مرسوم من حامى الجمهورية ، أو قانون من البرلمان ، ولكن أعدادا متزايدة دخلت بموافقة كرومويل الصامتة . وفى ١٦٥٧ سمح ليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهـــودا لا مسيحيين ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعا ومارسوا شـــعائرهم فى هدوء . فلما عادت الملكية الى انجلترة ، تذكر تشارلز الثانى الدعـــم المالى الذى تلقاه فى منفاه بهولندة من منديس دا كوســـتا وغيره من العبرانيين ، وأدرك المنافع التى حصلت عليها انجلترة من المشروعات التجارية التى اضطلع بها يهود لندن ، فأغضي عن المزيد من الهجـــرة اليهودية لانجلترة . وواصل وليم الثالث هذا الموقف المتسامح وهو يذكر كذلك معونة اليهود ، وذلك برغم شكاوى التجار ورجال الدين الانجليز المتكررة . واكتسب سليمان مدينا أول لقب فروسية يهودى بخـــدماته متعهدا للجيش لوليم الثالث ومليره (٣٦) . وما أقبلت سنة ١٧١٥ حتى كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية ، والماليون اليهـــود قوة صعبرة فى البلاد . وفى عام ١٩٠٤ احتفـــل اليهـــود الانجـــليز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسي .

٤ ـ الأشـــكنازيم

فى سنة ١٥٦٤ كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية باقية فى المانيا لا سيما فى فرانكفـــورت ـ أم ـ مين ، وهامبـــورج ، وفورمز ، برغم الحملات الصليبية الوسيطة ومئات التقلبات . غير أن

حركة الاصلاح البروتستنتى لم تكن قد خففت من تلك الكراهية التى أحس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح على أنه ابن الله ، بل زادتها حدة . ففى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم الا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحا لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسهم شعارا أو لونا خاصا ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيرا ما كانت غريبة قبيحة المنظر . وقد اشترت رشوة موظفى المدينة أحيانا الاعفاءات من هذه القيود المذلة ، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطرا دائما يتهدد حياة اليهود وممتلكاتهم . مثال ذلك ما حدث فى سبتمبر ١٦١٤ حين اقتحم جمع مسيحى باب حى اليهود بينما كان معظم يهود فرانكفورت يقيمون الصلاة ، وبعد أن استمتعوا بليلة من النهب والتدمير ، أجبروا ١٫٣٨٠ يهوديا على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع الا ما على أجسادهم من ثياب . وأطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئين وآوتهم ، وألزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهم ، وتعويضهم عن خسائرهم ، وشنق زعيم الغوغاء (٣٧) . وبعد سنة قامت حركة مماثلة فى فورمز ، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمة مجامعهم ومدافنهم ، ولكن رئيس أساقفة فورمز وأمير هسي - دارمشتات قدما الملجأ للمنفيين ، وبسط عليهم ناخب بالاتين حمايته فى رجوعهم . ويمكن القول عموما ان كبار الاكليروس وأفراد الطبقات العليا كانوا ميالين للتسامح ، ولكن صغار الاكليروس وجماهير الشعب كان من السهل اثارتهم واشعال نار الحقد فى نفوسهم . وكانت القيود القديمة - حتى بعد تخفيفها - مصلتة أبدا فوق رءوس اليهود ، واحتمالات الاهانة والأذى ماثلة فى أى يوم . وكان بعض المسيحيين الغيورين يخطفون الاطفال من فوق صدور أمهاتهم ويعمدونهم بالاكراه (٣٨) . حقا لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود .

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية . فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك فى قتل بعضهم البعض استغراقا كاد ينسيهم أن يقتلوا اليهود ، حتى ولو كانوا أقرضوهم مالا . وكان الامبراطور فرديناند الاول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهم من بوهيميا (١٥٥٩) ، ولكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم بأن

حبنوا مجمعا فى فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم ، وأباح رجوع اليهود الى بوهيميا . وتعهد يهود بوهيميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام اسهاما منهم فى القضية الامبراطورية فى تلك الحـــرب الكبيرة . ورغبة فى تهدئة خواطر المسيحيين الذين تذمروا من سياسة فرديناند الثانى المتسامحة ، أمر (١٦٣٥) بأن يستمع يهود براغ كل أحد للعظات المسيحية ، وفرض الغرامات عقابا للتهرب أو النوم أثناء العظات .

واتسعت المستوطنات العبرية فى ألمانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا. فقد سوات فظائع الحرب الى حد ما سمعة التعصب والاصطهاد . وأقبل فتات اليهود من بولنده بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق التى نشبت فى ١٦٤٨ . وفيمـــا بين عامى ١٦٧٥ و ١٧٢٠ كان يختلف الى أسواق ليبزج من التجار اليهود كل سنة ٦٤٨ تاجرا فى المتوســـط . واستعان الامراء الالمان بالمهارة اليهودية فى ادارة ماليانهم وتنظيـــم تموين جيوشهم وقصورهم . مثال ذلك أن صموئل أو بنهايمر أشرف على المالية الامبراطورية خلال الحملات التى اختتم بها القرن السابع عشر ، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الامبراطورية فى حرب الوراثة الاسبانية . وكان من أثر نفوذ الامبراطورة مارجريت تريزا ، الاســـبانية المولد اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الاول أنه أمر بنفى اليهود من النمسا ، ولكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين فى براندنبورج ، ونمت الجالية اليهودية فى برلين حتى غدت من أكبر الجاليات فى أوربا .

ومنذ القرن الثانى عشر كان يهود وسط أوربا يطورون لهجتهـــم « البيدية Yiddish » المؤلف معظمها من ألفاظ ألمانية مع اضافات عبرية وسلافية ، والمكتوبة بأحرف عبرية . وواصل اليهود المتعلمون دراســة العبرية ، ولكن المطبوعات العلمانية التى نشرها الأشكنازيم أصـــبح معظمها باليبدية . وظهر أدب ييدى ، غنى بالفكاهة المرة والعاطفـــة البيتية ، فى قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود ، وفى تمثيليات قصيرة Purimspiele لمهرجان الربيع المرح ، وفى أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم « أب واحد يعول عشرة أبناء ، ولكن عشرة أبنـــاء لا يعولون أبا واحدا » (٣٩)). وقبل ١٧١٥ لم يكن فى استطاعة هذا الادب أن يفاخر الا بمؤلف مرموق واحد ، هو أبليا بوشر ، وهو عالم

ى العبرية وشاعر بالييدية ، كتب رومانسيات غريبة فى مقطوعات ـمانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير الى لغة الشعب . وظهرت ترجمة يبدية للاسفار الموسوية الخمسة فى ١٥٤٤ ، بعد خمسة عشر عاما فقط من ترجمة لوثر الالمانية للكتاب المقدس ، ونشرت ترجمة ـيدية للعهد القديم كله بأمستردام فى ١٦٧٦ ـ ٧٩ . لقد كان اليهود الألمان فى طريقهم الى زعامة شعبهم الثقافية .

وفى القرن العاشر دخل اليهود بولنده من المانيا وزكوا وتكاثروا تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة . وفى ١٥٠١ كان هنا نحو خمسين ألف يهودى فى بولنده ، وفى ١٦٤٨ نصف مليون (٤٠) ، وناصر الاعيان szlachta الذين يهيمنون على مجلس الأمة اليهود ، لأن الملاك تبينوا فيهم كفاية خاصة فى جمع الايجارات وجباية الضرائب وادارة الضياع ، وكان حكام بولنده فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فيما عدا قلة منهم ، من أكثر ملوك زمانهم تسامحا . فأصدر ستيفن باتورى مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغان تهم القتل الطقسي التى يرمى بها اليهود بأنها « افتراءات » قاسية لا يسمح بها فى المحاكم البولندية (١٥٧٦) (٤١) . ولكن عداء الشعب لليهود لم يخف . فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم جمع من الغوغاء الحى اليهودى فى بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا كثيرا من اليهود . وفرض باتورى غرامة على موظفى المدينة لفشلهم فى وقف الشغب . وواصل سجسمند الثالث سياسة التسامح الملكى .

وتضافر عاملان لانهاء هذا العهد الذى توافرت فيه حسن نية الحكومة قبل اليهود . أولهما أن التجار الألمان فى بولندة كرهوا منافسة اليهود لهم ، فاشعلوا ثورات شعبية فى بوزنان وفيلنو ، حيث هدم مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (١٥٩٢) ، وقدموا للملك ملتمسا de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (١٦١٩). وانضم الى الحملة لوقف التسامح اليسوعيون الذين استقدمهم باتورى وما لبثوا أن تولوا القيادة الفكرية للكاثوليك فى بولنده . وظفرت اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بها الآن . ففى ١٥٩٨ عثر فى لوبلن على جثة صبى فى مستنقع ، فأكره ثلاثة يهود بالتعذيب على الاعتراف بأنهم قتلوه ، ثم شنقوا وانتزعت أحشاؤهم وقطعوا

أرباعا ، وأصبح جثمان الصبى الذى حفظ فى كنيسة كاثوليكية محل الاجلال الدينى . وازدادت المؤلفات المعادية للسامية ضراوة عن ذى قبل .

وفى ١٦١٨ نشر سبستيان ميشنسكى الكراكاوى كتيبا اسمه « مرآة للتاج البولندى » اتهم فيه اليهود بقتل الاطفال ، والسحر ، والسرقة ، والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الامة لطرد جميع اليهود من بولنده . وأثار الكتيب الشعور العام اثارة حملت سجسموند على مصادرته . واتهم طبيب من بولندى الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم (١٦٢٣) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمى اليهود من الثورات الشعبية ، وحاول التخفيف من عداء المسيحيين لهم بمنع اليهود من السكنى فى الاحياء المسيحية ، أو بناء مجامع جديدة ، أو فتح مدافن جديدة ، دون ترخيص ملكى . وألزم برلمان ١٦٤٣ جميع التجار بألا تتجاوز أرباحهم ٧ ٪ ان كانوا مسيحيين ، و٣ ٪ ان كانوا يهودا ، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود فأثروا وأثاروا مزيدا من الحقد .

وتكاثر اليهود البولنديون برغم الكراهية والقيود والشدائد والفقر وبنوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التى أعانتهم على الاستقرار ، وصانوا ايمانهم المعزى . ونظم المدارس الأولية معلمون خصوصيون ينقدهم الآباء أجورهم بواقع التلميذ والفترة ، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فان معظم الجاليات اليهودية أنفقت على مدرسة خاصة بهم من الاموال العامة . وكان حضور المدرسة الأولية الزاميا على الصبية من السادسة الى الثالثة عشرة . ووفر التعليم العالى فى كلية (يشيبا) يشرف عليها الأحبار . وفيما يلى وصف للنظام بقلم حبر معاصر (١٦٥٣) :

« كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الباهور) وتمنحهم قدرا من المال كل أسبوع ... ويكلف كل طالب من هؤلاء الباهور بتعليم صبيين على الأقل ... فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان ، فتوفر الأسرة الواحدة الطعام لطالب كلية وتلميذيه ، ويجلس الطالب الى مائدة الأسرة كواحد

من أبنائها ... وندر أن وجد بيت ... لم تدرس فيه التوراه ، أو لم يكن رب البيت ، أو ابنه ، أو صهره ، أو طالب الكلية الذى يتناول الطعام على مائدته ، خبيرا فى الثقافة اليهودية (٤٢) » .

ونحن اذا نظرنا الى تعليم اليهود البولنديون وأدبهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية ، وجدناهما ربانيين بشكل ضيق ، لأنهما يكادان يقتصران على التلمود ، والتوراة ، والقبلانية ، والعبرية ، ولكن لما كان التلمود مشتملا على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين ، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطا صارما متعمقا . وما من ريب فى أن الجاليات المطاردة شعرت بأنه لا يولد فيهم القوة على احتمال التعبير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الايمان الدينى الحار ، والدراسة التى تمد جذورها فى تقاليد الشعب اليهودى وعاداته . وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم فى العصور الوسطى حتى اصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفى لاعطائهم الحرية - أو الموت .

وجاءهم عام ١٦٤٨ بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق فى العالم المسيحى . ذلك أن الثورة التى تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين و اللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جباة للضرائب . فذبح الآلاف منهم فى بيريياسلاف ، وبيرياتين ، ولوبنى ، وغيرها من المدن ، سواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم . واحتفظ بعضهم بحياتهم اما باعتناقهم مذهب الروم الارثوذكس ، واما بالالتجاء الى التتار الذين باعوهم عبيدا . وقد اشتط غيظ القوزاق المكبوت فاتسم بشراسة لا تصدق . يقول مؤرخ روسي :

« كان القتل مصحوبا بضروب من التعذيب الهمجى : فكان الضحايا تسلخ جلودهم أحياء ، أو يمزقون اربا ، أو يضربون بالهراوات حتى يموتوا ، و يشوون على الجمر ، أو يحرقون بالماء المغلى ... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود . فقد حكم عليهم بالابادة الكاملة ، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيانة . وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهم

يشربون الوسكى ٠ ثم طرحوا عليها اليهود وذبحوهم بغير رحمة ٠ وألقى آلاف الأطفال اليهود فى الآبار أو أحرقوا أحياء (٤٣) » ٠

وروى أن ٦٫٠٠٠ يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة واحدة هى نيميروف ٠ وفى تولشيمن حوصر ١٫٥٠٠ يهودى فى حديقة عامة وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت ، واذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ الأخبارى اليهودى فان ١٫٥٠٠ اختاروا الموت ٠ وقيل ان ١٠٫٠٠٠ (؟) يهودى فى مدينة بولونوى قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار ٠ ونشبت فى مدن أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنا ٠ ولما تحالف القوزاق مع روسيا بعد أن تصدى لهم الجيش البولندى (١٦٥٤) ، انضم الجنود المسكوفيون الى القوزاق فى قتل أو طرد يهود موجيليف ، وفيتيبسك ، وفيلنو ، وغيرها من المدن التى انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين ٠

وفى ١٦٥٥ خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولنده مشكلة أخرى لليهود ٠ ذلك أنهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدى دون مقاومة ، منقذا لهم من الروس المرهوبين ٠ فلما قام جيش بولندى جديد وطرد السويديين ، ذبح اليهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ، وكاليتس ، وكراكاو ، وبيوتركوف ، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها ٠ وعلى الجملة كانت هذه الكوارث التى منى بها اليهود من ١٦٨٤ الى ١٦٥٨ فى بولنده ولتوانياوروسيا ، حتى عصرنا الحاضر ، أدمى الكوارث فى تاريخ اليهود الأوربيين ، ففاقت فى هولها وضحاياها مذابح الحروب الصليبية ، والموت الاسود ٠ وقد حسب تقدير متحفظ أن ٣٤٫٧١٩ يهوديا ماتوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت (٤٤) ٠ هذا العقد الفاجع هو الذى بدأ هجرة اليهود الجماعية من الاراضي السلافية الى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان اليهود على سطح الارض ٠

وفى بولنده عاد من بقى من اليهود على قيد الحياة الى بيوتهم وأعادوا فى صبر بناء جالياتهم التى دمرت ٠ وأعلن الملك يوحنا كازيمير عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التى تحملوها ، فمنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية ، واعفاء مؤقتا من الضرائب فى تلك المراكز التى اشتد كربها ٠ ولكن العداء الشعبى

واللاهوتى ظل قائما ، تخفف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين. ففى ١٦٦٠ أعدم حبران بالتهمة القديمة التى طالما استنكرها البابوات، وهى تهمة القتل الطقسي ، وفى ١٦٦٣ لقى صيدلى يهودى فى كركاو الموت بتهمة لم تثبت عليه ، وهى أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم العذراء ، وكان موته بالترتيب الهمجى الذى قضت به المحكمة : فبترت شفتاه ، وأحرقت يده ، وقطـع لســانه ، وأحــرق جســده على الخازوق(٤٥) . وارسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (٩ فبراير ١٦٦٤) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان فى كركاو « على الدفاع عن اليهود التعساء ضد كل فرية تفترى عليهم (٤٦) » . وفى لفوف غزا تلاميذ أكاديمية بسوعية حى اليهود ، وقتلوا مائة منهم ، وهدموا البيوت ، وانتهكوا حرمة المحامع (١٦٦٤) ، ولكن الطلبة اليسوعيين فى فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثى الشغب (١٦٨٢) (٤٧) . وحاول سوبيسكى السمح الكريم (١٦٧٤ - ٩٦) جاهــدا أن يطيب خاطر يهود بولنده ، فأكد من جديد حقوقهم المنتهكة ، وحررهم من قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير ، واستمع فى تعاطف الى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود الى بلاطــه . فما اختتم حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا ، عدديا ، من ذلك العقد القاسي ، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالا بذاكرة اليهود .

لم يكن فى روسيا ، قانونا ، يهود قبل ١٧٧٢ . وقد أبدى ايفان الرهيب رأيه فيهم فى جوابه على طلب رجاه فيه سجسموند الثانى أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة (١٥٥٠) :

« ليس من المناسب السماح لليهود بالمجىء الى روسيا بسلعهم لأن شرورا كثيرة تنجم عنهم . ذلك أنهم يدخلون الاعشاب الســامة الى مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية . اذن ينبغى له (أى الملك) الا بعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود (٤٨) » .

ولما احتل الجيش الروسي مدينة الحدود البولنـدية بولوتســك (١٥٦٥) ، أرسل ايفان أوامــره بتحــويل اليهــود المحليين الى المسيحية ، أو اغراقهم . وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولنده فى ١٦٥٤ أدهش الروس أن يجدوا مدنا كثيرة فى لتوانيا وأوكرانيا بهـــا

اقسام كاملة آهلة باليهود ٠ فقتلوا بعض هؤلاء « المهرطقين الخطرين »، وأخذوا بعضهم أسرى الى موسكو ، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية ٠ وفى ١٦٩٨ تلقى بطرس الأكبر وهو فى هولنده عن طريق عمدة أمستردام ، ملتمسا مقدما من بعض اليهود يرجونه فيه السماح لهم بدخول روسيا ، وكان جوابه :

« عزيزى ويتسن ، انك تعرف اليهود ، وتعرف أخلاقهم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس ٠ وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين ٠ فقل لليهود انى شاكر لهم اقتراحهم ، واننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، ولكنى مشفق عليهم ان يعيشوا بين ظهرانى الروس (٤٩) » ٠

وظلت هذه السياسة الروسية ، سياسة ابعاد اليهود ، معمولا بها حتى الملتمس البولندى الأول (١٧٧٢) ٠

٥ ـ الهامات الايمان

لابد لكى نفهم عداء المسيحيين لليهود أن ننفذ الى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستنت حركة الاصلاح الدينى ٠ لقد تذكروا صلب المسيح ، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التى استمعت فى فرح الى المسيح ورحبت به فى دخوله أورشليم ٠ وآمنوا بيسوع ذلك « المسوح » ، ابن الله ، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا فى المسيح ذلك المسيا الذى وعدهم به أنبياؤهم ، والمخلص الذى سيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعبا حرا مرفوع الرأس ٠ وكان عسيرا على المسيحيين ان ينظروا نظرة التسامح الأخوى الى قلة لم تكن وحدانيتهم منافسا بعيدا كوحدانية الاسلام ، بل صرخة حارة ، تسمع من مجامع نتكاثر فى قلب العالم المسيحى ـ « أصغ يا اسرائيل ! الرب الهنا واحد ! » وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هى تحد ماثل أبدا للايمان المسيحى الاساسي ، الايمان بأن ابن الانسان الذى مات على الصليب هو فى كل الحق ابن الله ، الذى كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الانسان ، وفتحت له أبواب الفردوس ٠ أيمكن أن يكون فى الحياة شيء أثمن وأعظم تشديدا للنفوس من ذلك الايمان ؟

ولكى يحمى مسيحيو أوربا ذلك الايمان حاولوا عزل اليهود بالحواجز الجغرافية ، والقيود السياسية ، والرقابة الفكرية ، والاغلال الاقتصادية . فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها فى أى بلد فى أوربا المسيحية قبل الثورة الفرنسية ــ ولا حتى فى أمستردام . وحيل بينهم وبين الوظائف العامة ، والجيش ، والمدارس والجامعات ، والاشتغال بالقانون فى المحاكم المسيحية . وفرضت عليهم الضرائب الباهظة ، وتعرضوا للقروض الاجبارية ، ولمصادرة ثروتهم فى أى وقت . وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الأرض ، وبانعدام الأمن الذى ما برح ملازما لهم والذى أكرههم على وضع مدخراتهم فى النقد او السلع المنقولة . وحرموا من الانضمام للطوائف الحرفية لأنها كانت من بعض الوجوه دينية شكلا وهدفا ، واشترطت اليمين والشعائر المسيحية . واذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة ، وعلى التجارة والمالية ، فانهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى فى هذه الاشغال بتحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير فى أى وقت . ففى اقليم حرم عليهم أن يكونوا باعة متجولين ، وفى آخر أن يتجروا فى دكاكين ، وفى ثالث أن يتعاملوا فى الجلد أو الصوف (٥٠) . ومن ثم عاش أكثر اليهود تجارا صغارا ، و باعة متجولين ، أو تجارا فى البضائع المستعملة أو الثياب القديمة ، او خياطين ، أو خداما لمواطنيهم الأغنياء ، أو صناعا يصنعون السلع لليهود . ومن هذه الاشغال ، ومن ذل العيش فى الغيت ، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك فى الملبس والحديث ، وحيل التجارة وخصائص الذهن التى مجتها الشعوب الأخرى والطبقات العليا من الناس .

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الاحبار ، والاطباء ، والتجار ، والماليون . وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دورا هاما فى ثراء هامبورج وأمستردام . وكان جزء على اثنى عشر من تجارة انجلترة الخارجية يمر بأيدى اليهود فى النصف الأول من القرن السابع عشر (٥١) . وغلب العنصر اليهودى فى استيراد الجواهر والمنسوجات من الشرق . وانتفع اليهود فى التجارة الدولية من علاقاتهم الأسرية فى مختلف الدول ، ومن اجادتهم للغات ، وكان لهم مسالكهم التى تصلهم منها المعلومات ، فهدتهم بين الحين والحين الى توقعات

نافعة فى السوق المالية (٥٢) . ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات . ولم يكن اليهود بالطبع مخترعى الرأسمالية الحديثة ، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلا تمام الاستقلال عنهم ، وفى الصناعة أكثر منه فى المالية ، وكان دورهم حتى فى المالية صغيرا اذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين ، أو آل جريماليرى الجنوبين ، أو آل فوجير الأوجزبورجيين . وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية ، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطارا معادلة .

واكتسب الذهن اليهودى ، الذى شحذته الشدائد والظلم والدراسة ، فى التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسوهم قط . ولم تر أخلاقيات اليهود فى الثروة أى عيب أو وصمة عار ، شانها فى ذلك شأن أخلاقيات البيورتان . ورأى فيها الاحبار دعامة البر ، وعصب المجمع ، والملجأ الأخير اذا أريد الخلاص من أذى الملوك او الجماهير المضطهدة . ومع ذلك فصحيح أنه وجد فى الجاليات اليهودية فى هولنده وألمانيا وبولنده وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبهم ، واستعملوا فى جمعه الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير ، وأظهروا بنى جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوثه الترف الواضح ، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة الا جزئيا . ومن حولهم فى الغيت كان ثلث اخوانهم يعيشون فى فقر ، لا يحول دون تصورهم جوعا غير الصدفات (٥٤) .

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة فى الغيت وانطوائها وهوانها . فالأحبار الذين كانوا فى العصور الوسطى رجالا ذوى شجاعة وحكمة ، أصبحوا فى هذا العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة الى جنة الاحلام التعويضية . وقد حل التلمود فى العصور الوسطى محل التوراة روحا لليهودية ، اما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود . وزعم مؤلف فرانكفورتى من كتاب القرن السابع عشر أنه كان فى أيامه أحبار كثيرون لم يروا توراة قط (٥٥) . وكان سليمان لوريا (١٥١٠ - ٧٢) علامة عينت هذا الانتقال ، فقد بدأ بالتلمود ، وبنى عليه كتابه « يم شيل شلومو » (بحر سليمان) ، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الامر للقبلانية ، فقد كانت

« التقليد السرى » لمتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيا الهيا مستترا فى رمـزية الاعـداد ، والحـروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتألف منها اسم يهوه الذى لا ينطق به . وكان العالم تلو العالم فى الغيت يضل فى هذه الأوهـام ، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمـة القبلانيـة السرية يسـتحق الحرم(٥٦) . يقول أكبر المؤرخين اليهود المحدنين انه فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر « خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهـود الدينية بجملتها . وكل الاحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريبـا ... وقعوا فى شراكها » من أمستردام الى بولنده الى فلسطين (٥٧) .

وكان سند الحياة فى نظر اليهود المشتتين على هذا النحـو ، والذين كثيرا ما كانوا معدمين مفترى عليهم ، هو الايمان بأنه فى يوم قريب سيأتى المسيا الحقيقى لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم الى مكان القوة والمجد . ومن المؤسف أن نرى كيـف كان دجـال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على أنه هذا المخلص الذى طال ارتقابهم له . ولقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روبينى العربى هلل له عبرانيو البحر المتوسط فى ١٥٢٤ على أنه المسيا ، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا . وها هو ذا يهودى من أزمير يدعى سبتاى زيفى ، يظهر عام ١٦٤٨ ويزعم أنه الفادى الموعود .

لقد بدا هذا المختار ، من الناحيه الجسمية ، اختيارا جـديرا بالاعجاب . فهو رجل طويل القامة ، حسن التكوين ، مليح الوجه ، له شعر الشاب الصفاردى ولحيته السوداوان (٥٨) « اجتذبته كتـابات سليمان لوريا الى القبلانية ، فأخضع ذاته لنظام صارم من النسك أمـلا فى أن يصبح بهذا جديرا بالتقليد السرى » فى أكمـل اعلانه . فأذل جسده ، وأكثر من الاستحمام فى البحر فى جميع الفصـول ، وغالى فى الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل اتباعه برائحة لحمه الزكية . ولم يشعر بميل للنساء ، وقد تزوج فى شبابه الباكر امتثالا للعرف اليهودى، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله فى أداء واجباته الزوجية . ثم تزوج ثانية ، بنفس النتيجة . والتف الشـبان من حـوله ، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلانية ، متسائلين أليس هذا قديسا مبعوثا من السماء . وكان أبوه أحد جماعة آمنت بقرب مجىء المسيا -

وبأن ذلك لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ . وسمعهم سبتاى يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس شديد الورع ، ملم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الابرار ليعيشوا فى عصر السلام الموعود . وخبل اليه ، بعد أن طهره الزهد ، أنه الفادى الالهى . وكان « الظهر » ، وهو نص فى القبلانية يرجع الى القرن الثالث عشر ، قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ (١٦٤٨ الميلادية) فاتحه لعصر الفداء . فى تلك السنة أعلن سبتاى أنه المسيا ، وكان آنئذ فى الثانية والعشرين.

وصدقه رهط من مريديه . فأدانتهم حاخامية أزمير باعتبارهم مجدفين ، ولكنهم أصروا ، فنفوا من المدينة . وانتقل سبتاى الى سالونيك ، وهناك أقام احتفالا قبلانيا زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده احبار سالونيك ، فمضى الى أثينا ، ثم الى القاهرة ، حيث ضم اليه تابعا غنيا يدعى رفائيل شلبى ، ثم انتقل الى أورشليم ، وهناك وقع زهده موقعا طيبا حتى فى نفوس الاحبار . وأوفدت الجالية اليهودية فى أورشليم سبتاى ليلتمس المعونة فى القاهرة بعد أن أفقرها انقطاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين . فعاد الى أورشليم مصحوبا لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى ساره ، أضفى حسنها الاشراق على دعاواه وفى غزة - التى مر بها فى طريقه - انضم اليه تابع غنى آخر يسمى ناثان غزاتى ، أذاع أنه هو ذاته ايليا ، ولد من جديد ليقوم الطريق أمام المسيا ، وأنه لن ينقضي عام حتى يسقط المسيا السلطان العثمانى ويقيم ملكوت السماوات . وصدقه آلاف اليهود ، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديرين بالفردوس الأرضي . فلما عاد سبتاى الى أزمير ، دخل عام ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، وأعلن نفسه المسيا مرة أخرى . وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح . فلما رماه حبر عجوز بأنه دجال نفاه سبتاى من أزمير .

وانتشر نبأ مجىء المسيا فى أرجاء عربى آسيا فكهرب الجاليات اليهودية . وحمل البشرى تجار مصر وأيطاليا ، وهولنده ، وألمانيا ، وبولنده ، الى بلادهم ، وخبروا بالمعجزات التى نسبت الى سبتاى فى عدد متزايد . وتشكك بعض اليهود ، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلانية والآمال الحارة . لا بل ان بعض المسيحيين

شاركوهم الابتهاج ، وقالوا ان مسيا ازمير هو حقا المسيح المولود من جديد . ذكر هنرى أولدنبرج فى رسالة من لندن الى سبينوزا (ديسمبر ١٦٥٥) أن « كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الاسرائيليين المشتتين منذ أكثر من الفى عام الى وطنهم . وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنونه ... فاذا تأكد ، فربما أحدث ثورة فى كل شيء (٥٩) » . وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون ايمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجيء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوت لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد . ففى مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفى أيديهم درج الناموس . وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملاكهم ورفضوا أن يشتغلوا قائلين ان المسيا آت بشخصه سريعا وسيقودهم فى موكب النصر الى أورشليم(٦٠). واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل الى فلسطين - كان منهم أحيانا جاليات بأكملها ، كجالية أفنيون . واقترح بعض المتحمسين فى أزمير، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمى لزعيمهم ، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن ، لا الى يهوه ، بل الى « ابن الله البكر ، سبتاى زيفى ، المسيا والفادى » (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله) . وأرسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بأيام الحداد المقدسة عند اليهود أعيادا للفرح ، وبأن كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعا فى أمن الملكوت وسعادته .

ويلوح ان سبتاى ذاته انتهى الى الايمان بقواه المعجزة . فاعلن أنه ماض الى الآستانة ، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزانى بأن المسيا سيأخذ فى هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان. (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركى فى أزمير أمره بالمثول بين أيدى كبار موظفى الدولة فى العاصمة) . وقبل أن يبرح سبتاى أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه . ثم انطلق الى الاستانة فى أول يناير ١٦٦٦ وبرفقته نفر من مريديه . وكان قد تنبأ بتاريخ وصوله ، ولكن عاصفة عطلت سفينته . وقلب رفاقه خطأه الحسابى هذا الى برهان جديد على الوهيته ، وقالوا انه أسكت العاصفة بكلمة الهية منه .

وما ان رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليـــه ، وجىء به الى الاستانة مكبلا بالاغلال ، وزج به فى السجن . وبعد شهرين نقـل الى سجن أرحم فى أبيدوس . وسمح لزوجته أن تلحق به ، ووفد عليه أصدقاؤه من كل فج ليواسوه ، ويقدموا له الولاء ، ويأتوه بالمال . ولم يفقد أتباعه ايمانهم به ، فزعموا ان أوثق النبوءات تنبأت بأن المسيا سيرفض أولا من رؤساء هذا العــالم ، الذين ســـيوقعون به ألوانا من العذاب والهوان . وتوقع اليهود فى كل أرجاء أوربا الافراج عنه فى أى لحظه ، وأنه سيحقق نبوءات أسعد . وعلق حرفا اسمه الاولان ، س ، ز فى المجامع . وفى أمستردام ، ولجهورن ، وهامبورج ، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماما ، فقد اشتد ايمان اليهود هناك بأنهـــم عائدون جميعا عما قريب الى الارض المقدسة . وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم فى أن سبتاى هو المسيا لخطر الموت كل يوم .

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذى اضطربت له الحيـــاة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية ، ولكن الترك خشوا أنهم لو أعدموا سبتاى بوصفه ثائرا ودجالا لعملوا بذلك على تقديسه شهيدا ، ولحولوا حركته الى تمرد يكلفهم ثمنا غاليا ، لذلك قرروا أن يجـربوا حلا سلميا . فأخذ سبتاى الى أدرنه . وهناك أخبر بأن أمرا قضى بأن يسحل فى الشوارع ويعذب بالمشاعل الموقدة ، ولكن فى استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير فى الاســلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر مثل أمام السلطان ، وأكد مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزى التركى . وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبا لبابه براتب كبير . ونالت سارة ، التى اعتنقت الاسلام هى أيضا ، الهدايا الثمينة من السلطانة .

وقوبل نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا وأوربا وأفريقيا ، ولكن حين تاكد النبأ آخر الامر كاد ينفطر له قلب العالم اليهـــودى . فكاد الحاخام الاكبر فى أزمير يموت خزيا وهو الذى قبل سبتاى بعد تشكك كثير . وأصبح اليهـود فى كل مكان أضـــحوكة المســـلمين والمسيحيين . وحاول أعوان سبتاى مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن اعتناقه الاسلام انما هو جزء من خطة ماكرة ليكسب المســـلمين الى

صفوف اليهود ، وأنه عما قريب عائد الى الظهور يهــوديا والعـــالم الاسلامى كله فى ركابه . وحصل سبتاى على اذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدا للسلطات التركية أنه سيهدى سامعيه الى الاسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها انه مازال المسيا ، وان عليهم ألا يفقدوا ايمانهم به . ولكن لم يبد على اليهود ، لا فى أدرنه ولا فى أى مكان آخر ، أى علامة على قبولهم الاسلام . فلما خاب أمل الحكومة العثمانية رحلت سبتاى الى أولسينج فى البانيا ، حيث لا يوجد يهود . وهناك مات المسيا المحطم فى ١٦٧٦ . وظل المؤمنون به نصــف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداســته ، ويعــدون بقيامتــه من بين الاموات .

٦ ــ المهرطقــون

كان الاحبار عليمين بان الدين فى المجتمعات اليهــودية التى يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة ، وحياة الشريعة ، لذلك زهدوا اليهود فى الدراسة العلمانية التى قد تفتح ثغرة للتشكك فى الدين . من ذلك أن يوئيل سركيس ، الحاخام الاكبر فى كركاو ، أدان الفلسفة لانها أم الهرطقة ، و « العاهرة » المهلكة التى قال فيها سليمان « كل من دخل اليها لا يؤوب (٦١) » ورأى حرم أى يهودى فى قضائه يدمــن الفلسفة . وفزع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم ، وكان قد وفد على بولنده (١٦٢٠) من ايطاليا التى مازالت تجيش بحرارة النهضة ، وكتب يقول « ها هى ذى الظلمة تغشي البلاد والجهلة كثيرون ... وهم يقولون ان الرب لا يبتهج بالسهام المشحوذة فى أيدى النحاة والشعراء والمناطقة ، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين (٦٢) » .

وكان ديلميديجو هذا حفيدا بعيدا لايليا ديلميديجو ، الذى كان يعلم العبرية فى أوساط آل مديتشي . وبدأ انحرافاته بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه ، وكان حاخاما فى كريت ، وحصل على بعض التربية العلمية فى جامعة بادوا التقدمية ، حيث كان جاليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذى يسر له الرزق وخلع عليــه اسمه الايطالى ، ولكن العلم ــ لا سيما الرياضــة ــ ظل يفتنــه ، وفى

سبيل طلبه نفض عنه بعض ايمانه الدينى ، وتغيير الاهاب القديم على هذا النحو يخلف جلدا حساسا ، وقد يزعزع الخلق حينا . لذلك راح يوسف يتنقل من بلد الى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال . وانضم مؤقتا وهو فى القاهرة والاستانة الى شيعة القرائين ، وهم يهود رفضوا التقاليد والتنقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتـــوراة مصدرا أوحد للاهوتهم . وفى هامبورج وأمستردام وجد معلوماته الطبية أشد تخلفا من معلومات الاطباء اليهود هناك ، حتى لقد تحـــول فى سبيل الرزق سنيا ، والتحق بالحاخامية ، وأخيرا دافع عن القبــلانية ومات طبيبا مغمورا فى براغ (١٦٥٥) .

أما لبو بن اسحاق مودينا فكان انسانا أكثر رهافه وعمقا . اتخذ اسمه الايطالى من المدينة التى هاجرت اليها اسرته عند طرد اليهود من فرنسا . وكان أعجوبة بين الاطفال ، فقرأ الانبياء فى الثالثة ، ووعظ فى العاشرة ، وألف أول كتبه المنشورة فى الثالثة عشرة . والكتاب حوار ضد القمار ، الذى كان ليو حجة فيه ، لأنه ظل وفيا له الى نهـــاية حياته . وكان أعظم مقامراته زواجه فى ١٥٩٠ وهو فى التاسعة عشرة . أما أبناؤه الثلاثة فقد مات أحدهم فى السادسة والعشرين ، وقتل الثانى فى عراك ، انصرف الثالث الى حياة الفجور ثم اختفى فى البرازيل . وماتت احدى بنتيه وهو حى ، أما الأخرى فبعد أن فقدت زوجهـــا أصبحت عالة على أبيها الذى اصيبت زوجته بالجنون . ووسط هـــذه الصدمات حرم ليو لتماديه فى لعب الورق . وكتب رسالة تثبت أن الاحبار تجاوزوا الناموس فى قرارهم ، الذى عدلوا عنه سريعا .

وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الربانى ، ودرس الفيزياء والفلسفة ، وكتب بالعبرية والايطالية شعرا لا بأس به . علما تبلته الحاجامية فى البندقية ، ألقى خطبا ايطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيرا من المسيحيين الى سماعه . وكلفه احد أصدقائه المسيحيين ، وكان نبيلا انجليزيا ، بأن يكتب عرضا للشعائر اليهودية . وقد انتهى ليو فى كتابه هـــذا Historia dei riti ebraici

« تاريخ الشـــعائر العبرية » (١٦٣٧) الى أن كثيرا من المراســـم التقليدية التى بعدت الآن عن هدفها الاصلى قـد فقـــدت الكثير من دلالتها . وفى كتاب غفل من اسم المؤلف « قول صقل » اقترح تنقيح

الصلوات والطقوس العبرية وتبسيطها ، والغاء قوانين الصوم ، وخفض عدد الايام المقدسة والتخفيف من صرامتها . وفى هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التى لا مبرر لها أضيفت الى الشريعة اليهودية الأصلية ، وطالب بالرجوع من التلمود الى التوراة ، ولكنه مد هرطقاته الى التوراة ذاتها ، بل الى الوحى الموسوى بأكمله . وقد ترك هذا التصريح الثورى دون نشر ، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (١٦٤٨) ، كان مصحوبا برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية . ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام ١٨٥٢ . ولو أن ليو اجترأ على نشر « قول صقل » فى حياته ، لبدأت حركة الاصلاح اليهودية نشاطها فى القرن السابع عشر ، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ .

أما أشقى المهرطقين اليهود فهو أوريل أكوستا الامستردامى . كان أبوه ينتمى لأسرة من المارانو أقامت فى أوبورتو ولاءمت تماما بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكى . وتلقى جابرييل - وهو اسمه فى البرتغال - العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم، ولكنهم شحذوا ذهنه بالفلسفة الكلامية . فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعتراف الكنيسة بالعهد القديم كلمة لله ، وقبول المسيح ورسله الاثنى عشر لناموس موسي . وانتهى الى أن اليهودية من الله ، وتشكك فى حق القدس بولس فى سلخ المسيحية عن اليهودية ، وصمم أن يعود الى دين أجداده فى أول فرصة . فاقنع أمه واخوته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام اليه فى محاولة للروغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال . ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالى ١٦١٧) وهناك غير جابرييل اسمه الى أوريل ، وأصبحت الاسرة أعضاء فى مجمع اليهود البرتغاليين .

بيد أن هذه الروح ذاتها التى حدت به الى ترك الكنيسة ، روح التقصي والتفكير المستقل ، جعلته قلقا لا يحس بالاطمئنان النفسي داخل عقائد المجمع التى لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة ، فقد صدمه ادمان الاحبار ، حتى أحبار أمستردام المثقفين ، لسخافات القبلانية الفكرية، فوبخ شركاءه الجدد بجرأة على تلك الطقوس والنظم التى ليس لها اساس ظاهر فى التوراة ، والتى رآها تتعارض أحيانا تمام التعارض

مع طرق التوراة . واذ لم يؤت من الحاسة التاريخية الا القليل ، فقد خيل اليه أنه كان خطأ كبيرا أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرنا . وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد الى القديم ، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمـــود الى التـــوراة . وكان قد نشر فى ١٦١٦ بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها « حجج ضد التقاليد » التى بنى عليها التلمود . فأرسل نسخة منها الى مجمع اليهـــود بالبندقية ، فاعلن المجمع حرمه (١٦١٨) ، وطلب الى ليو مودينا ، وهو ذاته مهرطق ، بحكم منصبه فى الحاخامية ، أن يفند دعوى أكوستا بأن أوامر الاحبار فى كثير من الحالات ليس لها سند من الاسفار المقدسة . وأنذر أحبار أمستردام أكوستا بأنهم هم أيضا سيحرمونه ما لم يعدل عن آرائه ، وكان قد رماهم بالفريسية . فأبى ، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهارا ، فأعلن حرمه (١٦٢٣) ، وهو حرم يقطع كل صلة له بأخوانه اليهود ، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه . ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد ، فوجـــد نفسه بغير صديق واحد . وراح الاطفال يرجمـــونه بالحجـــارة فى الشوارع .

وفى مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقـــرن) الى هرطقة هاجمت معتقدا أساسيا لكل شخص تقريبا فى أوربا . فجاهر بأنه برفض الايمان بخلود النفس لأنه غريب جدا على العهد القديم ، فالنفس فى رأيه انما هى الروح الحية المتدفقة فى الدم ، وهى تموت مع الجسد (٦٣) . وحاول طبيب يهودى يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا . فنشر بالبرتغالية « رســـالة فى خـــلود النفس » (١٦٢٣) وصف فيها أكوستا بأنه جاهل ، عاجز ، أعمى . ورد أوريل بكتاب سماه « فحص للتقاليد الفريسية ... ورد على صموئيل داسيلفا ، المفترى الكذاب » (١٦٢٤) . ورغبة فى حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية ، أعلم زعماؤها قضاة امستردام بأن أكوستا بانكاره الخـــلود انما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية . فقبض عليـــه القضـــاة ، وغرموه ثلاثمائة جولدن ، وأحرقوا كتابه . وما لبث أن أفرج عنـــه ، ويبدو أنه لم يلحق به أذى بدنى .

على أن عقابه كان عقابا اقتصاديا واجتماعيا . ذلك أن اخـــوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه ، واذن فعلى حريته — المحرمة الآن —

في الدخول فى علاقات اقتصادية مع اخوانه . ولعل هذا السبب ، فضلا عن رغبته فى الزواج ثانية ، هو ما دعا أوريل الى أن يقرر الخضوع للمجمع ، وانكار هرطقاته ، وأن يصبح « قردا بين القردة (٦٤) » على حد تعبيره . وقبل انكاره (١٦٣٣) وعاش الشكاك المتحمس حينا فى سلام نسبى . ولكن هرطقاته استمرت فى الخفاء واتسعت . كتب فى فترة لاحقة بقول « لقد خامرنى الشك فى ناموس موسي ، أهو حقا ناموس الله ، ثم انتهيت الى أنه من مصدر بشرى (٦٥) » . ونبذ الآن الدين كله ، اللهم الا ايمانا غامضا باله هو والطبيعة واحد (كما كان ايمان سبينوزا فيما بعد) . وأهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودى السنى . فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما فى اعتناق اليهودية ثناهما وحذرهما من النير الثقيل الذى سيضعانه فوق عنقيهما . فأنهيا ذلك الى المجمع . فاستدعاه الاحبار واستجوبوه ، ووجدوه غير نادم ، فأوقعوا عليه الآن حرما آخر أشد صرامة من سابقه (١٦٣٩) . وعاد أقرباؤه يقصونه عن حياتهم ، وشارك اخوه يوسف فى اضطهاده (٦٦) .

واحتمل هذه العزلة سبع سنين ، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذبه اذى بلبغا فى رزقه وأمام القانون . واذ أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما جرت عليهم من متاعب ، فقد حكموا عليه بضرب من الانكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالى (٦٧). فأكره ، على طريقة احتفالات الديوان بادانة المهرطقين ، على أن يرقى منصة فى المجمع ، ويتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافا بأخطائه وذنوبه ، ويتعهد بأغلظ الايمان أنه منذ الآن سيمتثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودى الصالح . ثم خلعت ثيابه الى خصره ، وجلد تسعا وثلاثين جلدة . وأخيرا أجبر على ان يطرح نفسه على عتبة المجمع ، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذى كان يناصبه العداء .

وقام من هذه العقوبة المذلة لا مذعنا بل ناقما ساخطا . فمضي الى بيته ، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال ، وكتب آخر وأمر تنديداته باليهودية التى ضحى بالكثير فى سبيل اعتناقها ، والتى لم يفهم قط فى تعاطف تاريخها الانطوائى ، وصرامتها الواقية التى

فرغتها عليها قرون من الظلم . وفى كتابه هذا « مثال من حياة البشر» فص سيرته الفكرية مثالا على ما يصيب الانسان المفكر . وقد أحس بأن « كل الشرور تنجم عن عدم أتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة (٦٨)» وقابل بىن الدين « الطبيعى » والدين الموحى ، وزعم أن هـــذا بعلم الناس البغضاء ، أما ذاك فيعلمهم المحبة . فلما فرغ من مخطوطته ، حشا طبنجتين ، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر ، وأطلق عليه النار فأخطأه (٦٩) . ثم أطلق على نفسه الرصاص (١٦٤٧ ؟) .

وحاول المجتمع اليهودى أن يدفن هذه الفاجعة فى صمت ، ولكن لابد ان بعض أفراده وجدوا نسيانها عسيرا . وكان سبينورا غلاما فى الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقس الحرم ، ولعله كان بين جماعة العابدين الذين رأوه يوقع عليه ، ولعله مشي فى رهبة وارتياع فوق جسد المهرطق المطروح أرضا . وعن طـــريق ذلك الفتى ، دخلت رؤيا أكوستا تراث الفلسفة بعد أن تطهرت مما علق بها من سخط (٧٠) .

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية

١٦٤٨ — ١٧١٥



الفصل السابع عشر

من الخرافة الى العلم

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ المعـوقات

كانت الطبيعة كما تصورها كل الاوربيين فى القرن السابع عشر ـ فيما عدا قلة قليلة منهم ـ نتاجا ، أو ساحة قتال ، لكائنات خارقة ، خيرة أو شريرة ، تسكن أجساد البشر نفوسا ، أو تسكن الأشجار والغابات والانهار والرياح أرواحا محيية ، أو تدخل الكائنات الحية ملائكة أو شياطين ، أو تجوب الهواء عفاريت خبيثة . وليس من هذه الارواح ما يخضع لقانون لا يمكن خرقه ، أو يمكن حسابه ، فأى روح منها يستطيع أن يتدخل بطريقة معجزة فى حركات الاحجار أو النجوم أو البهائم أو البشر ، وكانت الأحداث التى لا تنجم بشكل مرئى عن المسلك الطبيعى أو المنتظم للاجسام أو العقول ، تنسب لهذه القوى الخارقة التى تقوم بدور غامض خفى فى شئون هذه الدنيا ، ينذر بشر أو ينبىء بخير أو يتنبأ بالمستقبل . وكل الاشياء الطبيعية ، وكل الكواكب وسكانها ، وكل الأبراج والمجرات ، ان هى الا جزر لا حول لها ولا قوة فى بحر خارق للطبيعة .

وقد مرت بنا ألوان من الخرافة فى العصور السابقة لهذا القرن . وعمر أكثرها بعد مجىء العلم الحديث على يد كوبرنيق وفيساليوس وجاليليو ، وازدهر بعضها حتى فى نيوتن نفسه ، لقد استمر اضمحلال التنجيم والخيمياء (الكيمياء القديمة) ، ولكن المنجمين كانوا عديدين فى بلاط لويس الرابع عشر (١) ، وفى فيينا « كان هناك عدد هائل من المشتغلين بالخيمياء (٢) » كما روت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو فى ١٧١٧ . وكان البريطانيون الاشداء لا يزالون يؤمنون بالأرواح ، ويتطيرون ، ويدفعون ثمنا للطوالع ، ويأخذون أحلامهم على أنها نبوءات ، ويحسبون أيام السعود والنحوس ، أما البريطانيون الأضعف منهم فيلتمسون من الملك ابراء الداء الخنازيرى الذى ابتلوا به بلمسة

منه . وقد ورد فى العدد السابع من صحيفة « سبكتاتور » وصف للانقلاب الذى يحدثه فى أسرة بريطانية قليل من الملح يتناثر ، أو سكين وشوكة توضعان متقاطعتين على صحن ، أو ثلاثة عشر شخصا يجمعون فى حجرة أو جماعة (ويلاحظ عدم وجود طابق ثالث عشر فى بعض فنادق القرن العشرين) . وفى فرنسا أصبح جاك ايمير بطل زمانه (١٦٩٢) لأنه كان يستطيع (فى اعتقاد الكثيرين) بشد أملود بندق يمسكه بيده أن يكتشف قرب مجرم منه (٣) .

وفى المانيا كانوا يستعملون عصا سحرية لوقف النزف وشفاء الحروح وجبر العظام (٤) . وفى السويد اتهم شتيرنهيلم بالسحر حين أحرق لحية فلاح بمرآة مكبرة ، ولم ينقذ صاحب التجربة من الموت غير تدخل الملكة كرستينا (٥) .

كان المتشككون فى السحر يتزايد عددهم ، ولكن الراجح أن المؤمنين به كانوا أكثر منهم بكثير . وكانت حاشية تشارلز الثانى لا تأبه كثيرا بأى عفاريت قد تفسد عليهم لهوهم ، ولكن « الكثرة الساحقة » وأبرز المؤلفين بين رجال الدين الانجليز ، كانوا لا يزالون يؤمنون بأن البشر يستطيعون أن يتحالفوا مع الشيطان فينالوا بهذا التحالف قوى خارقة (٦) . وقد ذهب جوزف جلانفيل ، وهو قس أنجليكانى راجح العقل قوى الاسلوب ، فى كتابه « خواطر فلسفية حول الساحرات والسحر » (١٦٦٦) الى أنه من العجب العجاب أن « رجالا فيهم ذكاء وحذق فى غير هذا الامر ، يتوهمون أنه ليس هناك شيء اسمه ساحرة أو شبح » ونبه قراءة الى أن شكوكا من هذا النوع تفضي الى الالحاد . كذلك رمى قسيس مشهور آخر اسمه رالف كدورث فى كتابه « نظام الكون الفكرى الصحيح » (١٦٧٩) بالكفر كل من ينكر وجود الساحرات (٧) . وقد دافع أفلاطونى كمبردج ، هنرى مور ، فى كتابه « ترياق الألحاد » (١٦٦٨ ؟) دفاعا حارا عن قصة « ساحرة » تزوجت الشيطان ثلاثين عاما ، ورآه تجديفا كبيرا أن يتشكك متشكك فى قدرة الساحرات على اثارة العواصف بالتعزيم ، أو ركوب الهواء على مكنسة (٨) .

وخف اضطهاد الساحرات شيئا فشيئا ، ولكن رجال الدين

الاسكتلنديين تفردوا بغيرتهم المحرقة . مثال ذلك أن ست نساء فى مدينة ليث عذبن بشتى ضروب التعذيب عام ١٦٥٢ لحملهن على الاعتراف بالسحر ، فعلقن من أباهمهن ، وجلدن ، ووضعت الشموع الموقدة تحت أقدامهن وفى أفواههن التى فتحت عنوة ، ومات أربعة من الستة من التعذيب (٩) . وفى عام ١٦٦١ كان هناك أربع عشرة محكمة تحاكم الساحرات فى اسكتلنده ، وفى ١٦٦٤ أحرق تسع نساء معا فى ليث . واستمرت أحكام الاعدام هذه فى اسكتلندة على نحو متقطع حتى ١٧٢٢ . وفى انجلترة شنقت ساحرتان سنة ١٦٦٤ فى بورى سانت ادموندر ، وأعدمت ثلاث فى ١٦٨٢ ، وعدد غير مؤكد فى ١٧١٢ . وقوضت الحجج التى أتى بها وير ، وسبى ، وهوبز ، وسبينوزا ، وغيرهم ، شيئا فشئيا وهم السحر فى أوساط العلمانيين المثقفين ووقف المحامون والقضاة بدرجة متزايدة فى وجه اللاهوتيين ، ورفضوا الاتهام أو الادانة بالسحر . وفى ١٧١٢ قضت هيئة محلفين من الانجليز البسطاء على جين وينهام بأنها مذنبة بالسحر ، ولكن القاضي رفض الحكم عليها ، فندد به رجال الدين المحليون (١٠) ، ولكن لم يعدم أحد بتهمة السحر فى انجلترة بعد ذلك التاريخ . وفى فرنسا حصل كولبير على مرسوم من لويس الرابع عشر (١٦٧٢) بمنع أحكام الادانة بتهمة السحر (١١) . واحتج برلمان روان بأن هذا المنع انتهاك للأمر الوارد فى التوراة ، « لا تدع ساحرة تعيش » (خروج ٢٢ — ١٨) ، وأفلح بعض الحكام المحليين فى حرق سبع « عرافات » فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ، ولكنا لا نسمع بأحكام اعدام بعد ١٧١٨ . واستمر الايمان بالسحر حتى الانتصار المؤقت الذى أحرزته العقلانية فى حركة تنوير القرن الثامن عشر ، ومازال موجودا فى أماكن متفرقة هنا وهناك .

وتعاونت الرقابة والتعصب مع الخرافة على الحد من نمو المعرفة وانتشارها . وفى فرنسا حالت الصراعات التى احتدمت بين الملوك والبابوات ، وبين الكنيسة الفرنسية والبابوية ، وبين الجانسنيين واليسوعيين ، وبين الكاثوليك والهيجونوت — هذه الصراعات حالت دون وحدة الرقابة . وثباتها ودقتها ، وهى الرقابة التى عزلت أسبانيا فى هذا العصر عن حركات العقل الأوربى . ووجد المؤلفون المهرطقون

طرقا للروغان من الرقباء ، ولعل الذكاء الفرنسي قد شـحذته ضرورة التعبير عن الأفكار بطريقة تدق على فهم موظفى الرقابة • وفى كولونيا الكاثوليكية فرض رئيس الاساقفة الناخب الرقـابة على الاحاديث أو المطبوعات الدينية • وفى براندنبورج البروتستنتية أمر الناخب الأكبر برقابة دقيقة ليهدىء الصراع الدينى • وفى انجلترة واصلت الحـكومة سجن المؤلفين البغيضين وحرق الكتب المهرطقة رغم صدور قانون التسامح (١٦٨٩) (١٢) • على أن تنوع الملل والنحل فى الدول البروتستنتية جعل الرقابة فيها أقل حدوى منها فى الدول الكاثوليكية ، ولعل هـذا بعض السبب فى تفوق انجلترة وهولندة فى العلم والفلسفة فى القـرن السابع عشر •

لقد اتفقت المذاهب المتنافسة على التعصب • وحاجت الكنيسـة الكاثوليكية فى اقناع بأنه ما دام كل المسيحيين تقريبا يقبلون الكتـاب المقدس على انه كلمة الله ، وبما أن ابن الله أسس الكنيسـة كما نص الكتاب ، فواضح اذن أن من حقها وواجبها أن تقمع الهرطقة وانتهت المذاهب البروتستنتية الى استنتاج مماثل وان كان أقل تعطشا للدماء • فما دام الكتاب كلمة الله ، فكل من يحيد عن تعاليمـه (حسبما تفسر رسميا) يجب على الأقل أن يقمع ، وأن يكون شاكرا لأنه لم يقتـل • واعترفت معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) بمذاهب شرعية ثلاثة فى ألمانيا : الكاثوليكية ، واللوثرية ، والكلفنية ، وترك كل حاكم حرا فى أن يختار أيا منها ، وأن يفرضه على رعاياه • أما الدول الاسكندنافية فلم تسمح بغير اللوثرية • وأما سويسرة فأباحت لكل ولاية تقـرير عقيـدتها • وافتتحت فرنسا الطريق الى التسامح باصدارها مرسوم نانت (١٥٩٨)، تم طريق العدول عنه بالغاء المرسوم (١٦٨٥) • أما انجلترة فقد خففت بعد ١٦٨٩ من القيود المفروضة على المنشقين من البروتستنت ، واستمرت تفرضها على الكاثوليك ، وأبادت ثلث الكاثوليك فى ارلندة • ووافق العقلانى هوبز البابوات على ضرورة عدم التسامح •

ولكن التسامح كان فى ازدياد • وبدأت الدراسة الناقدة للكتـاب المقدس فى هذا العصر تجعل الناس احرارا فى الاعجاب به أدبا والتشكك فيه علما ، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعى أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل • وفى « انجلترة الحديدة » أعلن روجـر وليمـر

(١٦٤٤) أنها « ارادة الله وأمره » أن « تباح لجميع النـــاس ، فى جميع الامم ، أشد المعتقدات والعبادات وثنية ، أو يهودية ، أو تركية ، أو عداء للمسيح (١٣) » وطالب جون ملتن بـ « النشر دون رخصـة » (١٦٤٤) ، ودافع جيريمى تيلور عن « حرية التنبؤ » (١٦٤٦) . وأجاز جيمس هارنجتن (١٦٥٦) الحرية الدينية بغير حدود فقال : « حيث تكون الحرية المدنية كاملة ، فانها تشتمل على حرية الضمير ، وحيث تكون حرية الضمير كاملة ... فان للانسان حسبما يملى عليه ضميره الحق فى الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقا لترقيته أو توظيفه فى الدولة (١٤) » . أما فى الدول التجارية مثل هولندة ، وحتى فى البندقية الكاثوليكية ، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية . وهولندة المتحررة هى التى نشر سبينوزا فيهـــا فى « الرســـالة اللاهوتيـــة السياســـية » (Tractatus theologico – Politicus) (١٦٧٠) دعوة للتســامح الكامل مع الأفكار المهرطقة ، وفى هولندة دافع بيل عن التســامح فى كتـــابه « تعقيب فلسفى على الآية : ألزمهم بالدخول » (١٦٨٦) ، وبعد سنين من الاقامة فى هولندة نشر لوك كتابه « رسائل فى التسامح » (١٦٨٩). وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقدا بعد عقد ، حتى اذا بلغ القرن السابع عشر ختامه لا نجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعته الكنيسـة ببرونو فى ١٦٠٠ ، أو بجاليليـو فى ١٦٣٣ « ومع ذلك فهى تـــدور “ Eppur si muove

٢ ــ التعـــليم

كانت المعرفة تنتشر فى بطء عن طريق الصحف ، والمجـــلات ، والنشرات ، والكتب ، والمكتبـــات ، والمـــدارس ، والاكاديميـــات ، والجامعات . وأصبحت الانباء فى القرن السابع عشر ســـلعة تبـــاع وتشترى ؛ أولا للمصرفيين ، ثم للحكام ، ثم لأى انسان . وفى ١٧١١ كان مجموع ما وزع من الصحف البريطانية اليوميـــة أو الاســـبوعية ٤٤٫٠٠٠ (١٥) .

وأدركت « الجورنال دى سافان » (صحيفة العلمـــاء) التى تأسست فى ١٦٦٥ أن الاحداث فى عالم الأدب والعـلم يمكن أن تكون أيضا أنباء ، فما لبثت أن رسخت اقدامها وسيطا دوليا بين الدارسـين

والعلماء والأدباء . ولم تمض سنوات قليلة حتى ظهر لها منافسون ، « الجورنالى دى ليتراتى » فى روما ، (١٦٦٨) ، و « الجورنالى فينيتو » فى البندقية (١٦٧١) و « الاكتا ايروديتورم » فى ليبزج (١٦٨٢) . وأسس بيل مجلة مشهورة بروتردام فى ١٦٨٤ تسمى « أنباء جمهورية الأدب » ، وبعد عامين بدأ جان لكلير مجلة « المكتبة العالمية» الشهيرة ، وقد احتوت هذه الدوريات على آراء من أهم ما صدر عن لوك وليبنتز .

وكان تداول الكتب يزداد بسرعة . ففى ١٧٠١ كان هناك ١٧٨ من كبار تجار الكتب فى باريس، منهم ستة وثلاثون طباعا وناشرا (١٦). وكانت المكتبات قديمها وحديثها تجعل كنوزها ميسرة لعدد أكبر من القراء . وفى عام ١٦١٠ حصل السر توماس بودلى من « شركة الوراقين » على منحة تحصل مكتبة بودلى التى أنشأها فى أكسفورد (١٥٩٨) بمقتضاها على نسخة من كل كتاب ينشر فى انجلترة ، وهكذا أصبحت فى ١٩٣٠ تملك ١٫٢٥٠٫٠٠٠ مجلد . وفى ١٦١٧ قضي مرسوم أصدره لويس الثالث عشر بأن تودع فى المكتبة الملكية (القومية الآن) نسختان من كل مطبوع جديد فى فرنسا . وفى ١٦٢٢ أصبح مجموع كتب هذه المكتبة ٦٫٠٠٠ محلد ، وفى ١٧١٥ زاد الى ٧٠٫٠٠٠ ، ومعظم الفضل فى هذه الزيادة يرجع الى غيرة كولبير ، وفى ١٩٢٦ بلغ ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ . وأسس ناخب براندنبورج الأكبر مكتبة قومية ببرلين فى ١٦٦١ . وفى ذلك العام أوصي مازاران بمكتبته الثمنية التى ضمت ٤٠٫٠٠٠ مجلد للويس الرابع عشر وفرنسا ، وفى ١٧٠٠ حول حفدة السر روبرت بروس كوتون ملكية المكتبة الكوتونية للمتحف البريطانى . وافتتح توماس تنسن عام ١٦٩٥ بلندن أول مكتبة انجليزية مفتوحة لعامة الشعب .

أما التعليم فكان يجاهد لتعويض الخسائر التى تكبدها من جراء الحروب الدينية فى فرنسا ، والحرب الاهلية فى انجلترة ، وحرب الثلاثين فى ألمانيا . ولم تعد المدارس والآداب الالمانية الى مكانتها التى بلغتها أيام لوثر ، وأولريش فون هتن ، وملانكتون قبل قرنين ، الا حين جاء ليسنج (١٧٢٩ - ٨١) . فى هذه الفترة ظلت اللاتينية غير الممتازة لغة غريبة مقتصرة على القلة المتعلمة ، فى حين أصبحت الالمانية مجرد

اداة سوقية بعد أن بلغت عنفوانها فى لوثر ، ولم يرق كاتب المانى واحد الى مقام الشهرة الدولية خلال هذا التكفير الطويل عن جيل من حرب التقتيل بين الاخوة . أما النبلاء الالمان ، الذين احتقـروا الحذلقـة اللاتينية للجامعات ، فقد أرسلوا أبناءهم الى « مدارس الفرسـان Ritterakademien » أو كلفوا معلمين خصوصيين ليعدوا الشـباب العريق النسب لما نتطلبه القصور الأميرية من واجبات ولطائف . وفى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى نظم أوجست فرانكى ، التقوى ، فى هاله معاهده التى سماها Stiftungen ، وهى مؤسسات خيرية هزأ منها الساخرون ووصفوها بـ « المدارس المهلهلة » ، وظل طوال اثنين وثلاثين عاما (١٦٩٥ - ١٧٢٧) يطعم فيها أبناء الفقراء ويكسـوهم ويعلمهم . ولم يلبث أن أضاف اليها مدرسة أعلى توفر التعليم الثانوى لألمع فتيانه ومدرسة نظيرها لألمع فتياته . وهذه المدارس كلهـا كانت تخصص نصف وقتها للدين .

ووجدت الروح العلمانية فى ألمانيا معبرا عنها فى شخص كرستيان توماسيوس . وسنشيد بذكره فيلسوفا فى موضع لاحق ، أما الآن فنراه أعظم المعلمين الألمان فى جيله . فبعد أن طرد من موطنـه فى ليبزج لهرطقاته ، رحل الى هاله فى دولة براندنبورج - بروسيا الناهضـة (١٦٩٠) ، وأدت محاضراته هناك الى انشاء الجامعة ، وقد أصبح اشهر أساتذتها ، والمناضل الذى جعل منها أول جامعة « حديثة » . وقد هزأ بالسكولاستيه ، وأحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم ، وأصدر مجلة ألمانية ، وأدخل البرامج العلمية فى المنهج ، وكافح فى سبيل حرية المعلمين والطلاب فى التفكير . ولقبـه فردريك الأكبـر أبا التنوير الألمـانى .

وجعل التعليم الأولى عاما والزاميا للجنسين فى دوقية فورتمبرج عام ١٥٦٥ ، وفى الجمهورية الهولندية عام ١٦٩٨ ، وفى دوقية فيمار فى ١٦١٩ ، وفى اسكتلنده عام ١٦٩٦ ، وفى فرنسا عام ١٦٩٨ ، وفى انجلترة عام ١٨٧٦ . وكان تخلف انجلترة راجعا الى الانتشار الواسع للتعليم الأهلى بفضل الهيئات الدينية الخاصة ، والى شعور الطبقات الحاكمة بان تعليم الفقراء فى النظام الاقتصـادى السـائد آنئذ غير ضرورى بل ربما كان غير مرغوب فيه . وقد بدأت « جمعية تشـجيع

المعرفة المسيحية » فى ١٦٩٩ تنشىء « مدارس خيرية » للأطفال الفقراء، لنشر اللاهوت والتهذيب المسيحيين بصفة خاصة ، واشترط أن يكون مدرسوها كلهم أعضاء فى الكنيسة الانجليزية ، وأن يحصلوا على ترخيص من الاسقف · وندد بهذه المدارس برنارد ماندفيل ، الذى أحدث ضجة فى ١٧١٤ بكتابه « خرافة النحل » ، وقال انها مضيعة للمال ، وان الآباء اذا كانوا أفقر من أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم « فان من الوقاحة أن يتطلعوا الى ما فوق قدراتهم (١٧) » ·

أما فى فرنسا فقد فرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة أولية · وكان المدرس عادة علمانيا ، يختاره الأسقف ويشرف عليه ، وكان التعليم كاثوليكيا لا تهاون فيه · أما « المدارس الصغيرة petites écoles التى أنشأها البور — رويال فلم تصل الا لقلة منتقاة من الصبيان · وفى ١٦٨٤ أسس جان باتيست دلاسال « اخوة المدارس المسيحية » ، التى عرفت بعد قليل بالاخوة المسيحيين Frères Chrétièns · وقد جعل لاسال ، ذلك القس الزاهد ، الدين جوهر التعليم الذى وفره هؤلاء « الاخوة المسيحيون » مجالنا لأبناء الفقراء · وخصص للممارسات الدينية أربع ساعات فى اليوم ، وأضيفت القراءة والكتابة والحساب ، ولكن الهدف الذى لم يغب عنهم قط كان تدريب الكاثوليك الأوفياء ، وتخليص النفوس من طيش الحياة الدنيا ومن النار الأبدية · ووجد أن الجلد نافع لهذه الأغراض · وكان المعلمون يحضون على التعليم بالقدوة أكثر من المبدأ · وفى ١٦٨٥ افتتح الاخوة المسيحيون مؤسسة لعلها كانت أول مؤسسة حديثة لتدريب معلمى المدارس الأولية ·

وظل التعليم الثانوى بفرنسا فى أيدى اليسوعيين ، وكان لا يزال حير تعليم فى البلاد المسيخية · وغيرت كليتهم اليسوعية الواقعة وراء الصوربون مباشرةاسمها الى «كلية لويس الأكبر "Collège Louis -le- Grand بعد أن حضر الملك مسرحية أخرجها هناك التلاميذ فى ١٦٧٤ · وافتتح لويس الرابع عشر فى ١٦٨٦ ، تحت الحاح مدام دمانتنون ، فى سان — سير (على ثلاثة أميال من فرساى) أول مدرسة داخلية فرنسية للبنات · وكانت الاديار توفر التعليم العالى لبنات الصفوة ممن يدفعن نفقاته ، مع التركيز دائما على الدين · وأجمعت السلطات الكاثوليكية

والبروتستنية على أن الطبيعة البشرية تتنافر أشد التنافر مع ضوابط الحضارة بحيث لم يكن سبيل لترويضها على الفضيلة والنظام الا سبيل مخافة الله . وما زالت محاولة تهذيب الخلق دون معونة من الدين فى مرحلتها التجريبية .

اما الجامعات فكانت الآن فى دور الاضمحلال ، وذلك باستثناء الجمهورية الهولندية ، فالمذاهب الدينية المنتصرة تقوم بتطهيرها من المخالفين ، والطلبة المشاغبون ينشرون فيها الفوضى ، والخلافات اللاهوتية تسيطر عليها . وكانت الدرجات الجامعية فى فرنسا والمانيا تباع بالمال . ولم يكن بين أساتذتها أحد من أفذاذ فلاسفة العصر ، الا قلة من كبار العلماء ، وكان هوبز ، وليبنتز ، وبيل ، يتحدثون عن الاساتذة باحتقار لا يغتفر ضغوط الجماهير على الموظفين العموميين . وفتحت فى هذه الفترة بعض الجامعات الجديدة : جامعة دويسبرج (١٦٥٥) ، ودرم (١٦٥٧) ، وكيل (١٦٦٥) ، ولند (١٦٦٦) ، وانسبروك (١٦٧٣) ، وهاله (١٦٩٤) ، وبرسلاو (١٧٠٢) . وكان أكثرها مؤسسات صغيرة قل أن زاد أساتذتها على العشرين وتلاميذها على الأربعمائة . وفى معظمها كان المنهج قد تجمد بمرور الزمن ، واشتراطات السنية شلت حركة الطلاب والمعلمين على السواء ، وقد شكا ملتن من أن الجامعات الانجليزية « تسلب الشبان استعمال عقولهم بتعاويذ من الميتافيزيقا ، والمعجزات ، والتقاليد ، والاسفار السخيفة » . وقال انه يشعر أنه ضيع شبابه فى كمبردج محاولا أن يهضم « وليمة حمير كلها اشواك وعليق فاسد » وغير ذلك من « الهراء السفسطائى (١٨) » وقد استمر قيد التقاليد هذا فى اكسفورد وكمبردج الى أن حفز مثال « الجمعية الملكية » ، وأستاذية نيوتن بكلية ترنتى (١٦٦٩ - ١٧٠٢) ، جامعة كمبردج على أن تفسح للعلم صدارة جريئة .

وكافح الشعراء والقساوسة ، والصحافيون ، والفلاسفة ، ليبعثوا النشاط والحيوية فى التعليم . ولقد لخصنا من قبل « رسالة ملتن الى مستر هارتلب » (١٦٤٤) عن المدرسة المثالية . ولكن لم يكن لوصفاته أى تأثير فى التعليم الفعلى . أما فى فرنسا فكان أمتع ما كتب فى هذا الباب رسالة فنيلون « فى تعليم البنات » (١٦٨٧) . وكانت مدام دبوفلييه قد طلبت اليه أن يجمل بعض المبادىء التى يهتدى بها فى

تعليم بناتها . وأكد الكاهن بالطبع تقوية الناموس الاخلاقى بالدين ، ولكنه استنكر ما شاب التعليم الديرى من تقشف وعزلة . وقال انه يشعر أن اديار الراهبات « لا تهيىء للحياة فى هذه الدنيا ، وهى حياة تدخلها خريجة الدير وكأنها خرجت من كهف لتقابل ضوء النهار الساطع (١٩) » وطالب بالطرق اللينة فى التعليم ، فيجب أن يوائم التعليم بين نفسه وبين طبيعة الطفل وميوله وحساسيته ، لا أن يخضع التلاميذ كلهم لقاعدة جامدة واحدة . فلنعلم بالطريقة التى تعلم بها الطبيعة — لا بالتجريدات، بل بهداية الطفل الى لب الاشياء ، ولتكن ألعابهم وميولهم الطبيعية وسيلة التعليم (ها هنا بيداجوجيه روسو ، وتعليم القرن العشرين « التقدمى » يشرحه كاهن من كهنة القرن السابع عشر) . ويريد فنيلون أن تقـــرأ البنات الآداب القديمة ، بلغاتها الاصلية ان استطعن ، وينبغى أن يتعلمن شيئا من التاريخ ، ومن القانون ما يكفى لادارة ضيعة ، ولكن لا شــأن لهن بالعلم — فعلى الفتــاة أن تبـــدى « بعض الحيـــاء فى العـــلم » (une pudeur sur la sciemce) . لقد كان الكاهن الوسيم حساسا لمفاتن الأنثى ، ولم يرد لهذه المفاتن أن تكتسي بعلم الجبر ، وما كان ليفهم قط غرام فولتير بمدام دوشاتليه ، أستاذة الميكانيكا النيوتنية .

وبعد مقال فنيلون هذا بعشر سنوات ، نشر ديفو دعوته لتعليم النساء تعليما عاليا . فالبنات الانجليزيات فى القرن السابع عشر لم تتح لهن الا فرص ضئيلة فى التعليم الثانوى ، اذا استثنينا البيوت الغنية . فكان عليهن أن يعتمدن على المدرسين الخصوصيين ، كما كان شأن استر جونسن مع جوناثان سويفت ، أو أن يختلسن المعرفة بجهدهن الخاص كما فعلت ابنة ايفلين الأثيرة لديـــه . وعنـــد ماكولى أن « نساء ذلك الجيل (١٦٨٥ — ١٧١٥) الانجليزيات ، حتى فى أرقى الطبقات ، كن قطعا أسوأ تعليما منهن فى أى فترة أخرى منذ حركة احياء العلوم » (٢٠) . وقد قدر سويفت أنه لا تكاد توجد امرأة راقية واحـــدة فى كل ألف لقنت القراءة أو الهجاء (٢١) ، ولكن ذلك الكاهن المتشـــائم كان يزكو على المبالغات . على أى حال كان رأى ديفو أن اهمال تعليم المرأة ظلم همجى « لست أعتقد أن الله تعالى جعل النساء مخلوقات غاية فى الرقة والنبل ، وجملهن بهذه المفاتن ... ليكن مجرد مدبرات لبيوتنا ، وطاهيـــات ، واماء » . لذلك اقترح أن يكون للبنات أكاديمية شبيهة بالمدارس الخاصة فى انجلترا ، يتعلمن فيها — بالاضافة الى الموسيقى والرقص — « اللغات،

خصوصا الفرنسية والايطالية ، وأنا أجرؤ على تقديم اقتراح مؤذ ، هو تعليم المرأة أكثر من لسان واحد » . وينبغي أن يتعلمن التاريخ ، ويكتسبن كل آداب الحديث ولطائفه . واختتم الروائى الغزل بقـوله : ان امرأة أحسنت تربيتها وتعليمها ، وزودت بفضائل اضافية من المعرفة والسلوك، لهى مخلوق لا نظير له . أبدع وأرق ما فى خليقة الله » ، وان « الرجل الذى كانت مثل هذه المرأة من نصيبه ليس عليه الا أن يغتبط بها ويكون شاكرا » (٢٢) .

كان كتاب جون لوك « خواطر فى التعليم » (١٦٩٣) (٢٣) ، الى حد كبير ، أعمق الابحاث التى كتبت فى النظرية التربوية فى عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذا ، وقد كتبه المؤلف بعد أن مارس التعليم مدرسا خصوصيا عدة سنوات فى أسرة ايرل شافتسبرى الأول . واقترح الفيلسوف - مترسما بادرات مونتينى - أن يكون هدف المعلم أولا صحة الجسد وعافيته ، فالجسم السليم شرط لا غنى عنه للعقل السليم . لذلك كان على تلاميذه أن يتناولوا الطعام البسيط ، ويعودوا أنفســهم على اللباس القليل ، والفراش القاسي ، والجو البارد ، والهـواء الطـلق ، والرياضة الكثيرة ، والنوم المنتظم ، والامتناع عن النبيذ أو الخمـر ، وعلى « قليل جدا من الدواء أو لادواء اطلاقا » . ويأتى بعد ذلك فى الزمان ولكنه يتقدم عليه فى الأهمية تكوين الاخلاق ، فكل التعليم سواء الجسدى أو العقلى أو الخلقى يجب أن يكون تدريبا على الفضيلة . وكما أن الجسم يجب تدريبه على الصحة باحتمال المشـاق ، فكذلك يجب تشكيل الخلق بغرس نكران الذات فى جميع الاشياء التى تتعارض مع العقل الناضج . « ينبغى أن يعود الاطفال على اخضـاع رغباتهـم ، والاستغناء عن مشتهياتهم ، حتى وهم فى المهد » . فضبط الشـهوات أشبه بالعمود الفقرى للخلق . ويجب أن يجعل هذا الضبط سارا ما أمكن، ولكن لا بد من الاصرار عليه فى مراحل التربية كلها . ولن تكفى فى ذلك الافعال الطيبة المفردة ، اذ لا بد من تربية الطالب بتكرار الافعال الطيبة لتكون « عادات » طيبة ، لأن « العادات تعمل بثبات ويسر أكثـر من العقل ، الذى قل أن يستشار بنزاهة ونحن أحوج ما نكون اليه ، وندر أن يطاع » . ويتردد لوك بين أرسطو وروسو . فهو يؤثر تعليما تحرريا على تعليم يتجاهل ميل الطفل وفرديته ، وينبغى أن تجعل الدروس مشوقة ، والنظام رحيما ، ولكنه يقبل الفكرة القائلة بأنه من المرغـوب فيه بين

الحين والحين توقيع العقوبات البدنية على سوء السلوك المتعمد . يضاف الى هذا « أن تعويد الاطفال فى لطف على تحمل درجات الألم دون احجام سبيل لاكساب أذهانهم الثبات وارساء أساس للشجاعة والعزيمة فى مستقبل حياتهم » .

وتربية العقل ينبغى أن تكون تدريبا على طرائق التفكير ومشقة الاستدلال ، لاخلاصة للآداب القديمة أو تراشقا باللغات . ويجب أن تعلم الفرنسية واللاتينية للاطفال فى سن مبكرة ، وبالحديث لا بالنحو . أما اليونانية والعبرية والعربية فتترك للدارسين المحترفين ويحسن افراد وقت للجغرافيا والرياضة والفلك والتشريح ، وفى مرحلة تالية للأخلاق والقانون، وأخيرا للفلسفة . « ليست مهمة التعليم أن يمكن الصغار من علم بعينه ، بل أن يفتح أذهانهم ويشكلها بحيث يتيح لهم القدرة على اتقان أى علم حين يعكفون عليه فى مستقبل أيامهم » وكما أن الفضيلة تعلم بالعادة فكذلك يعلم الفكر بالاستدلالات المتكررة :

« ولا سبيل الى هذا خير من الرياضة ، التى أرى بناء عليه وجوب تعليمها لكل من يتاح لهم الوقت والفرصة ، لا لجعلهم رياضيين بل لجعلهم مخلوقات مفكرة ... فقد ولدنا لنكون ـ اذا شئنا ـ مخلوقات مفكرة ، ولكن سبيلنا الى هذا هى الممارسة والتمرين ، والواقع أننا لن نتجاوز فى هذا ما أوصلنا له جهدنا وعكوفنا ... وقد ذكرت الرياضة وسيلة لتقر فى الذهن عادة الاستدلال بدقة وتسلسل ، ... ، فاذا اكتسبوا طريقة الاستدلال التى توصل تلك الدراسة الذهن اليها ، استطاعوا نقلها الى ما يتاح لهم من أقسام أخرى من المعرفة (٢٤) » .

وقد قصد لوك برسالته ضربا من « التعليم المتحرر » ـ أى الذى يعنى أساسا بالفنون والأدب والسلوك، والذى يهدف الى انتاج «الجنتلمان» أى الانسان « الكريم » المولد ، الذى لن يضطر أبدا لكسب قوته بعرق جبينه × . ومع أن منهاجه يسمح ببعض العلوم ، فانه على العموم

× كلمة « جنتلمان » أصلها اللاتينى gens ، وهى العشيرة أو الأمرة من الأحرار . والتعليم الحر أو المتحرر liberal كان فى الاصل التعليم الموضوع للرجال الاحرار (liberi)

يلتزم « الانسانيات » ـ وهى الدراسات التى حبذها انسانيو النهضة الاوربية . وقد اشتمل كذلك على الرقص وركوب الخيل ، والمصارعة والمثاقفة ، وحتى « حرفة يدوية ، بل حرفتين أو ثلاثا » ، معوانا على الصحة والخلق ، لا سببا للرزق . أما الفنون فتعلم على سبيل الترويح لا الاحتراف ، وعلى الشباب ألا ياخذ هذه الامور مأخذ الجد الشديد ، عليه أن يستمتع بالشعر ، ولا ينظمه الا للتسلية ، ويجب أن يعلم الاستمتاع بالموسيقى دون أن يحاول اتقان العزف على أية آلة ، فهذا يقتضيه الكثير جدا من الوقت ، كما أنه يلقى بالشاب فى « صحبة غريبة جدا » ، وهكذا كانت رسالة لوك تجمع بين المحافظة والتحرر ، فهى فى استنكارها الاستغراق السكولاستى فى اللغات القديمة ، وتقليلها من التركيز على الدين واللاهوت ، واهتمامها بالصحة والخلق، وجهدها فى اعداد الشباب العريق الاصل للحياة والخدمة العامتين ، كانت تومىء الى المستقبل ، وكان لها تأثير هائل فى انجلترة وأمريكا. وقد شاركت فى تكوين الجانب البدنى والخلقى للتربية فى المدارس الخاصة " public " الانجليزية . فلما ترجمت الرسالة الى الفرنسية (١٦٩٥) طبعت منها خمس طبعات فى خمسين سنة ، وأوحت الى روسو بالكثير من الآراء . أما تلميذ لوك ، ايرل شافتسبرى الثالث ، الذى سنلتقى به ثانية ، فقد شرف نظريات استاذه وخلقه .

٣ ـ الدارسون

واصل كبار الدارسين صياغة المستقبل بانارة الماضي ، وذلك برغم ما بدأ من انشغالهم باللغات المحتضرة والمناظرات الميتة ، ووجد بعضهم أنفسهم مشتبكين فى صراع المسيحية مع الفكر الحر .

ومن صغار الأدباء والعلماء من يستحق منا لفتة اجلال عابرة . مثال ذلك شارل دوفريسن ، سيد كانج ، الذى أدهش معاصريه ـ وقد عرفوه محاميا فى برلمان باريس ـ باصداره (١٦٧٨) قاموسا للاتينية الحديثة والوسيطة فى ثلاثة مجلدات ، بلغت من دقة الدراسة مبلغا يجعلها الى اليوم الحجة فى بابها . أما بيير أوويه فقد اكتشف وحقق مخطوطة هامة لأوريجانوس ، وتعلم السريانية والعربية ، والكيمياء ، وأجرى ثمانمائة تشريح ، وكتب الشعر والقصة ، واشترك

مع مدام داسييه العالمة فى نشر الطبعة « الدلفية » الشهيرة ذات الستين مجلدا للآداب اللاتينية ، وذلك لتعليم الدوفان (ولى العهد) ، وقد عين رئيسا لأساقفة آفرانش ، وحين مات خلف مكتبته التى هى الآن جزء ثمين من المكتبة القومية . وواصل أتباع بولاند من اليسوعيين نشر موسوعتهم المئينية Acta Sanctorum (أعمال القديسين) وفى باريس ، وتحت قيادة جان مابيون ، صنف مجمع سان - مورالبندكتى (١٦٦٨ - ١٧٠٢) تاريخا من عشرين مجلدا للقديسين البندكتيين ، وألقوا بهذا الضوء الهام على حوليات فرنسا الوسيطة وآدابها . وأعطى مابيون نفسه شكلا جديدا للطريقة القديمة لكتابة اللاتينية بمؤلفه De Re diplomatica (١٦٨١) ، الذى لم يكن كتيبا فى الدبلوماسية بل رسالة فى تاريخ المراسيم والمخطوطات القديمة وطبيعتها وحجيتها . كتب مابيون بعد أن أتم جزءا من أجزائه الضخمة، « ليت الله لا يؤاخذنى على أننى أنفقت هذه السنين الطوال فى دراسة أعمال القديسين ، دون أن أشابههم الا قليلا » (٢٥) .

أما عملاق التبحر فى الدراسات القديمة فى هذا العصر فكان رتشرد بنتلى - الناظر الصارم لكلية ترنتى (بكمبردج) طوال اثنين وأربعين عاما . فلقد أفنى شبابه فى استيعاب المكتبة البودلية ، وكان وهو بعد فى التاسعة والعشرين من أكبر علماء أوربا تفقها فى آداب اليونانية واللاتينية والعبرية وآثارها . وفى ذلك العام (١٦٩١) نشر رسالة فى مائة صفحة Epistola ad Millium موجهة الى « جون مل » سابق ، بلغ من دقتها وعمقها العلميين أنها أذاعت صيته فى طول أوربا وعرضها . واختبر فى الثلاثين ليلقى أول سلسلة من المحاضرات التى دبر لها المال ووضع لها الاسم فى وصية الكيميائى الورع روبرت بويل . وقد استجاب بتقديم الحجج القوية على أن النظام الكونى الذى كشف سره فى كتاب نيوتن « المبادىء » (Principia) الحديث الصدور يثبت وجود الله . وكان هذا عزاء عظيما لنيوتن الذى اتهم من قبل بالالحاد . وعين بنتلى فى وظيفة الامين الملكى للمكتبة ، وأعطى مسكنا فى قصر سانت جيمس . وهناك كان يلتقى مرارا بنيوتن ، وايفلين ، ورن ، ومن قلعته تلك خاض معركة من أشهر معارك العلم البريطانى .

أما المعركة فنجمت عن مشاركة الانجليز فى الجدل القائم حول

مزايا الأدب القديم تجاه الجديد . بدأ السر وليم تمبل المعركة بمقالته « فى العلم القديم والجديد » (١٦٩٠) التى دافع فيها عن القديم . ولعل بنتلى كان مثنيا على المقالة لولا اشادتها بفالاريس مثالا على علو كعب اليونان فى الأدب. أما فالاريس هذا فكان دكتاتورا حكم أجراجاس (أجريجنتو) فى صقلية اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد وصفه التاريخ أو وصفته الاساطير بأنه كان يشوى أعداءه فى بطن ثور نحاسى ، ولكن التاريخ كرمه راعيا للأدب ، وقد انحدر الينا عبر القرون ١٤٨ خطابا قيل انها بقلمه . ونشر هذه الخطـابات عام ١٦٩٥ طالب فى كلية كرايست تشيرش بأكسفورد يدعى تشارلز بويل . وطلب وليم وتون الى بنتلى الفصل فى حجبة الخطابات ، اذ كان يعد طبعة ثانية (١٦٩٧) لكتابه « تأملات فى العلم القديم والحديث » الذى عارض فيه تمبل . ورد بنتلى بأن نسبتها الى فالاريس خطأ وأنها كتبت فى القرن الثانى للميلاد ، ثم أسار عرضا الى بعض الهفوات فى طبـــعة تشارلز بويل ، ونشر بويل ومعلموه دفاعا حارا عن صحة نسبة الخطابات لفالاريس . ودخل جوناثان سويفت ، سكرتير تمبل ، المعركة فى صف استاذه بأن هزأ ببنتلى فى كتابه « معركة الكتب » . وظاهـــر رأى الأدباء العام بويل ، وحزن أصحاب بنتلى على ما بدا من انهيـــار سمعته . ولكن رده عليهم جدير بأن نتذكره : « ان أحدا من الناس لم تخسف سمعته الا بيده » (٢٦) . وفى ١٦٩٩ أصدر كتابا مطولا عنوانه « رسالة فى خطابات فالاريس » . ولم يثبت الكتاب صواب رأيه فحسب، بل ألقى من الضوء على تطور اللغة اليونانية ما جعل دنيا العلم والادب تشيد به علامة جـــديرا بأن يقف على قـدم المســـاواة مع كازوبون وسلاماسيوس سكاليجر . وقال بنتلى انه حتى أسلوب الخطابات ينم على القرن الذى كتبت فيه ، وأضاف :

« كل لغة حية لا تكف عن الحركة والتغيير ، شانها فى ذلك شأن أجسام الكائنات الحية التى تفرز العرق ، فبعض الألفاظ تذبل وتصبح مهجورة ، وغيرها يدخل اللغة ويزداد استعماله شيئا فشيئا ، أو قد تحول ذات الكلمة الى معنى ومفهوم جديدين ، يحدثان بمضي الزمن من التغيير الملحوظ فى جو اللغة وملامحها ما يحدثه الزمن فى خطوط الوجه وسحنته . وكل الناس يحسون هذا فى لغاتهم القومية ، حيث

الاستعمال الدائم يجعل من كل انسان ناقدا ، فأى انجليزى لا يأنس فى نفسه ، من مجرد صياغة الأسلوب وزيه ، القدرة على التمييز بين الانشاء الانجليزى الجديد وانشاء قديم انقضى عليه مائة عام ؟ ومثل هذه الفروق الواقعية المحسوسة موجودة فى عهود اللغة اليونانيـــة العديدة ... ولكن القلة القليلة هى التى أتيح لها من التفقه والمرانة على تلك اللغة ما يبلغها تلك الرهافة فى الذوق » (٢٧) .

ها هنا أديب قادر على كتابة الانجليزية قـــدرته على قـــراءة اليونانية .

وفى ١٦٩٩ رقى بنتلى الى نظارة كلية ترنتى بكمبردج باجماع الأساقفة الستة الذين عينهم وليم الثالث لترشيح من يشغل الوظيفـــة الشاغرة . فأحكم ضبط الطلبة ، وأصلح المنهج ، وبنى مختبرا للكيمياء ومرصدا للفلك . ولكنه نفر هيئة التدريس والآداب بالكلية بغطرسته وعتوه وولعه بالمال ، حتى لتد حكم برفته مرتين ، ولكنه ناضل للرجوع الى وظيفته ، واحتفظ بها الى النهاية . ونشر خلال ذلك عددا كبيرا من الدراسات اليونانية واللاتينية ، وشجع ومول الطبعة الثانية منكتاب نيوتن « المبادىء » وهدم أنطونى كولنز فى كتابه « ملاحظات على مقال حديث فى الفكر الحر » (١٧١٣) ، وغامر فى تهور بالخـــروج من ميدانه ، بأن علق على قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » بتصحيحات متفعرة لنحو ملتن ونصه . وجلب على نفسه عداء الشاعر ألكسندر بوب اذ قال فى ترجمة بوب للالياذة « قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن يجب ألا تسميها هومر » . روى بنتلى أن « الشبل المنذر بالشر » لم يصفح عنه قط . وهزأ به بوب فى « ملحمة المغفلين » The Dunciad (ابريل ١٧٤٢) ببيتين من الشعر قال فيهما :

« المعلق الجبار ، الذى سـفهت تحقيقاته المضـــنية هوراس ، وحقرت قوافى ملتن » (٢٨) .

وفى يوليو مات بنتلى بعد أن اصطلح عليه بوب وذات الجنب . لقد كان أعظم وأنقل أديب أنجبته انجلترة .

وفى هذه الأثناء مد انجليزى آخر يدعى توماس ستانلى آفـــاق

الذهن البريطانى بأول كتاب انجليزى فى « تاريخ الفلسفة » (١٦٥٥ — ٦٢) ، وأدهش قراءه بتخصيص آخر مجلداته الاربعة للفلسفة الكلدية (العربية) • لقد أخذ العلم يجرؤ على تجاوز روما القديمة واليونان الى الشرق الأدنى والأوسط ، وكان لهذه الجرأة نتائج مزعجة• فاكتشف ادورد بوكوك وحقق أربع ترجمات سريانية لرسائل العهد الجديد (١٦٣٠) ، وأنشأت أكسفورد لأجله أول كرسي للغة العربية فيها ، وفتحت محاضراته فيها عيون الانجليز على الحضارة الاسلامية• أما فى فرنسا فان الموسوعة التى أفنى فيها بارتلمى ديربيلو عمره ، وهى « المكتبة الشرقية » الضخمة (١٦٩٧) — التى وضع لها عنوانا فرعيا هو « قاموس عالمى شامل بصفة عامة لكل ما يتصل بمعرفة .... الشرق » — هذه المكتبة كانت كشفا عن التاريخ والعلم العربيين ، ولعبت دورا فى توسيع الأفاق الفكرية توسيعا حطم كل القيود فى حركة تنوير القرن الثامن عشر • وتعجب الطلاب من ذلك الغنى فى شعر العرب وتاريخهم وفلسفتهم وعلومهم ، ولاحظوا كيف حافظ العرب على علم اليونان وفلسفتهم فى الوقت الذى طواهما فيه النسيان ابان عصور غربى أوربا المظلمة، وعرفوا أن محمدا لم يكن مجرد دجال أفاك بل كان حاكما ذكيا وسياسيا أريبا ، وحيرهم ألا يجدوا فى العالم الاسلامى جرائم أكثر ولا فضائل أقل مما فى العالم المسيحى • وأصبحت نسبية الاخلاق واللاهوت خميرة مذيبة فى الذهن المسيحى •

وكان من أثر الدراسات للتاريخ الشرقى — بما فيه المصرى والصينى — تقويض الحساب اليهودى الذى أرخ خلق العالم بسنة ٣٧٦١ قبل الميلاد ، والحساب الذى وضعه جيمس أشر ، رئيس الاساقفة الانجليكانى لأرما — بأرلنده — (١٦٥٠) وقرر فيه أن الخلق حدث « فى بداية الليلة السابقة ليوم الاثنين ٢٣ أكتوبر ٤٠٠٤ ق •م (٢٩) وكان سبينوزا — كما سنرى بعد قليل — يستهل (١٦٧٠) حركة « النقد الأعلى » للكتاب المقدس — أى دراسته بوصفه انتاجا بشريا ، غنيا فى العظمة والسمو ، وفى الاخطاء والسخافات •

وقد جلب أعلم ناقد الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر على رأسه غضب بوسويه وسخطه فى محاولته الرد على سبينوزا ، لأنه سلم فى النهاية بالكثير مما زعمه الفيلسوف • وهذا الناقد ، واسمه ريشار

سيمون ، وأبوه كان حدادا ، التحق بالمصلى فى باريس ، ورسم قسيسا (١٦٧٠) وكتب فى ذلك العام نشرة دافع فيها عن يهود متز الذين اتهموا بقتل طفل مسيحى • وفى ١٦٧٨ ، بعد سنوات من البحث شملت دراسات مع عدة أحبار يهود ، أعد العدة لنشر كتابه « تاريخ نقدى للعهد القدمبم » • ورأى ، فى الطريق ، أن يفند حجج سبينوزا ضد الوحى الالهى للاسفار المقدسة • فسلم بأن أسفار العهد القديم ليست تماما من عمل المؤلفين الذين نسبت لهم ، وأنه لا يمكن أن يكون موسي قد كتب الاسفار الخمسة كلها (التى ورد فيها وصف لموت موسي) ، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكتير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة والناشرين الذين نقلوها الى الخلف • وناضل سيمون للاحتفاظ بسلامة عقيدته وبرخصة طبع كتابه ، فزعم أن هؤلاء المراجعين كانوا هم أيضا يعملون بالوحى الالهى ، ولكنه اعترف بأن جميع نسخ العهد القديم الموجودة شوهتها التكرارات والتناقضات والالتباسات وغيرها من الصعوبات بحيث لا تتيح الا أساسا واهيا للاهوت عقائدى • ورأى أن يهاجم البروتستنت بهذه النقطة ، فقال ان ايمانهم بالوحى الشفوى للاسفار المقدسة يتركهم عاجزين أمام النقد النصي فى حين يستطيع الكاثوليكى الموالى لكنيسته أن ينجو من أذى هذه الدراسة الناقدة بقبوله التفسير الذى وضعته كنيسة روما للنص • واختتم سيمون بالقول بأن الوحى الالهى للكتاب المقدس لا يصدق على أى حال الا على أمور الايمان •

ووافق رئيس المصلى على نشر كتاب سيمون • وبينما كانت أصوله فى المطبعة وقعت بعض صفحات تجارب الطبع فى يد أرنو « الكبير » رجل البور ـ رويال ، فروعه ما قرأ • وأطلع بوسويه على التجارب ، فندد هذا على الفور بالكتاب باعتباره « نسيجا من الكفريات ومعقلا للالحاد ••• سيهدم سلطان الاسفار القانونية (٣٠) » وناشد بوسويه السلطات الزمنية أن تمنع نشر الكتاب • فصادرت الطبعة بأكملها ، وقوامها ألف وثلثمائة نسخة ، وعجنتها عجنا واعتكف سيمون خوريا مغمورا فى نورمنديه ، ولكنه وجد السبل لطبع مخطوطته فى روتردام (١٦٨٥) وبعد أربع سنوات نشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد الجديد» وأراد أن يتوج جهوده بترجمة جديدة للكتاب المقدس ، وفرغ من ترجمة

العهد الجديد ، ولكن بوسويه الذى أفزعته الحرية التى تناول بهـــا سميون النص المقدس أقنع المستشار بمصادرة الكتـــاب (١٧٠٣) . وتخلى سيمون عن مشروعه ، واحرق أوراقه ، ومات (١٧١٢) .

وأثارت ترجمته للعهد الجديد أربعين اعتراضا نفند هده الترجمة وتببن عصمته . على أنها ما زالت هى وكتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية سياسية » من المعالم فى الدراسة الحدبثة للكتاب المقدس . وقد حذر ليبنتز ـ بعد أن قرأ هذه الابحاث النقدية الاولى ـ من أن هذا الانجاه فى التحقيق لو استمر سبدمر المسيحية (٣) . ولم يحن الوقت بعد للقول هل كان مصيبا أم مخطئا فى زعمه هذا .

الفصل الثامن عشر

البحث العلمى

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ دوليــة العلم

كان مزاج أوربا يتغير فى بطء ـ سواء كان التغيير خيرا أو شرا ـ من الايمان بالخوارق الى النزعة العلمانية ، ومن اللاهوت ، ومن آمال الجنة ومخاوف الجحيم الى خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر . فأما الطبقات العليا التى واصلت أساليب حياتها الابيقورية فلم تعترض كثيرا على ايمان دينى كانت تراه مفيداً للجماهير الشقية التى حرمت فردوس الحسب والنسب ، ولكن كان هناك نفر ، حتى من بين هذه القلة المميزة ، ممن تلهوا بالعلم ، ووازنوا المعادلات ، وأحرقوا أصابعهم أو نشفوا بأنوفهم فى المختبرات ، أو تفرسوا بدهشة فى النجوم المتكاثرة . ففى باريس مثلا تزاحمت سيدات المجتمــع العصريات على محاضرات ليميرى فى الكيمياء ، وعلى شروح دوفرنيه فى التشريح ، ودعا كونديه ليميرى الى صالونه الخاص جدا ، وعين لويس الرابــع عشر دوفرنيه ليساعد فى تعليم الامير الوارث للعرش . وفى انجلترة كان لتشـــارلز الثانى « مختبر كيميائى » خاص به ، وحاول البارونات ، والاساقفة ، والمحامون القيام بالتجارب ، وأقبلت الخليلات الانيقات فى مركباتهن ليسهدن عجائب المغناطيسية ، وهوى ايفلين الفيزياء ، وأراد انشـــاء معهد للبحث العلمى ، ووجد بيبس وقتا ـ وسط شغله بالمراكب والنساء ـ لاستعمال الميكروسكوب ، ومضخة الهواء وسكين التشريح ، وأصـــبح رئيسا للجمعية الملكية .

وتخلفت الجامعات عن الشعب فى هذا الاهتمام الجديد ، ولكن الأكاديميات الخاصة التقطته . ويلوح أن البادىء كان « أكاديمية أسرار الطبيعة » بنابلى (١٥٦٠) ، ثم أكاديمية « دى لنتشي » بروما (١٦٠٣) التى كان جاليليو ينتمى اليها ، ثم أكاديميـــة «ديل تشيمنتو»، التى أنشأها تلميذاه تفيانى وتوريتشيللى فى فلورنســـة (١٦٥٧) . وقد

كرس هذا المعهد بحكم اسمه للتجارب ، واتخذ الشك الديكارتى منطلقا له ، فلا شيء يجب التسليم به بالايمان ، ولا بد من بحث كل مشكلة دون نظر الى أى ملة أو فلسفة موجودة (١) . ولم يعمر بعض هذه الاكاديميات طويلا ، ولكنها كانت تترك خلفاء لها بعد موتها . وأنشئت الاكاديميات فى شفينفورت (١٦٥٢) ، والتدورف (١٦٧٢) ، وأوبسالا (١٧١٠) ، وفى ١٧٠٠ ، وبعد ثلاثين سنة قضاها ليبنتز فى الالحاح ، خرجت أكاديمية برلين الى النور ، كذلك يرجع الفضل الى ليبنتز فى انشاء أكاديمية سانت بطرسبورج (١٧٢٤) .

وتطورت « أكاديمية العلوم » فى فرنسا من اجتماعات (١٦٣١ - ٣٨) مرسين ، وروبرفال ، وديزارج ، وغيرهم من العلمـــاء فى بيت والد بسكال فى باريس ، أو فى صومعة مرسين . وقد صاغت برنامجـــا « للعمل على تحسين العلوم والآداب ، والبحث عموما عن كل ما يمكن أن يجلب المنفعة أو الراحة للنوع الانسانى » ، كذلك قررت أن « تحـــرر العالم من كل الأخطاء الشائعة التى انطلى زيفها على الناس منـذ زمن طويل » ولكنها نصحت أعضـــاءها بأن يجتنبوا الخوض فى الدين أو السياسة (٢) . وفى ١٦٦٦ ظفرت الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبحجرة فى المكتبة الملكية ، وفى فرساى ترى الى اليوم لوحة كبيرة بريشة تيستيلان يقدم فيها لويس الرابع عشر هذا المرسوم لجماعة يرأســـها كرســـتيان هويجنز وكلود بيرو . وكان كل عضو من أعضــائها الواحـــد والعشرين يتلقى من الحكومة راتبا سنويا ، فضلا عن مبلغ يغطى النفقات ، وقـد أصبحت الأكاديمية من الناحية الفعلية مصلحة من مصالح الدولة . وكان لويس يخص الفلكيين بعطفه . فدعا كاسينى من ايطاليا ، ورويمـــر من الدنمرك ، وهويجنز من هولنده ، وشاد مرصدا فخمـــا . وحين التهمت النيران المكتبة الثمينة التى يقتنيها هيفيليوس الدانزجى ، والذى تفرد بدراساته للقمر ، نفحه الملك بعطاء سخى ليعوض خسارته (٣) . وقـد نسب لابلاس الفضل للأكاديمية فى معظم ما أحرزت فرنسا من تقدم علمى ، ولكن اعتمادها على ملك وثيق التحالف مع الكنيسة كان ضارا بتقدم العلم الفرنسي (٤) ، بينما مضي الانجليز فى هذا الطريق قدما .

ومن سمات انجلترة أن أكاديمياتها العلمية كانت مؤسسات أهليـــة لا تدين للحكومة الا بفضل عارض ، يقول جون واليس انه حـــوالى عـــام

١٦٤٥ ، تعرف فى لندن الى « نفر من فضلاء القوم ، المحبين للاستطلاع فى الفلسفة الطبيعية وغيرها من فروع العلم الانسانى ، لا سـيما ... الفلسفة التجريبية (٥) » . واتفقوا على الاجتماع مرة كل اسبوع لمناقشة الرياضة ، والفلك ، والمغنطيسية ، والملاحة ، والفيزياء ، والميكانيكا ، والكيمياء ، والدورة الدموية ، وغير ذلك من الموضوعات . وقد اسنوحت هذه « الكلية غير المنظورة » ـ كما كانت تسمى آنئذ ـ « بيت سليمان » الوارد فى كتاب بيكون « آطلانطيس الجديدة » فلما انتقـل واليس الى اكسفورد أستاذا للرياضة ، انقسمت الجمعية قسمىن ، يجتمع أحدهمـا فى مسكن روبرت بويل بالجامعة ، والآخر فى كلية جريشام بلندن ، وكان رن وايفلين من أول الاعضاء هناك . وقطع هذه الاجتماعات اللندنيـة ما وقع من اضطراب سياسي بين موت كرمويل وعـودة الملكيـة ، ولكن سرعان ما استؤنفت عقب تولى تشارلز الثانى العرش ، وفى ١٥ يوليـو ١٦٦٢ منح الملك « جمعية لندن الملكية لترقية المعـرفة الطبيعية » براءة رسمية . وكان « الزملاء الأصليون » البالغ عددهم ثمانيـة وتسـعين لا يشملون علماء من أمثال بويل وهوك فحسب ، بل شعراء كدرايدن ووالر ، ورن المعمارى ، وايفلين ، وأربعة عشر نبيلا ، وعدة أساقفة . وفيما بين عامى ١٦٦٣ و ١٦٨٦ ضم اليها نحو تلاثمائة زميل اضـافى . ولم يكن هناك فوارق طبقية تقسمهم ، فكان الادواق والعامة سواسية فى هـذا المشروع ، وأعفى الاعضاء الفقراء من رسوم العضوية (٦) . وفى ١٦٧٣ صرح ليبنتز ، الذى سمح له بالعضوية ، بأن الجمعية الملكية أعظم الهيئات الفكرية احتراما فى أوربا . وفى تاريخ باكـر (١٦٦٧) نشر توماس سبرات كتابه الممتاز « ناريخ الجمعية الملكية » وقد نائر هو أيضـا ، ، بالانسام البيكونيه التى كانت تهب على انجلتره ، وذلك برغم نرفيته أسقفا لروتشستر .

وشكا بعض اللاهوتيين من أن المعهد الجديد سـيفوض الاحترام للجامعات والكنيسة الرسمية ، ولكن اعتدال الجمعبة وحذرها لم يلبثا أن هدءا من معارضة رجال الكنيسة وروحت تجاربها الغريبة عن الحاشية والملك ، الذى ضحك حين سمع أنها تزن الهواء وتفـكر فى الطيران الميكانيكى . وقد هجاها سويفت فى قصة « رحلات جليفرز » وسماها أكاديمية لاجادو العظمى ، وجعل أعضاءها يضعون الخطط لاستنباط

ضوء الشمس من الخيار ، ولبناء البيوت ابتداء من الاسقف فما دون ، وذكر صموئيل بطلر ، مؤلف « هوديبراس » كيف أن ناديا من العلماء هاج وماج لاكتشافه فيلا فى القمر ، ثم تبين أنه فأر فى تلسكوبهم (٨) . ولكن رعاية الجمعية الملكية هى صاحبة الفضل فى تحسين ايفلين للزراعة الانجليزية ، وارساء السر وليم بنى علم الاحصاء ، وتقدم العلم والطب الانجليزيين بخطى تجاوزت كل ما عرف فى فرنسا أو ألمانيا المعاصرتين ، وانشاء علم الكيمياء تقريبا ، واحداث راى ثورة فى علم النبات ، وودوارد فى الجيولوجيا ، ونيوتين فى الفلك . وأجرت الجمعية آلاف التجارب فى الكيمياء والفيزياء ، وكانت تتسلم جثث المجرمين الذين أعدموا وتشرحها وتدرسها ، وأصبحت مستودعا للتقارير الطبية تتلقاها من الاطباء فى جميع أرجاء البلاد ، وجمعت تقارير التطورات التكنولوجية ، وكانت على صلة بالبحث العلمى فى خارج انجلترة . وسدد تأكيدها على العمليات الطبيعية والناموس الطبيعى الخرافة واضطهاد السحر .

وفى عام ١٦٦٥ بدأ سكرتيرها هنرى أولدنبرج اصدار مجلة « الاعمال الفلسفية للجمعية الملكية » التى استمرت الى يومنا هذا . وقد طلبت وتلقت المقالات من خارج البلاد . وكانت من أوائل طابعى اكتشافات مالبيجى وليوفنهويك . أما أولدنبرج هذا فقد وفد على انجلترة فى ١٦٥٣ ليفاض فى ابرام معاهدة تجارية لوطنه بريمن ، فبقى بها ، وأصبح صديقا لملتن ، وهوبز ، ونيوتبن ، وبويل ، وراسل بنشاط العلماء والفلاسفة فى جميع أنحاء العالم . وقال ان أعضاء الجمعية الملكية « يمتحنون الكون كله (٩) » ، وكتب لسبينوزا يقول :

« اننا على ثقة من أن أشكال الاشياء وصفاتها يمكن تعليلها أفضل تعليل بأصول الميكانيكا ، وأن كل آثار الطبيعة تحدثها الحركة والشكل ، والنسيج ، والارتباطات المختلفة لهذه كلها ، وأنه لا حاجة بنا لان نلجأ الى الاشكال التى لا تفسير لها أو الصفات السحرية ملاذا من الجهل (١٠) ».

وبفضل هذه « الاعمال الفلسفية » الانجليزية و « مجلة العلماء» الفرنسية ، و « الجورنالى دى لتيراتى » الايطالية ،

و « الاكتا ايروديتورم » الالمانية استطاع العلماء والدارسون الاوربيون أن يتغلبوا على الحدود القومية ، ويكونوا على اتصال بأعمال بعضهم البعض وكشوفهم ، ويؤلفوا جيشا متحدا يزحف فى مغامرة خلاقة هائلة . وكانوا وهم عاكفون بمنأى عن الانظار فى مكاتبهم ، ومختبراتهم ، وبعثاتهم ، متجاهلين أو منتصرين على جلبة السياسة ، وزحف الجيوش ، وطنين العقائد الدينية ، وضباب الخرافة ، وعملاء الرقابة المدنية أو الكنسية المتطفلين - كانوا وسط هذا كله يكبون على النصوص ، وأنابيب الاختبار ، والمكرسكوبات ، ويخلطون المواد الكيماوية فى فصول ، ويقيسون القوى والاحجام ، ويضعون المعادلات والرسوم البيانية ، ويتفحصون أسرار الخلية ، وينبشون طبقات الارض ، ويرسمون حركات النجوم ، حتى بدت حركات المادة وكأنها تنتظم فى قانون ، وبدت ضخامة الكون الهائلة وكأنها تمتثل للذهن البشرى المذهل . ففى فرنسا كان فيرما ، وبسكال ، وروبرفال ، وماربوت ، وبيرو ، وفروع بأكملها من آل كاسينى وفى سويسرة كان آل برنويى ، وفى ألمانيا كان جويريكى ، وليبنتز ، وتشرنهاوس ، وفارنهايت ، وفى هولندة كان هويجنز وليوفنهويك ، وفى ايطاليا كان فيفيانى وتوربتشيللى ، وفى الدنمرك كان سنينو ، وفى اسكتلنده كان جيمس وديفد جريجورى ، وفى انجلترة كان واليس ، ولستر ، وبويل ، وهوك ، وفلامستيد ، وهالى ، ونيوتن : هؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون ، كانوا فى هذه الحقبة القصيرة من تاريخ أوربا من ١٦٤٨ الى ١٧١٥ ، يكدون فرادى وجماعات منعزلين ومتعاونين ، ليبنوا يوما فيوما ، وليلة فليلة ، صرح الرياضة ، والفلك ، والجيولوجيا ، والجغرافيا ، والفيزياء ، والكيمياء ، والاحياء ، والتشريح ، والفسيولوجيا - هذه العلوم التى قدر لها أن تحدث ثورة مصيرية فى النفس الحديثة . أما أولدنبرج ، الذى أحس دولية العلم هذه ، ولم يخطر بباله قط أن القومية قد تجعل العلم نفسه أداة حزبية ومدمرة ، فقد رأى فى هذا التعاون الملهم بشيرا بحياة أفضل . وكتب لهويجنز يقول « أرجو أن يأتى الوقت الذى تتعانق فيه كل الامم ، حتى المتخلفة فى الحضارة ، عناق الرفاق الاعزاء ، وأن تتضافر قواها الفكرية والمادية لاقصاء الجهل ، وتغليب الفلسفة الصحيحة النافعة(١١) » . ومازال هذا رجاء العالم الى اليوم .

٢ ـ الرياضيات

بدأت الدولية الجديدة بشحذ أدواتها . فطور بسكال وهوك وجويريكى البارومتر ، واستطلعت مضخة جويريكى الهوائية امكان احداث الفراغ ، وصنع جريجورى ونيوتن وغيرهما تلسكوبات أفضل من تلسكوبات كبلر وجليليو ، واخترع نيوتن آلة السدس ، وحسن هوك الميكروسكوب المركب ، الذى أحدث انقلابا فى دراسة الخلية ، وأصبح الترمومتر أوثق وأدق على يد جويريكى وأمونتونز ، وفى عام ١٧١٤ أعطاه فارنهايت شكله الانجليزى ـ الامريكى باستخدامه الزئبق بدلا من الكحول وسيطا متمددا ، وقسم مقياسه عند الصفر ، و ٣٢ درجة و ٩٦ درجة (التى افترض انها حرارة جسم الانسان الطبيعية) .

أما أعظم الادوات قاطبة فكانت الرياضيات ، لأنها أضفت على التجربة شكلا كميا ومعايرا ، ومكنتها بمئات الطرق من التنبؤ بالمستقبل بل السيطرة عليه . قال بويل « ان الطبيعة تلعب دور الرياضي » وأضاف ليبنتز « ان العلم الطبيعى ليس الا الرياضة التطبيقية (١٢) » . ويشيد مؤرخو الرياضيات بالقرن السابع عشر لأنه كان وافر الثمر فى ميدانهم على الاخص ، فهو قرن ديكارت ، ونابيير ، وكافالييرى ، وفيرما ، وبسكال ، ونيوتن ، وليبنتز ، وديزارج . وكانت السيدات المعطرات بالنبالة يختلفن الى محاضرات الرياضة ، وقالت « صحيفة العلماء » مازحة ان بعضهن جعلن تربيع الدائرة الجواز الوحيد لرضائهن (١٣) ، ولعل هذا أن يفسر جهود هوبز الملحة فى حل تلك المعضلة المحيرة .

وأنجب بيير دفيرما النظرية الحديثة للاعداد (دراسة أنواعها ، وخصائصها ، وعلاقاتها) وتخيل الهندسة التحليلية مستقلا عن ديكارت ـ وربما قبله ، واخترع حساب الاحتمالات مستقلا عن بسكال ، وسبق نيوتن وليبنتز الى حساب التفاضل . ومع ذلك عاش مغمورا بعض الشيء فى عضويته ببرلمان تولوز ، ولم يدل باسهاماته فى الرياضة الا فى خطابات لاصدقائه ـ لم تنشر الا سنة ١٦٧٩ ، بعد موته بأربعة عشر عاما . وفى أحد هذه الخطابات نستشف انتشاءه

بالرياضة . « لقد عثرت على عدد كبير جدا من النظريات الجميلة جدا (١٤) » وكان يطرب لكل حيلة جديدة أو انتظام مدهش فى الاعداد . وقد تحدى رياضي العالم « ان يقسموا المكعب الى مكعبين ، وربع القوة الى ربعى القوة » ، الخ ، وكتب يقول « لقد اكتشفت برهانا عجيبا حقا لما يعرف الآن بـ «آخر نظريات فيرما » ، ولكن لا برهانه ولا أى برهان قاطع عليها قد وجد الى الآن . وفى عام ١٩٠٨ أوصي استاذ المانى بمائة ألف مارك لأول شخص يبرهن على فرض فيرما ، ولم يطالب أحد الى الآن بالجائزة ، وربما نبط همته هبوط قيمة المارك .

وكان كرستيان هويجنز أبرز علماء هذا العصر ، باستثناء عالم واحد فقط ، فكان التالى مباشرة لنيوتن . وكان أبوه قسطنطين هويجنز من ألمع شعراء هولندة وساستها . ولد كرستيان فى ١٦٢٩ ، وبدأ فى الثانية والعشرين نشر الابحاث الرياضية . وما لبثت كشوفه فى الفلك والفيزياء أن أذاعت شهرته فى أوربا ، فانتخب زميلا للجمعية الملكية بلندن فى ١٦٦٣ ، وفى ١٦٦٥ دعاه كولبير للانضمام الى أكاديمية العلوم بباريس ، فانتقل الى العاصمة الفرنسية ، وتلقى معاشا سخيا ، ومكث بها حتى ١٦٨١ ، ثم عاد الى هولندة لضيقه بالحياة فى ظل ملك تحول مضطهدا للبروتستنت . وكان تراسله بست لغات مع ديكارت ، وروبرفال ، وميرسين ، وبسكال ، ونيوتن ، وبويل ، وكثير غيرهم ، دليلا على الوحدة المتزايدة التى تربط الأخوة العلمية . قال « ان العالم وطنى ، والنهوض بالعلم دينى (١٥) » . ومن عجائب زمانه عقله السليم فى جسمه السقيم ـ فقد كان جسمه عليلا أبدا ، وعقله خلاقا حتى موته فى السادسة والستين . وكان انتاجه فى الرياضة أقل جزء فى انجازاته ، ومع ذلك فان الهندسة ، واللوغاريتمات ، وحساب التفاضل والتكامل ـ كلها أفادت من جهوده . وفى ١٦٧٣ أثبت « قانون المربعات العكسية » (أى ان جذب الاجسام بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها) وهو القانون الذى أصبح بالغ الاهمية لفلك نيوتن .

وكان نيوتن الآن بالطبع أسطع نجم تكبد سماء العلم البريطانى ، وهو جدير بأن نفرد له فصلا خاصا ، ولكن كان لنجمه أقمار توابع .

ومنهم صديقه جون واليس ، القسيس الانجليكانى ، الذى أصبح استاذا « سافيليا » للهندسة فى اكسفورد عام ١٦٤٩ وهو فى الثالثة والثلاثين ، وشغل ذلك الكرسي أربعة وخمسين عاما . وقد صرف النحو والمنطق واللاهوت قلمه عن العلم ، ومع ذلك فانه كتب بحوثا ذات أثر فى الرياضة والميكانيكا ، والسمعيات والفلك ، والمد والجزر ، والنبات والفسيولوجيا ، والجيولوجيا ، والموسيقى ، ولم يعوزه سوى بعض الحب والحرب لتكتمل شخصيته . ورسالته « فى تاريخ الحبر وممارسته » (١٦٧٣) لم تسهم بأفكار أصيلة فى ذلك العلم فحسب ، بل كانت أول محاولة جدية فى انجلترة لكتابة تاريخ الرياضة . وقد ابتهج معاصروه بالجدل الطويل بينه وبين هوبز حول حساب تربيع الدائرة ، وانتصر واليس ، ولكن الفيلسوف العجوز واصل الكفاح الى نهاية سنيه الواحدة والتسعين . ويذكر التاريخ واليس على الاخص بكتابه « حساب اللانهائيات » (١٦٥٥) الذى طبق طريقة كافالييرى فى اللامنقسمات على حساب تربيع المنحنيات ، وبهذا مهد لحساب التفاضل المتناهى الصغر .

أما كلمة calculus فكانت تعنى أصلا حجرا صغيرا استعمله الرومان القدامى فى العد ، ولكن لا يستطيع تعريف حساب التفاضل على وجه الصحيح الآن غير الراسخين فيه × . وقد لمحه أرخميدس من بعيد ، واقترب منه كبلر ، واكتشفه فيرما ولكنه لم ينشر كشوفه ، وحمل كافالييرى وتوريتشيللى فى ايطاليا ، وبسكال وروبرفال فى فرنسا ، وجون والس واسحاق بارو فى انجلترة ، وجيمس وديفد جريجورى فى

× أما بالنسبة لنا نحن غير الخبيرين به ، فيمكن وصفه بأنه حساب المقادير القابلة للتغير ، كمقادير الوزن ، أو المسافة ، أو الزمن ، فمنسوب الماء الذى يسكب بسرعة متماثلة فى مخروط مقلوب يرتفع بسرعة أقل فاقل ، وحساب التفاصيل يحدد مبلغ ارتفاع المنسوب فى أى وحدة زمنية معلومة . فالجسم الساقط فى « وسط خال من المقاومة » يزيد من سرعة سقوطه مع كل زيادة فى الزمن ، وحساب التفاضل يبين مدى سقوطه فى أى فترة معينة . وأشكال هذا الحساب الاكثر تعقيدا تتناول انشاء المماسات للمنحنيات ، والمساحات المحاطة بمنحنى ، وتقريب الخطوط المستقيمة المضاعفة لا نهائيا الى الدائرة . وحساب التفاضل المتناهى الصغر يحسب مقدارا قابلا للتغير باختزاله دون حد الى جزء دقيق جدا بحيث يمكن اهمال معدل التغير . وحساب التكامل يحسب مقدارا ما من واقع العلم بسرعة تغيره . وقد تبين أن جميع طرق الحساب هذه بالغة الفائدة للاعمال الهندسية .

اسكتلندة ــ هؤلاء كلهم حملوا لبنات للبناء فى تعاون القـــارة المدهش هذا • وأوصل نيوتن وليبنتز العمل الى التمام •

واقترح لفظة calculus على ليبنتز رجل يدعى يوهان برنويى أحد أفراد أسرة نفردت بوراثة النبوغ الاجتماعية تفرد آل باخ ، وبروجل وكوبرين • وكان نيقولاوس برنويى (١٦٢٣ ــ ١٧٠٨) كأسلافه تاجرا • وارتقى الحساب التجارى عند ولده يعقوب برنويى الاول (١٦٥٤ ــ ١٧٠٥) الى أشكال أرقى من الحساب • واتخذ يعقوب هذا شـــعارا له القول المأثور « اننى أدرس النجوم مخالفا ارادة أبى » ، فهوى الفلك ، وأسهم فى الهندسة التحليلية ، وحسن حســـاب التغبيرات ، وأصبح أستاذا للرياضيين فى جامعة بازل • وقد آتت دراســـاته للمنحنيـــات الكتينية (وهى المنحنبات التى ترسم بسلســـلة منتظمة معلقـــة بين نقطتين) ــ هذه الدراسات آتت أكلها فى فترة لاحقة فى تصميم الكبارى المعلقة وخطوط النقل العالية الفولت • واتخذ أخوه يوهان (١٦٦٧ ، ١٧٤٨) الطب مهنته ــ مخالفا خطط أبيه هو أيضا ــ ثم الرياضة ،وخلف يعقوب أستاذا فى بازل ، واسهم فى الفيزياء ، والبصريات ، والكيمياء والفلك ، ونظرية المد والجزر ، ورياضة القلوع ، وابتكر حساب التفاضل الأسي ، وأنشأ أول نظام لحساب التكامل ، وأدخـــل استعمال كلمـــة integral بهـــذا المعنى • ونال أخ آخر لهمـــا يدعى نيقولاوس الاول (١٦٦٢ ــ ١٧١٦) درجة الدكتوراه فى الفلسفة وهو بعد فى السادسة عشرة ، وفى القانون وهو فى العشرين ، ودرس القانون فى برن والرياضة فىسانت بطرسبورج• وسنلتقى بستة رياضيين آخرين من آل برنويى فى القرن الثامن عشر ، وكان منهم اثنان آخران فى القرن التاسع عشر ، وهنا كفت البطاريات البرنويية عن عملها •

ومن مآثر هذا العصر ارساء الاحصاء علما أو ما يشبه العلم • ذلك أن خردجيا بدعى جرونت كان يتسلى بجمع سجلات الدفن المحفـــوظة بأبرشيات لندن ودراستها • وكانت هذه السجلات تذكر عادة الســـبب المتناقل لموت الميت ، مثل « مات جـوعا فى الشارع » و « أعدم وعصر حتى الموت » و « داء الملك » (الخنازيرى) و « مات جوعـــا عنـــد مرضعته» و « قتلوا أنفسهم (١٦) » وفى ١٦٦٢ نشر جرونت كتـــابا سماه « ملاحظات طبيعية وسياسية ••• على سجلات الوفيـــات » ،

والكتاب بداية علم الاحصـــاء الحديث ، وقد خلص من جداوله الى أن ستة وثلاثين فى المائة من الاطفال يموتون قبل بلوغهم السادسة ، وأربعة وعشرين فى المائة فى العشر السنوات التالية ، وخمسة عشر فى المائة فى العشر التالية ٠ الخ (١٧) ، وتبدو نسبة الوفيات فى الاطفال مغالى فيها كثيرا هنا ، ولكنها تومىء الى جهد الحب فى ملاحقة ملاك الموت ٠ قال جرونت « من الوفيات العديدة ما يحمل نسبة ثابتة الى جمـلة المدفونين ، وأعنى الوفـــاة بالامراض المزمنـــة ، والامراض التى يعظـــم تعـــرض المدينة لها ، كالسل ، والاستسقاء ، واليرقان ، الخ (١٨) » ، ومعنى هذا أن أمراضا معينة ، وظواهر اجتماعية أخرى ، وان تعذر التنبؤ بها فى الافراد ، الا انه يمكن حسابها مسبقا بدقة نسبية فى الحماعة الكبيرة وهذا المبدأ الذى صاغه حرونت هنا أصبح أساسا للتنبؤ الاحصائى ٠ وقد لاحظ أن وقائع الدفن فى لندن فى سنوات كثيرة فاقت وقائع العماد ، وانتهى الى أن لندن تتميز بوفرة احتمالات الموت ، كالموت من همـــــوم العمل ، و « الدخان ، والروائح العفنة ، والهواء الفاسد » و « الافراط فى الطعام » ولكن بما أن سكان لندن كانوا يتزايدون رغم هـذا ، فان جرونت عزا الزيادة الى وفود المهاجرين من الريف والمدن الصغيرة ـ وقدر سكان العاصمة فى عام ١٦٦٢ بنحو ٣٨٤ر٠٠٠ نسمة ٠

وطبق السر ولبم بتى ، صديق جرونت ، الاحصاء على السياسة ٠ وهنا أيضا مثال آخر على تعدد فى القدرات يستحيل العثور عليه اليوم فى فرد واحد ، فان بتى بعد أن تلقى العلم فى كان ، وأوترخت ، وليدن وأمستردام ، وباريس ، درس التشريح فى أكسفورد ، والموســـيقى فى كلية جريشام بلندن ، وجمع ثروة ونال لقب الفروســية باشتغاله طبيبا للجيش الملكى بارلندة × ٠ وفى ١٦٧٦ ألف كتابا هو العمدة الثانى فى علم الاحصاء الانجليزى ، وهو « الحساب السياسى » فالسياسة فى رأى بتى لا يمكن أن تصبح علما أو كالعلم الا اذا بنت استنتاجاتها على قياســات كمية ٠ لذلك طالب بتعداد دورى يسجل الميلاد ، والجنس ، والحـالة

× يقول أوبرى انه فى اكسفورد « كان يحتفظ بالجثة ٠٠ مخللة أو مملحة » وكانت أحدى الحثث التى جىء بها اليـــه لتشريحها جثـــة نان جـــرين ، التى قتلت ابنها غير الشرعى ، ووجدها بنى لا تزال تتنفس ، وردها الى الحيـــاة ثانية (١٩) ٠

الزوجية ، والالقاب ، والمهنة ، والدين ، الخ · لكل شـــحص يسـكن انجلترة · واعتمادا على قوائم الوفيات ، وعدد البيوت ، وزيادة المواليد على الوفيات سنويا ، قدر أن سكان لندن فى ١٦٨٢ يبلغون ٦٩٦ر٠٠٠ ، وسكان باريس ٤٨٨ر٠٠٠ ، وسكان أمستردام ١٨٧ر٠٠٠ ، وسكان روما ١٢٥ر٠٠٠ · ورأى بتى ما رآه جوفـــانى بوتيرو فى ١٥٨٩ وتوماس مالثوس فى ١٧٩٨ ، وهو أن عدد السكان ينحو الى الزيادة بأسرع من موارد الرزق ، وأن هذا يفضى الى الحرب ، وأنه لن تحل سنة ٣٦٨٢ حتى تكتظ الارض الصالحة للسكنى بأهلها اكتظاظا خطرا ، اذ يعيش شخص فى كل فدانين (٢٠) ·

وأفادت شركات التأمين من الاحصاء فحولت عملها فنـا وعلمـــا آخذا فى حسابهما كل شيء الا التضخم · ومن واقع تقارير الوفيات فى برسلاو أعد ادموند هالى (١٦٩٣) جدولا بالوفيات المتوقعة فى جميع الاعمار من عمر سنة الى أربع وثمانين ، وعلى أساس الجدول حسـب احتمالات وفاة الافراد فى سن معينة خلال السنة الشمسية ، واستخرج السعر المنطقى لبوليصة التأمين · وانتفعت أولى شركات التـأمين على الحياة التى أسست بلندن فى القرن الثامن عشر بجداول هالى ، وأحالت الرياضة ذهبا ·

٣ ــ الفـــلك

أخضعت النجوم للعلم فى عشرات الاقطار · ففى ايطاليا اكتشف الفلكى اليسوعى ريتشولى (١٦٥٠) أول نجم مزدوج ــ أى نجم يبـــدو للعين المجردة واحدا ولكنه يرى بالتلسكوب نجمين واضح أنهما يدوران الواحد حول الآخر · وفى دنزج بنى يوهان هيفيليوس مرصدا فى بيته ، وصنع آلاته الخاصة ، وصنف ١٥٦٤ر١ نجما ، واكتشف أربعة مذنبات ، ورصد مرور المشترى ، ولاحظ ترجحات القمر (وهى التناوبات الدورية فى رؤية أجزائه) ، ورسم سطحه ، وسمى عددا من تضاريسه بأسماء مازالت تظهر على خرائط القمر الى يومنا هذا · فلما أذاع على راصدى النجوم فى أوربا أن فى استطاعته تمييز مواقع النجـــوم باســـتعمال «ديوبتر» (رصد يستعمل عدسة واحدة أو منشورا واحدا) بنفس الدقة التى يميز بها هذه المواقع باستعمال تلسكوب مركب ، تحدى روبرت هـــوك

دعواه هذه ، وسافر هالى من لندن الى دنزج ليحقق فى الأمر ، ثم قرر أن هيفيليوس صادق (٢١) ٠

ووفر لويس الرابع عشر المال لبناء وتجهيز مرصد فى باريس (١٦٦٧ – ٧٢) بعد أن نبين أهمية الفلك للملاحة ٠ ومن ذلك المركز قاد جان بيكار البعثات أو أرسلها لدراسة السماء من نقط مختلفة على الأرض ٠ وذهب الى أورانيبورج ليلاحظ الموقع المضبوط الذى رسم منه تيكو براهى خريطته المشهورة للنجوم ، واستطاع بمختلف الرصود التى امتدت من باريس الى أميان أن يقيس درجة طولية بدقة عظيمة (لا تختلف الا بضع باردات عن الرقم الحالى وهو ٥ر٦٩ ميلا) حتى أنه من المعتقد أن نيوتن استخدم نتائج بيكار ليقدر كتلة الارض ويتحقق من نظرية الجاذبية ٠ وبأرصاد مماثلة حسب بيكار القطر الاستوائى للأرض فكان ٨٠١ر٧ ميلا – وهو تقدير غير بعيد من تقديرنا الحالى وهو ٩١٣ر٧ ميلا (٢٢) ٠ وقد يسرت هذه الكشوف للمراكب فى عرض البحر أن تحدد مواقعها بدقة لم يسبق لها نظير ٠ وهكذا حفز توسع أوربا التجارى وتطورها الصناعى الثورة العلمية وانتفعا بها ٠

وعملا باقتراح من بيكار دعا لويس الرابع عشر الى فرنسا الفلكى الايطالى جوفانى دومنيكو كاسينى ، الذى ذاع صيته فى أوربا بفضل اكتشافه شكل المشترى الكروانى ، ودوران المشترى والمريخ الدورى ٠ فلما وصل الى باريس (١٦٦٩) استقبله الملك كأنه أمير من أمراء العلم (٢٣) ٠ وفى ١٦٧٢ أوفد ، هو وبيكار ، جان ريشيه الى كايين بأمريكا الجنوبية ليرصد المريخ فى أقصى « مواجهة » له مع الشمس وقرب من الارض ، ورصد كاسينى نفس المواجهة من باريس ٠ وقد أعطت المقارنة بين هذين الرصدين الآتيين من نقطتين منفصلتين قيما جديدة وأكثر دقة لاختلاف منظر المريخ والشمس وبعدهما عن الأرض ، وكشفت عن أبعاد فى المجموعة الشمسية أعظم مما قدر من قبل ٠ وبما أن الفلكيين تبينوا أن بندولا فى كايين يبطىء عن نظيره فى باريس ، فقد انتهوا الى أن الجاذبية قرب الاستواء أخف منها فى العروض العليا ، وأوحى هذا بأن الارض ليست دائرة كاملة ، ورأى كاسينى أنها تفرطحت عند خط الاستواء ، ورأى نيوتن أنها تفرطحت عند القطبين ، وأيد المزيد من البحث رأى نيوتن ، واكتشف كاسينى أثناء ذلك أربعة أقمار

جديدة لزحل (ساتورن) ، وانقسام حلقة زحل الى قسمين (وهو الانقسام الذى يطلق عليه اسم كاسينى الآن) • وبعد موته عام ١٧١٢ خلفه فى مرصد باريس ابنه جاك ، الذى قاس قوس الزوال من دنكرك الى بربنيان ، ونشر أول جداول لأقمار زحل •

وقد أسهم كرستيان هويجنز فى لهاى اسهامات هامة فى الفلك قبل أن ينضم الى فريق العلماء العالمى فى باريس • فوفق هو وأخوه قسطنطين الى طريقة جديدة لشحذ العدسات وصقلها ، واستعان بها فى تركيب تلسكوبات أقوى وأصفى من أى تلسكوبات عرفت من قبل ، وبفضلها اكتشف (١٦٥٥) القمر السادس لزحل ، وحلقة هذا الكوكب الغامضة • وبعد عام قام بأول تحديد للمنطقة اللامعة (التى تحمل اسمه الآن (فى سديم أوريون وكشف عن الطابع المتعدد لنجمه النووى •

أما أعظم منافس لفلكيى باريس فهو الفريق الممتاز تجمع أكثره حول هالى ونيوتن فى انجلترة • وقد قدم جيمس جريجورى الأدنبرى المعونة من بعيد بتصميمه أول تلسكوب عاكس (١٦٦٣) - أى التلسكوب الذى تركز فيه أشعة الضوء المنبعثة من الجسم بوساطة مرآة منحنية بدلا من العدسة ، وقد حسنه نيوتن فى ١٦٦٨ • وفى ١٦٧٥ وجه جول فلامستيد وآخرون الى تشارلز الثانى مذكرة يلتمسون فيها تمويل بناء مرصد قومى ، حتى تهتدى السفن الانجليزية التى تمخر عباب البحر بطرق أفضل لحساب خطوط الطول • ودبر الملك المال للبناء ، الذى شيد فى بلدة جرينيتش قرب القسم الجنوبى الشرقى من لندن ، واستعمل هذا نقطة لطول الصفر والزمن القياسي • وقدم تشارلز لفلامستيد راتبا صغيرا على عمله مديرا ، ولكنه لم يقدم مالا تدفع منه رواتب مساعديه أو ثمن الآلات • أما فلامستيد ، الهزيل العليل ، فقد بذل حياته لذلك المرصد • فقبل تلاميذ يعلمهم ، واشترى الآلات من جيبه الخاص ، وتلقى المال هدية من أصدقائه ، وعكف فى صبر على رسم الخرائط للسماء كما ترى من جرينيتش • وقبل أن يموت (١٧١٩) كان قد أتم أوسع وأدق قائمة نجوم عرفت من قبل ، وقد أدخلت تحسينات كثيرة على القائمة التى تركها تيكوبراهى لكبلر فى ١٦٠١ • وكان فلامستيد يشقى بالافتقار الى المساعدين ، ويضطر للقيام

بنفسه باعداد الاوراق التى تترك عادة للمساعدين ، فاغضب هالى ونيوتن بتعطيله حساب نتائجه واذاعتها ، وأخيرا نشرها هالى دون أذن من فلامستيد ، فثار الفلكى العليل ثورة عارمة هزت النجوم فى أفلاكها .

ومع ذلك فان ادموند هالى كان أعظم أفراد الفريق تهذيبا . كان تلميذا متحمسا لدراسة السماء ، فنشر فى العشرين بحثا عن أفلاك الكواكب ، وفى تلك السنة (١٦٧٦) خرج فى رحلة ليتبين كيف تبدو السماء من نصف الكرة الجنوبى . ومن جزيرة القديسة هيلانة رسم خرائط تبين مسلك ٣٤١ نجما . وعشية عيد ميلاده الحادى والعشرين قام بأول رصد كامل لعبور عطارد . فلما عاد الى انجلترة انتخب زميلا بالكلية الملكية وهو لم يجاوز الثانية والعشرين . وقد تبين عبقرية نيوتن ، ومول الطبعة الاولى من كتابه « المبادىء » الغالى النفقة ، وقدم له بتقريظ فى شعر لاتينى رائع اخره بيت يقول « غير مسموح لأى بشر فان بأن يقترب من الآلهه » (٢٤) . وحقق هالى النص اليونانى لكتاب أبللونيوس البرجاوى « المخاريط » ، وتعلم العربية ليترجم الأبحاث اليونانية المخطوطة فى العربية دون سواها .

وقد سجل اسمه فى قبة السماء بنبوءة من أنجح النبوءات فى التاريخ . وكان بوريللى قد مهد لها الطريق باكتشافه الشكل القطعى المكافىء لمسالك المذنبات (١٦٦٥) . فلما ظهر مذنب فى ١٦٨٢ وجد هالى فى مسلكه نظائر مع مذنبات سجلت فى ١٤٥٦ ، و ١٥٣١ ، و ١٦٠٧ ، وقد لاحظ أن هذا الظهور حدث فى فترات من نحو خمسة وسبعين عاما ، وتنبأ بظهور آخر فى ١٧٥٨ . ولم يفسح له فى الأجل ليرى تحقيق نبوءته ، ولكن حين عاد المذنب الى الظهور أطلق عليه اسمه ، وأضاف الى مكانة العلم المتزايدة . وكان الرأى فى المذنبات حتى أخريات القرن السابع عشر أنها من فعل الله مباشرة ، وانذار للنوع الانسانى بالويل والثبور وعظائم الامور ، ولكن مقالات بيل وفونتنيل، ونبوءة هالى ، قضت على هذه الخرافة . وطابق هالى بين مذنب آخر شوهد فى ١٦٨٠ ومذنب شوهد فى السنة التى مات فيها المسيح ، وتتبع تكرار ظهوره كل ٥٧٥ سنة ، ومن هذا الانتظام الدورى حسب

فلكه وسرعته حول الشمس • وتعقيبا على هذه الحســـابات ، خلص نيوتن الى أن « أجسام المذنبات صلبة ، متماسكة ، ثابتـــة ، متينة ، كأجسام الكواكب » وأنها ليست « أبخرة ، أو دخـــانا من الارض ، والشمس ، والكواكب ، وغبرها (٢٥) » • ×

وفى ١٦٩١ حيل بين هالى والكرسي الساقيلى للفلك بأكسفورد للظن بانه مادى النزعـــة (٢٦) • وفى ١٦٩٨ ، بتكليـــف من وليم الثالث ، أبحر موغلا فى الاطلنطى الجنوبى ، ودرس اختـــلافات البوصلة ، ورسم خرائط للنجوم كما ترى فى القارة القطبية الجنوبية (قال فولتير : ان رحلة ملاحى سفينة جاسون (الأرجونوت ، الباحثين عن الفروة الذهبية) اذا قيست بهذه الرحلة لم تكن أكثر من عـــبور مركب من ضفة نهر الى أخرى) (٢٧) • وفى ١٧١٨ قـــرر هـــالى أن عدة نجوم من المفروض أنها « ثابتة » قد غيرت مواقعها منـــذ أيام اليونان ، وأن نجما منها وهو الشعرى اليمانية Sirius ، قد تغير منذ أيام براهى ، وبعد أن أخذ أخطاء الرصد فى حسابه ، خلص الى أن النجوم تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض فى فترات كبرى ، وهذه « الحركات الخاصة » تقبل الآن على أنها حقيقية • وفى ١٧٢١ عين خلفا لفلامستيد فى منصب فلكى الملك ، ولكن فلامستيد كان قد مات فى فقر مدقع ، فاستولى دائنوه على آلات رصده ، ووجد هالى أن عمله يعطله نقص الأجهزة وتناقص نشاطه ، ومع ذلك بدأ وهو فى الرابعة والستين يرصد ويسجل ظواهر القمر خلال دورته الكاملة ذات الثمانية عشر عاما • ومات فى ١٧٤٢ وقد بلغ السادسة والثمانين ، بعد أن شرب بحكمة قدحا من النبيذ مخالفا أوامـــر طبيبه • فالحيـــاة ، كالنبيذ سواء بسواء ، يجب الا يسرف فى تعاطيها •

× قبيل ذلك كان درايدن فى قصته الشعرية « أبشالوم واخيتوفل » (١٦٨١) قد وصف المذنبات بانها « تنبعث من الابخرة الارضية قبـــل أن تســـطع فى السماوات » •

٤ ـ الأرض

كان هالى فى ولعه بالعلم قد غامر بالخوض فى مجاهل الارصاد لجوية بمقال (١٦٩٧) فى الرياح التجارية ، وخريطة رسمت لأول مرة حركات الهواء • وقد عزا هذه الحركات لفروق فى درجات حرارة الجو وضغطه ، فالشمس فى حركتها الظاهرية الى الغرب تحمل الحرارة معها ، لا سيما على طول مناطق العالم الاستوائية ، والهواء الذى تخلخل بفعل هذه الحراره يجتذب هواء أقل تخلخلا من الشرق ويحدث الرياح الاستوائبة السائدة التى اعتمد عليها كولمبس فى ابحاره من الشرق الى الغرب • وكان فرانسس بيكون قد أومأ الى تفسير شبيه بهذا • وسيطوره جورج هالى فى ١٧٣٥ باضافة هذا الرأى وهو أن السرعة الاكبر لدوران الارض الى الشرق عند خط الاستواء تحدث تدفقا عكسيا للهواء نحو الغرب •

وقد جعل تطور البارومتر والترمومتر من الارصاد الجوية علما • فبارومتر حويريكى تنبأ تنبؤا صحيحا بعاصفة شديدة فى ١٦٦٠ • واخترعت « مراطيب » مختلفة فى القرن السادس عشر لقياس الرطوبة • واستعملت « الاكاديميا ديل تشبمنتو » اناء مدرجا يتلقى الرطوبة المتساقطة من خارج مخروط معدنى مملوء بالثلج • ووصل هوك فرشاة حبوب ، أو « لحية » ـ تنتفخ وتنحنى مع زيادة الرطوبة فى الهواء ـ بأبرة مؤشرة تتحرك عند انتفاخ الفرشاة • كذلك اخترع هوك مقياسا للريح ، وبارومترا ذا عجلة ، وساعة جوية • وهذه الساعة التى صممها بناء على تكليف من الجمعية الملكية (١٦٧٨) كانت تقيس وتسجل سرعة الريح واتجاهه ، وضغط الجو ورطوبته ، ودرجة حرارة الهواء ، وكمية المطر ، وتبين الوقت فوق ذلك • وشرعت المحطات فى مختلف المدن ، بعد أن سلحت بالآلات المحسنة ، تسجل وتقارن بين أرصادها الآنية ، كما حدث بين باريس واستكهولم فى ١٦٤٩ • وأرسل الدوق الاكبر فرديناند الثانى أمير توسكانيا ، وراعى أكاديمية التشيمنتو ، البارومترات ، والترمومترات ، والمراطيب ، الى راصدين مختارين فى باريس ، ووارسو ، وانزبروك ، وغيرها ، ومعها تعليمات بتسجيل البيانات الرصدية يوميا ، وارسال نسخة منها الى فلورنسة

للمقارنة . وأقنع ليبنتز المحطات الجوية فى هانوفر وكيل بأن تحتفظ بسجلات يومية من ١٦٧٩ الى ١٧١٤ .

أما هوك ، الذكى الذى لم يحسم عملا ، فقد فتح عشرات من مسالك البحث المبشرة بالنجاح ، ولكن افتقاره الى المال والصبر أعجزه عن المضي فيها الى نهايات مشهورة . فنحن نجده فى كل مكان فى تاريخ العلم البريطانى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان ابن وزير « مات بتعليق نفسه (٢٨) » ، وأرهص بتنوع مواهبه ذلك التنوع المتذبذب ، فرسم الصور ، وعزف على الأرغن ، وابتكر ثلاثين طريقة مختلفة للطيران . وفى أكسفورد انصرف لدراسة الكيمياء ، وعمل مساعدا لروبرت بويل . وفى ١٦٦٢ عين « أمينا للتجارب » فى الجمعية الملكية ، وفى ١٦٦٥ كان أستاذا للهندسة بكلية جريشام ، وفى ١٦٦٦ ، بعد حريق لندن الكبير ، اشتغل بالعمارة وصمم عدة مبان كبيرة ـ كبيت مونتاجيو ، وكلية الاطباء ، ومستشفى بيت لحم (« بدلام ») . وبعد طول اكباب على الميكروسكوبات ، نشر رائعته «ميكروجرافيا» (١٦٦٥) الذى احتوى على عدد من الافكار الموحية فى علم الاحياء . وعرض نظرية فى الامواج الضوئية ، وساعد نيوتن فى البصريات ، وكان سباقا الى قانون المربعات العكسية ونظرية الجاذبية . وكشف النجم الخامس فى أوريون ، وقام بأول المحاولات ليحدد بالتلسكوب اختلاف منظر نجم ثابت . ثم عرض نظرية حركية للغازات فى ١٦٧٨ ، ووصف نظاما للتلغراف فى ١٦٨٤ . وكان من أوائل من استعملوا الزنبرك فى ضبط الساعات ، وأرسي مبدأ آلة السدس لقياس الأبعاد الزاوية ، وصنع اثنتى عشرة آلة علمية . وأغلب الظن أنه كان أعظم العقول أصالة فى كوكبة العباقرة التى جعلت من الجمعية الملكية حينا محدد الخطوة للعلم الاوربى ، ولكن طبيعته المكتئبة العصبية حالت بينه وبين ما كان جديرا به من ثناء ومديح .

وقد كان له حتى فى الجيولوجيا لحظة صدق . فقد زعم أن المتحفرات تدل على قدم الارض والحياة قدما يتعارض تماما مع سفر التكوين ، وتنبأ بأن تاريخ الحياة على الارض سيحسب يوما ما على أساس المتحفرات المختلفة فى الطبقات المتعاقبة . وكان أكثر كتاب القرن السابع عشر لا يزالون يقبلون قصة الخلق الكتابية ، وكافح

بعضهم للتوفيق بين سفر التكوين وكشوف الجيولوجيا المتفرقة . وفى مقال « نحو تاريخ طبيعى للارض » (١٦٩٥) ، أعاد جون وودوارد، بعد دراسة طويلة لمجموعته الكبيرة من المتحفرات ، تفسير ليوناردو دافنتشي لها بأنها بقايا نباتات أو حيوانات عاشت يوما ما على الارض، ولكنه هو أيضا ذهب الى أن توزيع المتحفرات نتيجة لطوفان نوح . ثم اقترح قسيس أنجليكانى يدعى توماس بيرنيت (١٦٨٠) التوفيق بين سفر التكوين والجيولوجيا بمده « أيام » أسطورة الخليقة كما وردت فى سفر التكوين الى حقب ، وتقبل الناس هذه الحيلة ، ولكن حين استجمع توماس أطراف شجاعته وراح يفسر قصة آدم على أنها رمز ، وجد نفسه محروما من الترقية للمناصب الكنسية .

وكان أثناسيوس كيرشر يسوعيا تقيا وعالما فذا ، وسنراه يلمع فى ميادين عديدة . وقد رسم كتابه ، عالم ما تحت الأرض « (١٦٦٥) خرائط لتيارات المحيط ، ورأى أن المجارى الباطنية يغذيها البحر ، وعزا ثوران البراكين والعيون الساخنة لنيران باطنية ، وبدا هذا تأكيدا للاعتقاد الشائع بأن الجحيم فى مركز الأرض . أما بيير بيرو (١٦٧٤) فقد رفض الفكرة القائلة بأن العيون والانهار لها منابع باطنية ، وقال بالرأى المقبول الآن ، وهو أنها نتاج الامطار والثلوج . وعلل مارتن لستر ثوران البراكين بأنه نتيجة سخونة الكبريت فى كبريتور الحديد والانفجار المترتب على السخونة ، وأظهرت التجربة أن خليطا من برادة الحديد ، والكبريت ، والماء ، مدفونا فى الارض ، أصبح ساخنا وشقق الارض من فوقه ، ثم تفجر لهيبا .

أما ألمع العلماء فى جيولوجية ذلك العصر فقد عرفته الدنمرك باسم نيلز ستينسن ، وعرفته دولية العلم باسم نيقولاوس ستينو . ولد فى كوبنهاجن ، ودرس الطب فيها وفى ليدن ، حيث سلك سبينوزا فى زمرة أصدقائه (٢٩) . ثم هاجر الى ايطاليا ، واعتنق الكاثوليكية وأصبح طبيب البلاط لفرديناند الثانى فى فلورنسة . وفى ١٦٦٩ نشر مجلدا صغيرا اسمه De solido intra solidum naturaliter contento عده أحد الطلبة « أهم وثيقة جيولوجية فى ذلك القرن (٣٠) » وكان هدفه تاكيد الرأى الجديد فى المتحفرات ، ولكن على سبيل التمهيد له

وضع ستينو لأول مرة أسسا تشرح تطور القشرة الارضية · وقد وجد بدراسة جيولوجية توسكانيا ست طبقات متعاقبة · وحلل تركيبها ومحتوياتها ، وتكوين الجبال والاودية ، وأسباب البراكين والزلازل ، وشواهد المتحفرات على مستويات الانهار والبحار التى كانت أعلى فيما سبق من الأزمنة · وكان فى الشهرة التى حظى بها الكتاب ، وفى الدراسات التشريحية التى قام بها ستينو ، ما حمل الملك كرستيان الرابع على أن يعرض عليه كرسي التشريح فى جامعة كوبنهاجن · فقبله ، ولكن كاثوليكيته الغيور أحدثت شيئا من الاحتكاك ، فعاد الى فلورنسة ، وانتقل من العلم الى الدين ، واختتم حياته أسقفا لتيتوبوليس ونائبا رسوليا لشمالى أوربا ·

وكانت الجغرافيا خلال ذلك تنمو ، عادة بوصفها نتاجا جانبيا للمشروعات التبشيرية أو العسكرية أو التجارية ، وقد أخلص اليسوعيون للعلم اخلاصهم للدين أو السياسة تقريبا ، وكان كثير منهم ينتمون الى جماعات علمية رحبت بتقاريرهم الجغرافية والأثنوغرافية · وقد تغلغلوا فى بعثاتهم الدينية فى كندا والمكسيك والبرازيل والتبت ومنغوليا والصين وجمعوا وأرسلوا الكثير من المعارف العلمية ، ورسموا أفضل الخرائط للمناطق التى زاروها · وفى ١٦٥١ نشر مارتينو مارتينى « الاطلس الصينى » وهو أرقى وصف جغرافى للصين طبع الى ذلك التاريخ ، وفى ١٦٦٧ أصدر أثناسيوس كيرشر كتابه الرائع « الصين المصورة » · وأوفد لويس الرابع عشر علماء يسوعيين مزودين بأحدث الآلات لرسم خريطة الصين ثانية ، وفى ١٧١٨ أصدروا خريطة هائلة فى ١٢٠ فرخا تغطى الصين ومنشوريا ومنغوليا والتبت ، وقد ظلت مدى قرنين الاساس لكل ما تلاها من خرائط لتلك المناطق · أما أعجوبة العصر الخرائطية فهى الخريطة التى بلغ قطرها أربعة وعشرين قدما ، والتى رسمها جوفانى كاسينى ومساعدوه بالجير على أرضية مرصد باريس (حوالى ١٦٩٠) ، وبينوا عليها بالضبط مواقع جميع الاماكن الهامة على الكرة الارضية بخطوط العرض والطول (٣١) ·

وينتمى لهذه الفترة بعض مشاهير الرحالة · وقد ألمنا من قبل

بكتاب تافرنييه « ست رحلات من أوربا لآسيا » (١٦٧٠) وكتاب شاردان « رحلات فى فارس » (١٦٨٦) • كتب تافرنييه يقول « فى رحلاتى الست ، وأثناء سفرى بطرق مختلفة ، أتيح لى من الفراغ والفرص ما مكننى من مشاهدة تركيا كلها ، وفارس كلها ، والهند كلها ••• وفى المرات الثلاث الاخيرة جاوزت نهر الجنج الى جزيرة جاوة ، وهكذا قطعت فى اربعين عاما اكثر من ستين ألف فرسخ بالبر (٣٢) » • أما شاردان فقد سبق بعبارة واحدة « روح قوانين » مونتسكيو • قال : « ان مناخ كل جنس ••• هو دائما السبب فى ميول شعبه وعاداته (٣٣) » • وفى ١٦٧٠ - ٧١ نشر فرانسوا برنييه وصفا لرحلاته ودراساته فى الهند ، وقد اتهم بأنه نفض عنه مسيحيته فى الطريق (٣٤) • وغامر وليم دامبييه بالرحلة فى عشرات الاقطار والبحار ، وكتب « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) وأعطى اشارة البدء لديفو حين روى كيف قاد فى احدى رحلاته الاخيرة السفينة التى انقذت الكسندر سيلكرك من جزيرة لابسكنها غيره (١٧٠٩) •

ولعبت الجغرافيا دورها فى الغض من اللاهوت المسيحى • فكلما تجمعت الاخبار عن القارات الاخرى لم تملك الطبقات الأوربية المتعلمة الا العجب من اختلاف الاديان على ظهر الأرض ، والتشابه بين الخرافات الدينية ، ووثوق كل دين من صدق عقيدته ، والمستوى الخلقى للمجتمعات الاسلامية أو البوذية ، ذلك المستوى الذى أخزى من بعض الوجوه تلك الحروب الدامية وذلك التعصب القتال الذى يشين شعوبا وهبت الايمان المسيحى • وروى البارون دلاهونتان أنه فى رحلته فى كندا عام ١٦٨٣ لقى عنتا من جراء نقد الوطنيين الهنود للمسيحية (٣٥) ، واستشهد بيل المرة بعد المرة بعادات الصينيين أو اليابانيين وأفكارهم فى نقده المعتقدات وأساليب العيش الأوربية • وأصبحت نسبية الأخلاق من البديهيات فى فلسفة القرن الثامن عشر ، ووصف أحد الظرفاء أسفار « جاك سيدان » الخنثى ، الذى ابتهج حين وجد بلدا كل أهله لوطيون ، ينظرون الى الأوربيين الذين يشتهون الجنس الآخر نظرتهم الى هولات فاسقة مقززة •

٥ ـ الفيزيـــاء

كان اصطدام الفيزياء والكيمياء بالعقيدة القديمة أقل ظهورا من اصطدام الجغرافيا والاحياء بها ، لأنهما تتناولان الجوامد والسـوائل والغازات التى تبدو انها لا علاقة لها باللاهوت ، ولكن تقدم العلم ـ حتى فى ذلك المضمار المادى ـ كان ينشر حكم القانون ويضعف الايمان بالمعجزات • واعتمدت دراســة الفيزياء على الحاجات التجــارية والصناعية لا على الاهتمامات الفلسفية •

وبعد أن أقنع الملاحون الفلكيين برسم خرائط للسماء بدقة أكثر ، عرضوا الآن المكافآت على من يضع ساعة تعين على ايجاد خط الطول رغم اضطرابات البحر • وكان فى الامكان تحديد خط الطول فى البحر بمقارنة لحظة شروق الشمس أو الزوال بالزمن الذى تظهره فى تلك اللحظة ساعة ضبطت على وقت جرينتش أو باريس ، ولكن ما لم تكن الساعة دقيقة فان الحساب يخطىء خطأ خطرا • وفى ١٦٥٧ توصـل هويجنز الى صنع ساعة يعتمد عليها بوصـل بندول بترس شــاكوش مسنن، ولكن ساعة كهذه عديمة النفع فى مركب يعلو ويهبط × • وبعد محاولات كثيرة ، ركب هويجنز ساعة بحرية ناجحة باحلاله محـــل البندول ترس توازن يديره زنبركان • وكانت الفكرة من بين الاقتراحات المنيرة التى فصلها فى كتاب من عيون العلم الحديث « ساعة البندول » ، وقد نشره فى باريس عام ١٦٧٣ • وبعد ثلاث سنوات اخترع هوك شاكوش الساعات الكبيرة المثبت ، واستعمل الزنبرك اللولبى على ترس توازن الساعات ، وشرح حركة الزنبرك على أساس مبدأ « كما يكون الشـــد تكون القوة » ومازال هذا يسمى قانون هوك • وأمكن الآن أن تصـنع ساعات الجيب صناعة أكفأ وأرخص من ذى قبل •

وقد درس هويجنز فى كتاب « ساعة البندول Horologium

× رسم ليوناردو دافنشي حوالى عام ١٥٠٠ رسوما لبندول وشاكوش ساعة ووضع جاليليو بعض قوانين البندول ، وتصور فكرة ساعة البندول فى ١٦٤١ ، ولكنه مات قبل أن يطبق الفكرة عمليا • وفى ١٦٥٦ صنع كاميرينى ساعة صغيرة ببندول قبل هويجنز ببضعة شهور فقط •

وفى كتيب خاص قانون القوة المركزية الطاردة - ومؤداه أن كل جزىء فى جسم دائر لا يقع فى محور الدوران معرض لقوة طرد مركزية تزداد مع بعده عن المحور ومع سرعة الدوران . وصنع كرة من طفـــل تدور بسرعة ، ووجد أنها تتخذ شكلا كروانيا مفرطحا عند طرفى المحور . وعلى مبدأ الطرد المركزى هذا فسر فرطحة المشترى عند قطبيه ، وقياسا على ذلك استنتج ان الأرض أيضا لابد أن تكون مفرطحة فرطحة طفيفة عند القطبين .

وواصل كتاب **هويجنز** Tractatus de Motu Corporum ex Percussione (١٧٠٣) الذى نشر بعد موته بثمانى سنوات ، الدراسات التى قام بها جاليليو ، وديكارت ، ووااليس فى مشكلات التصادم (impact) التى تناولت أسرارا مثيرة للفضول ، من لعب البليـــارد الى تصـــادم النجوم . فكيف تنتقل القوة من جسم متحرك الى جسم يضربه ، ولم يحل هويجنز اللغز ،ولكنه قرر مبادىء أساسية :

١ - اذا كان هناك جسم ساكن وصدمه جسم مساو له ، فان هذا ينتهى الى السكون بعد الصدمة ، فى حين يكتسب الجسم الذى كان فى البدء ساكنا سرعة الجسم الذى صدمه .

٢ - اذا اصطدم جسمان متساويان بسرعتين مختلفتين ، فانهما يتحركان بعد الصدمة بسرعتين متبادلتين .

١١ - اذا تصادم جسمان فان مجموع حاصل ضرب الكتلتين فى مربعى سرعتيهما واحد قبل الصدمة وبعدها .

وقد عبرت هذه القضايا التى صاغها هويجنز فى ١٦٦٩ تعبير جزئيا عن أشمل أساس من أسس الفيزياء الحديثة ، وهو عدم فنـــاء الطاقة . على أنها كانت صادقة من الناحية المثالية أو النظرية فقط ، لأنها أفترضت المرونة التامة فى الاجسام . ولـــا لم يكن فى الطبيعة جسم مرن مرونة كاملة ، فان السرعة النسبية للاجسام الصادمة تتناقص حسب المادة التى تتألف منها . وقد حدد نيوتين معدل التناقص هـــذا فى الخشب ، والفلين ، والصلب ، والزجاج ، فى التعليق التمهيدى للجزء الاول من كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) .

وتدفق نهر آخر من أنهار البحث العلمي من التجارب التى اجراها توريتشللى وبسكال على الضغط الجوى ، فقد أعلن بسكال فى ١٦٤٧ أن « أى اناء مهما كان كبره ، يمكن افراغه من كل مادة معـــروفة فى الطبيعة ومدركة بالحواس (٣٧) » وقد ظلت الفلسفة الأوربية مئـــات السنين تعلن أن « الطبيعة تكره الفراغ » ، وحتى الآن أخبر أســـتاذ باريسي بسكال أن الملائكة ذاتها لا تستطيع أن تحدث فراغـــا ، وقال ديكارت بازدراء ان الفراغ الوحيد الموجود هو فى رأس بسكال • ولكن حدث حوالى عام ١٦٥٠ أن أوتو فون جويريكى ركب فى مجـــدبورج مضخة هوائية أحدثت فراغا كاملا تقريبا ، حتى لقـــد أدهش كبـــار مواطنيه وأقطاب العلم بتجربة شهيرة اسمها « نصفا كرة مجدبورج » (١٦٥٤) • ففى حضرة الامبراطـــور فردينـــــاند الثـــالث والديت الامبراطورى فى راتزيون قرب محارتين نصـــف كرويتين من البرونز الواحدة من الاخرى بحيث أحكم خنمهما دون أن يوصلا آليا عند حافتيهما وضخ كل الهواء تقريبا من داخليهما الملتصقين ، ثم أرى الحاضرين أن القوة المجتمعة لستة عشر حصانا ـ ثمانية منها تشد فى اتجاه ، وثمانية فى اتجاه مضاد ـ لا تستطيع فصل نصفى الكرة ، ولكن حين فتح محبس فى أحد النصفبن فأدخل الهواء ، أمكن فصل المحارتين باليد •

وكان جويريكى شغوفا بتبسيط الفيزياء للأباطرة • فاســـتطاع بتفريغ كرة نحاسية من الماء والهواء أن يجعلها تسقط بفرقعة عاليـــة مفزعة ، وبهذه الطريقـــة أوضـــح ضغط الهواء • ووازن بين كرتين متساويتين ، وأسقط احداهما بتفريغه الهواء من الاخـــرى ، وهكذا أثبت أن للهواء وزنا ، واعترف بأن كل الفراغات ناقصة ، ولكنه أثبت أن فى فراغاته الناقصة تلك تنطفىء الشعلة ، وتختنق الحيـــوانات ، وتسكت الساعة الدقاقة ، وهكذا مهد للكشف عن الاوكسجين ، وبين أن الهواء ناقل الصوت • واستعمل امتصاص الفـــراغ لضخ الماء ورفـــع الاثقال ، وأسهم فى التمهيد للآلة البخارية • فلمـــا أصـــبح عمـــدة مجدبورج آخر نشر كشوفه حتى عام ١٦٧٢ ، ولكنه أبلغها لكاسبار شوت أستاذ الفيزياء اليسوعى بفورتزبورج ، الذى طبع وصـــفا لهـــا فى ١٦٥٧ • وهذا المطبوع هو الذى حفز بويل الى بحوثه التى أفضت الى قانون الضغط الجوى •

أما روبرت بويل فكان عاملا هاما فى ازدهار العلم الانجليزى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر • كان أبوه رتشرد بويل ، ايرل كورك ، قد اقتنى ضيعة كبيرة فى ارلنده ، ورث روبرت معظمها وهو فى السابعة عشرة (١٦٤٤) ، وفى زياراته المتكررة للندن تعرف الى واليس ، وهوك ، ورن ، وغيرهم من أعضاء « الكلية غير المنظورة»، فلما افتتن بجهودهم وتطلعاتهم انتقل الى اكسفورد وبنى بها مختبرا (١٦٥٤) • وكان رجلا ذا حماسات حارة وورع لا قبل لعلم من العلوم بتدميره • فقد رفض أن يمضي فى الاتصال بسبينوزا (عن طريق أولدنبورج) حين علم أن الفيلسوف يعبد « الجوهر » باعتباره الله ، ولكنه وضع قدرا كبيرا من ثروته فى خدمة العلم وأعان الكثيرين من أصحابه • كان طويلا ، نحيلا ، هزيلا معتلا أكثر الوقت ، ولكنه أوقف الموت على مبعدة منه بالحمية والتقشف الصارمين ، وقد وجد فى مختبره « ماء نهر النسيان ، ذلك الماء الذى ينسينى كل شيء الا بهجة اجراء التجارب (٣٨) » •

وبعد أن سمع بويل بمضخة جويريكى الهوائية ، صمم بمساعدة هوك (١٦٥٧) « آلة هوائية » لدراسة خواص الغلاف الغازى • وبهذه الآلة وما تلاها من مضخات أثبت أن عمود الزئبق فى البارومتر يسنده الضغط الجوى ، وقاس بالتقريب كثافة الهواء • وزاد على تجربة جاليليو المزعومة فى بيزا باثباته أن حزمة الريش تسقط بنفس سرعة سقوط الحجر ، حتى فى فراغ غير كامل • وبرهن على أن الضوء لا يتأثر بالفراغ ، واذن فهو لا يستعمل الهواء كما يستعمله الصوت وسيطا لانتقاله ، وأيد برهان جويريكى على أن الهواء لا غنى عنه للحياة (فحين أغمى على فأر فى الحجرة المفرغة ، أوقف التجربة وانعشه بادخال الهواء) • ونحن نرى دولية العلم فى تحركها حين نعلم أن جويريكى حفزته جهود بويل ليصمم مضخة هوائية أفضل ويستأنف دراساته العلمية ، وأن هويجنز ، بعد زيارته لبويل عام ١٦٦١ ، أغرى بصنع آلات شبيهة والقيام باختبارات مماثلة •

ومضي بويل فى أبحاثه الخلاقة فى الانكسار ، والبللورات ، والاوزان النوعية ، والهيدروستاتيكا ، والحرارة • وتوج اسهاماته فى الفيزياء بصياغته القانون الذى يحمل اسمه : وهو أن ضغط الهواء أو

أى غاز يتناسب تناسبا عكسيا مع حجمه - أو أن ضغط الغاز مضروبا فى حجمه يكون ثابتا عند درجة حرارة ثابتة ٠ وقد أذاع هذا المبـدأ أول مرة فى ١٦٦٢ ، وفى سماحة وكرم نسب الفضل فيه الى تلميذه وتشرد تاونلى ٠ وكان هوك قد توصل الى الصيغة ذاتهـا فى ١٦٦٠ بتجارب مستقلة ، ولكنه لم يذعها الا فى ١٦٦٥ ٠ وتوصل قس فرنسي يدعى ادمى ماريوت فى نحو الوقت الذى توصل فيه بويل الى نتيجة مماثلة ، وهى « ان الهواء ينضغط حسب الثقل الواقع عليه » ، ونشر هذا فى ١٦٧٦ ، واسمه لا اسم بويل هو المرتبط فى القارة بقـانون الضغط الجوى ٠ وأيا كان صاحب الفضل فى القانون ، فانه كان من أسلاف الآلة البخارية والثورة الصناعية ٠

وتابع بويل وهوك رأى بيكون فى ان « الحرارة حركة تمـدد لا فى الجسم كله بشكل منتظم ، بل فى أجزائه الصغرى (٣٩) » ٠ وقد وصف هوك الحرارة بأنها « خاصية تنشأ فى جسم ما من حـركة أجزائه أو هيجانها » ، وميز بينها وبين النار واللهب ، اللذين نسبهما الى فعل الهواء فى الاجسام المحماة ٠ قال « كل الاجسام لها درجـة ما من الحرارة فيها » وذلك لأن « أجزاء جميع الاجسام وان لم تكن شديدة الصلابة الا أنها تتذبذب قطعـا (٤٠) » ، أما البرودة فليست الا مفهوما سلبيا ٠ وسلى ماريوت أصحابه حين أراهم أن « البرودة » يمكن أن تحترق ، فبلوح مقعر من الثلج ركز ضوء الشمس على البارود فانفجر ٠ وقد أذاب الكونت ايرنفريد فالتر فون تشيرنهاوس ، صديق سبينوزا ، الخزف الصينى والريالات الفضية بتركيزه ضـوء الشـمس عليهـا ٠

وفى فيزياء الصوت برهن انجليزيان - هما وليم نوبل وتوماس بيجوت - كل على حدة (نحو ١٦٧٣) على أن أجـزاء مختلفة من الوتر ، لا الوتر كله فحسب ، قد تتذبذب بنغمات توافقية ، تجاوبا مع وتر قريب ومتصل ، ينقر أو يضرب أو يثنى ٠ وقد اقترح ديكارت هذا على ميوسين ، وعملا بهذه الفكرة توصل جوزف سوفير ، مستقلا الى نتائج شبيهة بما توصل اليه الانجليزيان (١٧٠٠) ، ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن سوفير ، الذى كان أول من استعمل كلمة acoustics « السمعيات » ، كان أصم أبكم منذ ولادته (٤١) ٠ وفى ١٧١١ اخترع

جون شور الشوكة الرنانة • وقام بوريللى ، وففيانى ، وبيكار ، وكاسينى ، وهويجنز ، وفلامستيد ، وبويل ، وهالى ، ونيوتن ، بمحاولات فى هذه الفترة لايجاد سرعة الصوت • وكان أقرب تقدير لتقديرنا الحالى هو تقدير بويل ، الذى قرر أنها تبلغ ١٢٦ر١ قدما فى الثانية • وقرر وليم ديرام (١٧٠٨) أن هذه المعرفة يمكن الانتفاع بها فى حساب بعد العاصفة بملاحظة الفترة بين وميض البرق والصاعقة •

ولعل النصف الثانى من القرن السابع عشر أزهى فترة فى تاريخ فيزياء الضوء ، فاولا ، ما هذا الضوء ؟ لقد غامر هوك ، وهو المستعد دائما للتنقيب عن الصعوبات ، برأى يزعم أن الضوء « ليس الا حركة خاصة لأجزاء الجسم المضيء (٤٢) » - أى أن الضوء لا يختلف عن الحرارة الا فى الحركة الاسرع التى تتحركها الجزيئات× المكونة للجسم • ثانيا ، ما مدى سرعة تحركه ؟ لقد افترض العلماء الى ذلك الحين أن سرعة الضوء غير محدودة ، وحتى هوك المغامر قال انها على أية حال أكبر من أن تقاس • وفى ١٦٧٥ برهن فلكى دنمركى يدعى أولاوس رويمر ، استقدمه بيكار الى باريس ، على سرعة الضوء المحدودة، اذ لاحظ أن فترة خسوف أقرب التوابع الى قلب المشترى تتفاوت حسب اقتراب الارض أو ابتعادها من ذلك الكوكب • وقد أثبت بحسابات مبنية على زمن دورة التابع وقطر فلك الارض ، أن التفاوت فى زمن الخسوف الملحوظ راجع الى الزمن الذى يستغرقه الضوء من التابع ليقطع فلك الارض ، وعلى هذا الاساس الهزيل حسب سرعة الضوء بنحو ١٢٠٠٠٠ر١٢٠ ميل فى الثانية (وتقديرنا الحالى يبلغ ٠٠٠ر١٨٦ ميل) •

ولكن كيف ينتقل الضوء ؟ أيتحرك فى خطوط مستقيمة ، اذا كان الأمر كذلك فكيف يدور حول الزوايا ؟ لقد اكتشف فرانشسكو جريمالدى ، الاستاذ اليسوعى ببولونيا ، (١٦٦٥) ظاهرة الانحراف

× قارن المفهوم الحالى للضوء ، وهو أنه طاقة مشعة مرئية • فكل الاجسام يعرض انها ترسل باستمرار طاقة مشعة • والاشعاع من أجسام أدفأ من جسم الانسان نحس بها الجلد حرارة ، ولكن اذا زيدت درجة حرارة الجسم زيادة كافية أصبح مضيئا - أى أن بعض اشعاعه المنبعث تحسه العين ضوءا •

وسماها — وهى أن أشعة الضوء المارة من ثقب صغير الى حجرة مظلمة تنتشر على الحائط المواجه باتساع أكبر مما تتيحه الخطوط المستقيمة من المصدر الى الحائط ، وأن أشعة الضوء تنحرف انحرافا طفيفا عن الخط المستقيم حين تمر بأطراف جسم معتم ، وقد أفضت هذه الكشوف وغيرها بجريمالدى الى قبول الرأى الذى ألمع اليه ليوناردو دافنشي ، وهو أن الضوء يتحرك فى موجات متسعة • ووافق هوك ، ولكن هويجنز هو الذى أثبت نظرية الموجات التى مازالت شائعة بين الفيزيائيين •
وفى كتاب آخر من عيون العلم الحديثة بدعى « رسالة فى الضــوء » (١٦٩٠) أورد هويجنز النتائج التى توصل اليها من دراســـات بدأت قبل اثنتى عشرة سنة : وهى أن الضوء تنقله مادة افتراضية ســـماها « الأثير » (عن المرادف اليونانى للسماء) ، وتصور أنها تتألف من أجسام صغيرة ، قاسية ، مرنة ، تنقل الضــوء فى موجـــات دائرية متعاقبة تنتشر خارجة من المصدر المضيء • وعلى هذه النظرية أسس قوانين الانعكاس ، والانكسار المزدوج ، وعزا للحركة المغلفة للأمواج قدرة الضوء على الحركة حول الاركان والاجســـام المعتمـــة ، وفسر الشفافية بأن افترض أن جزيئات الاثير من الدقة بحيث تســـتطيع أن تعافر حول الجزيئات التى تؤلف السوائل والجوامد الشفافة وبينها • ولكنه اعترف بعجزه عن تعليل الاستقطاب ، وهذا من أسـباب رفض نيوتن لفرض الموحات وتفضيله نظرية الجريئات الضوئية •

ولم يحرز القرن السابع عشر غير تقدم متواضع فى دراســـة الكهرباء بعد العمل الذى قام به جلبرت وكيرشر فى ميدان المنغنطيسية ، وكابيو فى التنافر الكهربى • وقد درس هالى تأثير المغنطيسية الارضية فى ابر البوصلة ، وكان أول من تبين الصـــلة بين مغنطيسية الأرض والفجر الكاذب *aurora borealis* (١٦٩٢) • ووصف جويريكى فى ١٦٧٢ بعض تجاربه فى كهرباء الاحتكاك • فالكرة من الكبريت ، بعد أن أديرت على يده ، جذبت الورق ، والريش ، وغيرهما من الاجسام الخفيفة ، وحملتها معها فى دورانها ، وقد ربط بين هذا وبين حركة الارض اذ تحمل معها الاجسام التى على سطحها أو بقربه • وتحقق من التنافر الكهربى اذ أثبتت أن الريشة اذا وضعت بين الكرة المكهـــربة وأرضية الحجرة تقفز الى أعلى وأسفل من الواحدة الى الأخرى • وكان رائدا فى دراسة التوصيل ، اذ برهن على أن الشحنة الكهربية تستطيع

أن تسافر على خيط من الكتان ، وان الأجسام يمكن أن تتكهرب بتقريبها من الكرة المكهربة · وقد ابتكر فرانسس هوكسبى ، عضو الجمعية الملكية (١٧٠٥ — ٩) طريقة أفضل لتوليد الكهرباء بادارته كرة زجاجية مفرغة دورانا سريعا ، ثم وضعها على يده ، وقد انبعث من الاحتكاكات ترر طوله بوصة أحدث ضوءا يكفى للقراءة · وشبه انجليزى آخر يدعى وول ، صوت وضوء شرر مماثل أحدثه ، بالرعد والبرق (١٧٠٨) · وعقد نيوتن نفس المقارنة فى ١٧١٦ ، وأكد فرانكلن العلاقة فى ١٧٤٩ · وهكذا نرى الكون الهائل المستغلق ، سنة بعد سنة ، وعقلا بعد عقل ، يفضي بنتفه مغرية من سره المكنون ·

٦ — الكيمياء

شهد هذا القرن الرائع علم الكيمياء يتطور من تجارب الخيمياء وأوهامها · وكانت الصناعة منذ زمن تجمع المعرفة الكيميائية عن طريق عمليات صهر الحديد ، ودبغ الجلود ، ومزج الاصباغ ، وتخمير الجعة ، ولكن فحص المواد فى تركيبها ، واتحادها ، وتحولها ، كان فى أغلبه متروكا للمشتغلين بالخيمياء الباحثين عن الذهب ، أو للصيادلة المجهزين للعقاقير · أو للفلاسفة — من ديموقريطس الى ديكارت — الحائرين فى تركيب المادة · وقد حاول اندرياس ليبافيوس فى ١٥٩٧ ، وجان فان هيلمونت فى ١٦٤٠ ، الدخول الى علم الكيمياء ، ولكن كلا الرجلين شارك الخيميائيين أملهم فى تحويل المعادن « الخسيسة » ذهبا · وقام بويل نفسه بتجارب بهذا الهدف · ففى ١٦٨٩ حصل على الغاء لقانون انجليزى قديم ضد «تكثير الذهب والفضة (٤٣) » ، وعند وفاته (١٦٩١) خلف لمنفذى وصيته كمية من التراب الاحمر وتعليمات بمحاولة تحويلها الى ذهب (٤٤) · والآن وقد أصبح تحويل المعادن « كلشيها » للكيمياء ، فان فى وسعنا أن نشيد بالعلم الذى انطوت عليه الخيمياء بينما ندين اللهفة على الذهب ونخفيها ·

وكانت أعظم لطمة وجهت الى الخيمياء هى نشر كتاب بويل « الكيميائى الشكاك » (١٦٦١) وهو أول كتاب من عيون تاريخ

الكيمياء . وقد اعتذر فيه عن « السماح » لبحثه هذا « بأن يذاع وهو مبتور ناقص على هذا النحو (٤٥) » . ولكنه - وهو يعانى من علل كثيرة - عديم الثقة فى أنه سيعمر طويلا . على أن مما يعـــزيه « أن يلحظ أن الكيمياء بدأت أخيرا تحظى بما هى جديرة به حقا من رعاية العلماء الذين كانوا من قبل يحتقرونها (٤٦) » . ووصف كيمياءه بأنها شكاكة لأن من رأيه رفض جميع التفسيرات الغيبية والخصائص السحرية لأنها « محراب الجهل » وهو مصمم على الاعتماد على « التجـارب لا الأقيسة المنطقية (٤٧) » . وقد هجر ذلك التقسيم التقليدى للمادة الى العناصر الاربعة ، الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب : وقال ان هذه مركبات لا عناصر ، أما العنـــاصر الحقيقية فهى على الأصـــح « أجسام معينة بدائية وبسيطة ، أو غير مختلطة اطلاقا ، ولأنها ليست مؤلفة من أى أجسام أخرى أو من بعضـــها البعض » فهى المكونات لجميع المركبات ، ويمكن ن تحلل اليهاكل المركبات . ولم يقصـد أن العناصر هى المكونات النهائية للمادة ، فهـــذه العناصر الطبيعيـة المتناهية الصغر هى فى رأيه جزيئات دقيقة لا ترى بالعين المجردة ، مختلفة شكلا وحجما ، كذرات لوكيبوس . ومن تنوع هذه الجزيئات وتحركها ، ومن اتحادها فى « كريات » ، تنشأ كل الاجسام ، وكل صفاتها وأحوالها ، كاللون ، والمغنطيسية ، والحـــرارة ، والنار ، وذلك بطرق وقوانين ميكانيكية خالصة .

وقد استهوت النار العلماء استهواءها للحالمين عند المدافىء . فما الذى يجعل المادة تحترق ؟ وما تفسير هذه الالسنة الدائمة التغير من اللهب الجميل ، العاتى ، الرهيب ؟ فى سنة ١٦٦٩ رد كيميائى ألمانى يدعى يوهان بيشير كل « العنــاصر » الى عنصرين - المـــاء والتراب ، وسمى شكلا من أشكال التراب ، « التراب الزيتى »، الذى اعتقد بوجوده فى جميع الاجسام القابلة للاشتعال ، وهــذا هو الذى يحترق . وفى القرن الثامن عشر سنرى جيورج شتال - الذى اتبـع هذا الرأى الخاطىء - ينحرف بالكيمياء عشرات السنين بنظـــرية مماثلة هى نظرية اللاهوب phlogiston . على أن بويل سـلك مسلكا آخر . فقد لاحظ أن مواد محترقة مختلفة تكف عن الاحتراق فى الفراغ ، فاستنتج أن « فى الهواء جوهرا حيويا صغيرا ... يعين

على انعاش حيويتنا واسترجاعها (٤٨) » • وتقدم معاصره الاصغر جون مايوو ، وكان هو أيضا ينتمى للجمعية الملكية ، (١٥٤٧) صوب نظريتنا الحالية عن النار بأن افترض أن من بين مكونات الهواء مادة تتحد بالمعادن حين تتكلس (تتأكسد) ، واعتقد ان مادة مماثلة تدخل أجسامنا فتغير الدم الوريدى الى دم شريانى • وكان لابد أن تنقضي مائة عام قبل أن يكتشف شيل وبريستلى الأوكسجين نهائيا •

وحوالى عام ١٦٧٠ اكتشف كيميائى ألمانى يدعى هينيج براند أن فى استطاعته أن يحصل من بول الانسان على مادة كيميائية تتوهج فى الظلام دون تعريض تمهيدى للضوء • وعرض كيميائى من درسدن يدعى كرافت هذا النتاج الجديد أمام تشارلز الثانى بلندن فى ١٦٧٧ • ولم يستطع بويل أن يستخلص من كرافت المتكتم الا الاعتراف بأن المادة المضيئة « شيء ينتمى الى جسم الانسان (٤٩) » • وكان فى الاشارة ما يكفى ، فسرعان ما حصل بويل على كميته من الفوسفور ، وأثبت بسلسلة من التجارب كل ما نعرفه الى الآن عن توهج ذلك العنصر • وكان النتاج الجديد يكلف المشترين ست جنيهات (٣١٥ دولارا ؟) للأوقية رغم وفرة مصدره •

٧ ـ التكنولوجيا

كانت الصناعة ـ الى القرن التاسع عشر ـ تحفز العلم أكثر مما يحفز العلم الصناعة ، وكانت المخترعات الى القرن العشرين تخترع فى المختبر أقل مما تخترع فى المتجر أو الحقل • ولعل العمليتين سارتا جنبا الى جنب فى أهم الحالات جميعا ، وهى تطوير الآلة البخارية •

وقد صنع هيرو الاسكندرى ، فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، عدة آلات بخارية ، ولكنها على قدر علمنا كانت تستعمل لعبا أو عجائب تسلى الجماهير أكثر منها أجهزة تحل محل الطاقة البشرية • وفى أوائل القرن السادس عشر وصف ليوناردو دافنتشي بندقية تستطيع بضغط البخار أن تدفع مسمارا جديديا مسافة ألف ومائتى ياردة ، ولكن مخطوطاته العلمية لم تنشر الا عام ١٨٨٠ • وقد ترجمت بعض كتابات هيرو اليونانية الى اللاتينية فى ١٥٧٥ ، والى الايطالية فى ١٥٨٩ •

وذكر جيروم كاردان (١٥٥٠) وجامباتستا ديللا بورتا (١٦٠١) أن فى الامكان احداث فراغ بتكثيف البخار ، ووصف بورتا آلة لاستخدام ضغط البخار لرفع عمود من الماء • ومثل هذه الاستخدامات للبخار المتمدد اقترحها سالومون دكاوس بباريس فى ١٦١٥ وبرانكا بروما فى ١٦٣٠ • وحصل ديفد رامسي من تشارلز الاول ملك انجلترة على براءة بآلات « لرفع الماء من الحفر المنخفضة بالنار ••• وتشغيل أى نوع من المصانع على المياه الساكنة بالحركة المستمرة ، دون مساعدة من الرياح أو الاثقال أو الخيل (٥٠) » • وفى ١٦٦٣ حصل ادوارد سومرست ، مركيز ورستر ، من البرلمان على احتكار مدته تسعة وتسعون عاماً لـ « أعجب عمل فى العالم كله » ـ وهو « آلة تتحكم فى الماء » ترفع الماء لارتفاع أربعين قدما (٥١) ، وبهذه الآلة أراد أن يشغل المصانع المائية لجزء كبير من لندن ، ولكنه مات قبل أن ينفذ خطته • وحوالى ١٦٧٥ اخترع صموئيل مورلاند ، كبير ميكانيكية تشارلز الثانى ، المضخة الكابسة ، وفى ١٦٨٥ نشر أول وصف دقيق لقوة تمدد البخار • وفى ١٦٨٠ صنع هويجنز أول آلة غازية باسطوانة ومكبس تدار بالقوة المددة للبارود المتفجر •

وذهب دنى بابان ، المساعد الفرنسي لهويجنز ، الى انجلترة واشتغل مع بويل ، ونشر عام ١٦٨١ وصفا لـ « مهتضمة digester » ـ وهى حلة ضغط لتطرية العظم بماء يغلى فى اناء مقفل • ولكى يمنع انفجار الاناء وصل بقمته انبوبة يمكن ان تفتح اذا بلغ الضغط نقطة معينة ، وقد لعب « صمام الأمن » الأول هذا دورا منقذا فى تطوير الآلة البخارية • وزاد بابان على ذلك بأن أثبت أن قوة البخار يمكن نقلها غازيا بأنبوبة من مكان لآخر • ولما انتقل الى ماربورج بالمانيا عرض (١٦٩٠) أول آلة استعمل فيها تكثيف البخار ، الذى يحدث فراغا ، لدفع مكبس • وقد ألمع الى قدرات هذه الآلة على قذف القنابل ، ورفع المياه من المناجم ، ودفع المراكب بعجلات تغديف ، وفى ١٧٠٧ (أى قبل قرن بالضبط من ابحار سفينة فولتون « كليرمون » مصعدة على نهر هدسون) استخدم آلته البخارية فى تسيير زورق بدولاب تغديف على نهر فولدا بكاسل (٥٢) • ولكن الزورق تحطم ، وثبط الحكام الالمان تطوير القوة المكنية لاطمئنانهم الى الاوضاع الراهنة آنئذ ، وربما لخوفهم من انتشار البطالة .

وعرض توماس سافوى على مجلس البحرية بانجلترة جهازا مماثلا حوالى ١٧٠٠ ، ولكن الجهاز رفض بهذا التعليق - فيما روى - « أى شأن للمتطفلين الذين لا صلة لهم بنـا بتصميم أو اختراع أشياء لنا ؟ (٥٤) » وقدم سافوى عرضا لاختراعه على نهر التيمز ، ولكن البحرية رفضته ثانية • وفى ١٦٩٨ سجل أول آلة بخارية استعملت فعلا فى ضخ الماء من المناجم • وفى ١٦٩٩ منح براءة خولت له لمدة أربعة عشر عاما « احتكار استعمال اختراع جديد ••• لرفع الماء واحداث الحركة بقوة النار الضاغطة ، سيكون ذا فائدة كبرى فى نزح المناجم ، وتوفير المياه للمدن ، وتشغيل المضانع بجميع أنواعها (٥٥) » على أنه تبين أن آلات سافوى غالية وخطرة • فقد كان لها صنابير للقياس ولكن لم يكن لها صمامات آمن ، وكانت عرضة لانفجارات الغلايات ، ومع أنها استخدمت فى بعض المناجم لنزح الماء منها ، الا أن أصحاب المناجم عادوا سريعا الى استخدام الخيل فى هذه المهمة •

عند هذه النقطة من القصة نلتقى مرة أخرى بروبرت هوك • ويروى معاصر موثوق بروايته أنه حوالى ١٧٠٢ كان يتبادل الرسائل مع تاجر حديد وحداد يدعى توماس نيوكومن حول امكان استخدام مبدأ المضخة الهوائية فى احداث القوة المكنية • كتب يقول « اذا استطعت أن تحدث فراغا سريعا تحت اسطوانتك الثانية انتهى عملك (٥٦) » ويلوح ان نيوكومن كان يجرى تجارب على آلة بخارية ، هنا اتصل العلم والصناعة اتصالا مرئيا • ولكن هوك كان شكاكا ، فتخلى عن التجربة، وفاتته فرصة مرة أخرى • وانضم نيوكومن الى سمكرى يدعى جون كولى فى صنع آلة بخارية (١٧١٢) - بذراع متذبذب ، ومكبس ، وصمام أمن - يمكن الركون اليها فى القيام بعمل شاق دون خطر الانفجار ، وبقدرة كاملة على التحكم الذاتى • واستمر نيوكومن حتى وفاته (١٧٢٩) فى تحسين آلته ، ولكن فى وسعنا أن نؤرخ - من براءة سافوى فى ١٦٩٩ ، وآلة نيوكومن فى ١٧١٢ - ، بداية الثورة الصناعية التى ستغير فى القرنين التاليين وجه الدنيا وهواءها •

٨ - الاحيـاء

حدث جماعة الباحثين الممتازة التى صنعت مجد الجمعية الملكية

أبحاثها الى علوم الحياة • فأوضح هوك بالتجربة ما قرره من قبل السر كينيلم ديجبى ـ ذلك « المشعوذ الكبير » كما دعاه ايفلين(٥٢) : وهو أن النباتات تحتاج الى الهواء لتحيا • فعرض بذرة خس فى التربة فى العراء ، وفى نفس الوقت بذرة مماثلة فى تربة مماثلة فى حجرة مفرغة ، ونمت البذرة الاولى بوصة ونصفا فى ثمانية أيام ، أما الثانية فلم تنم على الاطلاق • ووحد هوك بين جزء الهواء المستعمل فى الاحتراق وبين الجزء المستعمل فى تنفس النبات والحيوان ، ووصف هذا الجزء المستهلك بأنه نترى الطبيعة (١٦٦٥) • وأوضح أن الحيوانات التى توقف تنفسها يمكن الابقاء على حياتها بنفخ الهواء فى رئاتها بمنفاخ • واكتشف البناء الخلوى للنسيج الحى ، وأخترع لفظ « الخلية cell » لدلالة على مركباته العضوية • ورأى أعضاء الجمعية من خلال مكروسكوبه فى ابتهاج خلايا الفلين الذى قدر هوك أن البوصة المكعبة منه تحوى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ر١ خلية • ودرس هسنولوجيا (علم الانسجة) الحشرات والنباتات ، وعرض رسوما طريفة لها فى كتابه « ميكروجرافيا » • لقد وقف هوك دائما قاب قوسين أو أدنى من جاليليو ونيوتن •

وأسهم عضو آخر فى الجمعية هو جون راى فى اضفاء الشكل الحديث على علم النبات • وكان ابن حداد ، ولكنه شق طريقه الى كمبردج ، وأصبح زميلا لكلية ترنتى ، ورسم قسا انجليكانيا • وقد أخلص للدين والعلم على السواء ، شأنه فى ذلك شأن بويل • واستقال من زمالته لأنه أبى التوقيع على « قانون التوافق » (١٦٦٢) الذى يتعهد موقعه بعدم مقاومة تشارلز الثانى ، وانطلق مع تلميذه فرانسس ويلاجبى فى رحلة يجوبان فيها أوربا لجمع البيانات اللازمة لوصف منظم لملكتى الحيوان والنبات • واضطلع ويلاجبى بعلم الحيوان ، ولكنه مات بعد أن أكمل الفصول الخاصة بالطيور والأسماك • وفى ١٦٧٠ أصدر راى " Catalogus Plantarum Angliae قائمة بنبات انجلترة » أصبحت اطار علم النبات الانجليزى • واقترح راى « طريقة جديدة لتقسيم النبات » ـ مستعينا فى ذلك بما وضعه يواقيم يونجيوس فى ١٦٧٨ من مصطلحات محسنة وتصنيف منقح ، فقسم كل الزهريات الى ثنائية الفلقة dicotyledons وآحادية الفلقة monocotyledons

حسب ورقتيها أو ورقتها الجنبية المرافقة للبذور . وأكمل مهمته الكبرى فى رائعة من روائع العلم الحديث ، هى كتابة الضخم ذو المجلدات الثلاثة « Historia Generalis Plantarum تاريخ النبات العام » (١٦٨٢ - ١٧٠٤) ، الذى وصف ١٨٫٦٢٥ نوعا من أنواع النبات . وكان راى أول من استعمل كلمة « نوع species » بمعناها البيولوجى ، وهو مجموعة من الكائنات الحية مشتقة من والدين مماثلين وقادرة على توليد نوعها . وهذا التعريف ، مضافا اليه ما أتى به ليناوس بعد ذلك من تصنيف (١٧٥١) ، هيأ للجدل حول أصل الأنواع وقابليتها للتغير ، وفى غضون ذلك نشر وحقق مخطوطات ويلاجبى عن علم الأسماك ichthyology وعلم الطيور ornithology وأضاف موجزا منهجيا عن ذوات الاربع (١٦٩٣) فأتاح لعلم الحيوان الحديث أول تصنيف علمى حقيقى للحيوان (٥٨) . لقد كان النظام أول القوانين عند راى .

وقد تبين علماء النبات ، حتى فى العصور القديمة ، أن بعض النباتات يجوز أن توصف بأنها مؤنثة لأنها تحمل ثمرا ، وبعضها مذكرة لأنها لا تثمر ، ولاحظ تيوفراستوس فى القرن الثالث قبل المسيح أن نخلة البلح لا تثمر الا اذا هز فوقها طلع الذكر ، ولكن هذه الافكار كانت قد نسيت تقريبا . وفى ١٦٨٢ أضاف نحميا جرو عضو الجمعية الملكية سحرا جديدا للزهور بتأكيد جنسانية النباتات تأكيدا قاطعا . ذلك أنه فى دراسته نسيج النبات تحت المكروسكوب ، لاحظ المسام التى فى السطح الاعلى للاوراق ، وألمح الى أن الاوراق أعضاء التنفس . ووصف الازهار بأنها أعضاء التناسل ، فالمدقة pistil مؤنثة ، والسداة stamen مذكر ، واللقاح pollen بزرة . وافترض خطأ أن جميع النباتات خنثوية hermaphrodites ، تجمع بنيتى الذكر والأنثى فى كائن حى واحد . وفى ١٦٩١ أثبت رودلف كاميراريوس ، أستاذ النبات فى توبنجن ، بشكل قاطع جنسانية النباتات (sexuality) اذ أثبت أنها لا تثمر بعد ازالة المئبر anther وهو جزء السداه المحتوى على اللقاح .

وفى نفس اليوم (٧ ديسمبر ١٦٧١) الذى تلقت فيه الجمعية الملكية اللندنية أول مقالات جرو « بداية تشريح الخضر » ، تلقت أيضا

مخطوطا من مارتشيللو ملبيجى البولونى ، نشرته (١٦٧٥) باسم لاتينى Anatomes Plantarum Idea ، وكان استعمال اللاتينية مازال ييسر دولية العلم . وقد اقتسم مالبيجى مع جرو شرف ارساء دعائم هستولوجيا النبات ، ولكن اسهامه الكبير كان فى علم الحيوان . وفى ١٦٧٦ اثبت ماريوت - بتحليله الكيميائى لمخلفات النباتات والتربة التى نمت فيها - أنها تتشرب العناصر الغذائية فى الماء الذى تمتصه من التربة . ولم يتبين ماريوت ، ولا جرو ، ولا مالبيجى ، قدرة النباتات على ان تاخذ غذاءها من الهواء ، ولكن عمليتى التغذية والتناسل اللتين اكتشفتا الآن كانتا تقدما هائلا على تعليل أرسطو الغامض لنمو النباتات بما لـ « النفس النباتية » من تطلعات الى التمدد .

وفى عام ١٦٦٨ أصيبت فكرة قديمة شائعة بأول صدمة من صدمات عديدة ، حين نشر فرانتسكو ريدى الاريتسوى كتابه « تجارب فى توالد الحشرات » - وهى تجارب تنحو الى نفى التولد الذاتى abiogenesis وهو التولد التلقائى للكائنات الحية من المادة غير الحية . فالى النصف الثانى من القرن السابع عشر كانت الفكرة التى آمن بها الجميع تقريبا (فيما عدا استثناء بارزا هو وليم هارفى) هى أن فى الامكان توالد الحيوانات والنباتات الدقيقة فى القذر أو الوحل ، لا سيما فى اللحم المتحلل ، وهذه الفكرة تكمن وراء عبارة شكسبير « الشمس التى تولد الدود فى الكلاب الميتة (٥٩) » . وقد أثبت ريدى أن الدود لا يتكون على اللحم المحمى من الحشرات ، بل على اللحم المكشوف . وقد صاغ النتيجة التى خلص اليها فى عبارته " Omne vivum ex ovo " كل حى يخرج من بيضة أو بزرة » . ولما اكتشفت الاوليات (البرزويات Protozoa) ، انبعثت حجج القائلين بالتولد التلقائى من جديد ، وقد رد عليهم سباللانزانى فى ١٧٦٧ ، ثم باستير فى ١٨٦١ .

كان الكشف عن تلك الكائنات ذات الخلية الواحدة التى سميت فيما بعد بالبروتوزوا أهم اسهام أسهم به هذا العصر فى علم الحيوان . وكان انطون فان ليوفينهويك هولنديا من ديلفت ، ولكنه أنهى - عن طريق الجمعية الملكية بلندن - النتائج العلمية التى توصل اليها خلال أربعين سنة من سنى عمره الواحدة والتسعين . كان سليل أسرة من صناع الجعة الأثرياء ، فاستطاع أن يقنع بوظائف أتاحت له من الفراغ

اكثر مما أعطته من راتب ، وانقطع لدراسة عالم الحياة الجديد كما كشف عنه المكروسكوب ، باصرار من افتتن بهذا العـــلم ٠ وكان يملك ٢٤٧ مكروسكوبا ، صنع معظمها بنفسه ، وكان مختبره يتألق بعدسات بلغت ٤١٩ ، ربما شحذ بعضها سبينوزا ، الذى ولد فى نفس ســـنة مولده (١٦٣٢) وفى نفس وطنه ٠ وقد حرص بطرس الاكبر وهو بديلفت فى ١٦٩٨ على أن يحدق فى الكائنات خلال مكروسكوبات ليوفينهويك٠ فلما وجه هذا العالم (١٦٧٥) أحدها لدراسة بعض ماء المطر الذى سقط فى قدر قبل أيام ، راعه أن يرى « حيـــوانات صـــغيرة بدت لى أصغر عشرة آلاف مرة من تلك التى وصفها المسيو سوامردام والتى سماها براغيث الماء أو قمل المـــاء ، والتى يمكن أن ترى فى المـــاء بالعين المجردة (٦٠) » ، ثم وصف كائنا نعرفه الآن باسم الجيبون الناقوسي bell animaleculc (Vorticella) ٠ ويلوح أن هذا كان أول وصـــفه للبروتوزون ٠ . فى ١٦٨٣ اكتشف ليوفينهويك كائنات أصـغر حتى من تلك — وهى البكتريا ٠ وجدها أولا على أسنانه ، وقال مستدركا « مع اننى احافظ عادة على نظافة أسنانى التامة » ، وأذهل بعض جيرانه حين فحص بصاقهم وأراهم تحت المكروســـكوب « عددا عظيمـــا من المخلوقات الحية » فيه (٦١) ٠ وفى ١٦٧٧ اكتشف البزيرات المنـــوية فى ماء الذكر : وتعجب من اسراف الطبيعة فى جهاز الانسال : فقـــد قدر أن هناك ألف بريرة فى كمية صغيرة من منى الرجـــل ، وحسب أن هناك ١٥٠ بليونا من البزيرات فى لقح سمكة واحـــدة من ســـمك الكود — وهو ما يزيد عشرة أضعاف على عدد السكان الذين يحتـــويهم العالم لو كانت كل أقاليمه غاصة بالسكان كالأراضي المنخفضة ٠

وكان جان سوامردام أصغر من ليوفينهويك بخمس ســـنوات ، ولكنه سبقه الى القبر بثلاث وأربعين سنة ٠ كان رجلا ذا جرأة ، ورغبات مشبوبة ، وعلل ، وأهداف متقلبة ، كف عن جهـــوده العلميـــة فى السادسة والثلاثين ، وأفنى عمره وهو فى الثالثة والاربعين (١٦٨٠)٠ نذر خادما للدين ، ولكنه هجر اللاهوت الى الطب ٠ فلما نال درجة الطب انقطع للتشريح ٠ وقد أولع بالنحل ، لا سيما بأمعائه ، وكان ينفق نهاره فى تشريحه ، وليله فى كتابة التقارير ورسم الرســوم عن كشوفه ٠ فلما فرغ من بحثه القيم فى النحل (١٦٧٣) انهار بدنيا ،

وما لبث أن طلق العلم لأنه مطلب مسرف فى الدنيـــوية ، وعاد الى الدين . وبعد موته بسبع وخمسين سنة جمعت مخطوطاته ونشرت باسم Biblia Naturae (كتاب الطبيعة المقدس) . وقد احتـــوى الكتاب فى تفصيل دقيق غاية الدقة على وصف لحيـــاة اثنتى عشرة حشرة نموذجية ، منها ذبابة مايو ونحلة العسل ، ودراسات مكروسكوبية للحبار squid والحلزون ، والبطلينوس clam والضفدعة . كذلك وردت فى الكتاب أوصاف للتجارب التى أثبت بها سوامردام أن العضلات فى الأنسجة المقطوعة من جسم حيوان يمكن جعلها تتقلص بأثارة العصب الرابط . وقد رفض نظرية التولد التلقائى كما رفضها ريدى ، وزاد بأن بين أن اللحم المتحلل لا يحدث الكائنات الدقيقة ، بل ان هذه الكائنات هى التى تحدث التحلل فى المادة العضوية . وقد أسس سوامردام فى حياته القصيرة علم الحشرات الحديث ، وأرسي لنفسه مكانة رجـل من أدق الملاحظين فى تاريخ العلم . ورجوعه من العلم الى الدين تشخيص لتردد الانسان الحديث بين بحث عن الحقيقة يسخر من الأمل ، وانتكاس الى الآمال التى تجفل من الحقيقة .

٩ ــ التشريح والفسيولوجيا

أسلم جسم الانسان بعد اخضاعه للمكروسكوب بعض أسراره الدفينة لجيش العلم الزاحف . ففى عام ١٦٥١ تتبع جان باكيه سير الأوعيـــة اللبنية ، وفى ١٦٥٣ كشف أولوف روربيك ، وموطنه أوبسالا ، الجهاز اللنفاوى ، ووصف هذا الجهاز توماس مارتولين ، وموطنه كوبنهاجن ، وفى ١٦٦٤ اكتشف سوامردام الصمامات اللنفاوية وفى ذلك العام أوضح صديقه رينيه دجراف وظيفة البنكرياس والصفراء وعملهما . وفى ١٦٦١ اكتشف صديق آخر هو نيقولاوس ستينو قناة (لا تزال تحمل اســمه) هى قناة الغدة النكفية ، وبعد سنة القنوات الدمعية للعـــين ، وخص جراف بدراسته تشريح الخصيتين والمبايض ، وفى ١٦٧٢ وصـف لأول مرة تلك الأكياس حاملة البيض التى أطلق عليها هالر تكريما له حويصلات جراف . وترك بارتولين بطاقته على جسمين بيضـــاويين ملاصـقين للمهبل ، واكتشف وليم كوبر (الطبيب لا الشاعر) فى ١٧٠٢ الغـــدد التى تفرغ افرازها فى مجرى البول وأطلق عليها اسمه . كذلك ترك فرانشسكوس سيلفيوس توقيعه على شق فى المخ (١٦٦٣) (وكان المعلم

المحبوب لجراف ، وسوامردام ، وستينو ، وويليس فى ليدن) . ونشر توماس ويليس ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، فى عام ١٦٦٤ كتابه " Cerebri Anatome تشريح المخ » الذى كان أكمل وصف للجهاز العصبى الى ذلك التاريخ ، ولا تزال تحمل اسمه « دائرة ويليس » ، وهى شبكة سداسية من الشرايين فى قاع المخ .

أما ألمع مشرحى العصر فهو مارتشيللو مالبيجى ، الذى ولد قرب بولونيا فى ١٦٢٨ ونال درجته الطبية منها ، وبعد أن عمل استاذا عدة سنوات فى بيزا ومسينا عاد الى بولونيا ، ودرس الطب فى جامعتها خمسة وعشرين عاما . وبعد أن اشتغل بالتشريح المكروسكوبى للنبات ، ركز عدساته على دودة القز ، وسجل كشوفه فى دراسة ممتازة . وفى هذا البحث أوشك أن يفقد بصره ، ومع ذلك كتب يقول « خلال قيامى بهذه البحوث تكشف أمام عينى الكثير جدا من معجزات الطبيعة حتى استشعرت لذة باطنية لا قدرة لقلمى على وصفها (٦٢) » . ولا بد أن قد خالجه ما خالج الشاعر الانجليزى كيتس وهو يطالع لأول وهلة ترجمة تشابمن لهوميروس ، حين رأى (١٦٦١) فى رئتى الضفدعة كيف ينتقل الدم من الشرايين الى الأوزدة فى أوعية سماها « الشعيرات » لدقتها المتناهية ، وقد وجد شبكة من هذه الشعيرات حيثما تحول الدم الشريانى الى دم وريدى ، وهكذا وضح الجهاز الدورى لأول مرة أثناء دورته .

على أن هذا لم يكن سوى جزء من اسهامات مالبيجى فى التشريح ، وان كان أهم أجزائها . فقد كان أول من أثبت أن حلمات اللسان أعضاء للتذوق ، وأول من ميز الكرات الحمراء فى الدم (ولكنه ظنها خطأ كريات من الشحم) ، وأول من وصف بدقة الدورتين العصبية والدموية فى الجنين ، وأول من وصف هستولوجيا قشرة المخ والحبل الشوكى ، وأول من أتاح الوصول الى نظرية عملية للتنفس بوصفه الدقيق للبناء الحويصلى للرئتين . واسمه منتشر بحق على أجسادنا فى « الحزم المالبيجية » أو حلقات من الشعريات ، فى الكلى ، وفى « الكريات المالبيجية » فى الطحال ، وفى « الطبقة المالبيجية » فى الجلد . وكثير من كشوفه وتفسيراته تحداه معاصروه ، ولكنه دافع عن نفسه بقوة ، وانتصر فى معاركه وان كلف هذا النصر أعصابه عنتا . وقد أرسل

الى الجمعية الملكية بلندن تقريرا عن جهوده ، وكشوفه ، وجدلياته ، وكأنه كان يعرض هذه كلها على محكمة العلم العليا فى جيله ، ونشرت الجمعية هذا التقرير سيرة ذاتية بقلمه ٠ وفى ١٦٩١ عين طبيبا خاصا للبابا انوسنت الثانى عشر ، ولكنه توفى عام ١٦٩٤ من اصابة بالفالج ٠ وكشفه للشعيرات من المعالم فى تاريخ التشريح ، وعمله فى جملته أرسى دعائم علم الهستولوجيا ٠

واذ تقدم البحث فى التشريح أماط اللثام عن أوجه شبه كثيرة جدا بين أعضاء الانسان والحيوان ، حتى لقد اقترب بعض الطلاب من نظرية التطور ٠ ففى عام ١٦٩٩ نشر ادوارد تيزون (الذى اطلق اسـمه على الغدد الدهنية للبشرة) كتـابا عن « الأورنج – أوتانج ، انسـان الغابات » ٠ وقد قارن بين تشريح الانسان وتشريح النسناس ، ورأى أن الشمبانزى وسط بينهما ٠ ولم يمنع علم الاحياء من أن يسبق داروين فى القرن السابع عشر غير الخوف من احداث زلزال لاهوتى ٠

وانتقلت الأبحاث من التشريح والبنية الى الفسيولوجيا والوظيفة٠ وكان التنفس الى عام ١٦٦٠ يفسر بأنه عملية تبريد ، أما الآن فقد شبهه أصحاب التجارب العلمية بالاحتراق ٠ فبرهن هوك على أن سر التنفس هو تعرض الدم الوريدى للهواء النظيف فى الرئتين ٠ وأثبت عضو آخر فى الجمعية الملكية هو رتشرد لوور (١٦٦٩) أن الدم الوريدى يمكن تحويله الى دم شريانى بالتهوية ، وان الدم الشريانى يتحول وريديا اذا منع باستمرار من الاتصال بالهواء ٠ ورأى ان أهم عامل فى التهوية هو « روح نترى » فى الهواء ٠ وجريا على هذه المبادرات وصف جون مايو ، صديق لوور هذا العامل النشيط بأنه « جزيئات نترية – هوائية » وفى التنفس تمتص الجزيئات النترية – فى رأيه – من الهواء فى الدم ، ومن هنا كان الهواء فى الزفير أخف وزنا وأقل حجما منه فى الشـهيق ٠ والحرارة الحيوانية سببها اتحاد الجزيئات النترية بالعناصر القـابلة للاحتراق فى الدم ، والحرارة المتزايدة عقب الرياضة تنشـأ من فائض الممتص من الجزيئات النترية بسبب التنفس الزائد ٠ يقول مايو ان هذه الجزيئات النترية تلعب دورا رئيسيا فى حياة الحيوان والنبات ٠

وقد أفضي تفسير العمليات الحيوية الى جدل من أبقى ما وعاه تاريخ العلم الحديث ٠ ذلك أنه كلمـا أوغلت الفسيولوجيا بمزيد من

الفضول فى تشريح الانسان ، بدا أن الوظيفة تلو الوظيفة من وظائف الجسم تخضع لتفسير آلى بلغة الفيزياء والكيمياء . فلاح أن التنفس اتحاد بين التمدد ، والتهوية ، والانقباض ، وأن وظائف اللعاب ، والصفراء ، والعصارة البنكرياسية ، كيميائية لاخفاء فيها ، وأن جان ألفونسو بوريللى قد استكمل (١٦٧٩) التحليل الآلى للحركة العضلية . واعتنق ستينو ، الكاثوليكى الغيور ، الرأى الآلى فى العمليات الفسيولوجية ، ورفض عبارات جالينوس الغامضة من أمثال « الأرواح الحيوانية » لأنهــا « مجرد ألفاظ لا تعنى شيئا » . وبدا الآن مفهوم ديكارت للجسم على أنه آلة مبررا كل التبرير .

ومع ذلك أحس معظم العلماء أن تلك الأجهزة البدنيـــة ما هى الا أدوات لمبدأ حيوى يتجاوز التحليل بلغة الكيمياء والفسيولوجيا . فعزا فرانسس جليسون ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، للمادة الحية كلها « تهيجية » تتميز بها - وهى استهداف للاثارة - قال انها لا توجد فى المادة غير الحية . وكما أن نيوتن ، بعد أن رد الكون الى الآلية ، عزا الى الله الدفع المبدئى لآلة العـــالم ، فكذلك افترض بوريللى فى جسم الانسان نفسا هى المصدر لكل حركة حيوانية ، وذلك بعد أن فسر العمليات العضلية تفسيرا آليا (٦٣) . ورأى كلود بيرو ، المعمـــارى والطبيب ، (١٦٨٠) أن الأفعال الفسيولوجية التى تبدو الآن آليــة كانت من قبل ارادية ، تهتدى بارشاد نفس ، ولكنها أصبحت آلية بفعل التكرار الكثير ، وذلك أشبه بتكون العادات ، بل ربما كان القلب ذاته خاضعا لتحكم الارادة فيما مضي (٦٤) . وزعم جيورج شتال (١٧٠٢) أن التغيرات الكيميائية فى النسيج الحى تختلف عن تلك التى ترى فى المختبرات ، لأن التغيرات الكيميائية - فى زعمـــه - التى تعـــرو الحيوانات الحية تحكمها « حساسية حيوانية " anima sensitiva تنتشر فى جميع أجزاء الجسم . والنفس كما يقول شـــتال تدير كل وظيفة فسيولوجية ، حتى الهضم والتنفس ، وهى تبنى كل عضـــو ، بل الجسم كله ، بوصفه أداة للرغبة (٦٥) . وخيل له أن الأمــراض طرق تحاول بها النفس التخلص من عائق يعوق عملياتها ، وســـبق نظرية « سيكوسوماتية » (أى جسدية نفسية) من نظريات القـــرن

العشرين بالقول بأن اضطرابات « النفس الحساسة » قد تحدث عللا بدنية (٦٦) ٠

وظلت المفاهيم الحيوية ، بشكل أو آخر ، تحتل مكان الصدارة فى العلم حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠ ثم استسلمت فترة أمام المكانة الصاعدة للفيزياء الميكانيكية ، ثم بعثت من جديد ،فى ثوب أدبى فتان ، فى كتاب برجسون « التطور الخلاق » (١٩٠٦) ٠ وسيمضي الجدل الى ما شاء الله حتى يقيض للجزء أن يفهم الكل ٠

١٠ ـ الطب

جاء أقوى دافع لعلوم الأحياء من حاجات الطب ٠ لقد كان علم النبات ، قبل راى ، أداة الصيدلة ٠ وكانت الصحة « الخير الأعظم » ، وتوسل الرجال والنساء والاطفال اليها بالصلوات ، والنجوم، والملوك، والضفادع ، والعلم ٠ يقول أوبرى (٦٧) ان أحد الاطباء كان قبل أن يصف الدواء للمريض يمضي الى مخدعه ليصلى حتى « تقرنت ركبتاه » فى النهاية من كثرة الصلوات وكان التنجيم لا يزال يتدخل فى الطب ٠ فقد نصح الجراح القائم على علاج لويس الرابع عشر بألا يحجم الملك الا فى ربعى القمر الأول والأخير « حتى تكون الأمزجة قد تراجعت فى هذا الوقت الى مركز الجسم » (٦٨) ٠ وفى رأى ديفو أن المال الذى انفق على المشعوذين كان كفيلا بالوفاء بالدين القومى (٦٩) ٠ وقد سافر فلامستيد ، فلكى الملك ، أميالا لكى يربت ظهره المشعوذ المشهور فالنتين جريتراكس ، الذى زعم بكل بساطة أنه يشفى من الداء الخنازيرى ، وربما كان فلامستيد واحدا من ١٠٠ر٠٠٠ لمسهم تشارلز الثانى ليشفيهم من هذا الداء الخنازيرى (scrofula) المسمى « داء الملك King's evil » (وهو سل الغدد اللنفاوية وبخاصة فى العنق) ٠ وفى سنة واحدة (١٦٨٢) لمس هذا الحاكم اللطيف ٨ر٥٠٠ مريض مصاب بهذا المرض ، وفى ١٦٨٤ بلغ التزاحم للوصول اليه حدا ديس معه ستة من المرضي تحت الأقدام حتى ماتوا ٠ ورفض

وليم الثالث أن يواصل التمثيلية . وقال حين حاصر جمع قصره « انها خرافة غبية ، فأعطوا هؤلاء المساكين بعض النقود واصرفوهم » . وفى مناسبة أخرى حين كثر الالحاح عليه ليضع يده على مريض أذعن قائلا « وهبك الله صحة أفضل وعقـــلا أرجح » . وقد اتهمـــه الشـــعب بالكفر (٧٠) .

وتضافرت عيوب عناية الأفراد بصحتهم ونقائص النظافة الصحية العامة مع ذكاء المرض القادر على التكيف . ونشر البغاء الزهرى فى المدن والمعسكرات . وقد استشرى بصفة خاصة بين الممثلين والممثلات ، كما نستنتج من قصة مستورة فى مدام دسفنييه عن « ممثـــل اعتزم الزواج برغم أنه يعانى من مرض خطير معين ، فقال له أحد أصحابه : ويحك ألا تستطيع الانتظار حتى تشفى ؟ انك ستجر البلاء علينـــا جميعا (٧١) » ، وقد مثل القائد الفرنسي فاندوم فى البـــلاط الملكى بغير أنف ، لأنه أعطاها قربانا لبكتريا الزهرى (٧٢) . وكان السرطان يمضي فى طريقه قدما ، وتصف لنا مدام دموتفيل سرطان الثدى (٧٣) وقد وصفت الحمى الصفراء أول مرة عام ١٦٩٤ . وانتشر الجدرى على الأخص انتشارا واسعا فى انجلترة ، ولم يكن هناك علاج معروف له ، وقد ماتت به الملكة مارى ، وابن ملبره . وابتليت أقطـــار بأسرهـــا بالأوبئة لا سيما وباء الملاريا . وذكر توماس ويليس أن انجلترة كلهـــا تقريبا كانت فى ١٦٥٧ أشبه بمستشفى يعالج حمى المـــلاريا (٧٤) . واجتاح الطاعون لندن فى ١٦٦٥ (٧٥) . وقتل فى فيينا سنة ١٦٧٩ ١٠٠ر٠٠٠ ألـــف و ٨٣ر٠٠٠ فى بـــراغ ســـنة ١٦٨١ . وازدادت الامراض المهنية بانتشار الصـــناعة ، وفى ١٧٠٠ أصـــدر برناردينو راماتزينى ، أستاذ الطب فى جامعـــة بادوا ، رســـالة ممتـــازة ، De morbis artificum عن الضرر الذى يصيب النقاشـــين من المواد الكيميائية فى طلائهم ، والعاملين فى الزجاج المعشق من الانتيمون ، والبنائين وعمال المناجم من السل ، والخزافين من الدوار ، والطباعين من أمراض العيون ، والاطباء من الزئبق الذى يستعملونه .

وكان تقدم علم الطب بطيئا فى جو الجهل والفقر • وعطل المهنة شره الأطباء للمال ، فكان بعض الاطباء الذين قاموا بعلاجات ناجحة يرفضون الكشف لغيرهم من الأطباء عن العلاج الذى استحدموه (٧٦)• على أن الأطباء من أعضاء الجمعية الملكية ارتفعوا فوق هذا الشره ، وأشركوا زملاءهم بحماسة فى كشوفهم • وكان هناك الآن مدارس طبية جيدة وفى مقدمتها مدارس ليدن ، وبولونيا ، ومونبلبيه ، وعلى العموم كان الحصول على درجة من معهد معترف به شرطا لممارسة الطب قانونيا فى غربى أوربا • واستمر مدرسو الطب على انقسامهم الى مدرستين من مدارس العلاج • فدافع بوريللى عن طريقة العلاج الطبى (iartophysical) ورأى تناول الامراض على أنها اضطرابات فى آلية الجسم • أما سيلفيوس ، الذى طور حجج باراسيلسوس وهيلمونت فقد دافع عن **الطريقة الكيميائية** **(iatrochemical)** — وهى طريقة استعمال العقاقير لمقاومة الاضطرابات فى « أمزجة » الجسم ، ومعظمها فى رأيه راجع لزيادة فى الحموضة • وكان أنفع من هذه النظريات العامة تلك الكشوف فى أسباب أمراض معينة ، فوصف سيلفيوس مثلا لأول مرة الدرينات فى الرئتين ، وعزا هذه الاورام المرضية الى السل •

ومن أهم كشوف هذا العصر الجهد الذى قام به ذلك اليسوعى الممتاز ، أثناسيوس كيرشر الفولداوى ، وكان رياضيا ، وفيزيائيا ، ومستشرقا ، وموسيقيا ، وطبيبا ، ويبدو أنه أول من استخدم المكروسكوب فى فحص المرض (٧٧) • وبهذه الوسيلة وجد أن دم ضحايا الطاعون يحتوى على « ديدان » لا حصر لها لا ترى بالعين المجردة • ورأى حييونات مماثلة فى المادة المتعفنة ، وعزا التعفن وكثيرا من الامراض لنشاطها • وكتب تقريرا عن كشوفه فى « البحث فى الأمراض الوبائية " Scrutinium Pestis " (روما ١٦٥٨) بين بعبارات صريحة واضحة لأول مرة ما لم يذكره فراكاستورو الا تلميحا فى ١٥٤٦ — وهو النظرية القائلة بأن انتقال الكائنات الحية الضارة من شخص أو حيوان الى آخر هو سبب المرض المعدى (٧٨) •

وتخلف العلاج الطبى عن البحث الطبى ، لأن الذين نبغـوا فى البحث جنحوا الى تأليف طبقـة متميزة عن ممارسي الطب ، وكان الاتصال بين الفريقين ناقصا . وكانت بعض علاجات العصور الوسطى مازالت توصف للمرضي . وقد سجل أوبرى نجاحا جاء فى غير محله. قال « ان امرأة حاولت أن تسمم زوجها (وكان مريضـا بالاستسقاء) بسلق ضفدعة فى حسائه ، الامر الذى شفاه من مرضه ، وكان هذا هو الظرف الذى عثر فيــه على الدواء (٧٩) » ودخلت بعض العقاقير الجديدة الفارماكوبيا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : عـرق الذهب ipecacuanha والكسكارة ، والنعناع ... ووصف الأطـباء الهونديون الشـــاى دواء لكل الأدواء تقريبـــا ترويجـا للتجـــارة الهولندية(٨٠) .

وكان اثنان من الهولنديين أعظم معلمى الطب فى هذا العصر ، وهما سيلفيوس وبويرهافى ، وكلاهما فى ليدن . وقـــد علم هيرمان بويرهافى الكيمياء ، والفيزياء ، والنبات أيضا ، وأقبل عليه الطلاب من شمالى أوربا كلها ، وقد رفع مقـــام الطـب الاكلينيكى باصطحابه تلاميذه الأكثر نضجا فى جولاته اليومية على أسرة المستشفى ، وتعليمهم بالملاحظة المباشرة والعلاج النوعى لكل حالة بمفـردها . وقد ترجمت مؤلفاته الى كل اللغات الاوربية الكبرى ، وحتى الى التركية ، وطبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الصين ذاتها .

ووجد الطب الاكلينيكى فى انجلترة أبرع ممثـــل له فى توماس سيدنهام . قضي فى أكسفورد فترتين تفصلهما فترات خدمة فى الجيش، ثم استقر فى لندن ممارسا عاما . وانتهى بالقليل من النظريات والكثير من الخبرة الى فلسفته فى المرض ، الذى عرفه بأنه « جهد من الطبيعة التى تكافح بكل قوتها لترد الى المريض عافيته بالتخلص من المـادة المرضية (٨١) » . وميز بين الأعراض « الجوهرية » التى تحدثها المادة الدخيلة ، والأعراض « العرضية » التى تحدثها مقاومة الجسم لهـــا ، فالحمى مثلا ليست مرضا بل حيلة يتوسل بها الـكائن الحى للدفـــاع عن نفسه . ومشكلة الطبيب أن يعين عملية الدفاع هذه . ومن ثم فقـد امتدح سيدنهام أبقراط لأن « أبا الطب » :

« لم يتطلب من فن الطب أكثر من معاونة الطبيعة اذا وهنت ، وكبحها اذا ازداد عنف جهودها ... ذلك ن هذا المراقب الحكيم وجد أن الطبيعة وحدها هى التى تنهى اختلال الصحة ، وتعمل على الشفاء مستعينة بعقاقير بسيطة ، وأحيانا دون عقاقير على الاطلاق (٨٢) » .

وبراعة سيدنهام فى أنه تبين أن لكل مرض كبير صورا مختلفة ، وكان يدرس كل حالة بتاريخها الاكلينيكى ليشخص نوع المرض الذى تنطوى عليه ، ويوائم بين العلاج والاختلافات النوعية للمرض . ولهذا نراه يميز الحمى القرمزية عن الحصبة ويعطيها اسمها الحالى . وكان معروفا بين الاطباء بلقب « أبقراط الانجليزى » لأنه أخضع النظرية للملاحظة ، والأفكار العامة للحالات الخاصة ، والعقاقير للعلاجات الطبيعية . وقد ظل كتابه Processus Integri طوال قرن من الزمان المرشد للممارس الانجليزى فى العلاج .

وواصلت الجراحة نضالها لتحظى بالاعتراف بها علما محترما . ووجد أكفأ ممثليها أنفسهم بين نارين ، عداء الاطباء وحسد الحلاقين ـ الذين ما زالوا يجرون بعض الجراحات الصغيرة ، ومنهـا جراحة الأسنان . ولم يستطع جى باتان ، عميد كلية الطب بجامعة باريس ، أن يغتفر للجراحين اتخاذهم زى الأطباء ومسلكهم ، ورمى الجراحين جميعا بأنهم « سلالة من الحمقى ، والمغرورين ، اللئام ، المسرفين ، الذين يطلقون شواربهم ويلوحون بأمواسهم (٨٣) » . ولكن فى عام ١٦٨٦ أجرى الجراح فيلكس جراحة ناجحة على ناسور لويس الرابع عشر ، وسر الملك سرورا عظيما فنفح فيلكس بخمسة عشر ألف جنيه ذهبى ، وخلع عليه ضيعة فى الريف ولقب النبالة . ورفعت هذه الترقية من مكانة الجراحين الاجتماعية فى فرنسا . وفى ١٦٩٩ صدر قانون جعل الجراحة فنا من الفنون الحره ، وبدأ ممثلوها يحتلون مكانا مرموقا فى المجتمع الفرنسي . وقد وصف فولتير الجراحة بأنها « أنفع الفنون قاطبة » وأنها « الفن الذى بز فيه الفرنسيون سائر أمم الأرض (٨٤) » .

على أن الجراحة الانجليزية كان لها فى هذا العصر مفخرتان على الأقل . ففى ١٦٦٢ قام ج. د. ميجر بحقن الانسان أول حقنة وريدية ناجحة ، وفى ١٦٦٥ ـ ٦٧ نجح رتشرد لوور فى نقل الدم من

حيوان الى أوردة حيوان آخر . وقد سجل بيبيس هذا فى يوميته (٨٥). ويستفاد من جريدة القيل والقال تلك أن الجراحات كانت تجرى عادة بمخدر ضعيف أو دون مخدر ، فلما أجريت لبيبيس جراحة لازالة حصاة فى مثانته لم يعط كلوروفورما ولا مطهرات ، واكتفى باعطائه « جرعة مهدئة (٨٦) » .

واستمر الناس يهجون الطبيب كما يهجونه فى كل جيل . فقد ساءهم منه أتعابه ، وفخامة مظهره فى عباءته وشعره المستعار وقبعته المخروطية ، وغرور حديثه ، وأخطاؤه القتالة أحيانا . وروى بويل أن كثيرين كانوا يخشون الطبيب أكثر مما يخشون المرض (٨٧) . وكانت سخريات موليير بالمهنة العظيمة فى أكثرها مزاحا لطيفا من رجل كان حريصا رغم ذلك على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع طبيبه . وبقى - بعد أن رشقت السهام كلها - أن القرن السابع عشر شهد تقدما مشكورا فى علم الطب بفضل عشرات الكشوف فى التشريح ، والفسيولوجيا ، والكيمياء ، وأن التبادل الدولى للمعرفة الطبية كان فى ازدياد ، وأن كبار الاساتذة كانوا يبعثون تلاميذهم الاكفاء الى جميع أرجاء أوربا الغربية ، وأن الجراحة كانت تحسن طرقها وترفع مكانتها ، وأن الاخصائيين كانوا يزدادون معرفة ومهارة ، وأن مزيدا من التدابير كان يتخذ للنهوض بالصحة العامة . وشرعت الحكومات البلدية القوانين التى تكفل النظافة الصحية . وفى ١٦٥٦ ، حين ظهر الطاعون فى روما ، حتم المونسنيور جاستالدى ، المأمور البابوى للصحة ، تنظيف الشوارع والمجارى ، وتفتيش السقايات بانتظام ، وتوفير الامكانات العامة لتطهير الملابس ، وتقديم الشهادات الصحية من جميع الاشخاص الذين يدخلون المدينة (٨٨) ، وبازدياد الثروة بنى الناس بيوتا أمتن تستطيع أن تبعد الفيران الى مسافة محترمة فتقلل من انتشار الطاعون . وقد يسرت امدادات أفضل من المياه - وهى أول ضرورات الحضارة - النظافة للاجسام الراغبة فيها . وأخذ التحضر يصبح - بدنيا - فى متناول مزيد من الناس .

١١ - النتائج

كان القرن السابع عشر فى جملته احدى القمم فى تاريخ العلم .

أنظر اليه فى سلمه الصاعد ، ابتداء من بيكون يدعو الناس للكفاح فى سبيل ترقية المعرفة ، وديكارت يزاوج بين الجبر والهندسة ، مرورا بتحسين التلسكوبات ، والمكروسكوبات ، والبارومترات ، والترمومترات والمضخات الهوائية والعلوم الرياضية ، وبقوانين كبلر الكوكبية ، وقبة جاليليو السماوية المتعاظمة ، ورسم هارفى لخريطة الدم ، ونصفى كرة جيوريكى المحكمتين ، وكيمياء بويل الشكاكة ، وفيزياء هويجنز المتعددة الصور ، ومحاولات هوك الكثيرة الاشكال ، وتنبؤات هالى الكونية ، ثم انتهاء بحساب ليبنتز التفاضلى التنويتى ونسق نيوتن الكونى ، انظر الى كل أولئك واسأل : أى قرن سابق أنجز مآثر هذا القرن ؟ يقول ألفريد فورت هوايتهيد ان الذهن الحديث « يعيش الى اليوم على ذخيرة الافكار المتجمعة التى وفرتها له عبقرية القرن السابع عشر « فى العلم ، والأدب ، والفلسفة (٨٩) » .

وانتشر تأثير العلم فى أقواس متسعة . أثر فى الصناعة بتوفيره الفيزياء والكيمياء اللتين كفلتا المغامرات الجدبدة فى التكنولوجيا . وفى التعليم ألزم بتخفيف التركيز على العلوم الانسانية - على الأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، لأن تطوير الصناعة والتجارة والملاحة تطلب المعرفة والأذهان العملية . وأحس الأدب ذاته التأثير الجديد : فسعى العالم وراء النظام والدقة والوضوح أوحى بفضائل مماثلة فى الشعر والنثر ، وانسجم مع الاسلوب الكلاسيكى الذى يمثله موليير وبوالو وراسين ، كما يمثله أديسون وسويفت وبوب . واشترطت الجمعية الملكية - كما يقول مؤرخها - على أعضائها ، أسلوبا فى الحديث طبيعيا عاديا ، محكما . يقرب كل الاشياء قدر الامكان من الوضوح الرياضى (٩٠) » .

وتأثرت الفلسفة والدين بانتصارات الرياضة والفيزياء ، التى حددت للمذنبات ميقاتا ووضعت للنجوم قوانين . وتقبل ديكارت وسبينوزا الهندسة مثلا أعلى للفلسفة والعرض . ولم يعد بعد ذلك من حاجة لأن يفترض فى الكون شيء غير المادة والحركة . ورأى ديكارت العالم كله آلة ، باستثناء العقل البشرى والالهى ، وتحدى هوبز هذا الاستثناء ، وصاغ مادية يكون حتى الدين فيها أداة للدولة تستعين بها على تسيير الآلات البشرية . ولاح أن علوم الفيزياء والكيمياء والفلك

الجديدة « تكشف عن كون يعمل طبقا لقوانين لا تتغير ، وهــو كون لا يسمح بمعجزات ، واذن فلا يستجيب لصلوات ، واذن فلا يحتــاج لاله . وربما جاز الابقاء عليه ليعطى آلة العالم دفعة مبدئية ، ولكنــه بعد هذا له أن ينسحب ليكون ربا أبيقوريا ـ لوكريتيا ، لا يعبأ بالعالم ولا بالناس . روى ن هالى أكد لصديق لباركلى أن « عقائد المسيحية » أصبحت الآن « لا يمكن تصــورها (٩١) » . على أن بويل رأى فى كشوف العلم دليلا جديدا على وجود الله . وكتب يقول « ان العالم يسلك وكأن الكون يشيع فيه كله كائن ذكى » . وأضاف فى عبارة تعيد بسكال الى الذاكرة « ان نفس الانسان كائن انبل وأثمن من العــالم المــادى بأسره (٩٢) » . ولما مات خلف مالا ينفق منه على محاضرات تظهــر صدق المسيحية ازاء « مشهورى الكفار ، وهم الملحــدون ، والقائلون بوجود آلهة ، والوثنيون واليهود ، والمسلمون » وأضاف شرطا هو أن المحاضرات يجب ألا تخوض فى المجادلات الناشبة بين المسيحيين(٩٣) .

ووافق علماء كثيرون على رأى بويل ، وشارك كثير من المسيحيين المؤمنين فى الاشادة بالعلم . كتب درايدن فى ختام القرن يقول « فى هذه السنين المائة الاخيرة كشف لنا القناع عن طبيعة جديدة تقريبا ـ اخطاء أكثر من كشفت ، وأجرى من التجارب المفيدة ، وأميط اللثام عن أسرارا رفيعة فى البصريات ، والطب ، والتشريح ، والفلك ـ أكثر مما حدث فى جميع تلك العصور الخرفة الساذجة ، ابتداء من أرسطو الى يومنا هذا (٩٤) » ، وتلك مبالغة مفرطة ولكنهــا ذات دلالة ، تكشف لنا عن اقتناع « المحدثين » بأنهم كسبوا معركة الكتب ضد « القدامى » على أية حال لم يملك الناس الا أن يروا أن العلوم تزيد المعرفة الانسانية ، بينما الاديان تصطرع والساسة يقتتلون . وسما العلم الآن الى مقــام جديد من الشرف بين مغامرات الانسان ، لا بل ان هذا العهد لم يؤذن بالنهاية الا والناس يرحبون بالعــلم بشيرا بمجىء المجتمــع المثــالى ومخلصا للنوع الانسانى . كتب فونتنيل فى ١٧٠٢ يقول « ان تطبيق العلم على الطبيعة سينمو باطراد فى مداه وقوته ، وسنمضي قدما من عجيبة الى عجيبة . وسوف يأتى اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يطير بأجنحة تحفظه فى الهواء ، وسينمو هذا الفن ... حتى نستطيع يوما أن نظيرا الء القمر (٩٥) » . لقد كان كل شيء يتقدم ، الا الانسان .

الفصل التاسع عشر

اسحاق نيوتن

١٦٤٢ ـ ١٧٢٧

١ ـ الرياضي

ولد فى مزرعة صغيرة بوولزثورب ، فى مقاطعة لنكولن ، فى ٢٥ ديسمبر ١٦٤٢ (حسب التقويم القديم ، أى اليوليانى) وهو العام الذى مات فيه جاليليو ، وكانت الزعامة الثقافية ، كالزعامة الاقتصادية ، فى سبيلها من الجنوب الى الشمال . وكان عند ميلاده صغير الحجم جدا بحيث كان فى الامكان وضعه فى كوز سعته ربع جالون (كما أخبرته أمه فيما بعد) ، وضعيفا جدا بحيث لم يخطر ببال أحد أنه سيعيش أكثر من أيام (١) معدودات . وكفلته أمه وخاله لأن أباه كان قد مات قبل ولادته بشهور .

وحين بلغ الثانية عشرة أرسل الى المدرسة الخاصة فى جرانثام ، فلم يحالفه التوفيق فيها . وجاء فى التقارير عنه أنه « خامل » و « غير ملتفت » ، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التى تستهويه ، وينفق الوقت الكثير على المخترعات الميكانيكية كالمزاول ، والسواقى ، والساعات البيتية الصنع . وبعد أن قضي عامين فى جرانثام أخذ من المدرسة ليساعد أمه فى المزرعة ، ولكنه عاد الى اهمال واجباته ليقرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية . وتبين خال آخر كفايته ، فاعاده الى المدرسة ، وعمل الترتيبات لقبول نيوتن بكلية ترنتى فى كمبردج (١٦٦١) طالبا يكسب مصروفاته بمختلف الخدمات (subsizar) .وحصل على درجته الجامعية بعد أربع سنوات ، وبعدها بقليل انتخب زميلا بالكلية ، وخص باهتمامه الرياضة ، والبصريات ، والفلك ، والتنجيم ، وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم الى فترة متأخرة من حياته .

وفى ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضة اسحاق بارو ، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما . ولم

يكن بالمعلم الناجح · كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى أنه كان أحيانا كثيرة وكانه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين (٢) » · وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال · وبنى فيها مختبرا ــ كان الوحيد فى كمبردج آنئذ · وقام بالكثير من التجارب ، لا سيما فى الخيمياء « وهدفه الأكبر تحويل المعادن (٣) » ، ولكنه اهتم أيضا بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة (٤) » وواصل دراساته الخيميائية من ١٦٦١ الى ١٦٩٢ ، وحتى وهو يكتب كتابه « المبادىء (٥) » ترك مخطوطات عن الخيمياء دون نشر بلغ مجموع كلماتها نيفا و ١٠٠٠٠٠ « لا قيمة لها اطلاقا (٦) » وكان بويل وغيره من أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب · ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة · ولا سبيل لنا الى التأكد من أنه كان مخطئا ·

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشي فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبه ليسجلها · كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيره) « حتى لتخاله ··· واحدا من جماعة أرسطو » المشائين (٧) · وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسي أنه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الاكل والنوم · « ونادرا ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة ، فاذا فعل فانه ــ ما لم ينبه ــ يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط ··· ورأسه غير ممشط الا فيما ندر (٨) » · وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه · ويؤكدون أنه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر (٩) · وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى ، ويخط أفكارا على عجل ، وينسي أصحابه تماما (١٠) ·

لقد كان راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين

بكمبردج • وقد وضع « قواعد للتفلسف » ـ أعنى للطريقـــة والبحث العلميين • ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادىء قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال • وحين قال نيوتن « أنا لا أخترع فروضا (١١) » كان يعنى أنه لا يقدم نظريات حول أى شيء يتجاوز ملاحظة الظواهر ، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية ، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها • ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت • كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضي الى المبادىء • وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة ، ويستنبط متضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب والتجربة • وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا ـ البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر الاخرى من هذه القوى (١٢) » • لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا •

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا • ان لشهرته بؤرتين ـ حساب التفاضل ، والجاذبية • بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى • ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة " Fluxions " وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خير منه :

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحرك الخطوط ، والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجـــزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا فى غير ذلك من الكميات • وعلى ذلك فبما أن الكميات ، التى تزداد فى أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الاكبر أو الاقل التى تزداد او تولد بها ، فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق "Fluxions" ، والكميات المولدة « المتغيرات » ، فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ (١٣) »

وقد وصف نيوتن طريقته فى خطاب كتبه لبارو عام ١٦٦٩ ، وأشار اليها فى خطاب لجون كولنز فى ١٦٧٢ · ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه · وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق — ولكن دون أن يخفى اسمه — فى كتاب واليس « الجبر » عام ١٦٩٣ · ولم ينشر الوصف الذى اقتبسناه فيما سبق الا عام ١٧٠٤ ، فى ملحق لكتابه « البصريات » · وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها · وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص اليها · ولو أنه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ × ·

هذه التأجيلات زجت برياضي أوربا فى جدل معيب مزق دولية العلم جيلا بأسره · ذلك أنه فى الفترة بين ابلاغ نيوتن نظريته فى « الفروق » لأصحابه فى ١٦٦٩ ونشر الطريقة الجديدة فى ١٧٠٤ ، وضع ليبنتر نظاما منافسا لها فى ماينز وباريس · ففى ١٦٧١ أرسل الى أكاديمية العلوم بحثا يحوى جرثومة حساب التفاضل (١٤) ، وقابل لبنتز أولدنبرج فى زيارة للندن ، من يناير الى مارس ١٦٧٣ ، وكان قد تبادل الرسائل معه ومع بويل · وقد ظن أصحاب نيوتن فيما بعد أن لبنتز فى رحلته هذه تلقى الماعا لفروق نيوتن — ولكن المؤرخين يتشككون فى هذا الآن · وفى يونيو ١٦٧٦ ، بناء على طلب أولدنبرج وكولنز ، كتب نيوتن خطابا ليبلغ الى لبنتز ، شارحا فيه طريقته فى التحليل · وفى أوغسطس رد لبنتز على أولدنبرج ، وضمن الرد بعض الأمثلة من شغله فى حساب التفاضل ، وفى يونيو ١٦٧٧ ، فى خطاب آخر لأولدنبرج ، وصف نوع حساب التفاضيل الذى توصل اليه ، وطريقته فى التنويت notation أى التدوين بمجموعة من الرموز الرموز) ، وهما يختلفان عن حساب نيوتن وطريقته · ثم عاد فى مجلة Aeta Eruditorum عدد أكتوبر ١٦٨٤ يشرح حساب التفاضل،

× وطبقا لهذه النظرية فان أى قوة دات حدين (وهو تعبير جبرى مؤلف من حدين تربطهما علامة زائد أو ناقص) يمكن ايجادها بصيغة جبرية بدلا من ايجادها بالضرب · وقد سبق نيوتن حزئبا الى هذه النظرية فييت وبسكال ·

وفى ١٦٨٦ نشر طريقته فى حساب التكامل . وفى الطبعة الأولى من « المبادىء » (١٦٨٧) قبل نيوتن بشكل واضح اكتشاف ليبنتز لحساب التفاضل مستقلا . قال :

« فى رسائل تبادلتها مع عالم الهندسة الألمعى ج . و . لبنتز ، قبل عشر سنوات ، حين أشرت الى أننى أعرف طريقة لأيجاد الحدود القصوى والدنيا ، ورسم المماسات ، وما الى ذلك ... رد السيد المبجل بأنه اهتدى هو أيضا الى طريقة من نفس النوع ، وأنهى الى طريقته ، التى لم تكد تختلف عن طريقتى ... الا فى أشكال ألفاظه ورموزه (١٦) » .

وكان خليقا بهذا الاعتراف المهذب أن يمنع الجدل . ولكن فى ١٦٩٩ أشار رياضي سويسرى فى رسالة للجمعية الملكية الى أن لبنتز استعار حساب تفاضله من نيوتن . وفى ١٧٠٥ ذكر ليبنتز تضمينا ، فى نقد غفل من التوقيع لكتاب نيوتن « البصريات » أن فروق نيوتن تحوير لحساب التفاضل اللبنتزى . وفى ١٧١٢ عينت الجمعية الملكية لجنة لفحص الوثائق المتصلة بالموضوع . وقبل أن ينصرم العام نشرت الجمعية تقريرا Commercium Epistolicum أكد اسبقية نيوتن ، دون أن تخوض فى موضوع أصالة لبنتز . وفى رسالة كتبها لبنتز بتاريخ ٩ أبريل ١٧١٦ الى قسيس ايطالى بلندن اعترض بقوله ان تعليق نيوتن قد حسم الأمر . ومات لبنتز فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . وبعد موته بقليل نفى نيوتن أن التعليق « أقر له - أى للبنتز باختراع حساب التفاضل مستقلا عن اختراعى » وفى الطبعة الثالثة من « المبادىء » (١٧٢٦) حذف التعليق (١٧) . ولم يكن النزاع مما يليق بالفلاسفة، لأن كلا المدعيين كان يصح أن ينحنى احتراما لفيرما لأنه كان رائدا لهما فى هذا المضمار .

٢ - الفيزيائى

على أن الرياضة ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها . فلما تحول نيوتن من الاداة الى البحث الجوهرى ، عكف أولا على استكناه سر الضوء . وتناولت محاضراته الاولى فى كمبردج الضوء ، واللون ،

والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتـابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة ، فى ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر .

وفى عام ١٦٦٦ اشترى منشورا من سوق ستوربردج وبدأ التجارب فى البصريات . وفى عام ١٦٦٨ فصاعدا صنع سلسلة من التلسكوبات . فصنع بيديه ، على أساس النظريات التى شرحها مرسين (١٦٣٩) وجيمس جريجورى (١٦٦٢) ، تلسكوبا عاكسا ليتفادى بعض العيوب الملازمة للتلسكوب الكاسر ، وقدمه للجمعية الملكية بناء على طلبها عام ١٦٧١ . وفى ١١ يناير ١٦٧٢ انتخب لعضوية الجمعية .

وكان قد توصل (١٦٦٦) الى احد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات — وهو أن الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الاحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . فلما مـرر شعاعا صغيرا من ضوء الشمس خلال منشور شفاف وجد أن الضوء الذى يبدو أحادى اللون انقسم الى كل ألوان الطيف هـــذه ، وأن كل لون مكون خرج من المنشور عند زاويته أو درجته أو انكساره الخاص ، وأن الألوان نظمت نفسها فى صف من الحزم ، مؤلفه طيفا مستمرا ، فى أحد طرفيه اللون الاحمر وفى الآخر البنفسجى . وقد اثبت الباحثون اللاحقون أن المواد المختلفة ، اذا جعلت مضيئة بحرقها ، تعطى أطيافا مختلفة . وبمقارنة هذه الاطياف بالطيف الذى يحدثه نجم معـــين ، أصبح فى الامكان تحليل مكونات النجم الكيميائية الى حـد ما . ثم دلت الملاحظات الأدق لطيف النجم على السرعة التقريبية لتحركه نحو الأرض أو بعيدا عنها ، ومن هذه الحسابات استنبط نظريا بعد النجم . وهكذا تمخض كشف نيوتن لتكوين الضوء ، وانكســاره فى الطيف ، عن نتائج كونية تقريبا فى ميدان الفلك .

ولم تتكشف هذه النتائج لنيوتن فى ذلك الحين ، ولكنه أحس (كما كتب لأولدنبرج) أنه توصل « الى أغرب كشف الى الآن ان لم يكن أهم كشف فى عمليـات الطبيعة (١٨) » فأرســل الى الجمعية الملكية فى بواكير عام ١٦٧٢ بحثا عنوانه « نظرية جديدة فى الضــوء واللون » . وقرىء البحث على الأعضاء فى ٨ فبراير ، فاثار جدلا عبر المانش الى القارة . وكان هوك قد وصف فى كتابه « ميكروجرافيـا »

١٦٦٤) تجربة شبيهة بتجربة نيوتن بالمنشور ، ولم يكن قد استنتج منها نظرية ناجحة فى اللون ، ولكنه أحس بأن فى اعفال نيوتن لفضله السابق غضا من قدره ، فانضم الى بعض أعضاء الجمعية فى نقـــد النتائج التى خلص اليها نيوتن ، واستمر النزاع ثلاثة أعـوام • كتب نيوتن المرهف الحس يقول « اننى مضطهد بالجدل الذى أثارته نظريتى فى الضوء اضطهادا جعلنى ألوم حماقتى لأننى ضحيت بنعمة عظمى ، نعمة هدوء البال ، جريا وراء سراب (١٩) » وحدثته نفسه حينا بأن « أطلق الفلسفة طلاقا بائنا لا رجعة فيــه ، الا ما أفعـــله ارضــــاء لذاتى (٢٠) » •

وثارت نقطة أخرى من نقط الجدل مع هوك حول ناقل الضوء • وكان هوك قد اعتنق نظرية هويجنز ، التى زعم فيها أن الضوء ينتقل على موجات « أثير » • ورد نيوتن بأن هذه النظرية لا تفسر مســار الضوء فى خطوط مستقيمة • واقترح بدلا منها « نظرية الجسيمات أو الدقائق corpuscular theory " : فالضوء سببه اطلاق الجســم المضيء جزيئات دقيقة لا حصر لها ، تسير فى خطوط مستقيمة خلال الفضاء بسرعة ١٩٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية • ورفض نظرية الأثير ناقلا للضوء ، ولكنه قبله بعد ذلك وسيطا لقوة الجاذبية × •

وجمع نيوتن مناقشاته حول الضـــوء فى كتــابه (البصريات Opticks فى ١٧٠٤ • ومما له دلالة أنه كتبـه بالانجليزية (فى حين كان كتاب المبادىء Psincipia باللاتينية) ، ووجهـه « الى القراء الحاضرى الذكاء والفهم ، الذين لم يتضلعوا بعد فى البصريات»• وفى نهاية الكتاب وضع قائمة لواحد وثلاثين سؤالا تتطلب مـزيدا من البحث • وكان السؤال الأول ارهاصا بهذه النبوءة « ألا تؤثر الاجسام فى الضوء عن بعد ، فتنحنى أشعته بهذا التأثير ، وألا يكون هـــذا

× فصل الفيزيائيون اللاحقون نظرية التموجات التى قال بها هويجنز على أساس أن فرض الجسيمات الذى قال به نيوتن لا يعلل تعليلا مرضيا ظواهـر الانحـــراف ، والتداخل ، والاستقطاب • ويميل الفيزيائيون المعاصرون الى الجمـــع بين الرأيين تفسيرا لظواهر تبدو أنها تشتمل على الجسيمات والامواج معا • والفوتونات أو الكمات التى يقول بها الفيزيائيون اليوم تعبد الى الذاكرة جسيمات نيوتن ، أما الاثير فقد فقد الآن اعتباره •

التاثير على أشده فى أدنى الأبعاد× ؟ » والسؤال الثــلاثون « لم لا تغير الطبيعة الأجسام الى ضوء والضوء الى أجسام ؟ » ٠

٣ - أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن ٠ شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبية الى مدار القمر ٠٠ ٠٠ بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على ســطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا ٠٠٠ فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى (٢١) » ٠

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعاد نيــوتن الى موطنه وولزثورب طلبا للسلامة ٠ وهنا نلتقى بقصة لطيفة ٠ كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) :

« ذات يوم من أيام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مد مر قريبا جدا من مركز الأرض (٢٢) » ٠

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة ٠ وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة ٠ وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشــف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها (٢٣) » ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس (٢٤) ٠ ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الاعوام الثمانية عشر التالية ٠

× قارن « النسبية » لألبرت اينشتين (بنيويورك ، ١٩٠٠) ، ٨٨ ٠

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن . فقد ذهب بعض فلكيى القرن الخامس عشر الى أن السـماوات تؤثر فى الأرض بقوة تشبه قوة تاثير المغنطيس فى الحديد ، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوى من جميع الاتجاهات فانها تبقى معلقة فى مجموع هذه القوة (٢٥) . وقد نبه كتاب جلبرت « المغنطيس » (١٦٠٠) أذهـانا كثيرة الى التفكير فى التأثيرات المغنطيسية المحيطـة بكل انسان ، وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانيـة وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغنطيسية للارض تعم منطقة القمـر ، وكلتاهما تتجـاوب وتتآلف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها (٢٦) » .

وكان اسماعيلس بوريار قد قرر فى كتابه " Astronomia Philolaica " (١٦٤٥) أن جذب الكواكب بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما (٢٧) ، وذهب ألفونسو بوريللى فى كتابه «نظريات الكواكب المديشية » (١٦٦٦) الى أن « كل كوكب وتابع يدور حول كرة كبرى فى الكون بوصفها مصدرا للقوة ، تجذب الكوكب وتابعـه وتمسكهما بحيث لا يمكن اطلاقا أن ينفصـلا عنهـا ، بل يضطران لاتباعها أينما ذهبت ، فى دورات ثابتة مستمرة » ، وقد فسر مدارات هذه الكواكب والتوابع بأنها نتيجة القوة المركزية الطاردة لدورانهـا (« كما نجد فى العجلة أو الحجر يدوم فى مقلاع ») تقابلها قـوة شمسها الجاذبة (٢٨) . وذهب كبلر الى أن الجاذبية ملازمة لجميـع الاجرام السماوية ، وقدر فى فترة من حياته أن قوتها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها ، وكان هذا خليقا بأن يكون سبقا واضحا لنيوتن ، ولكنه عاد فرفض هذه الصيغة ، وافترض أن الجذب يتناقص تناقصا طرديا مع زيادة المسافة (٢٩) . على أن هذه المداخـل الى نظرية فى الجاذبية حرفتها عن طريقها نظرية ديكارت فى الدوامات التى تكونت فى كتلة بدائية ، ثم عينت عمل كل جزء ومداره .

وقد فكر كثير من المستفسرين اليقظين فى الجمعية الملكية تفكيرا

عميقا فى رياضيات الجاذبية . وفى ١٦٧٤ سبق هوك بكتابه « محاولة لاثبات حركة الارض السنوية » « اعلان » نيوتن لنظرية الجاذبيــــة باحد عشر عاما . قال هوك :

« سأشرح نظاما للكون مختلفا فى تفاصيل كثيرة عن أى نظــام عرف الى الآن ، متفقا فى جميع الاشياء مع القواعد الشائعة للحركات الميكانيكية . وهو يعتمد على فروض ثلاثة : (أولها) أن كل الأجرام السماوية أيا كانت ذوات قوة جاذبة الى مراكزها ، لا تجذب بهــــا أجزاءها فحسب وتحفظها من أن تتطاير منها ... بل تجذب كذلك سائر الأجرام السماوية الواقعة فى مجال نشاطها ... (وثانيها) أن جميع الأجسام أيا كانت ، التى تحرك حركة طردية وبسيطة ، تستمر فى الحركة قدما فى خط مستقيم الى أن تحرفها عن طريقها قوى فعالة أخرى ... (وثالثها) أن قوى الجذب هذه يشتد فعلها بقــدر قرب الجسم الواقع تحت جاذبيتها من مراكزها » (٣٠) .

ولم يحسب هوك فى بحثه هذا أن الجذب بتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة ، ولكنه أنهى هذا المبدأ الى نيوتن - اذا صدقنا رواية أوبرى - بعد أن توصل اليه مستقلا (٣١) . وفى يناير ١٦٨٤ شرح هوك صيغة المربعات العكسية لرن وهالى ، اللذين كانا قبــلاها من قبل . فذكرا لهوك ان الحاجة ليست الى مجرد فرض ، بل الى ايضاح رياضي يثبت أن مبدأ الجاذبية يفسر مسارات الكواكب . وعرض رن على هوك وهالى جائزة قدرها أربعون شلنا (١٠٠ دولار) ان أتاه أحدهما ببرهان رياضي على الجاذبية . ولم يأته البرهان على قــــدر علمنا (٣٢) .

وفى أحد أيام أغسطس ١٦٨٤ ذهب هالى الى كمبردج وســأل نيوتن ماذا يكون مدار كوكب ما اذا تناسب جذب الشمس له تناســبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما . وأجاب نيوتن أنه يكون قطعا ناقصا (اهليلجا) . ولما كان كبلر قد استخلص من دراســـته الرياضـــــية لمشاهدات تيكو براهى أن مدارات الكواكب اهليلجية ، فقــد بدا أن الفلك الآن تأيد بالرياضة ، والعكس بالعكس . وأضـــاف نيوتن أنه أجرى الحسابات تفصيلا فى ١٦٧٩ ، ولكنه نحاها جانبا ، من جهــة

لأنها لم تتفق تماما مع التقديرات السائدة يومها لقطر الأرض والبعد بين الأرض والقمر ، وأرجح من هذا السبب أنه لم يكن واثقا من أنه يستطيع تناول الشمس ، والكواكب ، والقمر على أنها نقط مفردة فى قياس قوتها الجاذبة . ولكن فى عام ١٦٧١ أذاع بيكار قياسه الجديد لنصف قطر الارض ولدرجة من درجات خطوط الطول ، التى حسب أخيرا أنها تبلغ ٦٩ر١ ميلا تشريعيا انجليزيا ، وفى عام ١٦٧٢ تمكن بيكار بفضل بعثته الى سايين من حساب بعد الشمس عن الأرض فقرر أنه ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٧ ميل (والرقم الحالى ٠٠٠ر ر٩٢) واتفقت هذه التقديرات الجديدة اتفاقا طيبا مع رياضة نيوتن فى الجاذبية ، وأقنعه المزيد من الحسابات فى ١٦٨٥ بأن الكره تجذب الاجسام وكأن كتلة هذه الكرة كلها تجمعت فى مركزها . وشعر الآن بمزيد من الثقة فى فرضه .

ثم قارن سرعة حجر على الأرض بسرعه سقوط القمر على الأرض اذا نقصت قوة جذب الأرض له بمربع المسافة بينهما . فوجد أن نتائجه تتفق وآخر البيانات الفلكية . فخلص من هذا الى أن القوة التى تسقط الحجر، والقوة الجاذبة للقمر نحو الأرض رغم قوة طرد القمر المركزية ، هما قوة واحدة . وسر الانجاز الذى حققه هنا كامن فى تطبيقه هذه النتيجة التى انتهى اليها على جميع الاجسام التى فى الفضاء ، وفى تصوره أن جميع الأجرام السماوية مترابطة فى شبكه من التاثيرات الجذبية ، وفى بيانه كيف أن حساباته الرياضية والميكانيكية تتفق وملاحظات الفلكيين ، لا سيما قوانين كبلر الكوكبية × .

وبدأ نيوتن اجراء حساباته من جديد ، وأنهاها الى هالى فى نوفمبر ١٦٨٤ . وأدرك هالى اهميتها فحثه على تقديمها للجمعية

× قوانين كبلر (١٦٠٩ ، ١٦١٩) : (١) ان الكواكب ترسم مدارات اهليلجية ، فيها الشمس بؤرة واحدة (٢) ان الخط الذى يربط كوكبا بالشمس ينتشر فوق مساحات متساوية فى أوقات متساوية . (٣) ان مربع فترة دوران الكوكب يتناسب مع مكعب متوسط بعده عن الشمس . وهذه الصيغة افضت الى قانون المربعات العكسية .

الملكية فوافق ، وأرسل الى الجمعية رسالة فى « قضايا الحركة » (فبراير ١٦٨٥) ، لخص فيها آراءه فى الحركة والجاذبية . وفى مارس ١٦٨٦ بدأ عرضنا أوفى ، وفى ٢٨ أبريل ١٦٨٦ قدم للجمعية مخطوط الكتاب الاول من كتب الحركة ، عن المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية . وللتو لفت هوك النظر الى أنه سبق نيوتن فى ١٦٧٤ . ورد نيوتن فى رسالة الى هالى أن هوك اخذ فكرة المربعات العكسية عن بوريللى وبويار . وتفاقم الخلاف حتى أصبح سخطا من الطرفين ، وحاول هالى أن يصلح ذات البين ، وهدأ نيوتن ثائرة هوك بتضمين مخطوطته حاشية ، تحت القضية الرابعة ، أقر فيها بفضل « أصدقائنا رن ، وهوك ، وهالى » ، فى أنهم « استنتجوا من قبل » قانون المربعات العكسية . ولكنه ضاق بالنزاع أشد الضيق حتى انه حين أعلن لهالى (٢٠ يونيو ١٦٨٧) أن الكتاب الثانى جاهز ، أضاف قائلا « فى نيتى الآن أن أوقف الكتاب الثالث . فالفلسفة أشبه بامرأة مشاكسة وقحة تزج بمن يتعامل معها فى قضايا أمام المحاكم » . وأقنعه هالى بأن يواصل الكتاب . وفى سبتمبر ١٦٨٧ نشر المؤلف كله برعاية الجمعية الملكية ورئيسها آنئذ ، صموئيل بيبيس . ولما كانت الجمعية فى ضائقة مالية ، فقد أنفق هالى على النشر بأكمله من جيبه الخاص ، مع أنه لم يكن بالرجل الميسور . وهكذا ، وبعد عشرين عاما من الاعداد ، ظهر أهم كتاب فى علم القرن السابع عشر ، كتاب لا يضارعه فى عظم تأثيره فى ذهن أوربا المثقفة سوى كتاب كوبرنيق فى الدورات (١٥٤٣) ، وكتاب دارون فى أصل الأنواع (١٨٥٩) . هذه الكتب الثلاثة هى أهم الأحداث فى تاريخ أوربا الحديثة .

٤ ـ كتاب المبادىء « برنكبيا **Principia** »

فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الاشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد ان نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) والصفات الغيبية ، حاولوا اخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقد

طورت الرياضة فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ... وعليه فانا نقدم هـذا المؤلف على أنه المبـادىء الرياضـية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الاخرى من هذه القوى » .

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهـر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكبة ، لأن مبررات كثيرة تحملنى على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على فوى معينة تدفع بواسـطتها جزيئات الاجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضـها نحـو البعض ، وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ، واذ كانت هذه القوى مجهولة ، فقد حاول الفلاسـفة الى الآن البحث فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادىء الموضوعة هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة ».

وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والبديهيات ، صـاغ ثلاثة قوانين للحركة :

١ ـ كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه .

٢ ـ تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم فى اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة .

٣ ـ كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له .

أما وقد تسلح نيوتن بهذه القوانين ، وبقـانون التربيع العكسى فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية . وصورة المبدأ الحالية ، وهى أن كل جزىء من المادة يجذب كل جزىء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما ، هـذه الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادىء ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى: « ان الجاذبية ... تعمل ... حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ... متناقصة

أبدا بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات (٣٣) » • وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجـــد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التى استنتجها كبــلر • وزعم أن الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة ، وتحفظ في مداراتها، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع أبعادها عن مركز الشمس • وعنى أساس مبادىء مماثلة فسر جذب المشترى لتوابعه، والأرض للقمر • وبين أن نظرية ديكارت فى الدوامات باعتبارها الشكل الاول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانبن كبلر • وحسب كتــلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء • (والرقم الحالى ٥ر٥) • وعلل رياضيا تفرطح الأرض عند القطبين ، وعزا انبعاجها عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمــــر الموحـــد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمــــرى ـ الشمسي فسر مبــــادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهــذا أيد نبوءة هالى • وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لانه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم بنظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخــــر • ولكن فى هذا الحشد المعقد من الاجرام السماوية وضع نيــــوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض • ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة •

ونفدت الطبعة الأولى من « المبادىء » سريعا ، ولكن لم تظهــــر طبعة ثانية الا فى ١٧١٣ • وعزت نسخه حتى أن عالما نسخ الكتاب كله بيده (٣٤) • واعترف القراء بأنه عمل فكرى من أرفع طــراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه • فرفضت فرنسا النظــام النيوتنى لتشبثها بدوامات ديكارت ، الى أن عرضه فولتير فى ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيــل • واعترض كاســـينى وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الاجرام السماوية ، ولكنه لم يكشــف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله • وقال ليبنتز بأنه

ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلال فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على أنها شيء أكثر من مجرد كلمة (٣٥) .

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى فى انجلترة . وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما . وبينما شكا النقاد فى فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافى اذا قيست بدوامات ديكارت البدائية ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترة فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى فى كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » (١٧١٠) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية . فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتنى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله .

دلما وافق نيوتن بعد ما عهد فيه من تسويفات على أن يعد طبعه ثانية الكتاب ، حاول أن يهدىء من ثائرة نقاده . فأكد لليبنتز والفرنسيين أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم أنه لن يحاول وصفه ثم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية . وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانية كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى أنه « لا يضع فرضا (٣٦) ». وأضاف « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العامل مادى أو غير مادى (٣٧) » .

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه . فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطة الهية ، فالآلة الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لا بد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسي شذوذات فى المسلك يصححها تعالى دوريا كلما ظهرت (٣٨) . ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمضي الوقت ، وستفقدها كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها

قوتها (٣٩) ٠ واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه (٤٠) » ٠ وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الاجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزيئات الأجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاورت ، وتعمل الاحسام الكهربية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزيئات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الأجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بأمر الأرادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، مبثوثة بالتبادل على خيوط الاعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات ٠ على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التحارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقا لها هذه الروح الكهربية المرنة (٤١) » ٠

ترى ماذا كان ايمانه الدينى الحقيقى ؟ لقد تطلبت أساتذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسية الانجليكانية ٠ أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيره « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمته من النصيب الأفضل (٤٢) » ٠ ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون ٠ وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين (٤٣) » وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين (٤٤) » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية ٠

وقادته دراساته الى نتائج أشبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها أن المسيح وان كان ابن الله الا أنه ليس مساويا لله الآب فى الزمن أو القوة (٤٥) ٠ وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما ٠ ويبدو أنه آمن بكل كلمة من كلمات

الكتاب المقدس على أنها كلمة الله ، وأنه قبل سفرى دانيـــال ورؤيا يوحنا على أنهما الحقيقة بحذافيرها • لقد كان أعظم علمـــاء عصره صوفيا نسخ فى شغف فقرات طويلة من يعقـــوب بومى ، وطلب الى لوك أن يناقش معه معنى « الحصـــان الابيض » الوارد فى ســـفر الرؤيا • وقد شجع صديقه جون كريج على كتابه « الاسس الرياضـية للاهوت المسيحى » (١٦٩٩) الذى حاول أن يثبت بالرياضة تاريخ مجىء المسيح الثانى ، والنسبة بين أقصي ما يمكن بلوغه من السعادة الأرضية وسعادة المؤمن التى يجزى بها فى الفردوس (٤٨) • وقد كتب تعليقا على سفر الرؤيا ، وزعم أن المسيح الكاذب المتنبأ به فى السفر هو بابا روما • لقد كان ذهن نيوتن مزيجا جمع بين ميكانيكا جاليليو وقوانين كبلر وبين لاهوت بومى • ولن يطالعنا الزمان بمثـــله عن قريب •

٥ ـ الأصـــيل

لقد كان بمعنى آخر مزيجا شاذا ، رجلا مستغرقا بشكل واضح فى النظرية الرياضية والصوفية ، وهو مع ذلك ذو مقدرة عملية وفطرة سليمة اختارته جامعة كمبردج عام ١٦٨٧ ليذهب مع آخرين للاحتجاج لدى جمبس الثانى على محاولة هذا الملك أن يفرض على الجامعة أن تمنح راهبا بندكتيا درجة جامعية دون أن يحلف الايمان العادية التى يستحيل على الكاثوليكى أن يقبلها • وفشلت البعثة فى ثنى الملك عن قراره ، ولكن لا بد أن الجامعة رضيت عن رآسة نيوتن لها ، لأنه اختير عضوا ممثلا لكمبردج فى برلمان ١٦٨٩ • وظل عضوا حتى حل البرلمان عام ١٦٩٠ ، ثم أعيد انتخابه عام ١٧٠١ ، ولكنه لم يشارك فى السياسة بدور مذكور •

وتخللت حياته العملية عام ١٦٩٢ سنتان من المرض الجسـمى والعقلى • فقد كتب الى بيبيس ولوك رسائل يشـكو فيهـــا من الأرق والسوداء ، ويعرب عن مخـــاوف الاضطهاد ، ويتحسر على فقـــده « تماسك ذهنه القديم (٤٧) » • وفى ١٦ ســـبتمبر ١٦٩٣ كتب الى لوك يقول :

سيدى : ان ظنى أنك حاولت توريطى فى علاقات نسائية وبطرق

آخرى أثر فى نفسي تأثيرا شديدا ، حتى أننى أجبت حين أخبرنى احدهم بأنك مريض ولن تعيش ، بأن من الخير أن تمــوت · وأود أن تغتفر لى هذه القسوة لأننى الآن مقتنع بأن ما فعلتـه صــواب ، وأسألك الصفح عن اساءتى الظن بك فى هذا الأمر ، وعن قولى انك أصبت الفضيلة فى الصميم بمبدأ وضعته فى كتـاب « الأفكار » الذى ألفته ، ونويت أن تواصله فى كتابه آخر ، وعن أننى حسبتك خطأ من انصار هوبز · كذلك أسألك الصفح عن قولى أو ظنى بأن هناك خطـة لبيعى منصبا ، أو لتوريطى ···

وانى خادمك الخاضع المنكود الحظ

اسحاق نيوتن (٤٨)

وذكر بيبيس فى خطاب تاريخه ٢٦ سبتمبر ١٦٩٣ « اضطرابا فى ··· الرأس أو العقل » تدل عليه رسالة تلقاها من نيــوتن · وقد خلف هويجنز عند وفاته (١٦٩٥) مخطوطة دون فيها تحت يوم ٢٩ مايو ١٦٩٤ أن « مستر كولين ، وهو رجل اسكتلندى ، أنبأنى أن عالم الهندسة الشهير اسحاق نيوتن أصابته لوثة قبل ثمانية عشر شــهرا » ولكنه استعاد صحته فبدأ يفهم كتابه « المبادىء » · وأرسل هويجنز التقرير الى ليبنتز فى رسالة مؤرخة ٨ يونيو ١٦٩٤ قال فيها : « ان الرجل الطيب المستر نيوتن أصيب بنوبة من الخبل لازمته ثمانية عشر شهرا ، وقيل أن اصحابه شفوه منها بالعقاقير وابقائه محبوسا (٤٩) » وظن البعض أن هذا الانهيار العصبى صرف نيوتن عن العلم الى سفر الرؤيا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا · وقيل « انه لم يركز قط كما ألف أن يركز ، ولم يقم بأى جهد جديد (٥٠) » ومع ذلك ففى ١٦٩٦ حل على الفور تقريبا مسألة حسابية اقترحها يوهان برنوللى « على أذكى الرياضيين فى العالم » ، وكذلك فعل بمســألة وضــعها ليبنتز عام ١٧١٦ (٥١) · وقد أرسل رده على برنوللى غفلا من الاسم بطــريق الجمعية الملكية ، ولكن برنوللى حزر على الفور أن صاحبه نيوتن ، اذ تبين « الأسد من مخلبه » على حد قوله · وفى عام ١٧٠٠ اكتشف نظرية آلة السدس ، ولم يكشف النقاب عنها الا بخطاب لهالى ، ووجب أن يعاد اختراعها عام ١٧٣٠ · ويبدو انه شرف المناصب العسيرة التى بادرت الدولة بتعيينه فيها ·

وكان لوك ، وببيس ، وغيرهما من أصدقاء نيوتن قد فاوضوا حينا للحصول له على منصب حكومى يخرجه من سجن حجرته ومختبره فى كمبردج • وفى عام ١٦٩٥ اقنعوا اللورد هالبفاكس بأن بعرض عليه وظيفة أمين دار سك النقود • ولم تكن الوظيفة شرفية ولا صدقة ، اذ أرادت الحكومة أن تفيد من علم نيوتن بالكيمياء والمعـادن فى ضرب عملة حديدة • ففى ١٦٩٥ انتقل الى لندن ، حيث عاش مع ابنة أخته كاترين بارتون ، خليلة هالبفاكس (٥٢) • وقد خيل الى فولتير أن افتتان هاليفاكس ببنت الاخت هذه حمل هاليفاكس وهو وزير للخزانة على أن يعين نيوتن مديرا لدار سك النقود فى ١٦٩٩ (٥٣) ، ولكن هذه الشائعة لا تكاد تفسر استمرار نيوتن فى شغل ذلك المنصب طوال الثمانية والعشرين عاما الباقية له فى أجله ، وشغله على نحو حـاز الرضاء العام •

وكان خليقا بشيخوخته أن تكون سعيدة • فقد كرمته الدولة بوصفه أعظم العلماء الاحياء ، ولم يحظ رجل من رجال العلم حتى وقتنا هذا بمثل ما حظى به من ثناء عريض • وقد انتخب رئيسا للجمعية الملكية عام ١٧٠٣ ، وظل ينتخب سنويا بعد ذلك حتى وفاته • وفى عام ١٧٠٥ خلعت عليه الملكة آن لقب الفروسية • وحين ركب عربته مخترقا شوارع لندن تفرس الناس برهبة فى وجهه الوردى ، وقد فاض جـلالا وطيبة تحت لمة من الشعر الابيض • ولم يستطيعوا طوال الوقت أن يلحظوا أنه قد عرض باكثر مما يتناسب مع طوله المتواضـع • وكان يستمتع براتب طيب بلغ ٢٠٠ر١ جنيه فى العام ، وقد استثمر مدخراته بحكمة حتى انه خلف عند وفاته ٠٠٠ر٣٢ جنيـه (٥٤) ، رغم سـخائه فى الهدايا والصدقات • وقد أفاق من خسارته فى انهيار شركة « سـاوث سي » • على أنه كان متقلب المزاج ، وأحيانا سريع الغضب سيىء الظن ، كتوما ، ودائما شديد التهيب رغـم كبريائه (٥٥) • كان يحب اعتزال الناس ولا يصنع الاصدقاء بسهولة • وفى عام ١٧٠٠ عرض الزواج على أرملة غنية ، ولكن العرض لم يسفر عن نتيجة ، ولم يتزوج قط • واذ كان عصبى المزاج • حساسا بشكل مرضي ، فقد كان لا يطيق النقد الا متألما ، ويغتاظ منه غيظا شديدا ، ويرد الصاع صاعين فى الجدل • وكان يعرف قدر عمله وكفايته ، ولكنه عاش عيشا متواضعا الى أن أتارح له راتبه

ومدخراته أن يستخدم ستة خدم ويستمتع بمكان مرموق فى المجتمع اللندنى .

فلما بلغ التاسعة والسبعين بدأ يرد دينه للطبيعة . فاصابته الأمراض التى لا تقيم للعبقرية وزنا - حصاة المثانة وسلس البول ، وحين بلغ الثالثة والثمانين أصيب بالنقرس ، وفى الرابعة والثمانين بالبواسير . وفى ١٩ مارس ١٧٢٧ اشتدت به آلام الحصاة حتى فقد وعيه . ولم يفق قط ، ومات فى الغد وقد بلغ الخامسة والثمانين ، ودفن فى كنيسة وستمنستر بعد أن شيع بجنازة تصدرها رجال الدولة والنبلاء والفلاسفة ، وقد سجى فى نعش حمله الأدواق والايرلات . وأغرقه الشعراء بمراثيهم ، وألف بوب قبرية شهيرة قال فيها : « ان الطبيعة وقوانينها كان يلفها ظلام الليل ، وقال الله ليكن نيوتن ، فأصبح الكل ضياء » ولم يملك فولتير عواطفه ، حتى فى شيخوخته ، وهو يروى كيف شاهد ، أثناء منفاه فى انجلترة ، رياضيا يدفن بمظاهر تكريم الملوك (٥٦) .

وبلغ صيت نيوتن ذرى أشرفت على السخف . فقدر ليبنتز أن اسهامات منافسه فى الرياضة تعدل فى قيمتها كل المؤلفات السابقة فى ذلك العلم (٥٧) . وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم واندر عبقرى ظهر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه (٥٨) » ووافقه فولتير فى تواضع (٥٩) . ووصف لجرانج كتاب المبادىء بأنه « أعظم انتاج انتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الابد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » ، وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ (٦٠) . ومثل هذه الاحكام لاثبات لها ، لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة .

ولو أننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تاثيره وطول بقاء هذا التاثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسي الاديان العالمية والفلسفات المحورية . لقد كان تاثيره على الرياضة الانجليزية - حينا - تاثيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القارة . ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض

الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن (٦١) • أما فى الميكانيكيا فقد اثبت عمله أنه خلاق الى غير حدود • كتب ارنست ماخ يقول : « ان كل ما انجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويرا استنتاجيا ، شكليا ، رياضيا ••• على أساس قوانين نيوتن (٦٢) » •

وقد خشي اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب « المبادىء » على الدين ، ولكن محاضرات بويل التى ألقاها بنتلى (١٦٩٢) ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تأييد الايمان ، لانها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله • على أن هذا النسق النيوتونى ذاته قبله الربوبيون على أنه يدعم ايمانهم ، وهو القبول البسيط لاله واحد ، أو حتى اعتبار الله واحدا هو والطبيعة وقوانينها ، بدلا من اللاهوت المسيحى • وأغلب الظن أن تاثير نيوتن النهائى فى الدين كان ضارا ، فقد افترض أحرار الفكر أنه برغم تأكيداته ، وملايين الكلمات التى احتوتها كتاباته اللاهوتية ، أنه تصور عالما قائما بنفسه ، وأنه أدخل الاله فيه فكرة لاحقة معزبة • وفى فرنسا على الأخص شجعت كونيات نيوتن ، رغم عرض فولتير لها عرضا ربوبيا ، الحاد الكثيرين من « الفلاسفة » الحادا يقوم على ميكانيكية الكون •

وفى الفترة بين اضمحلاء نظرية ديكارت فى نشأة الكون فى فرنسا (حوالى ١٧٤٠) وظهور نظريات النسبية وميكانيكا الكم فى القرن العشرين ، لم يصادف « نسق العالم » النيوتنى أى تحد خطير ، وبدا مؤيدا من كل تقدم أو كشف فى الفيزياء أو الفلك • والخلافات الرئيسية بين الفيزيائيين المعاصرين وميكانيكا نيوتن ، على قدر ما يستطيع غير المتخصص فهم هذه الالغاز ، هى :

١ ـ ذهب نيوتن الى أن المكان والبعد ، والزمان والحركة ، أشياء مطلقة ـ أى أنها لا تختلف كما باختلاف أى شيء خارجها (٦٣) • أما أينشتين فقد اعتبرها نسبية ـ تختلف باختلاف موقع وحركة المشاهد فى المكان والزمان •

٢ ـ افترض أول قوانين نيوتن للحركة ، فى وضوح ، أن الجسم قد « يستمر فى حالة سكون ، أو حركة منتظمة فى خط مستقيم » ولكن

« السكون » نسبى دائما ، كسكون مسافر فى طائرة مسرعة ، وكل الاشياء تتحرك ، ولا تتحرك أبدا فى خط مستقيم ، لأن كل خط حـــركة أو فعل تحرفه الأجسام المحيطة (كما أدرك نيوتن) .

٣ ـ كانت فكرة نيوتن عن الكتلة أنها من الثوابت ، وفكرة بعض الفيزيائيين المعاصرين عنها أنها تختلف باختـلاف السرعة النســبية للمشاهد والشيء .

٤ ـ النظرة السائدة الآن الى « القوة » هى أنها فكرة ميسرة . ولكنها ليست ضرورية فى العلم ، الذى يهدف الى الاكتفـــاء بوصف التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج . فلسنا نعلم ، ولا حاجة بنا الى أن نعلم (كما يقول لنا العلماء) ما هو « هذا » الذى يسرى من جسم متحرك الى آخر يصدمه ذلك الجســـم ، فالحاجـة فقط لتســجيل التتابعات ، والعلاقات ، والنتـــائج ، وللافتراض (دون أى يقينية مطلقة) بأن هذه ستكون فى المستقبل ما بدته فى الماضي . والجاذبية وفقا لهذا الرأى ليست قوة ، بل نظام علاقات بين الأحداث فى الزمان والمكان .

ومما يعزينا أن نعلم أن هذه وغيرها من التنقيحات الطـارئة على ميكانيا نيوتن لا أهمية لها الا فى ميـــادين (كالظواهر الكهربيـة ـ المغنطيسية) تبدو الجزيئات فيها تتحـرك بسرعة تقـــرب من سرعة الضوء ، وفى غير هذا فالفرق بين الفيرياء القديمة والحديثة يمكن أن نتجاهله مطمئنين . وللفلاسفة ـ الذين شفاهم التاريخ من اليقينية ـ أن يحتفظوا بارتيابية متواضعة من نحو الافكار المعاصرة ، بمـا فى ذلك أفكارهم هم ، وسوف يحسون نسبية متدفقة فى صـيغ النســبية ، وسوف يذكرون كل المنقبين فى الذرات والنجوم بتقدير نيوتن النهائى لانجازه الخطير :

« لست أعلم كيف أبدو للعالم ، ولكنى أبدو لنفسي وكأننى صبى يلعب على شاطىء البحر ، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة ، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامى (٦٤) » .



٩

مراجع

الجزء ٣٢ ص ٣٣

CHAPTER VII

1. Firth, *Oliver Cromwell*, 228.
2. *Ibid.*, 230.
3. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 218-219.
4. Firth, 244.
5. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 168.
6. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 294.
7. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 427.
8. *Ibid.*, 428; Gardiner, S.R., *History of the Commonwealth and Protectorate*, I, 48.
9. Gooch, 183-84; Bowle, *Western Political Thought*, 343.
10. Gooch, 189-90.
11. D'Alton, *History of Ireland*, IV, 308.
12. *Camb. Mod. History*, IV, 533.
13. Carlyle, *Cromwell*, I, 458.
14. *Ibid.*
15. Firth, 255.
16. *Camb. Mod. History*, IV, 538.
17. Firth, 259.
18. Lingard, *History of England*, VIII, 178.
19. Churchill, Winston, *History of the English-speaking Peoples*, II, 235.
20. Lingard, VIII, 146.
21. Lang, Andrew, *History of Scotland*, III, 233.
22. Morley, John, *Oliver Cromwell*, 319.
23. Gooch, 165.
24. Lingard, VIII, 194-95.
25. Firth, 312; Hallam, *Constitutional History of England*, II, 229-30.
26. Gardiner, *History of the Commonwealth*, II, 208-10; *History Today*, October 1953, p. 690.
27. Morley, *Cromwell*, 336.
28. Firth, 319.
29. Hume, David, *History of England*, IV, 551n.
30. Churchill, II, 245.
31. Guizot, *History of Civilization*, I, 240-1.
32. Lingard, VIII, 207.
33. *Ibid.*, 211; Trevor-Roper, 188.
34. Morley, *Cromwell*, 427.
35. Firth, 445.
36. Hume, D., *History*, IV, 578.
37. Walpole, Horace, *Anecdotes of Painting in England*, I, 425.
38. Lingard, VIII, 271.
39. Hallam, *Constitutional History*, II, 241-243; Morley, *Cromwell*, 390.
40. Morley, 400.
41. Plato, *Republic*, §§556-65.
42. Evelyn, *Diary*, I, 331.
43. Morley, *Cromwell*, 413.
44. Macaulay, *History of England*, I, 128.
45. Lingard, VIII, 203.
46. Firth, 355; Morley, 412.
47. Hume, D., *History*, V, 45.
48. Churchill, II, 248.
49. Firth, 344.
50. In Masson, David, *Life of John Milton*, V, 23.
51. Fox, George, *Journal*, 34.
52. *Ibid.*, 4-5.
53. 8-9.
54. 11.
55. 12.
56. 20.
57. 22.
58. 27.
59. 36.
60. 43.
61. 51.
62. 105-6.
63. Firth, 357.
64. Lingard, VIII, 243-44.
65. Beard, Miriam, 397; Firth, 392.

66. Beard, 396.
67. Churchill, II, 249.
68. Hume, D., *History*, IV, 592.
69. Firth, 433.
70. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 118.
71. Lingard, VIII, 267.
72. *Ibid.*, 268.
73. Macaulay, *History*, I, 152.
74. *Enc. Brit.*, VI, 745d.
75. *Camb. Mod. History*, IV, 542.
76. Masson, *Milton*, V, 619.
77. Bowle, *Western Political Thought*, 337.
78. *Camb. Mod. History*, IV, 554; Bryant, Sir Arthur, *Charles II*, 58.
79. Lingard, VIII, 236.
80. Hallam, II, 328.
81. *Ibid.*, 329.
82. Bryant, 60.
83. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 66.
84. Bryant, 64.
85. Lingard, VIII, 304.

CHAPTER VIII

1. Allen, J. W., *English Political Thought*, 268.
2. Walton, Izaak, *Complete Angler*, 15.
3. Palgrave, *Golden Treasury*, 67.
4. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 2, in *Entire Works*, I, 5-6.
5. *Ibid.*, No. 4.
6. No. 8.
7. In Froude, *Bunyan*, p. 8.
8. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 14.
9. *Ibid.*, No. 97.
10. No. 96.
11. No. 104.
12. Coulton, *Life in the Middle Ages*, I, p. 20.
13. *Grace Abounding*, No. 116.
14. Froude, *Bunyan*, p. 59.
15. *Ibid.*, 65.
16. 72.
17. 74-82.
18. *Pilgrim's Progress*, 7.
19. Acts xvi, 31.
20. *Pilgrim's Progress*, 169-71.
21. *Ibid.*, 193.
22. 196.
23. 11.
24. *Camb. History of English Literature*, VII, 197-98.
25. Froude, *Bunyan*, 86.
26. Milton, *Defensio Secunda*, in *Areopagitica and Other Works*, 291.
27. Johnson, Samuel, *Lives of the Poets*, I, 57.
28. Saintsbury, *History of English Literature*, 159.
29. Milton, *Reason of Church Government*, in *Areopagitica, etc.*, 305.
30. Milton, *Poetical Works*, 46.
31. *Comus*, II. 768f.
32. *Defensio Secunda*, *loc. cit.*, 293.
33. *Reason of Church Government*, *loc. cit.*, 301.
34. "Letter to Mr. Hartlib," in *Areopagitica, etc.*, 46.
35. Johnson, *Lives*, I, 63.
36. Milton, "Letter to Mr. Hartlib," *loc. cit.*, 48.
37. As indicated in *Apology for Smectymnuus*, in *Areopagitica, etc.*, 113.
38. Masson, *Milton*, II, 215.
39. Milton, "Of Reformation," in *Areopagitica, etc.*, 58.
40. *Ibid.*, 102.
41. 103.
42. Masson, II, 257.
43. *Ibid.*, 390, 396.
44. Milton, in *Areopagitica, etc.*, 123.
45. *Ibid.*, 121.
46. 124.
47. 304.
48. *Reason of Church Government*, in Masson, II, 371.
49. *Areopagitica, etc.*, 302.
50. *Ibid.*, 303.
51. 304.
52. 146.
53. Masson, II, 487.
54. Aubrey, *Brief Lives*, 201.
55. Milton, *Doctrine and Discipline of Divorce*, in Taine, *History of English Literature*, 281.
56. Pattison, Mark, *Milton*, 58.
57. *Areopagitica, etc.*, 198.
58. *Ibid.*, 225.
59. 195.
60. Masson, III, 320-21.
61. *Ibid.*, 269.
62. *Areopagitica*, 4-5.
63. *Ibid.*, 21.
64. 13.
65. 35.
66. 36.
67. 38.
68. 34.
69. Masson, IV, 64.
70. *Ibid.*, 92.
71. *Areopagitica, etc.*, 4.
72. Masson, IV, 45n.
73. In *Areopagitica, etc.*, 289.
74. Masson, IV, 168.
75. *Ibid.*, 255-5
76. 261.
77. 263-67.
78. Johnson, *Lives*, I, 69.
79. Masson, IV, 520.
80. *Defensio Secunda*, in Johnson, I, 72.

>

81. Masson, IV, 455-56.
82. *Ibid.*, 457.
83. *Ibid.*, 458.
84. Disraeli, *Curiosities*, I, 154.
85. Masson, IV, 627.
86. *Ibid.*, 581.
87. 588
88. 605.
89. 612-15.
90. 609.
91. 610.
92. *Ibid.*
93. Masson, V, 206.
94. *Ibid.*, 215.
95. 369-70.
96. 573.
97. *Ready and Easy Way*, in *Areopagitica, etc.*, 166-69.
98. *Ibid.*, 186.
99. 181.
100. Masson, V, 603.
101. Aubrey, 202.
102. Masson, VI, 447, 649; Johnson, *Lives*, I, 87.
103. Pattison, *Milton*, 148.
104. Masson, VI, 476.
105. Aubrey, 201.
106. *Paradise Lost*, VII, 26.
107. Hutchinson, F. E., *Milton and the English Mind*, 118.
108. Johnson, I, 85.
109. *Ibid.*, 102, 108.
110. *Paradise Lost*, I, ll. 106f., 105-40.
111. *Ibid.*, I, 253-55.
112. IV, 800.
113. IV, 515f.
114. IX, 703-8.
115. VIII, 66f.
116. IV, 738f.
117. IX, 1051f.
118. X, 884, 888f.
119. *Cf.* IV, 634-38.
120. *Samson Agonistes*, 1053-60.
121. Masson, VI, p. 830.
122. *Paradise Lost*, III, l. 183; Masson, VI, p. 831.
123. Masson, 818.
124. *De Doctrina Christiana*, Ch. XXX, in Willey, *Seventeenth-Century Background*, 71-72.
125. Masson, VI, 817.
126. John Toland in Hutchinson, 152.
127. Johnson, I, 192.
128. Masson, VI, 683; Hutchinson, 104.
129. Aubrey, 201.
130. Masson, II, 473.
131. *Ibid.*, I, 312.
132. Johnson, I, 60.
133. *De Doctrina Christiana*, in Masson, VI, 837.
134. *Paradise Lost*, I, l. 416; IV, 765f.
135. Masson, VI, p. 654.
136. *Paradise Regained*, II, ll. 352f.
137. *Ibid.*, IV, 338.
138. IV, 606.
139. Masson, VI, p. 655.
140. Johnson, I, 88.
141. *Samson Agonistes*, ll. 68-72, 80-82.
142. *Ibid.*, 1034-60.
143. *Ibid.*, 597-98.
144. Masson, VI, p. 727.
145. Johnson, I, 92.
146. Dryden, *Essays*, 108.
147. *The Spectator*, Jan. 5-May 3, 1712.

CHAPTER IX

1. Evelyn, *Diary*, I, 341.
2. Bryant, *Charles II*, 85.
3. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 171.
4. Taine, *English Literature*, 314.
5. Hume, *History of England*, V, 61.
6. Bryant, 90.
7. *Ibid.*, 89; Churchill, II, 264.
8. *Cf.* his speech in Peterson, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 96.
9. Pepys, *Diary*, Oct. 13, 1660.
10. Evelyn, *Diary*, I, 350.
11. As by Macaulay, *History of England*, I, 135; *cf.* Bryant, 128.
12. Burnet, *History of His Own Times*, 71.
13. Bryant, 133.
14. *Ibid.*, 159.
15. Pepys, July 27, 1667.
16. Burnet, 101.
17. *Grammont Memoirs*, 115n.
18. *Ibid.*, 116.
19. Pepys, May 19, 1668.
20. Bryant, 238.
21. Evelyn, Oct. 4, 1683.
22. Taine, *English Literature*, 314.
23. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 43.
24. Burnet, 103.
25. Evelyn, Feb. 4, 1685.
26. *Grammont Memoirs*, 350.
27. *Ibid.*, 356.
28. Aubrey, 288.
29. Bryant, 168.
30. Burnet, 33.
31. Bryant, 82.
32. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 84.
33. Buckle, Ia, 261n.
34. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 363.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 137.
36. Hallam, *Constitutional History*, II, 327.
37. *Ibid.*
38. Burnet, 41.
39. Dick, O. L., Introd. to Aubrey, *Lives* lxxviii.

5

40. Besant, Walter, *London in the Time of the Stuarts*, 87; Lecky, W. E., *History of . . . the Spirit of Rationalism in Europe*, II, 66.
41. Burnet, 45-46; Ure, Peter, *Seventeenth-Century Prose*, 136-38.
42. Burnet, 45.
43. Quoted on title page of Toland's *Christianity Not Mysterious*.
44. In Allen, J. W., *English Political Thought*, 297.
45. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*, 122.
46. Weber, Max, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, 158-9.
47. Macaulay, *History*, I, 377-79.
48. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 152; Green, J. R., *Short History of the English People*, III, 1338.
49. *Ibid.*
50. Aubrey, 234; *Enc. Brit.*, XVII, 473d.
51. Buckle, Ia, 301n.
52. Churchill, II, 271.
53. Bryant, *Charles II*, 162n.
54. Fülop-Miller, *The Jesuits*, 344; Macaulay (*History*, III, 261) estimated the Catholics as 2 per cent of the population of England in 1690.
55. *History Today*, March 1954, p. 150.
56. Trevelyan, *English Social History*, 276; Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 5; Macaulay, *History*, I, 221.
57. Toynbee, A. J., *Study of History*, ed. Somervell, 237.
58. Trevelyan, *Social History*, 322; Marx, *Capital*, 300n.
59. Nussbaum, *Economic Institutions*, 216.
60. Wolf, *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 616.
61. Macaulay, *History*, I, 320.
62. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 287.
63. Macaulay, I, 321.
64. Mousnier, *Histoire générale*, 146.
65. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 267.
66. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 267.
67. Nussbaum, 108.
68. Wingfield-Stratford, 579.
69. *Ibid.*, 577.
70. Lipson, E., *Growth of English Society*, 176-7.
71. *Ibid.*, 182.
72. Hume, *History*, V, 429; Cunningham, W. C., *Western Civilization in Its Economic Aspects*, II, 216; Lecky, *England in the 18th Century*, I, 194.
73. Bryant, *Charles II*, 278.
74. Besant, 184.
75. *Camb. Mod. History*, V, 206.
76. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 212.
77. Besant, 122.
78. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 47; Los Angeles *Times*, Dec. 21, 1958.
79. Howard Kennedy in Los Angeles *Times*, March 2, 1958.
80. Besant, 223.
81. Defoe, *Journal of the Plague Year*, 7-8.
82. Evelyn, Feb. 7, 1666; *cf.* Pepys, Sept. 2, 1666.
83. Pepys, Sept. 2, 1666; Evelyn, Sept. 7, 1666; Lingard, IX, 65; Churchill, II, 277.
84. Besant, 251.
85. *Ibid.*, 245.
86. Summerson, *Sir Christopher Wren*, 55.
87. *Ibid.*, 134.
88. Fergusson, *History of Modern Styles of Architecture*, 294.
89. In Wingfield-Stratford, 605, where Riley is handsomely restored.
90. Duke of Marlborough Collection.
91. Pepys, Mar. 25, 1667.
92. *Ibid.*, Oct. 20, 1662.
93. London, National Portrait Gallery.
94. In Hampton Court Palace.
95. Pepys, Sept. 2, 1666.
96. *Ibid.*, Jan. 16, Feb. 3, Mar. 5, Apr. 9, 1660, etc.
97. Jan. 16, 1660.
98. Brockway and Weinstock, *The Opera*, 32.
99. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 383.
100. *Ibid.*, 399.
101. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 98.
102. Hallam, *Constitutional History*, II, 344n.
103. Pepys, Mar. 26, 1666.
104. In *Grammont Memoirs*, 90; Macaulay, *History*, I, 561.
105. Taine, *English Literature*, 315.
106. *Grammont Memoirs*, 281f.
107. Pepys, Aug. 31, 1661; Nov. 9, 1663.
108. Pope, *Essay on Criticism*, ll. 536-43, in *Collected Poems*, p. 71.
109. *Grammont Memoirs*, 112.
110. *Ibid.*, 284n.
111. Evelyn, I, 366.
112. Ure, 36.
113. Markun, *Mrs. Grundy*, 127.
114. *History Today*, October 1958, p. 672.
115. Trevelyan, *Social History*, 313.
116. *History Today*, *loc. cit.*, 668.
117. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 529.
118. James, B. B., *Women of England*, 295.
119. *Camb. Mod. History*, V, 213.
120. Besant, 345.
121. Macaulay, I, 327.
122. Saintsbury, *Dryden*, 182.

123. Bryant, 119; *Camb. Mod. History*, IV, 265.
124. Macaulay, I, 240; II, 416.
125. Hallam, II, 377.
126. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 376.
127. *Camb. Mod. History*, V, 218.
128. Pepys, Nov. 2, 1663.
129. *Ibid.*, Aug. 18, 1664.
130. Besant, 303.
131. Day, *Ninon*, 182.
132. Traill, H. D., *Social England*, IV, 489.
133. Ashton, J., *Social Life in the Reign of Queen Anne*, 163.
134. Pepys, Sept. 15, 1666.
135. *Camb. Mod. History*, V, 208.
136. Pepys, June 1, 1667.
137. *Camb. Mod. History*, V, 202.
138. *Ibid.*; Lingard, IX, 85.
139. Text in Lingard, IX, Appendix; *cf.* Bryant, 168; Acton, *Lectures*, 210; *Camb. Mod. History*, V, 204.
140. *Ibid.*, 226; Lecky, *History of England*, I, 18.
141. Bryant, 183.
142. Burnet, 34.
143. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 347.
144. Macaulay, I, 183.
145. *Camb. Mod. History*, V, 210.
146. *Enc. Brit.*, XVI, 661c.
147. Hallam, II, 413.
148. Macaulay, I, 186.
149. Trevelyan, *Stuarts*, 400-2.
150. Macaulay, I, 186; Bryant, 225.
151. Hume, *History*, V, 320.
152. Trevelyan, *Stuarts*, 387-88.
153. Hallam, II, 421.
154. Acton, 215.
155. Churchill, II, 298.
156. Acton, 215; Hume, V, 320.
157. *Enc. Brit.*, XX, 616b; Guizot, *History of Civilization*, I, 258.
158. Macaulay, *Essays*, I, 63; Wingfield-Stratford, 622; Lecky, *History of England*, III, 53.
159. Bryant, 270.
160. Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 481.
161. Bryant, 283.
162. *Ibid.*, 282.
163. Turner, E. S., *Call the Doctor*, in *Time*, Dec. 8, 1958, p. 63.
164. Macaulay, *History*, I, 335; Bryant, 294.
165. Macaulay, I, 337; Bryant, 296.
166. Macaulay, I, 338.

CHAPTER X

1. Turin Gallery.
2. London National Gallery.
3. Macaulay, *History*, I, 560-64.
4. Burnet, 65.
5. *Camb. Mod. History*, V, 265, 268.
6. Macaulay, II, 387.
7. Rowse, *Early Churchills*, 152; Lingard, X, 90.
8. Hume, *History*, V, 359; Macaulay, I, 496.
9. Acton, 221; *Camb. Mod. History*, V, 233.
10. Hume, V, 345.
11. Lecky, *History of England*, I, 21.
12. Macaulay, I, 359, 525.
13. *Camb. Mod. History*, V, 239.
14. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 61.
15. Lingard, X, 128.
16. Macaulay, III, 170.
17. Lord Dartmouth's notes to Burnet's *History*, in Lingard, X, 136n.
18. Burnet, 251.
19. Lingard, X, 136.
20. *Ibid.*, 131.
21. Trevelyan, *Stuarts*, 441.
22. *Camb. Mod. History*, V, 243.
23. Shrewsbury, Duke of, *Correspondence*, 4.
24. *Churchill, Marlborough*, I, 263.
25. Robinson, J. H., *Readings*, 367-69.
26. Mantoux, *Industrial Revolution*, 97.
27. Macaulay detailed these in his essay on Hallam (1828), and countered them in his *History of England* (1848), end of Ch. X.
28. Halifax, *Thoughts and Reflexions*, in Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Augustan Age*, 10.
29. *Ibid.*
30. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 72.
31. Hearnshaw, 60.
32. Halifax, *Character of a Trimmer*, in Trevor-Roper, 255.
33. Hearnshaw, 53.
34. Livy, *History of Rome*, v, 47.
35. Buckle, Ia, 297.
36. *Ibid.*, 298.
37. Bowen, *William Prince of Orange*, 277-8.
38. Burnet, 306.
39. Lecky, *England*, I, 275.
40. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 141.
41. *Camb. Mod. History*, V, 317.
42. *Ibid.*, 321; Lecky, I, 279-80; D'Alton, *Ireland*, 467; Wingfield-Stratford, 665.
43. *Camb. Mod. History*, V, 323.
44. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 95.
45. Day, *History of Commerce*, 162.
46. Groom, *History of Money*, 41-46.
47. *Ibid.*

48. *Camb. Mod. History*, V, 249.
49. Macaulay, III, 418-19; Churchill, *Marlborough*, I, 302.
50. *Ibid.*, 348.
51. Rowse, 134.
52. Goldsmith, *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1032.
53. *Ibid.*; *cf.* Chesterfield, *Letters*, I, 261 (Dec. 22, 1749).
54. Lecky, *England*, I, 128.
55. *Enc. Brit.*, XXIII, 725.
56. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 247.
57. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 76.
58. Rowse, 170.

CHAPTER XI

1. Mousnier, 308.
2. Desnoiresterres, I, 212.
3. Swift, *Journal to Stella*, Aug. 7, 1712.
4. Theater History Exhibition, New York Public Library, Sept. 28, 1956.
5. Johnson, *Lives*, I, 201.
6. Besant, *Stuarts*, 323.
7. Holzknecht, *Background of Shakespeare's Plays*, 417.
8. Besant, 321.
9. Hume, *History*, V, 436; *Camb. History of English Literature*, VIII, 209.
10. Farquhar, *Beaux' Stratagem*, I, i, in Gosse, *A Volume of Restoration Plays*.
11. Congreve, *Way of the World*, II, iv, in Gosse, 185.
12. Macaulay, *Essays*, II, 426.
13. Gosse, 151.
14. Vanbrugh, *The Relapse*, III, in Gosse.
15. *Ibid.*, IV, i.
16. Vanbrugh, *Provoked Wife*, I, i.
17. *Ibid.*, I, ii.
18. *Enc. Brit.*, XVI, 574b.
19. Johnson, *Lives*, II, 2.
20. Macaulay, *Essays*, II, 446.
21. *Enc. Brit.*, VI, 255d.
22. Congreve, *Way of the World*, II, v.
23. *Ibid.*, IV, v.
24. Macaulay, *Essays*, II, 449.
25. Thackeray, *English Humorists*, 139.
26. Lecky, *England*, I, 539.
27. Dryden, Preface to *Fables, Ancient and Modern*, in *Essays*, 290.,
28. Pepys, Feb. 23, 1663.
29. Nettleton, G. H., *English Drama of the Restoration*, 5.
30. Dryden, *All for Love*, IV, i, in Gosse.
31. *Camb. Mod. History*, V, 134.
32. Dryden, *Poems*, 75.
33. *Ibid.*, 78.
34. *Ibid.*, 89.
35. Pepys, Feb. 3, 1664.
36. Scott, *The Pirate*, 147-49.
37. Macaulay, *History*, I, 285.
38. Johnson, *Lives*, I, 187.
39. *Ibid.*, 219; *Camb. History of English Literature*, VIII, 231-32.
40. Johnson, I, 216.
41. As Macaulay believed (*History*, I, 657).
42. Dryden, *The Hind and the Panther*, in *Poems*, 123.
43. Butler, Samuel, *Hudibras*, 3-9.
44. Pepys, Dec. 10, 1663.
45. *Camb. History of English Literature*, VIII, 68.
46. An excellent edition, *Brief Lives*, appeared in 1957, with a lively and learned introduction by O. L. Dick.
47. *Camb. History of English Literature*, IX, 151.
48. A good example in Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 131.
49. Macaulay, *Essays*, I, 195.
50. Temple, Sir William in Taine, *English Literature*, 333.
51. Evelyn, I, 229f. The passage on his son is under Jan. 27, 1658.
52. Pepys, June 13, 1662; June 17, 1663.
53. *Ibid.*, July 16, 1660.
54. Jan. 23, (1670).
55. Apr. 5, 1664.
56. Dec. 19, 1664.
57. Aug. 18, 1667.
58. Sept. 6, 1664.
59. July 15, 1660.
60. Aug. 23, 1663.
61. May 21, 1662.
62. July 30, 1663.
63. Sept. 4, 1660.
64. Sept. 24, 1663.
65. Feb. 28, 1662.
66. *Enc. Brit.*, VII, 139.
67. Defoe, *Moll Flanders*, 295.
68. Steele, *Tatler*, No. 151.
69. Thackeray, *English Humorists*, 183.
70. Steele, *Tatler*, No. 95.
71. Johnson, *Lives*, I, 330; Macaulay, *Essays*, II, 465.
72. *Ibid.*, 486; Johnson, I, 328.
73. Addison, *Spectator*, No. 4.
74. *Ibid.*
75. No. 112.
76. Macaulay, *Essays*, II, 499; Enc. Br. I, 161d.
77. Thackeray, 157n.
78. Voltaire, *Works*, XIXb, 137.
79. Stephen, Leslie, *Swift*, 82.
80. *Id.*, *Alexander Pope*, 60.
81. *Id.*, *Swift*, 15.
82. Hardy, Evelyn, *The Conjured Spirit: Swift*, 40.

83. *Ibid.*, 62.
84. Stephen, *Swift*, 52.
85. *Ibid.*, 37.
86. Swift, *Tale of a Tub, etc.*, 56.
87. *Ibid.*, 72.
88. 77.
89. 78.
90. 81.
91. 121.
92. 103.
93. 105.
94. 106.
95. 109.
96. 110.
97. Stephen, *Swift*, 42.
98. Rowse, 269.
99. Hardy, *Conjured Spirit*, 148.
100. Swift, "A Critical Essay upon the Faculties of the Mind," in *Tale of a Tub, etc.*, 192.
101. In Stephen, *Swift*, 47.
102. *Ibid.*, 161.
103. *Ibid.*, 57.
104. Hardy, 125.
105. In Trevelyan, *Social History*, 444.
106. In Rowse, 265.
107. *Ibid.*, 266.
108. *Ibid.*, 269.
109. Stephen, *Swift*, 103.
110. *Ibid.*, 102.
111. Swift, *Journal to Stella*, Letters XXVII and XXXIII.
112. *Ibid.*, 172 (Letter XXIII).
113. *Ibid.*, 203 (Letter XXVII).
114. Stephen, *Swift*, 143.
115. Hardy, 57.
116. Swift, "Strephron and Chloe," in Hardy, 59.
117. In Hardy, 176.
118. Stephen, *Swift*, 120.
119. *Journal to Stella*, Letter XVI.
120. Swift to Pope, Sept. 29, 1725, in Thackeray, *English Humorists*, 218n.
121. Stephen, *Swift*, 108.
122. Hardy, 164.
123. *Ibid.*, 157.
124. Stephen, 131.
125. Johnson, II, 258; Hardy, 174f; Stephen, 133f.
126. Hardy, 219.
127. Swift, *Gulliver's Travels*, Book II, Ch. vi, p. 120.
128. *Ibid.*, III, viii, p. 183.
129. III, x, pp. 198f.
130. IV, vii, p. 240.
131. IV, v, p. 250.
132. IV, xi, pp. 272-73.
133. Stephen, 168.
134. Hardy, 230.
135. Stephen, 160.
136. In Taine, *English Literature*, 436.
137. *Ibid.*
138. Stephen, 184.
139. *Ibid.*, 195.
140. In Woods, George, etc., *The Literature of England*, I, 813.
141. Stephen, 195.

CHAPTER XII

1. Morton, J. B., *Sobieski*, 41.
2. *Ibid.*, 57.
3. *Cambridge History of Poland*, I, 520.
4. Morton, 47.
5. *Camb. History of Poland*, I, 521.
6. *Ibid.*, 537.
7. Morton, 5.
8. *Camb. History of Poland*, I, 545.
9. *Ibid.*, 547.
10. *Ibid.*, 556.
11. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 499.
12. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 263; Michelet, V, 154.
13. Kluchevsky, V., *History of Russia*, III, 334.
14. *Ibid.*, 282.
15. *Ibid.*, 367.
16. Waliszewski, *Peter the Great*, 63.
17. *Ibid.*, 75.
18. Florinsky, M. T., *Russia: History and an Interpretation*, I, 321.
19. Schuyler, E., *Peter the Great*, I, 350.
20. Waliszewski, 87.
21. *Ibid.*, 91.
22. Schuyler, I, 358.
23. *Ibid.*, 374.
24. Macaulay, *History*, IV, 374.
25. Voltaire, *Charles XII*, 37.
26. *Camb. Mod. History*, V, 595.
27. *Ibid.*; Schuyler, II, 85.
28. *Camb. Mod. History*, V, 596.
29. Waliszewski, 322.
30. Voltaire, *Charles XII*, 163; Schuyler, II, 138; *Camb. Mod. History*, V, 600.
31. Schuyler, II, 160.
32. *Ibid.*, 162.

CHAPTER XIII

1. In Buckle, *History of Civilization*, Ib, 580.
2. Frederick to Voltaire, Mar. 6, 1737, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 55.
3. Florinsky, I, 327, 334.
4. Schuyler, I, 374.
5. Waliszewski, *Peter the Great*, 105.
6. *Ibid.*, 143.
7. 133.
8. 137.
9. 218.
10. 152-53, 161-63; Florinsky, I, 319; Schuyler, I, 422.

11. Schuyler, II, 405.
12. Rambaud, *History of Russia*, I, 104.
13. Réau, L., *L'Art russe*, II, 18n.
14. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, 348.
15. Robinson, J.H., *Readings*, 390.
16. Schuyler, I, 411.
17. Waliszewski, 448f.
18. Ogg, 511.
19. Schuyler, II, 192.
20. Rambaud, I, 94.
21. Pokrovsky, M., *History of Russia*, 279.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
23. Pokrovsky, 287; Florinsky, I, 380.
24. Mavor, *Economic History of Russia*, I, p. *xxvi*; *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
25. Pokrovsky, 285; Schuyler, II, 471.
26. Schuyler, II, 453; Florinsky, I, 382.
27. Waliszewski, 436.
28. Rambaud, I, 99.
29. Schuyler, II, 609-10.
30. *Ibid.*, 283.
31. *Ibid.*, 338.
32. Waliszewski, 517.
33. *Ibid.*, 518.
34. Schuyler, II, 345.
35. *Ibid.*, 410.
36. Waliszewski, 534.
37. *Ibid.*, 538.
38. Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 269.
39. Pokrovsky, 330; Florinsky, II, 334.

CHAPTER XIV

1. Westermarck, *History of Human Marriage*, III, 51; Bebel, *Woman under Socialism*, 71.
2. Rocker, *Nationalism and Culture*, 125.
3. *New Camb. Mod. History*, VII, 293.
4. *Camb. Mod. History*, IV, 426.
5. Acton, *Lectures*, 286.
6. Quennell, *Caroline of England*, 5-7.
7. Montagu, Lady Mary W., *Letters*.
8. Francke, K., *History of German Literature*, 175.
9. Richard, E., *History of German Civilization*, 332.
10. Thieme, *Women of Modern France*, 199.
11. Wormeley, *Correspondence of Mme. Princess Palatine*, letter of Nov. 22, 1714.
12. Hurlimann, *Germany*, 232; La Farge, H., *Lost Treasures of Europe*, 33.
13. Dresden.
14. Spitta, K., *Bach*, I, 257. The walking is doubtful.
15. Morton, *Sobieski*, 130.
16. *Ibid.*, 132.
17. *Camb. Mod. History*, V, 355.
18. *Ibid.*, 355-56; Ogg, 490.
19. Ogg, 488.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 226.
21. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 165.
22. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 445.
23. Morton, 102; Coxe, II, 447.
24. Ogg, 496.

CHAPTER XV

1. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 53-54.
2. *Ibid.*, 49.
3. *Ibid.*, 57. Lea adds, "I cannot but regard this as a truthful report."
4. Ranke, *History of the Popes*, II, 381n.
5. *Ibid.*, 380; III, Appendix, 145.
6. Ranke, II, 325.
7. Funk, *Manual of Church History*, II, 148.
8. Ranke, II, 330.
9. *Ibid.*, 333; Funk, II, 177.
10. Ranke, II, 418.
11. Funk, II, 178.
12. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 135.
13. Churchill, *English-speaking Peoples*, II, 317.
14. Acton, 226.
15. Sismondi, *History of the Italian Republics*, 789.
16. Bonacossi Collection, Florence.
17. Wadsworth Athenaeum, Hartford, Conn.
18. Dresden and Rome.
19. Wallace Collection.
20. Dresden.
21. Vatican.
22. Rome, Santa Maria in Vallicella.
23. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 1152.
24. *Ibid.*, 1154.
25. *Ibid.*, 1101.
26. *Enc. Brit.*, X, 361b.
27. *Ibid.*
28. Garnett, *History of Italian Literature*, 283.
29. *Ibid.*, 284.
30. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 213.
31. Bain, F. W., *Christina, Queen of Sweden*, 253.
32. Motteville, *Memoirs*, III, 104.
33. *Ibid.*, 106-8.
34. *Ibid.*, 109-10.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
36. Motteville, III, 110.
37. Day, *Ninon*, 149.
38. Bain, 321.
39. In Voltaire, 405.
40. Bain, 339.

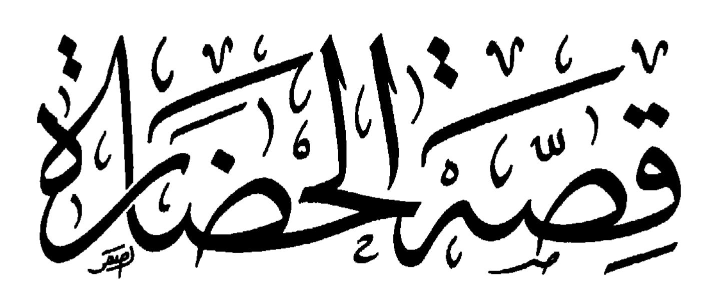
b

44. Fox-Bourne, *John Locke*, II, 223-25.
45. Boyle, Robert, *Sceptical Chymist*, 1.
46. *Ibid.*, 2.
47. *Ibid.*, 17.
48. Butterfield, *Origins of Modern Science*, 105.
49. Wolf, 349.
50. *Ibid.*, 545.
51. Kirby, R. S., *Engineering in History*, 154.
52. Wolf, 550.
53. Beard, Miriam, 465.
54. Wolf, 551.
55. *Ibid*, 552.
56. Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 611.
57. Evelyn, *Diary*, Nov. 7, 1651.
58. Wolf, *18th Century*, 406.
59. *Hamlet*, II, ii.
60. Locy, W. A., *Growth of Biology*, 212.
61. *Ibid.*, 214-16.
62. *Ibid.*, 236.
63. Castiglioni, *History of Medicine*, 537-538.
64. Brett, G. S., *History of Psychology*, 337.
65. *Ibid.*, 339; Sigerist, *The Great Doctors*, 184.
66. Garrison, *History of Medicine*, 313.
67. Dick in Aubrey, *xix*.
68. Lewis, *Splendid Century*, 181.
69. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
70. Macaulay, *History*, III, 78.
71. Sévigné, *Letters*, I, 106 (April 8, 1671).
72. Michelet, *Histoire*, V, 29.
73. Motteville, *Memoirs*, I, 186.
74. Castiglioni, 560.
75. *Ibid.*, 562; Garrison, 304.
76. Dick in Aubrey, *xix*.
77. Garrison, 252.
78. *Ibid.*, 253.
79. Dick in Aubrey, *xix*.
80. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 341.
81. Wolf, *16th Century*, 438.
82. *Ibid.*
83. Garrison, 295.
84. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 374.
85. Pepys, Nov. 14, 1666.
86. MacLaurin, C., *Post Mortem*, 170f.
87. Dick in Aubrey, *xx*.
88. Castiglioni, 566.
89. Whitehead, Alfred North, *Science in the Modern World*, 58.
90. Sprat, *History of the Royal Society* (1667), 113, in Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 336.
91. Newman, *World of Mathematics*, I, 286.
92. Wolf, *16th Century*, 668-70.
93. *Enc. Brit.*, V, 994c.
94. In Smith, P. I, 150.
95. In Hazard, *Critical Years*, 316; Mousnier, *Histoire générale*, IV, 331.

CHAPTER XIX

1. Brewster, *Newton*, I, 4.
2. *Ibid.*, 92.
3. Newton's secretary, in Brewster, II, 96.
4. Keynes, J. M., in Newman, J. R., *World of Mathematics*, I, 282.
5. Smith, D. E., *Isaac Newton*, 207.
6. Keynes in Newman, *loc. cit.*
7. Brewster, II, 96-97.
8. *Ibid.*, 93.
9. *Ibid.*, 413.
10. Andrade, E. N., *Sir Isaac Newton*, 77.
11. Newton, *Principia*, 546.
12. *Ibid.*, xvii, preface to first edition.
13. Newton, *Opticks*, Appendix "De Quadratura Curvarum," in Wolf, *16th Century*, 211.
14. Brewster, II, 24n.
15. Wolf, 217.
16. *Principia*, scholium to Prop. 7 of Book II.
17. *Cf. ibid.*, 656.
18. Wolf, 266.
19. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
20. Brewster, I, 96.
21. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
22. In Parton, *Voltaire*, I, 213.
23. *Ibid.*
24. Brewster, I, 26.
25. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, IV, 158.
26. Gilbert, W., *De Mundo Nostro Sublunari Philosophia*, in Whewell, *Inductive Sciences*, I, 394.
27. Brewster, I, 282.
28. Whewell, I, 393.
29. Brewster, I, 287.
30. Aubrey, 166.
31. Butterfield, 118.
32. Brewster, I, 293.
33. *Principia*, 546.
34. Brewster, I, 337.
35. Leibniz, Letter to Hartsoeker, Feb. 10, 1711.
36. *Principia*, 546, General Scholium.
37. *Ibid.*, 634.
38. Cajori in *Principia*, 677.
39. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 96.
40. General Scholium.
41. *Principia*, 547.
42. Brewster, II, 97.
43. *Ibid.*, 84.
44. Andrade, in Newman, I, 274.
45. Robertson, *Freethought*, II, 112-13.
46. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 249.

47. Keynes, address at tercentennial celebration of Newton's birth by the Royal Society, July 1946, in Newman, I, 283.
48. In Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 113.
49. Brewster, II, 132-35.
50. Keynes, *loc. cit.*
51. Andrade, in Newman, I, 274.
52. Keynes, *loc. cit.*
53. Parton, *Voltaire*, I, 213.
54. Andrade, *Newton*, 121.
55. Keynes in Newman, I, 278; Locke in Brewster, II, 163.
56. Parton, I, 213.
57. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 404.
58. Hume, *History of England*, V, 433.
59. Voltaire, *Works*, XXIb, 66.
60. Smith, D. E., *Newton*, 15; Brewster, I, 343.
61. S. Brodetsky in Smith, D. E., *Newton*, 8.
62. Andrade in Newman, I, 275.
63. *Principia*, First Scholium.
64. Andrade, *Newton*, 131.



ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الرابع من المجلد الثامن







تونس

بيروت



الفصل العشرون
الفلسفة الانجليزية
١٦٤٨ ـ ١٧١٥

صفحة

الفصل الحادى والعشرون
الايمان والعقل فى فرنسا
١٦٤٨ ـ ١٧١٥

الفصل الثانى والعشرون

سـبينوزا

١٦٣٢ ـ ١٦٧٧

صفحة

الفصل الثالث والعشرون

ليبنــتز

١٦٤٦ ـ ١٧١٦

الكتـــاب الخامس
فرنسا تواجــه أوربا
١٦٨٣ ـ ١٧١٥

الفصل الرابع والعشرون
غــروب الشــمس

صفحة



الفصل العشرون

الفلسفة الانجليزية

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ توماس هوبز : ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩

٢ ـ المؤثرات التى شكلت شخصيته :

ولد هوبز فى ٥ أبريل ١٥٨٨ ، ولما يكتمل المدة المقررة للحمل ، وتعزو أمه ولادته المبتسرة قبل الأوان الى فزعها من مجىء الأسطول الأسبانى « الأرمادا » ، ومن الخطر الذى يتهدد انجلترا بغزو ساحق على أيدى الوثنيين السفاحين . أما الفيلسوف فينسب الى خروجه غير المرتقب قبل الأوان الى الحياة نزعة الجبن التى تملكته وغلبت عليه ، ولكنه كان أجرأ الهراطقة فى عصره . وربما ورث الوالد ـ وكان قسيسا أنجلبكانيا فى مامز برى فى ولتشير ـ ابنه بعض نزوع الى المشاكسة ، فان هذا الوالد اشتبك يوما فى شجار على باب كنيسته ثم اختفى ، تاركا أبناءه الثلاثة لبتولى تربيتهم أخ له .

وأثرى هذا الأخ وأيسر ، والتحق توماس بكلية مجدلن فى اكسفورد ، هبابا جبانا ، ولا ريب ، مثله فى ذلك مثل أى شاب يجرؤ على اقتحام المغارات المخصصة لأصنام العشيرة . ولم يجد فى الفلسفة التى تدرس هناك الا قليلا مما يروقه ، فتسلى بقراءات خارج المنهج المقرر ، وتعرف بطريق مباشر على الآداب الاغريقية واللاتينية . ولما تخرج فى سن العشرين أسعده الحظ لبكون معلما خاصا لوليم كافندش الذى أصبح أرل دبفونشبر الثانى . وقد نبت أن الحماية التى بسطتها عليه هذه الأسرة كانت ذات قيمة كبيرة له أيام هرطقته . وفى ١٦١٠ طاف فى صحبة تلميذه بأرجاء القارة . وعند عودته اشتغل لبعض الوقت سكرتيرا لفرنسيس ببكون ، وربما أسهمت هذه الخبرة المثيرة فى تكوين فلسفته التجريبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ويروى أوبرى أنه حوالى هذه الفترة « كان مستر بنجامين جونسون شاعر التاج صديقه الحميم الذى يكثر التردد عليه(١) وكان أغزر علما من هوبز . ولم

يكن قد أشتد عوده بعد ، وسرعان ما عـاد هوبز الى أسرة كافندش ، واحتفظ بصلته بها طيلة ثلاثة أجيال ، ومن الجائز أن الفيلسوف اقتبس من هؤلاء الحماة الكرام ذوى المنعة والقوة الآراء المتعلقة بالنظام الملكى والكنيسة التقليدية ، وتلك الآراء هى التى غفرت له ميتافيزيقيته المادية وخلصته من الموت حرقا ٠

وكان اكتشافه لاقليدس نقطة تحول فى حياته العقليـة ٠ ذلك أنه وهو فى سن الأربعين ، وقع بصره فى مكتبـة خاصـة ، على كتـاب « العناصر » مفتوحا على المسألة رقم ٤٧ من القسم الأول ٠ وما أن قرأها حتى صاح « يا الهى ، هذا مستحيل » وأشار شرحها الى أنها برهـان على مسألة سابقة ، وهذه على أخرى ، وهكذا ، حتى رجع الى التعاريف الأولية والبديهيات٠ وابنتهجبهذا البناء المنطقى ، واغرم بعلمالهندسة(٢) ولكن أوبرى بضيف « أنه كان منصرفا ــ انصرافا كبيرا الى الموسـيقى ومارس العـزف على الكمـان الكبير » ٠ وفى ١٦٢٩ نشر ترجمـة لتيوكيديدس (المؤرخ اليونانى فى القرن الرابع ق ٠ م) وكان غرضه السافر المزعوم من ذلك هو أن يحذر انجلترا من أخطار الديموقراطية٠ وفى تلك السنة استأنف رحلاته ، معلما آنذاك لابن أول تلاميذه ، ارل ديفونشير الثالث ٠ وربما قوت زيارته لجاليليو (١٦٣٦) من نزوعه الى تفسير الكون على أسس ميكانيكية ٠

وعاد الى انجلترا فى ١٦٣٧ ، ولما اشتد الصراع بين البرلمـان والملك شارل الأول ، كتب رسالة بعنوان « مبـادىء القـانون الطبيعى والسياسي » ، دافع فيها عن السلطة المطلقة للملك ، بوصـفها أمرا لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والوحدة الوطنية ٠ وجرى تداول هـذه الرسالة مخطوطة ، وربما ـ كانت تؤدى الى القبض على المؤلف لولا أن شارل حل البرلمان ٠ وعندما احتدم النزاع فقد رأى هـوبز أنه من الحكمة أن يعود أدراجه الى القارة (١٦٤٠) ، وبقى هناك ، ومعظم وقته في باريس ، طيلة الأحد عشر عاما التالية ٠ وفى باريس كسب صداقة مرسن وجاسندى ، ولكنه جلب على نفسه عداوة ديكارت ٠ فان مرسن دعاه الى تدوين بعض التعليقات على « تأملات » ديكارت ، فاستجاب هوبز فى شيء من الكياسة ولكن فى كثير من الحدة ، ولم يغتفر له ديكارت هذا قط ٠ وعندما نشبت الحرب الأهلية فى انجلترا

(١٦٤٢) أسس المهاجرون الملكيون لأنفسهم مستعمرة فى فرنسا ، وربما أخذ هوبز عنهم مزيداً من التعاطف مع الملكيـــة ، فانه لمـدة عامين (١٦٤٦ / ١٦٤٨) اشتغل بتدريس الرياضـــيات لأمير ويلز المنفى ، الملك شارل الثانى فيما بعد • وجاءت حركة الفروند ضد لويس الرابع عشر فى فرنسا ـ وكانت مثل الثورة فى انجلترا ، تهدف الى الحـــد من سلطة الملك ـ فأكدت اقتناعه بأن الملكية المطلقة وحدها هى التى يمكن أن تحافظ على الاستقرار والأمن الداخلى •

وفى بطء شديد وصل هوبز الى صياغة محددة واضـحة لفلسفته • ويقول أوبرى : « انه سار طويلا وأعمل الفكر وتأمل ، وكان فى رأس عصاه قلم ومحبرة ، وكان يحمل فى جيبه دائما كراســـة ، حتى اذا عرضت له فكرة ، فسرعان ما كان يدونها على الفور حتى لا تضيع (٣)» وأصدر سلسلة من التاليف الأقل قيمة × ، التى ليس لها الآن ذكــر ، ولكنه ـ فى ١٦٥١ جمع كل أفكاره فى كتاب يجمع بين طـرافة الفكر والأسلوب وعدم المبالاة ، هو « لواياثان » (التنين) أو « المـــادة والشكل » ، و « سلطة الدولة دينية ومدنية » (التنين) أو « المـادة فى تاريخ الفلسفة ، وجدير بنا أن نتوقف عنده فى شيء من التروى •

٣ ـ المنطق وعلم النفس :

يكاد دسلوب هوبز يقارب أسلوب بيكون فى الجودة ، ولكنه ليس غنيا بالصور الوضاءة مثله ، ولكنه قوى متميز فعال صريح مثله تماما ، مع شيء من التهكم اللاذع بين الحين والحين • وليس فيه زخـــرف ولا تظاهر بالبلاغة والفصاحة ، فما هو الا تعبير واضح عن فكر واضح، مع اقتصاد حكيم فى الوسائل اللفظية • يقول هـوبز « ان الكلمـــات بالنسبة للعقلاء ليست سوى أنضاد « فيشـــات » أى وسائط للعـــد

× أهمها « المواطن » (١٦٤٢ / ١٦٤٧) و « مبادىء القانون » الذى طبع ١٦٥٠ فى جزءين : « الطبيعة الانسانية » و « الهيئة السياسية » ، ومبادىء « الفلسفة » (١٦٥١) ، « الاصول الفلســـفية » ١٦٥٥ / ١٦٥٨ وهى ثلاثية استنباطية عن الجسم والانسان والمجتمع هذا الى جانب شـــذرات كثيرة فى الرياضيات ، وترجمة للالياذة والاوديسية • ثم « بهيموث » (١٦٧٠) وهو عبارة عن تاريخ الحرب الاهلية مفسرا على ضوء آرائه عن الانسان والمجتمع ، ثم تاريخ حياته شعرا باللاتينية •

والحساب ، ولكنها ثروة الأغبياء ، التى تضفى عليهم قيمة وقـــدرا . استنادا الى أرسطو أو شيشرون أو توما الأكوينى(٤) » • وبهذا السلاح الجديد ــ قضي هوبز على كثير من الكلام الطنان الرنان الأجوف الذى لا يحمل معنى • وعندما وقع بصره على تعريف توما الأكوينى «للأبدية» بأنها « الحاضر الخالد » هم كتفيه استهجانا لهـــذا التعريف على أنه « من البسيط جدا أن يقال ، ولكن على الرغم من أنى قد أسر به ، فانى لم أستطع أن أفهمه قط ، وأولئك الذين يستطيعون فهمه أســـعد منى حظا » • وعلى ذلك كان هوبز « اسميا صريحا » (مذهب الاسمين : مذهب فلسفى يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجـــود حقيقى ، وأنها مجرد اسماء ليس غير) : فالأنماء أو الأسماء المجردة مثل « الرجل ، الفضيلة » هى مجرد أسماء لأفكار تعميمية ، ولا تمثل شيئا مدركا بالحواس ، فكل الأشياء لها وجود فردى ــ أعمال فاضـلة فردية ، ورجال فرديون •• ••

انه يحدد مصطلحاته وألفاظه تحديدا دقيقا • وعلى الصـــفحة الأولى من كتابه يعرف « لواياثان » بأنه مصلحة مشتركة أو رابطة أو دولة • انه وجد اللفظ فى التوراه (سفر أيوب ــ الاصحاح ٤١) حيث استعملها الرب اسما لحيوان بحرى هائل غير ذى نوع محدد ، رمزا للقوة الالهية ، واقترح هوبز أن يجعل من الدولة نظاما ضخما عليه أن يستوعب كل النشاط الانسانى ويوجهه • ولكنه قبل أن يصل الى قضيته الأساسية ألقى نظرة شاملة على المنطق وعلم النفس بيد لا ترحم •

ان هوبز فهم الفلسفة على أنها ما نسميه الآن علما : « معـــرفة الآثار والظواهر المكتسبة من معرفة الأسباب ، أو بالعكس معرفة العلل أو الأسباب الممكنة كما تدلنا عليها معرفة آثارها المعروفة لدينا (٥) » • وتبع بيكون فى توقعه أن يجنى من وراء هذه الدراسة أو هذا ــ المنهج فوائد عملية عظيمة للحياة الانسانية • ولكنه تجاهل دعوة بيكون الى التعليل الاستقرائى ، وأخذ « بالاستدلال المنطقى » أى الاستنتاج من التجربة • وفى اعجابه بالرياضيات أضاف « أن الاستدلال المنطقى هو بعينه مع الجمع والطرح » أى الجمع بين الصور والأفكار ، أو الفصـــل بينهما • وذهب الى أننا لا نفتقر الى التجربة ، ولكن الذى نفتقر اليه هو التعليل الصحيح لها ، أننـــا اذا اســـتطعنا أن نقضي على خبث

الالفاظ الخالية من المعنى فى الميتافيزيقـا ، وعلى التحـــيزات التى نقلناها بحكم العادة أو التعليم أو روح التشيع والتحزب ؛ إننـــا اذا استطعنا هذا فأى عبء ثقيل نطرحه عن كواهلنا ، والعقل على أية حال ليس معصوما من الخطأ ! ولا يمكن الا فى الرياضـــيات ، أن يزودنا بالحقيقة اليقينية التى لا ريب فيها · « ان معرفة النتيجة ، التى قلت من قبل انها تسمى العلم ، ليست مطلقة ، بل هى مشروطة · ولا يستطيع أحد أن يعرف عن طريق التعليل أن هذا الشيء أو ذاك كان أو يكون او سيكون ، مما يعرف بشكل مطلق ، بل يعرف أنه حين يكون هذا يكون ذاك ، واذا كان هذا كان ذاك ، وحين سيكون هذا سيكون ذاك ، أى أن هذا الشيء أو ذاك يعرف مشروطا » (٦) ·

وكما سبقت هذه العبارة حجة هيوم فى أننا نعرف النتائج فقط دون الأسباب ، فان هوبز كذلك سبق لوك فى علم النفس الحسي · ان كل المعرفة تبدأ بالحس « ليس ثمة فكرة فى عقل الانسان الا تولدت بادىء ذي بدء ، تامة أو على دفعات ، فى أعضاء الحس (٧) » · وهذا علم نفس مادى صريح : لا يوجد شيء خارجنا أو داخلنا ــ الا المـــادة والحركة ، وكل الصفات محسوسة « أو حســية (الضـــوء ، اللون ، الشكل ، الصلابة ، النعومة ، الصوت ، الرائحة ، الطعم ، الحرارة البرودة ؛ هى فى الشيء الذى يسببها أو يحدثها ليست الا عدة حركات كثيرة للمادة تؤثر بها على أعضائنا بأشكال مختلفة ، كما أنها ، فبنا نحن الذين تاثرنا بها ، ليست الا حركات مختلفة ، لأن الحركة لا تنتج الا حركة (٨) » ، فالحركة فى شكل تغيير أمر ضرورى للحس ــ ان احساسك ــ بنفس الشيء دائما يساوى أنك لا تحس بشيء مطلقا (٩) · (وهكذا فان الرجل الأبيض أو الرجل الملون لا يتنبه أى منهمـــا الى رائحته لأنها دائما تحت أنفه) ·

ومن الحس يتابع هوبز سيره ليستلخص التصـــور والذاكرة عن طريق تطبيق فريد لما صار قانون الحركة الأول عند نيوتن :

انه اذا بقى جسم ساكنا ما لم يحركه شيء آخر ، فانه يظل ساكنا الى الأبد ، فتلك حقيقة لا يشك فيها أحد · أما اذا كان الجسم متحركا ، فانه يظل متحركا الى الأبد الا اذا أوقفه شيء آخر ، فانه على الرغم من أن

السبب واحد فى الحالين (وهو على التحديد أن أى شيء لا يمكنه التغيير بذاته) فهذا أمر لا يمكن التسليم به بسهولة ..

اذا تحرك الجسم مرة ، فانه يظل يتحرك الى الأبد (الا اذا عاق حركته شيء آخر) ، وهذا الذى يعطل حركته ، أيا كان ، لا يستطيع أن يعطلها دفعة واحدة انما يعطل حركته تماما فى الوقت المناسب وشيئا فشيئا . وكما نرى فى الماء ، فقد تسكن الريح ولكن الأمواج لا تهدأ الا بعد فترة طويلة من سكون الريح . وهذا ما يحدث للحركة التى تتم داخل الأجزاء الداخلية فى الانسان ، ثم حين يرى أو يحلم .. .. الخ . حيث أنه عندما يزول ويختفى الشيء أو تغلق العين ، فاننا نظل نستبقى صورة الأشياء التى رؤيت ، ولو أنها تكون أكثر غموضا منها حين كنا نراها . وهذا ما يسميه اللاتينيون « خيالا » .. .. وهو على هذا الأساس ليس الا « حسا يضعف » ، فاذا عبرنا عن هذا الضعف ، فما يدل على أن الحس يتضاءل وأنه قديم ، وأنه غابر ، فان هذا يسمى « الذاكرة » .. .. .. والذاكرة العامرة ، أو تذكر أشياء كثيرة يسمى « الخبرة أو التجربة (١٠) ».

والأفكار عبارة عن تصورات ينتجها الحس أو الذاكرة . والفكر هو نتيجة لمثل هذه التصورات . ولا تتحكم الارادة الحرة فى هذه النتيجة ، بل انها تخضع لقوانين ميكانيكية تحكم توارد الخواطر .

ان الأفكار أو الخواطر لا يعقب الواحد منها الآخر اعتباطا ، ولكن حيث اننا لا يكون لدينا تصور لما لم نكن قد احسسنا به جملة أو تفصيلا من قبل ، فاننا كذلك لن ننتقل من تصور الى تصور ليس لدينا عهد به فى حواسنا من قبل . وهذا هو السبب : ان كل التصورات (الأخيلة والأفكار) انما هى حركات فى داخلنا ، وهى بقايا ما تم فى حواسنا . وهذه الحركات التى تعاقبت الواحدة منها بعد الأخرى فى الحس تستمر أيضا مجتمعة بعد الحس .. .. ولكن بما أنه فى الحس بالنسبة لشيء واحد بعينه يدرك ، قد ياتى أحيانا شيء . وأحيانا ياتى شيء آخر ، فقد يحدث عاجلا أو آجلا ، فى تصور شيء ما ، الا نكون على يقين من أننا سنتصور شيئا بعده . وهذا مؤكدا فقط اذا كان ثمة شيء قد أعقب مثيلا له من قبل فى وقت من الأوقات (١١) .

وقد تكون هذه السلسلة من الأفكار مشوشة أو غير موجهة ، كما

هو الحال فى الأحلام ، وقد تكون « مضبوطة أو محددة طبقا لرغبة أو هدف أو خطة ما » . وفى حالة الأحلام نجد أن الصور الساكنة الهاجعة فى المخ « توقظها وتهيجها أية اثارة فى الأجزاء الداخلية فى جسم الانسان » . لأن كل أجزاء الجسم مرتبطة ، بطريقة ما ، بأجزاء معينة فى المخ . « أعتقد أن هناك تبادلا فى الحركة من المخ الى الأجزاء الحيوية ، ومنها ثانية الى المخ ، بهذا لا يولد التصور حركة فى تلك الأجزاء فحسب ، بل ان الحركة فى تلك الأجزاء كذلك تولد تصورا شبيها بهذا الذى أنتجها (١٢) » . وأحلامنا هى شكل معكوس لتصوراتنا فى اليقظة : الحركة ونحن متيقظون بادئة بطرف ، وبادئة بالطرف الآخر حين نحلم(١٣) » والتسلسل غير المنطقى للصور فى الأحلام يرجع الى عدم وجود أى احساس خارجى يضبطها أو أى غرض يوجهها .

وليس للارادة الحرة أى مكان فى علم النفس عند هوبز . والارادة نفسها ليست موهبة أو وجودا مستقلا ، بل هى مجرد الرغبة الأخيرة أو النفور الأخير فى عملية التدبر (حركتان جسميتان أساسيتان هما الاشتهاء أو الحركة نحو الأشياء والنفور أو الحركة بعيدا عن الأشياء) ، والتدبر تناوب بين حالات الرغبة أو النفور ، وهو ينتهى عندما يمكث احد الدوافع وقتا كافيا ليتحول الى عمل أو تصرف ما . « وفى التدبر نجد أن الاشتهاء أو النفور الأخير الذى يقترن فى الحال بالعمل أو بالاغفال الناتج عنه (عن الاشتهاء أو النفور) هو ما نسميه الارادة (١٤) » « ان الشهوة والخوف والأمل وغيرها من الانفعالات لا تسمى اختيارية ، لأنها لا تنبع من الارادة ، بل هى الارادة نفسها ، والارادة ليست اختيارية (١٥) » « لأن كل فعل من أفعال ارادة الانسان وكل رغبة وكل ميل ، انما ينتج عن سبب ما ، وهذا السبب ينتج عن سبب آخر ، وهكذا فى سلسلة متصلة (حلقتها الأولى فى يد الله أول كل الاسباب) وكلها تنبع من الضرورة . وعلى هذا فان الذى يستطيع أن يدرك الصلة بين تلك الأسباب ، قد تبدو له واضحة جلية « ضرورة » كل أفعال الانسان الاختيارية (١٦) » . وهناك فى الكون بأسره سلسلة متصلة الحلقات من الاسباب والنتائج أو الآثار . وليس هناك شىء طارىء غير متوقع ، أو خارق معجز ، أو من قبيل الصدفة .

والعالم كله آلة من المادة ، متحركة طبقا لقانون ، والانسان نفسه آلة شبيهة بهذه . والاحاسيس تدخل اليه كأنها حركات ، وتولد صورا وأفكارا وكل فكرة هى بداية حركة ، وتصبح فعلا اذا لم تعقها فكرة أخرى (١٧) . وكل فكرة ، مهما تكن مجردة ، تحرك الجسم بدرجة ما ، مهما تكن غير منظورة . والجهاز العصبى عبارة عن تركيب آلى لتحويل الحركات الحسية الى حركة عضلية . والأرواح موجودة ولكنها مجرد أشكال دقيقة للمادة (١٨) . والنفس والعقل ليسا غير ماديين ، ولكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ . ولا يحاول هوبز أن يفسر السبب فى أن الوعى يتمو بمثل هذه العملية الميكانيكية من الحس الى الفكرة الى الاستجابة . انه باختزال كل الصفات المدركة للاشياء الى صور فى « الذهن » ، يقترب كثيرا من الموقف الذى اتخذه باركلى فيما بعد فى دحض المادية ـ ان كل الحقيقة المعروفة لنا ادراك حسي ، وذهنى .

٣ ـ الأخلاق والسياسة :

ان هوبز مثل ديكارت قبله ، وسبينوزا بعده ، تولى تحليل الانفعالات ، لأنه يرى فيها مصدر كل أفعال الانسان ، ويستخدم الفلاسفة الثلاثة جميعهم لفظة « الانفعال » على نطاق واسع لتشمل أية غريزة أو وجدان أو عاطفة ـ وبصفة أساسية ، الاشتهاء (الرغبة) والنفور ، الحب والكراهية ، الفزع والخوف ، ووراء هذه كلها اللذة والالم ـ العمليات النفسية التى ترفع أو تخفض من حيوية الكائن الحى . والاشتهاء بداية حركة نحو شىء يبشر باللذة . والحب ضرب من الاشتهاء ، موجه نحو شخص . وكل الاندفاعات (كما كان يقول لاروشفوكولد بعد ذلك بأربعة عشر عاما) هى أشكال من حب الذات ، وكلها تنبع من غريزة المحافظة على الذات . فالاشفاق هو تصور لمصائب تنزل بنا فى المستقبل ، يثيره علمنا بمصائب الغير ، والصدقة ارضاء للشعور بالقوة فى مساعدتنا للآخرين . والاعتراف بالفضل ينطوى أحيانا على شىء من العداء « أن حصولنا ممن نرى أنه مساو لنا على فوائد أو منفعة أعظم مما كنا نأمل منه ، ينزع بنا الى التظاهر بالحب ، والحق انه بغض خفى ، وهو يضع المرء فى موقف المدين اليائس ، حتى

أنه فى حالة تصنعه عن رؤية دائنة ، انما يرغب ضمنا فى أن يذهب هذا الدائن الى حيث لا يراه المدين أبدا . لأن المنفعة التى حصل عليها منة طوق بها عنقه ، وفى هذه المنة أو الفضل عبودية (١٩) » . والنفور الأساسي هو الخوف . والاشتهاء الأساسي هو اشتهاء السلطة . « انى أرى فى البشر جميعا نزعة عامة . هى الرغبة الدائمة التى لا تهداء فى السلطة فوق السلطة ، وتلك رغبة لا يخمد أوارها الا عند الموت (٢٠) ». اننا نرغب فى الثراء والمعرفة بوصفهما وسائل للسلطة . وفى الأوسمة ومظاهر الحفاوة والتكريم ، لأنها دليل على السلطة ، ونحن نريد السلطة لأننا نخشي التعرض للخطر . والضحك تعبير عن التفوق والسمو والسلطة .

ان الانفعال بالضحك ليس الا تألقا أو اعتزازا مفاجئا (رضي ذاتيا) ينشأ عن ادراك مفاجىء لبعض السمو والرفعة فينا ، بالمقارنة بوهن الآخرين وعجزهم ، أو بوهننا وعجزنا فيما مضي ، لأن الناس يضحكون من حماقاتهم السابقة عندما تخطر ببالهم فجاة ، الا اذا استحضروا معها شيئا من مواطن الخزى والعار فى حاضرهم .. .. ويكون الضحك أكثر ما يكون عارضا لأولئك الدين بكونون على وعى تام بقدراتهم البالغة الضآلة ، الذين يضطرون الى التماس شيء من الراحة فى ملاحظة نقائص الآخرين . ومن ثم فان كثرة الضحك من عيوب الناس دليل على ضعة النفس . فان من أروع الاعمال التى ينهض بها ذوو العقول الكبيرة أن يساعدوا الآخرين ويحرروهم من الذل والازدراء ، وألا يقارنوا أنفسهم الا بأقدر الناس (٢١) .

والخير والشر مصطلحان ذاتيان بختلفان فى المضمون ، لا من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان فحسب ، بل من شخص الى شخص أيضا. «ان الانسان يسمى موضوع شهوته أو رغبته خيرا ، وموضوع كراهيته أو نفوره شرا ، لأن هاتين الكلمتين تستعملان دائما فيما يتعلق بالشخص الذى يستخدمهما ، لأنه ليس ثمة خير أو شر بسيط أو مطلق ، وليس هناك قاعدة عامة للخير أو الشر يمكن استنباطها من طبيعة الأشياء ذاتها (٢٢) » . وقد تكون الانفعالات خيرا ، وقد تؤدى الى العظمة . « وهذا الذى ليس لديه رغبة قوية .. .. فى السيطرة أو

الثروة أو المعرفة أو الشرف والمهابة . لا يمكن أن يكون لديه خيال واسع أو عقل راجع » . ان ضعف الانفعال غباء ، وقوته بشكل غير طبيعى جنون وانعدام الرغبات موت (٢٣) .

ان بهجة هذه الحياة لا تكمن فى هجوع الذهن فى حالة من الرضي والاكتفاء . لأنه ليس هناك ما يسمونه « الغرض الأسمى » و « الخير الأسمى » كما تحدثت عنهما كتب الفلاسفة الأخلاقيين القدامى .. .. فالبهجة هى تقدم الرغبة المستمر من هدف الى هدف ، وتحقيق الهدف السابق يظل طريقا لتحقيق ما بعده (٢٤) .

ان حكم رجال هكذا تكوينهم وميلهم الى الكسب ، والمنافسة وحدة الاهواء والانفعالات فيهم ، ونزعتهم الى النضال والكفاح ، نقول ان مثل هذا الحكم هو أشد مهام البشر تعقيدا ومشقة ، ويجدر بنا أن نهيىء لمن يتولونه كل عون أو سلاح من علم النفس ومن القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن ارادة الانسان غير حرة فان للمجتمع ما يبرر تشجيعه لبعض الأعمال ويطلق عليها « أعمالا فاضلة » ويثيب عليها ، على حين يندد بأعمال أخرى ، ويقول بأنها « أعمال مرذوله » ويعاقب عليها . وليس ثمة تناقض هنا مع « الحتمية » ، فان هذه الاستحسانات والتنديدات الاجتماعية تضاف ، من أجل خير الجماعة ومصالحها ، الى الدوافع التى تؤثر فى السلوك . « ان العالم يحكمه الرأى (٢٥) »، فالحكومة والدين والقانون الاخلاقى ، هى الى حد كبير تلاعب بالرأى، للتخفيف من الضرورة ونطاق القوة .

ان الحكومة ضرورية ، لا لأن الانسان شر بالطبيعة ـ لأن « الرغبات وسائر الانفعالات ليست آثمة فى حد ذاتها (٢٦) » ـ بل لأن الانسان بطبيعته أكثر نزوعا الى الفردية منه الى الروح الاجتماعية ، ان هوبز هنا لم يتفق مع أرسطو فى أن الانسان « حيوان سياسي » ، أى مخلوق مهيأ بالطبيعة للاجتماع . انه على النقيض من ذلك أدرك « حالة طبيعية » أصلية (وهى على ذلك الطبيعة الأصلية للانسان)، على أنها حالة تنافس وعدوان متبادلين لا يوقفهما الا الخوف ، القانون . ويمكننا (كما يقول هوبز) أن نتصور هذه الحالة لافتراضية اذا لاحظنا العلاقات الدولية فى زماننا هذا ، فان الامم

لا تزال الى حد كبير فى « حالة من الطبيعة » ، ولم تخضع بعد لقانون أو سلطة مفروضة عليها .

ان الملوك وأصحاب السلطان فى كل الأزمان ، بسبب استقلالهم ، يعيشون وسط الاحقاد والحذر ، يقفون وقفة المصارعين والمجالدين دائما ، أسلحتهم مشرعة ، وعيونهم مثبتة كل منهم على الآخر - أى قلاعهم وحامياتهم ومدافعهم على حدود ممالكهم - يبثون العيون والارصاد على جيرانهم ، وتلك هى وقفة الحرب ، لا توجد سلطة عامة ، لا يوجد قانون ولا يوجد ظلم ولا جور . والقوة والخداع هما فى الحرب فضيلتان أساسيتان (٢٧) .

وهكذا اعتقد هوبز أن الافراد والاسرات كانت قبل ظهور التنظيم الاجتماعى ، تعيش فى حالة حرب دائمة ، فعلية أو محتملة ، « كل انسان ضد الآخر (٢٨) » . ولا تقتصر الحرب على الالتحام فى المعركة فقط ، بل قد يأتى وقت يبدو فيه بشكل واضح ، عزم الانسان على الاشتباك فى معركة (٢٩) . ونبذ نظرية فقهاء الرومان وفلاسفة المسيحية فى أن هناك ، أو كان هناك اطلاقا ، « قانون طبيعى » بمعنى قوانين الصواب والخطأ ، مؤسسة على طبيعة الانسان بوصفه « حيوانا عاقلا » . وسلم بأن الانسان كان عقلانيا فى بعض الاحيان ، ولكنه أدرك أنه « مخلوق ذو انفعالات وأهواء - ورغبة السلطان والقوة فوق كل شيء - يستخدم العقل أداة للرغبة أو الاشتهاء ، ولا يحكمه الا الخوف من القوة . والحياة البدائية - أى الحياة قبل التنظيم الاجتماعى - كانت بلا قانون ، عنيفة مخيفة ، « قذرة كريهة وحشية فقيرة (٣٠) » .

وفى تصور هوبز أنه من « حالة الطبيعة » المفترضة هذه ، خرج الناس باتفاق ضمنى بين بعضهم بعضا ، على أن يخضعوا جميعا لسلطة عامة . وتلك هى نظرية « العقد الاجتماعى التى أصبحت مألوفة شائعة بفضل رسالة روسو التى تحمل هذا الاسم (١٧٦٢) . ولكنها كانت بالفعل قديمة مطروقة فى أيام هوبز . فان ملتون فى رسالته « ولاية الملك والحكام » (١٦٤٩) كان قد فسر العقد بأنه اتفاق بين ملك ورعاياه - على أنهم يطيعونه ، وعلى أنه سيقوم بمهام منصبه

على خير وجه ، فاذا أخفق هذا ، كما قال ملتون (مثل ما قال بوكانان وماريانا وكثيرون غيرهما) ، كان للشعب الحق فى خلعه . واعترض هوبز على النظرية بهذه الصيغة ، على أساس أنها لم تؤسس سلطة مخولة أن تنفذ العقد ، أو تحدد كيف ومتى نقض . وآثر القول بأن هذا الاتفاق مبرم ، لا بين الحاكم والمحكومين ، بل بين المحكومين الذين اتفقوا فيما بينهم :

انهم منحوا كل سلطانهم وقوتهم (أى حقهم فى استخدام القوة بعضهم ضد بعض) لرجل واحد أو لجماعة من الرجال .. .. فاذا تم هذا ، اتحد الجميع فى رجل واحد يسمى الدولة . وهذا هو منشأ اللواياثان الكبير .. .. بل على الأرجح منشأ « الرب الفانى » الذى ندين له ، فى ظل « الاله الحى الباقى » بسلامنا والدفاع عنا لأنه بمقتضي هذه السلطة التى خولها اياه كل فرد فى الدولة ، له الحق فى أن يستخدم كثيرا من السلطات والقوة اللتين منحتا له ، ومن ثم فانه بالارهاب يكون قادرا على تشكيل ارادة الناس جميعا .. .. غايته من ذلك أن يستخدم كل قوتهم وكل ما يملكون من وسائل . كلما وجد الضرورة تدعو الى ذلك ، من أجل سلامهم والدفاع المشترك عنهم . وهذا الذى يمثل هذا « الشخص » ويحمل هذا العبء يسمى ملكا ، ويقال ان له سلطة ملكية ، وكل من عداه من رغاياه (٣١) .

وفى شيء من الطيش افترضت النظرية فى هؤلاء الهمج « القذرين المتوحشين » الذين سبق ذكرهم ، درجة من النظام والعقلانية والاتضاع، وهى درجة تسمح بتنازلهم عن سلطاتهم . وأجاز هوبز فى شيء من الحكمة ، أن تنشأ الدولة عن أصول بديلة : ـ

ويكمن الوصول الى هذه السلطة الملكية الحاكمة عن طريقين ، أولهما القوة الطبيعية ، كما هو الحال حين يعمد رجل ما الى اخضاع بنيه وذرياتهم لحكومته ، لأنه قادر على تدميرهم والقضاء عليهم اذا أبوا عليه ذلك ، أو يخضع أعداءه لارادته عن طريق الحرب . أما ثانيهما فهو حين يتفق الناس فيما بينهم على الخضوع طواعية واختيارا لرجل أو جماعة من الرجال ، ثقة من الناس بأن هذا الرجل أو جماعة الرجال سيتولون حمايتهم ضد الآخرين . ويمكن أن يطلق على هذا « رابطة سياسية » (٣٢) (دولة).

ومهما كان الاساس الذى قام عليه الحاكم ، فانه لكى يكون حاكما وملكاً حقا ، لا بد أن يكون ذا سلطة مطلقة ، فانه بدونها لا يستطيع أن يحقق امن الفرد أو سلام الجماعة ٠ ومقاومته انمـــا تعنى نقض العقد الاجتماعى الذى أقره ضمنا كل فرد فى الجماعة بقبوله حماية رأس الدولة له ٠ وقد تسلم هذه « الاستبدادية المطلقة » النظرية ببعض قيود وحدود عملية ٠ فيمكن مثلا الوقوف فى وجه الملك اذا أمر انسانا بأن يقتل نفسه أو يبتر عضوا من جسمه ليعطله أو يشوهه ، أو يعترف بجريمة لم يرتكبها ، أو اذا لم يعد الحاكم قادرا على حمـــاية رعاياه ٠ « المفهوم أن التزام الرعايا نحو الملك يبقى ما بقيت سلطته التى يستطيع بها حمايتهم ، ولا بقاء لهذا الالتزام اذا فقد السلطان (٣٣) » ٠ والثورة دائما جريمة الا اذا حققت نجاحا ٠ انها دائمـــا غير مشروعة وغير عادلة ، لأن القانون والعدالة كلتيهما يحددهما ويحكمهمـــا الملك ، ولكن اذا أقامت الثورة حكومة مستقرة فعالة ، فان على المواطـن أن يلتزم بطاعة السلطة الجديدة ٠

ولا يحكم هذا الملك بمقتضي الحق الالهى ، حيث أنه يســـتمد سلطته من الشعب ، ولكن يجب أن تقيد سلطته جمعية شعبية أو قانون الكنيسة ٠ ويجدر أن تمتد هذه السلطة الى الملكية ، فيجب على الملك أن يحدد حقوق الملكية (التملك) ، وعليه أن يعيد توزيع الممتلكات الخاصة ، حيثما يقدر أن هذا يحقق المصلحة العامة (٣٤) ٠ « والحكم المطلق » ضرورى ، لأنه اذا كانت السلطة شركة ، بين الملك والبرلمان مثلا ، فسرعان ما ينشب النزاع ، ثم الحرب الأهلية ، فتعم الفوضي وتتعرض الحياة والممتلكات للخطر ٠ وحيث أن الأمن والسلام همـــا الضرورتان الاساسيتان للمجتمع ، فانه لا ينبغى أن يكون هناك فصل، بل وحدة كاملة وتركيز تام فى السلطات الحكومية ٠ وحيثما توزعت السلطات لا يكون هناك ملك ، وحيثما لا يكون ملك ، لا تكون هناك دولة (٣٥) ٠

وبناء على هذا يكون الشكل المنطقى للحكومة هو الملكيـــة ٠ ولا بد أن تكون وراثية ، لأن حق اختيار الخلف جـــزء من ســـيادة الملك ، ونكرر القول بأن البديل لهذا هو الفوضي (٣٦) ٠ وقد تصلح الحكومة عن طريق جمعية ولكن شريطة أن تكون سلطتها مطلقة ، غير

خاضعة لرغبات متقلبة لدى شعب غير متعلم . « ان الديمقراطيــة لا تعدو أن تكون أرستقراطية خطباء (٣٧) » فما أسهل أن يهيج زعماء الدهماء مشاعر الشعب ، ومن ثم كان لزاما أن تمارس الحكومة الرقابة على الخطابة والصحافة ، وينبغى أن تكون هناك رقابة صادقة على المطبوعات والواردات وقراءة الكتب (٣٨) . ولا يجوز أن يكون هناك جدل عقيم حول الحرية الفردية والآراء الخاصة والضمير . وينبغى أن يقتلع من الجذور كل ما يهدد ســيادة الملك ، ومن ثم الســلام العام (٣٩) . فكيف يتسنى حكم دولة أو حماية علاقاتها الخارجيــة اذا بقى كل فرد حرا فى طاعــة القــانون أو مخالفته وفقــا لرأيه الخاص ؟

٤ ـ الدين والدولة :

وكذلك يجب على الملك أن يحكم دين شعبه ، لأن الدين يمكن أن يكون قوة مدمرة متفجرة اذا تشدد فيه الناس . ويقدم هوبز تعريفا موجزا : « ان الخوف من القوة الخفية التى يلفقها العقل أو تصورها الأقاصيص ، اذا سمح بانتشاره فهو « الدين » .

واذا لم يسمح فهو « الخرافة » (٤٠) . وهذا يهبط بالدين الى مجرد الخوف والخيال والادعاء ، ولكن فى مواضع أخرى نرى هوبز يعزوه الى التساؤل الملهوف عن علل الأشياء والحوادث وبداياتهــا (٤١) . وتقود ملاحقة الأسباب هذه فى النهاية الى الاعتقاد (كمــا اعترف الفلاسفة الوثنيون) « بأنه لا بد أن يكون هناك « محرك » واحد ، أى سبب واحد خالد لكل الاشياء ، وهو ما يعنيه النــاس بقــولهم الله (٤٢) » وذهب الناس بشكل طبيعى الى أن هذا « السبب الأول » كا نمثلهم : شخصا ونفسا وارادة ، ولكنه فقط أقوى منهــم بكثير . ونسبوا الى هذا « السبب » كل الأحــداث التى لم يستطيعوا تبين محدداتها الطبيعية بعد ، ورأوا فى الأحداث العجيبــة معجــزات ونبؤات للارادة الالهية .

فى هذه الأشياء الأربعة : فكرة الأرواح ، والجهل بالأســباب الثانوية ، والتفانى فيما يخشاه الناس ، وأخذ الاشياء الطارئة على أنها نذر أو بشائر ، تنطوى البذور الطبيعية للدين ، التى نمت بسبب

مختلف أوهام الكثير من الناس واحكامهم واهوائهم ، نقول نمت حتى اصبحت طقوسا متباينة الى حد أن ما يقوم به فرد ، يعتبر فى معظم الأحوال سخيفا مرذولا عند الآخر (٤٣) .

كان هوبز « ربوبيا » لا ملحدا . فاعترف « بكائن اسمى (٤٤) » ذكى ، ولكنه اضاف « قد يعرف الناس ... بالطبيعة أن الله موجود ، ولو أنهم لا يدركون ما هو (٤٥) . « ويجب ألا ندرك أن لله شكلا ، لأن كل شكل محدود ، أوله أجزاء ، أو له مكان ما هنا أو هناك ، « لأن أى شيء له مكان ، لا بد أن يكون مقيدا محـــدودا » ، أو أنه يتحرك أو يظل فى مكانه ، لأن هذا مكانه ، لأن هذا ينسب له مكان ، كما يجب ألا نقول الا عن طريق المجاز بأنه يمارس الحزن والنـــدم والغضب والرحمة والحاجة والشهوة والأمل أو أية رغبة أخرى (٤٦) . وخلص هوبز الى أن « طبيعة الله خافية لا يمكن فهمها (٤٧) » وقد لا يصفه هوبز بأنه روحى غير مادى ، لأننا لا نستطيع أن ندرك شيئا بلا جسم ، ويحتمل أن كل « روح » جسدية ولكن بشكل دقيق (٤٨) .

وبعد أن حـــدد هوبز لكل من الدين والرب مكانه ، عرض أن يستخدمهما أداتين للحكومة ليكونا فى خدمتها ، ومن أجل هذا أورد سوابق ذوات شأن خطير .

ان المؤسسين والمشرعين الأولين للدول بين « الاميين » (غير اليهود) الذين كانت غاياتهم الابقاء على طاعة الناس وعلى السلام ، عنوا فى كل مكان :

أولا : بأن يطبعوا فى أذهان الناس أن تلك التعاليم التى جاءوا بها فيما يتعلق بالدين ، لا يجوز الظن بأنها جاءت من عندياتهم ، بل انها جاءت بأمر من بعض الآلهة أو الارواح ، والا كانوا (المؤسسون والمشرعون) من طبيعة أسمى وأرقى من مجرد بشر معرضين للفناء ، حتى يمكن تقبل قوانينهـــم فى كثير من اليسر . وهـــكذا زعـــم « توما بومبليوس » (ثانى ملوك رومه) أنه تلقى الطقـوس التى اقامها بين الرومان من الحورية ايجريا ، كما زعم مؤسس بيرو وأول ملوكها أنه وزوجته من أبناء الشمس .

ثانيا : أن يشيعوا الاعتقاد بأن الاشياء التى تغضب الآلهـــة هى نفسها الاشياء التى حرمها القانون (٤٩) •

ولكيلا يستنتج أحد أن موسي استخدم وسائل شبيهة بهـــذه فى نسبة شرائعه لله ، يضيف هوبز ، فى نفور خاص من النار ، أن « الرب بنفسه ، بوحى خارق ، أقام الدين » بين اليهود •

ولكنه يشعر بأنه على حق ، بالأمثلة التاريخية ، فى أن يوصي بأن يصبح الدين أداة للحكومة ، وبناء على هذا يفرض الملك مبادىء الدين وتعاليمه • واذا كانت الكنيسة مستقلة فانه يكون هناك ملكان ، ومن ثم لا يكون هنـــاك ملك أبدا ، وتكون الرعيـــة موزعـة بين السيدين •

اذا انتحلت السلطة الروحية حق الحكم بأن هذا أو ذاك اثم ، فانها تنتحل ، نتيجة لذلك ، حق الحكم بأن هذا هو قانون (لأن الاثم ليس الا مخالفة القانون) •• •• واذا كانت هاتان السلطتان (الكنيسة والدولة) تناوىء الواحدة منهما الأخرى فان الدولة تتعرض لخطر كبير هو خطر الحرب الأهلية والتمزق (٥٠) •

وفى مثل هذا الصراع يكون للكنيسة اليد العليا « لأن أى انسان، وهو فى كامل وعيه ورشده لابد أن يدين فى كل الامور • بالطاعـــة المطلقة ، للرجل الذى يعتقد أن حكمه عليه سينجيه أو يقضي عليه »• وحين تثير السلطة الروحية نفوس الرعايا « بالخوف من العقاب أو الامل فى الثواب » من هذا النوع الخارق للطبيعة » ، وتخنق تفكيرهم وتعطل عقولهم بالكلمات الغريبة القاسية ، فلا بد أنها بذلك توقــع الشعب فى حيرة ، واما أن ترهق البلاد بالظلم والجور ، واما أن تلقى بها فى أتون حرب أهلية (٥١) • ويرى هوبز أن المخرج والوحيد من مثل هذا المأزق الحرج أن تكون الكنيسة خاضـعة للدولة • ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى فى هذا رأيا آخر ، فان هوبز ، فى الجزء الرابع من « لواياثان » يهاجمها على أنها ألد وأقوى عدو لفلسفته •

ثم يورد هوبز « نقدا أشد » للكتاب المقدس ـ يرتاب فى تأليف موسي للأسفار الخمسة الأولى من التـــوراة ، ويؤرخ « الأســـفار

التاريخية » فى زمان متأخر عما هو وارد فى النواميس التقليدية . ويرى ألا تتطلب المسيحية من معتنقيها الا الايمان « بيسوع المسيح » أما بالنسبة لبقية أركان العقيدة ، فيجدر بها أن تجيز اختلاف الرأى بين الناس فى نطاق الحدود الآمنة للنظام العام . ولمثل هذه العقيدة البسيطة المطهرة لا يوفر هوبز مجرد تأييد الحكومة فحسب . بل كل قوة الدولة لنشرها ما وسعها الجهد . ويتفق مع البابا فى أن يكون للدولة دين واحد (٥٢) . ويشير على المواطنين بأن يتقبلوا لاهوت مليكهم دون تردد محرج ، لأن هذا واجب أخلاقى ، كما هو واجب للدولة . « لأن الحال بالنسبة لأسرار ديانتنا هى الحال بالنسبة للأقراص الصحية عند المرضي ، اذا ابتلعت دفعة واحدة كان لها فضل الشفاء ، أما اذا مضغت ، فانها فى معظم الاحوال تلفظ ثانية ولا يكون لها أى تاثير (٥٣) » . وانتهى أشد هجوم شنه انجليزى على المسيحية ، بمسيحية قامت وكأنها قانون لا مفر منه لدولة استبدادية مطلقة .

٥ ـ اصطياد الدب :

جاء فى الفقرة الأخيرة من « لواياثان » : « وهكذا أختم دون تحيز ، حديثى عن الحكومة المدنية والدينية التى تضطرب بفوضي العصر الحاضر ... وليس لى من هدف الا أن أضع تحت أنظار الناس العلاقة المتبادلة بين الحماية والطاعة » .

ولم يتحقق الناس من عدم التحيز على نطاق واسع . فان المهاجرين الذين تجمعوا حول شارل الثانى فى فرنسا رحبوا بدفاع هوبز من النظام الملكى ، ولكنهم استنكروا ماديته على أنها حمق وطيش ان لم تكن تجديفا ، وعراهم الأسي والأسف لما استنفد فيلسوفهم العنيد من صفحات فى مهاجمة الكنيسة الكاثوليكية ، على حين كانوا لفورهم يلتمسون العون من ملك كاثوليكى . أما رجال الدين الانجليكانيون الذين كانوا بين اللاجئين الى فرنسا من وجه البيوريتانيين المنتصرين ، فقد تعالت صيحاتهم ضد الكتاب الى حد أن هوبز « أمر ألا يعود الى بلاط شارل الثانى (٥٤) » . ولما ألفى هوبز أنه بات بلا صديق ولا صاحب ، وبلا حماية فى فرنسا ، قرر أن

يتصالح مع كرومول ويعود الى انجلترا . وطبقا لما رواه الاسقف بيرنت ، أدخل هوبز بعض تعديلات على نصوص اللواياثان « ارضاءا للجمهوريين (٥٥) » وليس هذا مؤكدا ، ولكن المؤكد ، على أية حال ، أن نظرية الثورة غير ذات الأصل الشرعى ، والتى بررها نجاحها ، التأمت بشكل مبتور وكأنها ترقيع ، مع نظرية الطاعة المطلقة لحاكم مطلق . ان كتاب « العرض والنتيجة » النهائيتين الذى يبدو وكأنه تفسير متأخر جاء بعد أوانه ، شرح الظروف التى يمكن فيها لمواطن كان يدين بالولاء للملك من قبل ، أن يخضع فى الوقت المناسب ، وفى لباقة ، للنظام الجديد الذى كان قد أطاح بالملك . ونشر الكتاب فى لندن فى ١٦٥١ بينما كان هوبز فى باريس . وفى آخر هذا العام ، وسط شتاء قاس ، عبر البحر الى انجلترا ، حيث أوى الى ملاذ طيب عند ارل ديفونشير الذى كان قد استسلم منذ أمد طويل لبرلمان الثورة . وأعلن هوبز ولاءه وخضوعه للحكم القائم ، فلقى قبولا ، ومن ثم انتقل الفيلسوف الى دار فى لندن ، مستعينا بمعاش ضئيل أجراه عليه ارل ديفونشير ، « لأن الافتقار الى حديث العلم والعلماء كان أشد ما يضايق الفيلسوف فى الريف (٥٦) » . وكان آنذاك فى الثالثة والستين من العمر .

وشيئا فشيئا ، كلما وجد الكتاب قراء ، تكاثر النقاد على المؤلف أسرابا . فانبرى رجال الدين الواحد تلو الآخر للدفاع عن المسيحية ، وتساءلوا : من هو « وحش مامزبرى » الذى قام يتحدى أرسطو وأكسفورد والبرلمان والله ؟ . وكان هوبز جبانا ولكنه مقاتل ، وفى ١٦٥٥ أثبت من جديد فى « أصول الفلسفة » آراءه فى المادية والحتمية . وفى كتاب « اصطياد اللواياثان (١٦٥٨) نصب جون برامهول ، أسقف درى العلامة ، شراكه لهوبز وسدد الضربات اليه جيدا ، وقال أسقف آخر « أن هوبز لا يزال فى الشرك (٥٧) » . واستمرت الهجمات فى كل عام تقريبا حتى قضي الفيلسوف نحبه . ولما اعتزل ارل كلارندون منصبه (وكان قاضي القضاة) تسلى فى منفاه بنشر « رأى وعرض موجزان للأخطاء الخطيرة المؤذية فى الكنيسة والدولة فى كتاب مستر هوبز - لواياثان » (١٦٧٦) . وفى ٣٢٢ صحيفة تابع تقنين المجلدات بشكل منتظم ، وهو يقرع الحجة بالحجة فى نثر مشرق رفيع . وتحدث

كلاوندون بوصفه رجلا ذا خبرة طويلة فى المناصب السياسية ، وسخر من فلسفة هوبز على أنه رجل لم يسبق له أن تقلد مناصب ذات مسئولية، حتى يلطف من نظرياته عن طريق الممارسة والتجـــربة ، وتمنى لو أن « مستر هوبز أتيح له أن يتبوأ مقعدا فى البرلمان أو فى المجلس ، أو فى دور القضاء أو أية محكمة أخـــرى ، حيث كان يحتمـــل أن يتبين أن تأملاته فى عزلته ، مهما تكن عميقة ، والتزامه المتعجرف الزائد عن الحد ببعض أفكار فلسفية ، بل حتى ببعض قواعد الهندسة ، نقول يتبين أن هذا كله قد ضلله وحاد به عن جادة الصواب فى بحثه فى السياسة (٥٨) .

ولم تكن كل الحملات على هذا النسق من الهدوء والاعتـدال . وفى ١٦٦٦ أمر مجلس العموم احدى لجانه « بكتابة تقارير عن الكتب التى تنزع الى الالحاد والتجديف وانتهاك حرمة المقدسات أو تتناول بالتعريض لسمة الله وصفاته . وبخاصة الكتاب الذى نشر باسم «هوايت» (قسيس كاثوليكى سابق ارتاب فى خلود النفس) ، وكتاب هوبز ، « لواياثان (٥٩) » . يقول أوبرى « كان هناك تقرير (صحيح يقينا) بأن بعض الأساقفة فى البرلمان قدموا اقتراحا باحراق الرجل الطيب العجوز بجريمة الهرطقة (٦٠) » . وأعدم هوبز كل ما كان يمكن أن يورطه أو يدينه بعد ذلك من أبحاثه التى لم تنشر ، ثم كتب ثلاث محاورات حاول فيها أن يبرهن بأسلوب العـــالم المتفقة على أن أية محكمة فى انجلترا لا تستطيع أن تحاكمه بتهمة الهرطقة .

وهبّ الملك الذى استعاد عرشه لانقاذ الفيلسوف . ذلك أن شارل الثانى بعد وصوله الى لندن بزمن قصير ، رأى هوبز فى الشارع ، وعرف فيه معلمه السابق ، ورحب به فى البلاط . وكان بلاط عودة الملكية ينزع بالفعل الى شيء من التشكك الدينى ويدافع عن الملكيـة المطلقة ، ومن ثم وجد فى فلسفة هوبز بعض العناصر التى تتمشي مع الأفكار السائدة فى هذا البلاط . ولكن رأسه الأصلع وشـعره الأشيب وزيه الشبيه بزى البيوريتانيين ، كل أولئك كان مدعاة للسـخرية . وأطلق عليه الملك شارل نفسه اسم الدب ، وكلما اقترب منـــه قال : « ها قد جاء الدب لنقدم له الطعـم ونغـــويه (٦١) » . ومع ذلك استساغ الملك اجاباته البارعة وسرعة بديهته ، وأمر برسم صـــــورة الفيلسوف العجوز ، وتعليقها فى حجراته الخاصة ، وخصص له معاشا

سنويا قدره مائة جنيه ، ولم يكن الراتب يدفع بانتظام ، ولكنه مع ذلك ، بالاضافة الى خمسين جنيها أخرى فى السنة من أسرة كافندش، كان كافيا لسد حاجيات الفيلسوف البسيطة .

ويصف أوبرى بانه كان عليلا فى شبابه ، موفور الصحة نشيطا فى شيخوخته ، ومارس لعب التنس حتى بلغ الخامسة والسبعين . فاذا لم يتيسر ملعب التنس ، عمد الى المشي لفترة طويلة فى خفة وسرعة ، حتى « يتصبب منه العرق ، وعندئذ ينقد الخادم بعض النقود ليدلكه » . وكان معتدلا فى أكله وشربه ، وامتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر بعد السبعين . وكان يفاخر بانه « كان قد أفرط فى حياته مائة مرة » ولكن أوبرى حسب أن هذا الافراط لم يحدث لاكثر من مرة فى كل عام ، ولذلك لم يكن شيئا فظيعا . ولم يتزوج الفيلسوف قط ، ولكن يبدو أنه كان له ابنة غير شرعية وفر لها سبل العيش الكريم بسخاء (٦٢) . وكان يقرأ قليلا فى سنيه الأخيرة ، « وتعود أن يقول انه اذا كان قد قرأ قدر الآخرون لما عرف أكثر مما عرفوا » . وفى الليل عندما كان يأوى الى الفراش ، والأبواب موصدة ، وهو واثق أن أحدا لا يسمعه ، كان يغنى بصوت عال (لا لأن صوته رخيم ولكن من أجل صحته) ، حيث اعتقد بأن الغناء يفيد رئيته ويؤدى الى اطالة العمر (٦٣) . ومهما يكن من أمر ، فانه أصيب منذ ١٦٥٠ بشلل ارتجافى فى يديه ، واشتدت به هذه العلة حتى كادت كتابته فى ١٦٦٦ أن تكون غير مقروءة .

وعلى الرغم من هذا استمر هوبز يكتب . وتحول من الفلسفة الى الرياضيات ، وهنا انزلق فى غير ما حرص ولا حذر ، الى خلاف مع عالم خبير هو جون واليس الذى انتقص من قيمة ادعاء الرجل العجوز بانه كشف تربيع الدائرة . وفى ١٦٧٠ ، وهو فى الثانية بعد الثمانين نشر كتابه « بهيموث » وهو عبارة عن تاريخ الحرب الأهلية فى انجلترا ، كما كتب عدة ردود على ناقديه ، وترجم الى اللاتينية كتابه « لواياثان » ترجمة رائعة . وفى ١٦٧٥ كتب سيرة حياته نظما باللاتينية ، كما نظم فى نفس العام الالياذة والأوديسية شعرا بالانجليزية ، حيث « لم أجد عملا أؤديه أفضل من هذا » .

وفى تلك السنة ، حيث بلغ السابعة والثمانين ، عاد من لندن

الى الريف حيث قضي بقية أيام حياته فى ضيعة آل كافندشي فى دربيشير • وفى تلك الاثناء اشتد عليه الشلل ، كما عانى من عسر البول • ولما انتقل ارل كافندشي آنذاك من تساتسورت الى هاردويك هول أصر هوبز على مرافقته • وثبت أن الرحلة مرهقة ، وبعدها بأسبوع انتشر الشلل فى جسمه ولم يعد قادرا على الكلام • وفى ٤ ديسمبر ١٦٧٩ فاضت روحه بعد أن تناول الأسرار المقدسة ، أنجليكانيا-مخلصا ، وقد بلغ من العمر اثنين وتسعين عاما الا أربعة أشهر •

٦ - النتائج :

كان علم النفس الذى جاء به هوبز رائعة من روائع الاستنتاج من مقدمات غير وافية ، وقد يبدو منطقيا لأول وهلة ، ولكنه مفكك الأوصال مهلهل بما فيه من فروض غير دقيقة وبما صوب منها مزيد من التحقيق والتمحيص والحتمية منطقية ، ولكن قد يحددها طراز منطقنا ، ويشكلها معالجتنا للاشياء لا الافكار • ووجد هوبز مشقة فى أن يتصور أن أى شيء غير مادى ، ويبدو أنه من الصعب بنفس القدر أن نتصور أن الفكر والشعور ماديان ، ومع ذلك فان هذه هى الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر - وكل ما عداها فرضيات • وانتقل هوبز من الشيء المدرك بالحواس الى الاحساس الى الفكرة دون أن يلقى ضوءا كافيا أو يوضح تماما العملية الخفية التى يولد بها الشيء المادى ظاهريا الفكر غير المادى ظاهريا • ان علم النفس الميكانيكى يترنح أمام الوعى •

وعلى الرغم من ذلك فانه فى مجال علم النفس أسهم هوبز أكثر ما أسهم فى تراثنا • فقضي على « الأرواح » الميتافيزيقية مثل «الملكات» التى جاءت بها المذاهب السكولاسية (مذاهب العصور الوسطى) ولو أن هذه يمكن على الفور تفسيرها ، لا على أنها كيانات عقلية • بل مظاهر للنشاط العقلى • وأرسي قواعد المبادىء الأكثر وضوحا فى تداعى المعانى والخواطر ، ولكنه انتقص من قيمة الفرض والانتباه فى تحديد انتقاء الافكار وتسلسلها وتشبثها • وأورد وصفا ناجحا للتروى والاختيار • وكان تحليله للانفعالات ودفاعه عنها خلاصة رائعة ، ردت

الى سبينوزا الفضل التى كانت مدينة به لديكارت • ويفضل أبحاث علم النفس هذه ، طور لوك كتابه الاكثر دقة وتفصيلا « رسالة فى العقل البشرى » • وفى الرد على هوبز ، (لافلمر) ، كان تطوير لوك لرسالته عن الحكومة •

وأعادت فلسفة هوبز السياسية صياغة مكيافللى بلغة شارل الأول، ونبعث هذه الفلسفة من الاستبدادية المطلقة الموفقة التى انتهجها هنرى الثامن واليزابث فى انجلترا ، وهنرى الرابع وريشليو فى فرنسا ، كما أنه لا ريب فى أنها استمدت بعض القوة من مخالطته لأصدقائه الأدواق والملكيين المهاجرين • ومن حيث الاثر المباشر بدا أن لهذه الفلسفة ما يبررها ، فى العودة السعيدة للملك من آل سيتوارت ما زال يدعى ويطالب بسلطان مطلق غير محدود ، وينهى فترة من الفوضى المدمرة • ولكن بعض الانجليز النابهين أحسوا بأنه اذا كانت موافقة الهمجيين « القذرين المتوحشين » كافية لاقامة حكومة ، فانه موافقة الناس ، وهم فى حالة يفترض أنها أكثر تقدما ورقيا ، فد يكون من شأنها أن تكبح جماح هذه الحكومة أو تطيح بها • وهكذا نجد فى الثورة الجليلة ١٦٨٨ أن فلسفة الحكم الاستبدادى المطلق سقطت أمام اعادة البرلمان توكيد سيادته ، وسرعان ما حل مكانها تحررية « ليبرالية » لوك التى تدعو الى تحديد السلطات والفصل بينها • وبعد ديمقراطية القرن التاسع عشر النسبية ، التى نمت فى انجلترا التى يحرسها القنال ، وفى أمريكا التى تحميها البحار ، عادت استبدادية مطلقة معدلة فى دول دكتاتورية تمارس رقابة حكومية على الحياة والممتلكات والصناعة والدين والتعليم والمطبوعات والفكر • وتخطت الاختراعات الجبال والخنادق ، واختفت الحدود ، وتلاشت العزلة القومية والامن القومى • ان نظام الحكم المطلق ابن الحرب ، والديمقراطية ترف السلم •

ولسنا ندرى هل كان « لحالة الطبيعة » التى قال بها هوبز ، وجود يوما ما ، فربما كان النظام الاجتماعى سابقا للانسان ، فالقبيلة سبقت الدولة ، والعرف أقدم وأوسع وأعمق من القانون • والأسرة هى أساس بيولوجى لا يثار ينمى الذات (الأنا) وولاءاتها • وربما أصبح « علم الأخلاق » الذى جاء به هوبز أكثر ملاءمة لو أنه عمد الى تنشئة أسرة ، أما أن يترك للدولة تحديد الأخلاقيات (ولو أن هذا انتقل الى

النظم الدكتاتورية) فمعناه تدخير احدى القوى التى تعمل على تحسين الدولة والأخذ بيدها . ان الحس الخلقى يوسع فى بعض الاحيان دائرة التعاون أو الاخلاص والحب الشديد ، ثم يستحث القانون على توسيع مجال حمايته تبعا لذلك . وفى المستقبل البعيد قد يتسنى لدولة أن تكون مسيحية ، كما كان الحال يوما مع أشوكا الذى كان بوذيا .

وبرز أقوى تأثير لفسلفة هوبز فى « ماديته » . وسرت « أفكار هوبز » من الجماعات المفكرة الى طبقات المهنيين ورجال الأعمال . وفى هذا قال بنتلى الغضوب ١٦٩٣ « لقد زخرت بها الحانات والمقاهى بل وستمنستر هول (البرلمان) والكنائس ذاتها كذلك (٦٤) » . وتقبلها كثير من رجال الحكومة فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم فى العلن حجبوها باحترام أبدوه للكنيسة الرسمية على أنها شكل مفيد للانضباط الاجتماعى لا يقوم على تدميره الا الحمقى والأغبياء . وأثرت هذه الفلسفة المادية فى فرنسا فى تشكك بيل ، وأتت عليها تطورات أشد جرأة عند لامترى ودى هولباخ وديدرو .

وكان بيل بعد هوبز من أعظم عباقرة القرن السابع عشر (٦٥) . ومهما أصاب من مدح أو قدح فقد اعترفوا بانه أقوى فيلسوف أنجبته انجلترا منذ عهد بيكون ، وأول انجليزى يعرض بحثا منهجيا أساسيا فى النظرية السياسية . وانا لندين له بفضل واضح ، ذلك أنه صاغ فلسفته فى ترتيب منطقى وفى نثر مشرق . واننا اذ نقرأ هوبز وبيكون ولوك ، أو فونتفل وبل وفولتير لندرك من جديد ما أنسانا الالمان اياه ، من انه ليس من الضرورى ان يكون الغموض هو العلامة المميزة للفيلسوف ، وانه يجدر بكل فن أن يتقبل الالتزام الأدبى الاخلاقى واضحا أو خامدا .

٢ ـ يوتوبيا هارنجتون :

فى الوقت الذى دافع فيه هوبز عن ملكية مزعجة موجعة ، اقترح جيمس هارنجتون يوتوبيا ديمقراطية ، والآن وقد كانت الكشوف الجغرافية والتجارة تفتح آفاقا سحيقة من الكرة الارضية ، وجاءت الأساطير الى أوربا مع كل بضاعة من وراء البحار ، فقد كان من اليسير

على أرباب الخيال والقلم أن يسبحوا فى الخيال الى ركن سعيد على الخريطة ـ الى القمر أو الى الشمس مثل سيرانو دى برجراك وتوماسو كمبانللا ـ ركن قد تخزى أعرافه السياسية والاجتماعية طغيان الناس الذين تظلهم « المدنية » وبؤسهم • ان اعجاب عصر النهضة بالقديم قد افسح المجال لقصص خيالية عن دول مثالية بشكل أو بآخر فى أراض بعيدة لم يعثورها فساد • وهكذا قدم هارنجتون فى ١٦٥٦ الى مقاهى لندن « الأقيانوسة » •

ولد هارنجتون فى بيت كريم ، وكان طبيعيا أن ينحاز الى فلسفة سياسية تناصر صغار مالكى الارض فى انجلترا • وبعد تخرجه فى اكسفورد طاف بأرجاء القارة ، وأعجب بجمهورية الأراضي الوطيئة ، وخدم فى جيشها ، وزار البندقية ، وتاثر بنظمها الجمهورية ، ورأى البابا وأبى أن يقبل اصبع قدمه ، ولما عاد الى انجلترا اغتفرت له كل خطاياه حين ذكر لشارل الاول انه لم يستطع أن يفكر تقبيل قدم أى سيد أجنبى بعد أن سبق له تقبيل يد ملك انجلترا • وعندما اعتقل شارل عين البرلمان هارنجتون لملازمته • فأحب السجين البائس ، ولكنه أوضح له أن « الجمهورية » أمر مرغوب فيه • ولازمه حتى النهاية ، وكان على المنصة ساعة اعدام شارل ، ويقولون انه كاد يموت جزعا وحزنا (٦٦) • وهدأ من روعه مولد « الجمهورية الانجليزية »، فانصرف الى شرح آرائه الجمهورية فى شكل روائى • ولكن بينما كان هارنجتون يكتب ، غير كرومول الجمهورية الجديدة الى حماية شبه ملكية ، وحين كانت « دولة الأوقيانوسة » فى طريقها الى الطبع أمر « الحامى » بوقف العمل فيها • وهنا تدخلت ابنة كرومول الأثيرة لديه ، السيدة كلايبول ، من أجل الكتاب ، وأهداه المؤلف الى أبيها ، وخرج الى النور فى ١٦٥٦ •

ان « الأوقيانوسة » هى انجلترا بالشكل الذى كان المؤلف يأمل من كرومول أن يعيد تشكيلها فيه • انه يضع مبدأ فصل تفصيلا بعد قرنين من الزمان ليصبح التفسير الاقتصادى للتاريخ • ويقول هارنجتون بأن السيطرة السياسية تتبع ، بشكل طبيعى وبحق ، السيطرة الاقتصادية ، وبهذا الانسجام وحده يمكن لأية دولة أن تنعم بالاستقرار • **« على قدر ما يكون التناسب فى ملكية الارض تكون طبيعة الامبراطورية**

ـ أى الحكومة (٦٧) » . فاذا امتلك فرد واحد الارض كلها (كما هو الحال فى تركيا) كانت الحكومة ملكية مطلقة ، واذا امتلكت الارض أقلية لأصبحت الحكومة « ملكية مختلطة » تؤيدها كما تحد من سلطانها الارستقراطية . « واذا كان كل النـــاس ملاكا للأرض ، أو اذا وزعت الأرض بينهم ، بحيث لا يطغى فرد أو مجموعة أفراد ، فان الامبراطورية أى الحكومة (دون فرض بالقوة) تكون دولة جمهورية (٦٨) » ورد هارنجتون على هوبز الذى ذهب الى أن كل الحكومات تســتند الى القوة ، رد عليه بأنه لابد من اطعام الجيوش وتســليحها ، ومن ثم تنتقل السلطة الى أولئك الذين يوفرون المال اللازم لهذا وذاك (٦٩) . ان أى تغيير فى شكل الحكومة أو اتجاهها ، انما هو مجرد توافق بينـــه وبين أى تغيير فى توزيع الملكية . وعلى هذا الاساس فسر هارنجتون انتصار البرلمان الطويل ، حيث كان يمثل صغار الملاك على الملك الذى كان يمثل كبارهم .

وللحيلولة دون أن تصبح الحكومة أوليجاركية من ذوى الضـياع الكبيرة ، اقترح هارنجتون قانونا « لاعادة توزيع الأراضي توزيعـــا عادلا » يحدد للفرد الواحد أرضا لا تدر أكثر من ألفى جنيه فى العام . ان الديمقراطية الفعلية تتطلب التوسع فى توزيع الملكيـــة ، وخير ديمقراطية هى التى يكون فيها لكل مالك أرض دورة عمل فى الحكومة وفى الجمهورية الانجليزية الحقة يمكن للمواطنين أن يرسـلوا ملاك الأراضي ليعملوا فى جمعية شعبية وسناتو (مجلس الشــيوخ) . والسناتو وحده يقترح القوانين ، والجمعية وحدها تقرها أو ترفضها . ويسمى أعضاء السناتو المرشحين للوظائف العامة ، وينتخب المواطنون من هذه القائمة الحكام بالاقتراع السرى (٧٠) . وفى كل عام يحـل محل ثلث أعضاء الجمعية والسناتو والحكام أفراد آخرون فى انتخاب جديد . وفى هذه الدورة يتسنى لكل ملاك الارض أن يكون لهم فى النهاية دور للعمل فى الحكومة . ان هذا الانتخاب الشعبى يحمى المجتمع من المحامين الذين يخدمون المصالح الخاصـة ، ومن رجـــال الدين ـ « وهم الاعداء السافرون الالداء لسلطة الشعب (٧١) » . ولسوف يكون هناك تعليم عام وشامل فى مدارس وكليات وطنية ، وحرية تامة مطلقة فى العقيدة الدينية .

« وكانت النظرية أخاذة جذابة جدا . « كما قال أوبرى . وسرعان ما وجدت مؤيدون متحمسين لها . وجمع هارنجتون بعضهم (ومن بينهم أوبرى) فى أحد نوادى « روتا » Rota (١٦٥٩) حيث أهاجوا الشعور العام للمطالبة بتشريع برلمانى يقر هذه الجمهورية الدورية التى اقترحها هارنجتون الذىنسب الانهيار الذى أصابالدولة آنذاك الى عجزها عن مصادرة الضياع الكبيرة واعادة توزيع الأرض على الناس بمساحات أصغر ، وكان هذا سببا فى احتفاظ النبلاء بقوتهم وسلطانهم . وبقاء الشعب على حاله من الفقر والضعف ، على أساس أن ملكية الارض هى التى تفرض الحكومة ، وأن عودة الملكية الأوليجاركية أمر لا مفر منه اذا لم يقر البرلمان قانون « اعادة توزيع الأراضي » . ويقول أوبرى : « ولكن القسم الاكبر من رجال البرلمان كانوا يمقتون كل المقت مشروع « دورة العمل بالاقتراع العام » لأنهم كانوا طغاة ملعونين مولعين بسلطتهم وقوتهم (٧٢) » ، وآثروا أن يستدعوا شارل الثانى . وحيث استمر هارنجتون بنشر دعوته ، حتى بعد عودة الملكية ، فان الملك أمر بايداعه برج لندن (السجن) بتهمة التآمر (١٦٦١) . ولما بذلت المساعى لاخلاء سبيله بمقتضي « التحقيق فى قانونية حبس المتهم » ، نقلوه الى معتقل أكثر تضييقا واحكاما فى جزيرة بعيدة عن بليموث ، وهناك أصابته نوبات من الجنون . وأطلق سراحه ولكنه لم يسترد صحته قط .

وكانت « اليوتوبيا » التى نادى بها هارنجتون عملية أكثر من معظم « المدن الفاضلة المثالية » ، وتحقق قدر كبير منها . وربما كانت احدى نقاط الضعف فيها أنها افترضت أن الارض هى الشكل الوحيد للثروة . ان هارنجتون ذكر سلطان المال فى التجارة والصناعة ، ولكنه لم يتوقع أو لم يتنبأ بتبوئه السلطة السياسية ، وربما كان قد أحس بأنه حتى الثروة التجارية والصناعية لابد خاضعة فى خاتمة المطاف لملاك الأرض . وكان التوسع فى حق الانتخاب وفى الاقتراع السرى يتفق مع آماله المرجوة ، وعلى الرغم من أن بريطانيا رفضت فكرته فى « دورة العمل والوظائف » ، على أنها تبديد سنوى للخبرة والتجربة فان الولايات المتحدة أخذت بها فى التجديد الدورى لجزء من الكونجرس الأمريكى ، ووافق لوك مونتسكيو وأمريكا على نظريته فى الفصل بين السلطات فى الحكومة . فلا تيأسوا أيها الحالمون ، فلعل

الزمان يفاحئكم بتحقيق أحلامكم ويحول شعركم الى نثر ، أو وهمكم الى واقع ملموس ٠

٣ ـ الربوبيـون :

وكما أضرت الحروب الدينية بالعقيدة الدينية فى فرنسا ، فان الحرب الأهلية فى انجلترا أسهمت فى اثارة الشكوك اللاهوتية ٠ وأشاعت ذكريات الحكم البيوريتانى الزندقة والمروق عن الدين حتى بات أمرا مألوفا بين الملكيين المنتصرين ، كما جعلت الالحاد يقترن بالمرح الصاخب والبذاءة فى بلاط الملكية العائدة ٠ واشتبه فى الحاد ارل شافتسبرى الأول ودوق بكنجهام الثانى وارل روشستر الثانى ، كما اشتبه فى الحاد هاليفاكس وبولينبروك بعد ذلك ٠

وأدى اتساع دائرة المعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية وانتشارها الى ارتفاع موجة التشكك ٠ وفى كل يوم ، كان أحد السائحين أو المؤرخين يطلع على الناس بانباء أمم عظيمة تختلف دياناتها وأخلاقها عن المسيحية بشكل مثير فظيع ، ولكنها عادة فاضلة مستقيمة مثلها ٠ ويندر أن كانت نزاعة الى القتل متعطشة الى سفك الدماء مثل المسيحية ٠ كما بدا أن النظرة الميكانيكية الى العالم التى رسمها ديكارت التقى الورع ، ونيوتن العالم البصير ، نقول بدا أن هذه النظرة تصرف النظر عن دور العناية الالهية » فى تسيير الكون ، وكان اكتشاف القانون فى الطبيعة يجعل من المعجزات أمرا غير مستساغ غير مقبول٠ وأسهم الانتصار البطىء الذى أحرزه كوبرنيكس ، والمحاكمة المثيرة التى عانى منها جاليليو ، فى تزعزع الايمان وتقويض أركانه ٠ بل ان المحاولة الجريئة التى قام بها كثير من رجال اللاهوت المسيحيين لشرح العقيدة على اساس من العقل ، أضعفت العقيدة ٠ ويقول أنطونى كولنز : لم يكن ثمة أحد يشك فى وجود الله ، حتى جاءت « محاضرات بويل » وأخذت على عاتقها اثبات وجوده (٧٣) ٠

ان تفنيد الالحاد كان شاهدا على انتشاره ٠ وفى ١٦٧٢ كتب سيروليم تمبل « عن أولئك الذين يبدو أنهم أذكياء لانهم يذكرون أشياء قالها الجاهل فى نفسه ، كما جاء على لسان داود(٧٤) » وفى نفس العام قال سير تشارلز ولزلى « ان المروق عن الدين كان أمرا واقعة

في كل عصر ، ولكن يبدو أن الدفاع عنه صراحة وعلانية من خصائص هذا العصر (٧٥) » .

ويقول رئيس الشمامسة صمويل باركر ١٦٨١ :

.. .. .. ان الجهال وغير المتفقهين منا أصبحوا أكبر المتظاهرين بالتشكك والكفر ... وأصبح الالحاد والمروق عن الدين فى النهاية شائعين شيوع الرذيلة والفسوق . وفلسف الأجلاف والميكانيكيون لأنفسهم مبادىء بعيدة عن التقوى ، وقرأوا دروسهم فى الالحاد على الناس فى الشوارع والطرقات العامة ، وانهم لقادرون على أن يستخلصوا من كتاب « لواياثان » أنه ليس هناك اله (٧٦) » .

وبين الطبقات المتعلمة التمس الشك حلا وسطا فى التوحيد - الدين الطبيعى - والربوبية . وارتاب التوحيديون فى المساواة بين المسيح والاب ، ولكنهم عادة ارتضوا الكتاب المقدس نصوصا الهيه . وآثر المدافعون عن الدين الطبيعى عقيدة مستقلة عن الأسفار المقدسة ومحصورة فى المعتقدات التى رأوا أنها شاملة كلية - فى الله وفى الخلود . أما الربوبيون ، الذين قاموا بحركتهم أساسا فى انجلترا ، فانهم طالبوا فقط بالايمان بالله الذى اعتبره أحيانا مفهوما تجريديا غير مشخص ، مرادفا للطبيعة ، أو « الدافع الأصلى » لاله الدنيا التى قال بها ديكارت ونيوتن . وبرزت لفظة « ربوبى » Deist فى ١٦٢٧ فى « رسالة الى ربوبى » لرئيس الشمامسة ادوارد ستللنجفليت ، ولكن مطبوعات الربوبيين كانت قد بدأت بكتاب لورد هربرت شربرى « الحقيقة » فى ١٦٢٤ .

وتابع تشارلز بلونت ، أحد مريدى لورد هربرت ، رسالته فى كتاب « النفس البشرية » (١٦٧٩) . وكانت حجته أن كل ديانة أسست انما كانت من وخلق أو ابتداع دجالين أفاكين سعوا الى السلطة السياسية أو الكسب المادى ، وأن الجنة والجحيم كانتا من بين المخترعات البارعة التى اصطنعوها للتحكم فى الأهالى واستغلالهم . ان الروح تموت مع الجسد . ان الانسان والحيوان متشابهان الى حد أنه « من رأى بعض الكتاب ان الانسان ليس الا قردا مصقولا » . وفى « عظمة ديانا الهة أهل افسوس » أو « **منشأ الوثنية** » (١٦٨٠) جعل بلونت من القساوسة

أدوات فى أيدى الطبقات الغنية التى سمنت واكتنزت بفضل كدح الشعب الصابر وسذاجته . وفى دقـــة ماكرة مؤذية ترجـــم بلونت كتـــاب فيلوستراتوسي « حياة أبوللنيوس أوف تيانا » ، وحدد أوجه الشبه بين المعجزات المنسوبة الى صانع الأعاجيب الوثنى والمعجزات المنسوبة الى المسيحيين ، وأوحى برفق الى التشكك فيها وعدم تصديقها جميعا على حد سواء . وفى « بيان موجز عن ديانة الربوبيين - (١٦٨٦) اقترح بلونت ديانة خالية من أية عبادة أو طقوس ، اللهم الا عبادة الله بحياة فاضلة قائمة على الأخلاق » . وفى « وحى العقل » (١٦٩٣) أوضح بلونت أن اللاهوت المسيحى قام أول الأمر على توقع خاطىء لانتهـــاء العالم فى وقت قريب أو مبكر ، وسخر من قصص الكتـــاب المقدس عن الخليقة ، ومن مولد حواء من ضلع أدم ، ومن الخطيئة الأصلية ، ومن ايقاف يشوع الشمس ، على أنها جميعا سخافات صبيانية . وأومأ الى أن « الاعتقاد بأن أرضنا الحديثة (جسم مظلم تافه فى الكون ، أصغر شأنا من النجوم الثابتة فى الحجم والمنزلة معا) هى قلب هذا الكون الشاسع الهائل وأعظم أجزائه سموا وحيوية ، انما هو اعتقاد غير منطقى وغير عقلانى ، يتعارض مع طبيعة الأشياء » . وحاول كتاب آخر غفل من اسم المؤلف ، منسوب الى بلونت بصفة غير مؤكدة ، عنوانه « معجزات لا خرق لقوانين الطبيعة (١٦٨٣) » ، حاول تفسير كثير من قصص المعجزات بأنها أفكار خاطئة راودت العقول البسـيطة عن الأســباب والأحداث الطبيعية ، وأضاف الكتاب نفسه أن الكتاب المقدس انما كتب « ليثير مشاعر التقى والورع » ، لا ليعلم الفيزياء ، وينبغى تفسيره على هذا الأساس : « ان كل ما هو مناف للعقل ، وكل ما هو مناف للعقـــل سخيف يدعو الى السخرية وينبغى رفضة (٧٧) » على أن بلونت نفسه لم يعبد العقل الى النهاية ، اذا صدقنا ما يروى من أنه قتـــل نفســه (١٦٩٣) لأن القانون الانجليزى لم يكن ليجيز له الزواج من أخت زوجته المتوفاة .

وتابع جون تولاند الحملة . وبحكم مولـده فى أيرلنـــده نشــأ كاثوليكيا ، ولكنه ارتد الى البروتستانتية فى شبابه . ودرس فى جلاسجو وليدن وأكسفورد . وفى سن السادسة والعشرين أصدر كتابا غفلا من اسم المؤلف « المسيحية لاتكتنفها أسرار » (١٦٩٦) وصفه بأنه « رســـالة

توضح أنه ليس فى الانجيل شيء ينافى العقل « أو يسمو فوق العقل » . ومذ تقبل بقبول حسن كتاب لوك الحديث « بحث فى العقل البشرى » حيث أثبت أن الاحساس هو أصل كل المعرفة ، فانه أى جون تولاند ، خرج منه بعقلانية متطرفة .

> انا نعتقد أن « العقل » هو الأساس الوحيد لكل حقيقة يقينية ، ولا يستثنى من مجال بحث هذا العقل أى وحى أكثر مما تستثنى الظواهر العادية للطبيعة « .. .. .ان الاعتقاد بالوهية الاسفار المقدسة أو معنى أية قطعة فيها ، دون برهان عقلانى أو حجة دامغة قوية ، انما هو سذاجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم ...ومن المألوف أن يميلبعض الناس الى سرعة التصديق عن جهل وعن عمد ، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذى يدفعهم الى سرعة التصديق(٧٨) .

وكان هذا بمثابة اعلان للحرب . ولكن تولاند فى سياق حديثة بعد ذلك رفع غصن الزيتون ، حيث أردف أن المبادىء المسيحية الأساسية عقلانية باستثناء تحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه . وعلى الرغم من ذلك لم يسكتوا على هذا التحدى ، فقد اجتمع كبار المحلفين فى مدلسكس ودبلن عبر بحر أيرلنده ليستنكروا الكتا ب، فاحرق بصفة رسمية أمام أبواب البرلمان الايرلندى ، وحكم على تولاند بالسجن ، ولكنه هرب الى انجلترا ، ولما عجز عن ايجاد عمل له فيها ، هاجر الى القارة . ولبعض الوقت لقى ترحيبا لدى صوفيا ناخبة هانوفر وابنتها صوفيا شارلوت ملكة بروسيا .

والى صوفيا شارلوت هذه وجه تولاند « رسائل الى سيرينا » (١٧١٤) . وفى احداها حاول أن يتعقب أصل عقيدة الخلود ونموها ، وكانت هذه احدى المحاولات الأولى فى التاريخ الطبيعى للمعتقدات الخارقة للطبيعة . وفى رسالة ثانية عارض تولاند الرأى القائل بأن المادة فى حد ذاتها جامدة لا حركة فيها ، وقال ان الحركة صفة أساسية للمادة ملازمة لها ، وليس ثمة جسم فى سكون مطلق . وكل الظواهر المدركة بالحواس ان هى الا حركات فى المادة ، بما فى

ذلك الأفعال التى يأتيها الحيوان » وقد يصدق هذا على الانسان كذلك (٧٩) • ومهما يكن من أمر فان تولاند عرض نفسه هنا للخطر، فان مثل هذه الأفكار ينبغى الا تنشر علانية ، حيث يجب ترك الجمهور غير المتعلم على معتقداته التقليدية دون ازعاج أو تشويش ، باعتبار أن هذا وسيلة للسيطرة عليه أو التحكم فيه من الناحيتين السياسية والاجتماعية • ويجدر أن يكون التفكير الحر واجب الأقلية المتعلمة وامتيازا مقصورا عليها ، وينبغى ألا يكون ثمة رقابة على هذه الأقلية « فلندع كل الناس يتحدثون بما يفكرون فيه كما يحلو لهم ، دون أو يوصموا بالعار أو يعاقبوا الا على ما يأتون من أعمال سيئة ضارة (٨٠) » • وظاهر أن تولاند هو الذى ابتكر مصطلحى « المفكر الحر » و « المؤمن بوحدة الوجود » (٨١) (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد ، وأن الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) •

ويوحى بحثه « ابن الناصرة » (١٧١٨) بأن المسيح لم يكن يقصد الفصل بين أتباعه وبين اليهودية ، وأن المسيحيين اليهود الذين ظلوا يتبعون شريعة موسي كانوا يمثلون « الخطة الأصلية الحقة للمسيحية » وهناك رسالة صغيرة « الايمان بوحدة الوجود » شرح فيها مذهب وطقوس جمعية سرية وهمية • وربما كان تولاند عضوا فى Mother Grand Dlodge الماسونيين الاحرار التى أسست فى لندن ١٧١٧ • ان هذه الجمعية كما وصفها تولاند نبذت كل الوحي الخارق للطبيعة ، وقدمت دينا جديدا يتفق مع الفلسفة ، وقالت بالتماثل بين الله والكون ، واستبدلت بالقديسين فى التقويم المسيحى أبطال الحرية والفكر • وأجازت الجمعية لأعضائها القيام بالعبادات العامة المألوفة ما داموا ، عن طريق نفوذهم السياسي يستطيعون الحيلولة دون أن يكون التعصب أمرا مؤذيا ضاريا (٨٢) •

وزاول تولاند أعمالا مختلفة لفترات متقطعة ، وركن تولاند الى حياة الفقر والعوز ، لم ينقذه منها من الموت جوعا الا لورد مولزورث والفيلسوف شافتسبرى • واحتمل فى صبر وجلد حملات التفنيد التى شنت على كتبه (٥٤ مرة فى ستين عاما) • وزعم أن الفلسفة أسبغت

عليه « هدوءا تاما » ، وحررته من « فزع الموت (٨٣) • وفى سن الثانية والخمسين أصيب بداء عضال يستعصي البرء منه (١٧٢٢) وكتب بنفسه عبارة قصيرة ملؤها الزهو والفخر لتنقش على قبره :

هنا يرقد جون تولاند الذى ولد •• بالقرب من لندندرى •• •• نهل من مختلف الآداب والمعارف ، وكان ملما باكثر من عشر لغات ،وكان نصير الحق والمدافع عن الحرية، لم يربط نفسه بانسان، ولم يتملق أى انسان، ولم يحد تحت تأثير التهديد أو تحت ضغط البؤس والفاقة عن نهجه المرسوم الذى سار عليه حتى النهاية ، مضحيا بمصلحته فى سبيل السعى وراء الخير العام ، ان نفسه متحدة مع الاب الذى فى السماء الذى جاء منه فى البداية ، وليس ثمة أدنى شك أنه سيحيا ثانية فى الخلود ، ومع ذلك فانه لن يكون هناك تولاند آخر •• •• لأن سائر الناس سوف يسترشدون بكتاباته (٨٤) •

وحمل أنطونى كولنز أمانة مذهب الربوبية بعد تولاند ، فى براعة وتواضع أكثر • وكان خير عون له فى مهمتــه انه كان ثريا ، وأن له بيتا فى الريف وآخر فى المدينة ، فلم يكن لينبذ لأنه معدم يتضــور جوعا • وكان ذا سلوك قويم ، وخلق ليس فيه مطعن • كتب اليه لوك الذى عرفه كل المعرفة : « ان حب الحق من أجل الحق وحــده هو الجانب الأساسي فى الكمال الانسانى فى هــذه الدنيـــا ، ومنبت كل الفضائل ، واذا لم أكن مخطئا ، فانك جمعت منها قدر ما وجدته فى أى انسان (٨٥) » • ان كتــاب كولنز « بحث فى التفكير الحــر » (١٧١٣) أحسن شرح للربوبية فى هذا العصر •

انه عرف التفكير الحر بانه « استخدام الفهم فى ايجـــاد معنى لأية قضية أيا كانت ، والتأمل فى طبيعة الدليل ، لها أو ضدها ، والحكم عليها وفقا لنقاط القوة أو الضعف الظاهرة فى الدليل » « وليس ثمة وسيلة أخرى للكشــف عن الحقيقــة (٨٦) » • ان تبــاين المذاهب والتفسيرات المتناقضة لنصوص الكتاب المقدس لتضطرنا الى قبول حكم العقل ، فلمن نحتكم بعده اذن ، اللهم الا أن نحتكم الى القــوة ؟ • وكيف يتسنى الا عن طريق البينة والتأمل والاستنتاج ، أن نقــرر أى

الأسفار فى الكتاب المقدس حجة موثوقة ، وأيها يطرح جانبا على أنها مشكوك فى صحتها . وينقل كولنز عن أحد رجال الدين أن أحصى ثلاثين ألف قراءة مختلفة اقترحها العلماء لنصوص العهد الجديد (الانجيل) وحده • ويشير الى ريتشارد سيمون ونقده المتعلق بنصوص الأسفار المقدسة (٨٧) •

ويحاول كولنز أن يرد على الاعتراضات التي آثارها المحاذرون من الرجال ضد الفكر الحر : حيث ذهبوا الى أن معظم الناس لم يؤتوا القدرة على أن يفكروا تفكيرا حرا لا يضر ولا يؤذى فى أمهات المسائل الأساسية ، وأن مثل هذه الحرية قد تؤدى الى انقسامات لا نهاية لها فى الرأى وفى الشيع والمذاهب ، ومن ثم تؤدى الى الخلل والاضطراب فى المجتمع ، وأن جرية التفكير قد تفضي الى الالحاد فى الدين والفجور والخلاعة فى الخلق • ويضرب كولنز اليونان القديمة وتركيا الحديثة مثلا للنظام الاجتماعى الذى يحتفظان به على الرغم من حرية الرأى واختلاف الأديان • وينكر أن حرية الفكر تؤدى الى الالحاد • ويقتبس عن بيكون قوله المأثور بأن الفكر الضيق ينزع بنا الى الالحاد ، وبأن التفكير الواسع يصرفنا عنه ، ويؤيد كولنز حكمة بيكون ، ثم يضيف فى اخلاص واضح ، أن الجهل « هو أساس الالحاد ، والتفكير الحر هو علاجه (٨٨) » • ويعدد المفكرين الأحرار الذين كانوا « أفضل الناس فى كل العصور » : سقراط ، افلاطون ، أرسطو ، ابيقور ، بلوتارك ، فارو ، كاتو الوقيب ، كاتو أوتيكا ، شيشرون ، سنكا ، سليمان ، الرسل ، أوريجن ارازمز ، مونتانى ، بيكون ، هوبز ، ملتون ، تللوستون ، ولوك • وهنا وعند تولاند أيضا ، نجد نموذجا لقائمة أوجست كونت عن أعلام مذهب الوضعية ، ويرى كولنز أنه فى الامكان وضع قائمة أخرى تضم أعداء الأفكار الحرة الذين جلبوا الخزى والعار على الانسانية بقساواتهم الوحشية بحجة تمجيد الله •

وأنبرت له المنابر والجامعات وأمطرته وابلا من الردود ، وقالت ان كولنز رأى أن التعقل يتطلب الترحال • انه ربما تأثر أثناء اقامته فى هولنده بآراء سبينوزا وبيل ، ولدى عودته الى انجلترا أثار عاصفة أخرى بكتابه « بحث فى الحرية الانسانية » (١٧١٥) الذى بسط فيه ببيان قوى واضح موضوع « الجبرية » أو الايمان بالقضاء والقدر ،

حيث وجد كولنز نفسه مفكرا حرا عبدا لارادة غير حرة . وبعد ذلك بتسع سنين أثار جو اللاهوت برسالته « بحث فى أسس الدين المسيحى وتفسيره » . واقتبس عن الرسل وعن بسكال ما بنـــوا به شرحهـــم للمسيحية على نبوءات العهد القديم التى حققتها الشريعة الجديدة فيما يبدو ، وجادل فى أن هذه النبوءات لم تتضمن أية اشارة الى المسيحية والمسيح . ورد عليه خمسة وثلاثون من رجـــال اللاهـــوت فى خمس وثلاثون رسالة . وكان الخلاف ما زال محتد ما حين وصل فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، وطابت به نفسه فى عبث مزعج ، ونقله الى فرنسا حيث وجد طريقه الى « الاستنارة » المتشككة .

وواصل حركة الربوبية فى انجلترا وليم هويستون ، ماتيو تندال، توماس تشب وكونيرز مدلتون ، وانتقلت عن طريق بولنيرك والفيلسوف شافتسبرى الى جيبون وهيوم . ولم تعد مقبولة عند الطبقات الحاكمة مذ ارتابوا في أنها تشجع الأفكار الديمقراطية ، ولكن أثرهـــا المباشر كان ملموسا فى تزعزع عابر فى العقيدة الدينية . وفى ١٧١١ رفع الى مجلس اللوردات تقرير رسمى عن هذا الموضوع . من المجلس الكنسي والانجيلى فى مقاطعة كنتربرى . ويصف التقرير سعة انتشـــار الكفر والدنس ، والشكوك فى الخلود ، والانتقاص من قدر القساوسة عـــلى أنهم دجالون (٨٩) . وفى مطلع القرن الثامن عشر فى انجلترا « هبط الدين الى الربوبية (٩٠) » ، وهنا فى هذه الأزمة هب نفر من ذوى العقول الجبارة فى بريطانيا فى قوة ونشاط للدفاع عن المسيحية .

٤ ـ المدافعون عن العقيدة :

كان معظم هؤلاء المدافعين مســتعدين لمواجهـــة مهاجميهم على أساس من العقل والعلم والتاريخ ، وقد كشف هذا فى حد ذاته عن روح العصر .

وقاد تشارلز لزلى الدفاع برسالته « منهــج قصـــير ســـهل مع الربوبيين » (١٦٩٧) قصد به فى الأصل أن يكون ردا على بلونت . وحاول أن يدلل على أن شواهد صحة قصص الكتاب المقدس هى من نفس طبيعة الشواهد على أعمال الاسكندر وقيصر ، وأنها مقنعة مثلها تماما . كما أن المعجزات ثبتت ببينات كثيرة موثوقة يعتد بها ، قدر

ما تغتبره المحاكم الانجليزية أدلة كافية ، وما كان الكهنة ليقنعوا الناس بمعجزات مثل « انشقاق ماء البحر الاحمر » لو لم يؤيدهم فى ذلك كثير من شهود العيان . وانهى لزلى بحثه بتصوير اليهودية بانها ميثاق بدائى نسخه ظهور المسيح ، والوثنية بانها مجمـوعة من الخرافـات الصبيانية الى حد لا يقبله العقل . والمسيحية وحدها هى التى صمدت أمام البينات والعقل ×.

أما صمويل كلارك الذى ألم بقدر كبير من الرياضيات والفيزياء ، يكفى للدفاع عن نيوتن ضد ليبنتز ، فانه أخذ على عاتقه اثبات الدين المسيحى ببراهين فى دقة الهندسة وقسـاوتها . وفى محاضرات بويل للدفاع عن المسيحية فى ١٧٠٤ ، صـاغ كلارك سلسلة من اثنتى عشرة قضية تثبت ، فى تقديره ، وجود الله فى كل زمان ومكان ، وأنه قدير عليم كريم . وأن سلسلة الكائنات والأسباب المحتملة أو المعتمـدة على غيرها لتفرض علينا أن نعتبر أمرا مفروغا منه وجود كائن مستقل لا غنى عنه هو السبب الأول لكل الأسباب . ولا بد أن يكون الله متحليا بالذكاء لأن الذكاء من صفات المخلوقات ، وأن يكون الخالق أعظم كمالا من المخلوق ، ولا بد أن يكون الله حرا ، والا كان ذكاؤه عبودية لا معنى لها . كل هذا بطبيعة الحال ، لم يضف جديدا الى الفلسفة القديمة أو فلسفة العصور الوسطى . ولكن فى السلسلة الثانيـــة من محاضراته ، عرض كلارك أن يثبت « صدق الوحى المسيحى وأنه حقيقـــة لا ريب فيها » . فقال بأن المبادىء الأخلاقية مطلقة مثل قوانين الطبيعة ، وأن طبيعة الانسان المنحرفة يمكن على أية حـال توجيههـا الى الامتثال لقواعد الأخلاق عن طريق واحد هو غرس المعتقدات الدينية ، ومن ثم كان لزاما أن ينزل الله علينا الكتاب المقدس وفكرة الجنـة والنار . ويضيف التاريخ ، بسخريته المألوفة أن الملكة آن فصلت كلارك ، وكان الكاهن الخاص لها ، بتهمة ارتيابه فى التثليث . وفى العهـد التالي لحكم آن ، كما يقول الشيطان الماكر فولتير ، حيل بين كلارك وبين الوصول الى منصب رئيس أساقفة كنتربرى لأن أحد الأساقفة وشي به عند الأميرة كارولين ، حين قال بأن كلارك أعلم الرجـال فى انجلترا ، ولكن به عيبا واحدا ، ذلك أنه غير مسيحى (٩١) .

× هنا تعرض المؤلف للاسلام بما آثرنا حذفه .

وكان بنتلى الأوسع علما قد أوضح بالفعل « حماقة الالحاد وبعده عن التعقل » فى « محاضرات بويل » ١٦٩٢/١٦٩٣ . وبعد ذلك بعشرين عاما أثاره كتاب كولنز فاصدر « بعض ملاحظات على البحث الأخير فى حرية التفكير » . وتضمن هذا الكاب بالدرجة الأولى عرضا لأخطاء فى بحث كولنز . وبدت الحجة دامغة والجدل عنيفا ، وقرر مجلس جامعة كمبردج بالاجماع تقديم الشكر الى بنتلى . ورأى جوناثان سويفت الذى كان آنذاك ملتحقا بخدمة بولنبروك وهو « ربوبى » ، أن كولنز يستحق مزيدا من العقاب لأنه كشف سرا يحتفظ به كل أفاضل الرجال لأنفسهم ووقع عليه هذا العقاب في مقال بعنوان « بحث مستر كولنز فى حرية التفكير بسط فى لغة انجليزية سهلة ... ليستخدمه الفقراء » وسخر من الحجج التى ساقها كولنز فى مبالغات فكاهية ، وأضاف قوله : حيث أن معظم الناس حمقى أغبيــاء فانه لما يجلب الكوارث أن نتركهم أحرارا فى التفكير ، « ان معظم بنى الانســان مؤهلون للطيران قدر أهليتهم للتفكير (٩٢) » - وتلك عملية متوقعة فى أيامنا هذه أكثر مما كان يقصد سويفت . واتفــق مع هوبز فى أن الدكتاتورية حتى فى الروحانيات هى البديل الوحيد عن الفوضى . وقد رأينا أن الأنجليكانيين الأيرلنديين ذهبوا الى أن الكاهن العابس المكتئب يمكن أن يكون مطرانا ممتازا اذا آمن بالله .

أما أفلاطنيو كمبردج فقد دافعوا عن المسيحية بأسلوب أقل براعة وأشد اخلاصا . انهم ارتدوا الى أفلاطون وفلوطين يلتمسون جسرا بين العقل وبين الله ، ولم يستعينوا على ايضاح ايمانهم والتعبير عنـــه بالحجج والجدل قدر استعانتهم بالنزاهة والتقــوى فى حياتهــم . وغمرهم احساس قوى بالفضيلة والقدسية فى أسمى مراتبهمـا ، حتى بدا هذا لهم أبلغ دليل وأقربه على العقل . ومن ثم زعم أول زعمائهم بنجامين هوتشكوت « أن العقل صوت الله (٩٣) » .

ذهب هنرى مور العضو البارز فى هذه الجماعة التى ذاع صيتها حينا ، الى ما وراء فلسفات أوربا ، الى فكرة هندية تقريبا عن الفراغ ، أو التفاهة الواقعية للمعرفة الحسية ، وعدم قدرتها على اشباع تطلع النفس المنفردة المنعزلة الى بعض الرفقة أو المغزى فى الكون . ولم يرتح هنرى مور الى ميكانيكية الكون التى قال بها ديكارت . ولكن

أشبعت حاجته الافلاطونية الحديثة والمتصوفون اليهود وجاكوب بوم • وتساءل « هل معرفة الأشياء هى حقا أسمى مصدر لسعادة الانسان ، أى شيء آخر أعظم وأقدس ، أو اذا افترضنا انه كذلك ، فهل تلتمس السعادة فى التلهف و الاقبال على قراءة الكتب ، أو التأمل وامعــان النظر فى الأشياء ، أو فى تطهير العقــل من كل ألوان الرذيلة • أيا كانت (٩٤) » • وعقد العزم على تطهير نفسه من كل أنانية أو انشغال بأمور الدنيا ، أو فضول عقلى • « فلما خمدت عندى هكذا هذه الرغبة الجامحة فى معرفة الأشياء ، ولم تتق نفسي الا الى هذه الطهارة والبساطة فى العقل وحدهما ، أشرقت كل يوم بين جوانحى ثقة أعظم مما توقعت يوما ما ، حتى فى الأشياء التى كنت أرغب أشد الرغبة فى معرفتها من قبل (٩٥) » • ويقول هنرى مور انه مذ طهر نفسه جسما وروحا بهذا الشكل ، فقد فاحت من جسمه فى فصل الربيع رائحة زكية ، وان البول عنده كان له عبير البنفسج (٩٦) •

ومذ تطهر هنرى على هذا النحو ، فقد بدا أنه يحس بحقيقة الروح فى نفسه على أنها أعظم اختبار ممكن اقناعا للانسان ، ومن هذا الاقتناع انتقل على الفور الى الاعتقاد بأن العالم معمور بأرواح أخرى على درجات تصاعدية ، من أدناها الى الله سبحانه وتعالى • وذهب الى أن كل الحركة فى المادة هى من عمل نوع من الأرواح • وبدلا من الحيز المادى الذى قال به هوبز ، جاء هنرى مور بكون روحانى ليست المادة فيه الا وسيلة وأداة للروح • وانتشرت بين آن وآخر هذه « الروح » المفعمة بالحيوية فيمـــا وراء مستقرها ، والا كيف يمكن بغير هذا تفسير المغناطيسية والكهـــرباء والجاذبية ؟ وتابع مور بحثه ، وارتضي فكرة وجود الشياطين والســحرة والأشباح • وكان رجلا لطيفا غير أنانى ، رفض كل المناصب الرفيعـــة الدنيوية التى عرضت عليه ، وظل على علاقته الودية بهوبز الذى يدين بالمادية ، والذى قال انه اذا وجد يوما أن آراءه الخاصة يتعذر الدفاع عنها فانه « لا بد أن يعتنق فلسفة الدكتور مور (٩٧) » •

أما رالف كودورث ، أعلم الافلاطونيين فى كمبردج ، فانه أخذ على عاتقه أن يثبت أن آراء هوبز هشة يسهل دحضها • ان رسالة « الجهـــاز العقلى الحقيقى للكون » (١٣٧٨) تحدث هوبز أن يفسر لماذا ، بالاضافة الى مختلف الحركات الحسية والعضلية التى اختزل اليها كل عمليـــات

الذهن ، هناك أيضا ، فى أحوال كثيرة ، ادراك لهذه الحركات ، وكيف تجد أية فلسفة مادية مجالا أو وظيفة للوعى أو الشعور ؟ واذا كان كل شيء مادة متحركة ، فلماذا لا يخدم الجهاز العصبى كل شيء عن طريق الاحساس والاستجابة ، كما هو الحال فى الأفعال المنعكسة اللا ارادية ، ولا يزعجه الشعور الزائد أو غير الضرورى ؟ كيف يمكن أن ننكر حقيقة الشعور وواقعه - بل أولويته وأهميته - وهو الذى لا يتسنى بدونه معـــرفة أية حقيقة كانت ؟ ليست المعرفة وعاء سلبيا غير فعال للأحاسيس ، انها تحول نشيط فعال للأحاسيس الى أفكار (٩٨) • وهنا فى كلام كودورث نرى أنه يستبق بزمن طويل ، رد باكلى وكانت على هوبز وهيوم •

ولم يكن جوزيف جلانفيل ، كاهن شارل الثانى ، من الناحيـــة الجعرافية ، واحدا من الأفلاطونيين فى كمبردج ، ولكنه اتفق معهم اتفاقا قويا • وفى « غرور الدوجماتية » (التمسك برأى دون دليل كاف) ١٣٦٦١ الصق جوزيف جريمة الدوجماتية بالعلم والفلســـفة ، محتجا بأنهما أقاما نظما تتسم بالتكلف والمبالغة الحمقاء لوضع النظريات والمبادىء ، على أسس مزعزعة غير آمنة • وعلى هذا فإن فكرة العلة أو السبب (التى ظنها جلانفيل أساسية لا غنى عنها للعلوم) افتراض غير معقول ولا مبرر له • فنحن نعرف التعاقبات والعلاقات والمناسبات ، ولكن ليست لنا أية فكرة عما هو الحال فى شيء يحدث أثرا فى نفسه أو فى شيء آخر (هاجس آخر لهيوم) • ويقول جلانفيل : تصـــور مدى جهلنا بالأشياء الأساسية جدا - طبيعة النفس ونشاتها ، وعلاقتها بالجسم « كيف يتحد الفكر مع كومه من الطين ؟ ان تجمد الكلمـــات فى المناطق الشمالية ، وحدوث هذا الاتحاد العجيب ، أمران لا يمكن تخيلهما أو تصديقهما ، سواء بسواء • ان تعليق بعض الأثقـــال فى أجنحة الريح يبدو أمرا أيسر كثيرا ن يدركه العقل (٩٩) » • واستبق جلانفيل بيرجسون فى أنه يسم العقل بأنه ذو بنية مادية الف التعامل مع المادة الى حد فقدان القدرة على التفكير فى حقائق أخرى الا « بالرجوع الى الصور المادية (١٠٠) » • الى أى حد نجد حواسنا عرضة للخطأ : انها تظهر الأرض وكأنما هى ساكنة فى الفضاء ، على حين يؤكد لنا العلماء المحدثون أنها مشوشة الذهن بمجموعة مختلفة من الحـــركات المتزامنة • وحتى من افتراض أن حواســـنا قد خدعتنا ، فما أكثـــر

ما نخطىء فى الاستنتاج من مقدمات صحيحة . ان مشاعرنا تضللنا المرة بعد المرة . « وما أسهل ان نؤمن بما ترغب فيه » . وغالبا ما تسيطر بيئتنا العقلية على تفكيرنا :

ان للأفكار أجواءها وتنوعاتها الوطنية .. .. ان هؤلاء الذين لم يختلسوا النظر قط الى ما وراء المعتقدات العامة التى أشربتها أفهامهم البسيطة منذ البداية ، موقنون يقينا راسخا بصدق ما تلقوه وتفوقه نسبيا على غيره .... أما النفوس الكبيرة التى جاست خلال أجواء الفكر المختلفة (وهنا ولدت عبارة مشهورة) فانهم أشد حرصا وأكبر محاذرة فيما يتخذون من قرارات وأكثر اقتصادا وتريثا فى الفصل فى الأمور (١٠١) .

وعلى الرغم من هذه التحذيرات للعلوم ، كان جلانفيل عضوا غيورا فى الجمعية الملكية ودافع عنها ضد اتهاماتها بالمروق عن الدين، وأثنى على منجزاتها ، وتطلع الى عالم زاخر بالأعاجيب ياتى به البحث العلمى :

لا يخامرنى الشك فى أن أعقابنا سيجدون أشياء كثيرة هى الآن مجرد اشاعات قد تأكد لهم أنها حقائق عملية . وبعد عدة أجيال من الآن ، قد لا تبدو رحلة الى الأقاليم الجنوبية المجهولة ، لا بل الى القمر ، أشد غرابة من رحلة الى أمريكا . وسوف يكون أمرا عاديا لمن يأتون بعدنا أن يشتروا جناحين ليطيروا الى المناطق النائية مثلما نشترى اليوم حذاء عالى الساق للركوب فى رحلة . كما يكون التشاور مع أقاليم الأنديز البعيدة بوسائل مريحة أمرا مألوفا للأجيال القادمة مثلما هو مألوف لدينا الآن أن نتبادل الرسائل الأدبية . ان اعادة الشعر الأشيب لليافعين وتجديد الحيوية المستنزفة قد يكون من الميسور على مر الزمن تحقيقهما دون معجزة ، كما أنه ليس من المستبعد فى زراعة المستقبل أن تتحول الأرض القفر الآن الى جنة (١٠٢) .

ويجدر بنا أن نضيف الى ما سبق أن جلانفيل ، مثل كودورث

وهنرى مور آمن بالسحرة . ان هؤلاء احتجوا بانه اذا كان هناك عالم روحى وعالم مادى سواء بسواء ، فلابد من وجود الارواح والاجسام فى الكون . وبناء على الخطر الكامن فى الاشياء فلا بد أن تكون بعض هذه الأرواح شيطانية شريرة . واذا كان الاتقياء الورعون يتصلون بالله أو القديسين أو الملائكة ، فلماذا لا يتصل الاشرار بالشيطان وعفاريته ؟ وقال جلانفيل ان آخر خدعة للشيطان أن ينشر الاعتقاد بعدم وجوده . « ان هؤلاء الذين لا يتجرأون على القول بصراحة بانه لا يوجد اله ، يقنعون (كخطوة مقبولة أو نقطة بداية) بأن ينكروا أن هناك أرواحا وسحرة (١٠٣) » ان الشيطان يجب انقاذه من أجل الله .

٥ - جون لوك : ١٦٣٢ - ١٧٠٤ :

١) سيرة حياته .

ولد أعظم فلاسفة العصر أثرا فى رنجتون بالقرب من برستول ، فى نفس العام الذى ولد فيه سبينوزا . ونشأ وترعرع فى انجلترا التى قامت فيها ثورة دامية وقتلت مليكها ، وأصبح الصوت المنادى بثورة سلمية وعصر يسوده الاعتدال والتسامح ، ومثل التسوية الانجليزية فى أحكم صورة وأفضلها . كان أبوه محاميا بيوريتانيا ناصر مع شيء من التضحية قضية البرلمان ، وشرح لابنه نظريتى سيادة الشعب والحكومة النيابية ، وبقى لوك مخلصا لهذه الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا بفضل أبيه فى تعويده على الرصانة الدروس مؤمنا بها ، شاكرا معترفا ليدى ماشام عن والد لوك أنه : -

> سلك معه فى صغره نهجا تحدث عنه الابن فيما بعد فى استحسان بالغ . ذلك أنه كان قاسيا عليه بابقائه فى رعب شديد منه ، وعلى ابعد منه ، حين كان صبيا . ولكنه كان يخفف من هذه القسوة شيئا فشيئا حتى استوى جون رجلا ، آنس منه رشدا ومقدرة فعاش معه صديقا حميما (١٠٤) .

ولم يقر لوك لمعلميه بمثل هذا الفضل . وفى مدرسة وستمنستر

أرهق باللاتينية واليونانية والعبرية والعربية ، ومن الجـائز أنه لم يسمح له بشهود اعدام شارل الأول (١٦٤٩) فى ساحة قصر هويتهول القريب من المدرسة ، ولكن هذه الحادثة تركت أثرا فى فلسـفته • وعوقت اضطرابات الحرب الأهلية التحاقه بكلية كريست فى أكسفورد حتى بلغ العشرين من عمره • وهناك درس أرسطو مصوغا فى قوالب سكولاسية باللاتينية ، كما درس مزيدا من اليونانية ، وبعض الهندسة والبلاغة ، وكثيرا من المنطق وعلم الأخلاق ، لفظ معظمها فيما بعد ، على أنها عتقية مهجورة موضوعا • غير مستساغة ولا مقبولة شكلا • وبعد حصوله على درجة الماجستير (١٦٥٨) بقى بكليته باحثـا فى الدراسة العليا ، يدرس ويحاضر • ووقع لبعض الوقت فى غـرام « سلبنى عقلى (١٠٥) » ، ثم استرد عقله وخسر عشيقته • ولم يتزوج لوك قط ، مثله فى ذلك مثل كل فلاسفة هذا العصر تقريبا ـ ماليرانش ، بل ، فونتنل ، هوبز ، سبينوزا ، ليبنتز • ونصحوه بالالتحاق باحدى وظائف الكنيسة ، ولكنه تردد وقال : « اذا رقيت الى مكان قد لا أستطيع ان أملأ فراغه فان الهبوط منه لن يكون الا سقوطا مروعـا يسـمع له دوى شديد (١٠٦) » •

وفى ١٦٦١ مات والده بالسـل ، تاركا له ثروة ضئيلة ورئتين ضعيفتين • ودرس الطب ولكنه لم يحصل على درجة فيه الا فى ١٦٧٤• وفى الوقت نفسه قرأ ديكارت ، وأحس بسحر الفلسفة حين تحدثت فى جلاء ووضوح • وساعد روبرت بويل فى تجاربه المعملية ، وملأه الاعجاب بالمنهج العلمى • وفى ١٦٦٧ تلقى دعوة للحضـور والاقامة فى قصر اكستر ليكون طبيبا خاصا لانطونى آشيلى كوبر الذى سرعان ما أصبح ارل شافتسبرى الأول ، عضو الوزارة أيام شارل الثانى ، ومنـذ هذا التاريخ الى ما بعده ، وعلى الرغم من احتفاظه رسميا بمنصـبه فى أكسفورد حتى ١٦٨٣ ، وجد لوك نفسه غارقا فى خضـم السياسة الانجليزية حيث شكلت أحداثها ورجالاتها أفكاره •

وأنقذ لوك ، الطبيب ، حياة شافتسبرى حيث أجرى له عمليـة بارعة لاستئصال ورم خبيث (١٦٦٨) • وساعد فى المفاوضات لاتمام زواج ابن شافتسبرى ، وسهر على زوجة ابنه أثناء الوضـع • وأشرف

على تعليم حفيده ، خليفته فى الفلسفة . ويذكر هذا الحفيد ، ارل شافتسبرى الثالث أن :

مستر لوك حظى بتقدير كبير لدى جدى ، حتى أنه وقد عرف بالتجربة أنه عظيم فى الطب ، رأى أن هذا جانب صغير من جوانب عظمته ، وشجعه على الاتجاه بافكاره الى منحى آخر ، ولم يسمح له بمزاولة الطب الا فى أسرته أو من قبيل العطف أو الرحمة بصديق حميم . وهيأه لدراسة المسائل الدينية والمدنية التى تهم البلاد ، وكل ما يتصل بمهمة الوزير فى الدولة . وقد أحرز فى هذا نجاحا كبيرا حدا بجدى الى أن يتخذ منه صديقا يساله المشورة فى أية قضية من هذا النوع (١٠٧) .

ولمدة عامين (١٦٧٣ - ١٦٧٥) اشتغل لوك سكرتيرا لمجلس التجارة والزراعة (المستعمرات) الذى كان يرأسه شافتسبرى . وساعده على وضع دستور لكارولينا التى أسسها شافتسبرى وكان أكبر ملاك الأرض فيها . ولم تطبق هذه « النظم الأساسية » فى المستعمرة بصفة عامة ، ولكن حرية الضمير التى تضمنتها هذه النظم لقيت قبولا حسنا الى حد كبير لدى المستوطنين الجدد (١٠٨) .

ولما تخلى شافتسبرى عن مهامه السياسية ١٦٧٥ جال لوك ودرس فى فرنسا حيث التقى هناك بفرنسوا برنييه الذى أظهره على فلسفة جاسندى التى وجد فيها رفضا معقولا « للأفكار الفطرية » وهى مقارنة عقل الطفل الذى لم يولد باللوح النظيف الخالى من أى شيء ، والجملة المأثورة التى نقلت فيما بعد عبر القنال الانجليزى : « ليس ثمة شيء موجود فى العقل الا كان موجودا أولا فى الحواس » .

وفى ١٦٧٩ عاد لوك الى انجلترا والى شافتسبرى ، ولكن الارل زج بنفسه أكثر فاكثر فى غمار الثورة ، فآوى لوك الى اكسفورد حيث استأنف الدرس والبحث . وأثار القبض على شافتسبرى وهربه من السجن ثم فراره الى هولنده شبهات الملكيين حول أصدقائه . وانبث الجواسيس فى اكسفورد للقبض على لوك متلبسا بما يمكن أن يكون أساسا لتقديمه الى المحاكمة (١٠٩) . فلما أحس بالخطر وتنبأ باعتلاء

عدوه جيمس الثانى عرش انجلترا ، فانه كذلك لجأ الى هولنده (١٦٨٣) . على أن ثورة دوق مونموث القصيرة الأجل التى ماتت فى مهدها (١٦٨١) استفزت الملك جيمس الثانى الى أن يطلب من الحكومة الهولندية تسليم خمسة وثمانين لاجئا انجليزيا بتهمة اشتراكهم فى المؤامرة لقلب عرش الملك الجديد . وكان من بينهم لوك ، فاختبأ واتخذ اسما زائفا . وبعد سنة أرسل اليه جيمس عرضا بالعفو عنه ولكنه آثر البقاء فى هولنده . وأقام فى أوترخت وامستردام وروتردام ، حيث لم يستمتع بصداقة الانجليز اللاجئين فحسب ، بل سعد كذلك بصداقة العلماء الهولنديين مثل جين لى كُلرك وفيليب فان لمبورخ ، وكلاهما من زعماء اللاهوت الأرمينى المتحرر . وفى هذا الوسط وجد لوك تشجيعا كبيرا لآرائه فى سيادة الشعب والحرية الدينية . وهناك كتب « بحث فى العقل الانسانى » ، والمسودات الأولى لأبحاثه فى التعليم والتسامح الدينى .

وفى ١٦٨٧ اشترك فى مؤامرة لاحلال وليم الثالث محل جيمس الثانى على عرش انجلترا (١١٠) . فلما نجحت حملة نائب الملك فى هذه المغامرة أبحر لوك الى انجلترا (١٦٨٩) على نفس السفينة التى أقلت الملكة المقبلة مارى (١١١) . وقبل مغادرة هولنده كتب باللاتينية الى لمبورخ رسالة تفيض بأحر العواطف . مما يدحض أو يصبح ما ظن من أن اعتداله المألوف نبع من برودة طبعه :

انى اذ أرحل عنكم ، أكاد أشعر أنى أفارق بلادى وعشيرتى واهلى فان كل شيء يتعلق بالقرابة والسنة الحسنة والحب والشفقة — كل ما يربط الناس بعضهم ببعض بوشائج قوى من رابطة الدم — وجدته بينكم موفورا . انى أترك ورائى أصدقاء لا سبيل الى نسيانهم أبدا . ولن أودع الرغبة فى سنوح الفرصة لأستمتع ثانية بالرفقة الحقة لأصدقاء ، لم أشعر وأنا بينهم بأى حنين أو غربة ، حين كنت بعيدا عن ارتباطاتى الخاصة ، وأعانى من أشياء كثيرة ، أما أنت يا أفضل الرجال وأعزهم وأنبلهم ، فانى حين أفكر فى علمك وحكمتك وشفقتك وصراحتك واخلاصك ورقتك ودماثة خلقك ، يتضح لى انى وجدت فى صداقتك أنت

وحدك ما يجعلنى أبتهج دوما لأنى أرغمت على قضاء هـذا العديد من السنين فى رحابك (١١٢) ٠

وفى انجلترا التى تولى فيها أصدقاء لوك مقاليد الحكم ، تقلد الفيلسوف عدة مناصب رسمية ٠ ففى ١٦٩٠ كان مفوض الاستئناف ، وفيما بين ١٦٩٦ ــ ١٧٠٠ كان مفوض التجارة والزراعة ، وكان صديقا حميما لجون سومرز النائب العام ، وشارل مونتاجــو ارل هاليفاكس الأول ، وايزاك نيوتن الذى ساعده لوك فى اصلاح العملة ٠ وبعد ١٦٩١ قضي معظم وقته فى أوتس مور فى اسكس مع سير فرانسيس ماشام وقرينته ليدى داماريس ماشام احدى بنات رالف كودورث ٠ وظل فى هذا الركن الهادىء يكتب وينقح ما كتب حتى وافته المنية ٠

٢) الحكومة والملكية :

كان لوك قد بلغ السادسة والخمسين من العمر حين عاد من منفاه٠ ولم يكن قد نشر سوى بعض مقالات قليلة الشأن ، وخلاصة بالفرنسية « للمقال » فى المكتبة العالمية التى كان يصدرها لى كلرك (١٦٨٨) ولم يكن يعرف عن اشتغاله بالفلسفة الا نفر قليل من أصدقائه ٠ وما هى الا سنة واحدة ، هى « سنة العجائب » حتى دفع الى المطبعة ثلاثة كتب سمت به الى مصاف الشخصيات البارزة الكبرى فى عالم الفكر فى أوربا ٠ وظهرت « رسالة عن التسامح » فى مارس ١٦٨٩ ، فى هولنده، ثم ترجمت الى الانجليزية فى الخريف ٠ وأعقبها فى ١٦٩٠ « برسالة ثانية عن التسامح » ٠ وفى فبراير ١٦٩٠ أصدر مقاليه عن « الحـكم المدنى » ، وهما حجر الزاوية فى النظرية الحديثة للديمقراطيـــة فى انجلترا وأمريكا ، وبعد شهر واحد أخرج كتابه « بحث فى العقــل الانسانى » ، وهو أعظم المؤلفـــات أثرا فى علم النفس الحـــديث ٠ وعلى الرغم من اتمامه هذا الكتاب الاخير قبل مغادرته هولنـده فانه عجل بطبع مقالى « الحكم المدنى » قبله ، لأنه كان تواقا الى تزويد « الثورة الجليلة ١٦٨٨/١٦٨٩ بأساس فلسفى ٠ وقد أثبت هذا الهدف صراحة فى مقدمة المقال الأول « لتثبيت عرش منقذنا العظيم مليكنـا الحالى وليم الثالث ، وتدعيم حقه الشرعى أمام الناس ٠٠ ٠٠ وابراز عمل الشعب الانجليزى فى نظر العالم ، ذلك الشعب الذى أنقذ حبـه

لحقوقه الطبيعية العادلة وتصميمه على المحافظة عليها ، انقذ الأمة التى كانت على شفا العبودية والدمار (١١٣) » .

وكان المقال الأول والأصغر ردا على « دفاع عن السلطة الطبيعية للملك » الذى كان سير روبرت فيلمر قد الفه حوالى ١٦٤٢ تدعيمـــا لحقوق شارل الالهية ، والذى لم يكن قد وصل الى المطبعة الا مؤخـــرا (١٦٨٠) فى ذروة حكم شارل الثانى المطلق المنتصر . ولم يكن هذا الكتاب أحسن ما دبج قلم سير روبرت ، فانه نشر فى ١٦٤٨ دون أن يذكر اسمه ، « فوضى الحكم المختلط المحدد » الذى اســـتبق به آراء هوبز . وعلى الرغم من ايداع فيلمر السجن لدفاعه عن قضية خاسرة فانه دافع عنها ثانية فى « ملاحظات على كتاب السياسة لأرسطو » الذى نشر غفلا من اسم المؤلف فى ١٦٥٢ ، قبل وفاته بعام واحد .

صور فيلمر الحكومة بانها امتداد للأسرة . وأودع الله السيادة فى الأسرة الانسانية الأولى ، فى آدم الذى انحدر منه الآباء . وعلى أولئك الذين (مثل خصوم فيلمر) يؤمنون بأن الكتاب المقدس منزل من عند الله ، أن يسلموا بأن الأسرة الأبوية وسلطة الأب . أقرهمـــا الله . وانتقلت هذه السيادة من الآباء الى الملوك . وكان الملوك الأوائل آباء ، وكان سلطانهم شكلا من حكم الآباء ، مشتقا منه ، فالملكية اذن ترجـــع الى آدم ، ومن ثم الى الله . وسيادة الملوك ، الا اذا أمروا بخـــرق صريح للقانون الالهى ، مقدسة مطلقة . والتمرد عليها خطيئة وجريمة فى وقت معا (١١٤) .

وعلى نقيض النظرية التى تقول بان الانسان ولد حرا ، يقـــول فيلمر بان الانسان ولد خاضعا لعادات الجماعة وقوانينها ، وللحقوق الطبيعية والشرعية للوالدين على أولادهم . « ان الحرية الطبيعية » خرافة رومانسية . وانها لخرافة أيضـــا أن الحكومة قامت برضا افراد الشعب واتفاقهم . « والحكومة النيابية » خرافة أخرى . فالممثـــل لا يختاره الا اقلية ضئيلة نشيطة فى كل دائرة انتخابية (١١٥) . وكل حكومة هى من أغلبية عن طريق أقلية . ومن طبيعة الحكومة أن تكون فوق القانون . فللهيئة التشريعية ، بمقتضي تعريفها ، سلطة سن القوانين وتغييرها أو الغائها . « وانا لنخدع انفسنا اذا راودنا الأمل يوما فى

أن تحكمنا سلطة غير استبدادية (١١٦) » واذا كان للحكومة أن تعتمد على ارادة المحكومين ، فسرعان ما ينتهى الأمر الى عدم وجود حكومة البتة ، فان كل فرد أو مجموعة افراد ستزعم لنفسها الحق فى العصيان والتمرد وفقا لما يمليه « الضمير » . وتلك هى الفوضي أو حكم الرعاع». وليس هناك طغيان يمكن ان يقاس بطغيان الجماهير (١١٧) » .

واحس لوك أن مهمته الأولى ، وهو المدافع عن الثورة الجليلة أن يدحض حجج فيلمر . وقال « انه لم يكن هناك يوما مثل هذ االهراء المرتجل دون ترو بمثل هذه الكثرة فى لغة انجليزية رنانة » كما جاء فى مقالات سير روبرت (١١٨) . ليس لى أن أتحدث بمثل هـــذه الصراحة عن رجل لم يعد يستطيع أن يرد » ، لو لم يعتنق المنبر فى السنين الخوالى علانية نظريته ويجعل منها عقيدة مقدسة رائجـــة فى هذا العصر » ـ يعنى لو لم يعتنق رجال الكنيسة الأنجليكانية نظرية حقوق الملوك الالهية حتى فى عهد الملك الكاثوليكى جيمس الثانى ، وانتقل لوك ، فى تهكم هازل ، لاذع أحيانا ، ليعترض على أن فيلمر أرجع سلطة الملك الى ما افترض من سلطة آدم وآباء التوراه ، ولسنا فى حاجة الى تتبعه فى طول دحضه للكتاب المقدس . ونحن اليـــوم نبرر خلافاتنا السياسية بوسائل أخرى غير الأسفار المقدسة ان شيئا من تفكير فيلمر لا يزال باقيا بعد أن تناوله لوك بهذه الطريقة الخشنة ـ المحاولة مهما كانت خاطئة فى تفصيلها لالقاء الضـــوء على طبيعة الحكومة بالتماس أصولها فى التاريخ ، حتى فى البيولوجيا . ومن المحتمل أن فيلمر ولوك كليهما انتقصا من قدر الدور الذى لعبه الغـــزو والقوة فى اقامة الدول .

وفى المقال الثانى من « الحكم المدنى » تحول لوك الى مهمة البحث لحكم وليم الثالث فى انجلترا عن سند أقوى من الحق الالهى الذى يعيد لسوء الحظ السلطة الي جيمس الثاني . ان لوك حين اسند ارتقاء وليم العرش من رضا المحكومين افترض أكثر مما استطاع اثباته بالتاريخ : ان الشعب لم يكن قد أعلن قبوله غزو وليم لانجلترا ، كما أن النبلاء أو أبناء الطبقة الارستقراطية الذين كانوا قد وضعوا الخطة لهذا الغزو لم يكونوا فكروا فى الحصول على موافقة الشعب ، ولم يفكروا الا فى تجنب مقاومته ، ومع ذلك فان لوك فى التماسه سندا من الفلسفة

لسلطة وليم ، أتى بدفاع مؤثر عن سيادة الشعب • وفى سبيل دفاعه عن الملك الحاكم بسط نظرية الحكومة النيابية ، وفى سياق عرضه الأساسي المنطقى لحركة الأحرار (الهويجز) والمدافعين عن حق التملك ، صاغ انجيل الحرية السياسية ، وانهى هيمنة هوبز على الفلسفة السياسية الانجليزية •

وحذا لوك حذو هوبز فى افتراض « حالة طبيعية » بدائية • قبل نشوء الدول • وشكل - مثل هوبز وفيلمر - التاريخ وفقا لأغراضه ولكنه على عكس هوبز ، تصور أن الأفراد فى « الحالة الطبيعية » كانوا أحرارا متساوين ، واستخدم هذه اللفظة ، كما استخدمها جفرسون حين نسج على منواله ، لتعنى أنه ليس لأحد بالطبيعة « حقوق » أكثر مما لسواه ، وهو يبيح للانسان فى « الحالة الطبيعية » غرائز معينة بمثابة اعداد سيكولوجى للمجتمع ، ويأتى لوك أحيانا بافتراضات لطيفة « من حيث أن كل انسان حر بالطبيعة ، فليس فى امكان أى شيء أن يخضعه لأية سلطة دنيوية الا برضاه وموافقته ٠٠٠(١١٩) » ولم يكن « الطور الطبيعى » فى هذه النظرية - كما صوره هوبز - حربا بين الناس بعضهم بعضا ، لأن « سنة أو قانون الطبيعة » أيد حقوقهم بوصفهم حيوانات عاقلة • وذهب لوك الى أنه بمقتضي العقل توصل الناس الى اتفاق « عقد اجتماعى » ، الواحد منهم مع الآخر تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية فى القضاء والعقاب ، لا لملك ، بل للجماعة ككل • وعلى هذا تكون الجماعة هى السيد أو الحاكم الحقيقى، وهى تختار بأغلبية الأصوات رئيسا أعلى ينفذ مشيئتها (١٢٠) • ويمكن أن يسمى ملكا ، ولكنه ، مثل أى مواطن آخر ملتزم بطاعة القوانين التى تسنها الجماعة • فاذا سعى (مثل جيمس الثانى) الى خرقها أو المراوغة فى تطبيقها ، كان للجماعة الحق فى سحب السلطة التى منحتها اياه •

والحق أن لوك لم يكن يدافع عن وليم ضد جيمس ، بل عن البرلمان (المنتصر الآن) ضد أى ملك ، ان أعلى سلطة فى الدولة ينبغى أن تكون السلطة التشريعية ، التى يجب أن تختارها الأصوات الحرة غير المشتراة • ويجدر أن توقع القوانين أشد العقوبة على كل محاولة

لشراء أصوات المواطنين أو المشرعين . ولم يتنبأ لوك بأن وليم الثالث الذى أعجب الفيلسوف به قد يضطر الى شراء أصوات أعضاء البرلمان ، وأن الأسرات القوية قد تستمر لمائة وأربعين عاما بعـده تتحـكم فى أصوات « المدن الفاسدة القابلة للرشوة » أو تقرر مصيرها . وينبغى أن تكون السلطة التشريعية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية ، وأن يكون كل من جهازى الحكومة هذين رقيبا على الآخر .

ويقول لوك « ليس للحكومة من هدف الا صيانة الملكية (حـق التملك) (١٢١) » لقد كانت هناك شيوعية بدائية ، حين نما الطعام دون زراعة ، واستطاع الانسان أن يعيش دون كد ولا كدح ، ولكن عندما بدأ العمل انتهت الشيوعية ، لأن الانسان أخذ لنفسه ، ملكا خاصا به ، أى شيء ذا قيمة أضفاها عليه جهده هو . فالعمل اذن هـو مصـدر « ٩٩ ٪ » من كل القيم المادية (١٢٢) . (وهنا قدم لوك للاشتراكية الحديثة على غير قصد منه اطلاقا ، أحد مبادئها الأساسية) . ان المدنية تنمو عن طريق العمل ، ومن ثم عن طريق نظم الملكية بوصفها نتـاج العمل . ومن الناحية النظرية ليس لانسان أن يمتلك أكثر مما يستطيع أستخدامه (١٢٣) . ولكن اختراع النقود مكنه من بيع فائض نتـاج عمله ، مما لم يستطع الانتفاع به ، وعن هذا الطريق ساد التفـاوت الكبير أو عدم المساواة فى الملكية بين الناس — وربما كنا نتوقع ، عند هذه النقطة ، من لوك أن ينتقد تركيز الثروة ، ولكنه بدلا من ذلك نظر الى الملكية مهما كان سوء توزيعها ، على أنهـا أمـر طبيعى مقدس ، فاستمرار النظام الاجتماعى والمدنية يستلزم أن تكون حماية الملكيـة أسمى غرض للدولة . « وليس فى مقدور السلطة العليا أن تستولى على أى جزء من أملاك الانسان الا بموافقته ورضاه (١٢٤) » .

وعلى هذا الأساس لم يقر لوك أية ثورة تنطوى على التجريد من الملكية . ولكنه بوصفه نبى الثورة الجليلة وصوتها لم يستطع أن ينكر « الحق فى قلب الحكومة(١٢٥) » . ان الشعب فى حل من الطاعة اذا كان ثمة محاولات غير مشروعة للاعتـداء على حرياته وممتلكاته ، « لأن » هدف الحكومة هو الصالح العام للبشر . وأيهما افضـل لبنى الانسان : تعرض الناس دائما للرغبـة الجامحة فى الطغيان ، أو أن

يتعرض الحكام أحيانا للمقاومة اذا أسرفوا فى استخدام سلطتهم واستغلالها فى القضاء على ممتلكات الشعب ، لا فى المحافظة عليها (١٢٦) ؟ » وعلى حين أجاز بعض الهيجونوت والفلاسفة اليسوعيين الثورة لحماية الدين الحق الواحد ، نجد لوك لا يقرها الا لحماية الممتلكات . ان النزعة الدنيوية كانت تغير من مركز القداسة وتعريفها .

وظل تاثير لوك على الفكر السياسي مسيطرا حتى ظهور كارل ماركس . وكانت فلسفته عن الدولة ملائمة كل الملاءمة لحكم الأحرار (الهويجز) وللخلق الانجليزى الى حد تجاهل أخطائها طيلة قرن من الزمان باعتبارها هنات هينات فى عهد أعظم (مجنا كارتا) جليل الشان للبرجوازية . انها لم تضف هالة على ١٦٨٩ فحسب ، بل ، مع سبق مشهود ، كذلك على ١٧٧٦ و ١٧٨٩ ـ أعنى المراحل الثلاث لثورة العمل ضد المحتد . والمال ضد الأرض . ويسخر النقاد اليوم من لوك اشتقاقه للحكومة من رضا الأفراد الأحرار وموافقتهم فى الطور الطبيعى ، كما سخر هو من فيلمر اشتقاقه الحكومة من الآباء ومن آدم ومن الله . ان « الحقوق الطبيعية » مشبوهة ونظرية ، والحق الطبيعى الوحيد فى مجتمع ليس فيه قانون هو القوة المتفوقة ، كما هو حادث الآن بين الدول . أما فى المدنية فالحق هو الحرية التى يرغب فيها الفرد ولا تكون ضارة بالجماعة « وقد يوجد حكم الأغلبية فى الجماعات الصغيرة فى الأمور غير الحيوية » وتمارس الحكم عادة أقلية منظمة . والحكومات الآن تضطلع بالتزامات أكبر من مجرد حماية الملكية .

ومع ذلك فان تحقيق هذه الرسالة الثانية يظل انجازا عظيما . انه وسع من قيمة انتصار البرلمان و « الاحرار Whigs على « المحافظين » Tories ، حتى صاغ من هذا الانتصار نظرية الحكومة النيابية المسئولة . تلك النظرية التى ألهبت مشاعر الشعوب الواحد منها بعد الآخر فى تسنمها مراقى الحرية . ونبذت انجلترا فكرة السلطات التى جاء بها لوك ، وأخضعت الحكومة بأسرها للسلطة التشريعية ، ولكن نظريته كانت تهدف الى الحد من قوة السلطة التنفيذية . وقد تحقق هذا الهدف تحقيقا كاملا . ان كثيرا من ثقته فى

حصافة الناس ولباقتهم ، واعتداله فى تطبيق النظرية على الممارسة أو العلم على العمل ، أصبح منهجا قياسيا ذا قيمة معترف بها فى السياسة الانجليزية ، جعل الثورة أمرا تدريجيا دقيقا لا يكاد يدرك ، بينما هى حقيقة واقعة ٠

وانتقلت آراء لوك من انجلترا الى فرنسا مع فولتير فى ١٧٢٩ ، واعتنقها مونتسكيو عند زيارته لانجلترا ١٧٢٩ / ١٧٣١ ، وكان لهـا صدى عند روسو وغيره قبل الثورة الفرنسية وفى أثنائهـا ، وبرزت بأجلى معانيها فى « اعلان حقوق الانسان » الذى أصدرته الجمعيـة التأسيسية ١٧٨٩ ٠ وعندما ثار مستعمرو أمريكا فى وجه جورج الثالث حين استعاد قوة الملك وسلطانه ، نراهم اقتبسوا آراء لوك وصيغه بل الفاظه تقريبا فى « اعلان الاستقلال » الذى أصدروه ٠ كما أن الحقوق التى أثبتها لوك أصبحت « وثيقة الحقـوق » فى التنقيحات العشرة الأولى للدستور الأمريكى ٠ أما نظريته فى فصل السلطات ، كما وسعها منتسكيو لتشمل السلطة القضائية ، فقد أصبحت عنصرا أساسيا فى شكل الحكومة الأمريكية ، كما أخذت عنايته البالغة بالملكية طريقها الى التشريع الأمريكى ، وأثرت مقالاته عن التسامح فى الآباء المؤسسين فى فصل الكنيسة عن الدولة وأقرار الحرية الدينية ويندر أن نجـد فى تاريخ الفلسفة السياسية رجلا بمفرده كان له مثل هذا الأثر الخـالد الباقى ٠

٣) الذهن والمادة :

كان تأثير لوك شاملا وعميقا فى علم النفس قدر تأثيره فى نظرية الحكم المدنى ٠ وظل يكتب رسالته عن « العقل الانسانى » منذ ١٦٧٠ ويتميز هذا البحث بأنه دفع به الى المطبعة بعد عشرين عاما قضاها فى مراجعته وتنقيحه ، ثم تسلم عن هذه التحفة الرائعـة فى علم النفس التحليلى ثلاثين جنيها ٠ ويعزو لوك نفسه مشروعه فى هذا البحث الى مناقشة جرت فى لندن ١٦٧٠ :

> اجتمع فى حجرتى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وكنا نناقش موضوعا بعيدا عن هذا كل البعد ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى مأزق نتيجة الصـعوبات التى اعترضتنا من كل النواحى ، وبعـد أن تملكتنا الحيرة لبعض الوقت دون

الوصول الى حل قريب لهذه الشكوك ... خطر ببالى اننا نهجنا نهجا خاطئا . واننا قبل أن نشرع فى التحقيق فى طبيعة هذا الموضوع ، كان لزاما علينا أن نختبر قدراتنا نحن ، ونرى أى « الموضوعات » تصلح ، أو لا تصلح أفهامنا لمعالجتها ، وعرضت هذا على الرفاق الذين وافقوا جميعا من فورهم ، ومن ثم اتفقنا على أن يكون هذا أول ما نبحث فيه . وكانت بعض الافكار السريعة المهوشة التى عرضتها فى اجتماعنا التالى ، هى المدخل الأول لهذا المبحث(١٢٧) .

ومن الواضح أن الذى حفز لوك الى كتابة « مقال عن العقل الانسانى » هو الخلاف الذى نشب بين الأفلاطونيين فى كمبردج من الذين حذوا هنا حذو الفلاسفة السكولاسيين - فى أننا نستمد أفكارنا من الله ومن المثل الأخلاقية العليا ، لا من التجربة والخبرة ، بل من الاستبطان ، وأن هذه الأفكار فطرية أصيلة فينا ، وجزء من جهازنا العقلى ، مهما كنا غير واعين عند الولادة . وهذه الفكرة ، لا بيانات ديكارت الثانوية عن « الأفكار الفطرية » ، هى التى أدت بلوك الى النظرفى مسألة هل هناك أية أفكار لم تكن وليدة تأثيرات العالم الخارجى (١٢٨) . وخلص لوك الى القول بأن كل المعرفة بما فى ذلك أفكارنا عن الله وعن الصواب والخطأ مستمدة من الخبرة ، وليست جزءا من التركيب الفطرى للعقل . وعرف أنه فى محاولته للبرهنة على هذه النظرية التجريبية قد يسيء الى كثير من معاصريه الذين أحسوا بأن الأخلاق تتطلب مساندة الدين لها ، وأن الأخلاق والدين كليهما ينهار ويضعف اذا نبعت أفكارهما الأساسية من منبع أقل شرفا من الله سبحانه وتعالى . وطلب الى قرائه أن يتجملوا بشيء من الصبر معه ، أما هو من جانبه فقد كان قاب قوسين أو أدنى من منزلق المناقشة الخطيرة ، فى روح من الشك المتواضع . « أنا لا أزعم أنى ألقى درسا ، بل أنا أسأل (١٢٩) » . وفى ايجاز ، اعترف بأنه كان « كسولا مشغولا الى حد بالغ(١٣٠) » .

ولكنه على الأقل استطاع أن يحدد مصطلحاته ، وهو يعترض على « الغموض المتكلف عند بعض الفلاسفة (١٣١) » ان معرفتنا الدقيقة بما تدل عليه وتعنيه ألفاظنا قد ينهى .. .. النزاع ... فى كثير من

الأحوال (١٣٢) » . وينبغى التسليم بأن مذهب لوك فى هذه النقطة يفضل ممارسته له . انه يعرف « العقل » بأنه « قوة الادراك الحسي »، ولكنه يستخدم الادراك الحسي ليشمل : (١) ادراك الأفكار فى عقولنا . (٢) وادراك معانى الألفاظ ، (٣) وادراك التوافق أو التنافر بين الأفكار (١٣٣) . ولكن ما هى الفكرة ؟ ان لوك يستخدم هذا الاصطلاح ليعنى : (١) تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا (وهو ما يجب أن نسميه الاحساس) ، أو (٢) الوعى الداخلى بهذا التأثير (وهو ما يجب أن نسميه الادراك الحسي) ، أو (٣) صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها (وهو ما يجب أن نسميه الفكرة) ، أو (٤) « الحركة التى تجمع صورا منفردة كثيرة لتكون مفهوما عاما أو مجردا أو شاملا لمجموعة من الأشياء المتشابهة . ان لوك لا يوضح دائما فى أى معنى يستخدم اصطلاحه المزعج × ».

لن لوك يبدأ بنبذ « المبادىء الفطرية » . ان هناك رأيا ثابتا لدى بعض الناس بأن هناك فى العقل بعض « مبادىء فطرية معينة ، أو بعض مفاهيم غامضة أولية مطبوعة فى ذهن الانسان تتلقاها النفس منذ بداية نشأتها ، وتأتى بها معها الى الدنيا » . ويأخذ فى ايضاح « بطلان هذه الفرضية (١٣٥) » . أنه لا ينكر « النزعات » الفطرية ـ التى سميت فيما بعد الانتحاء (النزعة الى الحركة استجابة لمنبه ما) أو الأفعال المنعكسة اللا ارادية أو الغرائز ، ولكن هذه فى رأيه عادات سيكولوجية ، وليست أفكارا . وحذا حذو هوبز فوصف مثل هذه العمليات بأنها « سلاسل من الحركات فى روح الحيوانات ، اذا انطلقت استمرت فى الخطوات التى اعتادت عليها ، والتى تصبح بعد كثرة ارتيادها طريقا ممهدا ، كما تصبح الحركة فيه سهلة ، وكأنها طبيعية » أو فطرية(١٣٦) .

× ان لوك ـ فى دراسته لذاتية الأفكار العامة أو المندرجة فى طائفة واحدة ـ يوضح أن اصطلاح « النوع » كما هو مطبق على الكائنات . هو تركيب عقلى ، وملاءمة عقلية ، وأن العالم الموضوعى لا يحتوى على أنواع مستقلة ، بل مجرد أفراد مستقلين ، تنحدر كلها « فى خطوات يسيرة ، وفى سلسلة مستمرة من الأشياء التى يختلف الواحد منها عن سائرها قليلا فى كل انتقال . حتى ناتى الى أحقر جزئيات المادة وأقلها حيوية .... والحدود أو الفوارق بين الأنواع ، والتى يصنفها الانسان بمقتضاها ، انما هى من صنع الانسان (١٣٤) » .

وهو يميل الى أن يوجز توارد الخواطر فى أنها طرق سيكولوجية · وكان ديكارت قد ذهب الى أن فكرة الله فطرية أصيلة فينا ، ولكن لوك ينكر هذا الرأى · فان بعض القبائل وجدت دون أن تكون لديها فكرة عدالة ، كما أن بعض الذين يعتنقونها تتباين لديهم المفاهيم أو الصور عن الآلهة الى حد يكون معه من الحكمة أن نرفض فكرة « نشوئها بالفطرة أو بالسليقة » ، وأن نبنى ايماننا بالله على « لآيات البينات على كمال حكمته وقدرته ··· فيما خلق وأبدع (١٣٧) » — أعنى الخبرة · وبالمثل ليس هناك « مبادىء عملية فطرية » — ليس هناك مفاهيم فطرية عما هو صواب وما هو خطأ · فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة ، عظيمة أحيانا متناقضة أحيانا أخرى ، من الأحكام الخلقية ، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءا من التراث الطبيعى للانسان ، بل هى تراث اجتماعى يختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان (١٣٨) ·

وبعد أن تخلى لوك عن « الأفكار الفطرية » جاء ليتساءل : كيف تولد أو تنشأ الأفكار ؟ « فلنفترض أن العقل (عند الولادة) ، كما يمكن ان يقال ، صفحة بيضاء خالية من أى رسم أو نقش ، ومن أية أفكار ، فكيف يتأتى تزويده ؟ ·· ·· وعلى هذا السؤال نجيب بكلمة واحدة ، من الخبرة ، وعليها تبنى كل المعرفة ، ومنها تستمد فى النهاية (١٣٩) »· فكل الأفكار مستمدة اما من الاحساس و الانعكاس على نتاج احساسنا · والأحاسيس كلها مادية ، ونتائجها العقلية هى الادراك الحسي ، وهو « أولى مواهب العقل » (١٤٠) ·

ولم يجد لوك سببا للارتياب فى امكان حصولنا على معرفة حقيقيته صحيحة عن العالم الخارجى ، ولكنه قبل الرأى الذى استقر منذ أمد طويل ، ألا وهو التمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء المدركة · أما الصفات الأولية « وهى التى لا يمكن فصلها عن الجسم اطلاقا ، فى أية حالة مهما كانت » مثل : الصلابة ، الامتداد ، الشكل ، العدد ، والحركة أو السكون · أما الصفات الثانوية « فليست شيئا فى هذه الأشياء نفسها ، بل مجرد قوى تحدث فينا احساسات متعددة بصفاتها الأولية » · فالألوان والأصوات والطعوم والروائح صفات ثانوية تحدث فينا بكتلة هذه الأشياء وشكلها ونسيجها أو حركتها · أما الأشياء نفسها فليس لها لون ولا وزن ولا طعم ولا رائحة ولا صوت ولا حرارة · وكان هذا

التمييز قد ظهر منذ البرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى (القرن ١٣) ، وقد قبله ديكارت وجاليليو وهوبز وبويل ونيوتن ، ولكن عرض لوك لفكرة التمييز هذه وتوكيده لها هيألها انتشارا واسعا من جديد . فقد تصور العلم الآن أن العالم الخارجى محايد صامت غير متحيز ، فقدت أزهاره وثماره عطرها ونكهتها . وربما هبط هذا المفهوم بالشعر الى الشعر المنثـور فى « العصر الأوجستى » ـ أوائل القرن الثامن عشر فى انجلترا ، عهد الملكة آن ، ولكنه اكتشف فى آخر الأمر أن الصفات المحسة حقيقة مثل الأجسام نفسها ، وثأرت الرومانسية لنفسها من الكلاسيكية حيث جعلت المشاعر أسمى حقيقة .

وأدى تحليل الشيء أو الجسم الى صفات ، على هذا النحو ، الى هذا السؤال : ما هو الجوهر الذى يبدو أن الصفات الأولية تلازمه باعتبـــارها جزءا منه ؟ واعترف لوك بأننا لا نعرف من هذا الجوهر الخفى الغامض شيئا الا صفاته ، فاذا نزعت هذه الصفات فان الجوهر ـ أى الأساس الضمنى أو المفهوم ضمنا لهذه الصفات ـ يفقد كل معنى له ، وظاهرا أيضا أنه يفقد وجوده (١٤١) . وهنا يتدخل باركلى : اذا كنا لا نعرف الا صفات الأشياء أو الأجسام ، ونعرف أن هذه الصفات هى مجرد أفكار ، فكل الحقيقة اذن ادراك حسي ، وعند ئذ يصبح لوك ، بطل التجريبية العظيم ـ الخبرة هى مصدر كل المعرفة ـ يصبح مثاليا يحيل المادة الى فكرة : أضف الى ذلك أن « العقل » افتراضي مثل الجوهر أو الجسم أو المـــادة تماما . وفى فقـــرة مشهورة يتجاوز لوك باركلى ويسبق هيوم :

> ونفس الشيء يحدث فيما يتعلق بعمليات الذهن ، مثـــل التفكير والاستنتاج والخوف وغيرها ، التى لا نخلص الى القول بأنها توجد من نفسها ولا نعى كيف تتبع الجسم أو كيف يمكن أن يحدثها الجسم ، ولكنا نميل الى الظن بأنها نشاط جوهر ما نسميه الروح ، بواسطتها ، ولو أنه من الواضح أنه ليس لدينا فكرة أو مفهوم آخر من المادة الا أنها شيء توجد فيه هذه الصفات المحسوسة التى تؤثر على حواسنا ، فانه كذلك بافتراض جوهر فيه التفكير والمعرفة والشك والقـــدرة على الحركة وغيرها ، فيكون لدينا فكرة واضحة عن الروح كما هو الحال بالنسبة للجسم : الأولى يفترض (دون أن نعرف

ماهتيها) ، انها جوهر لتلك الأفكار البسيطة التى نستمدها من الخارج ، والآخر يفترض (مع نفس القدر من الجهل بماهيته) أنه جوهر لهذه العمليات التى نمارسها فى داخل أنفسنا (١٤٢) ٠

وحيث أقر حينئذ « بأن فكرتنا عن الجوهر غامضة ، أو ليس لدينا فكرة اطلاقا عنه فى « العالمين » (الخارجى والداخلى) كليهما، وأن الأمر لا يعدو » أن يكون افتراض الجهل بما يدعم هذه الأفكار التى نسميها أحداثا ، فان لوك يخلص الى أنه فى كلتا الحالتين يسوغ لنا الاعتقاد بوجود جوهر ، على الرغم من أننا لا يمكن أن نعرفه : فى مادة وراء الصفات المحسوسة أو أنها تبتعثها ، وفى عقل وراء الأفكار أو يحتويها ـ عامل روحى يؤدى مختلف عمليات الادراك والتفكير والشعور والارادة (١٤٣) ٠

وهما يكن من أمر العقل ، فان عملياته كلها من نوع واحد ـ حركة الأفكار أو نشاطها ٠ ويرفض لوك الفكرة السكولاسية عن « المواهب » فى العقل ، مثل التفكير والشعور والارادة ٠ فالتفكير هو اتحاد الافكار أو الجمع بينها ، والشعور هو ترجيح فكرة سيكولوجية أو صداها ، والارادة فكرة تنطلق الى العمل أو التصرف ، مثلما تنزع كل الأفكار الى العمل الا اذا عوقتها فكرة أخرى × ٠ ولكن كيف يمكن أن تصبح الفكرة عملا ـ كيف يمكن أن تصبح العملية « الروحية » عملية فسيولوجية وحركة مادية ؟ ان لوك يقبل كارها ثنائية الجسم المادى والعقل غير المادى ، ولكنه فى فترة من فترات الطيش يوحى بأن العقل يمكن أن يكون شكلا من « المادة » ٠ وهناك فى هذا الصدد عبارة مأثورة عن لوك :

> من الممكن أنه لن يكون فى مقدورنا أبدا أن نعرف أن مجرد كائن مادى يفكر أو لا يفكر ، وحيث أنه يستحيل علينا ، بالتأمل فى أفكارنا نحن ، دون وحى أو الهام ، أن

× فى الطبعة الأولى من مقال العقل الانسانى لم يسلم لوك بوجود « ارادة حرة » الا فى حالة التحرر من أى قيد أو كبت خارجى ٠ وفى الطبعات الأخيرة عدل عن هذه « الجبرية » ليجيز القول بأن العقل يمكن أن يؤجل أو يوقف **مؤقتا** تنفيذ رغباته أو شباعها (١٤٤) ٠

نكتشف هل زودت القدرة الالهية بعض أنواع المـادة الميالة بطبعها ، بالقدرة على الادراك والتفكير ، أو أنها (أى القدرة الالهية) ضمت الى المادة الميالة على هذا النحو ، أو ثبتت فيها جوهـرا مفـكرا غير مادى ، فانه بالنسـبة لأفكارنا ، ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر اذا شاء أن يضيف الى المادة « موهبـــة للتفكير » ، أكثر من أنه سبحانه وتعالى يمكن أن يضيف اليها جوهرا آخـر فيـه موهبة للتفكير ٠٠ ان من يرى كيف أنه من الصعب ، فى أفكارنا ، توافق الاحساس مع المادة الممتدة ، أو توافـق الوجود مع شيء ليس له امتداد اطلاقا ، سوف يقر ويعترف بأنه بعيد كل البعد عن معرفة ماهية نفسه على وجه اليقين ... وهذا الذى يطلق لنفسه العنان ليتأمل فى حرية ... يندر أن يجد فى عقله القدرة على تحديد موقفه تحديدا تاما من « مادية النفس » سلبا أو ايجابا (١٤٥) ٠

وعلى الرغم من أن لوك كان قد تغلب بالفعل على الجانب المادى من المعضلة ، فان الايحاء باحتمال صدقه أو حقيقته ، بالنسبة لتيـار الفكر فى ذلك العصر ، أساء الى الدين القويم الى حـــد أن مائة من المدافعين عن الديانة هاجموه بتهمة أنه أيد « فى طيش وتهور » آراء الملحدين ٠ ولم يلقـــوا بالا لاحترامه واجـــلاله للوحى ، ولبيـــانه القديم « أن الرأى الأرجح والأكثر احتمالا هو أن الشعور مرتبط بجوهر فرد غير مادى ، وهو حب هذا الجوهر والتعلق به (١٤٦) » ، وربما تنبأ هؤلاء المدافعون بأن لامترى وهولباخ وديدور وغيرهم من فلاسفة المادية قد يرون فى كلام لوك نزوعا خفيا الى وجهة نظرهم ٠٠ واتهمه الأسقف ستللنجفليت بمثل هذه النزعة المادية على وجه التحـــديد ، وأنذره بأنها تعرض اللاهوت المسيحى كله للخطر ٠ وتناسي لوك حرصه المعهود ، وأكد من جديد وبقوة ، احتمال صدق الفرضية المادية وظل على خلاف بشأنها مع ستللنجفليت وغيره حتى ١٦٩٧ ٠

على أن مقال « العقل الانسانى » على الرغم من نقاده وما فيه من تناقضات وغموض وابهام ، وغير ذلك من الأخطاء ، تزايدت قيمته وأهميته وأثره عاما بعد عام ٠ وتهافت الناس على طبعاته الأربع فى

الأربعة عشر عاما التى انقضت بين ظهوره ووفاة مؤلفه لوك • وظهرت له طبعة بالفرنسية فى عام ١٧٠٠ ، وتقبلوه هناك فى اعجاب حماسي • وأصبح حديث الناس فى قاعات الاستقبال فى انجلترا • وأكد ترسترام شاندى لسامعيه أن الرجوع الى « المقال » يمكن أى انسان من « الابتعاد بنفسه عن التفكير فى الميتافيزيقا (١٤٧) » • وكان تأثيره على باركلى وهيوم عظيما الى حد أننا نستطيع أن نؤرخ بظهوره تحول الفلسفة البريطانية عن الميتافيزيقا الى المعرفة • وربما كان لوك ماثلا فى ذهن بوب حين كتب « أن الدراسة الصحيحة للجنس البشرى هى الانسان »•

وفى ١٧٠٠ ظهرت طبعة بالفرنسية للمقال ، ولقيت هناك ترحيبا حماسيا بالغا • وكتب فولتير يقول : « بعد أن صاغ بعض السادة المفكرين أسطورة رومانسية عن النفس ، ظهر رجل واحد حكيم حقا ، وأمدنا بتاريخها الصحيح فى أعظم حالة من التواضع يمكن تصورها • ان مستر لوك قد كشف للانسان تشريح النفس ، كما لو أن بعض علماء التشريح بشرحون الجسم (١٤٨) » • ونعود فنقول « ان لوك وحده » بسط العقل الانسانى فى كتاب لا يضم الا حقائق وهو كتاب بلغ حد الكمال والاتقان - لأن هذه الحقائق مبسوطة فيه بأجلى بيان (١٤٩) » وبات المقال الانجيل السيكولوجى لعصر الاستنارة فى فرنسا • وتبنى كونديلاك « المذهب الحسي الذى جاء به لوك وتوسع فيه وذهب الى أن شيئا لم يستجد فى علم النفس فيما بين أرسطو ولوك (١٥٠) - وهذا اجحاف واضح بالفلاسفة السكولاسيين (العصور الوسطى) وهوبز وينسب دالمبرت ، فى « بحث تمهيدى فى دائرة المعارف » الى لوك الفضل فى خلق الفلسفة العلمية ، كما خلق (فى رأيه) نيوبين الفيزياء العلمية • وعلى الرغم من مجاهرات المقال بالمعتقد القويم ، فانه مهد لتجريبية عقلانية ، سرعان ما نبذت النفس باعتبارها فرضية غير ضرورية ، وانطلقت الى تطبيق نفس التفكير بالنسبة لله سبحانه وتعالى •

٤ - الدين والتسامح :

لم يتعاطف لوك نفسه مع مثل هذا التطرف ، ومهما يكن من أمر شكوكه الخاصة ، فانه أحس ، كأى رجل انجليزى مهذب ، بأن السلوك

القويم والخلق الكريم يتطلبان من الكنيسة المسيحية دعما شاملا • واذا كانت الفلسفة تنزع عن الناس ايمانهم بعدل الهى كامن وراء جور الحياة وشقائها ، فماذا عساها تقدم لتقوية آمال الناس والابقاء على شجاعتهم ؟ تقدم بطيء نحو يوتوبيا ديمقراطية ؟ ولكن فى مثل هذه اليوتوبيا هلا يبتدع الجشع الطبيعى فى الناس وعدم المساواة بينهم وسائل جديدة ليستخدم الدهاة والأقوياء غيرهم من البسطاء والضعفاء أو يسيئوا استغلالهم ؟ •

وكان أول همه أن « يضع المقاييس والحدود بين العقيدة والعقل»• وعمد الى تحقيق هذا فى الفصل الثامن عشر من الباب الرابع من المقال • « انى أجد كل شيعة تحاول جهدها ، بقدر ما يسعفها العقل، أن تفيد منه عن طيب خاطر ، وحيثما يخفق العقل تصرخ وتصيح باعلى صوت : تلك مسألة ايمان وعقيدة فوق العقل (١٥١) » • ان كل ما أوحى به الله حق على وجه اليقين (١٥٢) » • ولكن التأمل وحده فى الدليل المتاح هو الذى ينبئنا اذا كانت الأسفار المقدسة هى كلمة الله ، « وليس ثمة قضية يمكن تقبلها على أنها وحى الهى ، اذا كانت تناقض معرفتنا الأكيدة البديهية (١٥٣) » • واذا كان فى مقدورنا تقرير مسألة ما بمثل هذه الملاحظة المباشرة ، فان معرفتنا تسمو على أى وحى مزعوم ، لأنها أوضح وأكثر توكيدا من أى توكيد بأن هذا الوحى الذى نحن بصدده الهى حقا • ومهما يكن من أمر « فهناك أشياء كثيرة لدينا عنها أفكار غامضة ناقصة ، أو ليس لدينا عنها أفكار البتة ، وثمة أشياء أخرى لا نستطيع بالاستخدام الطبيعى لمواهبنا ، الوصول الى معرفة شيء عن وجودها فى الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، مطلقا ، ولكونها فوق العقل ، فانها اذا كشفت ، تكون « المادة الصحيحة للعقيدة والايمان (١٥٤) » • ويخلص لوك الى القول : « ليس هناك شيء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية أولا يلتئم معها ، يحق له أن يشجع أو يؤكد على أنه مسألة عقيدة لا دخل للعقل فيها (١٥٥) » « وثمة أمارة لا تخطيء » على حب الحق • « الا نهلل ونرحب بأية قضية فى توكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التى تقوم عليها القضية (١٥٦) » • « وينبغى أن يكون العقل أول حكم ومرشد لنا فى كل شيء (١٥٧) » •

ومن ثم نشر لوك فى ١٦٩٥ « معقولية المسيحية كما تنقلها الأسفار المقدسة » . وأعاد قراءة العهد الجديد ، كما يمكن أن يقرأ الانسان كتابا جديدا ، طارحا كل التعاليم والتعليقات جانبا (كما قال) . وسيطر عليه نبل السيد المسيح المحبب الى النفس ، وجمال كل تعاليمه تقريبا ، باعتبارها خير آمال الانسان وأكثرها اشراقا . واذا كان ثمة شيء يمكن ن يكون رسالة الهية فان هذه القصص وذاك المذهب تبدو وكأنهما من عند الله . ورأى لوك أن يتقبلها جميعا على أنها مقدسة ، بل أن يقرها أيضا ، فى كل ساسياتها ، باعتبارها متفقة كل الاتفاق مع العقل .

ولكن بدا له أن هذه الأساسيات أكثر اعتدالا وبساطة من اللاهوت المعقد فى المواد التسع والثلاثين ، أو اعتراف وستمنستر أو مذهب اثناسيوس . واقتبس من الانجيل فقرة بعد فقرة ، لا تطلب كلها من المسيحى الا أن يؤمن بالله وبأن المسيح رسول من عند الله . وهنا ـ كما يقول لوك ديانة بسيطة صريحة واضحة ، صالحة لكل انسان ، لا تعتمد على أى فقه أو لاهوت . وفيما يتعلق بوجود الله ، فقد شعر لوك « بأن أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليل على وجود الله (١٥٨) » وحاول لوك من وجوده هو نفسه أن يبرهن على « سبب أول » ، وانتهى الى أن مثل هذه الخصائص لابد أن تنسب أيضا الى الله ، والله « عقل سرمدى خالد (١٥٩) » وحينما شكا نقاد لوك من أنه أغفل بعض التعاليم الحيوية مثل خلود النفس والعذاب المقيم والنعيم المقيم ، أجاب بأنه فى الاعتراف بالمسيح ارتضي تعاليمه التى شملت تلك الآراء والعاليم . ومن ثم خرج لوك من الباب الذى دخل منه .

ومهما يكن من أمر ، فان لوك ألح على أن تتمتع بالحرية الكاملة فى انجلترا كل المذاهب المسيحية فيما خلا الكثلكة . وكان قد كتب مقالا عن التسامح فى ١٦٦٦ . وعندما ارتحل الى هولنده ١٦٨٣ وجد هناك من حرية العبادة أكثر مما كان فى انجلترا . ولا بد أنه قرأ أثناء اقامته فى هولنده دفاع بيل القوى عن التسامح الدينى (١٦٨٦) . وحركت مشاعره هجرة الهيجونوت واضطهادهم (١٦٨٥) فكتب الى صديقه لمبورخ رسالة استحث نشرها . فطبعت باللاتينية ١٦٨٩ تحت عنوان

« رسالة فى التسامح » وظهرت ترجمتها الى الانجليزية قبل نهاية العام . واستنكرها أحد أساتذة أكسفورد ، فدافع عنها لوك ، وكان آنذاك فى انجلترا ، فى رسالة ثانية وثالثة » عن التسامح فى ١٦٩٠ / ١٦٩٢ . ولم يحقق قانون التسامح الذى صدر فى ١٦٨٩ من مقترحات لوك الا قليلا جدا ، ذلك أن القانون استبعد الكاثوليك والتوحيديين واليهود والوثنيين وحظر تولى الشئون العامة على المخالفين . ان لوك أيضا أتى باستثناءات فلم يكن ليتسامح مع الملحدين حيث رأى أنهم غير أهل للثقة ما داموا لا يخشون الها ولا ديانة توقع عذابا ماديا ، بالتضحية بالانسان مثلا ، ولم يتسامح مع مذهب يتطلب الولاء لسلطة أجنبية ، ومفهوم أنه كان يعنى الكثلكة (١٦٠) . ودعا صراحة الى التسامح مع المشيخيين والمستقلين ، وانصار تجديد العماد، والأرمينيين والكويكرز . ولم يتجاسر على القول بالتسامح مع التوحيديين ولو أن أرل شافتسبرى الأول الذى قضي نحبه فى أمستردام ١٦٨٣ كان قد ذكر أنه كان قد استقى مذهب الأرمينيين والتوحيديين من سكرتيره لوك (١٦١) .

وقال لوك بأن القانون ينبغى أن يهتم فقط بالمحافظة على النظام الاجتماعى . فان للقانون الحق فى القضاء على كل ما من شأنه العمل على التخريب فى الدولة ، ولكن ليس له ولاية ولا سلطان على نفوس الناس ، وليس لأية كنيسة سلطة لارغام الناس على مشايعتها .. فما أسخف أن يعاقب الناس فى الدنمرك لأنهم غير لوثريين ، أو فى جنيف لأنهم لا يتبعون مذهب كلفن ، أو فى فيينا لأنهم لا يعتنقون المذهب الكاثوليكى . وفوق كل شيء ، أى فرد أو أية جماعة أتيح لها ادراك الحقيقة الكاملة عن حياة البشر ومصير الانسان ؟ ولحظ لوك أن معظم الديانات تنادى بالتسامح فى أيام ضعفها ، ولكنها تأباه فى أيام قوتها .. ورأى أن الاضطهاد مصدره شهوة السلطان والسيطرة ، والحقد المقنع فى ثياب الغيرة الدينية . والاضطهاد يصنع المنافقين ، أما التسامح فانه يشجع المعرفة والحق ، وكيف يعمد المسيحى الى الاضطهاد والتعذيب والاساءة ، وقد أخذ علي نفسه عهدا بالبر والاحسان ومحبة الناس ؟

وواصل لوك حملته من أجل التسامح حتى غابت شمس حياته .

وكان منهمكا فى كتابه رسالة رابعة فى نفس الموضوع حين وافته المنية . وعاجله الموت ١٧٠٤ بينما كان جالسا يصغى الى ليـــدى ما شام تتلو المزامير .

وحتى قبل موته كان قد وصل فى مجال الفلسفة الى مكانة لم يســم عليها الا نيوتن فى ميدان العلوم . وتحدث عنه بالفعل بانه «الفيلسوف» وعلى حين ختم حياته على تقوى قوية تقليدية تقريبا ، فان كتبه التى لم تكن لتتغير مع الزمن ، انتقلت عن طريق الطبعات والترجمات العديدة الى فكر أوربا المتعلمة المثقفة . قال شبنجلر : « ان الاستنارة الغربية من أصل انجليزى ونبعت كلا عقلانية القارة من لوك (١٦٢) » . وليسـت كلها بطبيعة الحال . ولكن فيمن يمكن للمرء الآن أن يغامر بمثل هـــذه المبالغة أو الاغراق ؟ .

٦ ــ شــافتسبرى : ١٦٧١ ــ ١٧١٣

كان أنطونى آشلى كوبر ، ارل شافتسبرى الثالث ، تلميذ لوك . مفخرة لمعلمه . لا لأن لوك كان مسئولا عن أسلوبه ، فان العالم النفسانى البحاثه كتب نثرا مبتذلا ، بسيطا واضحا عادة (وهنا يكمن الخطر) ، ولكنه قلما كان نثرا جميلا ، فان شافتسبرى ذا الفراغ والجدة ، كتب فى تهذيب واثق ، ودعابة متسامحة ، ورشاقة غالية (فرنسية) تقريبا ــ فقد تنازل السيد الاقطاعى الانجليزى أن يكون فيلسوفا . ويجدر بنا أن نقف عنده قليلا لأنه يكاد يكون مؤسس علم الجمال فى الفلسفة الحديثـــة ، وبانقاذه الوجدان والتعاطف من أيدى هوبز ولوك ، غذى فيض العاطفة الذى بلغ ذروته عند روسو .

وتحت اشراف لوك ، وعلى نهجه فى تعليم اللغة بالمحادثة ، مكنت اليزابث بيرش التى كانت تحذق اليونانية واللاتينية ، انطونى من قراءة كلتا اللغتين بسهولة وهو فى سن الحادية عشرة ، ثم التحق بمدرســـة ونشستر ، وتجول لمدة ثلاثة أعوام تعلم فى أثنائها الفرنسية وأســـاليب الحياة الفرنسية ، ومال الى الفـــن ميـــلا لابد أنه بدا غير لائق بلورد انجليزى . ودخل البرلمان لمدة عام واحد ــ وهذا كاف جدا ليظهره على « جور وفساد الحزبين كليهما (١٦٣) » . ولكن دخان لندن زاد من وطأة

الربو عليه فعاد أدراجه الى هولنده ، حيث وجد الجو الفكرى نابضـــا بفلسفة سبينوزا وبيل ، ومذ حصل على لقب ارل ١٦٩٠ فانه قضى بقية أيام حياته فى ضيعته الريفية · وتزوج قبل وفاته باربع سنوات ، وكم كانت دهشته حين وجد أنه سعيد كما كان من قبل (١٦٤) · وفى ١٧١١ نشر مجموعة مقالاته تحت عنوان شامل « خصائص الانسان ، العـــادات ، الآراء ، العصر الحاضر · ولم يمتد به الأجـــل لأكثر من اثنين وأربعين عاما ، حيث فارق الحياة فى ١٧١٣ ·

ولم يكن متوقعا من رجل ورث هذا الثراء العريض على الأرض أن يعنى بأمر السماء أو يقلق باله من أجلها · انه استنكر « الغيرة » ـ التى كان زمانه يعنى بها التعصب ـ غيرة الانجليز الذين ظنوا أنهم انما ينطقون بالوحى الالهى · ان أية عاطفة جامحة أو كلام عنيف كان فى رأى شافتسبرى دلالة على سوء التربية ، ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يسخر منهم أكثر من أن يعذبهم · والحق أنه بدا له أن الظرف والدعابة اللتين جعلهما موضوع رسالته الأصلية الخلاقة ، هما خير مدخل لأى شيء ، حتى اللاهوت · واتفق مع بيل على أن الملحدين مواطنـــون مهذبون ، وأنهم أساءوا الى الدين والأخلاق أقل مما فعلت وحشـــية العقائد التى سيطرت واستغلت نفوذها · واعترض على « عبادة وحب اله قلب حول شديد الغيظ ، عرضة للحنق والغضب ، مهتـــاج محب للانتقام ··· يشجع الخداع والخيانة بين الناس ، يرضي عن قلة من الناس ويقسو على سائر الناس (١٦٦) » · وعجب مما كان لمثل هـــذا المفهوم عن المعبود من أثر على خلق الانسان وسلوكه · وذهب الى أنه من الخسة والجبن ألا يتحلى الانسان بالفضيلة الا أملا فى الثـــواب أو خوفا من العقاب · فالفضيلة لا تكون حقيقية صادقة الا اذا تحلى بهـــا المرء من أجلها هى · ومهما يكن من أمر ، وما دام الانسان هو على ما هو عليه ، فمن الضرورى أن يغرس فى نفسه الايمان بمثل هـــذا الثواب والعقاب فى المستقبل (١٦٧) · « انه من صادق الانســـانية والشفقة اخفاء الحقائق الهامة عن القلوب الواهنة ·· ·· وقد يكون لزاما ألا يتحدث العقلاء الا رمزا (١٦٨) » ، وهكذا دافع شافتسبرى عن كنيسة رسمية ، وحاول أن يوفق بين الايمان بوجود اله واحـــد فى فلسفة متفائلة أوجزت الرذيلة فى أنها هوى انسانى (١٦٩) · ومع

ذلك فان الكساندر بوب رأى أن كتاب « خواص الانسان » أساء الى الديانة المنزلة فى انجلترا أكثر مما أساءت كل مؤلفات الكفار السافرين غير المتحفظين (١٧٠) ٠

واتفق شافتسبرى مع أرسطو ولوك على أن السعادة هى الهدف المشروع لأفعال الانسان ، وعرف الفلسفة بأنها « دراسة السعادة (١٧١) »٠ ولكنه عارض الهبوط بكل الدوافع الانسانية الى مجرد أنانية أو مصلحة شخصية ، وطبقا لهذا التحليل (الذى بسطه هوبز ولاروشفوكول حديثا) :

يكون التلطف والكرم والانسانية تجاه الغرباء أو الناس فى وقت الشدة ، مجرد انانية أكثر تعمدا ٠ والقلب المخلص الأمين قلب أشد مكرا ، والامانة والود مجرد حب للذات ، ولكنه حب أحسن تنظيما وضبطا ٠ وحب الأقارب والأبناء والذرية انما هو حب خالص للنفس وللدم المباشر للانسان ٠٠٠ والشهامة والشجاعة ، لا ريب ، تكيف أو تعديل لحب النفس الشامل هذا (١٧٢) ٠

وعلى عكس هذا الرأى ، زعم شافتسبرى أن الطبيعة الانسانية مزودة بشكل مضاعف بغرائز للنفع الشخصي ، وغرائز للعيش فى جماعة ٠ واعتقد أن المجتمع والدولة ما نشأتا عن عقد اجتماعى ، بل عن « مبدأ القطيع » أو نزعة التزامل ٠٠٠ وهى نزعة طبيعية قوية فى معظم البشر (١٧٣) وهناك « عواطف طبيعية قائمة فى حب الجنس البشرى ٠ وفى محاولة ارضائه ، والشعور الودى نحوه والتعاطف معه ٠٠ وتوافر هذه العواطف فى بالغ قوتها معناه توافر الوسائل الاساسية للمتعة الذاتية ، أما الافتقار اليها فهو التعاسة والسقم المحققان (١٧٤) » ٠ وكون المرء « طيبا صالحا » معناه توجيه كل ميوله ونزعاته توجيها مستقيما ثابتا نحو خير الجماعة ، وكلما كبرت الجماعة التى توحى بهذه المشاعر وتبثها ، حسنت حال الناس فيها ٠ والشعور بهذا التعاطف الاجتماعى هو الوعى الاخلاقى ٠ وهذا شيء فطرى ، لا من حيث المتطلبات النوعية (التى تختلف من جماعة الى جماعة) ولكن من حيث أساسه الغريزى ، « الاحساس بالصواب

والخطأ ؛ وهو فنيا أمر طبيعى مثل الميل الطبيعى نفسه ، وهو من أول المبادىء فى تكويننا (١٧٥) » .

وانتقل شافتسبرى من علم الأخلاق الى علم الجمال بالمطابقة بينهما . فالطيب والجميل شيء واحد ، فالخلق الحسن « هو تذوق الجمال واستساغة كل ما هو مهذب محتشم » ، ومن ثم نتحدث عن أعمال معادية لمصلحة المجتمع بأنها قبيحة ، حيث أنها تسيء الى هذا التناسق بين الجزء والكل ، وهو صلاح وجمال معا . ويستطيع المرء أن يجعل من حياته عملا من أعمال الفن - من الوحدة والتناسق - بتنمية احساس جمالى ستكون الأخلاقيات فيه أحد العناصر ، والرجل « الذى نشيء خير تنشئة » (هكذا اعتقد الارستقراطى شافتسبرى) يفعل هذا . وهو بحكم تربيته وتدريبه « لا يقبل أن يأتى عملا نكرا أو وحشيا (١٧٦) » ان ما تشكل لديه من ذوق طيب لا بد أن يوجهه فى السلوك وفى الفن معا . والحق أيضا لون من الجمال فهو تناسق أجزاء المعرفة مع الكل . ومن هنا نحا شافتسبرى نحو الكلاسيكية فى الفن . وبدأ له الشكل والوحدة والتناسق أساسيات التفوق فى الشعر والعمارة والنحت ، وهى أقل ضرورة وامتيازا فى الرسم بالألوان منها فى الرسم العادى . وكان فى العصر الحديث أول من جعل الجمال مسألة أساسية فى الفلسفة ، وهو الذى بدأ البحث الذى بلغ ذروته ، فى أواخر القرن الثامن عشر بلورد كامس وبيرك .

كان هذا جانبا من تأثير شافتسبرى ، وهناك جوانب أخرى كثيرة . ان توكيده على الواجدان أثر على الحركة الرومانتيكية ، وبخاصة فى ألمانيا ، عن طريق لسنج وشيلر وجوته وهردر - الذين أسموه « أفلاطون أوربا المحبوب (١٧٧) » وظهر هذا الأثر فى فرنسا فى ديدرو كما ظهر فى روسو . أما تفسيره للدين بأنه ضعيف من الناحية النظرية ، ولكنه أمر لا يستغنى عنه من الناحية الاخلاقية ، فقد كان له أثره فى أفكار كانت العملية . ظهر توكيده على التعاطف مرة ثانية باعتباره أساس الأخلاق ، عند هيوم وآدم سميث . وأسهمت أفكاره عن الفن فى تشكيل نشوة ونكلمان الأصيلة الممتازة . انه بدأ حياته تلميذا لجون لوك المفكر والذى لم يعن كثيرا بالجماليات فأصبح (وربما بحكم المقاومة الطبيعية فى كل جيل لمنشئه) فيلسوف الوجدان والعاطفة

والجمال ٠ وحيث كان يحب الأسلوب الكلاسيكى فى الفن ، فقد أصبح مصدر احياء الرومانتيكية فى قارة أوربا ، ولو أن الشعر والعمارة فى انجلترا تبعتا نزعته الكلاسيكية ٠ وكان له كل الفضل والفخر فى أنه جعل الفلسفة تشرق برقة الأسلوب ورشاقته مما أعاد الى الذاكرة أفلاطون ، ولم ينافسه فى هذا بعد ذلك الا باركلى ٠

٧ - جورج باركلى : ١٦٨٥ - ١٧٥٣ :

ولد فى ديرت كاسل فى مقاطعة كيلكنى ٠ وفى سن الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتى فى دبلن ٠ وفى سن العشرين أسس ناديا لدراسة « الفلسفة الجديدة » ، ويقصد بها لوك ٠ وفى الحادية والعشرين بدأ فى « الكتاب العادى » وتلك فكرة كان يؤمل من ورائها أن يقضي على « المادية » الى الأبد : أى أنه ليس ثمة شيء موجود الا اذا كان مدركا بالحواس ، ومن ثم فان العقل هو الحقيقة الواقعة ، والمادة أسطورة أو خرافة :

> كما كان مذهب المادة أو الجوهر المادى ، السند والدعامة الاساسيتين للتشكك ، فانه على نفس الركيزة أقيمت المبادىء البعيدة عن التقى والورع فى الالحاد والمروق عن الدين ٠٠ ٠٠ وكم كان الجوهر المادى صديقا حميما للملحدين فى كل العصور ، ممن لسنا فى حاجة لذكرهم ٠ ان كل نظمهم الرهيبة البشعة تعتمد عليه اعتمادا سافرا أساسيا ، حتى اذا ما انهارت يوما هذه الركيزة ، أو حجر الزاوية فى مذهبهم ، فان كل الكيان لم يلبث أن انهار ، مما لا يستحق معه أن نلقى نظرة خاصة الى حماقات كل شيعة من هؤلاء الملحدين (١٧٨) ٠

وهكذا فى السنين السبع التالية ، وقبل أن يتم التاسعة والعشرين اصدر باركلى أهم أعماله : « بحث عن نظرية جديدة للرؤية » (١٧٠٩) ، رسالة عن أصول العقل البشرى (١٧١٠) ، « ثلاث محاورات بين هيلاسي وفيلوتوس فى معارضة المتشككين والملحدين » (١٧١٣) ٠ وكانت الرسالة الأولى اضافة رائعة الى علم النفس والبصريات ، كما هزت الرسالتان الأخيرتان الفلسفة من الأعماق ٠

ونبعث رسالة الرؤية من قطعة لجون لوك يروى فيها كيف أن وليم مولينكس (مدرس فى كلية ترنتى ، دبلن) أثار أمامه مسألة : هل يستطيع انسان ولد أعمى ، أن يميز بعد استرداد بصره ، بالبصر وحده ، بين جسم كروى وآخر مكعب اذا كان كلاهما من نفس المادة وفى نفس الحجم ٠ واتفق رأى مولينكس ولوك سلبا ٠ واتفق باركلى معهما وأضاف تحليله الخاص ٠ ان البصر لا يهيىء لنا ادراكا حسيا للبعد والحجم والمواقع أو الحركات النسبية للأجسام ، الا بعد التصحيحات التى تجريها حاسة اللمس ، وعن طريق التجارب المتكررة يصبح هذا التصحيح لحظيا تقريبا ، وعند ئذ يزودنا البصر بمثل هذا الحكم على شكل الأجسام المرئية وبعدها ومكانها وحركتها ، كما لو أننا لمسناها :

> ان الانسان الذى ولد أعمى ، ثم أعيد اليه بصره ، لن يكون لديه فى أول الأمر أية فكرة عن البعد عن طريق البصر ، فان الشمس والنجوم ، وأبعد الاجسام وأقربها على حد سواء ، تبدو فى عينه ، لا بل فى عقله ، فالأجسام التى تدخل عن طريق البصر ، لا تبدو له (كما هى فى الحقيقة) الا مجرد طائفة جديدة من الأفكار والأحاسيس ، كل منها قريب الاحساس بالألم و اللذة أو أشد الأحاسيس الداخلية فى النفس ٠٠ أما حكمنا على الأجسام المدركة بالبصر ، على أى بعد ، أو بدون العقل ، فانه حكم مبنى تماما على التجربة (١٨٠) ٠

فالفضاء حينئذ تركيب عقلى ، انه أسلوب للعلاقات التى تبنى عن طريق الخبرة للتوفيق بين مدركاتنا بالبصر وباللمس ٠ وأكدت العمليات التى وردت فى تقارير الجمعية الملكية (١٧٠٩ - ١٧٢٨) وجهة النظر هذه : فان فردا مولودا أعمى ، أعيد اليه بصره عن طريق جراحة أجريت له ، كان فى أول الأمر « أبعد ما يكون عن الحكم على الأبعاد ، الى حد أنه ظن أن كل الأجسام أيا كانت لمست عينيه ٠٠٠ ولم يدرك شكل أى شيء ، ولم يميز بين الأشياء ، مهما اختلفت فى الشكل أو الحجم (١٨١) » ٠

وكان كتاب « أصول المعرفة الانسانية » نتاجا رائعا جديرا بالذكر

الفتى فى الخامسة والعشرين . ومرة أخرى تعرض باركلى لمقال لوك . اذا كانت كل المعرفة تأتى عن طريق الحواس ، وليس ثمة شي له حقيقة واقعة لدينا الا اذا كنا ندركه أو قد أدركناه ادراكا حسيا ، « موجود أى أنه مدرك » . وكان لوك قد ذهب الى أن المدركات قد أحدثتها أشياء خارجية تضغط على أعضاء الحس فينا . وهنا تساءل باركلى : كيف تعرف أن مثل هذه الأشياء (الخارجية) موجودة ؟ السنا نرى فى أحلامنا أفكارا واضحة مشرقة . وضوح واشراق ما نراه منها فى اليقظة. ان لوك حاول أن ينقذ استقلال الحقيقة الواقعة للأشياء بالتمييز بين صفاتها الأولية والثانوية ، فهذه الأخيرة ذاتية « فى العقل » ، والصفات الأخرى ـ الامتداد ، الصلابة ، الشكل ، العدد ، الحركة ، السكون ـ موضوعية ، توجد فى جوهر خفى غامض اعترف لوك بأنه لا يعرف عنه شيئا ، ولكنه ، هو والعالم بأسره ، جعلوه « والمادة » شيئا واحدا . والآن أعلن باركلى أن الصفات الأولية ذاتية مثل الثانوية تماما ، وأننا لا نعرف امتداد الاشياء وصلابتها وشكلها وعددها وحركتها وسكونها ، الا عن طريق الادراك الحسي ، وأن الصفات الاولية ، بناء على ذلك ، ذاتية أيضا ، أى أنها أفكار . والعالم بالنسبة لنا طائفة من المدركات الحسية ، « ان العقل هو الذى يشكل هذه المجموعة المتنوعة من الأجسام التى يتألف منها العالم المرئى ، ولا يتأتى لأى منها أن يكون موجودا لفترة أطول مما هو مدرك (١٨٢) انزع عن « المادة » صفاتها الأولية والثانوية معا ، تصبح المادة عدما لا معنى له . وعندئذ يترك « المادى » ليلعق عدما (١٨٣) .

وكان باركلى على وعى تام بأن آخرين ، فضلا عن الماديين قد يعترضون على تبخر العالم الخارجى بمثل هذه البراعة الخادعة . ولم يعجز عن الرد حين سئل : هل يتوقف وجود أثاث المنزل فى حجراتنا اذا لم يوجد فيها من يدركه أو يراه (١٨٤) . انه لم ينكر حقيقة عالم خارجى لمدركاتنا (١٨٥) ، وكل ما أنكره هو « مادية » العالم . ويمكن أن تستمر الأشياء الخارجية موجودة ولو لم ندركها أو نرها ، وما ذاك الا لأنها موجودة باعتبارها مدركات فى عقل الله (١٨٦) ، واستطرد يقول ان احساساتنا فى الحقيقة تسببها ، لا المادة الخارجية ، بل القوة الالهية التى تؤثر فى حواسنا . والروح

فقط هى التى تؤثر فى الروح ٠ والله هو المصدر الوحيد لكل أحاسيسنا وأفكارنا (١٨٧) × ٠

وذهب معاصرو باركلى الى أن هذا لهو ايرلنـــدى ، وكتب لورد تشسترفيلد الى ابنه : —

ان دكتور باركلى الرجل الفاضل العبقرى العالم ، ألف كتابا ليثبت أنه ليس هناك شيء مما يسمونه المـادة ، وأنه لا يوجد شيء الا فكرة ٠٠٠ وحججه مفحمـــة ، بكل معنى الكلمة ، ولكنى أبعد ما أكون عن الاقتناع بها ، الى حد أنى مصمم على أن آكل وأشرب وأمشي وأركب ، حتى أحفظ تلك « المادة » التى أتصور خطـــأ ، فى الوقت الحاضر ، أن جسمى يتكون منها ، على أحسن حالة ممكنة (١٨٨) ٠

وكل العالم يعرف ما بذل دكتور جونسون من جهد عظيم فى الرد على دكتور باركلى :

يقول :وزول : بعد خروجنا من الكنيسة ، وقفنا لبعض الوقت معا نتحدث عن سفسطة الأسقف باركلى أو مغالطته البارعة لاثبات عدم وجود المادة ، وأن كل شيء فى الكون مجرد أفكار ، ولاحظت أنه على الرغم من أننا قانعـــون بانها غير صحيحة ، فانه من المتعذر دحضـــها ٠ وان أنسي لن أنسي اندفاع جونسون فى الرد ، وهو يضرب بقدمه وبقوة شديدة حجرا كبيرا حتى أزاحه فارتد وسمع له صـــوت ، وقال : « انى أدحضها هكذا (١٨٩) » ٠

وربما كان من الجائر بطبيعة الحال أن يوضح باركلى للرجـــل العظيم (دكتور جونسون) أن كل ما عرف عن الحجر ، بما فى ذلك الألم الذى أصاب اصبع قدمه ، كان ذاتيا : مجموعة من المدركات الحسية تسمى حجرا ، مختلطة مع طائفة أخرى من الأحاسيس السمعية تسمى بوزول ، ومجموعة من الأفكار التى تعلمتها والتى أشرب بها تســـمى

× فى أحدث فيزياء ، ان أحاسيسنا لا تسببها أية « مادية » معـروفة ، ولكن تسببها طاقات دقيقة ، جوهرها المادى غير معروف ٠ وهو افتراضي ٠

فلسفة ، ولدت كلها استجابة أنتجت طائفة أخـــرى من الاحاسيس . واتفق هيوم مع بوزول وتشسترفيلد فى أن حجج باركلى « لا تدع مجالا لأى رد ، ولا تؤدى الى اقتناع » (١٩٠) .

ورأى هيوم أن لغز باركلى ساحر ، ولكنه استخلص منه نتيجة مدمرة . وسلم بأن « المادة » تتلاشي عندما نسلبها صفاتها التى تنسبها اليها مدركاتنا الحسية ؛ ولكنــه أوحى بأن نفس الشيء قد يقـــال عن « العقل » . ولقد رأينا عرض لوك المسبق لهذه النقطة . لكن باركلى تنبأ بها أيضا . فانه فى المحاورة الثالثـــة جعـــل هيلاس يتحـــدى فيلونوس :

أنت تعترف ، حقـــا بأنك ليس لديك أية فكرة عن نفسك .. .. وتسلم مع ذلك بأن هناك جوهرا روحيا ، وعلى الرغم من أنه ليس لديك أية فكرة عنه ، بينما تنكر امكان وجود جوهر مادى ، لأنه ليس لديك أى مفهوم أو فكرة عنه . فهل هذا من الانصاف فى شيء ؟ .. .. أما أنا فيبدو لى ، طبقا لطريقة تفكيرك ، وبناء على مبادئك، أن هذا يستتبع أنك مجرد جهاز من أفكار عائمـــة ، دون جوهر يساندها . ان الكلمات لا يمكن استخدامها دون معنى وحيث أنه ليس فى الجوهر الروحى معنى أكثر مما هو فى الجوهر المادى ، فيجب تسفيه كليهما سواء بسواء (١٩١) ويرد فيلونوس (نصير العقل) على هيلاس (الذى يمثل المادة) :

كم من مرة يجب أن أعيد وأكرر انى اعرف او انى اعى وجودى وجوهرى ، وأنى أنا نفسي ، لا أفكارى ، بل شيء آخر عنصر مفكر فعال يدرك بالحواس ، ويعرف ، ويريد ، ويعمل حول الأفكار . أنا أعرف أنى بالذات ، ادرك الألوان والأصوات ، وأن اللون لا يدرك الصوت ، ولا الصوت يدرك اللـــون ، وأنى لذلك عنصر فـــرد ، متميـز عن اللـــون والصوت (١٩٢) .

ولم يقتنع هيوم بهذا الجـواب ، وانتهى الى أن باركلى ، طوعا

أو كرها ، دمر المادة والروح كلتيهما ، وأن كتابات الأسقف اللامع الذى تطلع الى الدفاع عن الدين ، « تشكل أحسن دروس التشكك التى يمكن العثور عليها عند الفلاسفة القدامى والمحدثين على حد سـواء ، دون استثناء بيل (١٩٣) »٠

وعمر باركلى أربعين عاما بعد نشر رسائله الثلاث ٠ وفى ١٧٢٤ عين رئيسا لكاتدرائية درى ٠ وفي ١٧٢٨ أبحر ، بناء على وعـد من الحكومة بامداده بمعونة مالية ، الى برمودا لينشيء فيها كلية « لتقويم عادات الانجليز فى مزارعنا فى الغرب ـ المستعمرات ـ ، ونشر الانجيل بين الأمريكيين الهمجيين (١٩٤) ٠ ووصل الى نيوبورت فى رود أيلند ينتظر ورود المنحة الموعودة وقدرها عشرون ألفا من الجنيهات التى لم يصل منها شيء ٠ وهناك ألف كتاب « الفيلسوف الصغير » ليضع حدا لكل الشكوك الدينية ٠ وترك بصماته على ذهن جوناثان ادواردز ، وكتب بيتا مشهورا « ان الامبراطورية تشق طريقها غربا » ٠ وبعد ثلاث سنوات من توقعات لا طائل تحتها عاد الى انجلترا ٠ وفى ١٧٣٤ عين أسقفا فى كلوين ٠ وقد رأينا كيف أن فانيسا صديقة سوبفت جعلته أحد منفـذى وصيتها وتركت له نصف ثروتها ٠ وفى ١٧٤٤ نشر رسالة غريبة « مزايا ماء القطران » الذى قدمه اليه هؤلاء الهمجيون الذين سبق ذكرهم ، والذى أوصي به الآن علاجا للجدرى ٠ وقضي نحبه فى أكسـفورد فى ١٧٥٣ بعد حياة دامت ثمانية وستين عاما ٠

ولم يبزه أحد فى اثبات عدم واقعية الواقع ٠ وفى جهوده لاستعادة الايمان الدينى وتطهير البلاد من مادية هوبز التى كانت تلوث انجلترا وتفسدها ، قلب الفلسفة رأسا على عقب ، وجعل « كل طبقات السماء وكل ما على الأرض ٠٠ ٠٠ كل تلك الأجسام التى تؤلف هيكل الجبار للعالم بأسره (١٩٥) » ، موجودة بالنسبة للانسان ، باعتبارها مجرد أفكار فى عقله ٠ وكانت مغامرة محفوفة بالمخاطر ، وربما ارتاع باركلى نفسه اذا وجد هيوم وكانت يقتبسان من مبادئه التقية الورعة نقدا للعقل لم يترك أية تعاليم أساسية فى صرح الديانة المسيحية العريقـة الحبيبة الا زعزع أركانها ٠ اننا لنعجب بدقة نسيج العنكبوت الذى جاء به ، ونسلم بأنه منذ أفلاطون لم يكتب أحد مثل هذا الهراء الخلاب ٠ وسنرى أثره فى كل مكان فى بريطانيا وألمانيا فى القرن الثامن عشر ، وكان الأثر أقـل فى

فرنسا ، ولكنه تعاظم فى تعويذة نظرية المعرفة غير المفهومة عند أتباع كانت فى القرن التاسع عشر • وحتى فى يومنا هذا لم تقررا لفلسفة الأوربية بعد قرارا حاسما وجود العالم الخارجى • وحتى توطن هذه الفلسفة نفسها على أقصي احتمال فى هذا المجال ، وتواجه مشاكل الحياة والموت ، فان العالم سوف يغفلها ويتغاضي عنها •

ان هذه الفترة كانت فى حقيقتها أزهى فترات الفلسفة الانجليزية • ان الناقوس الذى كان فرانسيس بيكون قد دقه لدعوة المفكرين للعمل بعضهم مع بعض ، كان قد سمع بعد أن خمد أوار الحرب الأهلية • وكان هوبز جسرا فوق هذا الفراغ الغبى ، وكان نيوتن الرافعة التى حرك عليها نيوتن اللاهوت • وكان لوك القمة التى تحدرت منها مسائل الفلسفة الحديثة فى رؤية صافية واضحة • ومن هذا الرباعى الانجليزى الذى سرعان ما أغراه هيوم الحكيم الغريب بالاثم ، دخل الى فرنسا وألمانيا تاثير قوى • ولم يكن المفكرون الفرنسيون فى تلك الفترة على نفس القدر من العمق والأصالة مثل الانجليز ، ولكنهم أكثر لمعانا واشراقا ، من ناحية لأنهم « غاليون » ، ومن ناحية أخرى لأن الرقابة الأشد صرامة أرغمتهم على أفراغ همهم فى الشكل ، ووضع حكمتهم فى الرقة والظرف • ثم جاء فولتير الى انجلترا ١٧٢٦ ، فلما عاد حمل فى جعبته أفكار نيوتن ولوك وبيكون وهوبز وغيرها من المهربات ، واستخدمت فرنسا لمدة نصف قرن بعد ذلك علم انجلترا وفلسفتها أسلحة لتمحو ضلالة الخرافة والغموض والجهل • ان قابلة انجليزية سهرت على ولادة الاستنارة الفرنسية •

الفصل الحادي والعشرون

الدين والعقل فى فرنسا

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ تقلبات الديكارتية :

فى ١٦٩٤ عرف قاموس الأكاديمية الفرنسية الفيلسوف :

بأنه رجل توفر على البحث فى مختلف العلوم ، واستقصاء آثارها ونتائجها سعيا للوصول الى أسبابها وأصولها ومبادئها ، ويطلق الفيلسوف كذلك على رجل يحيا حياة هادئة منعزلة ، بعيدا عن صخب الدنيا ومتاعبها • وقد يطلق أحيانا على الرجل الهوش الذهن الذى يعتبر نفسه فوق مسئوليات الحياة المدنية وتبعاتها (١) •

ومن الفقرة الأولى من هذا التعريف يتبين أنه لم يكن بعد ثمة تمييز بين الفلسفة والعلم ، فالعلم باعتباره « فلسفة طبيعية » يمكن أن يكون فرعا من الفلسفة ، حتى القرن التاسع عشر • ومن العبارة الأخيرة من هذا التعريف نستنتج أن « الأربعين الخالدين » فى عهد لويس الرابع عشر قد اشتموا رائحة الثورة فى جو الفلسفة ، وكأن المبشرين بعصر الاستنارة أو رواده الأوائل كانوا قد افتتحوه بخطاب تمهيدى •

وبين التفريعات الثلاثة لهذا التعريف تذبذب التراث العقلى لرينيه ديكارت بين ذيوع الصيت والانكار • وكان للتراث نفسه ثلاثة أبواق ، ردد أحدها صوت الشك أساسا واستهلالا لكل فلسفة ، وأعلن الثانى عن الآلية الشاملة للعالم الخارجى ، أما الثالث فقد عزف ألحان الترحيب بالعقيدة التقليدية ، وأخرج الله والارادة الحرة والخلود من دوامة العالم • وكان ديكارت قد بدأ بالشك وانتهى بالتقوى ، واستطاع خلفاؤه أن يتناولوه على أى من الوجهين • ان نساء الندوة القديمة ـ

السيدات المثقفات - اللائى هجاهن موليير ١٦٧٢ - وجدن بعض الراحة المثيرة من المسبحه فى دوامة الكوزمولوجيا الجديدة (علم الكونيات) وقالت مدام سيفينى عن فلسفة ديكارت بأنها موضوع حديث ما بعد العشاء فى ندوتها ، وأنها ، ومدام جرينان ، ومدام دى سابلى ، ومدام دى لافاييت كن جميعا من نصيرات الديكارتية ٠٠ وكانت النساء البارزات فى المجتمع تشهدن المحاضرات التى يلقيها أتباع ديكارت فى باريس (٢) ٠ وتبنى كبار النبلاء النهج الفلسفى ٠ وكانت الندوات الديكارتية تعقد أسبوعيا فى قصر دوق دى لوين ، وفى قصر الأمير دى كونديه فى باريس ، « وفى أفخم فنادق العاصمة (٣) ٠ وعلمت الطوائف الدينية - الوعاظ - والبندكت والأوغسطيون - الفلسفة الجديدة فى مدارسها ٠ وأصبحت أسلوبا جديدا لتمجيد العقل فى العلم والشئون الانسانية ، مع اخضاعه بدقة ، فى الدين ، للوحى الالهى كما فسرته الكنيسة الكاثوليكية ٠ وتقبل أنصار جانيسن وكنيسة يورت رويال الديكارتية باعتبارها توفيقا رائعا بين الدين والفلسفة ٠

ولكن ألمع المرتدين فيهم ، بليزبسكال استنكر الديكارتية مدخلا للالحاد ، وقال « لن أغفر لديكارت ، ربما كان مغتبطا ، وفى كل فلسفته ، بالاستغناء عن الله ، ولكنه ما كان فى مقدروه أن يتحاشي السماح له بنقرة بطرف الأصبع ليحرك العالم ، بعد أن كان فى غير حاجة الى الله (٤) » ٠ وفى هذه النقطة اتفق اليسوعيون مع بسكال ، وبعد ١٦٥٠ نبذوا الديكارتية باعتبارها وسيلة ماكرة خبيثة لتقويض أركان العقيدة الدينية ٠ وأرادت السوربون حرمان ديكارت من حماية القانون ، فدافع عنه بوالو ، وحرض نينودى لنلكوس وغيره موليير على هجاء السوربون ، فأذعنت للنقد وتوقفت (٥) ٠ أما العلامة هيوت الذى ناصر الديكارتية لأمد طويل ٠ فانه انقلب عليها لأنها لم تقف من المسيحية موقفا ثابتا ، تناولتها بالمديح تارة وبالتجريح تارة أخرى ٠ وتزايد انزعاج رجال اللاهوت لصعوبة التوفيق بين تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ، وبين وجهة نظر ديكارت فى « المادة » باعتبارها امتدادا خالصا ٠ وفى ١٦٦٥ حرم لويس الرابع عشر تدريس الفلسفة فى الكلية الملكية ، وفى ١٦٧١ امتد هذا الحظر الى جامعة باريس ، وفى ١٦٨٧ اشترك بوسويه فى الهجوم على الديكارتية ٠

وأثارت هذه الاتهامات وتلك الادانة الاهتمـــام بالديكارتية من جديد • وجذبت الأنظار الى مذهب الشـك الذى أدخـــله « بحث فى المنهج » ، وانتشر الشك الأولى الذى جاء به هذا المقال خفية ، أما ملحقاته أو ذيوله القويمة المستقيمة فقد ذبلت وانطفـأت جذوتهـــا • وما كان يبقى فى القرن الثامن عشر شيء من هذا « المنهج » الذى كان يوما ظافرا منتصرا اللهم الا محاولته الهبوط بالعالم الى مجـرد آلة « ماكبنة » تذعن لقوانين الفيزياء والكيمياء • وبدا أن كل اكتشـــاف جديد فى العلوم يؤيد « آلية » ديكارت ، ويضعف الثقـــة فى لاهوت ديكارت • ولم يوجد مكان لرب ابراهيم واسحق ويعقوب فى الصورة التى وضعها ديكارت للكون ، كما أن المسيح لم يكن ماثلا فيها • ولم يبق فيها الا رب عملاق أعطى العالم دفعة أولية ، ثم تقاعس ، اللهم الا بوصفه كفيلا وضامنا لأحداس ديكارت ، وهذا لم يكن الرب المهيب الرهيب الذى ورد ذكره فى العهد القديم، ولا الأب الرحيم الذى ورد ذكره فى العهد الجديد ، انه كان رب «الربوبيين» ، غير مشخص ولا عمل له، جدير بالاهمال ، خاضع لمختلف القوانين ، فمن ذا الذى يفـــكر فى الصلاة من أجل هذا العبث الابيقورى ؟ وبالفعـــل فى عامى ١٦٦٩ و ١٦٧٨ شرحت كتب غليوم لامى الاستاذ بكليـة الطب فى جامعـــة باريس ، علم نفس ميكانيكى تماما ، واســتبقت بذلك كتب كوندياك « فى الأحاسيس » (١٧٠٤) كما شرحت فلسفة مادية اســتبقت كتـــاب لامترى « الانسان الآلة » (١٧٤٨) • وفى غمرة هـــذا العـراك قام سيرانو دى برجراك برحلاته المخزية الى القمر والشمس •

٢ ـ سيرانو دى برجراك : ١٦١٩ ـ ١٦٥٥

سيرانو بالنسبة لمعظمنا هو العاشق الولهـــان الذى قلده الروائى روستان ساخرا ، والذى خسر كل سباق مع ربات الجمـال وهو على وشك الفوز بالوصال • ولكن سيرانو الحقيقى لم يخب رجاؤه الى هذا الحد ، بل تنعم بالحياة وبالحب ، وقضي وقته مستمتعا كل المتعة • والى التعليم المألوف الذى يتلقاه كل فتى كريم المحتد ، أضاف سيرانو (مع موليير) الاستماع فى شغف ولهف الى محاضرات بييرجاسندى القسيس المحبوب الذى أولع بأبيقور المـــادى ولوكريشس الملحـــد • وأصبح سيرانو روحا قوية بشكل خاص ، فاسقا بما تحمل هذه الكلمة

من معنيين ، منكرا حرا يحيا حياة خليعة مطلقة من كل قيد • وانضم فى باريس الى جماعة دأبت على الصخب والعربدة وتدنيس المقدسات، وذاع صيته فى المبارزة • وخدم فى الجيش ، واقعدته جراحة لبعض الوقت عن العمل • ثم انصرف عن الملذات الجنسية الى الفلسفة • وكتب أول رواية فلسفية فرنسية ، وفتح الطريق أمام سويفت بالسخرية من بنى الانسان فى رحلات الى أجزاء من العالم لم تطأها قدم • وسخر من القديسين أوغسطين الوقور « الشخصية العظيمة » الذى يؤكد لنا ، على الرغم من أن الروح القدس أنار جوانب عقله ، أن الأرض كانت على عهد مسطحه مثل التنور ، عائمة على الماء مثل نصف برتقالة (٦) •

وجرب سيرانو قلمه فى كل الوان الأدب تقريبا ، وقلما كان يأخذ أى لون مأخذ الجد ، ولكنه كان عادة يضرب على الوتر الحساس ـ وبدت ملهاته « المتحذلق اللعوب » فى نظر موليير صالحة لأن يسرق منها مشهدا أو مشهدين ، أما مأساته « موت أجربين » فقد مثلث مرة فى ١٦٤٠ ، ثم ما لبثت أن صادرتها السلطات الرسمية وكان عليها أن تنتظر حتى تصل خشبة المسرح ثانية فى ١٦٦٠ ، ولكنهـــا نشرت فى ١٦٥٤ ، وسرعان ما تغنى شباب باريس الطائش المتهور بأبيات الالحاد التى وردت على لسان سيجان :

« ماذا يكون هؤلاء الأرباب اذن ؟ نتاج مخاوفنـــا
وهرائنا التافه ، نعيدها دون أن ندرك لهذا سببا •• ••
أرباب لم يصنعهم انسان ، ولم يصنعوا هم انسانا قط » •

ثم الأبيات تتحدث عن الخلود : « بعد ساعة واحدة من الموت
تعود نفوسنا التى زالت من الوجود ، سيرتها قبل الخروج
الى الحياة بساعة » •

وبعد طبع هذه الرواية سرعان ما سقطت على أم رأسه عارضة أودت بحياته وهو فى سن السادسة والثلاثين ، وترك وراءه مخطوطة طبعت فى جزءين تحت عنوان « التاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات القمر » (١٦٥٧) « والتاريخ الهزلى لدول وامبراطوريات الشمس » (١٦٦٢) ، وكانتا نوعا من القصص العلمى ، المبنى على « كونيات » ديكارت ، مستمدا الكواكب من دواماتها التى كونتها الاهاجة الثورية

فى المادة البدائية . وذهب سيرانو الى أن الكواكب كانت يوما متوهجة مثل الشمس ولكن ،

بمرور الزمن فقدت كثيرا من ضوئها وحرارتها بفعل الانبعاث المستمر لخلاياها التى تحدث مثل هذه الظاهـــرة ، حتى أصبحت باردة معتمة ، ولبابا واهنا تقريبا . اننا نرى حتى البقع الشمسية يكبر حجمها يوما بعد يوما . وما يدرينـــا الآن ان هذه البقع ليست الا قشرة على ســـطح الشمس من كتلتها التى تبرد تبعا لفقدان الضوء ، أن الشمس لن تصبح كره معتمة مثل الأرض (٧) ؟

ودفعته الصواريخ فغادر الأرض حتى وصل بسرعة الى القمر . ولحظ أنه طيلة ثلاثة أرباع المسافة ، كان يحس بأن الأرض تشده الى الوراء ، وفى المربع الأخير أحس بجاذبية القمر . « فقلت فى نفسي ان هذا راجع الى أن كتلة القمر أصغر من كتلة الأرض ، ومن ثم يكون محيط تأثيره أصغر من حيث المسافة (٨) . وعندما هبط وقد أصابه الدوار ، وجد نفسه فى جنة عدن ، ويدخل فى مناقشة مع الباهو (الله) حول الخطيئة الأولى ، فيطرد من الجنة الى القفـاز البدائيـــة فى القمر . وهناك يواجه قبيلة من الحيوان طول الواحد منها تسعة أذرع، فى زى الرجال ، ولكنها تمشي على أربع . ولما كان أحـــدهم الروح الحارسة لسقراط أو شيطانه فى أثينا من قبل ، فانه يتحدث بلغـــــة يونانية فلسفية ، ويقول لسيرانو ان المشي على أربع هـــو الطريقـــة الطبيعية الصحية ، وان هؤلاء السادة القمريين لديهم مائة حاســـة لا خمسا أو ستا فقط ، وأنهم يدركون من الحقائق ما لا يحصي ولا يعد، ممـــا يخفى على بنى البشر (وقد يتلاعب فونتنيل وفولتير وديدرو بهذه الأفكار) . ويجمح خيال سيرانو : ان هؤلاء القمريين - يتغذون على الأبخرة التى تتصاعد من الأطعمة لا على الأطعمة ذاتها ، ومن ثم يتخلصون من متاعب الهضم ومضايقاته ، ومن مهانة خروج الفضلات من الجسم ومفارقاته . وقوانين القمر يســـنها الشبان الذين يجلهـــم ويحترمهم الشيوخ ، وأهل القمر هؤلاء يستنكرون العـــزوبة والتبتل والعفة ، ويمتدحون الانتحار واحراق جثث الموتى والأنوف الكبيرة . ويوضح شيطان سقراط ســـالف الذكـر أن الدنيـــا لم تخـــلق ، بل

أزلية ، وأن الخلق من العدم (تعلم هذا عن الفلاسفة السكولاسيين) أمر لا يمكن تصوره ، وأن أزلية الكون فكرة ليست أصعب تقبلا من أزلية الاله ، والحق أن فرضية وجود الله ليست ضرورية على أية حال، حيث أن العالم آلة تندفع وتستمر بذاتها • ويجادل سيرانو فى أنه لابد أن يكون هناك اله لأنه رأى بعينى رأسه علاجات خارقة معجزة ، فيسخر الشيطان من هذا كله باعتباره ضربا من الايحاء أو التخيل ، ويثأر آثيوبى قوى جبار للعقيدة القويمة ، حيث يمسك بسيرانو باحدى يديه، وبالشيطان باليد الأخرى ، ويلقى بالشيطان فى الجحيم ، وفى الطريق يقذف بسيرانو فى ايطاليا ، حيث تنبح كل الكلاب من حوله حين اشتمت منه رائحة القمر • وكذلك انجذب انتباه جوناتان سويفت •

٣ ـ مالبرانش : ١٦٣٨ ـ ١٧١٥ :

فى مقابل الانتاج الموصوم بالكفر والمروق عند جاسندى وديكارت، وجد الايمان سندا قويا ، لا فى بسكال وبوسيويه وفنيلون فحسب ، بل فى واحد من أدق وأبرع الميتافيزيقيين فى العصور الحديثة كذلك •

كاد نيقولا مالبرانش أن يكون معاصرا للويس الرابع عشر تماما ، فقد ولد قبله بشهر ، ومات بعده بشهر • ولم يكن ثمة شبه بينهما الا هذا • وكان نيقولا وديع النفس طاهر الذيل ، ومذ كان أبوه سكرتير لويس الثالث عشر ، وعمه نائب الملك فى كندا ، فقد اجتمع له كرم المحتد وحسن التنشئة ، اللهم الا صحته ، فقد كان جسمه ضعيفا مشوها• وليس ثمة ما يفسر أنه عمر حتى السابعة والسبعين الا التزامه بساطة العيش وهدوء الحياة فى الدير • وفى الثانية والعشرين من عمره انضم الى « جماعة المصلى » وهى طائفة دينية تفرغت للتأمل والوعظ ، ورسم قسيسا فى السادسة والعشرين •

وفى العام نفسه وقع على كتاب ديكارت « رسالة عن الانسان » ، وابتهج بطريقة المناقشة والاسلوب معا ، وأصبح ديكارتيا ذا ايمان راسخ بالعقل • وعقد العزم لفوره على أن يبرهن بالعقل على المذهب الكاثوليكى الذى نبتت فيه جذور حياته ووضع فيه كل آماله ، وكانت هذه خطوة جريئة ، ارتدادا من بسكال الى توما الأكوينى • وهى خطوة كشفت عن الثقة العميقة فى الشباب ، ولكنها عرضت حصون

الايمان لغارات العقل • وبعد عشر سنوات من الدرس والكتابة أصدر مالبرانش فى أربعة مجلدات (١٦٧٤) تحفة من روائع الفلسفة الفرنسية تحت عنوان « البحث عن الحقيقة » • وهنا ، كما هو الحال فى كل فلاسفة فرنسا ، كان وضوح الالتزام الخلقى وادراكه أمرا مقبولا ، وأصبحت الفلسفة أدبا •

ولم يكن ديكارت قد بدأ دراساته المضنية عن النفس فحسب ، بل كان قد وضع مثل هذه الهوة بين الجسم ماديا وميكانيكيا وبين العقل روحيا وحرا ، بحيث لا يمكن تصور أى تفاعل بينهما • ومع ذلك بدا هذا التفاعل أمرا لا نزاع فيه : ان فكرة قد تحرك ذراعا أو جيشا ، مخدرا قد يشوش الذهن • وكان نصف حيرة خلفاء ديكارت فى عبور الهوة بين الجسم والفكر •

ان فيلسوفا فلمنكيا هو أرنولد جيلنكس مهد الطريق أمام مالبرانش - وسبينوزا وليبنتز - بانكاره التفاعل • ان الجسم المادى لا يؤثر فى العقل غير المادى ، والعكس بالعكس ، واذا بدا أن أحدهما يؤثر فى الآخر ، فما ذاك الا لأن الله قد خلق الحقيقة فى مجريين متميزين للأحداث ، أحدهما مادى والآخر عقلى ، وتزامنهما أشبه بتزامن ساعتى حائط على نفس الوقت والسرعة ، تدقان نفس الساعات فى وقت واحد ، ولكنهما الواحدة منهما مستقلة عن الأخرى ، اللهم الا أن كلتيهما من مصدر واحد - الذكاء الذى وضعهما وبدأهما • ومن‌ثم يكون الله هو المصدر الوحيد لكل من سلسلتى الاسباب والنتائج المادية والعقلية • والحالة العقلية هى الفرصة المناسبة ، لا السبب ، للحركة المادية الناشئة ظاهريا ، والحركة المادية - عملا أو احساسا - هى مجرد فرصة للحالة العقلية التى تبدو أنها تسببها ، والله ، فى كل حالة ، هو وحده العلة أو السبب × • وعند هذه النقطة نقض جلينكس ، الذى

× ان التنقيح الذى أدخله سبينوزا على « نظرية التوازى فى علم النفس البدنى » قد يساعدنا على فهم جيلنكس • ان الله أو الطبيعة تعمل فى ناحيتين أو مجريين متزامنين : التعاقبات المادية للعالم الموضوعى ، بما فى ذلك أجسامنا ، والتعاقبات العقلية للعالم الذاتى ، بما فى ذلك مشاعرنا وأفكارنا ورغباتنا • ولا يسبب أحد هذين المجريين المجرى الآخر ، لأن كليهما مجرد جانبين - الخارجى والداخلى - لعملية واحدة - مجرى واحد مزدوج للأحداث •

كأنه يخشى الجبرية ، منهجه ، حيث أجاز القول بأنه فى الأعمال الارادية يمكن أن تكون الارادة الانسانية المتعاونة مع الله ، سببا حقيقيا للنتائج المادية ٠

وأكمل مالبرانش من مذهب « الاتفاقية » المتردد هذا ٠ فالله دائما هو سبب كل من العمل المادى والحالة العقلية ، وتفاعلهما صورى، ولا يتفاعل أى منهما مع الآخر× ٠ « ان الله وحده يرد الهواء الذى جعلنى هو أتنفسه ٠٠٠ لست أنا الذى أتنفس ، اننى أتنفس على الرغم منى ٠ لست أنا أتحدث اليك ، وكل ما هنالك أنى أرغب فى التحدث اليك (٩) » ٠ ان الله (الطاقة الكلية للكون) هو القوة الوحيدة ٠ وكل ما يتحرك و يفكر ، انما يفعل هذا لأن القوة الالهية تعمل من خلال العمليات المادية (البدنية) أو العقلية ٠ والحركة هى الله يعمل فى أشكال مادية ، والتفكير هو الله يفكر فى داخلنا ٠

ان هذه الفلسفة الجبرية بشكل واضح تكتنفها صعاب لا تحصي حاول مالبرانش أن يتغلب عليها فى رسائل لاحقة ٠ وحاول جاهدا التنسيق بين درجة من الارادة الحرة فى الانسان وبين قوة الله الشاملة للكون ، والتوفيق بين الشر والشقاء والنزعات الشيطانية المتعددة ، وبين السببية أو العلية الوحيدة الموجودة فى كل الوجود لنزعة خيرة عليمة قديرة ، ولن نتعقبه فى هذه المتاهات ، ولكنه فى أثناء جولاته وصولاته يترك لنا قبسا معينا فى علم النفس ٠ فهو يرى أن الأحاسيس فى الجسم لا فى العقل ٠ وفى العقل أفكار ، وهو يعرف الأشياء باعتبارها فقط طوائف من الأفكار ـ من التركيب ، والحجم واللون والرائحة والصلابة والصوت والحرارة والطعم ٠ ومركبات الأفكار هذه ليست مكونة من الشيء لا غير ، فان معظم الصفات المذكورة هنا ليست فى الشيء نفسه ، وكثير من أحكامنا على الشيء ـ أنه كبير أو صغير ، منير أو مظلم ثقيل أو خفيف ، حار أو بارد ، يتحرك بسرعة أو ببطء ـ تصف موقع المشاهد وحالته ووضعه ، لا صفات الشيء الذى يشاهده ٠ ونحن لا نعرف الأشياء ٠ وكل ما نعرفه هو مدركاتنا وأفكارنا المتحيزة المتحولة ٠ (وكل هذا قبل لوك باركلى بجيل واحد) ٠

× قارن هذا العرض اللاهوتى بنظرية القضاء والقدر التى تقول بأن كل حركة فى المادة وكل حالة عقلية ، تسببها القبلية (الماضي) الكلية ، وأن العوامل المادية والنفس والارادة الحرة ، كلها أدوات القوة الكلية أو الطاقة الكونية التى تعمل عن طريق المادة والعقل ٠

وعلى الرغم من الخلفية الروحانية عند مالبرانش فانه ، بعد ديكارت وهوبز ، يمدنا بتفسير فسيولوجى للعادة والذاكرة وتوارد الخواطر فالمادة هى خفة أو رشاقة تفيض بها الأرواح الحيوانية ، نتيجة للخبرات أو الأفعال المتشابهة التى غالبا ما تتكرر ، الى أخاديد أو قنوات معينة فى الجسم • والذاكرة هى استعادة نشاط الخواطر التى نشأت فى الخبرة ، فان الخواطر تميل الى الترابط تبعا لتسلسلها أو أو امتدادها المتصل السابق ، وقوة الشخصية وقوة الارادة هما قوة الروح الحيوانية التى تتدفق فى أنسجة المخ ، فتعمل على تعميق مجارى الترابط ، وزيادة نشاط الخيال والتصور •

وعلى الرغم من تمسك مالبرانش بأهداب التقوى فقد كان فى فلسفته عناصر كثيرة أزعجت بنين بوسويه الحارس اليقظ الأمين على العقيدة التقليدية القويمة • وفى حركة بارعة لتحويل انطوان أرنولد ذى القلم اللاذع عن المنطق الجانسينى الى نجدة العقيدة القويمة ، نجد بوسيويه يحرض أرنولد هذا على تأنيب مالبرانش لهرطقته المستترة • ودافع الفيلسوف عن نفسه فى عدة رسائل فصيحة لا تصدق مثل الرسالة الأولى ، واستمر الجدال من ١٦٨٣ – ١٦٩٧ ، وجلب بوسويه مدفعية فنيلون الخفيفة الى ساحة المعمعة • ولما رأت مدام سفينى Sevigne الفيران تلتهم محصولاتها ، ويرقات الفراشات تلتهم أشجارها ، شكت من أنها لم تجد الا قليلا من العزاء فى وجهة نظر مالبرانش من أن البشر عنصر ضرورى فى أحسن ما يمكن من العوالم (١٠) •

وكان لمالبرانش أصدقاء غيورون كثيرين يمكن أن يتوازنوا مع هؤلاء النقاد ، فقد وجد الشباب وعجائز النساء فى نظريته عن الله عاملا وحيدا فى كل الأفعال ، سرورا باطنيا فى الاستسلام لأمر الله والاتحاد مع الله • وشق الفرنسيون والأجانب طريقهم الى صومعته • وقال أحد الانجليز انه ما قدم الى فرنسا الا ليرى اثنين طبقت شهرتهما الأفاق : لويس الرابع عشر ومالبرانش (١١) •

وجاء باركلى ، وقدم لفيلسوفنا كل اجلال واحترام ودخل مع الكاهن العجوز فى نقاش طويل • وسرعان ما دب الضعف الى مالبرانش بعد ذلك ، وكان فى السابعة والسبعين ، وأخذ فى الذبول والنحول

يوما بعد يوم ، حتى لم يكد عقله يجد فى جسمه مجالا أو حيزا لتفكيره . وفى ١٣ أكتوبر ١٧١٥ فاضت روحه وهو نائم .

وخبت جذوة شهرته وشيكا بعد موته ، لأن فلسفته الدينية لم تنسجم مع تشكك وصاية العرش وعربدتها ، كما أنها كانت أقل انسجاما مع النزعة الناشئة عند الفلاسفة لاحلال « ماكينة » العالم محل العناية الالهية . ولكن تأثيره ظهر فى محاولة ليبنتز لاظهار أن الواقع هو أفضل عالم ممكن ، من وجهة نظر باركلى ان الاشياء موجودة فقط فى أدراكنا الحسي أو فى ادراك الله ، وفى تحليل هيوم المدمر للسبب أو العلة باعتبارها صفة خفية مستترة ، وفى توكيد كانت على العناصر الذاتية فى تكوين المعرفة ، حتى فى نظرية الجبرية فى عصر الاستنارة . فان القول بأن الله هو السبب الوحيد فى كل الحركات والرغبات والأفكار ، لا يختلف كثيرا عن القول بأن كل تغيير فى المادة أو فى العقل نتيجة لا مناص منها للقوى الكلية التى تعمل فى الكون فى تلك اللحظة . وفى ساعة نشوة كان مالبراتش قد اقترب - ولو أنه أنكر ذلك - من جبرية جعلت من الانسان آلة ذاتية الحركة (انسانا أوتوماتيكيا) .

ان مذهب الاتفاقية كان ، فوق كل شيء حلا وسطا بين ديكارت وسبينوزا . رأى ديكارت الآلية أو الميكانيكية فى المادة . ولكن الحرية فى العقل . ورأى مالبرانش أن الله هو السبب الوحيد فى كل عمل فى كل عقل . واتفق سبينوزا ، وهو ثمل بنشوة الوجد الالهى « مثل أى راهب ، مع مالبرانش فى أن سلسلتى الاعمال العقلية والمادية كلتيهما هما نتاج متواز لقوة خلاقة واحدة . ان العابد المتأمل الورع مذ رأى الله موجودا فى كل الوجود ، كان قد لقن ، عن غير عمد منه ، حتى المؤمنين ، « وحدة وجود » (الله والطبيعة شيء واحد ، الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) ، لم ينقصها الا عبارة « الله أو الطبيعة » لتصبح فلسفة سبينوزا أو فلسفة عصر الاستنارة .

٤ - بيير بيل : ١٦٤٧ - ١٧٠٦ :

كان « أبو الاستنارة » ابن قسيس من الهيجونوت يعمل فى مدينة كارلا فى مقاطعة فوا فى سفح البرانس ، حيث قضي بيير هناك الاثنين والعشرين عاما الأولى من عمره ، يتعلم اليونانية واللاتينية والكلفنية .

وكان شابا رقيق الشعور سريع التأثر • وفى ١٦٦٩ أرسل الى الكلية اليسوعية فى تولوز ليتلقى أحسن تعليم كلاسيكى يمكن أن توفره له أسرته ومواردها ، فأحب أساتذته حبا جما ، وسرعان ما تحول الى الكثلكة فى حماسة بلغت به الى درجة محاولته تحويل أبيه وأخيه اليها• فاحتملاه فى صبر وجلد ، وبعد ذلك بسبعة عشر شهرا عاد الى مذهب أبيه • ولكنه بات الآن هرطيقا مرتدا • فكان عرضة لملاحقة الكنيسة الكاثوليكية له • فأرسله أبوه حماية له منها ، الى الجامعة الكلفنية فى جنيف (١٦٧٠) ، أملا فى أن يلتحق ببيير بخدمة الكنيسة البروتستانتية وهناك على أية حال وقع بيل على مؤلفات ديكارت ، وبدأ يتسرب الى نفسه الشك فى كل أشكال المسيحية •

وبعد استكمال دراسته أقام فى جنيف وروان وباريس مشتغلا بالتدريس ، ثم ارتقى الى استاذ للفلسفة فى معهد الهيجونوت فى سيدان (١٦٧٥) • ولكن المعهد أغلق فى ١٦٨١ بأمر من لويس الرابع عشر كجزء من حرب الاستنزاف ضد مرسوم نانت ، ووجد بيير له ملجأ فى روتردام ، والتحق بوظيفة استاذ للتاريخ والفلسفة فى « المدرسة الكبيرة » ، أكاديمية البلدية • وكان من أوائل المفكرين المهاجرين الكثيرين الذين اتخذوا من الجمهورية الهولندية فى ذاك الزمان قلعة للفكر المستقل •

وكان راتبه ضئيلا ، ولكنه قنع بالعيش البسيط ما دام فى مقدوره الحصول على الكتب • ولم يتزوج قط ، مؤثرا المكتبة على الزوجة • ولم يكن غير مدرك لمفاتن النساء وأفضالهن ، وربما شكر لأية سيدة فاضلة كريم عنايتها به ، ولكنه عانى طوال حياته من الصداع ، ومن « دوار نصفى » أو انقباض فى الصدر واكتئاب يلازمه ، ولا ريب فى أنه تردد فى اشراك قرينة له فيما يعانيه من علل وأمراض • ومهما يكن من أمر فقد كانت تمر به لحظات ينزع فيها الى السخرية ، ذلك أنه عندما حاول الأب ميمبورج اليسوعي الفرنسي فى كتابه « تاريخ الكلفنية » أن يبرهن على أن القساوسة الكاثوليك كانوا قد قبلوا التحول الى البروتستنتية رغبة فى الزواج ، تساءل بيل : فيف يمكن أن يكون هذا ، « فأية محنة أكبر من الزواج ؟ (١٢) » •

وعرض بيل كتاب ميمبورج فى مجلد من الرسائل ظهر فى

١٦٨٢ . وعجب كيف يتسنى لرجل التزم التزاما قويا بمذهب معين ، أن يكتب تاريخا صادقا نزيها غير متحيز . كيـــف يمكن أن يوثق فى مؤرخ مثل ميمبورج نعت معاملة لويس الرابع عشر للهيجونوت (قبل ١٦٨٢) بأنها معاملة « عادلة رقيقة كريمة ؟ » ووجه الخطـــاب الى لويس الرابع عشر ، فكتب من هولنده التى كانت فرنسا قد اجتاحتها حديثا بشكل وحشي أثيم ، متسائلا : أى حق للملك فى فرض مذهبـــه الدينى على رعاياه ؟ واذا كان له هذا الحق ، لكان للأباطرة الرومان ما يبرر اضطهادهم المسيحية . وذهب بيل الى أن الضمير هو وحده الذى يحكم عقيدة المرء . ورد ميمبورج على ذلك ردا حاسما بالحصول على أمر من لويس الرابع عشر باحراق أية نسخة توجد فى فرنسا من كتاب بيل علنا بواسطة السلطات المختصة .

وفى العام نفسه ، ١٦٨٢ ، أصدر بيل أول أعماله الهامة « آراء شتى حول المذنب » وهو النجم المذنب الذى كان قد عبر السـماء فى ديسمبر ١٦٨٠ . وتولى الفزع أوربا بأسرها لهذا النجم الذى بدا أن النار فى ذنبه تنذر باحراق العالم . اننا اذا رجعنا الى الوراء لنشارك ذاك العصر خوفه وجزعه — حين فسر الكاثوليك والبروتستانت عـلى السواء هذه الظاهرة بأنها نذر الهية ، واعتقدوا أن الله سيرسل صاعقة من السماء على الأرض الخاطئة الآثمة فى أية لحظة ، فاننا عندئذ فقط نستطيع أن ندرك مدى الرعب الذى انتاب الناس عند ظهور هذا اللهب على غير انتظار ، أو أن نقدر مدى الشجاعة والحكمة فى تعليقات بيل عليه . ان العلامة ملتون نفسه كان قد قال حديثا « ان النجـم المذنب ينشر من شعره المروع الطاعون والحرب » (١٣) . ان بيل أسس بحثه على الدراسات الحديثة التى أجراها الفلكيون (ولكن لم يكن نجم هالى ١٦٨٢ قد ظهر بعد) ، ومن ثم أكد لقرائه أن النجوم المذنبة تتحرك فى السموات طبقا لقوانين ثابتة وليس لها أية علاقة بشـــقاء البشر أو سعادتهم . ورثى لانتشار الخرافات والحاحها على عقول الناس . « ان الذى يقفو زلات العباد ملتمسا أسبابها لن ينتهى من ذلك أبدا (١٤) » . ونبذ الايمان بكل المعجزات الا ما ورد منهـــا فى العهـــد الجـــديد « الانجيل » ، (ولولا هذا الاستثناء ، لما سمح بطبـــع الكتـــاب فى هولنده) . « فى الفلسفة الصحيحة ، ليست الطبيعة الا الله نفسه ،

يعمل وفق قوانين معينة استنها سبحانه وتعالى بمحض ارادته · ومن ثم فان أعمال الطبيعة هى من آثار قدرة الله المقدسة مثل المعجزات سواء بسواء ، كما أن هذه الأعمال تدل على وجود قدرة عظمى مثل تلك التى تدل عليها المعجزات · وأن خلق انسان وفق قوانين التناسل الطبيعية ، لا يقل صعوبة عن قيامة انسان من بين الأموات (معجزة المسيح) (١٥)·

وانتقل بيل فى جرأة الى واحدة من أكثر مسائل التاريخ تعقيدا : هل يمكن أن يكون هناك علم أخلاق طبيعى ـ هل يمكن الاحتفاظ بقانون أخلاقى دون عون من معتقد خارق للطبيعة ؟ هل أدى الالحاد الى أفساد الأخلاق ؟ يقول بيل : اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نستنتج من الجريمة والفساد وسوء الخلق السائد فى أوربا أن معظم المسيحيون ملحدون فى قرارة أنفسهم · ان اليهود والمسلمين والمسيحين والكفار يختلفون فى عقائدهم الدينية ، لا فى أفعالهم وتصرفاتهم · وظاهر أن المعتقد الدينى ـ والأفكار بصفة عامة ـ ليس لها الا تأثير ضئيل على السلوك ، فهذا السلوك ينبع من الرغبات والانفعالات ، وهى عادة أقوى من المعتقدات · وأى تأثير كان لتعاليم المسيح على مفهوم الأوربيين للشجاعة والشرف ؟ ـ ذلك المفهوم الذى اختص بأعظم المديح والثناء الانسان الذى يثأر فى عنف وقوة للاساءة والأذى ، والذى يبرع فى فنون الحرب باختراع ما لا يحصي من الآلات حتى يكون الحصار أشد فتكا وارهابا وازعاجا · ان الكفار يتعلمون منا استخدام أسلحة أقوى (١٦) · وخلص بيل من هذا الى أن مجتمعا من الملحدين قد لا يكون أسوأ خلقا من مجتمع من المسيحيين · ليس الذى يحمل معظمنا على التزام جادة الصواب والنظام هو الخشية من الجحيم ، وهذا أمر بعيد غير يقينى ، قدر خوفنا من رجل الشرطة ومن القانون ، ومن ادانة المجتمع لنا · ومن العار الذى يلحق بنا ، ومن الجلاد ، خل بيننا وبين هذه العوائق تعم الفوضي فاذا تمسكت بها لأمكن انه يقوم مجتمع من الملحدين والحق أنه قد يضم رجالا كثيرين على درجة رفيعة من الشرف ونساء كثيرات طاهرات عفيفات (١٧) · وانا لنسمع عن نماذج من هؤلاء الملحدين فى الأزمنة القديمة ، مثل أبيقور وبلينى الأكبر وبلينى الأصغر ، وفى العصور الحديثة مثل ميشيل دى لوبيتال وسبينوزا ، (أما انحطاط أخلاق الفرد العادي عما هى عليه اذا لم تكمل الديانة القانون ، فتلك مسألة لم يتعرض لها بيل) ·

ونشر موضوع « النجم المذنب » غفلا من اسم المؤلف . واتخذ بيل نفس الحيطة حين افتتح واحدة من أكبر الدوريات فى ذلك العصر : « أنباء جمهورية الأدب » . وظهر العدد الأول منها فى مائة وأربع صفحات ، فى امستردام فى مارس ١٦٨٤ وعرضت المجلة أن تزود قراءها بكل التطورات الهامة فى الأدب والعلوم والفلسفة والبحوث والكشوف والتاريخ الرسمى . ومبلغ علمنا أن بيل نفسه كتب محتويات المجلة شهرا بعد شهر لمدة ثلاثة أعوام . وقد ندرك مبلغ الجهد الذى استلزمه هذا العمل . وسرعان ما أصبح استعراضه للكتب ذخيرة قوية فى دنيا الأدب . وفى ١٦٨٥ جمع أطراف شجاعته وأعلن أنه المؤلف . وبعد ذلك بعامين تدهورت صحته فترك تحرير المجلة لآخرين غيره .

وفى تلك الأثناء وقع أربعة من أسرة بيل فريسة اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا . وكنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعنف اضطهاد القوات الفرنسية للبروتستانت ، ماتت أمه فى ١٦٨١ ، ومات أبوه فى ١٦٨٥ ، وفى نفس العام سجن أخوه ثم قضي نحبه نتيجة للتعذيب والقسوة . وبعد ذلك بستة أيام ألغى مرسوم نانت . وصعق بيل لهذه التطورات ، ولم يكن له ، مثل فولتير ، من سلاح غير قلمه ، وفى ١٦٨٦ تحدى الطغاة المستبدين باحدى الروائع فى أدب التسامح الدينى .

وكان عنوان هذه الرسالة « تعليق فلسفى على كلمات يسوع المسيح » : اخرج الى الطرق والسياجات والزمهم بالدخول . (لوقا ١٤ ـ ٢٣) .

وكان هؤلاء الطغاة الوحشيون قد التمسوا سندا لاجراءاتهم التعسفية فى القصة التى رواها المسيح عن الرجل الذى قال لعهده ، حين لم تلب ضيوفه دعوته الى عشاء عظيم أعده لهم « اخرج عاجلا الى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل الى هنا المساكين والجدع . والعرج والعمى .. .. والزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتى (١٨) » (انجيل لوقا ـ ١٤ : ١٦ ـ ٢٣) . ولم يجد بيل مشقة فى ايضاح أن هذا الكلام ليس له علاقة بارغام الناس على اتباع دين أو مذهب واحد ، بل العكس ، وجدنا أن محاولة فرض معتقد دينى موحد قد خضب نصف أوربا بالدماء ، وان تباين المذاهب الدينية فى الدولة حال دون

وصول أحدها الى درجة من القوة تمكنه من الاضطهاد . وفضلا عن هذا : من منا يثق بأنه على حق الى حد يستند اليه فى ايذاء من يخالفونه ؟ واستنكر بيل اضطهاد البروتستانت للكاثوليك ، والمسيحيين لغير المسيحيين ، والعكس بالعكس سواء بسواء . وعلى النقيض من لوك ، اقترح بيل أن تمتد حرية العبادة أواللا عبادة الى اليهود والمسلمين والمفكرين الاحرار ونسي ما ذهب اليه من قبل من أن الملحدين يحتمل أن يكونوا مواطنين صالحين مثل المسيحيين ، فنصح بعدم التسامح مع الطوائف التى لا تؤمن بالعناية الالهية وبوجود اله يحاسب ويعاقب ، فان هؤلاء لا تطهر من نفوسهم خشية الله ومن ثم قد يجعلون من الصعب تطبيق القانون (١٩) . أما بالنسبة للآخرين فلا يجوز التسامح مع المتعصبين منهم . فهل يجوز لدولة بروتستانتية أن تتسامح فى أن تقوم فيها كاثوليكية دافعت عن التعصب على اعتبار أن الكثلكة وحدها هى العقيدة الحقة الصحيحة ؟ . ورأى بيل أن الكاثوليك فى مثل هذه الحالات - « يجب أن يسلبوا سلطة الحاق الأذى والضرر بغيرهم ... ومع ذلك فأنا لا أقر تعرضهم للاساءة والاهانة ، أو الانتقاص من تمتعهم بحق الملكية ، أو حق ممارستهم لديانتهم ، ولا أقر حرمانهم من اللجوء الى القانون (٢٠) .

ولم يكن البروتستانت أكثر ارتياحا من الكاثوليك لبرنامج التسامح هذا ، من ذلك أن بيير جوريو - الذى كان صديق بيل وزميله فى العمل فى سيدان ، وكان الآن راعيا لأبرشية كلفنية فى روتردام - هاجمه فى بحث بعنوان : « حقوق السيدين فى أمور الدين - الضمير والامير - . (١٦٨٧) وذهب جوريو الى هدم نظرية عدم الاهتمام بالأديان ، وفكرة التسامح العام والشامل ، معارضا كتابا بعنوان « تعليقات فلسفية » . واتفق مع البابوات فى أن للحكام أو الملوك الحق فى القضاء على أية عقيدة زائفة ، وقد روعه بخاصة التسامح مع اليهود والمسلمين والسوسينيين والوثنيين . وفى ١٦٩١ أهاب جوريو بعمد مدينة روتردام أن يفصلوا بيل من عمله ، فرفضوا . ولكن فى ١٦٩٣ جاءت الانتخابات بهيئة حكام جديدة ، وجدد جوريو حملته متهما بيل بالالحاد ، فطرد من وظيفته ، فقال الفيلسوف « اللهم أنقذنا من محكمة التفتيش البروتستانتية ، فلن تنقضي خمس أو ست سنوات حتى تشتد

وطأتها الى درجة يتطلع الناس معها الى عـــودة محـــاكم التفتيش الكاثوليكية (٢١) .

وسرعان ما استرد بيل هدوء نفسه وعاد الى طبيعته ، فتكيف مع الظروف ، وكان له كل العزاء والسلوى فى انه استطاع أن يخصص كل ساعات عمله لانجاز « قاموس » العصر الذى كان قد شرع فى تاليفه فعلا . وراض نفسه على العيش على مدخراته ، وعلى بعض مكافآت شرفية من ناشرى كتبه . وتلقى عروضا بالرعاية من سفير فرنســا فى هولنده ومن ثلاثة من نبلاء الانجليز يحملون لقب ارل ، ولكنه رفض فى لطف وكياسة ، بل انه رفض مائتى جنيه عرضها عليه ارل شروزبرى نظير اهداء القاموس اليه . وكان له أصدقاء ، ولكنه لم يكن له من وسائل اللهو والتسلية الا القليل . « لم أهتم بالملاهى العامة أو الألعاب أو الرجلات الريفية ... أو غيرها من سباب التزفيه والمتعـــة . ولم أضيع وقتى فيها ولا فى المهام المنزلية ، ولم أطمع قط فى منصب ... انى أجد كل الحلاوة والراحة فى الدراسات التى شغلت نفسي بها ، وهى كل متعتى وبهجتى انى ساغنى لنفسي وللموزيات (ربات الشعر والفنون والعلوم (٢٢) » .

وهكذا قبع هادئا فى حجرته يعمل أربع عشرة ساعة فى اليوم ، يضيف صحيفة الى صحيفة فى المجلدات الغريبة التى أصبحت منبـــع « الاستنارة » . وظهر المجلدان الضـــخمان فى ٢٦٠٠ صـــحيفة فى روتردام فى ١٦٩٧ تحت اسم « قاموس تاريخى نقدى » ، ولم يكن معجم مفردات ، بل دراسة نقدية للأشـــخاص والأماكن والآراء ، فى التاريخ والجغرافيا وعلم الاساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة وصاح وهو يدفع بالتجارب النهائية الى المطبعة « سبق السيف العذل » وكان هذا العمل مقامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية . لأنه احتـــوى على هرطقات أكثر مما ضم أى كتاب آخر فى هذا القرن ، وربما أكثر من حفيده ، « موسوعة » ديدرو ودالمبرت (١٧٥١) .

وكان بيل قد بدأ وأمامه هدف محدود هو تصحيح الأخطاء وسد النقص فى « القاموس التاريخى الكبير » الذى كان موريرى قد أصدره فى ١٦٧٤ من وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية ، ولكن الهدف اتسع

مع تقدم العمل . ولم يزعم قط أنه كتب دائرة معارف ، فلم يتعرض لشيء ليس لديه ما يقول عنه . ومن ثم يتضمن « القاموس » أية مقالات عن شيشرون ، بيكون ، مونتانى ، جاليليو هورراس ، نيرون ، توماس مور ، وأغفل العلم والفن الى حد كبير ، ومن ناحية أخرى كانت هناك مقالات عن الافذاذ غير البارزين مثل أكيبا ، وأوربيل اكوستا ، وايزاك أبرابانل . ولم تخصص المساحات الكبيرة طبقا للأهمية التاريخية ، بل تبعا لرغبة و هوى بيل نفسه ، وعلى هـذا فان ارزم الذى خصص له موربرى صحيفة واحدة ، أفرد له بيل خمس عشرة صحيفة ، كما أفرد لأبيلارد ثمان عشرة . وكان الترتيب أبجديا ، ولكنـه أشـبه بترتيب التلمود ، وكانت الحقائق الأساسية مثبتة فى النص ، ولكن فى كثير من الأحيان أضاف بيل حاشية فى حروف صغيرة ، أطلق فيها لنفسه العنان للدخول « فى متاهة من البراهين والمناقشات .. بل فى بعض الأحيان مجموعة كبيرة من تأملات فلسفية » . وفى وسط هذه الحروف الصغيرة الدقيقة ستر بيل هرطقاته عن النظرة العامة . وأثبت مراجعه فى الهوامش ، وهذه فى جملتها تنبىء عن سعة اطلاع ودرس ينـدر أن تتسع لهما حياة فرد . وتضمنت بعض الحواشي التى كتبها بيل بعض النوادر المكشوفة البعيدة عن الاحتشام ، أملا فى أن يزيد هذا من مبيعات الكتاب . ولكن لا ريب فى أنه وجد فيها هى نفسها متعة لشخصه وهو وحيد عاكف على الدرس والبحث . وأولع القراء مقدرين شـاكرين ، بأسلوبه اللاذع الأنيق المتجول بين أبواب المعرفة ، وعرضه الماكر لنقاط الضعف فى المذاهب الدينية السائدة ، واعترافاته الصريحة الجريئـة بالعقيدة الكلفنية الصحيحة . وبيعت الطبعة الأصـلية وعـددها ألف نسخة عن آخرها فى أربعة أشهر .

وكانت طريقة بيل هى أن يوازن بين المراجع ، ويتتبع الحقائق ويشرح الآراء المعارضة والمتناقضة ، وكان يتمشي مع العقل الى آخـر الشوط حتى اذا لم تلتئم النتائج التى يتوصل اليها مع العقيدة الصحيحة أو أساءت اليها نبذ النتائج فى تقى وورع . انحيازا الى جانب الأسفار المقدسة والايمان . وتساءل جوريو غاضبا « اذا عرضت عبارة أو لفظة تؤيد الايمان ضد العقل . فهل لها أن تحمل الناس على التخـلى عن الاعتراضات التى قال بيل بأنه لا سبيل الى دحضها (٢٣) » . وفيمـا

عدا هذا فان ترتيب القاموس هزيل • وتندرج بعض أبحـــاثه الكبرى تحت موضوعات تافهة او عنوانات مضللة • « انا لا أستطيع أن أطيل التأمل فى موضوع واحد بانتظام شديد ، فانا مولع اشد الولع بالتغيير ، وغالبا ما أتحول عن الموضوع ، واقفز الى مواضع قد يكون من الصعب تلمس الخروج منها (٢٤) • وكانت المناقشة عادة مهذبة متواضـــعة بعيدة عن التزمت وديه ، ومهما يكن من أمر ، فان بيل كان من حين لآخر ، لاذعا حاد اللسان ، ومن ذلك أن مقاله عن القديس أوغسطين لم يغفر للكلفنى العظيم طول انصرافه عن العفة ولاهوته الكئيب وتعصبه الدينى • وأعلن بيل ارتضاءه الكتاب المقدس على أنه كلمة الله ، ولكنه اشار فى خبث الى أنه يجدر بنا ألا نؤمن اطلاقـــا ببعض قصص المعجزات الا اذا صدرت عن شخصية ممتازة • ووضع بعض الأساطير الوثنية ــ ابتلاع الحوت لهركيوليز مثلا ــ جنبا الى جنب مع القصص المماثلة فى الكتاب المقدس ، ثم ترك القارىء فى حيرة : لماذا نرفض قصة ونقبل أخرى • وفى واحدة من أشهر مقالاته أنكر مذابح الملك داود وخياناته واغتصابه للنساء • وترك القارىء يعجب ويتساءل : لماذا يمجد المسيحيون مثل هذا الوغد المتوج بأنه من أجداد المسيح •

ووجد بيل أنه من الأيسر عليه أن يبتلع يونس والحوت معا (أن يصدق القصة) عن أن يقبل سقوط آدم وحواء • كيف يتسنى لرب قدير أن يخلقهما وهو يعلم سلفا أنهمـــا ســـيلطخان الجنس البشرى كله بخطيئتهما الأولى ويلحقـــان به من البؤس والشـــقاء ما لا يحصي ولا يقدر :

> اذا كان الانسان مخلوقا من أصل طيب غاية الطيبة ، بالغ القداسة ، قديرا غاية القدرة ، فهل يمكن أن يتعرض للأمراض ، للحر والبرد ، للجوع والعطش ، للألم والحزن ؟ وهل يمكن أن يكون لديه مثل هذه النزعات السيئة الكثيرة ؟ وهل للقداسة الكاملة أن تنتج مخلوقا مجرما ؟ وهل لهذا الخير التام أن ينجب مخلوقا تعسا ؟ هـلا يتسنى لهـــذه القدرة ؟ مع الخير الذى لا حدود له ، أن تزود خلقها بأفضل الأشياء فى وفرة وسخاء وتباعد بينه وبين كل عـدوان أو ازعاج واساءة (٢٥) ؟ •

ان اله سفر التكوين اما أن يكون قاسيا أو ذا قدرة محـــدودة • وعلى هذا شرح بيل فى كثير من التعاطف والقوة مفهـــوم المانوية من الهين ، للخير والشر (النور والظلام) يتصارعان للسيطرة على العالم وعلى الناس • وبما أن « البابويين والبروتستانت متفقون على أن قلة ضئيلة من الناس هى التى تنجو من العقاب السرمدى « فقد يبدو أن الشيطان سيكسب المعركة ضد المسيح ، وفوق ذلك ، فان انتصاراته أبدية لأن رجال اللاهوت يؤكدون لنا أنه لا منجاة من النـــار • وحيث أنه هناك ، أو سيكون هناك ، فى الجحيم عدد من الأنفس أكبر مما هو فى الجنة ، « فان الذين فى الجحيـــم سيلعنون دوما اسـم الرب ، فان المخلوقات التى تكره الرب ستكون أكثر ممن يحبونه » • وانتهى بيل ، فى خبث ، الى القول « ينبغى ألا نركن الى المانوية حتى نقر أولا مبدأ الرفع من شأن الايمان والعقيدة والانتقاص من قدر العقل (٢٦) •

وعبرت مقالة بيل عن « بيرهو » عن الشـــكوك فى التثليث ، « لأن الشيئين اللذين لا يختلفان عن ثالث ، لا يفترق الواحد منهما عن الآخـر (٢٧) • أما بالنســبة لتحول الخبز والنبيذ ـ لا يمـــكن أن ودمه ، فان أحوال المادة ـ ومن ثم ظهور الخبز والنبيذ ـ لا يمكن أن توجد بدون المادة التى تعدل منها (٢٨) • وبالنسبة لتراث كل الناس فى خطيئة آدم وحواء ، يقول بيل : « ما دام المخلوق غير موجـــود فلا يمكن أن يكون شريكا فى عمل خاطىء (٢٩) • ولكنه وضع كل هذه الشكوك على ألسنة آخرين غيره ، ثم استنكرها هو باسم الدين • واقتبس بيل « باعتبار أن هذا من أشد ما قال المارقون زيفا » أن « الدين ليس الا مجرد بدعة من عمل الانسان ، ابتدعها الملوك ليلزموا رعاياهم بالطاعة والاذعان لهم (٣٠) • وفى المقال الذى كتبه عن سبينوزا تعمـــد أن يتهم اليهودى الذى يعتنق مذهب وحدة الوجود بالالحاد ، ومع ذلك فانه لابد أنه عثر عند هذا الفيلسوف على شيء يســحر لبه ويستوقف نظره ، لأن هذا أطول مقال فى القاموس • وزعم بيل أنه يؤكد لرجال اللاهوت من جديد أن كل هذه الشكوك التى أوردها فى كتابة لا تهدم العقيدة الدينية ـ لأن هذه مسائل فوق مستوى عقول الناس (٣١).

وذهب فاجويه الى أن بيل « ملحد بغير جـدال (٣٢) ولكن قد

يكون أكثر أنصافا أن ندرجه فى عداد الشكاكين ، وأنه كان كذلك يشك في مذهب الشك • ومن حيث أن الصفات الثانوية للحس ذاتية الى حد كبير ، فان العالم الموضوعى (الخارجى) يختلف كل الاختلاف عما يبدو لنا • « ان الطبيعة المطلقة للأشياء غير معروفة لنا ، وكل ما نعرفه هو بعض علاقات بعضها ببعض (٣٣) • وفى ٢٦٠٠ صحيفة من الاستنتاج والحجج والبراهين اعترف بضعف العقل ، فان العقل ، مثل الحواس التى يعتمد عليها ، قد يخدعنا • لأنه غالبا ما يتغشاه الانفعال، والرغبة والهوى ، لا العقل ، هما اللذان يحددان سلوكنا • فالعقل يمكن ن يعلمنا أن نشك ولكنه قليلا ما يحركنا للعمل •

ان أسباب الشك مشكوك فيها هى الأخرى • ومن ثم يجب على الانسان أن يشك فيما اذا كان ينبغى له أن يشك • أية فوضى • وأى عذاب للذهن •• •• ان عقلنا يؤدى بنا الى أن نتيه ونهيم على وجوهنا على غير هدى • لأنه حين يكشف عن أكبر قدر من حدة الذهن والدقة ، يلقى بنا فى الهاوية •••• ان العقل البشرى أداة هدم ، لا أداة بناء ، انه لا يصلح الا ليبدأ الشك ، ويجول وينتقل هنا وهناك ليديم الصراع (٣٤) •

وبناء على هذا أشار بيل على الفلاسفة ألا يقيموا للفلسفة وزنا كبيرا ، ونصح المصلحين بألا يتوقعوا كثيرا من الاصلاح • وحيث أنه واضح أن الطبيعة الانسانية هى هى على مر القرون ، فانها بفعل الجشع وحب المشاكسة والشهوة الجنسية ، ستظل تثير من المشاكل ما يفسد المجتمعات ويؤدى الى فناء أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) فى مهدها • ان الناس لا يتعلمون من التاريخ ، وكل جيل يتمخض عن نفس الأهواء والأوهام الخادعة والجرائم • ومن ثم فان الديموقراطية خطأ فى التقدير قدر ما هى حقيقية ، فالسماح للدهماء المشغولين المضللين المتهورين باختيار الحكام ورسم السياسة هو انتحار للدولة • وأى نوع من الملكية أمر ضرورى ، حتى فى ظل أشكال ديموقراطية (٣٥) • والتقدم أيضا وهم وخداع ، اننا خطأ نحسب الحركة تقدما ، ولكن يحتمل أنها مجرد تذبذب (٣٦) • أن خير ما نأمل

فيه ، هو حكومة يمكنها ، على الرغم من أنها مزودة برجال شيمتهم الفساد ويعوزهم الكمال ، أن تسن لنا من القوانين ما يكفل لنا أن نزرع حدائقنا فى أمان وننصرف الى دراســاتنا وهواياتنا فى هــــدوء وسلام ٠

ولم يستمتع بيل بمثل هذا الهدوء فى السنوات التسع التى بقيت له فى حياته ، وحين انتقل قراؤه من متن الكتاب الى حواشيه المطبوعة بحروف صغيرة جدا ثارت موجة من الاستياء بينهم ٠ ودعـــا مجلس كنيسة والون فى روتردام بيل ـ وهو عضو فى مجمعها ـ للمثول أمامه ليرد على الاتهامات الموجهة اليه بأن قاموسه تضمن « تعبيرات ومسائل غير لائقة ، وكثيرا جدا من الاقتباسات الفاجرة ، وملاحظات عدائية عن الالحاد وأبيقور ، وبخاصة مقالات كريهـــة مثيرة للاعتراض على داود وبيرهو والمانويين ٠ ووعــد بيل « بمزيد من التأمل فى مذهب المانوية حتى اذا عثر على أية ردود ، أو أمده قساوســة المجلس بشيء منها ، فانه « يسعده أن يضعها فى أحسن صيغة ممكنـــة (٣٧) » ٠ وفى الطبعة الثانية من القاموس (١٧٠٢) أعاد كتابة المقال الوارد عن داود وخفف من حدته ٠ ولم يهدأ روع جوريو ، وجدد الحملة على بيل ، وشن عليه عى ١٧٠٦ هجوما عنيفا تحت عنــوان « اتهـــام فيلسوف روتردام ومهاجمته وادانته » ٠

وانهارت صحة بيل بعد هذه الطبعة الثانية ٠ وعانى مثـــل سبينوزا من السل ٠ وفى تلك السنوات لازمه السعال بشكل دائم تقريبا ، وانتابته الحمى الراجعة ، وزاد الصداع من اكتئابه وجزعه ٠ واقتنع بألا أمل فى البرء من علتـــه ، استسلم للمـــوت ، وزاد اعتكافه فى حجرته ، واشتغل ليل نهار فى اعداد رده على ناقديه ٠ وفى ٢٧ ديسمبر ١٧٠٦ أرسل الصيغة النهائية الى المطبعة ٠ وفى صباح اليوم التـــالى وجده أصدقاؤه ميتا فى فراشه ٠

وانتشر تاثيره طوال القرن الثامن عشر ٠ واعيد طبع قاموســـه عدة مرات ، حتى أصبح مصدر ابتهاج خفى لآلاف العقول الثـــائرة ٠ وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان القاموس قد طبع تسع مرات باللغـــة الفرنسية ، وثلاث مرات بالانجليزية ومرة بالألمانية ٠ وحاول المعجبون

به فى روتردام أن يقيموا له تمثالا الى جوار تمثال ارزم (٣٨) ، وأغروا الناشرين بطبع المقال الأصلى عن داود • وعلى مدى عشر سنين من وفاته كان الطلاب يقفون صفوفا فى مكتبة مازاران فى باريس حتى يأتى دورهم فى قراءة القاموس (٣٩) • وجاء فى تقرير عن المكتبات الخاصة أن الطلب عليه كان أكثر من طلب أى كتاب آخر (٤٠) • وقد أحس بتأثيره كل مفكر ذى شأن تقريبا • وكان معظم كتاب ليبنتز « الفلسفة الالهية » أو تبرير حكمة العدالة الالهية فى وجود الشر ، محاولة صريحة للرد على بيل • كذلك نبع منه كتابات اسنج عن تحرير العقل ودفاعه عن التسامح — ويحتمل أن فردريك الأكبر استمد تشككه أصلا من بيل ، لا من فولتير ، وأطلق على القاموس « عصارة الاحساس السليم » (٤١) • واقتنى أربع مجموعات منه فى مكتبته ، وأشرف على اصدار طبعة رخيصة موجزة منه فى مجلدين ليجذب عددا أكبر من القراء (٤٢) • وكان تأثير بيل على شافتسبرى ولوك أخف ، وعرفه كلاهما فى هولنده ، وسار لوك فى « رسالة التسامح » (١٦٨٩) على خطى بيل فى « التعليقات » (١٦٨٦) •

ولكن أعظم تأثير لبيل كان بطبيعة الحال على فلاسفة الاستنارة وكان فطامهم على القاموس • ومن الجائز أن مونتسكيو وفولتير أخذا عنه أسلوب الاستشهاد بالمقارنات والنقد الآسيوى للنظم الأوربية • ولم تكن « دائرة المعارف » (١٧٥١) ، كما حكم فاجويه « مجرد طبعة منقحة مزيدة قليلا من قاموس بيل (٤٣) • ولكن كثيرا من وجهة نظرها وآرائها التوجيهية نبعت من هذين المجلدين ، كما أن المقال الذى كتب فى دائرة المعارف عن التسامح كثيرا ما أحال القارىء على قاموس بيل على اعتبار أنه « وفى الموضوع حقه » • كما أن ديدرو اعترف فى صراحته المعهودة ، بفضل بيل عليه ، وحياه بأنه « أعظم شارح مهيب لمذهب الشك فى العصور القديمة والحديثة معا (٤٤) • أما فولتير فكان بيل ولد من جديد ، مع رئتين أصح ومزيد من النشاط والطاقة والسنين والثراء والذكاء • وأطلق بحق على « القاموس الفلسفى » أنه ترديد لقاموس بيل (٤٥) • وكثيرا ما اختلف قزد فرنى الفاتن عن بيل ، مثال ذلك أن فولتير ذهب الى أن الدين كان قد ساعد على تشجيع الأخلاق ورعايتها ، وأنه لو أن بيل كان لديه خمسمائة أو

ستمائة فلاح ليحكمهم . لما تردد فى أن هناك الها يعاقب ويكافىء (٤٦)، ولكنه اعتبر بيل « أعظم منطيق جدلى الف (٤٧) » وجملة القول ، كانت فلسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر هى بيل فى تكاثر متفجر . ان القرن السابع عشر بدأ ، بهوبز وسبينوزا ، وبيل وفونتيل ، الحرب الطويلة المريرة بين المسيحية والفلسفة ، تلك الحرب التى بلغت ذروتها فى سقوط الباستيل وعيد الهة العقل .

٥ – فونتنيل : ١٦٥٧ – ١٧٥٧ :

فى السنوات الأربعين الأولى من حياته التى امتدت مائة عام ، شن برنارد لى بوفييه دى فونتنيل ، حرب الفلسفة ، مستقلا عن بيل ، وأحيانا قبله ، وواصل الحرب ، بلا هوادة ، طيلة نصف قرن بعد وفاة بيل . وهو احدى ظواهر طول العمر ، وملأ الفراغ بين بوسويه وديدرو ، ونقل الى معترك الحياة العقلية فى القرن الثامن عشر شكوكية القرن السابع عشر الأكثر اعتدالا وحرصا .

ولد فى روان فى ١١ فبراير ١٦٥٧ ، ضئيلا هزيلا الى حد أنهم عمدوه فور ولادته خشية أن يموت قبل أن ينقضي عليه اليوم . وظل على هذه الحالة من الضعف طوال حياته ، كانت رئتاه عليلتين وكان يبصق دما اذا أجهد نفسه حتى فى لعب « البليارد » ، ولكن بالقصد والاعتدال فى استخدام قواه الا بمقدار والامتناع عن الزواج ، وكبح جماح شهواته وأهوائه ، والاغراق فى النوم ، استطاع أن يعمر بعد كل معاصريه ، وتذكر موليير حين كان يتحدث مع فولتير .

وكان به بعض الميل الى الأدب مثل ابن شقيق كورنى . وكذلك كان يحلم هو الآخر بالمسرحيات ، ولكن الروايات والأوبرات التى ألفها ، وأناشيده الرعوية وقصائده الغزلية ومقطوعاته ، كانت تعوزها العاطفة فماتت من البرودة . وكان الأدب الفرنسي يفقد الفن ويكسب الأفكار . ولم يجد فونتنيل نفسه الا حين وجد أن العلم يمكن أن يكون رؤيا أكثر ادهاشا من سفر الرؤيا ، وأن الفلسفة معركة تثير الأسي ، وتفوق كل الحروب . ولم يكن ذلك لأنه محارب ، فقد كان رقيقا الى حد لا يقوى معه على الصراع ، شغوفا بالدنيا لا يحب أن يفقد صبره أو يتملكه الغضب فى المناقشة ، وواعيا

كل الوعى لنسبية الحقيقة فلا يقيد فكره المطلق · ومع ذلك أشـــعل نيران الحرب (٤٨) · وحيثما سار فى محادثاته المختلفة مع مركيزته الوهمية ، هب جيش الاستنارة بفرســان فولتير الخفيفـــة السريعة الاندفاع ومشاة دولباخ الثقيلة ، ومهندسي دائرة المعارف العسكريين الخبراء فى بث الألغام ، بالاضافة الى مدفعية ديدرو ·

وكان أول اقتحامه مجال الفلسفة رسالة من خمس عشرة صحيفة « أصل الخرفات » والحق أنها كانت استقصاء سيولوجيا (اجتماعيا) عن نشأة الالهة · ونحن لا نكاد نصدق كاتب سيرة حياته فى أن الموضوع كتب وهو سن الثالثة والعشرين ، ولو أن مخطوطته تركت فى حرص وحذر ، حتى خفت وطأة الرقابة فى ١٧٢٤ · وتكاد تكون هذه الرسالة « عصرية » فى روحها ، تعقبت الاساطير ، لا الى مجرد اختراع الكهنة لها ، بل الى تخيلها البدائى ، وفوق كل شيء ، الى استعداد العقول البسيطة لتجسيد العمليات ، فان نهرا فاض لأن الها صب ماءه ، فكل عمليات الطبيعة من عمل الأرباب ·

> اعتقد الناس أن كثيرا من العجائب فوق قدرتهـم : حلول الصواعق وقصف الرعود ، وهبـــوب الرياح واثارة الأمواج ·· ·· وتخيل الناس كائنات أقوى منهم ، قادرة على أحداث هذه الآثار · وكان لابد لهذه الكائنات الأسمى أن تتخذ شكلا آدميا ، فأى شكل آخر يمكن تصوره ؟ ··· وعلى هذا كان الأرباب آدميين ، ولكن أسبغت عليهم قدرة عليا ·· ·· وما كان فى مقدور الناس البدائيين أن يدركوا صفة أدعى الى الاعجاب من القوة المـــادية · ولم يكونوا قد أدركوا بعد الحكمة والعدالة ، ولم يكن لديهم أســـماء لهـــما (٤٩) ·

وقبل روسو بنصف قرن نبذ فونتنيل ما قاله روسو عن مثاليـــة الهمج غير المتمدنين ؛ ففى رأيه أنهم كانوا أغبياء ، متوحشـــين · ولكنه أضاف « كل الناس متشابهون شبها كبيرا ، وليس ثمة جنس أو عرق ، لا نرتعد نحن فرعا من حماقاته وسـخافاته (٥٠) » · وكان حريصا على أن يضيف أن تفسيره للأرباب ، ذلك التفسير المبنى على المذهب الطبيعى ، لم يطبق على آلهة المسيحيين أو اليهود ·

ووضع هذه الرسالة جانبا انتظارا لوقت أكثر أمنا واطمئنانا . وأمسك بالقرطاس واستعار عنوانا من لوشيان ، ونشر فى يناير ١٦٨٣ كتابا صغيرا أسماه « محاورات الموتى » . واكتسبت هذه المناقشات الخيالية بين مشاهير الموتى شعبية الى حد اشتد معه الطلب على طبعة ثانية فى مارس ، وثالثة وشيكا بعدها . وامتدحها بيل فى صحيفته « الأخبار » ، وقبل أن ينصرم العام ، ترجمت الرسالة الى الايطالية والانجليزية ، وذاع صيت فونتيل وهو فى السادسة والعشرين، فى كل أوربا ، وكانت الرسالة ميسرة فى متناول الجميع فى عالم يعج بالرقباء ، وكادت كل فكرة يعبر عنها أحد المتكلمين ، يدحضها آخر ويبرأ منها المؤلف ، وكان فونتنيل على أية حال أميل الى الدعاية منه الى الهرطقة . وكانت الأفكار التى ناقشها معتدلة ، ولم تمس أى كاهن بسوء . فان ميلو لاعب كروتونا الرياضي النباتى يتباهى بأنه قد حمل ثورا على كتفيه فى الألعاب الأولمبية ، فيعيره سمنديريد من سيباريس المجاورة - بأنه ينمى عضلاته على حساب عقله ، ولكن السسياريثى يعترف بأن الحياة الأبيقورية (الانغماس فى الملذات) عقيمة كذلك ، حيث تصبح اللذة مملة بالتكرار ، وتضاعف من مصادر الألم ودرجاته. ويثنى هومر على عيسوب لتعليمه مع الخرافات ، ولكنه يحذره من أن الحقيقة هى آخر ما يرغب فيه البشر » . ان روح الانسان تتعاطف مع الباطل الى أبعد حد .. .. وينبغى أن تلبس الحقيقة ثوب الباطل حتى يتقبلها البشر بارتياح (٥١) » . وقال فونتنيل « لو أن الحقيقة كلها بين يدى فلا بد من أن أحرص على ألا أفتحهما (٥٢) » ، ولكن ربما كان هذا من قبيل العطف والاشفاق على البشر بقدر ما هو من قبيل الحب الطائش للمطاردة .

وفى ألطف المحاورات يلتقى مونتانى بسقراط ، فى الجحيم لا ريب ، ويناقش فكرة التقدم ، مونتانى - أهذا أنت ، سقراط المقدس ؟ ما أسعدنى بلقائك لقد جئت لفورى الى هذا المكان ، ومنذ تلك اللحظة كنت أبحث عنك . وأخيرا وبعد أن ملأت كتابى باسمك وبامتداحك وبالثناء عليك ، أستطيع أن أتحدث اليك .

سقراط - أنى سعيد أن أرى انسانا ميتا يبدو أنه كان فيلسوفا ، ولكن حيث أنك جئت من هناك أخيرا ... **دعنى أسالك عن الأخبار. كيف حال الدنيا ؟ ألم تتغير كثيرا ؟**

مونتانى حقا - تغيرت كثيرا . قد لا تعرفها .

سقراط - كم ابتهج بسماع هذا . انا لم اشك قط فى انها ستصبح أحسن أو اعقل مما كانت فى زمانى .

مونتانى - ماذا تقول ؟ انها أشد خبلا وفسادا من أى وقت مضي . وهذا هو التغيير الذى أردت أن أناقشه معك . وكنت مترقبا أن أسمع منك بيانا عن العصر الذى عشت فيه ، والذى ساده كثير من الأمانة والعدل

سقراط - وأنا ، على العكس ، كنت انتظر لأعرف منك عجائب العصر الذى عشت فيه منذ أمد قصير . ماذا ؟ الم يصلح الناس من الاخطاء والحماقات القديمة ؟ .. .. كنت أؤمل أن تتجه الأمور نحو العقل ، وأن يستفيد الناس من خبرة السنين الطوال .

مونتانى - ماذا تقول ؟ يستفيد الناس من الخبرة ؟ انهم مثل الطيور التى كثيرا ما تركت نفسها نهبا للشراك التى وقع فيها بالفعل مئات الآلاف من نفس النوع . ان كل فرد يدخل جديدا الى الحياة ، وتقع أخطاء الآباء على الأبناء .. .. وللناس على مر القرون نفس الميول والنزعات التى لا سيطرة للعقل عليها . ومن ثم فانه حيثما وجد الناس وجدت الحماقات والأخطاء ، بل هى هى نفسها .. ..

سقراط - انك أضفيت مثالية على العصور القديمة لأنك غاضب على عصرك .. .. اننا فى حياتنا كنا نقدر أسلافنا أكثر مما كانوا يستحقون . والان يمجدنا اعقابنا فوق ما نستحق . ولكن أسلافنا وانفسنا وذرارينا كلهم سواء .

مونتانى : ولكن أليست هناك أزمان أفضل وأزمان اسوأ ؟ .

سقراط - ليس هذا بالضرورة . فالملابس تتغير ، ولكن هذا لا يعنى ن شكل الجسم يتغير كذلك . فالتهذيب والفظاظة والمعرفة والجهل .. .. ليست الا خارج الانسان ، وهى التى تتغير ، ولكن القلب لا يتغير باية حال ، وكل الانسان هو فى القلب .. .. وبين الجمهور الغفير من الناس الذين يولدون على مدى مائة من السنين ،

تنثر الطبيعة هنا وهناك نفرا قليلا لا يتجاوز عددهم ثلاثين أو أربعين • ممن يتمتعون بعقول راجحة (٥٣) •

وبعد بضع سنين من هذه الخاتمة المتشائمة ، مال فونتنيل الى نظرة أكثر تفاؤلا الى حد ما فى « استطراد القدامى والحديثين (يناير ١٦٨٨) » ، وهنا أوضح المؤلف فارقا بينا صغيرا • فى الشعر والفن لم يكن ثمة تقدم ملموس ، لأن هذين يعتمدان على الشعور والخيال اللذين لا يكادان يتغيران من جيل الى جيل • أما من حيث العلوم والمعرفة والثقافة التى تعتمد على تراكم المعرفة تراكما بطيئا ، فقد نتوقع التفوق على القدماء • وذهب فونتنيل الى أن كل أمة تمر بمراحل مثل الفرد ، ففى عهد الطفولة تعكف على مواجهة حاجياتها المادية ، وفى شبابها تضيف الخيال والشعر والفن ، أما فى مرحلة النضج فانها قد تدرك العلوم والفلسفة (٥٤) • وقال فونتنيل بأنه رأى الحقائق تبرز وتنمو من خلال عملية التخلص التدريجى من الأفكار الخاطئة • « نحن مدينون للقدامى لأنهم لم يبقوا على شيء من النظريات الزائفة التى كان يمكن تكوينها ، تقريبا » ـ أى أن ننسي أن بكل حقيقة عددا لا يحصي من الأخطاء الممكنة • ورأى أن ديكارت قد وفق الى طريقة جديدة أفضل للتفكير والاستنتاج ـ الطريقة الرياضية ، وتمنى للعلم الآن أن يتقدم بخطوات سريعة •

> حين نرى التقدم الذى أحرزته العلوم فى المائة عام الأخيرة ، على الرغم من الأهواء والعقبات وقلة عدد الافراد العلميين ، فقد يغرينا هذا الى حد كبير بأن نؤمل كثيرا فى المستقبل ، ولسوف نرى علوما جديدة تنبع من لا شيء ، على حين أن ما عندنا منها لا يزال فى المهد (٥٥) •

وهكذا صاغ فونتنيل نظرية التقدم « تقدم الأشياء » وتصور ، مثل كوندرسيه ، أنه ليس لهذا التقدم حدود معينة يقف عندها فى المستقبل ، وهنا كان « بلوغ البشر حد الكمال بلا حدود » • لقد وضعت النظرية القديمة قدمها على الطريق تماما ، وسارت بخطى ثابتة طيلة القرن الثامن عشر لتصبح أداة من أصلح أدوات الفكر الحديث •

وانا لنجد ، فى تلك الأثناء ، أن فونتنيل الذى كان خياله الرائع

يصبح محاذرا دوما غاية الحذر ، قد بات قاب قوسين أو أدنى من سجن الباستيل . ذلك أنه حوالى ١٦٨٥ نشر رسالة مختصرة « علاقة جزيرة بورنيو » ، وهى رحلة وهمية ، صورها الكاتب فى صورة واقعية (استبق بها شبيهاتها عند ديفو وسويفت) الى حد أن بيل طبعها فى « الاخبار » على أنها تاريخ فعلى . ولكن الصراع الذى وصفته هذه الرسالة بين أنيجو ومريو كان هجاء سافرا للصراع الدينى بين جنيف وروما . ولما اطلعت السلطات الفرنسية على الجناس التصحيفى (تغيير ترتيب الحروف فى الكلمة) بدا أن اعتقال فونتنيل أمر لا مفر منه ، لأن الملاحظة الساخرة بدت وكأنها تنطبق على الغاء مرسوم نانت تماما . فأسرع فى نشر قصيدة يمتدح فيها « انتصار الدين فى عهد لويس العظيم » . وقبل اعتذاره . ومن تلك اللحظة حرص فونتنيل على أن تكون فلسفته غامضة يصعب على الحكومات ادراك مراميها .

وعاد الى العلوم ، وجعل من نفسه مبشرا بها فى المجتمع الفرنسي . وكان شديد الكلف بالدعة والراحة ، فلم يعكف بطريق مباشر على التجارب والأبحاث ، ولكنه وعى العلوم وعيا حسنا ، فقدمها لجمهور مستمعيه المتزايد ، فى جرعات صغيرة مغلفة بفن الأدب . ورغبة منه فى تقريب فلك كوبرنيكس الى الأذهان وجعله فى متناول الناس ، ألف « محادثات فى تعدد العوالم » (١٦٨٦) . وعلى الرغم من أن مائة وثلاثة وأربعين عاما كانت قد انقضت على ظهور كتاب كوبرنيكس فان قلة من الناس فى فرنسا ، حتى بين المتخرجين فى الجامعات ، كانت قد قبلت نظرية أن الشمس هى مركز العالم ، وأدانت الكنيسة جاليليو لأنه اعتبر أمرا مفروغا منه أن هذه الفرضية حقيقية ، وما يجرؤ ديكارت على نشر رسالته « العالم » التى اعتبر فيها أن نظرية كوبرنيكس قضية مسلم بها .

وتناول فونتنيل الموضوع فى كياسة تبعد عنه النقمة ، فتصور أنه يناقشه مع مركيزة مليحة يتحرك شكلها - غير المرئى ولكنه محسوس - أثناء الحوار بصورة مغرية فاتنة ، لأن الجمال اذا اتخذ لقب البطولة أمكنه أن يكسف النجوم . وكانت « المحادثات » الست أمسيات . وكان المشهد فى حديقة قصر المركيزة بالقرب من روان . وكان الهدف من ذلك هو أن يفهم الناس فى فرنسا - أو على الأقل سيدات المجتمع - حركة

الأرض وتعاقب دوراتها ، ونظرية ديكارت فى الدوامات ٠ وزيادة فى الاغراء أثار فونتنيل مسألة أخرى : هل القمر وسائر الكواكب مسكونة ؟٠ وكان ميالا الى أن يعتقد هذا ٠ ولكنه تذكر أن بعض القراء قد تزعجهم فكرة أن فى العالم نساء ورجالا لم ينحدروا من آدم وحواء ، ومن ثم أوضح فى حزم ولباقة أن سكان القمر والكواكب لم يكونوا بشرا حقيقيين٠ ومهما يكن من أمر فانه أوحى بأنه قد يكون لهم حواس أخرى ، ربما كانت أدق من حواسنا ، واذا كان الأمر كذلك فانهم قد يرون الأشياء مختلفة عما نراها نحن ، فهلا تكون الحقيقة عندئذ نسبية ؟ ٠ وقد يقلب هذا كل شيء رأسا على عقب ، حتى أكثر مما فعل كوبرنيكس ٠ وأنقذ فونتنيل الموقف بالاشارة الى جمال الكون ونظامه ، مقارنا اياه بساعة ، مستدلا بميكانيكية الكون على صانع بارع ذى ذكاء خارق ٠

ولما كانت الرغبة فى التعليم من أقوى الرغبات فينا ، فان فونتنيل عاود المخاطرة بالاقتراب من الباستيل باصداره فى ديسمبر ١٦٨٨ رسالة غفلا من اسم المؤلف ، هى أجرأ رسائله الصغيرة تحت عنوان « تاريخ الوحى » ٠ واعترف بأنه اقتبس مادتها من كتاب « الوحى » الذى ألفه أحد الباحثين الهولنديين ، فان وايل ، ولكنه حورها بأسلوبه الواضح الرشيق ٠ وقال أحد القراء : « انه يتملقنا لمعرفة الحقيقة » وهكذا قارن الرياضيين بالعاشقين ٠ « ضع أمام الرياضي أقل قاعدة أو مبدأ ، ولسوف يستنتج منه نتيجة ، يجدر بك أن تسلم له بها ، ومن هذه النتيجة أخرى وهكذا ٠٠ ٠٠ (٥٦) ٠ ان رجال اللاهوت كانوا قد قبلوا بعض الوحى الوثنى باعتباره صحيحا صادقا ، ولكنهم كانوا قد نسبوا دقته المعارضة الى ايحاء شيطانى ، واعتبروا برهانها على قدسية أصل الكنيسة ، أن هذا الوحى انقطع منذ مجيء السيد المسيح ، ولكن فونتنيل أوضح أن الوحى استمر حتى القرن الخامس الميلادى ٠ وبرأ الشيطان من أنه صانعه ، فالايحاءات كانت حيلا من الكهنة الوثنيين الذين تحركوا فى المعابد ليأتوا بمعجزات ظاهرة ، أو ليستولوا على الطعام المقدم من العابدين للآلهة ٠ وادعى أنه ما تحدث الا عن الوحى الوثنى، وأنه استثنى صراحة الوحى والكهنة المسيحيين من هذا التحليل ٠ ولم يكن هذا المقال ومقال « أصل الأساطير » مجرد ضربتين ايذانا بعصر الاستنارة ، بل كانتا كذلك ، مثلين لمدخل جديد الى المسائل اللاهوتية

- تفسيرا للمنابع البشرية للمعتقدات الدينية ، وبهذا يضفى الحالة الطبيعية على كل ما هو خارق للطبيعة .

وكان « تاريخ الوحى » آخر العمليات التى استنزفت حيوية فونتنيل . وفى ١٦٩١ انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية برغم معارضة راسين وبوالو . وفى ١٦٩٧ أصبح ، وبقى لمدة اثنين وأربعين عاما ، السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم . وكتب تاريخها ، وأطنب فى امتداح من فارقوا الحياة من الأعضاء . وهذا يشكل سجلا وعرضا وضاءين للعلوم فى فرنسا لمدة نصف قرن تقريبا . وبمثل هذه الجلسات العلمية استطاع فونتنيل أن ينفذ - بمثل القدر من الغبطة والسرور الى الصالونات - صالون مدام دالمبرت أولا ، ومدام دى تنسين ، ثم مدام دى جيوفرين . وكان موضع الترحيب ، لا لمجرد شهرته باعتباره كاتبا ، بل لأن روح الكياسة واللطف والمجاملة لم تفتر فيه قط . انه مزج الحقيقة بالتعقل ، واستنكف أن يعكر جو المناقشة بالخلافات ، ولم يكن ذكاؤه لاذعا . « لم يكن فى عصره من هو أكثر منه تفتحا فى الذهن أو تجردا من الحقد والضغينة والتحيز (٥٧) » واتهمته فى حمق مدام دى تنسين ، التى كانت سريعة الانفعال والغضب ، بأن له مخا آخر لابد أنه كان يحتفظ فيه بقلبه (٥٨) . ولم يستطع الشباب قتلة الالهة الذين كانوا يتكاثرون حوله أن يفهموا اعتداله أكثر مما استساغ هو تعصبهم وعنفهم . « انى لتزعجنى الحقائق التى تسيطر من حولى (٥٩) » . ولم يرشرأ محضا فى ضعف سمعه حين تقدمت به السنون .

وظاهر أنه فى نحو الخمسين من العمر اعتزم الا يقدم بعد ذلك الا خدمات أفلاطونية للسيدات ، ولكن كياسته لم تتداع . وعندما قدموه الى سيدة جميلة ، وهو فى سن التسعين ، قال : « آه : لو أنى الآن فى الثمانين فقط !(٦٠) » وفى سن التاسعة والثمانين تقريبا افتتح حفل عام جديد بالرقص مع ابنة هلفيشيوسي البالغة من العمر عاما ونصف العام(٦١) . ولما قالت مدام جريموز متعجبة ، وكانت فى مثل سنه تقريبا « حسنا . ها نحن كلانا حى يرزق » وضع أصبعه على شفتيه وهمس « صه يا سيدتى ، ان الموت قد نسينا (٦٢) » .

ولكن الموت عثر عليه أخيرا فى ٩ ينــاير ١٧٥٧ ، واختطفه فى سكون ، ولم يكن قد مرض الا يوما واحدا . وأوضح لأصحابه أنه كان

« يعانى من وجوده » وربما كان قد أحس بأنه قد بلغ من العمر أرذله، ويبقى له ثلاثة وثلاثون يوما ليتم من العمر قرنا كاملا . لقد كان مولده قبل أن يتسلم لويس الرابع عشر دفة الحكم ، وشب وسط انتصارات بوسويه ، والغاء مرسوم نانت واضطهاد البروتستانت . وعاش ليرى « دائرة المعارف » ، وليستمع فولتير وهو يدعو الفلاسفة لشن الحرب على الموبقات .

+ + +

الفصل الثاني والعشرون

سبينوزا
١٦٣٢ ـ ١٦٧٧
١ ـ الهرطيق الصغير

ان هذه الشخصية الغريبة المحببة التى بذلت فى التاريخ الحديث أجرأ محاولة للعثور على فلسفة يمكن أن تحل محل عقيدة دينية ذائعة ، ولدت فى أمستردام فى ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ . ويمكن تتبع أسلافه الى مدينة سبينوزا بالقرب من برجوس فى مقاطعة ليون الاسبانية . وكانوا يهودا ، ثم ارتدوا الى المسيحية فكان منهم العلماء والقساوسة ، وكان منهم كاردينال دييجو ، كبير المحققين يوما (١). وهاجر جزء من الأسرة الى البرتغال ، والمفروض أنهم لجأوا الى الهجرة هربا من محاكم التفتيش الاسبانية . وبعد فترة من الاقامة هناك فى فيديجويرا بالقرب من باجه ، انتقل جد الفيلسوف ووالده الى نانت فى فرنسا . ومنها فى ١٥٩٣ الى أمستردام ، وكانا من أوائل اليهود الذين استوطنوا هذه المدينة ، تلهفا على التمتع بالحرية الدينية التى كفلها « اتحاد أوترخت » فى ١٥٧٩ . وما جاءت سنة ١٦٢٨ حتى اعتبر الجد زعيم الجالية الصفردية « اليهودية » فى امستردام ، وكان الوالد فى فترات مختلفة ناظرا للمدرسة اليهودية ، ورئيسا لصندوق الصدقات المنتظمة للجالية اليهودية البرتغالية . وقدمت الأم : حنه ديبورا دى سبينوزا من لشبونه الى امستردام . وماتت عندما كان ابنها باروخ فى السادسة من عمره . وأورثته السل . وتولى تربيته والده وزوجة ثالثة . ولما كانت لفظة باروخ تعنى فى العبرية « المبارك» فقد سمى الصبى فيما بعد « بندكت » فى الوثائق الرسمية اللاتينية .

وفى مدرسة الجالية اليهودية تلقى باروخ التعليم الدينى المألوف المبنى على التوراة والتلمود ، كما تلقى بعض الدراسات للفلاسفة الحبرانيين وعلى الأخص ابراهام بن عزرا ، وموسي بن ميمون وحاسداى

كريسكا ، وربما كان الى جانب هذا بعض اطلاع يسير على « القبالة » وكان من بين أساتذته اثنان من ذوى المكانة العالية والمقدرة فى الجالية: شاءول مورتيرا ، ومنشه بن اسرائيل . وتلقى باروخ ، بالاسبانية خارج المدرسة ، قدرا لا بأس به من العلوم الدنيوية ، لأن والده رغب أن يعده ليكون رجل أعمال . وبالاضافة الى اللغتين الاسبانية والعبرية تعلم البرتغالية والهولندية واللاتينية مع قدر يسير من الايطالية والفرنسية فيما بعد . ونما فى نفسه ولع بالرياضيات . وجعل الهندسة المثل الأعلى لمنهجه الفلسفى والفكرى .

وكان طبيعيا أن شابا بمثل هذا الذهن المتوقد بشكل فذ أن يثير بعض المشاكل حول النظريات والمبادىء التى تلقاها فى المدرسة اليهودية ، بل انه ربما سمع فى تلك المدرسة عن هرطقات عبرية . وكان ابن عزرا قد أشار منذ أمد طويل الى الصعاب التى تنطوى عليها نسبة الأجزاء المتأخرة من أسفار موسي الخمسة اليه . وكان اتباع ابن ميمون قد اقترحوا تفسيرا مجازيا لغير هذه الأجزاء من الكتاب المقدس (٢) . وأثاروا شيئا من الشكوك حول الخلود الشخصي (٣) ، وحول الخلق باعتباره مناقضا لأزلية العالم (٤) . وكان كريسكاسي قد نسب الامتداد الى الله ، واستنكر كل المحاولات التى قامت لتثبت بالعقل حرية الارادة وبقاء الروح بعد الموت ، بل حتى وجود الله . وبالاضافة الى هؤلاء اليهود التقليديين الى حد كبير ، لا بد أن سبينوزا قرأ ليفى بن جيرسون الذى كان قد هبط بمعجزات الكتاب المقدس الى مجرد أسباب طبيعية، وأخضع الايمان للعقل قائلا « ان التوراة لا يمكن أن تحول دون أن نعتبر حقا كل ما يستحثنا عقلنا على أن نؤمن به أو نصدقه (٥) » وحديثا جدا فى جالية امستردام اليهودية هذه ، كان أوريل أكوستا قد تحدى الاعتقاد فى الخلود ، فحز فى نفسه اصدار حكم الحرمان عقابا له وأطلق النار على نفسه (١٦٤٧) . ولا بد أن الذكرى الغامضة لهذه المأساة زادت من حدة الثورة التى تعتمل فى ذهن سبينوزا حين أحس بأن لاهوت عشيرته وأسرته العتيد يفلت منه .

وما ت أبوه فى ١٦٥٤ . وطالبت أخت له بكل الضيعة والثروة ، فقاضاها سبينوزا أمام المحكمة وكسب القضية ، ثم عاد ونزل لها عن كل التركة الا سريرا واحدا . واعتمد الآن على نفسه فكسب عيشه بالاشتغال

يشحذ العدسات وصقلها من أجل النظارات والمجهر والمقراب • وبالاضافة الى القيام بتعليم بعض تلاميذ خصوصيين اشتغل بالتدريس فى مدرسة فرانس فان دن اند اللاتينية ، وهو يسوعى سابق ، حر التفكير كاتب روائى ثائر × • وهناك أتقن سبينوزا اللاتينية ، وربما حفزه فان دن اند الى دراسة ديكارت وبيكون وهوبز ، وربما اطلع الآن على « المجموعة اللاهوتية » لتوما الاكوينى • ويبدو أنه وقع فى غرام مع ابنة الناظر التى آثرت خطيبا أكثر ثراء ، ومبلغ علمنا أن سبينوزا لم يخط خطوة أخرى نحو الزواج •

وكان فى تلك الأثناء قد بدأ يفقد ايمانه • ويحتمل أنه قبل سن العشرين ، وبكل الألم والذعر اللذين تجلبهما التغيرات فى مثل هذه السن الى الأرواح المرهفة الحس ، كان قد قامر ببعض أفكار مثيرة — أن المادة قد تكون جسم الله ، وقد تكون الملائكة أوهام الخيال ، وان الكتاب المقدس لم يذكر شيئا عن الخلود ، وأن النفس متماثلة مع الحياة (٧) • وربما احتفظ بهذه الهرطقات المغرورة لنفسه لو أن أباه بقى على قيد الحياة ، بل ربما التزم الصمت حتى بعد موت أبيه ، لولا أن بعض أصدقائه أزعجوه بالأسئلة ، وبعد كثير من التردد اعترف لهم باهتزازات عقيدته وايمانه ، فوشوا به الى الكنيس •

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان ما كثرت الاشارة اليه من أن زعماء الجالية اليهودية فى امستردام كانوا يجدون حرجا فى معالجة الهرطقات التى تهاجم أساسيات المسيحية واليهودية على حد سواء • ان اليهود فى الجمهورية الهولندية نعموا بتسامح دينى أنكرته عليهم سائر الأقطار المسيحية ، ولكن كان من الميسور حرمانهم منه ، اذا تسامحوا فيما بينهم فى أفكار تزعزع الأساس الدينى للأخلاق والنظام الاجتماعى •• وطبقا لما جاء فى سيرة حياة سبينوزا التى كتبها فى السنة التى مات فيها أحد اللاجئين الفرنسيين فى هولنده ، وهو جين مكسيمليان لوكاس ، أضاف الطلبة الذى أبلغوا عن شكوك باروخ — أضافوا كذبا وبهتانا اتهامه بأنه أبدى احتقاره للشعب اليهودى لاعتقاده بأنه شعب الله المختار بصفة خاصة وأن الله هو مؤلف شريعة موسي (٨) • ولسنا ندرى الى أى حد

× عمل فان دن اند أخيرا جاسوسا خاصا للهولنديين فى باريس ، وقبضت عليه الحكومة الفرنسية وأعدم شنقا (١٦٧٦) (٦) •

يمكن تصديق هذا الكلام • وعلى أية حال ، فلا بد أن زعماء اليهود كرهوا أى تمزق فى العقيدة التى كانت فى ذروة القوة كما كانت معينا لا ينضب من العزاء والسلوى لليهود طوال قرون الشقاء المرير •

واستدعى الأحبار سبينوزا وسلقوه بالسنة حداد لأنه خيب الآمال الكبار التى كان معلموه قد عقدوها على مستقبله فى الجالية اليهودية وكان أحد هؤلاء المعلمين ، وهو منشه بن اسرائيل ، متغيبا فى لندن • أما المعلم الآخر ، وهو شاءول مورتيرا ، فقد توسل الى الشاب أن يتخلى عن هرطقاته • وانصافا للأحبار ، يجدر بنا أن نذكر أن لوكاس ، برغم تعاطفه الشديد مع سبينوزا يسجل أنه عندما استرجع مورتيرا ذكرى العناية الفائقة التى أولاها تلميذه الأثير لديه فى تعليمه اللغة العبرية ، « رد باروخ بأنه يسعده الآن ، مقابل ما بذله معلمه مورتيرا من جهد ، أن يعلمه كيف يصدر قرار الحرم (الحرمان الدينى) (٩) » ويبدو هذا منافيا الى أبعد حد لما نسمع عن طباع سبينوزا ، ولكن ينبغى ألا نترك لعواطفنا اختيار الدليل ، (وخلافا لما قال شيشرون) يندر أن يكون ثمة شيء بالغ غاية الحمق الا أمكنك أن تجده فى حياة الفلاسفة •

وقيل ان زعماء الكنيس عرضوا على سبينوزا معاشا سنويا قدره ألف جولدن اذا هو وعد ألا يتخذ خطوة عدائية ضد اليهودية ، وحضر الى الكنيس من وقت لآخر (١٠) ، ويبدو أن الأحبار أصدروا ضده فى بداية الأمر قرار « الحرم الأصغر » فقط ، وهو مجرد حرمانه من الاتصال بالجالية اليهودية لمدة ثلاثين يوما فقط (١١) • وقيل انه قبل هذا الحكم عن طيب خاطر قائلا « حسنا ، انهم أرغمونى على ألا أفعل شيئا ما كنت لأفعله بمحض ارادتى (١٢) » ، وربما كان بالفعل يعيش آنذاك خارج الحى اليهودى بالمدينة • وحاول أحد المتعصبين أن يقتله، ولكن السلاح لم يصب الا سترته • وفى ٢٤ يوليه ١٦٥٦ أعلنت السلطات الدينية والمدنية فى الجالية اليهودية من فوق منبر الكنيس البرتغالى ، فى مهابة وكآبة ، « الحرم التام » لباروخ سبينوزا ، بما يقترن بذلك من اللعنات والمحظورات المعتادة : ألا يتحدث اليه أحد ولا يكتب اليه ، ولا يؤدى له أية خدمة ، ولا يقرأ كتاباته ، أو يقترب منه على مسافة أربعة أذرع (١٣) • وقصد مورتيرا الى السلطات الرسمية فى امستردام، وابلغها بالاتهامات وقرار الحرم ، وطلب اليها طرد سبينوزا من المدينة،

فاصدرت حكمها بنفى سبينوزا لبضعة أشهر (١٤) ، فذهب الى قرية أودركيرك القريبة ، ولكنه سرعان ما عاد الى امستردام ٠

وأكسبته معرفته باللاتينية عدة صداقات فى دائرة محـــدودة من الطلبة تزعمهم لودفيك ميير وسيمون دى فريس ، وكان ميير حاصلا على درجات جامعية فى الفلسفة والطب ، ونشر فى ١٦٦٦ « فلسفة تفسير الاسفار المقدسة » ٠ وفيه أخضع الكتاب المقدس للعقل ٠ وربما عكس هذا الكتاب آراء سبينوزا - أو أثر عليها ٠ أما دى فريس فكان تاجرا ثريا ناجحا ، شديد الولع بسبينوزا الى حد أنه رغب فى منحه الفى فلورين ولكن الفيلسوف أبى ٠ فلما أحس التاجر بدنو الأجل (١٦٦٧) وكان غير متزوج ، فانه عرض أن يكون سبينوزا وريثا ، ولكنه اقنعه بأن يترك كل ثروته لأخ له ٠ وقدم الأخ الشكور المعترف بجميل سبينوزا منحة سنوية قدرها ٥٠٠ فلورين ، ولكن سبينوزا اكتفى بثلثمائة (١٥)٠ وكتب صديق آخر من أمستردام ، هو جوهان بوفميستر اليه « أحبنى لأنى أحبك من كل قلبى » (١٦) ٠ والى جانب الفلسفة كانت الصداقة هى الأساس الرئيسي فى دعم حياة سبينوزا ٠ وكتب فى احدى رسائله :-

> من بين كل الأشياء التى فوق طاقتى لا أقدر شيئا أكثر من تقديرى لأن يكون لى شرف عقد أواصر الصداقة مع أناس يحبون الحقيقة فى اخلاص ، فانه من بين الأشياء التى فوق طاقتنا ، ليس فى العالم شيء يمكن أن نحبه فى هدوء الا مثل هؤلاء الرجال (١٧) ٠

ولم يكن سبينوزا منعزلا متقشفا زاهدا كل العـزلة والتقشـــف والزهد ، بل انه استحسن « جيد الطعام والشراب ، والتمتع بالجمال وتربية الازهار والاستماع الى الموسيقى والتردد على المسرح (١٨) » وفي احدى هذه الزيارات كانت محاولة قتله ٠ وكان عليه أن يظل يخشى اغتياله ٠ ونقشت على خاتمه كلمة واحدة « حذار ١٩ » ولكنه أحب ، اكثر كثيرا من تلك المتع والتسلية ، بل حتى أكثر من الصداقات ، أحب العزلة والدراسة وهدوء الحياة البسيطة ٠ يقول بيـــل : « ان زيارات اصدقائه له كانت تفسد عليه تأملاته كثيرا (٢٠) »٠ ومن أجل ذلك هجر امستردام ليقيم فى قرية هادئة « وينزبرج » - (مدينة على الراين)

ـ على مسافة ستة أميال من ليدن • واتخذت شيعة من أتباع ابن ميمون (وهى تشبه الكويكرز) مقرا لها فى تلك القرية • ولقى سبينوزا ترحيبا بين احدى اسرات هذه الجماعة •

وفى هذا المنزل المتواضع ، الذى يحتفظون به الآن باعتبـــاره « متحف سبينوزا » كتب الفيلسوف عدة رسائل صغيرة والجزء الأول من « الأخلاق » • وفى ١٦٦٢ كتب « رسالة موجزة عن الله والانسان وسعادته » ، ولكنها كانت الى حد كبير انعكاســـا لديكارت • والأكثر منها امتاعا وتشويقا رسالته عن « اصلاح العقل » التى طرحت جانبا دون اتمامها فى تلك السنة نفسها • وانا لنجد فى صفحاتها الأربعــين عرضا مسبقا لفلسفة سبينوزا • وانا لنحس من أول عبارة فيها وحشة الرجل المنبوذ من المجتمع •

> بعد أن علمتنى التجربة أن كل الأشـــياء التى يكثر وقوعها فى الحياة العادية عقيمة غير ذات جدوى ، وحين رأيت أن كل الأشياء التى كنت أخشاها ، والتى خوفتنى ، ليس فيها فى حد ذاتها شيء حسن أو سيىء الا بقدر ما يتأثر الذهن بها ، فانى اعتزمت آخر الأمر أن أتحرى هل يمكن أن يوجد شيء حسن حقا ، وقادر على أن ينقل حســـنه وخيره ، ويمكن أن يتأثر به الذهن الى حد استبعاد سائر الأشـــياء •

وأحس سبينوزا بأنه لا الثراء ولا الشهرة ولا الملذات الجســمية يمكن أن تفعل هذا ، وغالبا ما يختلط الاهتياج والأسي بهذه المباهج »، وليس الاحب شيء خالد لا متناه هو الذى يغذى الذهن باللذة والمتعــة •• مجردة من كل ألم (٢١) ، وربما أمكن أن يكتب هــذا بقلم توماس كمبيس أو جاكوب يوم ، والحق انه بقى دائما فى سبينوزا اثارة أو حالة من التصوف ربما جاءته من القبالة ، والآن غذتها عزلته وزادتها قوة ، ان الخير الخالد اللامتناهى « فى ذهنه يمكن أن يسمى « الله » ولكن فقط فى تعريف سبينوزا الأخير للاله باعتباره ذا طبيعة لها قدراتها الخلاقة وقوانينها • ويقول كتاب « اصلاح العقــل » : « الخير الأعظم هو معرفة اتحاد الذهن مع الطبيعة بأسرهـــا •••

وكلما ازداد الذهن فهما لنظام الطبيعة ، ازدادت قدرته على التحـرر من الأشياء العقيمة غير المجدية (٢٢) » • وهنا نجـد أول تعبير لسبينوزا عن « الحب العقلى لله » ـ التوفيق بين الفرد وبين طبيعة الأشياء وقوانين الكون •

وهذه الرسالة البليغة الموجزة تبين كذلك هدف تفكير سبينوزا وفهمه للعلم والفلسفة » ، بودى أن أوجه كل العلوم الى وجهة واحدة أو غاية واحدة هى بالذات ، الوصول الى أقصي درجـة ممكنـة من الكمال الانسانى ، ومن ثم ينبغى نبذ أى شي فى العلوم لا يسعى لهـذه الغاية ، باعتباره عقيما غير مجد (٢٣) » • وهنا نجد اتجاها مختلفا كل الاختلاف عما سمعنا من فرانسيس بيكون ، أن تقدم العلوم يكون وهما وخداعا اذا أدت الى مجرد زيادة سيطرة الانسان على الأشياء ، دون تحسين أخلاقه ورغباته • وهذا هو السبب فى تسمية « تحفة » الفلسفة الحديثة « بالأخلاق » على الرغم من مقدمتهـا الميتافيزيقية الطويلة ، وأن كثيرا منها سوف يحلل استرقاق رغبات الانسان له ، ونحرره عن طريق العقل •

٢ ـ اللاهوت والسياسة

ترامى الى أسماع الطلبة الشبان الذين تركهم سبينوزا وراءه فى أمستردام ، أنه كان قد شرع ، من أجل تلميذ فى راينزبرج ، فى ترجمة هندسية لكتاب ديكارت « المبادىء الفلسفية » • والحـوا عليـه فى اكمالها وارسالها اليهم ، ففعل ، ودفعوا هم نفقات طبعها (١٦٦٣) بعنوان « عرض المبادىء الفلسفية لديكارت على أساس هندسي » • ويهمنا أن نذكر عنها ثلاث نقاط : أنها عبرت عن آراء ديكارت (فى الارادة الحرة مثلا) لا عن آراء سبينوزا ، وأنها الكتاب الوحيد الذى طبع فى حياة سبينوزا حاملا اسمه • وأنه فى جزء ملحق بها « تفكير ميتافيزيقى » ، قال سبينوزا بأن الزمن ليس حقيقة موضـوعية بل طريقة تفكير (٢٤) ، وهذا واحد من عناصر « كانت » فى فلسـفة سبينوزا •

وكسب سبينوزا فى راينزبرج أصدقاء جدد ، فقد تعرف عليـه هناك عالم التشريح العظيم ستينو • وكان هنرى أولدنبرج عضـو

الجمعية الملكية قاصدا الى ليدن ١٦٦١ ، فحاد عن طريقه المرسوم ليزور سبينوزا ، وكان لذلك وقع شديد فى نفسه ، ولدى عودته الى لندن بدأت مراسلات طويلة بينه وبين الفيلسوف الذى لم تكن مؤلفاته قد طبعت بعد ، بيد أنه كان ذا شهرة واسعة . وثمة صديق آخر من راينزبرج أوريان كورباج ، استدعى للمثول أمام احدى محاكم أمستردام (١٦٦٨) بتهمة دأبة على معارضة اللاهوت السائد ، وسعى أحد القضاة الى توريط سبينوزا فى القضية باعتباره مصدر هرطقة كورباج ، ولكن هذا أنكر أية علاقة لسبينوزا بالامر ، فانقذ الفيلسوف. ولكن حكم على المهرطق الشاب بالسجن عشر سنين ، حيث قضى نحبه بعد أن أمضي فيه خمسة عشر شهرا . ومن هنا ندرك لماذا لم يتعجل سبينوزا طبع مؤلفاته .

وفى يونيه ١٦٦٣ انتقل الى فوربورج قرب لاهاى . واقام لمدة ستة أعوام فى بيت أحد الفنانين يصقل العدسات ، ويؤلف « الأخلاق ». وكانت المقاطعات المتحدة فى حرب دفاعية مستميتة ضد لويس الرابع عشر ، وقد أزعج هذا الحكومة الهولندية ودعاها الى فرض قيود أشد صرامة على حرية التعبير عن الآراء . ومع ذلك نشر سبينوزا فى ١٦٧٠ ، دون الافصاح عن اسمه « رسالة اللاهوت والسياسة » أصبحت حدثا أو معلما هاما من معالم نقد الأسفار المقدسة . وأوضحت صحيفة العنوان فى رسالة اللاهوت والسياسة « الغرض منها » : وهو ايضاح انه يمكن منح حرية الفكر والكلام دون تحيز للدين والسلام العام ، كما أنه يمكن كذلك عدم كبت هذه الحرية دون تعريض الدين والسلام العام للخطر » . وتنصل سبينوزا من الالحاد وأنكره ، وأيد أساسيات العقيدة الدينية . ولكنه أخذ على عاتقه اظهار قابلية الانسان للخطأ فى هذه الأسفار المقدسة ، وهى ما بنى عليه رجال الدين الكلفنيون لاهوتهم تعصبهم ، وكان رجال الدين فى هولنده يستخدمون نفوذهم ونصوص الكتب المقدسة لمناهضة الجماعة التى تزعمها « دى ويت » والتى أيدت الفكر المتحرر ومفاوضات السلام ، وكان سبينوزا مخلصا أشد الاخلاص لهذه الجماعة ولجان دى ويت :

مذ رأيت الخلافات الحادة التى تشبت بين الفلاسفة فى الكنيسة والدولة ، وهى مصدر الكراهية المريرة والانشقاق

...فانى اعتزمت أن أتناول بالبحث من جديد ، الكتـاب المقدس ، بدقة وروح غير متحيزة ، طليقة غير مقيدة ، دون أن أضع افتراضات أو نظريات لا أرى بوضوح أنها موجودة فيه . ومع هذه الاحتياطات وضعت طريقة لتفسير الأسفار المقدسة(٢٦) .

ان سبينوزا تنبه الى صعوبة فهم لغة العهد القديم العبرية وضرب الذلك أمثلة ، فان النص المازورى - الذى زود بالحروف اللينة وحركات النطق التى أهملها ناسخو التوراة الأصليون كان حدسا وتخمينا الى حد ما ، ولا يكاد يوفر نموذجا أصليا موثوقا لا يقبل الجدل ، واستفاد فى الفصول الأولى من هذه الرسالة كثيرا من رسالة ابن ميمون « دليل الحيران » . وحذا حذو ابراهام بن عزرا وآخرين فى الارتيـاب فى تأليف موسي للأسفار الخمسة الأولى . وأنكر أن يشوع هـو الذى ألف سفر يشوع ، ونسب الأجزاء التاريخية فى العهد القديم الى القسيس الكاتب عزرا فى القرن الخامس قبل الميلاد . أما سفر أيوب فقد ذهب الى أنه كان من عمل الأمميين (الكفار) ثم ترجم الى العبرية . ولم تلق كل هذه النتائج قبولا لدى الباحثين المتأخرين ، ولكنها كانت خطوة جريئة نحو التعرف على ريتشارد سيمون ١٦٧٨ تحت عنوان « نقد العهد القديم » . وأوضح سبينوزا أنه فى حالات كثيرة ، تكررت نفس القصة أو القطعة فى مواضع مختلفة من الكتاب المقدس ، بنفس الألفاظ أو فى روايات محرفة ، توحى احداها بالاقتباس العادى من مخطوطة قديمة ، وتثير أخرى التساؤل عن بيان « كلمـة الله (٢٧) » وكانت هناك استحالات وتناقضات من حيث التوقيت الزمنى ، وفى رسالة بولس الرسول الى الرومان (٣ : ٢٠ - ٢٨) لقنهم أن خلاص الانسان يمكن أن يكون بالايمان وحده لا بالعمل ، ولكن رسـالة بولس جيمس (٢ : ٢٤) أوردت نقيض هذا على خط مستقيم ، فأيهمـا تتفق مع « كلمة الله وتوجيهه » ؟ وأشار الفيلسوف الى أن مثل هذه النصوص المتباينة قد خلقت بين رجال اللاهوت صراعاتمريرة أشـد المرارة ، بل دامية ، بدلا من السلوك القويم الذى يحث عليه الدين .

وهل أنبياء العهد القديم صوت الله ؟ . واضح أنهم لم يتفوقوا

من حيث المعرفة على الطبقات المثقفة فى زمانهم ، فان يشوع ، على سبيل المثال ، كان يسلم تسليما جازما بان الشمس ، حتى « أوقفها » يشوع ، كانت تدور حول الأرض (٢٨) . ولم يتفوق هؤلاء الأنبياء فى العلم ، بل برزوا فى قوة الخيال والحماسة والغيرة والشعور ، كانوا شعراء وخطباء عظاما . ومن الجائز أن الوحى نزل عليهم من عند الله واذا كان الأمر كذلك ، فان عملية الوحى قد تكون تمت بطريقة اعترف سبينوزا بعجزه عن ادراكها (٢٩) . وربما حلموا بأنهم رأوا الله ، وربما اعتقدوا فى صحة أحلامهم. فانا نقرأ «أبيمالك» أن الله جاء اليه فى حلم الليل » سفر التكوين ٢٠ : ٦) . ان العنصر الالهى فى الأنبياء ليس نبوءاتهم ، بل حياتهم الفاضلة ، والفكرة الرئيسية فى عظاتهم هى أن الدين يكمن فى السلوك القويم ، لا فى الطقوس المرهقة .

وهل كانت المعجزات التى دونت فى الكتاب المقدس اضطرابات حقيقية فى مجرى الطبيعة العادى ؟ وهل أدت خطايا البشر الى الحريق والفيضان ؟ وهل أتت صلواتهم ودعواتهم بخصوبة الأرض ؟ ذهب سبينوزا الى أن مثل هذه القصص استخدمها مؤلفو الأسفار المقدسة لينفذوا الى أفهام البسطاء من الناس ويحثوهم على الفضيلة والتقوى ، ويجدر بنا ألا نأخذها بحروفها :

> ومن ثم ، فاننا ، حين يقول الكتاب المقدس بأن الأرض مجدبة بسبب خطايا البشر ، أو أن الايمان يبرىء الأعمى ، يجدر بنا ألا نعير هذا التفاتا أكثر من التفاتنا الى قوله ، أى الكتاب المقدس ، بأن الرب غاضب على خطايا البشر . وأنه حزين وأنه نادم على وعد أو فعل من خير ، أو أنه عند رؤية علامة يتذكر شيئا كان قد وعد به ، فان هذه التعبيرات وأضرابها اما أنها ألقيت القاء اشاعريا ، أى من قبيل خيال الشعراء ، أو رويت وفقا لآراء الكاتب وأهوائه . وينبغى أن نكون على يقين ، كل اليقين من أن كل شيء وصفته الأسفار المقدسة وصفا صادقا حقيقيا ، حدث حتما - مثل سائر الأشياء - وفقا للقانون الطبيعى ، وأن شيئا دون فيها مما يمكن اثباته على أسس موضوعة تتنافى مع نظام الطبيعة أو يتعذر استنتاجه منها ، فانه يجدر بنا أن نؤمن

بانه مدسوس على الأسفار المقدسة عن طريق أيد مارقة عن الدين . فان أى شيء مناقض للطبيعة مناقض للعقل ، وأى شيء مناف للعقل سخيف مضحك (٣٠) .

وربما كان هذا أصرح اعلان لاستقلال العقل وضعه فيلسوف حديث بعد . وبقدر ما حاز هذا الاعلان قبولا ، فانه انطوى على ثورة ذات معنى ونتائج أعمق من كل حروب ذاك العصر وسياسته .

بأى معنى اذن يكون الكتاب المقدس « كلمة الله ؟ » . بهذا المعنى وحده ، وهو أنه يحتوى على قانون أخلاقى يربط الناس بالفضيلة . انه يحتوى كذلك على أشياء كثيرة أدت الى نزعة شديدة الى الشر فى الانسان - أو هيأت لها ، وبالنسبة للكثرة الكثيرة من الناس المرهقين الى حد كبير بمشاغلهم اليومية الى درجة أنهم لا يجدون فراغا أو قدرة على تنمية عقولهم ، يمكن أن تكون قصص الكتاب المقدس خير عون لهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة . ولكن التعليم الدينى يجب أن يتركز على السلوك لا على العقيدة . ويكفى أن تقتصر العقيدة على الايمان « بوجود الله ، كائن أسمى يحب العدل والاحسان » ، وخير عبادة له هى معاملة الجار بالعدل والانصاف وحبه . ولا ضرورة لمبدأ آخر (٣١) .

والى جانب هذا المبدأ ينبغى أن يكون الفكر حرا ، ان الكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتابا مدرسيا للعلوم أو الفلسفة ، فهذه العلوم والفلسفة مكشوفة أمام أعيننا فى الطبيعة ، وهذا الوحى الطبيعى هو أصدق وأشمل صوت الله .

> ليس بين العقيدة أو اللاهوت وبين الفلسفة .... أية علاقة أو صلة نسب ... وليس للفلسفة غاية تصبو اليها الا الحقيقية ، أما العقيدة ... فلا تفتش الا عن الطاعة والامتثال والتقوى . فالعقيدة اذن تهيىء أعظم مدى للتأمل الفلسفى ، وتسمح لنا دون عتب أو ملام أن نفكر كيف نشاء فيما نشاء ، ولا تتهم بالهرطقة والانشقاق الا أولئك الذين يميلون الى اثارة الكراهية والغضب والنزاع (٣٢).

وهكذا نرى سبينوزا فى تحوله المتفائل قد جدد تمييز بومبوناتزى

بين حقيقتين : اللاهوتية والفلسفية ويمكن أن تتهيأ كل منهما ، برغم تناقضهما ، لشخص بعينه فى حالة كونه مواطنا ، ثم فى حالة كونه فيلسوفا وقد يجيز سبينوزا للموظفين الرسميين المدنيين حق فرض طاعة القوانين ، كما أن للدولة ، شأنها شأن الفرد ، الحق فى حماية ذاتها ، ولكنه يضيف :

> ان الأمر بالنسبة للدين يختلف اختلافا كبيرا ، فمن حيث أنه لا يتألف من عمل ظاهرى بقدر ما يتألف من بساطة الخلق وصدقه ، فانه يقف خارج نطاق القانون والسلطة العامة . ان بساطة الخلق والصدق فيه لا تنتجهما قيود القوانين ولا سلطة الدولة ، وليس ثمة فرد فى العالم بأسره يمكن أن يفرض عليه التنعم بالسعادة الروحية أو تسن له القوانين من أجلها . والوسيلة المطلوبة لتحقيق هذا هى النصح المخلص الأخوى والتعليم الصحيح ، وفوق كل شيء الاستخدام الحر للحكم أو الرأى الشخصي .. .. ان فى مقدور كل انسان أن يستخدم بنجاح حقه العظيم فى حرية الرأى والحكم ، ويستخدم سلطته فى ذلك .. .. وأن يشرح ويفسر الدين لنفسه (٣٣) .

وينبغى أن تخضع الممارسة العلنية للدين لرقابة الدولة . ذلك أنه على الرغم من أن الدين قد يكون عنصرا حيويا فى تشكيل الأخلاق ، فان الدولة يجب أن تكون صاحبة السلطان الأعلى فى كل الأمور التى تؤثر فى السلوك العام . وكان سبينوزا أرسطوسيا (يقول بأن الدولة السلطة العليا فى الشئون الكنسية) عتيدا مثل هوبز ، وحذا حذوه فى اخضاع الكنيسة للدولة ، ولكنه حذر قراءة قائلا : « انى أتحدث هنا عن الشعائر الظاهرية فحسب .... لاعن .... العبادة الباطنية (٣٤) ». وكان ناقما أشد النقمة (وربما تمثل فى خاطره لويس الرابع عشر) حينما استنكر استخدام الدولة للدين فى أغراض تتنافى مع مفهومه عن الديانة الأساسية العدل وعمل الخير .

> اذا كان اللغز للغز الرهيب الأساسي فى الدولة الاستبدادية هو التغرير بالرعايا وتقنيع الخوف الذى يكبح جماحهم بلباس

خداع من الدين ، حتى يقاتل الناس من أجل العبـودية بمثل البسالة التى يناضلون بها من أجل أمنهم وسلامتهم ، ولا يعتبرونه عارا بل شرفا كبيرا أن يبذلوا دماءهم وحياتهم رخيصة من أجل زهو وخيلاء وعظمة جوفاء ينعم بها طاغية جبار ، فانه فى الدولة الحرة يتعذر تدبير وسائل نفعيـة شريرة ، أو محاولة اللجوء اليها ، وأنه ليتعارض مع الحرية العامة كل التعارض ، أن ينفذ القانون الى مجال الفكر المتأمل وتتعرض الآراء للتحقيق والمساءلة ، وتوضع موضع الاتهام والعقاب مثل الجرائم سواء بسواء ، على حين يضحى بالمدافعين عنها وباتباعها ، لا من أجل الأمن والسلامة العامة ، بها على مذبح كراهية خصومها وقساوتهم • ولو أمكن اتخاذ الأعمال وحدها أساسا لتوجيه الاتهام بالجرائم ، وأطلقت حرية القول ••• لتجرد التحريض على الفتنة من أية شبهة لتبريره ، ولأمكن الفصل بينه وبين مجرد الخلاف فصلا شديدا (٣٥) •

وواجه سبينوزا أثناء دراسته الكتاب المقدس قضية الخلاف الأساسية بين المسيحيين واليهود • هل كانت المسيحية غير مخلصة للمسيح أو خائنة لعهده حين نبذت شريعة موسي ؟ ومن رأيه أن تلك الشريعة سنت لليهود فى نطاق دولتهم هم ، لا لأية أمم أخرى ، حتى ولا لليهود أنفسهم اذا كانوا يقيمون فى مجتمع غريب عنهم ، والقوانين الأخلاقية وحدها فى شريعة موسي (مثل الوصايا العشر) هى التى تتمتع بصلاحية أبدية عامة لكل زمان ومكان (٣٦) • وتنم بعض الأجزاء فى بحث سبينوزا فى اليهودية عن استياء شديد من صدور قرار « الحرم » ضده ، وعلى حرص شديد منه على تبرير نبذه لتعاليم الكنيس ، ولكنه انضم الى اليهود فيما يراودهم من أمل فى عودة عاجلة الى دولة مستقلة • « قد أذهب بعيدا الى حد الاعتقاد بأنهم ••• سيقيمون دولتهم من جديد ، وأن الله سيختارهم للمرة الثانية (٣٧) »•

وتناول المسيحية عدت مرات ، وواضح أنه قرأ العهد الجديد فى اعجاب متزايد بالمسيح • ونبذ فكرة قيامة المسيح بجسده من بين الأموات (٣٨) • ولكنه ألفى نفسه يتعاطف تعاطفا شديدا مع موعظة

يسوع الى حد أنه اقر بأن وحيا خاصا نزل عليه من عند الله :

> ان انسانا يستطيع بفطرته النقيـــة أن يدرك أفكارا ليست موجودة ، كما لا يمكن استنتاجها من أساس معرفتنا الطبيعية ، لا بد أنه بالضرورة يتمتع بعقل أسمى بكثير من عقول رفاقه ، بل انى لا أعتقد أن أحدا اختص بهـــذا غير المسيح ، وقد أوحيت اليه مباشرة أوامر الله التى تؤدى الى الخلاص ، بغير كلمات ولا رؤى • ومن ثم فان الله كشف عن ذاته للرسل عن طريق عقل المسيح ، كما فعل من قبل مع موسي عن طريق الصوت الخارق للطبيعة • وبهـذا المعنى يمكن أن يسمى صوت المسيح ، مثل الصـوت الذى ســمعه موسي ـ صوت الله ـ ، وقد يقال بان حكمة الله (وهى أسمى من حكمة البشر ×) ظهرت فى طبيعة المســيح البشرية ، وأن المسيح كان طريق الخلاص • وعند هذه النقطة لابد لى أن أعلن أن هذه النظريات ، التى تقدمها بعض الكنائس فيما يتعلق بالمسيح ، ليس فى وسعى أن أؤكدها أو أنفيها لأنى أعترف بكل صراحة أنى لا أفهمها ••• ان المسيح اتصل بالله عقلا لعقل وبناء على هذا يمكن أن نستخلص أنه لا أحد غير المسيح تلقى الوحى من الله ، دون عون من الخيال فى الكلمات أو الرؤى (٣٩) •

ان غصن الزيتون هذا ، الذى قدم الى الزعماء المسيحيين ، لم يكن ليخفى عنهم أن « الرسالة اللاهوتية السياسية » كانت من أجـرأ ما صدر من بيانات وآراء فى الصراع بين الدين والفلســفة • وما أن ظهرت الرسالة حتى احتج مجلس كنيسة امستردام (٣٠ يونية ١٦٧٠) لدى رئيس الدولة فى هولنده على السماح بتداول مثل هذا الكتـــاب المملوء بالهرطقة فى دولة مسيحية • وتوسل اليه أحد المجامع الكنسية فى لاهاى أن يلعن ويصادر « مثل هذه الكتب التى تعمل على تخريب النفوس (٤٠) » • وانضم النقاد العلمانيون الى الهجوم على سبينوزا• وسماه أحدهم « شيطانا مجسدا (٤١)» • ووصفه جـان لى كلرك بأنه

× انظر « كتاب الحكمة » ، و « الكلمة ـ لوجوس » فى الانجيل الرابع •

« أشهر ملحد فى زماننا (٤٢ » • واتهمـــه لامبرت فان فلتوسن بأنه « يحتال فى مكر ودهاء على بث الالحاد ••• وتقويض أركان العبادة والديانة من أساسها (٤٣) » • ومن حسن حظ ســبينوزا أن جان دى ويت رئيس الدولة كان من المعجبين به • وكان لفوره قد أجرى عليــه معاشا ضئيلا ، وما دام دى ويت حيا متربعا فى دست الحــكم ، فان سبينوزا كان فى مقدوره أن يعتمد على حمايته له • ولم تدم هذه الحماية لأكثر من عامين فقط •

٣ ـ الفيلسوف

فى مايو ١٦٧٠ ، بعد نشر الرسالة اللاهوتية السياسية بقليل ، انتقل سبينوزا الى لاهاى ، ربما ليكون على مقربة من دى ويت وغيره من الأصدقاء ذوى النفوذ • وأقام لمـــدة عام فى بيت « الأرملة فــان فيلين » ، ثم انتقل الى دار هندريك فان درسبيك على بافليونجراشت، وفى ١٩٢٧ اشترت لجنة دولية هذا المبنى ، واحتفظ به على أنه « مسكن سبينوزا » ، وبقى فيه الى آخر حياته • وشغل منه حجرة واحدة فى الطابق الأعلى ، ونام على سرير يمكن أثناء النهـــار أن يطـــوى الى حائط(٤٤) • ويقول بيل « وفى بعض الأحيان كان يقبع فى عقر الدار لا يخطو خارجها لمدة ثلاثة أشهر بأكملها » ، وربما أخافتـــه رئتـــاه المسلولتان من رطوبة الشتاء • ولكن كان زواره كثيرين ، ومرة أخرى يقول بيل انه بين الحين والحين « كان يقصد الى زيارة نفــر من ذوى المكانة والنفوذ ••• للتحدث معهم فى شئون الدولة التى كان يفهمها جيدا (٤٥) » • واستمر يشتغل بصقل العدسات ، وأطــرى العـــالم الفيزيائى الرياضي كريستيان هيجينز درجة اتقانها (٤٦) • واحتفظ الفيلسوف ببيان عن نفقاته ، ومنه نعلم أنه عاش على نحو خمســـة وعشرين سنتا فى اليوم ، وأصر أصدقاءه على مد يد المعونة له ، حيث لابد أنهم رأوا أن اعتكافه فى الدار والغبار الذى ينتج عن صقل العدسات كانا يضاعفان من علته •

وانتهت الحماية التى بسطها دى ويت على سبينوزا حين اغتـال بعض الرعاع الأخوين دى ويت فى شوارع لاهاى (أغسطس ١٦٧٢) • ولما سمع بنبأ اغتيالهما رغب فى مغادرة الدار ليعلن الى هؤلاء الرعاع

استنكاره لفعلتهم باعتبارهم « أحط المتوحشين » ، ولكن صاحب الدار غلق الأبواب ومنعه من مغـــادرة الدار (٤٧) ٠ وترك جان دى ويت لسبينوزا فى وصيته راتبا ســـنويا قدره مائتا فرنك (٤٨) × ٠ وبعد موت دى ويت انتقلت السلطة المدنية الى الأمير وليم هنرى الذى كان فى حاجة الى تأييد رجال الدين الكلفنيين ٠ ولما صدرت الطبعة الثانية من « الرسالة اللاهوتية السياسية ١٦٧٤ ، أصدر الأمير ومجلس هولنده مرسوما يحظر بيع الكتـــاب ، وفى ١٦٧٥ أذاع مجلس الكلفنيين فى لاهاى بيانا يأمر فيه كل المواطنين بالابلاغ فورا عن أية محاولة لطبـع أية مؤلفات لسبينوزا (٤٩) ٠ وفيما بين عامى ١٦٥٠ و ١٦٨٠ – صدر من سلطات الكنيسة نحو ٥٠ مرسوما بتحريم قراءة مؤلفات الفيلسوف أو تداولها (٥٠) ٠

وربما ساعدت قرارات الحظر هذه على ذيوع شهرته فى المانيـا وانجلترا وفرنسا ٠ وفى ١٦ فبراير ١٦٧٣ كتب جــوهان فابريشيوسي الاستاذ بجامعة هيدلبرج « الى الفيلســـوف الألمعى المشـــهور بندكت سبينوزا ، باسم ناخب البالاتينات المتحرر ، الأمير شارل لويس :

طلب الى صاحب العظمـة الأمير ، أن أكتب اليـــكم ٠٠ لأسألكم اذا كنتم ترغبون فى قبول منصب الأستاذية العادية للفلسفة فى جامعته الشهيرة ٠ وسيعطيك الراتب السنوى الذى يتقاضاه الأساتذة العاديون الآن ٠ انك لن تجد فى أى مكان آخر أميرا أشد ايثارا وأكثر عطفا على العباقرة المرموقين الذين يعدك واحدا منهم ٠ وسيكون لك مطلق الحـرية فى اتخـاذ أى اتجـــاه فلســـفى يعتقد الأمير أنك لن تسيء استخدامه فى افساد جو الديانة الرسمية علانية ٠٠ ٠٠

وأجاب سبينوزا فى ٣٠ مارس :

السيد الجليل ،

اذا كنت قد راودتنى الرغبة يوما فى شـــغل منصب

× يرتاب بعض الباحثين فى معرفة سبينوزا بجان دى ويت ٠ راجع كلارك – « القرن السابع عشر » ص : ٢٢٣ ٠

الأستاذية فى أية كلية ، لما رغبت فى منصب غير هذا الذى عرضه على ناخب البلاتينات المعظم عن طريقكم . ولما كنت على أية حال ، لم أفكر قط فى الاشتغال بالتعليم العام ، فانه يصعب أن أقنع نفسي باغتنام هذه الفرصة العظيمة ... أولا لأنى أعتقد أنى اذا أردت أن اوفر الوقت اللازم لتعليم الشباب فلا بد أن أتخلى عن تنمية فلسفتى وتطويرها . ثانيا - لست أدرى ما هى حدود الفكر الفلسفى التى يجب أن أعمل فى نطاقها ، حتى أتجنب ظهور أية رغبة فى تعكير جو الديانة الرسمية المعلنة . فان الانشقاقات والخلافات لا تثور نتيجة للحب الشديد للدين أكثر منها بسبب الميول والنزعات المتباينة فى الناس أو حب المعارضة والمخالفة فى الرأى ... ولقد خبرت هذه الأشياء بالفعل بينما كنت أعيش عيشة خاصة منعزلة ، ولا بد أن أكون أشد خشية من حدوثها ، اذا رقيت الى هذه المرتبة العظيمة (الأستاذية). وهكذا ترى يا سيدى الجليل أنى لا أحجم ، أملا فى مال أكثر ، أو حظ أوفر ، ولكنه حب الهدوء والرغبة فى السلام (٥١) .

وكان سبينوزا سعيد الحظ فى رفضه هذا المنصب ، فان المارشال الفرنسي تورين اجتاح البالاتينات فى العام التالى وأغلقت أبواب الجامعة .

وفى مايو ١٦٧٣ ، وفى غمرة الهجوم الذى شنه جيش فرنسي على المقاطعات المتحدة تلقى سبينوزا دعوة من زعيم فى هذا الجيش لزيارة كوندية الكبير فى أوترخت . واستشار سبينوزا فى أمر هذه الزيارة السلطات الهولندية التى ربما رأت فيها فرصة لفتح باب المفاوضات لعقد هدنة تدعو اليها الحاجة الملحة . وأمن له الطرفان كلاهما سبل الانتقال، وشق الفيلسوف طريقه الى أوترخت . وفى تلك الأثناء كان لويس الرابع عشر قد أرسل كونديه الى جهة أخرى . فبعث الى سبينوزا (كما يروى لوكاس) (٥٢) برسالة يطلب اليه فيها أن ينتظره ، وبعد بضعة أسابيع وصلت رسالة أخرى تقول انه سيتأخر الى أجل غير مسمى . والظاهر

أن مارشال دى لكسمبرج نصحه اذ ذاك أن يهدى الى الملك لويس كتابا ، مؤكدا له أنه سيلقى من الملك استجابة تتسم بالتحـرر (٥٣) . ولم يؤد الاقتراح الى نتيجة . وعاد سبينوزا أدراجه الى لاهاى ليجد كثيرا من المواطنين يشتبهون فى أنه خائن . وتجمع حشد معاد حول بيته يكيلون السباب ويقذفون الأحجار . فقال لصاحب البيت « لا تنزعج ، فأنا برىء، وهناك كثيرون من ذوى المناصب العالية يعرفـون لمـاذا ذهبت الى أوترخت . وحالما تسمع أى صخب أو شغب عند الباب ، فسأخرج أنا الى الناس حتى ولو كانوا سيفعلون بى مثل ما فعـلوا بجان دى ويت الطيب . أنا جمهورى مخلص آمين ، وهدفى خير الجمهورية (٥٤) ولم يدعه صاحب الدار يخرج . وتفرق الجمهور .

وكان سبينوزا آنذاك فى الحادية بعد الأربعين . وهناك فى مسكن سبينوزا فى لاهاى صورة تمثله نمطا دقيقا ليهودى سفردى ، ذى شعر أسود متدل ، وحاجبين كثيفين ، وعينين سوداوين براقتين مكتئبتين قليلا ، وأنف مستطيل مستقيم ، ووجه تغلب عليه الوسامة فى جملته ، اذا قورن فقط بالصورة التى رسمها هالس لديكارت . ويقول لوكاس : « كان أنيقا غاية الاناقة فى مظهره ، ولم يغادر قط بيته دون أن يرتدى من الثياب ما يميز السيد المهذب الماجد عن المتحذلق (٥٥) . واتسـم سلوكه بالرزانة والوقار مع الظرف والرقة . وقال أولدنبورج « ان علمه الراسخ اقترن بالروح الانسانية والدماثة (٥٦) » . وكتب بيل « ان كل الذين تعرفوا على سبينوزا يقولون بأنه كان اجتماعيا لطيـف المعشر ، أمينا ، ودودا حسن الخـلق (٥٧) » . ولم يتحـدث الى جيرانه بأية هرطقة ، بل على العكس شجعهم على الاستمرار فى الذهاب الى الكنيسة، ورافقهم من آن لآخر ليستمع الى موعظة (٥٨) . وكان أكثر من أى فيلسوف حديث آخر يتمتع بالهدوء الناجم عن ضبط النفس . وقلما رد على النقد ، وتناول فى رده الأفكار والآراء ، لا الأمور الشخصية. وعلى الرغم من اعتناقه مذهب الجبرية ، واقتلاعه من بين قومـه ، ومرضه ، كان أبعد ما يكون عن التشاؤم ، وقال « تصرف تصرفا حسنا، وابتهج وقر عينا (٥٩) » وربما كان شعار تفكيره أن يعرف أسـوأ الأشياء ، ويؤمن بأحسنها .

وتردد الأصدقاء والمعجبون به على داره . وأقنعـه والترفون

تشيرنهو بأن يطلعه على مخطوطه « الأخلاق » . وكتب اليه هذا العالم الرياضي الفيزيائى : « أرجو أن تساعدنى بلطفك المعهود حيثما أعجز عن فهم ما تقصد اليه فهما صحيحا (٦٠) . وربما تم وصول ليبنتز الى سبينوزا عن طريق هذا التلميذ المتلهف (١٦٧٦) ومن الجائز كذلك وصوله الى الرائعة التى لم تكن نشرت بعد . وقدم لرؤيته الأعضاء الباقون على قيد الحياة من ندوة دكتور ميير فى امستردام أو كانوا يتبادلون معه الرسائل والقت رسائله من والى العلماء والباحثين فى أوروبا ضوءا غير متوقع على المناخ العقلى فى ذاك العصر. وحثه هوجوموكسلى مرارا وتكرارا على التسليم بحقيقة وجود الأرواح الشريرة والأشباح . وفى ١٦٧٥ أرسل اليه من فلورنسا عالم التشريح ستينو نداءا مؤثرا ليتحول الى الكثلكة :

> انى آخذ على عاتقى عن طيب خاطر ، اذا أردت أنت ، مهمة هدايتك الى الطريق .. وعلى الرغم من أن علمك يفوق علمنا ، فانى أود لو أنك تقدمت الى الله فبرئت من أخطائك ونبذتها ، حتى اذا كانت كتاباتك السابقة قد صرفت ألفا من الانفس عن المعرفة الحقيقية لله ، فان رد هذه النفوس الى طريق الحق على أن تكون أنت قدوة تشد من أزرها ، قد يعيد الى الله ألف ألف معك ، كما لو كنت أوغسطين آخر أرجو من كل قلبى أن تحل بك هذه البركة والنعمة . وداعا (٦١) .

كذلك سحرت فتنة الكثلكة لب ألبرت بيرج ابن صديق سبينوزا كنراد بيرج وزير مالية المقاطعات المتحدة . وكان ألبرت ، مثل ستينو ، قد تحول الى الكاثوليكية أثناء رحلته فى ايطاليا . وفى سبتمبر ١٦٧٥ كتب الى سبينوزا متحديا ، أكثر منه متوسلا ، اياه أن يعتنق المذهب الكاثوليكى :

> من أين لك أن تعرف أن فلسفتك هى أفضل التعاليم التى لقنت فى العالم فيما مضي ، أو أنها أفضل ما يتلقاه العالم الآن بالفعل ، أو ما سيتلقاه فى المستقبل ؟ هل درست كل الفلسفات قديمها وحديثها ، مما يتعلمه الناس هنا وفى الهند وفى سائر أصقاع المعمورة ؟ وحتى اذا كنت

درستها جميعا .. كيف يتسنى لك أن تدرك أنك اخترت أحسنها ؟ .. .. واذا كنت ، على أية حال ، لا تؤمن بالمسيح فانك أياس وأجدر بالازدراء مما يمكن أن أصور لك . ولكن العلاج ميسور : ارجع عن خطاياك ، وتحقق من الغطرسة القاتلة التى ينطوى عليها تفكيرك الحقير المجنون .. .. هل تجسر أيها الرجل الحقير ، ياحشرة الأرض الدنيئة .. .. فى تجديفك الذى لا يصح أن يوصف ، أن تضع نفسك فوق « الحكمة المجسدة اللامتناهية » ؟ .. .. انك بقواعدك ومبادئك لا تستطيع أن تفسر تفسيرا كاملا حتى واحدا من هذه الأشياء التى ياتى بها السحرة .. .. كما انك لا تستطيع أن تفسر أيا من الظواهر المذهلة بين الذين يتملكهم الشياطين ، مما رأيت منه بعينى رأسي أمثلة كثيرة منه أو سمعت صدق الأدلة اليقينية عليه (٦٢) .

وفى ديسمبر ١٦٧٥ رد سبينوزا ردا جزئيا :

أخيرا فهمت من كتابك ما لم أكن أكاد أصدقه حين رواه لى آخرون ... وهو أنك لم تصبح عضوا فى الكنيسة الكاثوليكية فحسب .. .. بل انك كذلك من أشد أنصارها وحماتها غيرة وحماسة ، وأنك تعلمت الآن كيف تصب لعنتك وجام غضبك فى وقاحة على خصومك ومخالفيك . ولم أكن أعتزم الرد على رسالتك ... ولكن جماعة بعينها من الأصدقاء ، ممن علقوا أكبر الآمال على مواهبك الطبيعية الحوا على فى الرجاء الا أقصر فى حق صديق ، وأن أفكر فيما كنت عليه منذ فترة وجيزة لا فيما أنت عليه الآن ... وأقنعتنى تلك الحجج بكتابة هذه السطور اليك ، راجيا كل الرجاء أن تتفضل بقراءتها بنفس هادئة .

ولن أعدد لك هنا من جديد مساوىء القساوسة والبابوات ، لأصرفك عنهم ، كما اعتاد أعداء الكنيسة الكاثوليكية أن يفعلوا . لأنهم عادة ينشرون هذه المساوىء بداعى الحقد والغضب ، ورغبة فى الازعاج لا التقويم والتعليم . والحق أنى أقر بأنه يوجد فى الكنيسة الكاثوليكية

رجال على قدر كبير من العلم والمعرفة واستقامة الحيـــاة أكثر مما يوجد منهم فى أية كنيسة مسيحية أخرى ، فانه حيثما توافر عدد أكبر من أتباع الكنيسة ، فلا بد أن يوجد عدد أكبر من الرجال من كل صنف . وهناك فى كل كنيسة كثيرون من الأمناء المخلصين غاية الأمانة والاخلاص ، ممن يعبدون الله فى عدل واحسان ، ... لأن العدل والاحسان أصدق أمارات المذهب الكاثوليـكى الحق ... وحيثمـــا يوجد هؤلاء ، يوجد المسيح حقـــا وصـــدقا ، وحيثمـــا يفتقدون ، يفتقد المسيح كذلك . لأن روح المسيح وحـــده هى التى يمكن أن تقودنا الى حب العدل والاحســـان . واذا كنت قد اعتزمت عزما أكيدا من قبل ، التفكير مليا بينك وبين نفسك فى هذه الحقائق ، لما ضللت ، ولما سببت لأبويك أشد الحزن والأسي .. .. انك سألتنى كيف أدرك أن فلسفتى أفضل الفلسفات التى ظهرت فى العـــالم من قبل ، و التى تلقن الآن ، أو ستلقن فى المستقبل . والواقع أن لى حق أكبر فى أن أسألك هذا السؤال . لأنى لا ازعم انى وقعت على أفضل فلسفة . ولكنى أدرك أنى أظنهـــا الفلسفة الحقة .. .. ولكنكم أنتم الذين تزعمـــون أنكم وجدتم آخر الأمر أحسن ديانة ، أو على الأرجح أفضـــل رجال واسرعتم الى تصديقهم كيف تعرفون أنهم أفضل من علم سائر الديانات ، أو يعلمونها الآن ، او سيقومون بتلقينها فى المستقبل ؟ هل درستم كل تلك الديانات قديمها وحديثها تلك التى تلقن هنا وفى الهند وفى سائر أنحاء العـــالم ؟ وحتى لو كنتم درستموها حق الدرس ، كيف تعرفون أنكم اخترتم أحسنها ؟ هل تعتبرونه عجرفة وغرورا ان استخدم عقلى فى الاذعان لكلمة الله الحقة الموجودة فى العقل ، ولا يمكن بأية حال افسادها أو تحريفها ؟ انأوا بأنفسكم عن هـــذه الخرافة المهلكة ، واعترفوا بالعقل الذى حباكم الله اياه ، وتعهدوه اذا لم تكونوا فى عداد البهـــائم .. .. انكم اذا أمعنتم النظر فى تاريخ الكنيسة (وانى لأدرك أنكم على أكبر درجة من الجهـــل به) لتدركوا مدى زيف كثير من

التقاليد البابوية ، ولكى تعرفوا ... بأية حيـل وأفانين استطاع البابا الرومانى ، بعد ستمائة سنة من ميلاد المسيح أن يسيطر على الكنيسة ، فانى لا أشك لحظة فى أنكم آخـر الأمر ستفيقون من غفلتكم . وانى لأود من صميم قلبى أن يتم لك هذا ، وداعا (٦٣) .

والتحق بيرج بطائفة الفرنسيسكان ، وقضي نحبه فى أحد الأديار فى رومة .

ومعظم رسائل سبينوزا الباقيـة كانت مع أولدنبيرج . واننـا لتتولانا الدهشة أن نجد أن كثيرا منها عالج العلوم ، وأن سبينوزا قام بتجارب فى الفيزياء والكيمياء ، وأن رسائله كانت موضـحة بالرسوم البيانية والتخطيطية ، وانقطعت هذه الرسائل فى ١٦٦٥ ، فقد اعتقل أولدنبرج فى ١٦٦٧ وسجن فى برج لندن للاشـتباه فى اتصاله بدولة أجنبية ، وانصرف الى الدين عند اخلاء سبيله ، وعندما استانف مكاتبة سبينوزا (١٦٧٥) انضم الى المساعى المبذولة لضمه الى أية فرقة من فرق المسيحية الصحيحة ، ورجاه أن يأخذ قصة قيامة المسيح حرفيـا لا رمزا ولا مجازا . وقال « ان العقيـدة المسـيحية بأسرها وحقيقتها ترتكزان على موضوع القيامة ، فاذا نحن استبعدناه ، انهارت كل رسالة المسيح وتعاليمه السماوية (٦٤) » . وفى خاتمة المطـاف تخلى عـن سبينوزا باعتباره نفسا ضالة ضائعة ، وانقطع عن مراسلته (١٦٧٧) .

وطوال الوقت ابتداء من عام ١٦٦٣ كان سبينوزا يعمل فى كتاب « الأخلاق » . وفى أبريل ١٦٦٢ كتب الى أولدنبورج أنه كان يفـكر فى نشره ولكنه « كان منالط بيعى أن يخشي من رجال اللاهـوت أن تأخذهم العزة بالاثم ، فيشنون عليه الهجوم بكراهيتهم المعهـودة ، وأنا أنفر من الشجار والنزاع كل النفور (٦٥) » . ولكن أولدنبـورج استحثه على النشر « مهما يكن من أمر تذمر رجال اللاهوت المشعوذين ونباحهم (٦٦) » . ولكن سبينوزا ظل بين الاحجام والاقدام . ورخص لبعض أصدقائه فى قراءة بعض أجزاء من المخطوطة ، وربما افاد من بعض تعليقاتهم لأنه أعاد مراجعة الرسالة عدة مرات . أن الضجة التى أثارتها « الرسالة اللاهوتية السـياسية » كانت تبرر ما تذرع به من

حرص وحذر ، كما ضايقه أكثر من ذلك قتـــل الأخـوين دى ويت ، والشبهات التى حامت حوله بعد زيارته للجيش الفرنسي ، ولم يشرع فى اتخاذ أية خطوة أخرى لطبع « الأخلاق » الا فى ١٦٧٥ ، وأبلغ النتائج الى أولدنبورج :

فى الوقت الذى تسلمت فيه رسالتك المؤرخـة فى ٢٣ يوليه كنت على وشك الرحيل الى أمستردام بغية البدء فى طبع الكتاب الذى كتبت اليك عنه · وبينما كنت مشغولا بهذا الأمر انتشرت فى كل مكان شائعة تقول بأن فى المطبعة كتابا لى عن « الله » ، وأنى حاولت فيه أن أبين أنه ليس هناك اله · واعتقد كثيرون فى صحة هذه الشائعة · ومن ثم انتهز بعض رجال الدين الفرصة ليتقدموا بالشكوى ضدى الى الأمير والقضاة ··· وعندما ترامى هذا الى ســمعى ··· قررت تأجيل النشر الذى كنت أعد له العدة (٦٧) ·

وطرح المخطوطة جانبا ، وانصرف الى كتابة رســالة عن الدولة « الرسالة السياسية » ، ولكن المنية عاجلته قبل الانتهاء منها ·

وفى ٦ فبراير ١٦٧٧ كتب الطبيب الشاب جورج هرمان شوللر الى ليبنتز « أخشي أن يفارقنا مستر بندكت سبينوزا وشيكا ، حيث يبدو أن حالة السل عنده تزداد ســوءا يوما بعد يوم (٦٨) ، وبعــد ذلك بأسبوعين ، وحين كان سائر أهل البيت متغيبين عنه ، دخل الفيلسوف فى النزع الأخير · وكان شوللر وحده (لامبير كما كان مظنــونا من قبل) معه فى تلك الفترة · وترك سبينوزا تعليمات ببيــع أمتعتـه المتواضعة لتسديد ديونه ، وبنشر مؤلفاته التى لم يسبق له احراقها ، غفلا من اسمه · وقضي نحبـــه فى ٢٠ فبراير ١٦٧٧ دون أية طقوس كهنوتية (٦٩) · ودفن فى مقبرة فى كنيسة لاهاى الجديدة بالقرب من مقبرة جان دى ويت · أما المخطوطات ـ وبخاصــة « الأخـــلاق » و « الرسالة السياسية » و « رسالة فى اصلاح العقل » فقد أعدها للمطبعة ميير وشوللر وغيرهما ، وطبعت فى أمستردام فى أواخر ١٦٧٧ ·

وهكذا نأتى فى خاتمة المطاف الى الكتاب الذى صب فيه سبينوزا عصارة حياته ونفسه التى انزوى بها عن الناس ·

٤ ـ اللـــه

ان سبينوزا سمى هذا الكتاب « الأخلاق العادية وعرض هندسي »، أولا لأنه ذهب الى أن كل الفلسفة هى اعداد للسلوك الصحيح والحيـاة الحكيمة ، وثانيا ، لأنه مثل ديكارت ، حسد الزهد العقلى والتسلسل المنطقى فى الهندسة ، وراوده الأمل فى أن يبنى على غرار اقليدس ، كيانا للتفكير ، تتعقب كل خطوة منه بصورة منطقية ماسـبقها من براهين • وهذه تشتق آخر الأمر بشكل لا يمكن دحضه من بديهيات أو حقائق مقررة يتقبلها الناس جميعا • وأدرك سبينوزا أن هذا مثل أعلى، وكان من العسير عليه أن يتصوره حائلا دون الخطأ ، لأنه كان بطريقة شبيهة بهذه شرح فلسفة ديكارت التى لم يوافق عليها •

ان المخطط الهندسي قد يؤدى على الأقل الى الوضوح ، وقد يحول دون اضطراب العقل بالانفعال ، واخفاء المغالطة والسفسطة بالفصاحة والبلاغة • ورأى أن يناقش سلوك الانسان ، بل حتى طبيعة الله ، فى هدوء وموضوعية ، كما لو كان يتناول الدوائر والمثلثات والمربعات • ولم يخل نهجه من أخطاء ، ولكنه أدى به الى ابتناء صرح للعقـل مهيب فى عظمته الهندسية ووحدته • وهذا المنهج استنتاجى ، وربما عبس له وجه فرانسيس بيكون ، ولكنه زعم أنه كان متناسـقا مع كل الخبرة •

وبدأ سبينوزا بتعريفات مأخوذة فى معظمها من فلسفة العصور الوسطى • وغيرت الالفاظ التى استخدمها معانيها منذ ذلك اليـوم ، وبعضها الآن يكسو فكره بالغموض والابهام • والتعريف الثالث أساسي : حيث عرف الجوهر بأنه « ما هو فى ذاته ومتصـور بذاته ، أعنى أن تصوره لا يعتمد على تصور شيء آخر لابد أن يكون مكونا منه » • وهو لا يقصد الجوهر بالمعنى الحديث أى المقـومات والمكونات المـادية ، واستخدامنا لهذه اللفظة بمعنى الماهية والأهمية الأساسية أقـرب الى ما قصد اليه هو • واذا أخذنا اللفظـة اللاتينية Subslansia التى استخدمها بمعناها الحرفى ، فانها تعنى « يقع تحت ، يشكل الأساس، يدعم » • وفى مراسلاته (٧٠) يتحدث سبينوزا عن « الجوهـر أو الكينونة » اى أنه يعادل الجوهر بالوجود أو الحقيقة • ومن ثم يمكن

أن يقول « ان الوجود يتعلق بطبيعة الجوهر » أى أنه فى الجوهر تكون ماهية الشيء أو طبيعته الأساسية ووجوده شيئا واحـــدا (٧١) • وقد نخلص من هذا الى أن الجوهر عند سبينوزا يعنى الحقيقة الأساسية التى تشكل أساس كل الأشياء •

ونحن ندرك هذا الواقع فى شكلين : الامتداد أو المادة ثم الفكر أو الذهن ، وهاتان « صفتان مميزتان » للجوهر ، لاصفتان به قائمتان فيه • بل هما نفس الحقيقية التى ندركها خارجيا بحواسنا باعتبارهما مادة ، والحقيقة التى ندركها بشعورنا باعتبارها فكرا • وســبينوزا « واحدى » تماما يقول بأن الحقيقة كل واحد ، فان جانبى الحقيقة هذان ــ المادة والفكرة ــ ليسا وجودين متميزين مستقلين الواحد منهما عن الآخر ، بل هما جانبان ، الخارجى والداخلى لحقيقة واحـــدة ، وهكذا الجسم والذهن ، وهكذا الأحداث الفسيولوجية (الجســدية) والحالة العقلية المناظرة لها • والحقيقة التى لامراء فيها أن سبينوزا كان يدين بالمثالية قدر ابتعاده عن المذهب المادى ، انه يعـرف الصفة بأنها « ما يدركه العقل عن الجوهر كما لو كان يؤلف ما هيته (٧٢) » ويسلم سبينوزا (قبل مولد باركلى بزمن طويل) باننا نعرف الحقيقة ، اما مادة أو فكرا ، عن طريق الادراك الحسي أو الفكرة فقط • ويعتقد بأن الحقيقة تعبر عن نفسها فى مظاهر لا نهاية لها ، عن طريق « عدد لا متناه من الصفات » التى لا ندرك منها ، نحن الكائنات الناقصة ، الا اثنتين • وعند هذا الحد ، يكون الجوهر أو الحقيقة ، هـــو كل ما يظهر لنا مادة أو ذهنا ، والجوهر وصفاته شيء واحد : والحقيقة اتحاد من المادة والذهن ، وهذان متميزان فقط فى الشكل الذى ندرك به الجوهر • ونتحلل قليلا من صيغة سبينوزا ، ونقول بأن المادة هى حقيقة مدركة خارجيا والذهن حقيقة مدركة داخليا • فاذا استطعنا أن ندرك كل الاشياء بطريقة مزدوجة ــ خارجيا وداخليا ــ كمـــا ندرك أنفسنا ، فاننا نجد ، كما يعتقد سبينوزا ، « أن كل الأشياء حيـــة نشيطة بشكل ما (٧٣) » • فهناك شكل أو درجة من الذهن أو الحياة فى كل شيء • والجوهر دائما حى أو نشيط : والمادة فى حركة دائمة ، والذهن دائما يدرك أو يحس أو يفكر أو يرغب أو يتخيل و يتذكر ، فى اليقظة أو النوم • والعالم فى كل جزء من أجزائه حى •

ويعادل سبينوزا بين الله وبين الجوهر ، فهو الحقيقة التى تشكل أساس المادة والذهن وتوحد بينهما . والله لا يتعادل مع المادة (فلهذا لا يدين سبينوزا بالمذهب المادى) ولكن المادة صفة ملازمة متأصلة أساسية ، أو مظهر من الله (وهنا تذلهر من جديد احدى هرطقات سبينوزا فى شبابه) . ولا يتعادل الله مع الذهن (ومن ثم لا يدين سبينوزا بالروحية) ولكن الذهن صفة أو مظهر ملازم متاصل أساسي لله . والله والجوهر يتعادلان مع الطبيعة والمجموع الكلى للكينونة أو الوجود (ولهذا كان سبينوزا يقول بوحدة الوجود : ان الله والطبيعة شيء واحد ، وان الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية) .

وللطبيعة مظهران . فباعتبارها القدرة على الحركة فى الأجسام ، والقدرة على التوالد والنمو والاحساس فى الكائنات الحية ، فانها طبيعة « خالقة » أو ولودة . وباعتبارها جماع كل الاشياء والاجسام والنبات والحيوان والانسان . فهى طبيعة « محدثة أو مخلوقة » . وهذه « الموجودات الفردية » فى الطبيعة المخلوقة يسميها سبينوزا حالات ـ أو تعديلات أو تجسيدات طارئة فى الجوهر ، والحقيقة والمادة والعقل والله . وهى جزء من الجوهر ، ولكننا نميزها فى ادراكنا الحسي ، باعتبارها أشكالا عابرة سريعة الزوال لكل داخلى . فهذا الحجر وهذه الشجرة ، وهذا الانسان أو الكوكب أو النجم ـ هذا المشهد المتغير العجيب من الأشكال الفردية التى تظهر وتتلاشي ـ تؤلف كلها « النظام المؤقت » الذى قابله سبينوزا فى « رسالة اصلاح العقل » « بالنظام الأزلى » وهو بمعنى أدق الحقيقة والله المفهومان ضمنا :

> لا أفهم من سلسلة العلل والموجودات الحقيقية ... سلسلة من الأشياء الفردية المتحولة ، بل سلسلة من الأشياء الثابتة الأزلية . لأنه قد يكون من المتعذر على الضعف البشرى أن يتتبع سلسلة الأشياء الفردية المتحولة (كل حجر ، وزهرة وانسان) . ان وجودها ليس له علاقة بماهيتها (قد توجد ، ولكن ليس ثمة ضرورة لأن توجد) ، أو أن وجودها ليس حقيقة أزلية ... وهذه الماهية يمكن التماسها من الأشياء الثابتة الأزلية ، ومن القوانين المنقوشة فى هذه الأشياء وكأنها

دستورها الذى بمقتضاه صنعت ورتبت ، بل ان هذه الأشياء الفردية المتحولة تعتمد اعتمادا وثيقا أساسيا (هكذا يقال) على هذه الأشياء الثابتة ، وبدونهـا لا يمكن وجـودها ولا ادراكها (٧٤) .

وهكذا يكون مثلث واحدا بعينه « حـالة » ، وقد لا يكون ثمة ضرورة لوجوده ، ولكن اذا وجد يكون لزاما عليه أن يطيع القوانين ـ وسيكون لديه كل صلاحيات ـ المثلث بصفة عامة ، والرجل بعينة حالة. وقد يوجد أولا يوجد ، ولكن اذا وجد ، فانه سيشارك فى ماهية وقدرة المادة ـ الذهن ، ويكون عليه أن يطيع القوانين التى تحكم عمليـات الأجسام والأفكار ، وهذه القدرات والقوانين تؤلف نظام الطبيعة باعتبارها طبيعة « خالقة » ، وهى تشكل فى لغة اللاهوت « ارادة الله » . وحالات المادة هى فى مجموعها جسم الله ، وحالات الذهن فى مجموعها هى ذهن الله ، والجوهر أو الحقيقة . فى كل حالاتها وصفاتها هى الله . « كل ما يوجد هو فى الله (٧٥) » .

ويتفق سبينوزا مع الفلاسفة السكولاسيين فى أن الماهية والوجود فى الله شيء واحد ، ان وجوده متضمن فى تصورنا الماهية لأنه يتصور أن الله هو كل الوجود نفسه يحتوى على الوجـود كله . ويتفق مع السكولاسيين فى أن « الله علة ذاته » حيث لا يوجد شيء خارج عنه . ويتفق معهم فى اننا نستطيع أن نعرف وجود الله ، ولكنـا لا نعرف طبيعته الحقيقية . ويتفق مع توما الأكوينى فى أن اسـتخدام ضمائر المذكر للدلالة على الله أمر سخيف مضحك ولكنـه مريح● . ويتفق مع أتباع ابن ميمون فى أن معظم الصفات التى ننسبها الى الله يمكن تصورها عن طريق القياس الضعيف مع صفات الانسان .

يوصف الله بانه واضـع القوانين أو الأمير أو الملك ، ويوصف بانه عادل رحيم ... الخ . لمجـرد الاعتراف أو

●ان اللغة تؤنث « الطبيعة » وتذكر « الله » وباحداث التعادل بينهما كان سبينوزا اكثر انصافا للأنثى أو الأصل المنتج فى الحقيقة . وربما كان « تذكير » الله جزءا من الاخضاع الابوى للمرأة ، وهى فـوق كل شيء المجـرى الرئيسي للحقيقة البشرية .

التسليم بالفهم العادى ونقص المعـــرفة العادية (٧٧) ٠٠٠ والله مجرد من الانفعالات ، ولا يتأثر بأية عواطف من الفرح أو الحــزن (٧٨) ٠٠ ٠٠ ان أولئـــك الذين يخلطون بين الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية ، انما ينسبون بســـاطة الانفعالات الانسانية الى الله ، وبخاصة اذا كانوا لا يعرفون كيف تحدث الانفعالات فى الذهن (٧٩) ٠

وليس الله شخصا ، لأن هذا يعنى عقلا مفردا خاصا محـــدودا متناهيا ، ولكن الله هو مجموع كل العقل (كل الحيوية والنشـــاط والاحساس والفكر) ـ بقدر ما هو كل المادة ـ الموجود (٨٠) ٠ العقل البشرى جزء من عقل معين غير متناه لا حدود له (٨١) (مثل التقليد الأرسطى ـ السكندرى) ٠ ولكن « اذا كان العقل والارادة تتعلقـــان بالماهية الأزلية لله ، فان شيئا آخر بعيدا يجب أن يفهـــم من هاتين الصفتين أكثر مما يفهمه الناس عامة (٨٢) » ٠ « فالعقل الفعلى ٠٠٠ مع الارادة والرغبة والحب ، الخ ، يجب ارجاعها الى الطبيعة المخلوقة لا الطبيعة الخالقة (٨٣) » أى أن العقول الفردية برغباتها وعواطفها واختياراتها ، هى حالات أو تعديلات موجودة فى الله باعتباره جماع كل الأشياء ، ولكنها لا تتعلق به باعتباره قانون وحياة العالم ٠ فهناك فى الله ارادة ، ولكن بمعنى القوانين التى تعمل فى كل مكان ٠ فان ارادته قانون ٠

وليس الله أبا ملتحيا يجلس على سحابة ، يحـــكم الكون ٠ انه « العلة المقيمة الكامنة ، غير العابرة ، لكل الأشـــياء (٨٤ » ٠ وليس يوجد « خلق » الا بمعنى ن الحقيقة غير المتناهية ـ المادة الذهن ـ تتخذ دوما أشكالا أو حالات جديدة فردية ٠ وليس الله فى مكان واحد ، ولكنه فى كل مكان تبعا لماهيته (٨٥) ٠ والحق أن لفظة « الهـــلة » هنا غير ملائمة ٠ ان الله هو الهلة الشاملة العامة ، لا بمعنى علة سابقة عـــلى نتيجتها ، ولكن فقط بمعنى أن سلوك أى شيء ينبـــع بالضرورة من طبيعته ٠ والله هو علة كل الأحداث ، بنفس الطريقة التى تكون بها طبيعة المثلث هى علة خواصه وسلوكه ٠ والله حر ، فقط بمعنى أنه غير خاضع لأية علة أو قوة خارجية ، وأنه غير محكوم الا بماهيته أو طبيعته

الخاصة ، ولكنه « لا يتصرف عن حرية الارادة (٨٦) » ، وكل افعـاله تحددها وتحكمها ماهيته ـ وهذا يعنى أن الطبيعة المتاصلة الملازمـة للأشياء وخواصها هى التى تحكم كل الأحداث . وليس فى الطبيعة خطة بمعنى أن الله يرغب فى غاية أو هدف بعينه ، فليس لديه رغبات أو خطط ومشروعات ، اللهم الا أن جماع الأشياء تحتوى رغبات وخطط كل الحالات ، ومن ثم خطط ورغبات كل الكائنات الحية . وليس فى الطبيعة الا نتائج ، تتبع بالضرورة عللا سابقة لها وخواصا متاصلة . وليس هناك معجزات ، لأن ارادة الله و « نظام الطبيعة الثابت الذى لا يتغير » شيء واحد (٨٧) ، وأى خــرق أو اضطراب فى « سلسلة الأحداث الطبيعية » يكون تناقضا ذاتيا .

والانسان مجرد جزء صغير من الكون . والطبيعة تقف على الحياد بين الانسان وسائر الأشكال . وينبغى ألا نطــلق على الطبيعة أو الله الفاظا مثل خير أو شر ، جميل أو قبيح ، فتلك مصطلحات ذاتية ، مثل ساخن أو بارد وانما يحددها أسهام العالم الخــارجى فى منفعتنا أو استيائنا .

> ان الحكم على كمال الأشياء يكون بطبيعتها وقدرتهـا فحسب ، فهى ليست اكثر أو اقل كمالا بسبب أنهـا تسر أو تسيء الى حواس الانسان ، ولا يسبب أنها نافعة أو ضـارة للطبيعة البشرية (٨٨) ... وبناء على ذلك ، فانه اذا كان فى الطبيعة شيء يبدو لنا سخيفا أو مضحكا أو شرا ، فما ذاك الا لأننا لا ندرك الا القليل ، بل نكاد نجهل كل الجهل ، نظام الطبيعة واتكالها بعضها على بعض ككل ، كذلك لأننا نريد أن يكون كل شيء وفقا لما يمليه عقلنا البشرى . والواقع أن ما يعتبره العقل شرا ، ليس شرا بالنسبة لنظـام الطبيعة وقوانينها ككل ، بل بالنسبة لقوانين عقلنا فقط (٨٩) .

وبالمثل لا يوجد فى الطبيعة جمال ولا قبح .

> ليس الجمال ... الى حد كبير صفة فى الشيء المرئى، تحدث أثرا فى الرائى . واذا كان ابصارنا أطول أو اقصر ، واذا كانت بنياتنا متفاوته ، فان ما نراه الآن جميلا ، يجب

أن نظنه قبيحا . أن أجمـــل يد ترى بالمجهـــر ســـتبدو مخيفة (٩٠) ... أنا لا أنسب الى الطبيعة الجمال أو التشويه ولا النظام أو الفوضي والاضطراب . وبالنســبة لخيالنـــا أو تصورنا فقط ، يمكن أن توصف الأشياء بأنها جميلة أو قبيحة ، حسنة الترتيب أو مهوشة (٩١) .

والنظام موضوعى بمعنى واحد ، هو أن كل الأشياء تتحد فى نهج واحد من القانون ولكن فى هذا النظام تكون العاصفة المدمرة طبيعية ، بقدر ما تكون روعة غروب الشمس أو رهبة البحر طبيعية :

وهل نحن على حق ، على أساس هذا « اللاهوت » اذا نعتنا سبينوزا بالالحاد ؟ لقد رأينا أنه لم يكن ماديا ، لأنه لم يعادل بين الله والمادة ، فانه يقول فى وضوح تام بأن أولئك الذين يذهبون الى أن « الرســـالة باللاهوتية السياسية » قائمة على تعادل الله مع الطبيعة آخذين الطبيعة على أنها كتلة معينة من مادة عينية ـ مخطئون غاية الخطأ (٩٢ . « انه تصور الله ذهنا ومادة على حد سواء . ولم يختزل الذهن الى مادة واعترف بأن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة مباشرة . وذهب الى أن ثمـة شيئا مجانسا للذهن . يختلط بكل المادة ، وكان من هذه الناحيـــة ممن يقولون بوحدة الوجود ، كان مؤمنا بوحدة الوجود ، حيث يرى الله فى كل الأشـــياء ، ويرى كل الأشـــياء فى الله . واعتبره بيـل وهيـــوم ، وغيرهما (٩٣) ملحدا . وقد يبدو ما يبرر هذا الوصف فى انكار سبينوزا للشعور والرغبة أو الفرض عند الله (٩٤) . انه هو نفسه على أية حال ، اعترض على « رأى العامة فى حيث لا يكفـون عن اتهامى خطـــأ بأنى ملحد (٩٥) » والظاهر أنه شعر بأن نسبته ذهنا وذكاء الى الله غفرت له تهمة الالحاد . ويجب التسليم بأنه تحدث مرارا وتكرارا عن ربه فى عبارة تتسم بالاجلال الدينى ، مما يتفق تمام الاتفاق مع مفهوم الله عند ابن ميمون أوتوما الأكوينى ، بل قد يسميه نوفاليس « الرجل الثمل بحب الله » .

والواقع أنه كان نشوانا بنظام الطبيعة بأسره ، ذلك النظام الذى بدا له فى تماسكه وحركته الأزليتين مثيرا للاعجاب مهيبا . وفى الكتاب الأول من « الاخلاق » كتب عن نهج للاهوت وميتافيزيقا العلوم معا . وفى دنيا القانون أحس بوحى الهى ، اعظم من أى كتـــاب مهما كان

كريما وجميلا . وأن الفرد العلمى الذى يدرس ذلك القانون ، حتى فى أتفه تفاصيله وأصغرها شأنا ، انما يفك مغاليق هذا الوحى لأننا « كلما ازددنا فهما للأشياء الفردية ازددنا فهما لله (٩٦) » (وقد هزت هذه الجملة مشاعر جوته باعتبارها أعمق عبارة فى الأدب كله .) . وبدأ لسبينوزا أنه قبل وواجه فى أمانة واخـــلاص التحـــدى الضمنى فى كوبرنيكس ـ ليعيد تصور الاله على أساس جدير بالكون الذى يتكشـف يوما بعد يوم . ولم يعد ثمة صراع بين العلم والدين عند سبينوزا ، فهما شيء واحد .

٥ ـ الذهـــن :

ان أكبر لغز فى الفلسفة والعلم ، بعد طبيعة الكون وعمله ، هو طبيعة الذهن وعمله . واذا كان من الصعب التوفيق بين نزعـــة خيرة بالغة القدرة وبين حياد الطبيعة وحتمية المعاناة والألم ، فانه يبدو من الصعوبة بنفس القدر أن نفهم كيف يستطيع شيء ظاهر أنه خارجى مادى محدود ذو حيز أن يولد فكرة واضح أنها غير مادية وغير محـــدودة بحيز ، و كيف تصبح فكرة فى الذهن حركة فى الجسم ، أو كيف تستطيع فكرة أن تدقق التأمل فى فكرة أخرى فى غياهب الوعى .

ويتفادى سبينوزا بعض هذه المشاكل بنبذة فرضية ديكارت القائلة بأن الجسم والذهن جوهران مختلفان . ويعتقد أن الجسم والذهـن شيء واحد ، وأنهما نفس الحقيقة ، وأنهما يدركان فى مظهـرين أو صفتين مختلفتين مثلما أن الامتداد والفكر شيء واحد فى الله ـ ومن ثم لا تكون هناك مشكلة فى كيفية تأثير الجسم فى الذهن أو العكس بالعكس . وكل حدث هو العملية المتزامنة الموحدة للجسم والذهـــن كليهما . ويعرف سبينوزا الذهن بأنه « فكرة الجســـم (٩٧) » أى العمل السيكولوجى (وليس بالضرورة عملا واعيا) المتلازم والمرتبط بأية عملية فسيولوجية . فالذهن هو الجسم نحس به من الداخـــل ، والجسم هو الذهن نراه من الخارج والحالة الذهنية هى الظهر الداخلى أو الباطنى لأى عمل جسمى . وأى عمل « للارادة » هو المرافق الذهنى لأية رغبة جسدية تتحـول الى تعبير بدنى . وليس هنـــاك عمـــل « للارادة » فى الجسم ، ولكن هناك عمل واحد للكائن السيكوفسيولوجى

(الذهنى المادى) ، وليست « الارادة » هى العلة ، بل هى وعى الحدث أو العمل . « ان قرار الذهن ، ورغبة الجسم وتصميمه ... شيء واحد ليس الا ، اذا أدرجناه تحت صفة الفكر نسميه قرارا ، واذا اعتبرناه من صفة الامتداد ، واستنتجناه من قوانين الحركة والسكون نسميه تصميما « فعلا منتهيا (٩٨) » . ومن ثم فان « نظام أفعال وانفعالات أو حركات جسمنا متزامنة مع نظام وانفعالات أو حركات الزهن (٩٩) » . وفى كل أحوال التفاعل المفروض بين الذهن والجسم ، ليست العملية الواقعية تفاعلا بين حقيقتين أو جوهرين أو عاملين متميزين ، بل هى عمل جوهر واحد ، اذا رئى من الخارج سميناه جسما ، واذا رئى من الداخل سميناه ذهنا . ولكل عملية فى الجسم هناك عملية موازية لها فى الذهن. « لا يمكن أن يحدث شيء فى الجسم الا أدركه الذهن (١٠٠) » ولكن هذا المتلازم الذهنى قد لا يكون فكرا ، بل قد يكون شعورا ، وقد لا يكون بالضرورة واعيا ، وهكذا ياتى الذى يمشي وهو نائم بسلسلة من الأفعال وهو « غير واع (١٠١) » وهذه النظرية تسمى « التوازى السيكوفسيولوجى » ، وهى تفترض عمليات متوازية ، لا فى وجودين مختلفين ، بل فى وحدة سيكوفسيولوجية (عقلية جسدية) ترى رؤية مزدوجة .

وعلى هذا الأساس ينتقل سبينوزا الى وصف ميكانيكى لعملية المعرفة . ومن المحتمل أنه حذا حذو هوبز فى تعريف الاحساس والذاكرة والتصور على أسس بدنية (١٠٢) . ويستدل على هذا بأن معظم المعرفة ينشأ من تأثيرات تحدثها فينا أشياء خارجية . ولكنه يسلم بما يذهب اليه المثالى من أن « الذهن البشرى لا يدرك أن جسما خارجيا موجود بالفعل الا عن طريق أفكار عن تعديلات فى جسمه (١٠٣) » . فالادراك الحسي والعقلى ، وهما شكلان للمعرفة ، مشتقان من الاحساس . ولكن هناك شكل ثالث أسمى « المعرفة البدهية » ، لا يستمد (هكذا يعتقد سبينوزا) من الاحساس ، بل من وعى واضح متميز مباشر شامل لفكرة أو حادث باعتباره جزءا من نظام كونى له قانون .

واستبق سبينوزا لوك وهيوم حيث نبذ فكرة أن الذهن قوة أو وجود له أفكار ، « فالذهن » تعبير عام أو مجرد عن تسلسل المدركات الحسية والذاكرات والتصورات والمشاعر وغيرها من الحالات العقلية .

« وفكرة الذهن ، والذهن نفسه » فى اية لحظة « شيء واحد بعينه (١٠٤) » • كما أنه ليس هناك « ملكات » متميزة ، مثل العقل أو الارادة ، فهذه أيضا تعبيرات مجردة عن مجموع المدركات والاختبارات • ان للعقل أو الارادة صلة بهذه الفكرة أو تلك ، وبهذه الرغبة أو تلك ، بنفس أسلوب الصلة بين الحجرية وهذا الحجر أو ذاك، أو الرجل بيتير أو بول (١٠٥) • كما أن الفكرة والرغبة لا تختلفان ، فالرغبة و عمل « الارادة » هى مجرد فكرة « أكدت نفسها (١٠٦) » (أى أنها طال على بقائها من الوقت ما يكفى لاستكمال نفسها أو تحقيقها فى فعل ـ كما تفعل الأفكار تلقائيا اذا لم يقف فى طريقها عائق) • « وليس قرار الذهن •••• الا مجرد توكيد تنطوى عليه الفكرة بقدر ما هى فكرة (١٠٧) •••• والارادة والفكر شيء واحد بعينه (١٠٨) » •

وثمة وجهة نظر أخرى ، تلك هى أن ما نسميه ارادة هو ببساطة ذروة الرغبات ونشاطها ، « أنا أفهم الرغبة ••• على أنها كل محاولات الانسان واندفاعاته وشهواته واختياراته التى لا يندر أن يتعارض بعضها مع بعض ، الى حد أنه يتخبط هنا وهناك ، وهو لا يدرى أية جهة يتجه (١٠٩) » • والتروى هو تعاقب سيطرة الرغبات المتصارعة على الجسم والفكر • وهذا ينتهى عندما تثبت رغبة ما أنها بلغت من القوة مبلغا تحتفظ معه بالحالة العقلية بها وقتا كافيا لتنتقل الى فعل • ويقول سبينوزا بانه واضح أنه لا توجد « ارادة حرة » ، فالارادة فى أية لحظة ليست الا أقوى الرغبات • فنحن احرار بقدر ما يجازلنا أن نعبر عن طبيعتنا أو عن رغباتنا دون عائق خارجى ، ولسنا أحرارا فى اختيار طبيعتنا أو رغباتنا ، انما نحن رغباتنا • وليس الذهن ارادة مطلقة أو حرة ولكن الذهن محكوم عليه بأن يريد هذا أو ذاك لعلة هى نفسها بدورها محكومة بعلة أخرى ، وهذه بعلة ثالثة ، وهكذا الى ما لا نهاية (١١٠) » • ويظن الناس أنفسهم أحرارا لأنهم يعون اختياراتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون العلل التى تؤدى بهم الى أن يتخيروا ويرغبوا (١١١) ، ومثل هذا مثل حجر يقذف به فى الفضاء فيظن أنه يتحرك ويهوى بمحض ارادته (١١٢) •

ومن الجائز أن الجبرية الكلفنية فى « جو الرأى » الذى عاش

فيه ديكارت وسبينوزا أثناء اقامتهما فى هولنـده ، قد أسـهمت مع ميكانيكا جاليليو (ولم تكن قاعدة نيوتن قد ظهرت بعد) فى تشكيل النظرية الميكانيكية عند ديكارت ، وعلم النفس الجبرى عند سبينوزا ٠ والجبرية هى الايمان بالقضاء والقدر دون لاهوت ٠ وهى تحل محل الدوامة أو السديم البدائى لله ، وتتبع سبينوزا منطـق الميكانيكا الى نهايته المريرة ، فانه مثل ديكارت لم يقصره على الاجسام والحيوانات، بل طبقه على الأذهان كذلك ، وكان لزاما أن يفعل ذلك ، حيث أن الذهن والجسم عنده شيء واحد ٠ وخلص الى أن الجسم آله (١١٣) ٠ ولكنه أنكر أن الجبرية تجعل الأخلاق عقيمة منافقة ٠ ان عظات رجال الأخلاق والمثل العليا عند الفلاسفة ، ووصمة عار الاستنكار العام وعقوبات المحاكم لا تزال ضرورية ذات قيمة ، وانها لتدخل فى تراث وخبرة الفرد الذى يكبر وينمو ، ومن ثم فى العوامل التى تشكل رغباته وتحـدد ارادته وتحكمها ٠

٦ ـ الانسـان :

يدخل سبينوزا فى فلسفته التى يظهر أنها جامدة عاملين فعالين ، أولهما وبصفة عامة ، هو أن المادة والذهن متحدان فى كل مكان ، وأن كل الأشياء مفعمة بالحيوية والنشاط ، وأن فيها شيئا مماثلا لما نسميه فى أنفسنا بالذهن أو الارادة ، والثانى ، وعلى وجه التخصيص ، هو أن هذا العنصر الحيوى يشتمل فى كل شيء على « محاولة للابقاء عـلى الذات » ٠ ان كل شيء بقدر ما هو فى نفسه يسعى للمحافظـة عـلى وجوده هو نفسه ٠ و « قـدرة أى شيء أو سـعيه ٠٠٠ للاصرار على وجوده ، ليس الا ٠٠٠ مجرد ماهية ذلك الشيء (١١٤) » ٠ ومثـل الفلاسفة المسكولاسيين الذين قالوا « أن تكون هو أن تعمل » ، وأن الله « نشاط محض » ، ومثل شوبنهور الذى رأى فى الارادة ماهيـة كل الأشياء ، ومثل الفيزيائيين الحديثين الذين يختزلون المادة الى طاقة يعرف سبينوزا ماهية كل كائن عن طريق قدراته على الفعل أو العمل ٠ « وقدرة الله هى نفس ماهيته (١١٥) » ، وفى هذه الناحية « يكون الله طاقة (ويمكن أن تسمى الطاقة ، بالاضافة الى المادة والذهـن ، صفة ثالثة ندرك أنها تؤلف ماهية الجوهر أو الحقيقة) » ٠ ويحـذو سبينوزا حذو هوبز فى تصنيف الوجودات حسب قدرتها على الفعـل

وتاثيرها . « ويقدر كمال الأشياء حسب طبيعتها وقدرتها فحسب (١١٦)» ولكن « كامل » عند سبينوزا معناه « تام » .

ونتيجة لهذا يعرف سبينوزا الفضيلة بأنها القدرة على التصرف والفعل ، « انى أفهم من الفضيلة والقدرة نفس الشيء (١١٧) » . ولكنا سنرى أن هذه القدرة تعنى القدرة على أنفسنا ، حتى أكثر من القدرة على الآخرين (١١٨) كلما ازداد المرء سعيا وراء ما فيه نفعه - سعيا وراء المحافظة على وجوده - ازداد تنعمه بالفضيلة ... فالسعى للمحافظة على الذات هو الأساس الوحيد للفضيلة (١١٩) . فالفضيلة عند سبينوزا حيوية (بيولوجية) ، داروينية على الأغلب ، انها أية صفة تعمل على البقاء . وبهذا المعنى ، على الأقل ، تكون الفضيلة جزاء الفضيلة . « فهى مرغوب فيها من اجلها هى وحدها ، وليس ثمة شيء أكثر امتيازا أو نفعا لنا .. .. من أجله ينبغى أن تكون الفضيلة مرغوبا فيها (١٢٠) » .

ولما كان السعى للمحافظة على الذات (التنازع من أجل البقاء) هو الماهية الفعالة لكل شيء . فان كل الدوافع تنبع منه ، وهذه الدوافع فى أساسها أنانية . ومن حيث أن العقل لا يطالب بشيء ضد الطبيعة ، فهو يطالب ، لذلك ، بأن يحب كل انسان نفسه ، ويلتمس ما هو مفيد له - أعنى ما هو مفيد حقا له - ويرغب فى كل ما يؤدى بالانسان حقا الى حالة كمال أعظم ، وأخيرا أنه يجب على كل انسان أن يسعى جاهدا للمحافظة على وجوده قدر استطاعته (١٢١) . وليس ضروريا أن تكون هذه الرغبات واعية ، فقد تكون شهوات لا واعية قائمة فى الجسد . وهى تؤلف فى جملتها ماهية الانسان (١٢٢) . ونحن نحكم على كل الأشياء على أساس رغباتنا . نحن لا نناضل من أجل أى شيء أو نريده أو نلتمسه ونرغب فيه لأننا نظن نه خير ، بل نحكم على شيء بأنه خير ... لأننا نرغب فيه (١٢٣) . « انى أفهم أن الخير هو ما نعلم علم اليقين أنه نافع لنا (١٢٤) » (وهنا نجد ، فى جملة واحدة ، مذهب المنفعة عند بنتام) .

وكل رغباتنا تهدف الى اللذة أو تجنب الألم . « اللذة هى انتقال الانسان من حالة كمال أدنى (١٢٥) » واللذة تصاحب أية ممارسة

وشعور يعزز ويزيد من قيمة عمليات النشاط أو التقدم الذاتى الجسدية العقلية (١٢٦) • ويتمثل الفرح فى أن قدرة المرء تزداد (١٢٧) » ●• وكل شعور يوهن من حيوتنا انما هو ضعف لا فضـــيلة • وما أسرع ما يتخلص الرجل السليم من مشاعر الحــزن والنـــدم والاتضــــاع والأسف (١٢٩) ، وهو على أية حال أكثر من الرجل الضعيف استعدادا لمد يد المساعدة ، لأن الكرم فائض القـــوة الواثقة • وأية لذة تكون مشروعة اذا لم تعوق لذة أعظم أو أبقى ، ويمتدح سبينوزا ، مثـــل أبيقور ، اللذات العقلية باعتبارها أو فضلها ، ولكنه يسوق كلمة طيبة فى تشكيلة كبيرة من اللذات :

لا يمكن أن يكون ثمة مرح بالغ •• •• وليس هناك ما يحرم الضحك الا الخرافة الكئيبة •• •• والافادة من كل الأشياء والابتهاج بها قدر الامكان (لا الى حد التخمة حقا ، لأن هذه ليست ابتهاجا) جزء من الرجل الحكيم العاقل •• فيتناول المعتدل الطيب من الطعام والشراب ، ويســتمتع بالعطور والحدائق والثياب والموسيقى والالعاب والمسارح(١٣٠)

ان المشكلة فى مفهوم اللذة باعتبارها تحقيقا للرغبات ، تكمن فى أن الرغبات قد تتصارع ، فان الرغبات لا تنتظم فى تسلسل متناسق منسجم الا عند الانسان العاقل الحكيم • والرغبة عادة هى المتلازم الواعى لشهوة متأصلة فى الجسم ، وقد يبقى قدر كبير من الشهوة غير واع ، الى حد أننا لا يكون لدينا الا مجرد « أفكار مشوشة غير وافية » عن عللها ونتائجها • ومثل هذه الرغبات المشوشة يسميها سبينوزا عواطف أو انفعالات • ويعرفها بأنها « تعديلات فى الجسم تزيد أو تنقص بها قدرة الجسم على العمـــل •• •• وفى نفس الوقت أفكار هذه التعديلات (١٣١) » وهو تعــــريف يسلم تسليما غامضا بدور الافرازات الباطنية فى العواطف ، يستبق بشكل ملحوظ نظرية س•ج• لانج ووليم جيمس التى تقول بأن التعبير الجسدى عن العاطفة هو النتيجة المباشرة الغريزية للعلة ، وأن الشـــعور الواعى مصاحب أو نتيجة ، لا علة ، لتعبير الجسم أو استجابته • ويقترح سبينوزا دراسة العواطف ــ الحب والبغض والغضب والخوف الخ ــ وسيطرة العقل

● يردد نيتشه هذه التعاريف : « ما هو الخير ؟ » هو كل ما يعزز الاحساس بالقدرة •• •• ما هى السعادة ؟ •• •• هى الأحساس بان القدرة تتزايد (١٢٨) »•

عليها « بنفس الطريقة ... كما لو كنت أعالج الخطوط والسطوح والأجسام (١٣٢) » لا لأمتدحها ولا لانتقص منها ، بل لأفهمها ، لأننا « كلما ازددنا معرفة بالعاطفة ازدادت سيطرتنا عليها ، وأصبح الذهن أقل سلبية بالنسبة لها (١٣٣) » . ودان تحليل العواطف الناتج عن هذه الدراسة ببعض الفضل لديكارت ، وربما بفضل أكبر لهوبز ، ولكنه بزهما ، حتى أن جوهانس موللر ، عندما عالج موضوع العواطف فى كتابه الممتاز « فسيولوجية العواطف » (١٨٤٠) كتب يقول « بالنسبة لعلاقات العواطف بعضها ببعض ، بعيدا عن ظروفها الفسيولوجية ، فانه يتعذر الاداء ببيان أوفى مما ذكره سبينوزا فى براعة لا تفوقها براعة (١٣٤) » - وأخذ يقتبس كثيرا من كتاب « الأخلاق ».

وتصبح العاطفة هوى أو انفعالا ، اذا كانت علتها الخارجية - بسبب أفكارنا المهوشة الناقصة عن منشئها ومغزاها - تفرض علينا شعورنا واستجابتنا ، كما هو الحال فى البغض أو الغضب أو الخوف». ان الذهن يخضع بشكل أو بآخر للأهواء والانفعالات ، تبعا لما لديه بنفس القدر من أفكار كافية أو ناقصة (١٣٥) . والانسان ذو المقدرة الضعيفة على الادراك الحسي والفكرى خاضع بصفة خاصة للأهواء . ومثل هذه الحياة يصفها سبينوزا فى كتابه الفذ ، الجزء الرابع ، « استرقاق الانسان » ، فان هذا الانسان مهما كان تصرفه عنيفا ، سلبى بليد ، مسوق بمؤثر خارجى ، بدلا من أن يتماسك ويثبت ويعمل فكره . « ان أسبابا خارجية تقودنا على غير هدى فى دروب متشعبة كثيرة ، وكما تسوق الرياح الهوج غير المواتية الامواج سوقا ، فاننا نضطرب ونتردد على غير وعى بالعاقبة ولا بالمصير (١٣٦) » .

ترى هل نستطيع فكاكا من هذا الاسترقاق ، ونصبح بدرجة ما سادة أنفسنا وحياتنا ؟ .

٧ - العقل :

لن تكون لنا سيادة تامة على أنفسنا أبدا ، لأننا سنبقى جزءا من الطبيعة ، خاضعين (كما كان يقول نابليون) « لطبيعة الأشياء » . وحيث أن العواطف هى قوتنا الدافعة ، والعقل مجرد ضوء ، وليس

تهيبا ، « فان أية عاطفة لا يمكن تعويقها أو القضاء عليها الا بعاطفة أخرى متعارضة وأشد قوة (١٣٧) » • ومن هنا كان المجتمع بحق يحاول جاهدا أن يلطف ويخفف من انفعالاتنا وأهوائنا باللجوء الى حبنا للثناء وحسن الجزاء وخوفنا من العتاب والعقاب (١٣٨) • كما يسعى المجتمع جاهدا بحق ليغرس فينا الشعور بالصواب والخطأ وسيلة أخرى لكبح جماح الأهواء والانفعالات • والضمير ، بطبيعة الحال ، نتاج اجتماعى ، وليس هبة أو منحة فطرية الهية (١٣٩) •

ولكن فى استخدام الثواب والعقاب الوهميين فى الحياة بعد الموت، حوافز على الخلق القويم ، تشجيعا على الخرافة ، لا يليق أبدا بمجتمع ناضج • وينبغى أن تكون الفضيلة ـ وهى فعلا كذلك ـ جزاء نفسها ، اذا عرفناها ، مثل الرجال ، بأنها المقدرة والذكاء ، والقوة ، لا مثل الجبناء ، بأنها الاذعان والطاعة والتواضع والخوف • واشمأز سبينوزا من النظرة المسيحية الى الحياة بأنها واد من الدموع ، والى الموت بوصفه مدخلا للنعيم أو الجحيم ، وقد أحس بأن هذا يلقى حجابا كثيفا من الكآبة على نشاط البشر ، ويغشي بفكرة الخطيئة آمال الناس وامانيهم ومسراتهم المشروعة بالظلام والقتام • ان التفكير فى الموت ليل نهار سبة فى جبين الحياة وامتهان لها « ان أقل ما يفكر فيه الانسان الحر هو الموت ، وانه ليفرغ كل حكمته وعقله فى التأمل فى الحياة ، لا فى الموت (١٤٠) » •

وعلى الرغم من ذلك كان سبينوزا يبدو فى بعض الأحايين وكأنه يحوم حول فكرة الخلود ان نظريته فى الذهن والجسم باعتبارهما جانبين لنفس الحقيقة أدت به منطقيا الى أن يرى فناءهما متزامنا • وهو يؤكد هذا فى وضوح تام : « ان الوجود الراهن للذهن ، وقدرته على التصور تزولان بمجرد أن يكف الذهن عن توكيد الوجود الراهن للجسم (١٤١) » • ثم « ان الذهن لا يمكن أن يتصور شيئا ، ولا أن يتذكر شيئا مضي الا حين يكون الجسم موجودا (١٤٢) »•• وتظهر فى الجزء الخامس بعض فروق غامضة : « اننا اذا نظرنا الى الرأى السائد بين الناس لرأينا أنهم يعون حقا خلود أذهانهم ، ولكنهم يخلطون بين هذا وبين البقاء أو الدوام ، وينسبونه الى التصور والذاكرة اللتين يعتقدون أنهما تبقيان بعد الموت (١٤٣) » • وما دام الذهن عبارة

عن سلسلة من الافكار والذكريات والتصورات المؤقتة المرتبطة بجسم معين ، فانه ينقطع وجوده عندما يفنى الجسم ، وهذا هو « البقاء الفانى » للذهن • ولكن ما دام الذهن البشرى يدرك الاشياء فى علاقاتها الأبدية ، باعتبارها جزءا من المنهج الشامل الذى لا يتغير للقانون الطبيعى ، فانه يرى الاشياء كأنها فى الله ، ويصبح عند هذا الحد جزءا من الذهن الالهى ويكون خالدا :

اننا نتصور الأشياء واقعية بطريقتين : اما بقدر ما نتصور وجودها بالنسبة لزمان ومكان معينين ، أو بقدر ما نراها متضمنة فى الله (فى النظام والقوانين الأزلية) وأنها تنشأ عن ضرورة الطبيعة الالهية (أى تلك القوانين) • ولكن الأشياء التى ترى فى الحالة الثانية على أنها صادقة أو حقيقية انما نتصورها نوعا معينا من الأزلية (فى جانبها الأزلى) • وأفكارها تتضمن ماهية الله الأزلية اللا متناهية (١٤٤) •

وعندما نرى الأشياء بهذه الحالة السرمدية ، فاننا نراها كما يراها الله ، وعند هذا الحد تصبح أذهاننا جزءا من الذهن الالهى ، وتشارك فى الأزلية •

اننا لا ننسب الى ذهن الانسان بقاء يحدد بزمن • ولكن حيث أن هناك ، على الرغم من ذلك ، شيئا آخر يتصور فى ظل ضرورة أزلية معينة ، عن طريق ماهية الله ، فان هذا الشيء الآخر سيكون بالضرورة الجزء الأزلى الذى يتعلق بالذهن (١٤٥) •• •• ونحن على يقين من أن الذهن أزلى طالما أنه يتصور الأشياء فى ظل الأبدية (١٤٦) •

ولنفترض أنه فى التامل فى التسلسل المهيب للعلة والنتيجة الظاهرتين طبقا لقوانين واضح أنها أبدية ، أحس سبينوزا أنه قد هرب ، مثل بوذى بلا خطيئة ، من أغلال الزمن ، وشارك فى وجهة نظر الذهن الأزلى وهدوئه •

وعلى الرغم من هذا الوصول الظاهرى للقمر ، خصص سبينوزا معظم ختام الجزء الخامس « الحرية الانسانية » لصياغة علم أخلاق طبيعى ، ينبوع ومنهج للاخلاق ، مستقلين عن الحياة بعد الموت ، ولو أنه استخدم فى ولع شديد تعبيرات دينية ، وان جملة واحدة لتكشف عن نقطة البداية . « ان العاطفة التى تكون انفعالا أو هوى لا تعود انفعالا ولا هوى اذا نحن كونا عنها فكرة واضحة متميزة (١٤٧) » ـ اى أن العاطفة التى تثيرها أحداث خارجية يمكن الهبوط بها من الانفعال الى شعور منضبط اذا هيأنا لمعرفتنا أن نحتال عليها حتى تصبح علتها وطبيعتها واضحتين ، كما يصبح التنبؤ بعاقبة التصرف أمرا ممكنا من خلال الخبرة المختزنة فى الذاكرة . وثمة طريقة لايضاح الحالة العاطفية ، تلك هى أن نرى الاحداث التى أنشأتها ، بوصفها جزءا من سلسلة من علل طبيعية ونتائج ضرورية لها . « وبقدر ما يفهم الذهن كل الاشياء على أنها ضرورية لازمة ، يكون أكثر سيطرة على العواطف ، وأقل سلبية نحوها (١٤٨) » ـ أى أقل نهبا للانفعالات والأهواء . ولن يصبح أى انسان انفعاليا لما يعتبره طبيعيا لازما . ويمكن التخفيف من حدة الغضب لأية اساءة ، اذا نظرنا الى المسيء باعتباره نتاج الظروف التى لم يستطع التحكم فيها . كما يمكن التخفيف من الحزن على فقد والدين مسنين بتذكر أن الموت أمر طبيعى . « ومحاولة الفهم هى الأساس الأول الوحيد للفضيلة (١٤٩) » ، بمعنى هذه الكلمة عند سبينوزا ، لأنها تنقص من خضوعنا للعوامل الخارجية ، وتزيد من قدرتنا على ضبط انفسنا والمحافظة عليها . والمعرفة قدرة أو قوة ، ولكن أفضل وأنفع شكل لهذه القوة هو سيطرتنا على أنفسنا .

وهكذا يطبق سبينوزا طريقته الرياضية (طريقة اقليدس) على حياة العقل . ويسترجع الانواع الثلاثة التى وضعها للمعرفة ، فيصف المعرفة الحسية ، بانها تتركنا عرضة الى حد كبير للمؤثرات الخارجية ، والمعرفة العقلانية (المكتسبة عن طريق التفكير والتامل) بانها تحررنا تدريجا من استرقاق الانفعالات حيث تمكننا من رؤية العلل المحتومة غير الشخصية للاحداث ، وأخيرا المعرفة البدهية أو الحدسية ـ الوعى المباشر بنظام الكون ـ ويصفها بانها تجعلنا نحس انفسنا جزءا من ذاك

النظام ، « ومتحدين مع الله » . وينبغى ان نتوقع ونحتمل وجهى الحظ كليهما بنفس الذهن ، لأن كل الأشياء تنشأ من القانون الأبدى لله ، بنفس الطريقة التى ينشأ بها من ماهية المثلث أن زواياه الثلاث تشكل زاويتين قائمتين (١٥٠) . ان هذا الهروب من التفكير الطائش هو الحرية الحقيقية الوحيدة (١٥١) . وهذا الذى يستطيع بلوغها ، يملان ـ كما اعتاد الرواقيون أن يقولوا ـ أن يكون حرا فى كل ظرف فى كل حالة تقريبا . ان أكبر هبة يمكن أن تمنحنا اياها المعرفة هى أن نرى أنفسنا كما يرانا العقل .

وعلى هذا الأساس من المذهب الطبيعى يصل سبينوزا الى بعض نتائج أخلاقية ، مثل تلك التى وصل اليها المسيح ، بشكل يدعو الى الدهشة :

> ان الذى يعرف بحق أن كل الأشياء تنشأ من ضرورة الطبيعة الالهية ، وتسير وفق قوانين أزلية طبيعية منتظمة ، لن يجد اطلاقا شيئا جديرا بالكراهية ، أو السخرية أو الازدراء ، كما انه لن يرثى لأحد ، ولكنه ، بقدر ما تسمح الفضيلة البشرية ، سيسعى جهده ليعمل صالحا .. .. ويبتهج (١٥٢) .. .. أن الذين يعترضون على الناس ويؤثرون استنكار الرذائل ، لاغرس الفضائل ... مصدر ازعاج لأنفسهم وللآخرين معا (١٥٣) .. .. ان الرجل القوى لا يبغض أحدا ، ولا يثير غضبه أحد ، ولا يحسد أحدا ، ولا ينقم على أحد ، وليس بأية حال مغرورا (١٥٤) . ان الذى يعيش على هدى من العقل ، يحاول قدر طاقته أن يقابل الكراهية والغضب والاحتقار ... الخ ، بالحب والكرم ... وهذا الذى يرغب فى الانتقام للأدى بالكراهية المتبادلة ، انما يعيش حليف البؤس والشقاء . فالكراهية تتفاقم اذا كانت متبادلة ، وعلى العكس يمكن القضاء عليها بالحب (١٥٥) .. .. والناس ، بهدى من العقل ، .... لا يرجون لأنفسهم شيئا لا يحبونه لسائر البشر (١٥٦) . (أحب لأخيك ما تحب لنفسك) .

وهل ضبط العاطفة بالعقل على هذا النحو ، يتعارض كما يظن بعضهم (١٥٧) ، مع تسليم سبينوزا بأنه ليس ثمة الا عاطفة يمكن أن تقهر عاطفة ؟ . من الجائز أن يكون هذا الا اذا كان من الميسور أن يرتفع التزام جادة العقل الى مستوى عاطفى وتحمس . ان المعرفة الحقة بالخير والشر لا يمكن أن تكبح جماح أية عاطفة بقدر ما تكون المعرفة حقة ، بل بقدر ما تعتبر هذه المعرفة عاطفة (١٥٨) . ان تلك الحاجة ، وربما الرغبة فى الهاب العقل واثارته بعبارات تكللها التقوى والزمن بالتبجيل والاحترام ، هى التى أدت بسبينوزا الى الفكر الأخير الذى توج به عمله ـ وهو أن « الحب العقلى لله » يجب أن يلهم حياة العقل ويرفع من شأنها . وحيث أن « الله » فى رأى سبينوزا ، هو الحقيقة الأساسية ، والقانون الثابت الذى لا يتغير للكون نفسه ، فان هذا الحب العقلى لله ليس مجرد استرضاء مذل لسلطان جالس على عرش السديم ، بل انه التوافق الحكيم الواعى لأفكارنا وسلوكنا مع طبيعة الأشياء ونظام العالم . ان احترام ارادة الله ، والامتثال الواعى لقوانين الطبيعة شيء واحد . وبقدر ما يجد العالم الرياضي من رهبة ونشوة فى أن يرى العالم خاضعا لقواعد قياسية رياضية ، قد يجد الفيلسوف أعمق سرور فى تأمل عظمة كون يسير رابط الجأش فى تواتر القانون الكونى الشامل . وحيث أن « الحب لذة مصحوبة بفكرة علة خارجية (١٥٩) ، فان الحب الذى نستمده من رؤية نظام الكون ـ وتكييف أنفسنا معه ـ يسمو الى حب الله الذى هو حياة ونظام الكل . وحينئذ يغمر حب الكائن السرمدى اللا متناهى ، يغمر الذهن تماما بالفرح والبهجة (١٦٠) » . ان هذا التأمل فى العالم ، كنتيجة لازمة لطبيعته ـ لطبيعة الله ـ هو المصدر الآخر للرضا والاطمئنان فى ذهن الانسان العاقل ، وهو يوفر له هدوء التفكير والارتياح الى القيود أو الحدود المعترف بها للحق المحبوب المقبول . « ان أعظم خير للذهن هو معرفة الله ، وأسمى فضيلة فى الذهن هى معرفة الله (١٦١) » .

وهكذا زاوج سبينوزا فى نفسه بين العالم الرياضي والمتصوف . وأبى أن يرى فى ربه روحا قادرة على مقابلة حب الانسان أو مكافأة الابتهالات والصلوات بالمعجزات ، ولكنه خص ربه بالعبارات الرقيقة التى الهمت لآلاف السنين أبسط المتدينين المتحمسين وأعمق المتصوفين

فى البوذية واليهودية والمسيحية والاسلام ، ووجدوا فيهـا السـلوى والراحة • ومذ قبع سبينوزا واهنا مقرورا وحيدا فى علياء فلسـفته ، تواقا الى أن يعثر فى الكون على شيء يتقبل عبـادته وثقتـه ، فان المهرطق الوديع ، الذى كان قد أبصر الكون رسما هندسيا ، انتهى برؤية كل الأشياء فى الله وفقدانها فى الله ، حيث أصبح « الملحد » النشوان بحب الله • مما أدى الى ارتباك الأجيال القادمة وحيرتها • ان الدافع الذى لا يقاوم للعثور على معنى فى الكون جعل الناى عن كل عقيدة يختم محاولته برؤية اله قدير ، وباحساس مثير رفيـع بأنه كان قـد بلغ الأبدية ، ولو للحظة واحدة •

٨ ـ الدولـة :

ان سبينوزا ، بعد أن كان قد انتهى من كتاب « الاخلاق » ربمـا أحس ، مثل معظم القديسين المسيحيين ، بأنه قد صاغ فلسفة لمنفعـة الفرد وخلاصه ، لا لتوجيه وهداية جماعة المواطنين فى دولة • ومن ثم فانه حوالى ١٦٧٥ تفرغ لدراسة الانسان « حيوانا سياسيا » ، وليطبق العقل على مشاكل المجتمع • وشرع فى تدوين شـذرات « الرسـالة السياسية » ، موطدا العزم ، كما فعل فى تحليل الانفعالات ، على أن يكون موضوعيا ينتهج أسلوب عالم الهندسة أو الفيزياء :

> رغبة فى بحث مادة هذا العلم بنفس الروح الحرة التى ننتهجها بصفة عامة فى الرياضيات ، بذلت غاية الجهد فى الحرص على الا أسخر من أفعال البشر أو أرثى لها ، بل على أن أتفهمها ، ولهذا الغرض نظرت الى انفعالات الحب والكراهية والغضب ، والحسد والطمع والحسرة وسـائر ارهاصات الذهن ، لا فى ضوء رذائل الطبيعة البشرية ، بل باعتبارها من خواص الذهن ، وهى وثيقة الصلة به ، مثل الصلة الوثيقة بين الحرارة والبرودة ، والعاصفة والرعد ، وما اليها ، وبين طبيعة الجو (١٦٢) •

ومذ كانت الطبيعة الانسانية هى مادة علم السياسة ، فان سبينوزا احس بان دراسة الدولة ينبغى أن تبدأ ببحث الخلق الأساسي للانسان • وقد نفهم هذا بشكل افضل اذا تيسر لنا أن نتصور الانسان قبل أن يعدل

التنظيم الاجتماعى من سلوكه ، بالقوة والأخلاقيات وبالقانون ، وأن نتذكر أن تحت خضوعه العام الكريه لديه لهذه المؤثرات التى تؤهله لبيئة اجتماعية ، لا تزال تضطرم بين جنبيه دوافع غير مشروعه لم يكن يجد منها فى « حالة الطبيعة » الا الخوف من القوة العدائية • وحذا هوبز وكثيرين غيره فى القول بأن الانسان عاش يوما فى مثل هذه الحالة ، وبان صورته فى هذه الوحشية الافتراضية تكاد تكون قاتمة مثل صورته فى « اللوياثان » تقريبا • وفى « جنة الشر » هذه كانت قوة الفرد هى الحق الوحيد ، ولم يكن ثمة شيء يعتبر جريمة لأنه لم يكن هناك قانون ولم يكن ثمة شيء عدل أو ظلم ، صواب أو خطأ ، لأنه لم يكن هناك قانون أخلاقى • وبناء على هذا « كان قانون الطبيعة وأوامرها لا تحظر شيئا ••• ولا تقاوم الصراع أو الكراهية أو الغضب أو الخيانة أو بصفة عامة أى شيء توحى به الشهوة (١٦٣) » • وبمقتضي « الحق الطبيعى حينذاك ، أعنى بعملية الطبيعة ، متميزة عن قواعد المجتمع وقوانينه ـ يكون لأى انسان الحق فيما تمكنه قوته من اكتسابه أو الاستيلاء عليه ، ولا يزال هذا أمر مسلما به بين الأجناس وبين الدول (١٦٤) » • ومن ثم كان للانسان « حق طبيعى » فى استغلال الحيوانات لخدمته أو لغذائه (١٦٥) •

ويلطف سبينوزا من هذه الصورة الوحشية بالايحاء بأن الانسان، حتى فى أول ظهوره على الأرض ، ربما كان يعيش بالفعل فى جماعات اجتماعية • ومن حيث أن الخوف من الوحدة كان فى كل الناس ـ لأن أى انسان فى الوحدة لا يملك من القوة ما يدافع به عن نفسه ، ويحصل به على ضرورات حياته ـ فان هذا يستتبع ن ينزع الناس بالطبيعة الى تنظيم اجتماعى (١٦٦) • ومن ثم فان فى الناس غرائز اجتماعية وغرائز فردية على حد سواء • وللمجتمع وللدولة جذور فى طبيعة الانسان • وكيفما حدث هذا وحيثما حدث ، فان الناس والأسرات اتحدت فى جماعات ، وحد آنذاك حق الجماعة أو قوتها من « الحق الطبيعى » للفرد أو من قوته • ولا ريب فى أن الناس قبلوا هذه القيود على كره منهم ، ولكنهم قبلوها عندما عرفوا أن النظام الاجتماعى كان أقوى أداة للابقاء على الفرد ولتنميته وتطويره • وعلى ذلك فان تعريف الفضيلة بأنها أية صفة تعمل على البقاء ـ مثل « النزوع للمحافظة

على الذات (١٦٧) » ـ كان ينبغى التوسع فيه (أى التعريف) ليشمل أية صفة تعمل على بقاء الجماعة . ان التنظيم الاجتماعى ، والدولة على الرغم من تقييداتها ، والمدنية على الرغم من خداعها ، كل هذه هى أعظم المخترعات التى ابتدعها الانسان للمحافظة على ذاته وتنميتها وتطويرها .

ولذلك يستبق سبينوزا رد فولتير على روسو :

دع الهجائين يسخروا ما طابت لهم السخرية من شئون البشر ، ورجال اللاهوت يلعنوهم ، ودع المكتئبين يمتدحوا قدر طاقتهم الحياة الانعزالية القاسية الوحشية ، فليزدروا الانسان ويعجبوا بالوحوش ، فعلى الرغم من هذا كله ، سيجد الناس أنهم ، بالعون المتبادل ، وفى يسر أكثر كثيرا ، يستطيعون اعداد ما يحتاجون اليه ... والانسان الذى يسير بهدى من العقل أكثر حرية من دولة يعيش فيها وفق القانون العام ، منه فى وحدة لا يخضع فيها لأى قانون (١٦٨) .

ويرفض سبينوزا كذلك الطرف الآخر من حلم « لا قانون » ـ يوتوبيا الفوضوى الفيلسوف :

ان العقل يستطيع حقا أن يصنع الكثير ليكبح جماح الانفعالات والتخفيف منها ، ولكنا رأينا .. .. ان الطريق الذى يحدده العقل نفسه شديد الوعورة ، ومن ثم فان الذين يقنعون أنفسهم بأن الجمهور قد يغريه يوما أن يعيش وفق أوامر العقل المجردة ، لا بد أنهم يحلمون بالبيضة الذهبية الوارد ذكرها فى الأشعار ، أو برواية مسرحية (١٦٩) .

وينبغى أن يكون هدف الدولة مهمتها تمكين أعضائها من أن يحيوا حياة العقل :

ليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس ، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة ، بل أن تحرر الانسان من الخوف ، حتى يعيش ويعمل آمنا مطمئنا كل الاطمئنان ، دون أن يلحق به أو بجاره أى أذى . وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات

(كما هو الحال فى الحرب) بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من أداء وظيفتها فى امان ، ان غايتها أن توجد النـــاس ليعيشوا على العقل السليم الصـادق ويمارســوه .. .. ان غاية الدولة حقا هى الحرية (١٧٠) .

ونتيجة لذلك يجدد سبينوزا دعوته الى حرية التعبير ، أو على الأقل حرية الفكر ، ولكنه استسلم مثل هوبز ، للخوف من التعصـــب والصراع الدينى ، فاقترح ، لا مجرد اخضاع الكنيسة للدولة ، بل أن تحدد الدولة أى المذاهب الدينية يلقن للناس .

وينتقل سبينوزا الى بحث الأشكال التقليدية للحكومة ، واذ أصبح وطنيا هولنديا متبرما يغزو لويس الرابع عشر لهولنده ، فان الملكية لم ترق فى عينيه ، وهاجم بشدة نظرية هوبز فى الحـكم الاســتبدادى المطـلق :

المظنون أن التجارب تعلمنا أن وضع السلطة فى يد رجل واحد مدعاة للسلام والهدوء والانسجام ، لأن أى نظام سياسي لم يكتب له البقاء طويلا دون تغيير يذكر ، مثـــل النظام التركى ، على حين أن أى نظـام لم يكن قصـــير الأجل تعتوره الفتن والمشاغبات ســوى الدول ذات النظام الشعبى أو الديمقراطى . ولكن اذا كانت العبودية والوحشية والدمار تسمى سلاما ، لكان الســلام أشد محنة تبتلى بهـا الدولة ... ان الاسترقاق . لا السلام ، هو الذى ينتج عن وضع السلطة فى يد رجل واحد . فان السلام لا يكمن فى عدم وجـــود الحـــرب ، بل فى اتحـــاد نفـــوس النـــاس وانسجامها (١٧١) .

وقد تكون الأرستقراطية « حكومة الصفوة » ممتازة ، لو لم تكن هذه الصفوة خاضعة للروح الطبقية والحزبية العنيفة وجشـع الفرد أو الاسرة . اذا تجرد الارستقراطيون أو الاشراف من كل الاهواء وكانوا لا يصدرون فى أعمالهم الا عن غيرة على المصلحة العامة ، لما كان ثمة دولة يمكن أن تقارن بالأسقتراطية . ولكن التجربة تعلمنا علم اليقين أن الرياح تاتى بما لا تشتهى السفن ، أى أن الأمور تجرى على عكس ما نريد (١٧٢) .

وهكذا شرع سبينوزا فى أواخر أيام حياته وهو على سرير الموت يخطط آماله فى دولة الديمقراطية • ان الرجل الذى أحب جان دى ويت الذى قتله الرعاع ، لم تساوره أية أوهام بالنسبة للجمهور • أو أولئك الذين خبروا تقلب مزاج الناس ، كاد يتغلب عليهم اليأس ، لأن الناس تحكمهم العاطفة ، لا العقل ، لأنها تغلب على كل شيء ، وما أيسر أن يفسدها الجشع والترف (١٧٣) • ومع ذلك « أعتقد أن الديمقراطية أقرب أشكال الحكم الى الطبيعة وأكثرها اتساقا مع حرية الفرد • وفيها لا ينقل أحد حقه الطبيعى أو يفوض به تفويضا مطلقا الى حد لا يعود له معه أى صوت فى أمور الحكم ، بل هو لا يفعل الا أن ينقله الى الأغلبية (١٧٤) » واقترح سبينوزا منح حق الاقتراع العام لكل الذكور فيما عدا القاصرين والمجرمين والأرقاء • واستبعد النساء لأنه رأى أنهن بحكم طبيعتهن وأعبائهن أقل صلاحية من الرجال للتداول والتشاور والحكم (١٧٥) • **ورأى أنه يمكن** تشجيع الموظفين الرسميين على السلوك القويم وانتهاج سياسة سليمة ، اذا « أمكن أن تؤلف الميليشيا (القوات المسلحة) من المواطنين وحدهم ، دون اعفاء أحد منهم لأن الرجل المسلح أكثر استقلالا من غير المسلح (١٧٦) » • وأحس بأن رعاية الفقراء والمساكين التزام اجبارى على المجتمع بأسره (١٧٧) • وما ينبغى أن يكون هناك الا ضريبة واحدة :

> الحقول والأرض كلها ، والبيوت اذا أمكن تدبيرها أن تكون ملكا عاما ، أى ملكا لمن له حق الحكم فى الدولة ، وهذا بدوره يؤجرها للمواطنين مقابل ايجار سنوى ••• وبهذا الاستثناء وحده ، دعهم أحرارا معفين من أى نوع من الضرائب فى زمن السلم (١٧٨) •

وفى اللحظة التى أقبل فيها على أثمن جزء فى رسالته اختطف الموت القلم من يده •

٩ ـ سلسلة من التأثيرات

فى السلسلة الضخمة من الأفكار التى تربط تاريخ الفلسفة الى مجرى كريم واحد يتلمس فيه الفكر البشرى الحائر طريقه ، نجد منهج سبينوزا يتشكل فى عشرين قرنا وراءه ، ويسهم فى تشكيل العالم

الحديث . انه أولا ، بطبيعة الحال ، كان يهوديا ، وعلى الرغم من أنه كان محروما من الكنيس ، فانه لم يستطع أن يخرج عن هذا التراث الضخم ، ولا أن ينسي سنين تأمله فى العهد القديم والتلمود وكثير من الفلاسفة اليهود . ولنعد بالذاكرة الى الهرطقات التى روعت انتباهه فى ابن عزرا وابن ميمون ، وهاسادى كريسكاس ، وليفى بن جيرسون وأورييل أكوستا . ولا بد أن دراسته للتلمود ساعدت على شحذ الاحساس المنطقى الذى جعل من رسالة « الأخلاق » معبدا ممتازا للعقل . قال سبينوزا « ان بعض الناس » يبدأون فلسفتهم من الأشياء المخلوقة ، وبعضهم من الذهن البشرى ، أما أنا فأبدأ من الله (١٧٩) . وتلك كانت الطريقة اليهودية .

ان سبينوزا أخذ القليل عن الفلاسفة الذين جرت التقاليد على أشد الاعجاب بهم ولو أنه فى تمييزه بين عالم الأشياء العابرة وعالم الله ذى القوانين الأزلية . قد نجد صيغة أخرى لتفريق أفلاطون بين الوجودات الفردية ونماذجها الأصلية فى ذهن الله . وأمكن تتبع تحليل سبينوزا للفضائل الى كتاب أرسطو « الأخلاق » عند نيقوماخوس (١٨٠) . ولكنه قال لأحد أصدقائه « لم يكن لأقوال أفلاطون وأرسطو وسقراط كبيروزن عندى (١٨١) » . انه ، مثل بيكون وهوبز ، آثر ديمقريتس وأبيقور ولوكريشيوس . وقد يرجع مثله الأعلى فى الأخلاق صدى الرواقيين ، وقد ترن فى آذاننا بعض نبرات ماركوس أوريليوس ، ولكنه كان منسجما كل الانسجام مع أبيقور .

ان سبينوزا دان للفلاسفة السكولاسيين بفضل أكثر مما وضح له . انهم تسربوا اليه عن طريق ديكارت . انهم كذلك ـ مثل توما الأكوينى فى « الرسالة الجامعة » الرائعة ـ كانوا قد حاولوا عرضا هندسيا للفلسفة ، وزودوه بكثير من المصطلحات ، مثل الجوهر ، والطبيعة الخالقة ، والصفة والماهية والخير الأسمى وكثير غيرها . ان قولهم بتعادل الوجود والماهية فى الله ، أصبح ما قال به هو تعادل الوجود والماهية فى الجوهر ، ومد الى الانسان ادماجهم العقل والارادة فى الله .

وربما قرأ سبينوزا أعمال برونو (كما يظن بيل) ، وارتضى تمييز جيوردانو بين الطبيعة الخالقة والطبيعة المخلوقة . وربما أخذ التعبير

والفكرة عن كتاب برونو « المحافظة على الذات (١٨٢) » وربما عثر عند الايطالى على وحدة الجسم والذهن ، ووحدة المـــادة والروح ، ووحدة العالم والله ، ومفهوم المعرفة الأسمى ، بمعنى رؤية كل الأشياء فى الله — ولو أن المتصوفة الألمان لا بد نشروا هذا الرأى حتى فى المدينة التجارية امستردام .

وعن طريق مباشر أكثر أوحى اليه ديكارت بمثل فلسفته ، ونفره وثبط من همته بتفاهات لاهوتية . والهبت خياله محاولة ديكارت أن يجعل الفلسفة تتمشي مع أقليدس شكلا ووضوحا . وربما تبع ديكارت فى رسم قواعد لتوجيه حياته وعمله . واقتبس عن طيب خاطر وجهة نظر ديكارت فى أن أية فكرة لا بد أن تكون صادقة ، اذا كانت « واضحة متميزة » . وقبل وعمم رأى ديكارت فى أن العالم آلة من علة ونتيجة ، نابعة من دوامة بدائية قدما الى الغدة الصنوبرية ، واعترف بأنه مدين بالفضل لتحليل ديكارت للانفعالات (١٨٣) .

وواضح أن « لوایاثان » هوبز فى ترجمته اللاتينية لقى ترحيبا كبيرا فى فكر سبينوزا ، وهنا صيغ مفهوم الآلية (ميكانيكية العالم) دون رحمة وبلا وجل . ان الذهن الذى فرق ديكارت بينه وبين الجسم ومنحه الحرية والخلود ، أصبح عند هوبز وسبينوزا خاضعا لقـانون كونى عام ، وهو قابل لمجرد خلود غير ذاتى ، أو لا خلود مطلقـــا . ووجد سبينوزا فى « لوایاثان » تحليلا مقبـــولا للاحســاس والادراك والذاكرة والفكرة ، وتحليلا غير عاطفى للطبيعة الانسانية . ومن نقطة البداية المشتركة « للحالة الطبيعة » و « الميثاق الاجتمـــاعى » انتهى المفكران كلاهما الى نتائج عكســية حيث انتهى هـوبز من « دوائره الملكية » الى الملكية المطلقة ، وانتهى سبينوزا من الوطنية الهولنـدية الى الديموقراطية . وربما كان هوبز هو الذى وجه اليهودى الوديع الى مكيافللى ، فيشير اليه بأنه « الفلورنسي البالغ الذكاء » ، ومرة أخرى بأنه « أعظم عبقرى ... بعيد النظر (١٨٤) » ولكنه تجنب الخلط بين الحق والقوة ، معترفا بأن هذا أمر يمكن التجاوز عنه بين الأفراد فقط فى « حالة الطبيعة » وبين الدول قبل سن قانون دولى فعال .

وخفف سبينوزا من كل هذه التاثيرات وصاغها فى كيـان فكرى يبعث الرهبة فى منطقه واتساقه ووحدته البارزة . وكان ثمـــة بعض

تصدع فى المعبد ، كما أشار الأصدقاء والأعداء على السواء • وفى براعة كبيرة انتقد أولدنبرج البديهيات والقضـــايا التى صـــدر بها كتـــاب الأخلاق (١٨٥) • وتناولها أوبرويج بتحليل دقيق مفصل يتسم بالدقة الألمانية (١٨٦) • وكان المنطق مشرقا ، ولكنه استنتاجى الى حد مرهق، وكان ، ولو أنه مبنى على خبرة شخصية ، عبارة عن براعة الفكر ترتكز على اتساق ذاتى ، لا على حقيقة موضوعية • ان وثوق سبينوزا باستنتاجه وتفكيره (والا فيم يسترشد ؟) كان التوقح الوحيد فى عمله • لقد عبر عن ثقته فى قدرة الانسان على فهم الله ، أو الحقيقة الأساسية أو القانون الكونى ، وكم من مرة أعلن عن اقتناعه بأنه أثبت نظرياته فوق كل شك أو جدل أو غموض أو لبس ، وتحدث أحيانا فى لهجة توكيد لا يتأتى صدورها عن رذاذ من الزبد تحليلا وتفسيرا للبحر • وأية جدوى اذا كان كل المنطلق وسيلة عقلية أو آلة موجهة مساعدة للذهن الباحث ، لا كيان العالم ؟ وهكذا يختزل منطق الجبرية الذى لا مفر منــه ، الوعى الى ظاهرة ثانوية (كما اعترف هكسلى) لاحقة ، ظاهر أنها زائدة غــير ضرورية لعمليات سيكولوجية ، قد تجرى بدونها بمقتضي ميكانيكية أو آلية العلة والنتيجة • ومع ذلك ليس ثمة شيء يبدو حقيقيا ، أو شيء يبدو مثيرا ، أكثر من الوعى • ويبقى اللغز الأكبر بعد أن قال المنطق كلمته•

وربما أسهمت هذه الصعوبات فى عدم شعبية فلسفة سبينوزا فى أول قرن مضي بعد وفاته • ولكن أشد الاستياء أنصب على نقده للكتاب المقدس والنبوءات والمعجزات ، وعلى مفهومه لله جـــديرا بالحب ولكن غير مجسم متصام لا يريد الاصغاء • واعتبر اليهود ابنهم خائنا لقــومه ، وصب المسيحيون عليه اللعنة شيطانا بين الفلاسفة ، مسيحا دجالا سعى لسلب العالم من كل معنى ورحمة وأمل ، بل أن المهرطقين أنفســـهم أدانوه واستنكروه • ونفر بيل من وجهة نظر سبينوزا فى أن كل الأشياء وكل الناس أشكال من نفس الجوهر الواحد أو العلة الواحدة أو الله ، وحينئذ ــ كما قال بيل ــ فان الله هو العامل الحقيقى فى كل الأفعال ، والعلة الحقيقية فى كل الشرور ، وكل الجرائم • وكل الحروب ، حتى اذا ذبح أحد الأتراك رجلا من المجر ، كان الله هو الذى قتل نفسه ، ثم احتج بيل (ناسيا ذاتية الشر) على أن هـــذا « أســـخف وأبشـــع فرضية (١٨٧) » وكان لبينتز ، لعقد من السنين (١٦٧٦ ــ ١٦٨٦) متأثرا أشد التأثر بسـبينوزا • ان نظـــرية « الجواهـــر الروحيـــة

المونادولوجيا (عناصر الوجود الأولية) » قد يرجع بعض الفضل فيها لسبينوزا . وأعلن لبينتز يوما أن شيئا واحدا فى فلسفة سبينوزا أزعجه — نبذ فكرة العلل النهاية أو تدابير العناية الالهية فى عملية الكون (١٨٨). وعندما علت صيحات الاستنكار ضد « الحاد » سبينوزا انضم اليها لبينتز « حماية لشخصه » .

ان لسبينوزا نصيبا متواضعا ، يكاد يكون خفيا ، فى تنشئة الاستنارة فى فرنسا ، فان زعماء هذه الثورة العنيفة استخدموا نقد سبينوزا للكتاب المقدس سلاحا فى حربهم ضد الكنيسة ، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده ، « وبأخلاقه » القائمة على المذهب الطبيعى ، وبرفضه للتدابير فى الطبيعة ، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية ، والتصوف أو المذهب الباطنى البارز فى كتاب « الأخلاق » ، وقد نتخيل رد الفعل فى فولتير أو ديدرو ، وفى هلفيشيوس أودى هو لباخ ، لعبارات مثل « ان الحب الروحى العقلى لله هو نفس الحب الذى يحب به الله نفسه (١٨٩) » .

وكانت الروح الألمانية أكثر استجابة لهذا الجانب من فكر سبينوزا. واستنادا الى حديث رواه فردريك جاكوبى (١٧٨٠) لم يعترف لسنج بأنه لم يكن طوال سنى نضجه متأثرا بسبينوزا فحسب ، بل كذلك أنه « لا فلسفة الا فلسفة سبينوزا (١٩٠) » ان التعادل بين الطبيعة والله ، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود ، هو بالتحديد الذى اهتزت طربا له ألمانيا أثناء الحركة الرومانتيكية بعد أن جرت حركة الاستنارة فى عهد فردريك الأكبر مجراها . وكان جاكوبى ، بطل « فلسفة الوجدان» الجديدة من بين أوائل المدافعين عن سبينوزا (١٧٨٥) وثمة ألمانى رومانتيكى آخر ، هو نوفاليس ، أطلق على سبينوزا « الثمل بحب الله » . وقال هردر بأنه « وجد فى رسالة الأخلاق » التوفيق بين الدين والفلسفة . وكتب شليماخر ، رجل الدين المتحرر ، عن « سبينوزا المقدس المحروم من الكنيس (١٩١) » و « وارتد » جيته الشاب عندما قرأ « الأخلاق » لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره (غير الجنسي) ونثره . ويرجع بعض الفضل الى تنسمه جو الهدوء فى كتاب « الأخلاق » ، فى انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامحة عند جوتز فون برليخنجين وآلام فرتر الشاب ، الى الاتزان

المهيب فى آخريات حياته . وعوق كانت مجرى هـــذا التأثير لبعض الوقت . ولكن هيجل صرح بأنه « لكى تكون فيلسوفا ينبــغى أول أن تكون سبينوزيا » ، وعبر من جديد عن اله سبينوزا بأنه « العقل الطلق» وربما تسرب شيء من « نزعة المحافظة على الذات » عند سبينوزا الى « ارادة الحياة » عند شوبنهور ، و « ارادة القوة » عند نيتشه .

ولمدة قرن من الزمان عرفت انجلترا سبينوزا عن طريق الهرطقة أساسا ، واستنكرته غولا بشعا بعيدا عنها . وأشار اليــه ستللنجفليت (١٦٧٧) بصورة غامضة « مؤلفا متأخرا أسمع منه أن تمتــع بشعبية كبيرة بين كثير ممن ينادون بأى شيء يتصل بالالحاد » . وكتب الأستاذ الاسكتلندى جورج سنكلير (١٦٨٥) عن « حفنة شاذة من الرجال ممن يشايعون هوبز وسبينوزا ، يستخفون بالدين وينتقصون من قدر الأسفار المقدسة » . وتحدث سيرجون ايفلين عن « الرسالة اللاهوتية السياسية» بأنها « كتاب مخز ، عقبة فاجعة فى طريق الباحثين عن الحقيقـــة المقدسة » أما بركلى (١٧٣٢) فانه بينما عد سبينوزا من المؤلفين الضعاف الأشرار ، قال أنه « زعيـــم كبير للكفرة الحديثين (١٩٢) » . وفى ٣٩' ارتاع هيوم ــ وهو من أتباع مذهب اللا أدرية ــ فى حذر من الفرضية البشعة » التى جاء بها « ذلك الملحد المعروف ، سبينوزا الذى ساءت سمعته فى كل الانحاء (١٩٣) » . ولم يصل سبينوزا الى اذهان الانجليز الا عند ظهور الحركة الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وحينئذ أوحى ، أكثر من أى فيلسوف غيره ، بالميتافيريقا العنيفة القـــوية عند وردزوث وكوليردج وشللى وبيرون . واقتبس شللى من « الرسالة اللاهوتية السياسية فى حواشيه الأصلية فى « ملكة الأحلام كوين ساب » وبدأ ترجمة للرسالة ، وتعهد بيرون بكتابة مقدمة لها . ووقع جزء من هذه الترجمة فى يد ناقد انجليزى حسبها من تأليف شللى نفسه فقال عنها « تفكير أحد صبيــة المدارس ، فج لا يصلح للنشر اطلاقا » . وترجم جورج اليوت «الأخلاق» بعزيمة صادقة . واعترف جيمس فرود ، وماتيو آرنولد بتأثير سبينوزا على تطورهما العقلى ، ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الانسان على مر الزمان . ان بركليز مشهور لأنه عاش زمن سقراط .

اننا نحب سبينوزا بصفة خاصة بين الفلاســفة ، لأنه كان كذلك

قديسا ، ولأنه عاش الفلسفة كما كتبها . ان الفضـائل التى مجدتهـا الديانات الكبرى كرمت وتجسدت فى المنبوذ الذى لفظته كل الديانات ، حيث لم تجزله أية ديانة أن يصور الله على أسس يمكن أن يسيغها العلم. ان نظرة الى الوراء ، الى هذه الحياة الموقوفة على البحث ، والى هذا الفكر المكثف ، لتجعلنا نحس بأن فيهما عنصرا من النبل يشجعنا على أن نحسن الظن بالانسان . فلنسلم بنصف الصورة المرعبـة التى رسمها سويفت للبشرية ، ولنتفق على أننـا فى كل جيـل ، وفى كل مكان تقريبا ، نجد الخرافة والنفاق والفساد والقسوة والجريمـة والحرب : فلنضع فى مقابل هذا فى كفة أخرى ، ثبتا طويلا بالشعراء والملحنين والفنانين ورجال العلم والفلاسفة والقديسين . ان ذلك الجنس البشرى بعينه ، الذى ثار منه سويفت المسكين عجز جسده ، هو الذى كتب روايات شكسبير ، وموبيقى باخ وهاندل ، وقصائد كيتس الغنائية ، وجمهورية أفلاطون « وقواعد » نيوتن . و « أخلاق » سبينوزا ، وهو الذى شاد البارثينون وسقف كنيسة سستين ، وهو الذى حمـل المسـيح وأعزه ودلله ، ولو أنه صلبه ، ان الانسان فعل كل هذا الذى أسلفنا ، فيجدر ألا يدع اليأس يتطرق الى نفسه .

الفصل الثالث والعشرون

ليبنتز

١٦٤٦ ـ ١٧١٦

ـ فيلسوف القانون :

كان ثمة هوة فى الشخصية والخلق والفكر تفصل بين سبينوزا وليبنتز ، فهناك اليهودى المنعزل ، الذى لفظته اليهودية ، والذى لم يتقبل المسيحية ، الذى عاش فى أحضان الفقر فى حجرة متواضعة ، وأنجز كتابين اثنين ، وأخرج فى أناة فلسفة أصيلة جريئة يمكن أن تنفر منها كل الديانات ، والذى قضى نحبه متأثرا بالسل فى الرابعة والاربعين ، الى جانب الألمانى رجل الدنيا المشغول برجال الدولة والبلاط ، الذى جال فى كل أنحاء أوربا الغربية تقريبا ، الذى دس بأنفه فى روسيا والصين ، وقبل البروتستانتية والكاثوليكية ، ورحب بعديد من مناهج الفكر واستخدمها . وكتب خمسين رسالة ، وأحب الله كما أحب الدنيا ، فى تفاؤل شديد ، وعمر سبعين عاما ، وليس بينه وبين سلفه من وجه شبه الا أن جنازة كل منهما كانت موحشة . وهنا فى جيل واحد ظهر النقيضان فى الفلسفة الحديثة .

ولكن قبل أن نتناول الصورة المتقلبة والمتعددة الألوان لرجل ، فلنعترف ببعض فضل يسير للفكر الألمانى . فقد بدأ صمويل فون بوفندورف مسيرته فى ١٦٣٢ ، وهو نفس العام الذى بدأ فيه سبينوزا ولوك . وبعد أن درس فى ليبزج وبينا قصد الى كوبنهاجن معلما فى أسرة أحد الدبلوماسيين السويديين ، واعتقل معه عندما أعلنت السويد الحرب على الدنمرك ، وخفف من ضجر السجن بوضع نهج للقانون الدولى ، فلما أطلق صراحه رحل الى ليدن حيث نشر نتائج بحثه تحت عنوان « عناصر القانون الدولى » (١٦٦١) ، الذى سر به شارل لويس ناخب البالاتينات (وهو نفس الأمير الذى دعا سبينوزا فيما بعد) الى حد أن الناخب استدعى المؤلف الى هيدلبرج ، وأنشأ له كرسي الأستاذية

فى القانون الطبيعى والقانون الدولى ـ وهو أول كرسي من نوعه في التاريخ . وهناك وضع دراسة عن « مملكة المانيا » أزعجت ليوبولد الأول ، لمهاجمتها الامبراطورية الرومانية المقدسة وأباطرتها . وهاجر بوفندورف الى السويد وجامعة لوند (١٦٧٠) حيث نشر أروع أعماله « القانون الطبيعى والناس » (١٦٧٢) . وفى محاولته اتخاذ موقف وسط بين هوبز وجروتيوس ، لم يطابق « قانون الطبيعة » وبين صراع الأفراد بعضهم بعضا ، بل طابق بينه وبين « العقل الصحيح » وأضفى « الحقوق الطبيعية » (وهى حقوق كل الكائنات العقلانية) على اليهود والأتراك (المسلمين) ونازع فى أن القانون ينبغى ألا ينفذ الا بين الدول المسيحية فقط ، بل كذلك فى علاقاتها مع « الكفار » على قدم المساواة . وسبق جان جاك روسو بنحو قرن من الزمان ، حين أعلن أن ارادة الدولة ، هى ، وينبغى أن تكون ، جماع ارادات الأفراد الذين تتالف منهم الدولة . ولكنه ذهب الى أن العبودية أمر مرغوب فيه ، وسيلة لانقاض عدد المتسولين والأفاقين واللصوص (١) .

وظن بعض القساوسة السويديين أن هذه النظريات لم تقم كبير وزن لله والكتاب المقدس فى الفلسفة السياسية ، وحرضوا على وجوب اعادة بوفندورف الى المانيا . ولكن شارل الحادى عشر دعاه الى ستوكهلم وقلده منصب المؤرخ الملكى . وقابل الأستاذ حسن الصنيع بأن كتب سيرة حياة الملك ، وتاريخا للسويد . وفى ١٦٨٧ ، وربما تطلعا الى التجوال أهدى بوفندورف الى ناخب براندنبرج الأكبر ، رسالة عن « العلاقة بين العقيدة المسيحية والحياة المدنية » يدافع فيها عن التسامح . وسرعان ما قبل دعوة الى برلين ، وأصبح مؤرخا لفردريك وليم ، وعين بارونا ، وقضي نحبه (١٦٩٤) . وظلت كتاباته لمدة نصف قرن أبرز الأعمال وأكثرها أثرا وانتشارا فى الفلسفة السياسية والقانونية فى أوربا البروتستانتية ، وساعد تحليليها الواقعى للعلاقات الاجتماعية فى الأحداث التى عملت على انكماش نظرية حقوق الملوك الالهية .

وبرز تدهور التفسيرات اللاهوتية لأعمال البشر فى أنشطة بلثازار بكر Bkker وكريستيان توماسيوس . وكان بكر كاهنا يتولى المهام الدينية لجماعة من الناس فى فريزلند ، أفسد عقيدته بقراءة ديكارت ، فاقترح تطبيق العقل على الاسفار المقدسة ، وفسر الشياطين

التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس بأنها أوهام شعبية أو مجـازات ، وتتبع فكرة الشيطان فى تاريخ ما قبل المسيحية وكان من رأيه أنها فكرة مدسوسة على المسيحية ، وانتهى الى أن الشيطان خرافة ، ونفى وجوده فى بيان باللغة الهولندية ، « العالم المسحور » (١٦٩١) . ووجهت الكنيسة أعنف اللوم والتقريع الى بكر ، احساسا منها بأن الخوف من الشيطان بداية العقل والحكمة ، وعانى الشيطان بعض الخسارة فى مكانته لا فى أتباعه .

وواصل توماسيوس المعركة . وعلى حين ظل يتقبل الأسفار المقدسة هاديا الى العقيدة والخلاص ، تاقت نفسه الى اتباع منهج العقل لمجرد الوصول الى الدليل ، ولتشجيع التسامح الدينى . ولما كان أستاذ القانون الطبيعى فى ليبزج (١٦٨٤ - ١٦٩٠) فانه أساء الى الكلية والكنيسـة بأصالة آرائه وأساليبه ولغته . وهاجم خرافات عصره فى سخرية ألمانية عنيفة . واتفق مع بكر فى استبعاد « الشيطان » من الديانة ، وشـجب الاعتقاد فى السحر باعتباره جهالة فاضحة ، وتعذيب السحرة باعتباره وحشية اجرامية . وبفضل تأثيره ونفوذه ، وضع حد لمحاكمات السحرة والمشعوذين فى ألمانيا . وليزيد الطين بلة حاضر تلاميذه بالألمانية بدلا من اللاتينية ، منتقصا نصف جلال أصول التدريس . وفى ١٦٨٨ بدأ ينشر عرضا أوريا للكتب والأفكار ، وربما كان لزاما علينا أن نسميه أول صحيفة جادة فى ألمانيا ، ولكنها عرضت ألوان المعرفة فى شيء من اليسر ، وغلفت البحث الجاد بالدعابة ، وسميت « أفكار هازلة وجادة ، عقلانية وسخيفة حول كل أنواع الكتب والقضايا السارة والنافعة » . وأزعج دفاعه عـن « التقويين » (التقوية حركة دينية ظهرت فى ألمانيا فى القرن السابع عشر أكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية) ضد رجال الدين التقليديين ، وعن التـزاوج بين اللوثريين والكلفنيين ، أزعـج السلطات الى حد أنهم حظروا عليه الكتابة أو القاء المحاضرات ، وأمروافى النهاية باعتقاله (١٦٩٠) . فهرب الى برلين ، وعينه الناخب فردريك الثالث أستاذا فى هالى ، وأسهم فى تنظيم الجامعة هنـاك ، وسرعان ما جعلها أقوى مركز للفكر فى ألمانيا . وفى ١٧٠٩ دعته ليبزج للعـودة ولكنه أبى ، وبقى فى هالى أربعة وثلاثين عاما حتى آخر حياته ، وافتتح عصر الاستنارة الذى أنجب لسنج وفردريك الأكبر .

وتابع بعض المتحمسين ثورتهم الى اقصى درجات الالحاد ، فنبــذ ماتياس كنوتزن من هولشتين أى معتقد خارق للطبيعة « اننا فوق كل شيء ننكر الله (٢) » • واقترح أن يستبدل بالمسيحية وكنائسها وكهنتها « ديانة وضعية » « ديانة الانسانية » مستبقا بذلك أوجست كومت ، وأن يؤسس الأخلاق على تربية الضمير تربية قائمة على المذهب الطبيعى فقط (١٦٧٤) وقيل انه كان له ٧٠٠ من الأتباع ، وربما كان فى هذا مبالغة ، ولكننا نلاحظ أنه فيما بين عامى ١٦٦٢ ، ١٧١٣ نشر على الأقل اثنان وعشرون كتابا فى ألمانيا ، هدفها نشر الالحاد أو تفنيده (٣) •

ورثى ليبنتز « لانتصار المفكرين الأحرار الواضح » ، فكتب حوالى عام ١٧٠٠ « فى أيامنا هذه » ، يبدى كثير من الناس قليلا من الاحـــترام والاجلال للوحى ••• أو المعجزات (٤) » • وأضاف فى ١٧١٥ : ان الديانة الطبيعية ينتابها كثير من الضعف ، ويعتقد كثيرون أن النفوس جسدية ، وآخرون أن الله نفسه جسدى • ويرتاب مستر لوك وأتباعه فى أن النفوس غير مادية ومآلها الهلاك بشـــكل طبيعى (٥) • ولم يكن ليبنتز راسخ العقيدة الى حد كبير ، ولكنه رجل الدنيا ورجـــل البلاط ، فتساءل الى أين تنتهى العقلانية المتصاعدة ، وماذا عساها أن تفعل بالكنائس والاخلاق والعروش • هل من المســتطاع الرد على العقلانيين بلغتهم وانقاذ عقيدة الآباء والأجـــداد من أجـل ســلامة الأبنــاء ؟ •

٣ ــ سنى العمل الجــاد :

كان جوتفريد ولهلم ليبنتز فى الثانية من العمر حين وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها • ونشأ فى فترة من أكثر فترات التاريخ الألمانى عقما وشقاء • ولكن تهيأت له ، كل فرص التعليم المتاحة آنذاك ، لأن أباه كان أستاذا لفلسفة الاخلاق فى جامعة ليبزج ، وكان جوتفريد فتى ذكيا متلهفا على المعرفة ، ولوعا بالكتب ، وكانت مكتبة أبيـــه مفتحة الأبواب أمامه تدعوه ليأخذ ويقــرأ • وبدأ دراســـة اللاتينية فى سن الثامنة ، واليونانية فى الثانية عشرة • والتهم التاريخ فاصبح متعـدد جوانب العلم والمعرفة • وفى سن الخامسة عشرة التحق بالجامعة حيث

كان توماسيوس المثير من بين معلميه • وفى سن العشرين تقدم لنيل درجة الدكتوراه فى القانون ، ولكن جامعة ليبزج رفضت لصغر سنه • ولكنه سرعان ما حصل عليها من جامعة نورمبرج فى التدورف • وكان لرسالة الدكتوراه التى قدمها هناك دوى كبير الى حد أنهم عرضوا عليه فى الحال منصب الأستاذية ، ولكنه أبى محتجا بأن « فى مخيلته أشياء مختلفة » ، ان قليلا جدا من كبار الفلاسفة شغلوا كراسي الجامعة •

ونراه الآن ، وهو آمن ميسور الحال من الناحية المادية ، حـر منطلق من الناحية الفكرية ، يغمس يديه فى كل الحركات والفلسفات التى كانت تهيج ألمانيا التى بعثت من جديد ، وكان قد درس مناهج فلاسفة السكولاسية فى ليبزج ، واحتفظ بمصطلحاتهم الفنية وكثير من أفكارهم ، مثل برهانهم الأونطولوجى (أو نطولوجيا : علم الوجود) على وجود الله ، وتشرب تعاليم ديكارت تماما ، ولكنه ليجعلها سائغة أضاف اليها شيئا من الملح من اعتراضات جاسندى ومذهبـه الذرى • وانتقل الى هوبز وامتدحه بأنه مدقق • وغازل المذهب المادى (٦) • وأقام حينا من الزمن فى نورمبرج (١٦٦٦ - ١٦٦٧) حيث اختبر التصوف أو المذهب الباطنى عند اخوة الصليب الوردى « التى كان قد أسسها المشتغلون بالكيمياء القديمة والاطباء ورجال الدين حوالى عام ١٦٥٤ ، وأصبح سكرتيرا لها ، وأخذ ينقب فى الكيمياء القديمة ، وهو فى هذا كثير الشبه بما كان يفعل منافسه اللاحق نيوتن فى كمبردج • ولم يترك فكرة الا جربها واقتبسها • وقبل بلوغه الثانية والعشرين من عمره كان قد كتب عدة رسائل ذات مجال ضيق ، ولكنها تفيض بالثقة •

ولفتت احدى هذه الرسائل « طريقة جديدة لتعـليم القـانون ودراسته » نظر أحد الدبلوماسيين المقيمين فى نورمبرج آنذاك ، هو جوهان فون بوينبرج ، الذى أشار على المؤلف الشاب باهدائهـا الى الأسقف ناخب مينز ، ورتب أن تقدم اليه شخصيا • ونجحت الخطة ، وفى ١٦٦٧ التحق ليبنتز بخدمة الناخب ، فى أول الأمر ، مساعدا فى مراجعة القوانين ، ثم عضوا فى المجلس • وبقى فى ميينز خمس سنين اعتاد فيها على رجال الدين واللاهوت والطقوس الكاثوليكية ، وبدأ يراوده حلم اعادة توحيد المذاهب المسيحية الممزقة ، ومهما يكن من امر فأن الناخب كان أكثر اهتماما بلويس الرابع عشر منه بلوثر ، لأن الملك

المنهوم الذى لا يشبع كان يسير جيوشه الى الاراضي الوطيئة واللورين ، وهى جد ملاصقة لالمانيا ، وكان واضـــحا أن الملك متلهف على ابتلاع أراضي الراين . فكيف يتسنى وقفه ؟

وكان لدى ليبنتز خطة لهذا ــ وفى الحق خطتان ، بلغتا حد البراعة من شاب فى الرابعة والعشرين . وكانت الخطة الأولى هى توحيد ولايات ألمانيا الغربية فى « اتحاد الراين » للدفاع المتبادل (١٦٧٠) . أمـا الثانية فكانت تعتمد على صرف نظر لويس الرابع عشر عن ألمانيا باغرائه بالاستيلاء على مصر التى كانت آنذك تحت حكم الاتراك . وكانت العلاقات آنذاك متوترة بين فرنسا وتركيا . فاذا قدر الملك لويس أن يرسل حملة لفتح مصر (فيسبق بذلك نابليون بمائة وثمانية وعشرين عاما) فانه ستكون له السيطرة على التجارة ــ بما فى ذلك تجارة هولنده ــ التى تمر عبر مصر الى الشرق ، ولأبعد الحرب عن أرض فرنسا ، ووضـــع نهاية لتهديدات تركيا للعالم المسيحى ، ولأصبح المنقذ الذى ترنو اليه الأبصار بالتبجيل والاجلال بدلا من السوط الذى تخشاه أوربا ، وكتب بوينبرج بهذا الى الملك لويس الرابع عشر ، وطوى كتابه على مخطط للمشروع بقلم ليبنتز نفسه+ . فدعا سيمون أرنولددى بومبـــون وزير الخارجية الفرنسية ، ليبنتز (فبراير ١٦٧٢) ليجىء ليعرض المشروع على الملك . وفى مارس شخص رجل الدولة ذو الستة والعشرين ربيعا الى باريس .

ولكن القادة أحبطوا مشروع ليبنتز كما دمروا أنفسهم . ذلك أنه لدى وصوله الى باريس كان لويس قد سوى نزاعه مع الأتراك ، وقرر مهاجمة هولنده ، وفى ٦ أبريل أعلن الحرب . وأبلغ بومبون ليبنتز أن الحرب الصليبية لم تعد ملائمة لهذا العصر ، ورفض السماح له بالمثول بين يدى الملك . فكتب الفيلسوف الذى ظل يراوده الأمل ، مذكرة الى الحكومة الفرنسية ، أرسل خلاصة لها « مشروع مصر » الى بوينبرج .

+ قال شبنجلر « ولو كان هذا سابقا لأوانه ، فان ليبنتز وضع المبدأ الذى تعلق به نابليون بشكل اكثر وضوحا ، بعد وجرام ، اى ان اية مكاســـب على الراين او فى بلجيكا لن تعمل بصفة دائمة على تحسين موقف فرنسا ، وان عنق السويس لابد يوما أن يكون مفتاح السيطرة على العالم (٧) .

ولو تم تنفيذ الاقتراح بنجاح ، لاستولت فرنسا ـ لا انجلترا ـ على الهند ، ولكانت لها السيادة على البحار . قال الجنرال ماهان : « ان قرار لويس ، ذلك القرار الذى أودى بحياة كولبير وقضي على رخاء فرنسا وازدهارها ، أحس الناس به جيلا بعد جيل من خلال نتائجه (٨) .

ومات بوينبرج قبل أن يصله « المشروع » . وحزن ليبنتز لفقدان صديق يؤثر المصلحة العامة ، غير انانى . ولهذا السبب ، من ناحية ، لم يعد الى مينز . أضف الى ذلك أن التيارات الفكرية فى باريس أسرت لبه ، حيث وجدها أكثر اثارة من جاذبية تلك التى أحاطت حتى بالناخب المتحرر المستنير . وهناك التقى بأنطون أرنولد أوف بورث رويال ، ومالبرانش ، وكريستيان هوجنز ، وبوسويه . وجذبه هوجنز الى الرياضة العالية ، وبدأ ليبنتز « حساب اللامتناهيات فى الصغر » الذى أفضي به الى « التفاضل والتكامل » .

وفى يناير ١٦٧٣ عبر المانش الى انجلترا فى بعثة أوفدها ناخب مينز الى شارل الثانى . وفى لندن تعرف على أولدنبرج وبويل ، وأحس بفتنة العلم المستيقظ . ولما عاد الى باريس فى مارس خصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للرياضيات . واخترع آلة حاسبة أدخلت بعض التحسينات على آلة بسكال ، اذ زاد بها على الجمع والطرح ، عمليات الضرب والقسمة . وفى أبريل انتخب ، غيابيا ، عضوا فى الجمعية الملكية . وما وافت سنة ١٦٧٥ حتى كان قد اكتشف حساب التفاضل ، وسنة ١٦٧٦ حساب المتناهيات فى الصغر ، كما كان قد بلور طريقته الناجحة فى استخدام الرموز . ولم يعد أحد يتهم ليبنتز بأنه انتحل لنفسه وضع « حساب اللامتناهيات فى الصغر » بدلا من نيوتن (٩) . والظاهر أن نيوتن أجرى اكتشافه ١٦٦٦ ، ولكن لم ينشره الا فى ١٦٩٢ . ونشر ليبنتز « حساب التفاضل » فى ١٦٨٤ ، و « التكامل » فى ١٦٨٦ (١٠) وليس ثمة شك فى أن نيوتن كان أول من اكتشف ، وأن ليبنتز توصل الى اكتشافه مستقلا عنه ، وأنه سبق نيوتن الى نشر الاكتشاف وأن طريقة ليبنتز فى « الرموز » ثبت أنها أفضل من طريقة نيوتن (١١) .

وقضي أسقف مينز نحبه فى مارس ١٦٧٣ تاركا ليبنتز بلا وظيفة رسمية ، وسرعان ما وقع اتفاقا للالتحاق بخدمة دوق رومه جون فردريك

أوف برونزويك - لونبرج ، أمينا لمكتبته فى هانوفر . وظل مفتـــونا بباريس ، فبقى بها حتى ١٦٧٦ ، ثم ارتحل على مهل الى هانوفر عبر لندن ، وامستردام ولاهاى . وفى امستردام تحدث مع تلاميذ سبينوزا ؛ وفى لاهاى التقى بالفيلسوف نفسه . وتردد سبينوزا فى أن يوليه ثقته ، لأن ليبنتز عرض التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، مما قد يساعد على خنق حرية الفكر (١٢) . وتغلب ليبنتز على هذه الشبهات ، وسمح له سبينوزا بقراءة - بل بنسخ بعض أجـــزاء من مخطـــوطة « كتـــاب الأخلاق » (١٣) - وجرت بين الرجلين أحاديث طويلة . وبعـد وفـــاة سبينوزا لقى لبينتز مشقة كبيرة فى اخفـــاء تأثيره العميـــق بالقديس اليهودى .

ووصل الى هانوفر فى أواخر ١٦٧٦ ، وبقى فى خدمة أمراء برنزويك المتعاقبين طوال الأربعين عاما الباقية من عمره . وكان يأمل فى تعيينه مستشارا للدولة ، ولكن الأدواق خصصوه لتولى شئون مكتباتهم وكتابة تاريخ أسرتهم . ونهض بهذه المهام بشكل متقطع على خير وجه . وزين التاريخ الضخم الذى كتبه فى عدة مجلدات ، وملأه بوثائق أصيلة بذل جهدا كبيرا فى الحصول عليها . وأثبتت أبحاثه المتعلقة بسلسة الأنساب فى ايطاليا ، الأصل المشترك لأسرتى است وبرونزويك . وعلى الرغم من موضوع هذا الكتاب كان مقيدا بشكل مزعج لهذه العبقرية الطموحة ؛ فقد امتد به الأجل ليرى بيت برونزويك يرث انجلترا . وحاول جاهـدا أن يكون وطنيا محبا لألمانيا . وكم ناشد الألمان أن يستخدموا لغتهـــم الوطنية فى القانون ، ولكنه كتب رسائله وأبحاثه باللاتينية أو الفرنسية وكان نموذجا لامعا « للأوربى الصالح » و « الذهن العالمى » . وحـذر الأمراء الألمان من أن الأحقاد التى تمزقهم ، وتعمدهم اضعاف سلطان الامبراطورية ، كل أولئك حكم على المانيا بأن تكون فريسة الدول الأكثر تماسكا ومركزية . وميدانا للحروب التى يتكرر نشوبها بين فرنســا وانجلترا وأسبانيا (١٤) .

وكان أمله الذى يطويه بين جوانحـــه ، أن يخـــدم الامبراطور والامبراطورية ، لا أمراء الولايات المشـــتتة . وكان لديه مائة مشروع للاصلاح السياسي والاقتصادى والدينى والتعليمى . واتفق مع فولتير فى أنه من الايسر اصلاح الدولة بهداية حاكمها ، منه بتعليم الجماهير فى

بطء ، وهم مرهقون بالتماس أسباب العيش فلا يجدون فسحة من الوقت للتفكير (١٥) • وعندما مات أمين المكتبة الامبراطورية فى ١٦٨٠ ، تقدم ليبنتز لشغل المنصب ، ولكنه أضاف بأنه لا يريد أن يشغله الا اذا عين معه عضوا فى المجلس الامبراطورى الخاص• ورفض طلبه ،عاد الى هانوفر حيث وجد بعض السلوى والعزاء فى صداقة الناخبة صوفيا ، وبعد ذلك فى صداقة ابنتها صوفيا شارلوت التى ألحقته بالبلاط البروسي ، وساعدته فى تأسيس أكاديمية برلين (١٧٠٠) ، وأوحت اليه بكتابة « التيوديسية » ، وكرم فى بقية أيام حياته ، مركزه المتواضع بتبادل الرسائل مع زعماء الفكر فى أوربا ، وباسهاماته الضخمة فى الفلسفة ، وتقديمه خطة جريئة لاعادة التوحيد الدينى للعالم المسيحى •

٣ ـ ليبنتز والمسيحية :

هل كان ليبنتز نفسه مسيحيا ؟ الجواب الايجاب « ظاهريا » بطبيعة الحال ، فان رجلا بمثل حماسته وتلهفه على العبور من الفلسفة الى فن الحكم وسياسة الدولة كان لزاما عليه أن يلبس لاهوت الزمان والمكان اللذين عاش فيهما • وقال فى مقدمة « التيوديسية » : « لقد حاولت فى كل الاشياء لأدرس الحاجة الى التنوير والتهذيب (١٦) » • وكانت كل الكتابات التى نشرها فى حياته أمثلة تحتذى فى اخلاصها للعقيدة فقد دافعت عن التثليث والمعجزات والنعمة الالهية ، والارادة الحرة ، والخلود ، كما هاجمت مفكرى العصر الأحرار لانتقاصهم من قيمة الأسس الأخلاقية للنظام الاجتماعى على أنه « ذهب الى الكنيسة قليلا ، ••• ولم يتناول القربان المقدس لسنوات كثيرة (١٧) » • ولقبه البسطاء من الناس فى هانوفر « لوفينكس الذى لا يؤمن بشيء (١٨) ».• ونسب اليه بعض الطلبة فلسفتين متعارضتين ، واحدة للاستهلاك العام وتسلية الأميرات ، والأخرى « توكيد واضح المعالم لكل مبادىء سبينوزا (١٩) • « أن ليبنتز كان يلجأ الى سبينوزا كلما سمح لنفسه أن يكون منطقيا • وفى كتبه المنشورة حرص ، تبعا لذلك ، على أن يكون غير منطقى (٢٠) » •

ان مساعيه للتوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية جعلته عرضة للاتهام بعدم التفريق بين الأديان أو الايمان بأنها جميعا متساوية فى

صحتها (٢١) • ان رغبته الملحة فى الوحدة والتوفيق سيطرت على لاهوته • وعلى حين تجنب الوعاظ حاول جاهدا أن يؤلف بينهم • انه قلل من شأن الفروق السطحية لأن نظرته كانت عميقة• ولو كانت المسيحية شكلا من أشكال الحكومة ، فان تنوعاتها المذهبية لم تبد له أدوات للتقوى والغيرة والحماسة ، بل عقبات فى طريق النظام والسلام •

وفى ١٦٧٧ أرسل الامبراطور ليوبولد الأول كريستوفر روجا دى سبينولا أسقف شرف تينا فى كرواتيا ، الى بلاط هانوفر ليقترح على الدوق جون فردريك ، وكان مرتدا الى الكاثوليكية أن ينضم الى حملة لاعادة توحيد البروتستانت مع رومه • وربما كان لهذه الخطة ذيول سياسية : فان الناخب رغب اذ ذاك فى دعم الامبراطور له ، كما أن ليوبولد راوده الأمل فى وحدة وروح المانيتين أقوى لمواجهة الأتراك • وتنقل سبينولا لفترة من الوقت بين فيينا وهانوفر ، وأحرز المشروع تقدما • وعندما وضع بوسويه فى ١٦٨٢ « الاعلان الفاليكانى » (الفاليكانية حركة نشأت فى فرنسا تنادى بالاستقلال الادارى للكنائس فى البلدان الكاثوليكية عن سيطرة البابا) • الذى تحدى فيه رجال الدين الفرنسيون البابا ، ربما راود لبينتز بعض الأمل فى انضمام فرنسا الى المانيا كتلة مستقلة عن البابوية الى حد يخفف من عداء البروتستانتية للمذهب العتيق وفى ١٦٨٣ ، عندما كان الاتراك يتقدمون لحصار فيينا ، عقد سبينولا فى هانوفر مؤتمرا يضم رجال اللاهوت البروتستانت والكاثوليك ، وقدم اليهم « قواعد التوحيد الكنسي لكل المسيحيين » •

وربما كان من أجل هذا الاجتماع (٢٢) أن ليبنتز كتب ، غفلا من اسمه أغرب الوثائق العديدة التى وجدت بين أوراقه بعد وفاته ، وكان عنوانها « منهج لاهوتى » ، وفهمت على أنها بيان للمذهب الكاثوليكى يمكن أن يتقبله أى بروتستانتى حسن النية • وفى ١٨١٩ نشرها ناشر كاثوليكى دليلا على أن لبينتز كان قد ارتد سرا ، والأرجح أنها كانت محاولة دبلوماسية لتضييق هوة الخلاف الدينى بين الفريقين • ولكن كان للناشر عذره فى اعتبار الوثيقة كاثوليكية الى أبعد حد ، واتسم مطلعها بالتجرد أو عدم التحيز لأى من المذهبين فى ايجاز :

بعد التماس العون من الله ، بالابتهالات والصلوات الطويلة الخاشعة ، طارحا جانبا ، قدر ما يطيق الإنسان ، كل روح حزبية ؟ ناظراً الى الخلافات الدينية نظرة رجل قدم من كوكب آخر ، تلميذا مبتدئا متواضعا ، لا يدرى شيئا عن أى من الفرق المختلفة ، غير مقيد بأية التزامات ، انتهيت بعد دراسة وافية الى النتائج التى أدونها هنا . لقد قدرت انه لزام على أن أعتنقها جميعا لأن الكتاب المقدس والتقليد الدينى العريق ، وما يفرضه العقل ، والشواهد الأكيدة للحقائق ، يبدو لى أنها جميعا تتضافر فى اقرارها فى ذهن أى انسان غير متحيز (٢٣) .

وتلا ذلك اعتراف بالايمان بالله ، وبالخلق والخطيئة الأصلية ، والمطهر ، وتحول الخبز والنبيذ الى جسد المسيح ودمه ، ونذور الأديار والتشفع بالقديسين واستخدام البخور والصور الدينية والأردية الكهنوتية واخضاع الدولة للكنيسة (٢٤) . وربما ألقى كرم الكاثوليكية ظلالا من الشك فى الوثيقة ، ولكن صحة صدورها من ليبنتز أمر مقبول اليوم بصفة عامة (٢٥) ، وربما جاش صدره بالأمل فى الحصول على وظيفة ملائمة فى بلاط الامبراطور الكاثوليكى فى فيينا بتاييده لوجهة النظر الكاثوليكية على هذا النحو . وأعجب ليبنتز ، مثل أى متشكك فاضل ، بمنظر الطقوس الكاثوليكية وأنغامها وعبيقها .

وهكذا فان ألحان الموسيقى ، وتناغم الأصوات العذب ، وشعر الترانيم وجمال الطقوس الدينية وتلألؤ الأضواء ، وعبق العطور ، والملابس الفاخرة ، والأوانى المقدسة المزدانة بالأحجار الكريمة ، والهدايا الثمينة ، والتماثيل واللوحات التى توقظ الشعور الدينى ، والنتاج المبدع للعبقرية الفنية ، .. .. وجلال المواكب العامة وروعتها ، والستائر والأغطية الثمينة التى تزين الطرقات ، وموسيقى النواقيس ، وصفوة القول كل الهدايا والهبات وعلائم التكريم والاجلال التى يغدقها الناس فى سخاء بحكم غرائز التقوى فيهم ، كل أولئك ، فيما أحسب ، لا تثير فى ذهن الله من الازدراء ما تريدنا البساطة الصارخة عند بعض

المعاصرين أن نعتقد أنها مثيرة له • وهذا فى كل الأحوال ما يؤكده العقل والتجربة على السواء (٢٦) •

وأخفقت كل هذه الحجج فى أن تحرك مشاعر البروتستانت • وأفسد لويس الرابع عشر الخطة ومزق معالم الزينة بالغاء مرسوم نانت ، وشن حرب وحشية على البروتستانت فى فرنسا ، ووضع ليبنتز مشروعه جانبا انتظارا لفرصة ملائمة •

وفى ١٦٨٧ قام ليبنتز بثلاث جولات فى ربوع المانيا والنمسا وايطاليا ، ليبحث فى السجلات والمحفوظات المتناثرة هنا وهناك عن حوليات أسرة برنزويك • وفى رومه ، وعلى افتراض أنه قد يقبل الارتداد الى الكاثوليكية ، عرضت عليه السلطات هناك أن يكون امينا لمكتبة الفاتيكان ، ولكنه رفض هذا المنصب • وقام بمسعى جرىء بغية الغاء المراسيم الكنسية التى صدرت عند كوبرنيكس وجاليليو (٢٧) • وبعد رجوعه الى هانوفر ، بدأ فى ١٦٩١ ثلاث سنين من المراسلات مع بوسويه أملا فى احياء حركة توحيد العالم المسيحى من جديد • هل يمكن أن توجه الكنيسة الكاثوليكية الدعوة لعقد مجلس عالمى بالمعنى الصحيح يشهده زعماء البروتستانت والكاثوليك ليعيدوا النظر فى القرار الذى اتخذه مجلس ترنت ودمغ فيه البروتستانت بالهرطقة ويلغيه ؟ • ان الأسقف الذى كان لفوره قذف هؤلاء « المهرطقين » بمقاله « خلافات الكنائس البروتستانتية » (١٦٨٨) ، رد ردا لا يبشر بالوصول الى تسوية : اذا رغب البروتستانت فى العودة الى حظيرة الكنيسة المقدسة ، فان عليهم أن يرتدوا الى الكثلكة ويضعوا حدا للحوار • وتوسل اليه ليبنتز أن يعيد النظر فى موقعه • وساند بوسويه هذا الأمل وقال : انى انضم الى المشروع ••• ستسمع عما قريب ما يجول بخاطرى (٢٨) • وفى ١٦٩١ كتب ليبنتز الى مدام برينون فى تفاؤله المعهود :

ان الامبراطور يقف موقفا وديا • كما أن البابا أنوسنت الحادى عشر ونفرا من الكاردينالات والقواد ، وطوائف الرهبان وكثيرا من رجال الدين الوقورين الذين درسوا الموضوع بعناية ، قد أدلوا بآرائهم بطريقة مشجعة غاية التشجيع •• وليس من المبالغة فى شيء أن أقول بانه لو أن ملك

فرنسا والقساوسة الذين يستمع اليهم الملك فى هذا الشأن ، اتخذوا اجراء مناسبا متفقا عليه ، فان الأمر لن يكون مجرد احتمال ، بل يكون فى حكم المنتهى (٢٩) .

ولما وصل رد بوسويه كان مخيبا لكل رجاء : ليس من سبيل للرجوع عن قرارات مجلس ترنت ، انها كانت على صواب فى دفع البروتستانت بالهرطقة ، والكنيسة معصومة من الخطأ ، ولن يصل أى مؤتمر يضم زعماء الكاثوليك والبروتستانت الى نتائج بناءة ما لم يوافق البروتستانت سلفا على قبول قرارات الكنيسة فى المسائل التى هى موضوع النزاع (٣٠) . وأجاب ليبنتز بأن الكنيسة كثيرا ما غيرت آراءها وتعاليمها ، وناقضت نفسها ، وأدانت أناسا وحرمتهم دون سبب عادل . وأعلن « أنه نفض يده من أية مسئولية عن أية مصاعب أو اضطرابات قد يسببها فى المستقبل الشقاق القائم فى الكنيسة المسيحية (٣١) » . وولى شطره نحو المهمة التى بدت أكثر أملا ، وهى التوفيق بين جناحى البروتسانتية ، وهما اللوثرية والكلفنية ، ولكنه واجه فى هذا السبيل عناء وتصلبا أشد وأقسي من عناد بوسويه وتصلبه، وأخيرا ، تمنى ، بينه وبين نفسه أن يحل الطاعون بكل المذاهب المتنافسة ، وصرح بانه ليس ثمة كتب ذات قيمة الا نوعان منها : تلك التى تتناول الظواهر والتجارب العلمية ، ثم التى تتناول التاريخ والسياسية والجغرافيا (٣٢) . وظل ، ظاهريا وبشكل غامض لوثريا حتى انتهى أجله .

٤ ـ نظرة عامة فى فلسفة لوك

كان نصف نتاج ليبنتز « أبحاث وتعليقات » قام به عرضا تقريبا لدراسة أفكار بعض الكتاب . وأعظم كتبه الذى بلغ ٥٩٠ صفحة بدأ فى ١٦٩٦ بعرض فى سبع صفحات لمقال لوك عن العقل الانسانى (١٦٩٠) الذى لم يعرفه ليبنتز آنذاك الا عن طريق خلاصة له أعدها لكلرك فى « المكتبة العالمية » وعندما ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المقال (١٧٠٠) كتب ليبنتز منجديد نقدا له لمجلة المانية . وبادر فاعرب عن اهمية تحليل لوك وأطنب فى امتداح أسلوبه . وفى ١٧٠٣ عقد العزم على التعليق عليه فصلا فصلا . وهذه التعليقات هى التى يتالف منها كتاب

ليبنتز « أبحاث جديدة فى العقل الانسانى » • واذ علم بوفـــاة لوك ١٧٠٤ لم يتم التعليق ، ولم ينشر الا فى ١٧٦٥ ، فتاخر ظهوره ، فلم يكن له دخل فى تاثير لوك العميق على فولتير وغيره من النجوم اللامعة فى عصر الاستنارة فى فرنسا ، ولكنه جاء فى الوقت المناسب ليسـهم فى تشكيل الفتح الجديد فى كتاب كانت « نقد العقل الخالص » • وهو من أهم مؤلفات فى تاريخ علم النفس •

انه من حيث الشكل حـــوار بين « فيلاليثس Philalethes (حبيب الحق) الذى يمثل لوك ، « وثيوفيلوس Theophilus (حبيب الله) الذى يمثل ليبنتز • والحوار رصين مفعم بالحيوية ، ولا يزال تطيب قراءته لكل من أوتى ذهنا حادا وفراغا بغير حدود • وتظهر المقدمة ليبنتز فى أعظم حالاته النفســية دماثة وكياســـة ، مصرحا فى تواضع بأنه يكسب قراءً بالتزامه البحث فى « مقال فى العقل الانسانى» الذى كتبه رجل انجليزى لامع ، وهو من أجمل المؤلفات التى حظيت باعظم التقدير فى هذه الفترة • والمسالة المطروحة للبحث ، مبسوطة بوضوحجدير بالثناء: نريد أن نعرف هل النفسفى حد ذاتها خالية تماما، مثل الألواح التى لم يكتب عليها شيء بعد ، طبقا لما يقول به أرسـطو وكاتب المقال ، وهل كل ما يمكن تتبعه بعد ذلك ، ياتى فقط من الحواس والخبرة ، أو هل تحتوى النفس اساسا على أصـــول كثير من الأفكار والمبادىء التى توقظها الأشياء الخارجية مجرد ايقاظ فى المناسبات ، كما اعتقد أنا ويعتقد أفلاطون + (٣٣) • ومن رأى ليبنتز أن الذهن ليس وعاء سلبيا للخبرة ، بل هو عضو مركب يحول بمقتضي تركيبه ووظائفه معطيات الاحساس ، مثلما أن الجهاز الهضمى ليس مجرد كيس فارغ ، بل جهـاز أعضاء لهضم الطعام وتحويله الى متطلبات الجسم وأعضائه • وفى عبارة شهيرة معبرة بارعة لخص ليبنتز كلام لوك ونقحه ، ليس فى الذهن شيء لم يكن فى الحواس الا الذهن نفسه (٣٦) » • ان لوك ، كما لحظ ليبنتز ، كان قد اعترف بأن الأفكار قد تاتى من « التفكير » الاستبطانى ، مثلما قد تاتى من الاحساس الخارجى ، ولكنه كان قد نسب الى أصل حسي كل

+ كتب لوك ان الذهن عند الولادة عبارة عن « ورقة بيضاء خالية » (٣٤) • ولكنه لم يستخدم عبارة « لوح نظيف » • وهى ترجمة توما الأكوينى لقطعة من أرسطو فى موضوع « النفس » (٣٥) •

العناصر الداخلة فى التفكير • وعلى النقيض من ذلك ، جادل ليبنتز فى أن الذهن من نفسه يمد بأصول أو الوان معينة من الفكر ، مثل « الوجود ، الجوهر ، الوحدة ، الهوية ، العلة ، الادراك الحسي ، العقل ، وانطباعات كثيرة أخرى لا يمكن أن تعطيها الحواس (٣٧) » ، وأن أدوات العقل هذه ، أو أعضاء الهضم العقلى « فطرية » ، لا بمعنى أننا على وعى بها عند الولادة ، أو اننا دائما على وعى بها عند استخدامها ، بل بمعنى أنها جزء من التركيب أو الكيان الأصلى ، أو « الاستعدادات الطبيعية » للذهن • وأحس لوك بأن هذه الأصول المفترض انها فطرية تجرى تنميتها وتطويرها تدريجا بتفاعل الأفكار الحسية أصلا ، فى الفكر ، ولكن بدون مثل هذه الأصول ، كما قال ليبنتز منازعا ، لن يكون هناك أفكار ، بل مجرد تعاقبات مهوشة من الأحاسيس ، تماما مثلما أنه بدون عمل المعدة وعصاراتها الهضمية لا يغذينا الطعام ، ولن يكون طعاما • وعند هذا الحد أضاف فى جرأة : ان كل الأفكار فطرية — أى أثر عملية التحويل فى الذهن على الأحاسيس • ولكنه سلم بأن الأصول الفطرية عند الولادة مهوشة وغير متميزة ، ولا تصبح واضحة الا عن طريق الخبرة والاستخدام •

والأصول الفطرية ، فى رأى ليبنتز ، تشمل كل « الحقائق الضرورية ، مثل تلك الموجودة فى الرياضة البحتة (٣٨) ، لأن الذهن ، لا الاحساس ، هو الذى يزود بأصل الحاجة والضرورة ، وكل شيء حسي هو فردى طارىء أو احتمالى ، ويمدنا ، على أحسن الفروض ، بتعاقب متكرر ، لا بتعاقب ضرورى أو علة ضرورية (٣٩) • (وكان لوك قد سلم بهذا (٤٠)) • واعتبر ليبنتز أن كل غرائزنا وايثارنا اللذة على الألم وكل قوانين العقل ، فطرية (٤١) — ولو أنها جميعا لا تصبح واضحة الا بالخبرة ، ومن بين قوانين الفكر الفطرية هناك قانونان أساسيان بصفة خاصة : مبدأ التناقض — فالبيانات المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة فى وقت واحد • « اذا كانت أ دائرة ، فهى ليست مربعا » ، ومبدأ السبب الكافى — « لا يحدث شيء دون سبب لحدوثه على النحو الذى حدث عليه » لا على نحو آخر (٤٢) « وذهب ليبنتز الى أن الذكاء البشرى يختلف عما لدى الحيوان من معرفة ، فى أنه يستنتج أفكارا عامة من خبرات معينة ، عن طريق استخدام أصول العقل الفطرية ، أما الحيوانات فهى تعتمد كل الاعتماد على الخبرة العملية ،

توجه نفسها عن طريق الأمثلة فحسب » ،فهى ، بقدر ما نستطيع الحكم عليها ، لا يمكن أن تصل أبدا الى تشكيل القضايا أو الافتراضات الضرورية (٤٣) .

ان مبدأ « السبب الكافى » يكفى « لاقامة الدليل على وجود الله وكل أجزاء الميتافيزيقا الأخرى أو اللاهوت الطبيعى (٤٤) » . وبهذا المعنى تكون فكرتنا عن الله فطرية ، ولو أن الفكرة فى بعض الأذهان أو عند بعض القبائل لا واعية أو مهوشة ، ويمكن أن نقول مثل هذا على فكرة الخلود (٤٥) ـ والاحساس الخلقى فطرى ، لا فى مضمونه النوعى أو الخاص ، أو فى أحكامه التى قد تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، بل بوصفه وعيا للفرق بين الصواب والخطأ . وهذا الوعى عام شامل (٤٦) .

والذهن ، فى علم النفس عند ليبنتز ، فعال نشيط ، لا لمجرد أنه يدخل بمقتضي تركيبه وعمله فى تكوين كل فكرة فحسب ، بل كذلك فى استمرار نشاطه دون انقطاع . وحيث أن ليبنتز استخدم لفظة «يفكر» بمعناها الواسع عند ديكارت ، بمعنى أنها تشمل كل العمليات العقلية ، فانه اتفق مع الديكارتيين فى أن الذهن يفكر دائما . سواء أكان مستيقظا أم غير واع أو نائما . « أن أية حالة بلا تفكير فى النفس ولا راحة مطلقة فى الجسم ، تبدو لى مناقضة للطبيعة ، ولا مثيل لها فى الدنيا ، بقدر سواء (٤٧) » . وبعض العمليات العقلية تتم فيما وراء نطاق العقل (فى العقل الباطن) « من الخطأ البين الاعتقاد بأنه ليس فى النفس مدركات الى جانب تلك المدركات الحسية التى تعيها (٤٨) » . وبمثل هذه القضايا التى أوردها ليبنتز ، بدأ علم النفس الحديث جهوده فى التنقيب عما أسماه بعض الباحثين الذهن اللا واعى ، وما اعتبرته الأرواح القوية متعلقا بالمخ ، أو عمليات أخرى جسدية لم تثر الوعى .

ولدى ليبنتز الشي الكثير مما يمكن أن يقول عن العلاقة بين الجسم والنفس ، ولكنه هناك يترك علم النفس ، ويحلق فى الميتافيزيقا ، ويطلب الينا أن ننظر الى العالم بأسره على أنه مونادات نفسية بدنية ، ذوات صفات عقلية وبدنية معا .

٥ ـ المونادات

التقى ليبنتز عندما كان فى فيينا فى ١٧١٤ بالأمير يوجين من سافوى ، الذى كان هو ومالبورو قد أنقذا أوربا من ربقة الخضوع للملك لويس الرابع عشر ، وطلب الأمير الى الفيلسوف أن يعد له بيانا موجزا عن فلسفته بشكل يتيسر معه على القائد العسكرى قراءته . واستجاب ليبنتز لهذا الطلب باعداد رسالة محكمة موجزة من تسعين فقرة ، تركها بين أوراقه عند مماته . ونشرت لها ترجمة ألمانية فى ١٧٢٠ . ولم يطبع النص الأصلى الفرنسي الا فى ١٨٣٩ ، والمحرر هو الذى أسماه « المونادولوجيا » (علم الجواهر الروحية) وربما أخذ ليبنتز اصطلاح موناد عن جيوردانو برونو (٤٩) ، أو عن فرانس فان هلمونت (ابن الكيميائى ج ، ب)(٥٠) ، الذى استخدم اللفظة لوصف « البذور » الدقيقة جدا ، التى خلقها الله هى وحدها مباشرة ، والتى تطورت الى كل أشكال المادة والحياة . وكان أحد الأطباء الانجليز ، فرانسيس جليسون قد نسب ، لا القوة وحدها ، بل كذلك الغريزة والأفكار الى كل الجواهر (١٦٧٢) . وكانت نظرية شبيهة بهذه قد نبتت فى ذهن ليبنتز المتفتح الدؤوب منذ ١٦٨٦ . وربما تأثر بعمل الميكروسكوبيين الحديثين الذين عرضوا الحياة النابضة فى أصغر الخلايا . وخلص ليبنتز الى أن « هناك عالما من الكائنات المخلوقة ـ الأشياء الحية ، والحيوانات .. .. والأنفس .. .. ، فى أصغر جزء من المادة ـ (١٥١) » . وكل جزء من المادة يمكن تصوره على أنه بركة مملوءة بالسمك ، وأن أية نقطة من دم فى أى من هذه الأسماك الميكروسكوبية ، انما هى بركة أخرى مملوءة بالسمك ، وهكذا الى ما لا نهاية ـ لقد هزت مشاعره ـ كما كانت قد روعت بسكال ـ قابلية القسمة اللامتناهية لأى شيء ممتد .

وأوحى ليبنتز بأن قابلية القسمة التى لا نهاية لها ، لغز ناشيء عن مفهومنا للحقيقة بانها مادة ، ومن ثم فهى ممتدة وقابلة للقسمة الى حد الغثيان . اننا اذا اعتبرنا الحقيقة النهائية طاقة وتصورنا العالم مكونا من مراكز قوة ، لاختفى سر أو لغز قابلية القسمة ، لأن القوة مثل الفكر لا تنطوى ضمنا على امتداد . وعلى هذا رفض ذرات ديكارت على أنها المكونات النهائية للكون ، وأحل محلها المونادات ، وهى وحدات غير

ممتدة من القوة ٠ وعرف الجوهر ، لا بانه مادة ، بل طاقة ٠ (الى هذه النقطة كان مفهوم ليبنتز متفقا تمام الاتفاق مع فيزياء القرن العشرين) ، « المادة » أينما وجدت مشحونة بالحركة والنشاط والحياة ٠ وكل موناد يحس ويدرك ، أن له ذهنا أوليا أو بدائيا ، بمعنى أنه حساس ـ ويستجيب ـ للتغيرات الخارجية ٠

وقد نفهم المونادت فهما أفضل اذا فكرنا فيها « بطريقة تشبه الانطباعة التى لدينا عن الأنفس (٥٢) » وكما أن كل نفس « عبارة عن شخص بسيط مستقل (٥٣) » ، ذات منعزلة تشق طريقها مناضلة باراداتها الباطنية ضد كل ما هو خارج عنها ، فان كل موناد كذلك وحيد ، مركز قوة منفصل مستقل ضد كل مراكز القوة الأخرى ٠ والحقيقة كون من القوى الفردية ، موحد ومنسجم بفضل قوانين الكل أو المجتمع أو الله فقط ٠ وكما أن كل نفس تختلف عن سائر الأنفس ، فان كل موناد كذلك فريد ٠ وليس فى الكون بأسره كائنان متشابهان كل الشبه ، لأن الفروق بينهما تشكل فرديتهما ، ان شيئين لهما نفس الصفات ، لابد أن يكونا واحدا متطابقا يتعذر تمييزه (« قانون الأشياء التى يتعذر تمييزها ») (٥٤) وكما أن كل نفس تحس أو تدرك الحقيقة المحيطة بها ، ويقل هذا وذاك وضوحا كلما كانت الحقيقة بعيدة عنها ، ولكنها تشعر بالحقيقة بدرجة ما ، فان كل موناد يشعر بالكون كله ، مهما كان الشعور مهوشا أو غير واع ٠ وهو بهذه الطريقة مرآة تعكس وتمثل العالم بدرجة أو باخرى من الغموض ٠ وكما أن أى ذهن فردى لا يستطيع بحق أن ينعم النظر فى ذهن آخر ، فكذلك لا يستطيع موناد واحد أن ينعم النظر فى موناد آخر ٠ فليس فيه أية نافذة أو فتحة لمثل هذا الاتصال المباشر ، ومن ثم فانه لا يستطيع مباشرة احداث أى تغيير فى أى موناد آخـر ٠

والمونادات تتغير لأن التغيير أساسي لحياتها ـ ولكن التغييرات تأتى من كفاحها الداخلى (٥٥) ٠ فكما أن كل نفس هى رغبة واردة ، فكذلك كل موناد يحتوى على ـ أو هو ـ غرض داخلى وارادة ، سعى للنمو والتطور ٠ وتلك هى « الفعلية » التى قال عنها ارسطو بانها لب كل حياة ٠ وبهذا المعنى (كما كان يقول شوبنهور) فان القوة والارادة شكلان أو درجتان من نفس الحقيقة الأساسية (٥٦) ٠ وفى الطبيعة غائية

متأصلة : فهناك فى كل شيء سعى أو « محاولة » أو « اشتهاء » ، أو غرض موجه يحدد قالبه ، حتى ولو كان ذاك الغرض أو تلك الارادة تعمل فى حدود القانون الآلى أو عن طريقه . وكما أن الحركة الجسمية فينا هى تعبير مرئى ميكانيكى عن رغبة أو ارادة باطنة ، فكذلك فى المونادات ، فان العملية الميكانيكية التى نراها من الخارج ، هى مجرد الشكل أو الهيكل لقوة داخلية : « وهذا الذى يظهـــر بشـــكل آلى أو بالامتداد ، فى المادة يتركز بشكل دينامى أو فعال ، وبشكل عضوى (أو مونادى) فى « الفعلية » (أو السعى الداخلى) نفسها (٥٧) . ونحن فى ادراكنا المشوش المضطرب نعادل الاشياء الخارجية « بالمادة » لاننا نرى آليتها الخارجية فقط ، ولا نرى ـ كما هو الحال فى الاستبطان ، الحيوية الداخلية ذات الأثر الفعال فى التكوين . وفى هذه الفلسفة تفسح الذرات العاجزة غير الفعـــالة عنـــد المـــاديين ، مكانا للمونادات أو الوحدات التى هى مراكز حية للفردية والقوة . ولا يعود العالم آلة ميتة ويصبح مسرحا لحياة نابضة متنوعة .

وأهم المعالم فى هذا التنوع هى درجـــة الوعى فى « ذهـــن » المونـاد . فان لكل المونادات أذهانا ، بمعنى الحساسية والاستجابة ، ولكن ليس كل ذهن واعيا . وحتى نحس الكائنات البشرية العجيبـــة ، نمر بعمليات عقلية كثيرة دون وعى ، كما هو الحال فى الأحلام ، أو حين نكون مستغرقين فى أشد الانتباه الى جوانب معينة من موقف ما ، فاننا لا نعى أننا ندرك عناصر أخرى كثيرة فى هذا المشهد ـ وهى عناصر قد تكون على أية حال مختزنة فى الذاكرة ، وقد تدخل الى أحلامنا ، وقد تنبثق من زوايا خفية فى الذهن الى الوعى الذى يحدث فيما بعد ، أو حـــين نكون على وعى بزئير الأمواج المنكسرة على الشـــاطىء أو هسيسها ، فاننا لا نتحقق من أن كل موجة ، أو كل جزء صغير من كل موجة ، يطرق أذننا ليحدث ألفا من الآثار الفردية ، التى تشـــكل أو تصبح هى سماعنا للبحر . وعلى ذلك فان أبسط المونادات تحس وتدرك كل شيء حولها ، ولكن بشكل مهوش مضطرب انى حـــد اللا وعى . والمشاعر فى النبات تصبح أوضح وأكثر تخصصا وتؤدى الى استجابات أكثر تحديدا . وفى المونـاد ، أى نفس الحيوان تضبح المدركات المرددة للصدى ذكريات يولد تفاعلها وعيا . والانسان عبارة عن مستعمرة من المونادات (الخلايا ؟) لكل منها جوعه وحاجياته وأغراضه ، ولكن هذه

الجزيئات تصبح جماعة موحدة من كائنات حية بتوجيـــه من موناد مسيطر ، وهو « فعلية » الانسان ونفسه (٥٨) . واذا ارتفعت هـــذه النفس الى مستوى العقل فانها .. .. تعتبر ذهنا (٥٩) وتســمو فى المرتبة تبعا لدرجة ادراكها للعلاقات الضرورية والحقائق الباطنيـــة ، وعندما تدرك نظام الكون وذهنه تصـــبح مرآة الله . والله ، الموناد الرئيسي ، ذهن خالص واع تمام الوعى ، مجرد من كل آلية وجسم (٦٠)

واشق جانب فى هذه الفلسفة هو نظرية ليبنتز فى « التناســق الأزلى » . ما هى العلاقة بين حياة الموناد الداخلية ، ومظهره الخارجى أو هيكله المادى ؟ وكيف نفسر التفاعل فى الجسم المادى والذهن الروحى فى الانسان ؟ وكان ديكارت قد نسب هذه المســألة عجزا الى الغــدة الصنوبرية . ورد عليها سبينوزا بانكار أى انفصال أو تفاعل بين المادة والذهن ، حيث كان هذان ، فى رأيه ، مجرد المظهـــرين الخــارجى والداخلى لعملية وحقيقة واحدة . وجدد ليبنتز المشكلة بالقـــول بأن المظهرين منفصلان متميزان ، وأنكر تفاعلهما ، ولكنـــه نسب تزامن العمليات الجسمية والعقلية الى تواطؤ مستمر رتبه الله ترتيبا أزليـــا بشكل عجيب :

> ان النفس تتبع قوانينها الخاصة بها ، وكذلك الجسم يتبع قوانينه الخاصة به ، وهى تتلاءم وتتفق بفضل « التناسق الأزلى بين الجواهر ، حيث أنها كلها تمثل كونا واحدا (٦١). .. .. وتعمل الأجسام كما لو أنه ليس هناك نفوس ، وتعمل النفوس كما لو أنه ليس هناك أجسام ، ويعمل كلاهما كمـــا لو أنه يؤثر فى الآخر .. .. (٦٢) ويسألوننى كيف يحدث أن الله غير راض عن انتاج كل أفكار وتكيفاتها بغير هـــذه الأجسام العديمة الفائدة التى لا تستطيع النفس (كما يقولون) أن تحركها أو تعرفها . والجواب سهل : ان ارادة الله هى التى اقتضت أن يكون هناك عدد أكبر ، لا عدد أقل ، من الجواهر ، كما وجد ، سبحانه ، أنه من الخير أن تقابل هذه التكيفات شيئا خارجيا (٦٣) .

وارتيابا فى أن الاستغلال اللطيف للاله بديلا عن الفــكر قد لا يلقى

استحسانا عاما ، عمد ليبنتز الى زخرفته بفرضية جلينكس وساعاته : فالجسم والذهن يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر ، ومع ذلك يعملان فى تناسق محير ، مثل ساعتين صنعتا وملئتا ثم بدأتا ، فى حذق وبراعة الى درجة أنهما تسجلان الثوانى وتدقان الساعات فى توافق تام ، دون تفاعل أو تأثير متبادل ، وهكذا العمليات الجسدية والنفسانية ، على الرغم من استقلالهما ، ودون أن تؤثر أحداهما فى الأخرى ، فانهما تتوافقان عن طريق « تناسق وجد منذ الأزل بوسيلة الهيه بارعة توقعية » (٦٤) ٠

ولنفترض أن الذى جال بخاطر ليبنتز ، ولكنه لم يهتم بذكره ، هو أن العمليات التى هى فى الظاهر منفصلة ولكنها متزامنة ، عمليات الآلية والحياة ، عمليات الفعل والفكر ، هى عملية واحدة بعينها ، نراها من الخارج مادة ومن الداخل ذهنا ٠ ولو أنه ذكر هذا لكان تكرارا لسبينوزا ، ومشاركة فى مصيره ٠

٦ ـ هل كان الله عادلا ؟

ان هذه الحاجة الى ستر عرى الفلسفة بأغطية لاهوتية ، هى التى أدت بليبنتز الى تأليف الكتاب الذى أثار حنق فولتير وسخريته ، وكاد يضيع مفكرا عميقا حقا فى صورة الأستاذ بانجلوس الهزلية ، دفاعا عن أحسن العوالم الممكنة ٠ ان العمل الفلسفى الكامل الوحيد الذى نشر فى حياة ليبنتز هو « مقال الثيوديسية عن طبيعة الله وحرية الانسان وأصل الشر » ، (١٧١٠) ـ وهو تقريبا سند مشجع مثل كتاب ديكارت « مبادىء الفلسفة الأولى ، التى توضح وجود الله وخلود النفس » (١٦٤١) ٠ والثيودريسية معناها عدالة الله أو تبريره (أو الفلسفة الالهية) ٠

فلهذا الكتاب ، مثل سائر الكتب أصل عرضي ٠ وفى مقال عن القديس جيروم ، فى « القاموس التاريخى النقدى » نجد بيل ، على حين يبدى اعجابه الشديد بليبنتز ، يعارض رأى الفيلسوف بأنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، أو بين حرية الانسان وقدرة الله ، أو بين الشر الدنيوى والطيبة والقوة الالهيتين ٠ وخير لنا ـ كما يقول بيل ، أن نتخلى عن فكرة اثبات المذاهب الدينية ، فان هذا لا يعنى الا ابراز

المتاعب والصعوبات . وأجاب ليبنتز (١٦٩٨) فى مقال كتب لصحيفة جاك باسناج « تاريخ أعمال العلماء » . وأضاف بيل فى الطبعة الثانية لقاموسه الى المقال الذى كتبه عن القديس جيروم ملاحظة هامة يحيى فيها ليبنتز « ذلك الفيلسوف العظيم » ولكنه أشار الى غوامض أخرى ، وبخاصة فى نظرية التناسق الأزلى . وأرسل ليبنتز رده الى بيل مباشرة، مباشرة ، ولكنه لم يطبعه . وفى العام نفسه كتب ثانية الى عالم روتردام يمتدح « تأملاته الأخاذة » و « أبحاثه التى لا حد لها (٦٥) » . ولم يتسم الا القليل من فترات تاريخ الفلسفة بمثل ما اتسمت به من الرقة واللطف تلك المجاملة المتبادلة بين بيل وليبنتز فى تبـــادل الأفكار . وأبدت صوفيا شارلوت رغبتها فى الاطلاع على جواب ليبنتز على شكوك بيل . وكان بالفعل يعد مثل هذا البيان حين ترامت اليه الأنباء بوفـــاة بيل . وراجع ردوده وتوسع فيها ونشرها تحت عنوان « التيوديسية » . وكان آنذاك فى الرابعة بعد الستين من العمر ، وأحس بدنو الأجـــل ، وربما هفت نفسه الى الايمان بعدالة الله مع الانسان . كيـف يتأتى أن يتلوث عالم خلقه الله العلى القدير الخير بمثل هذه المذابح العسكرية والفساد السياسي والقساوة البشرية والشقاء والزلازل والمجاعات والفقر والمرض ؟

ان « الرسالة التمهيدية عن مواجهة الايمان بالعقل » وصفت العقل والكتاب المقدس بأن كليهما وحى من عنـــد الله ، ومن ثم كان التناقض بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

ويتساءل بيل كيف أن الاله الطيب الخير المطلع سلفا « على كل ما هنالك من ثمار » يمكن أن يجيز اغراء حواء ، فرد ليبنتز على هذا بأن الله ، لكى يؤهل الانسان للمبادىء الأخلاقية ، خلق له ارادة حرة ، ومن ثم حرية الخطيئة ، وحقا ان الارادة الحرة تبدو غير ملتئمة مع العلم واللاهوت كليهما ، فالعلم يرى فى كل مكان حكم قانون لا يتغير ، والحرية الانسانية مضيعة فى سابق علم الله وحتمية كل الأحداث قضاء وقدرا . ولكننا ، كما قال ليبنتز ، واعون فى عناد واصرار وبشـــكل مباشر أننا أحرار غير مقيدين . اننا ، على الرغم من عدم قدرتنا على البرهنة على هذه الحرية ، يجدر بنا أن نقبلها شرطا أساسيا لأى معنى من معانى المسئولية الأخلاقية ، وبديلا وحيدا لاعتبـــار الانســـان آلة سيولوجية عاجزة بشكل سخيف مضحك .

أما بالنسبة لوجود الله ، فان ليبنتز مقتنع بالحجج التقليدية السكولاسية . نحن نتصور كائنا كاملا ، وحيث أن الوجود عنصر ضرورى فى الكمال ، فالكائن الكامل لابد أن يكون موجودا . ولابد أن يكون هناك عنصر ضرورى وكائن موجود بذاته (غير مخلق) وراء كل العلل القريبة والأحداث المحتملة الوقوع . وليس من المفهوم أن يكون لعظمة الطبيعة ونظامها أى مصدر الا « ذكاء أسمى » . ولابد أن يكون للخالق فى ذاته ، وبدرجة غير متناهية ، كل القوة والعلم والمعرفة والارادة التى كشفت فى مخلوقاته . والتدبير الالهى والآلية الكونية غير متعارضتين . فالعناية الالهية تستخدم الآلية لانجاز عجائبها ، ويستطيع الله أن يربك أو يوقف آلة العالم من آن الى آن ، ليظهر معجزة أو معجزتين (٦٦) .

والنفس بطبيعة الحال ، خالدة ، والموت ، مثل الولادة ، هو مجرد تغيير فى الشكل فى مجموعة من المونادات ، وتبقى النفس والطاقة المتاصلتان . وفيما عدا الله تكون النفس دائما ملازمة للجسم ، والجسم ملازم للنفس ، ولكن سيكون هناك بعث للجسم ، كما سيكون هناك بعث للنفس (٦٧) (وليبنتز هنا كاثوليكى فاضل » وفيما دون الانسان يكون خلود النفس غير شخصي (مجرد اعادة توزيع للطاقة)، والنفس العقلانية فى الانسان وحدها هى التى تتمتع بخلود واع .

والخير والشر اصطلاحان من صنع الانسان نحددهما تبعا للذتنا أو ألمنا ، ولا يمكن تطبيقهما على الكون دون افتراض أن للانسان من العلم ما لا يجوز الا لله . وقد يكون النقص فى الجزء مطلوبا لكمال أعظم فى الكل (٦٨) . وعلى هذا فالخطيئة شر ، ولكنها نتيجة الارادة الحرة التى هى خير . وحتى خطيئة آدم وحواء كانت من بعض النواحى « خطيئة سعيدة » حيث كان من نتيجتها مجىء المسيح (٦٩) « وليس فى الكون .. فوضي ولا اضطراب الا من حيث المظهر (٧٠) » . ان آلام الناس ونوائبهم « تسهم فى الخير الأعظم عند من يعانون منها (٧١) » . وحتى :

لو تمسكنا .. .. بالرأى السائد بان عدد الناس المقدر عليهم الشقاء الأبدى ، سيكون أكبر بشكل لا يقارن ، من

الذين كتب لهم الخلاص ، فيجدر بنا أن نذكر أن الشر لا يمكن أن يبدو الا ضئيلا الى حد العدم بالمقـــارنة مع الخير ، اذا تأمل المرء السعة الحقيقية « لمدينة الله » (للجنة) .. ..
وحيث أن هذا الجزء من الكون الذى نعرفه ليس الا شـــيئا لا يذكر الى جانب الجزء الذى لا نعرف عنه شيئا ... فقد يكون كل الشر ضئيلا الى حد العدم تقريبا ، اذا قورن بالأشياء الطيبة الموجودة فى الكون (٧٢) .. .. ولسنا بحاجة حتى الى الموافقة على أن فى الجنس البشرى شراً أكثر مما فيه من خير . فانه من الممكن ، بل انه لشيء معقول أن تكون سعادة غير المغضوب عليهم وكمالهم أعظم بكثير من شقاء المغضوب عليهم ونقصهم (٧٣) .

وهذه الدنيا ، مهما بدأ من نقصها أمام أعيننا المشبعة بالأنانية هى أحسن ما كان يمـكن أن يخلقـــه الله ، حيث ترك البشر أناسي وأحرارا . واذا كانت ثمة دنيا أحسن فى حيز الامكان فلنكن على يقين من أن الله يمكن أن يخلقها

ان الكمال الأسمى لله يستتبع أنه فى خلق الكون ، اختار (سبحانه) أفضل خطة ممكنة ، بما فيها أعظم تنوع مع أعظم نظـــام ، وأفضل وضع ومكان وزمان ترتيبـــا ، وأعظم النتائج توفرها أبسط الوسائل وأعظم قـــوة وأعظم معرفة وأعظم سعادة وأعظم خير فى الأشياء المخلوقة التى سلم بها الكون أو أفسح لها مجالا . وبما أن كل الأشـــياء الممكن وجودها تطالب بحق الوجود فى عقل الله بنسبة درجة كمالها ، فان نتيجة كل هذه المطالبات لابد أن تكون أكمل دنيا ممكنة فعلا (٧٤) .

ولا يمكن أن نوصي اليـــوم بقـــراءة شيء أكثـــر من ذلك فى « ثيودوسية » ليبنتز ، اللهم الا الذين يقدرون أعظم تقدير ســـخرية « كانديد » المريرة .

٧ ـ اهتمامات فكرية متنوعة

ومهما يكن من أمر فان « الثيوديسية » أصبحت أوسع كتب ليبنتز انتشارا وأكثر ما أقبل الناس على قراءته منها ، وعــرفه الناس بأنه « رجل افضل العوالم الممكن وجودها » . واذا كان لنا أن نأسف لهــذا السخف الذى يهذب ويثقف فى هذا العمل العظيم ، فان اجلالنا للمؤلف يحيا ويتجدد اذا أجلنا الطرف فى التنوع الغزير لاهتماماته الفكرية . وقد افتتن بالعلم ولو أنه كان جانبا من فكره . وقال ليبنتز لبيل يوما ئـ لو أنه عاش حياة ثانية لأصبح عالما بيولوجيا (٧٥) . وكان من أعمق الرياضيين فى عصر زخر بهم . وبذ ديكارت فى صــياغة « مقيــاس القوة + » . أما تصوره للمادة على أنها طاقة فكان فى نظر عصره لحنا ميتافيزيقيا ، ولكنه الآن فى أيامنا هذه أمر مألوف فى الفيزياء . ووصف المادة بأنها ادراكنا المهوش أو المضطرب لعمليات القوة . ونبذ ، مثــل معاصرينا من أصحاب النظريات « الحركة المطلقة » التى افترضــها نيوتن ، وقال بأن « الحركة هى مجرد تغيير فى الأوضاع النســبية للأجسام ، ومن ثم ليست شيئا مطلقا ، بل متضمنة فى علاقة (٧٦) » . واستبق كانت فى تفسير المكان والزمان ، لا على أنهما حقائق موضوعية ، بل علاقات مدركة حسيا : المكان مدرك حسيا على أنه تصــاحب فى التواجد ، والزمان مدرك حسيا على أنه تعاقب ـ وهى آراء تتبناها اليوم نظريات النسبية . وفى عامه الأخير (١٧١٥) دخل ليبنتز فى مراسلات طويلة مع صمويل كلارك عن الجاذبية الأرضية ، التى بدت له صفة خاصة تكتنفها الأسرار ، تعمل على مسافات هائلة جدا عبر فراغ ظاهر ، واعترض ليبنتز بأنها قد تكون معجزة متصلة لا تنقطع ، فأجاب كلارك بأنها ليست أعظم من « التناســق الأزلى (٧٧) » ، وأبــدى ليبنتز خوفه من أن تؤدى نظرية نيوتن فى الآلية الكونية الى كثير من الالحاد ، فأجاب كلارك ، على العكس ، ان النظام المهيب الذى كشف نيوتن غوامضه قد يقوى الايمان بالله (٧٨) . وبررت الأحداث اللاحقة رأى ليبنتز .

---

* كانت صيغة ديكارت ك س ـ مقدار الحركة الكتلة مضروبا فى السرعة . فعدلها ليبنتز بناء على كتاب جاليليو الى ك س٢ . والقانون الســائد الآن : $\frac{1}{2}$ ك س٢ .

وفى علم الحياة (البيولوجيا) تصور ليبنتز « التطور » بشكل غامض • ورأى ، مثل كثير من المفكرين قبله وبعده « قانون الاستمرار » نافذا فى العالم العصوى ، ولكنه امتد بالفكرة كذلك الى العالم المظنون أنه غير عضوى : فكل شيء نقطة أو طور فى سلسلة لا نهاية لها ، مرتبط بكل شيء غيره عن طريق عدد غير محدود من أشكال وسيطة (٧٩) ، فهناك كما يقال ، حساب اللامتناهيات فى الصغر يجرى فى الحقيقة •

> ليس ثمة شيء يتم على الفور • ومن حكمى البليغة ••• ان الطبيعة لا تقوم بقفزات •• •• ويعلن قانون الاستمرار أننا ننتقل من الأصغر الى الأكبر والعكس بالعكس عبر الوسط ، درجة درجة ، وجزءا جزءا على حد سواء (٨٠) • (وينازع فى هذا كثير من الفيزيائيين اليوم) ••• والناس مترابطون مع الحيوانات • والحيوانات مترابطة مع النبات ، وهذه ثانية مع الأحافير والمستحاثات ، وهى بدورها مرتبطة بتلك الأجسام التى يصورها لنا الاحساس والخيال ميتة وغير عضوية تماما (٨١) •

وفى هذا « الاستمرار » المهيب تذوب كل التناقضات ، عن طريق سلسلة ضخمة من فوارق توجد ونادرا ما يتيسر ادراكها ادراكا حسيا ، من أبسط المواد الى أكثرها تعقيدا ، ومن أصغر الحيوانات الدنيا التى ترى بالمجهر الى أعظم حاكم أو عبقرى أو قديس •

ويبدو أن ذهن ليبنتز قاس كل هذا الاستمرار الذى وصفه ، وكان حسن الاطلاع على كل علم ، وعرف تاريخ الأمم والفلسفة • وكم مس مسا رقيقا الشئون العالميـــة للكثير من الدول ، كما كان على علم تام بالذات وبالله • وفى ١٦٩٣ نشر بحثا عن نشأة الأرض وبدايتها متجاهلا سفر التكوين تجاهلا تاما • وطور أفكاره الجيولوجية وتوسع فيها فى رسالة « بروتوجيا » نشرت ١٧٤٩ بعد وفاته • وذهب الى أن كوكبنا كان يوما كرة ملتهبة ، ثم بردت شيئا فشيئا ، وكونت قشرة ، وعندما بردت تكاثف البخار بها الى مياه ومحيطات ــ وأصبح الماء ملحا بذوبان ما فى القشرة من معادن • وكانت التغييرات الجيولوجية ، التى تلت ذلك ، أما نتيجة لفعل المياه التى فاضت على السطح تاركة تكوينات رسوبية ، أو نتيجة

انفجار الغازات التى تحت الأرض ، مخلفة صخوراً بركانية . وأوردت نفس الرسالة تفسيرا بارعا للأحافير أو المستحاثات (٨٢) ، وخطت نحو نظرية للتطور . وبدا له « جديرا بالاعتقاد ، أنه من خلال هذه التغييرات البعيدة المدى » فى القشرة الأرضية » ، « تحولت مرات ومرات حتى أجناس الحيوان (٨٣) » . وقال بأنه من المحتمل أن أقدم الحيوانات الأولى كانت بحرقية ، انحدرت منها البرمائيات والحيوانات البرية (٨٤) . ورأى ليبنتز - مثل بعض المتفائلين فى القرن التاسع عشر - ، فى هذا التحول التطورى ، أساسا للاعتقاد « بتقدم الكون تقدما متصلا لا يعوقه شيء .. .. لن يقف التقدم عند حد أبدا (٨٥) » .

وانتقل ليبنتز من علم الحياة (البيولوجيا) الى القانون الرومانى ، ومنه الى فلسفة الصين . وأفادت رسالته « آخر الأنباء من الصين » ١٦٩٧ فى لهف شديد ، من التقارير التى كان يرسلها المبشرون والتجار من « المملكة الوسطى » . ورأى أنه من الجائز أن يكون الصينيون قد وصلوا فى الفلسفة والرياضة والطب الى كشوف يكون فيها أكبر العون للحضارة الغربية . وحث على اقامة روابط ثقافية مع روسيا ، لتكون من ناحية ، وسيلة لبدء الاتصال الثقافى مع الشرق. وتبادل ليبنتز الرسائل مع الباحثين ورجال العلوم ورجال السياسة والحكم فى عشرين بلدا بثلاث لغات . وكتب نحو ثلثمائة رسالة فى العام . و ١٥ ألفاً منها محفوظة (٨٦) . وقد تنافسه رسائل فولتير من حيث الكم ، لا من حيث التنوع الفكرى . واقترح ليبنتز ندوة عالمية ثقافية يتبادل رجال العلم والمعرفة عن طريقها ، أفكارهم وآراءهم ويعرضونها للبحث والمقارنة (٨٧) ، وعمل على ايجاد لغة عالمية - « حروف عالمية » يكون فيها لكل فكرة فى الفلسفة والعلوم رمزا وحرف خاص ، حتى يتمكن المفكرون من معالجة هذه الأفكار بهذه المجموعة من الرموز ، مثلما استخدم الرياضيون العلامات للكميات . وبهذا اقترب من تأسيس المنطق الرياضي والرمزى (٨٨) . وبشيء من هذا العبث اللطيف وزع ليبنتز نفسه بين مجالات كثيرة الى حد أنه لم يكن يترك وراءه الا قصاصات أو شذرات .

ولم يجد فيلسوفنا الشغوف بالعلم المتعدد جوانب المعرفة فسحة من الوقت للزواج . وأخيرا وهو فى سن الخمسين فكر فى الزواج ،

ولكن ، كما يقول فونتنيل « أمهلته السيدة التى طلب يدها ، لتتدبر الأمر ، وحيث تهيأت له فرصة لاعادة النظر فى الموضـوع ، فانه لم يتروج قط (٨٩) » • وبعد جولاته وتحليقاته فى الدبلوماسية طـوى نفسه على دراساته معتزا بالعكوف عليها فى عزلة • ان الرجل الذى كان قد نقب بذهنه فى نصف العالم ، باعد الآن بينه وبين أصدقائه • وتفرغ للقراءة والكتابة ، حتى أثناء الليل • وقلما تنبه لأيام الآحاد أو العطلة • ولم يكن لديه خادم ، وكان يبعث فى طلب وجبات الطعام من الخارج ، وتناولها وحيدا فى غرفته (٩٠) • فاذا غادرها يوما ، كان ذلك من أجل القيام ببعض الأبحاث ، أو لمتابعة مشروعاته من أجل النهوض بالمعرفة أو العلوم أو خلق جو من التفاهم •

وراوده حلم انشاء كاديميات فى العواصـم الكبرى ، ونجح فى واحدة منها ، فأسست أكاديمية برلين (١٧٠٠) بناء على مبـادرته ، وانتخبته أول رئيس لها • وقابل بطرس الأكبر فى تورجو (١٧١٢) ، ثم فى كار لسباد وبيرمونت ، واقترح أكاديميـة مماثلة فى سـانت بطرسبرج ، وحمله القيصر بالهدايا ، وتبنى اقتراحه فى حكم روسيا عن طريق « وحدات » ادارية ، ولكن ليبنتز ، لم يعمـر حتى يرى أكاديمية سانت بطرسبرج صرحا قائمـا فى ١٧٢٤ • ونلتقى به فى ١٧١٢ فى فيينا متلهفا للحصول على منصب امبراطورى ، حاملا معه مشروع أكاديمية أخرى • وقدم لشارل السادس خطة لانشـاء معهـد لا يقتصر على العلوم ، بل يضم التربية والزراعة والصناعة ، وعرض خدماته لادارة المعهد • ورفعه الامبراطور الى مرتبة النبلاء ، وعينـه عضوا فى المجلس الامبراطورى (١٧١٢) •

وأغضب طول تغيبه عن هانوفر الناخب الجديد جورج • وقطع راتبه فترة من الزمن وأنذر بأنه قد آن الأوان بعد مضي ربع قرن من التعويق والتسويف ، للانتهاء من كتابه عن تاريخ أسرة برنزويك • وعند وفاة الملكة آن غادر جورج هانوفر ليتسلم عرش انجلترا • وبعد ثلاثة أيام من هذا الرحيل ، وصل ليبنتز من فيينا ١٧١٤ • وكان يأمل فى أن يذهبوا به الى لندن حيث ينعم هناك بمنصب أرفع ورواتب أكبر ، وبعث الى الملك الجديد برسائل يسترضيه فيها • ولكن جورج رد بأنه من الخير أن يبقى ليبنتز فى هانوفر حتى ينجز الحوليـات (٩١) •

ناهيك بأن انجلترا لم تكن غفرت له نزاعه مع نيوتن حول أيهما وضع حساب التفاضل والتكامل .

واستبد به اليأس والوحدة ، وعاش عامين آخرين كافح فيهما من أجل الايمان بحسن نية الكون ومقاصده ، ان الرجل الذى عرفوه فى القرن الثامن عشر بأنه رسول التفاؤل قضي نحبه متأثرا بداء النقرس وحصاة الكلى فى هانوفر ، فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . ولم تحفل بموته أكاديمية برلين ، ولا رجال الحاشية الألمان فى لندن ، ولا أى من أصدقائه فى البلد ، ولم يحضر أحد من رجال الدين للقيام بالطقوس الدينية للفيلسوف الذى كان يدافع عن الدين ضد الفلسفة . ولم يشيع جنازته الا رجل واحد ، هو سكرتيره السابق . وكتب اسكتلندى كان آنذاك فى هانوفر « ووري ليبنتز التراب أقرب شبها بلص ، منه بما كان عليه حقا : درة فى جبين بلاده ومفخرة لها (٩٢) » .

وجدير بنا ألا نشغل الصفحات ببيان أوجه الخلل والنقص فى هذا الركام المتعدد الأشكال من الأفكار ، فقد قام الزمن منذ عهد بعيد بهذه المهمة الثقيلة . واتهم النقاد ليبنتز بسرقات كثيرة واضحة فى كل ما كتبه أو قال به . وعثروا على علم النفس الذى جاء به عند أفلاطون ، والعدل الالهى عند الفلاسفة السكولاسيين ، والمونادات عند برونو ، والميتافيزيقا والأخلاق وعلاقة الذهن بالجسم عند سبينوزا ، ولكن من الذى يستطيع أن يقول عن هذه المسائل شيئا غير ما قيل منذ مائة عام . أنه لأيسر أن يكون المرء أصيلا وأحمق من ان يكون أصيلا وحكيما . وهناك ألف من الأخطاء المحتملة فى كل حقيقة ، ولم يستنفد الجنس البشرى بعد كل الامكانات مع ما بذل من جهود ومحاولات . وهناك هراء كثير فى ليبنتز ، ولكنا لا نستطيع الجزم بأنه كان هراء أمينا ، او أنه كان تغييرا وقائيا فى اللون ، انه يقول لنا بأنه الله حين خلق الدنيا رأى سبحانه فى ومضة ، كل ما كان سيحدث فى أدق تفاصيله (٩٣) . وقال « أنا دائما أبدأ فيلسوفا ، ولكنى دائما انتهى رجلا من رجال اللاهوت (٩٤) » . أى أنه أحس ان الفلسفة تخطىء هدفها اذا لم تؤد الى الفضيلة والتقوى .

وهيأ له حواره الطويل الذكى مع جون لوك واجدا من ادعاءاته

الكثيرة ، الا وهو ادعاء الفكر الثاقب ذى القيمة والأهمية . وربما بالغ فى فطرية « الأفكار الفطرية » ، ولكنه سلم بأنها قـدرات أو مواهب أو استعدادات ، وليست أفكاراً وأفلح فى اظهار أن المذهب الحسي عند لوك كان قد بالغ فى تبسيط عملية المعرفة ، وأن « الذهن » بطبيعته ـ اذا كان خاليا فجاً عند الولادة ـ انما هو عضو للاستقبال الفعـال للأحاسيس ومعالجتها وتحويلها ، وهنا ، يقف ليبنتز ، كما يقف فى آرائـه عن المكان والزمان ، شامخا ، مبشرا بكانت . واكتنفت الصعوبات نظرية المونادات (اذا لم تكن ممتدة ، فكيف يتسنى لأى عدد منها أن يحدث امتدادا ؟ واذا كانت « تدركُ » الكون ادراكا حسيا فكيف يكون لديها مناعة ضد أى تأثير خارجى ؟) ، ولكنها كانت محاولة بارعة أن يجتاز الهوة بين الذهن والمادة ، حين جعل المادة عقلية ، ولم يجعل الذهـن ماديا ، وأخفق ليبنتز بطبيعة الحال فى التوفيق بين الآلية والتدبير فى الطبيعة ، أو بين الآلية فى الجسم والحرية فى الارادة . وكان فصله بين الذهن والجسم من جديد ، بعد أن كان سبينوزا قد وحد بينهما فى عملية ذات جانبين ، خطوة الى الوراء فى الفلسفة . وكان زعمه أن هذا أفضل العوالم الممكنة مسعى حميدا مشجعا مفعما بالأمل ، من جانب رجل البلاط ، للتسرية عن ملكة ، ان أعلم الفلاسفة (أكاديمية بأسرها فى شخصه ـ كما قال عنه فردريك الأكبر) كتب لاهوتا ، كأن شـيئا لم يحدث فى تاريخ الفكر منذ سانت أوغسطين . ولكن مع كل مواطن الضعف فيه كانت انجازاته فى العلوم والفلسفة ضخمة . وكان محبـا لوطنه ومع ذلك « أوربيا صالحا » ، فأعاد الى ألمانيا مكانا مرموقا فى تنمية الحضارة الأوربية وتطويرها . وكتب فردريك الثانى « من كل الذين رفعوا من شأن ألمانيا ، قام توماسيوس وليبنتز بأجل الخدمات للروح الانسانية (٩٥) » .

وضعف تأثير ليبنتز عندما قلت قيمة لاهوته أمام الوعى الأخلاقى عند الناس ، وعلى مدى جيل بعد وفاته أعاد كريستيان فون ولف صياغة فلسفته صياغة مرتبة . وفى هذا الشكل المعدل أصبحت النمط الفكرى السائد المسيطر فى الجامعات الألمانية . وكان أثره خارج ألمانيا يسيرا . ولو أن معظم كتاباته كانت باللغة الفرنسية ، فانها كانت عبـارة عن قصاصات لا تشكل عملا قويا متماسكا أو مركزا . ولم تظهر حتى ١٨٦٨ أية طبعة تجمعها ، بل انه فى تلك السنة أيضا استبعدت بعض الفقرات

الهامة ، ولكنها كانت مشوبة بالهرطقة ، وكان لزامـــا أن تنتظر حتى ١٩٠١ لتطبع • وكتب الفوز للرموز التى وضعها لحســـاب التفاضـــل والتكامل ، ولكن لمدة نصف قرن حمل منافساه نيـــوتن ولوك كل شيء أمامهما ، وأصبحا معبودى عصر الاستنارة فى فرنســـا • ولكن حتى وسط نشوة العقل هذه ، قدر بوفون أن ليبنتز أعظـــم عبقـــرية فى عصره (٩٦) • أما المفكر الألمانى اللامع فى القـــرن العشرين أوزوالد شبنجلر فقد اعتبر ليبنتز « أعظم عقل فى الفلسفة الغربية بلا نزاع(٩٧) »

ولكى تنتظم هذه الذرى جميعا فى عقد واحد ، يمكن القول فى جملة واحدة بأن القرن السابع عشر كان أخصب حقبة فى تاريخ الفكر الحديث • فهنا فى بيكون وديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك وبيل وليبنتز ، كانت سلسلة متعاقبة من رجال حميت صدورهم بخمرة العقل ، واثقين فى ابتهاج بأنهم (أو معظمهم) استطاعوا أن يفهموا الكون ، حتى الى حد تكوين فكرات « واضحة متميزة » عن الله ، والى حد أنهم جميعا ـ فيما عدا الأخير ـ قادوا الى تلك الاستنارة الذكية العـــارمة التى كان لزاما أن تهز الدين والحكومة كلتيهما معـــا هـــزا عنيفا فى الثـــورة الفرنسية • وتنبأ ليبنتز بهذه النهاية ، وعلى حين ظل لآخر لحظة يدافع عن حرية الكلام (٩٨) • فانه حث المفكرين الاحرار على التفكير فى أثر كلماتهم الملفوظة أو المكتوبة على أخلاق الناس وروحهم وفى « الأبحاث الجديدة » حوالى سنة ١٧٠٠ كتب تحذيرا رائعا :

> اذا كان الانصاف يقتضي الابقاء على المفكرين الاحرار، فان التقوى تقتضي ابراز الآثار السيئة لمبادئهم وتعاليمهم ، كلما أمكن ذلك ، اذا كانت تتعارض مع الايمان بتدبير اله بالغ الكمال فى الحكمة والخير والعدل ، وتتعارض مع خلود الأنفس ، ذلك الايمـــان الـــذى يجعـــلهم سريعى التأثر والحساسية لآثار عدالته ، فلا يتحدثون عن آراء خطـــرة بالنسبة للاخلاق والشرطة • وانى لأعلم أن رجالا ممتازين يتسمون بحسن النية يرون أن لمثل هذه الآراء النظرية على السلوك والممارسة أثرا أقل مما يظن • كما أعلم أيضـــا ان هناك أشخاصا ذوى ميول طيبة فلا تحدوهم مثل هذه الآراء الى الاتيان بأى شيء غير جدير بهم ••• وقد يقال بان أبيقور

وسبينوزا عاشا حياة مثالية تماما ، ولكن هــذه الدواعى
غالبا ما تنقطع فى تلاميذهم ومقلديهــم الذين يطلقون ،
اعتقادا منهم بأنهم تخلصوا من الخوف المزعــج من عناية
الهية متربصة مراقبة ، ومن الخوف من مستقبل ينذر بالويل
والثبور ـ يطلقون العنان لشهواتهم البهيمية وأهوائهــم
الوحشية ، ويصرفون أذهانهم الى اغواء الآخرين وافسادهم.
واذا استبد بهم الطموح والطمع ، أو كانوا ذوى ميول جافية
نوعا ما ، فقد يسوغون لأنفسهم ، رغبة فى البهجة والسرور
أو التقدم والرقى ، أن يشعلوا النار فى أربعة أركان المعمورة.
لقد عرفت هذا من طبيعة وخلق بعض من طواهم الردى ،
وانى لأجد كذلك آراء شبيهة ، تندس ، شيئا فشيئا الى أذهان رجال
من ذوى المكانة الرفيعــة المترفين الذين يحكمــون الناس
ويتحكمون فى مصائر الأمور ، كما تندس فى الكتب العصرية ،
وهى آراء تنزع بكل شيء الى الثورة العامة التى تهــدد
أوربا (٩٩) .

وانا لنلمح فى ثنايا هذه السطور روح القلق الموسوم بالاخلاص ، وينبغى أن ننظر بالتقدير والاجلال الى نصيحة التحــذير التى تعبر عنها . ومع ذلك فانه بعد أن محقت الاستنارة كل المذاهب الدينية ، وأشعلت الثورة الفرنسية النار فى أربعة أركان المعمــورة ، ونقعت مذابح سبتمبر غلة الآلهة بشكل عابر ، استطاع مؤرخ كبير أن ينظر الى الوراء ، الى هذا العصر الأول من عصور العلوم والفلسفة الحديثة ، ويرى فى المغامرين فيه ، لا مدمرين للحضارة ، بل محررين للجنس البشرى . قال لكى Leeky

هكذا درب معلمو القرن السابع عشر العظــام ...
أذهان الناس ونظموها من أجل البحث والتحقيق المجردين
غير المتحيزين ، وفجروا ، بعد أن حطموا التعويذة التى
شلت حركتهــم زمنا طويلا ، ينبوعا من الحب الخالص
للحقيقة التى أحدثت ثورة وتغييرا فى كل جوانب المعرفة .
والى هذا الدافع الذى انتقــل آنذاك ، يمكننا أن نتعقب
حركة حاسمة كبيرة جددت كل التاريخ . وكل العــلوم ،

وكل اللاهوت ـ وهى حركة نفذت الى أخفى الأعمـــاق ، مدمرة الحزازات القديمة ، مبددة الأوهام ، معيدة ترتيب .. .. معرفتنـــا ، مغيرة كل مدى وطبيعة تعاطفاتنـــا واهتماماتنا وربما كان ضربا من المحال أن يتم كل هـــذا لولا انتشار روح عقلانية (١٠٠) .

وهكذا من حسن الحظ أو لسوء الحظ ، وضع القرن السابع عشر أسس الفكر الحديث . لقد كانت النهضة مقيدة بالآراء القديمة التقليدية والطقوس الكاثوليكية والفن الكاثوليكى . وكان الاصلاح الدينى مرتبطا بالمسيحية البدائية وعقيدة العصور الوسطى . أما هذه الحقبة الغنيـــة الحاسمة ، من جاليليو الى نيوتن ، ومن ديكارت الى بيل ، ومن بيكون الى لوك ، فقد ولت وجهها شطر مستقبل غير معلوم بشر بكل أخطار الحرية ، وهى حقبة استحقت ربما حتى أكثر من القرن الثامن عشر أن تسمى « عصر العقل ، لأنها على الرغم من أن المفكرين فيها ظلوا أقلية ضئيلة ، فانهم أظهروا اعتدالا أحكم ، وسبروا أعمق لأغوار العقل والحرية ، وما يكتنفهما من مشاق ، من أبطال الاستنارة الفرنسية الذين فك وثاقهم . ومهما يكن من أمر فان المسرحية الكبرى فى التـــاريخ الحديث ، كانت قد مثلت فصلها الثانى ، وقاربت نهايتها .

الكتاب الخامس

فرنســا تواجــه أوربــا

١٦٨٣ ـ ١٧١٥



الفصل الرابع والعشرون

غـروب الشـمس

١ ـ مدام دى مينتنون

بعد وفاة « مارى تريز » (٣٠ يوليه ١٨٦٣) كانت الملكـة غير المتوجه لفرنسا « الأرملة سكارون » المركيزة دى مينتنون ، مربية بناء الملك غير الشرعيين ، وسرعان ما أصبحت (يناير ١٦٨٤ ؟) زوجته غير المتكافئة والتى لا ترث عرشه ، وكانت منذ ذلك التاريخ ذات أكبر نفوذ شخصي طيلة حكمه .

ومن العسير اليوم أن نعرف حقيقة خلقها ، ولا يزال المؤرخـون يختلفون عليه . وكان لها أعداء كثيرون كرهوا صعودها وقوتها . وكتب بعضهم التاريخ وأسلمها الينا وغدا أنانيا ماكرا مدبرا للمكائد . ومهما يكن من أمر ، فانها حين كان من الميسور لها أن تحل محل مدام مونتسبان « خليلة للملك » ـ بكل ما يأتى به هذا من نفوذ وسيطرة ـ أبت ، وبدلا من ذلك ، حرضت الملك على العـودة الى مخـــدع الملكة (أغسطس ١٦٨٠) . وكانت الملكة آنذاك فى الثانية والأربعين من العمر ، أصغر من دى منتينون بثلاثة أعوام ، ولم يكن ثمة ما يبرر توقع موتها المبكر . وظاهر أن المركيزة ، فى هذه الآونة ، آثرت الفضيلة على الســيطرة والنفوذ ، وعندما اخطتفت يد المنون الملكة ظلت المربية على رفضها أن تكون خليلة ، وسعت وراء أهداف عليا ، مغامرة بوظيفتها الحالية . واذا كانت فضيلتها طموحا فانها لم تتلطخ به أكثر ما تلطخ به تواضع عانس متعقلة ليس لها الا مفاتنها تساوم بها من أجل حياتها ، وتظن أن مضاجعة ليلة أقل أمنا من خاتم العرس . ولما تزوج لويس من مينتنون كان عمرها ثمانية وأربعين عاما . ورسمها مينارد عقيلة لطيفة جاوزت مرحلة الاغراء أو الفتنة الجسدية ، وكانت فى أحسن الأحوال تقيـــة مخلصة فى تقواها ، وفى أسوأ الأحوال قامرت مقامرة جريئة وكتب لها الفــوز .

وخصص لها آنذاك مسكنا قريبا من مسكن الملك ، فعاشت فى قصر فرساى فى بساطة برجوازية تقريبا . « كانت حياة البلاط تضايقها، ولم تجد لذة فى التباهى والتفاخر (١) » . ولم تجمع ثروة ، وحتى فى قمة سعود نجمها لم تكن تملك الا القليل الى جانب قصر مينتنون الذى تركته غير مؤثث ولم يستخدم . ويقال ان لويس ، فى أعوامها الأخيرة ، قال لها يوما « ولكنك يا سيدتى لا تملكين شيئا ، واذا ما مت فستكونين فقيرة خاوية الوفاض ، خبرينى ماذا يمكن أن أفعل من أجلك ؟ » . فطلبت بعض الامتيازات والرعاية المتواضعة لذوى قرباها ، ومبالغ كبيرة من المال لمشروعها الأثير لديها : الكلية التى أسست ١٦٨٦ فى سان سير لبنات الأسرات الكريمة اللاتى أخنى عليها الدهر . ولم يكن خيلاؤها بل خيلاء الملك هو الذى جند الرجال وخصص الأموال لقناة الماء التى لم يتم بناؤها ، والتى حملت اسمها .

وكانت دى مينتنون ، من نواح كثيرة ، زوجة صالحة . وكان شغلها الشاغل فى يوم حافل أن تقف حائلا بين الملك وبين العالم ، وأن تحافظ على السلام والهدوء ، وسط أطماع أفراد البلاط ودسائسهم ، وتلاطف سربا من الطامعين فى المناصب ، وتعمل خالة عطوفة لحفدة زوجها ، وتفى بمتطلباته بوصفه رجلا ، وتواسيه فى اخفاقه وهزائمه . وترفه « عن الرجل الذى من أصعب الصعب الترفيه عنه فى مملكة بأسرها (٣) » ، وتخلق جوا من الهدوء المنزلى ، فى حياة كان لزاما فى كل ساعة تقريبا أن تتخذ فيها قرارات يتأثر بها مليون حياة . وفى أوراقها الخاصة التى وجدت بعد وفاتها ، عثر على هذا الدعاء ، وظاهر أنه كتب فور زواجها :

يا الهى ، لقد بوأتنى هذا المكان الذى أنا فيه الآن ، وانى لأترك نفسي رهن تدبيرك وعنايتك دون قيد أو شرط ، امنحنى النعمة الالهية ، حتى أستطيع ، كمسيحية ، أن أحتمل الآلام ، وأقدس المسرة ، والتمس فى كل شيء مجدك ، و .. .. أعاون على خلاص الملك ، وحل بينى وبين الاستسلام لتهيجات ذهن قلق . ولتكن مشيئتك يا الهى ، مشيئتى ، فان السعادة كل السعادة ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة هى فى الخضوع لمشيئتك أنت دون تحفظ.

اغمر نفسي بهذه الحكمة ، وبسائر الهبات الروحيـــة اللازمة لتلك المنزلة العالية التى وضعتنى فيها . ولتجعلها مثمـــرة تلك القدرات التى طاب لك أن تمنحنى اياها . يا الهى ، أنت يا من تمسك بين يديك قلوب الملوك ، افتح قلب الملك حتى أصب فيه من الخير ما تشاء أنت سبحانك . أوزعنى أن أسعده وأسره وأواسيه وأشجعه ، بل حتى ان أزعجه واجلب عليه الحزن اذا اقتضي الأمر تمجيدا لك . هيىء لى الا أخفى عنه شيئا يجدر أن يعلمه منى ، مما لا يجد الآخـــرون فى أنفسهم الشجاعة ليبلغوه اياه . هيىء لى أن أنقـــذ نفسي وأنقذه معى ، وأن احبه فيك ومن أجلك يا الهى . وهيىء له أن يحبنى بنفس الطريقة . هب لنا أن نسير معا فى ملكوتك دون لوم أو خزى حتى يوم قدومك (٤) .

وهذا دعاء جميل قدر جمال أية رسالة من ألواز الى أبيـلارد ، ونأمل أن يكون أصح وأصدق . ومثل هذ الدعاء يمكن ان يمنح القوة ، بصرف النظر عن أية استجابة خارجية ، وربما كانت ثمة ارادة خفية للسيطرة والسلطة فى ثنايا الرغبة فى اصلاح الآخرين وهدايتهم ، ولكن السنوات الباقية من عمر مينتنون أثبتت أصدق تقواها وضيق أفق هذه التقوى معا . يقول سان سيمون « لقد وجدت ملكا يعتقد فى نفسه أنه رسول أو حوارى لأنه ظل طيلة حياته يضطهد الجانسينة .. .. وهـذا أوحى اليها بنوع الحب الذى تبذر به الحقل لتجنى أعظم حصاد (٥)». (عرفت من أين تؤكل الكتف) .

هو شجعت مينتنون على اضطهاد الهيجونوت ؟ هــكذا يظن سان سيمون (٦) ، ولكن التحقيقات اللاحقة تميل الى تبرئتها من هذه الوحشية التى كان بطلها عدوها اللدود لوفوا . ورأى فيها لورد آكتون، وهو مؤرخ كاثوليكى ، نادرا ما كان مناصرا للكاثوليكية :

أعظــم امرأة ثقــافة وتفكــيرا وادراكا . وكانت بروتستانتية من قبل . واحتفظت لأمد طويل بحماسة المرتدة وغيرتها . وكانت تعارض الجانسنية معارضة شديدة ، وكانت تحظى بثقة افاضل رجال الدين الى حــد كبير ، وســاد

الاعتقاد بأنها شجعت الاضطهاد وحرضت الملك على الغاء مرسوم نانت . وأبرز ترسائلها شواهد على ذلك . ولكن رسائلها كانت قد حرفت بواسطة محرر كان مزيفا مشوها (٧) ●

ان مينتنون - مثل فنيلون ، ومدام دى سفينى ومعظم الكاثوليك فى ذاك العصر . أقرت الغاء مرسوم نانت ، ولكنها استخدمت نفوذها بنجاح غالبا ، كما يروى البروتستانتى ميشيليه - فى وقف قساوة الاضطهاد أو الحد منها (٨) .

وحتى لا تطغى النزعة الرومانتيكية على اضفاء المثالية على المرأة ، فتلون الصورة بألوان وردية زاهية ، فلننظر الى المركيزة من خلال آراء أخرى فيها تحامل عليها . ان كبرياء سان سيمون النابعة من لقب الدوق والدوقية ، لم تكن لتغفر صعود البورجوازية الوضيعة الى مرتبة سيدة فرنسا :

ان العوز والفقر اللذين عاشت فى براثنهم لفترة طويلة قد ضيقا من أفق تفكيرها ، وهبطا الى الحضيض بقلبها وعوطفها . ان مشاعرها وأفكارها كانت محدودة ، الى درجة أنها كانت دائما فى الحقيقة أقل حتى من مدام سكارون ... وليس ثمة شيء أشد اثارة للنفور والاشمئزاز من منبت وضيع يتبوأ مكانا متألقا الى هذا الحد (٩) .

ولكن الدوق نفسه وجد بعض المزايا والفضائل وسط أخطائها وعيوبها :

● انظر جاك بولنجيه « القرن السابع عشر » نيويورك ١٩١٠ - ص ٢٤٣ من الواضح يكن لها ية علاقة بالغاء مرسوم نانت » ، ودائرة المعارف البريطانية بالمجلد ١٤ - ٦٩٣ « لقد نسب اليها ظلما وعدوانا الغاء مرسوم نانت وحملات الاضطهاد والتعذيب الوحشية » وخلص فولتير منذ أمد بعيد الى مثل هذا الرأى . « أعمال فولتير » - نيويورك ١٩٢٧ - الفصل ٢ أ - ص ٢٦٠ .

كانت مدام دى مينتنون امرأة على جانب كبير من الذكاء الذى احتملته الرفقة الطيبة التى عاشت بين ظهرانيها أولا ، ولكن تالقت فيها سريعا ، وصقلتها كثيرا وزودتها بزينة المعرفة الدنيوية ، التى جعلتها الكياسة البالغة من أكثر الوان المعرفة استساغة وقبولا . وجعلتها المناصب المختلفة التى شغلتها مداهنة متملقة راضية تسعى دائما الى ارضاء الناس . ان حاجتها الى الدسائس ، وأولئك الذين التقت بهم من كل الأنماط ، واختلطت بهم من أجل شخصها ومن أجل الآخرين ، أضفوا عليها ذوقهم وعاداتهم . ان كياسة لا تضاهى وسلوكا هينا لينا رضيا ، ولكنه مدروس ، يدعو الى الاحترام ، وكانه نتيجة لطول خمول ذكرها قد أصبح أمرا طبيعيا بالنسبة لها ، كل أولئك ساعد على تنمية مواهبها بشكل عجيب ، الى جانب لغة مهذبة محكمة حسنة التعبير ، فصيحة موجزة بشكل طبيعى . أما أسعد أيامها ، حيث كانت تكبر الملك بثلاث أو أربع سنوات ، فكانت فترة التودد ومطارحة الغرام والمغازلة الرقيقة .. .. وبعدها أحاطت نفسها بهالة من الاهمية وجلال الشأن . وتقلص ظل هذه تدريجيا لتحل محلها هالة من التقوى أحاطت بها نفسها بطريقة تدعو الى الاعجاب . ولم تكن نزاعة بطبيعتها الى الخداع والغدر ، ولكن الحاجة الجاتها الى أن تكون كذلك . وجعلها طيشها الطبيعى تبدو مخادعة ضعف ما هى عليه فى حقيقة الامر (١٠) .

وأثار بعد الشقة فى نفس ماكولى شيئا من الشفقة ، فنظر الى مدام دى مينتنون نظرة أكثر اتساما بالشهامة والاحترام ، وربما احس بأنه يمكن أن يغتفر الكثير لسيدة كانت « تمتاز بالفصاحة والايجاز معا :

انها حين جذبت انتباه مليكها ، لم تكن فى وضع تستطيع معه أن تتيه عجبا بشبابها أو بجمالها ، ولكنها ، وبدرجة غير عادية ، كانت تتمتع بتلك المفاتن الأبقى على الزمن ، والتى يقدرها أعظم التقدير الرجال الذين يتحلون بحسن

الادراك فى شريكة الحيـــاة ... كانت دى مينتنون تتميز بعقل منصف ، ومعين لا ينضب ، ولكنه غير ممل اطلاقا ، من حديث عقلانى رقيق مرح ، ومزاج لا يتكدر صفوه أبدا ، ولباقة فاقت لباقة بنات جنسها ، بقدر ما فاقت لباقة جنسها لباقة جنسنا نحن . تلك هى المناقب التى جعلت من أرملة المهرج فى أول الأمر صديقة جديرة بالثقة ، ثم زوجة لأقوى ملوك أوربا وأكثرهم عطرسة وغرورا (١١) .

وأخيرا نراها من خلال قلم هنرى مارتن ، وهو مورخ فرنسي غير مشهود له بالبراعة كثيرا :

كان ثمة توافق فى الذهن والطباع بين الاثنين (المركيزة والملك) ، وهو توافـــق قدر له أن يزداد على مر الأيام ، كما أن جمالها الناعم المتناسق الرزين الذى زاد منه وقار طبيعى نادر ، كان هو الجمال الذى يرضي لويس أساسا . وأحبت هى التأمل والبحث ، وأحب هو العظمة والمجد . وكانت مثله متحفظة حـذرة ، ومع ذلك تفيض جاذبيـــة ورقة . ولحديثها نفس السحر والفتنة ، اللتين دعمتهمــا طويلا بفضل خيال أخصب وتعليم ذى جوانب أكثر تعددا . وكانت ذات شخصية تتميز بالانانية واتخاذ التدابير القوية ، ومع ذلك كانت أهلا لعواطف متينة ثابتة وان لم تكن حارة ، وكانت فى نفس الوقت أقل انفعالا وأشد ثباتا من الملك الذى لم يكن مخلصا حقا فى الصداقة وفى الحب ، الا لهـــا وحدها . ولكنها لم تعرف قط بم تضحى من أجل عواطفها ، بمصالحها أو بهدوئهـــا . وعلى النقيض من لويس الرابع عشر ، كانت تهتم بالبسيط من الامور ، ولا تتســـامح فى عظائمها . ان طبيعتها الهادئة المفطـــورة على التـــامل والتفكير ، البعيدة عن الانفعالات والأوهام ، ساعدتها على الدفاع عن فضيلة غالبا كانت محصورة (١٢) .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد أن هذه السيدة تحلت بمناقب جديرة بالاعجاب ، حدت بملك مستبد الى أن يختارها زوجة له ، ويعهد اليها بالنظر فى أدق شئون الدولة . وكان عادة يلتقى بوزرائه فى حجرتها الخاصة ، تحت سمعها وبصرها ، وعلى الرغم من أنها كانت تجلس

على مسافة معقولة منهم ، وتلتزم الصمت ، حكمة وحزما منها ، منهمكة فى أشغال الابرة ، كان لويس « أحيانا يتجه اليها ويسالها رأيها (١٣)» وأطلق عليها المتشككون « سيدة اللحظة الراهنة » مقدرين انها لن تلبث حتى ينضم اليها المنافسات أو يجلينها عن مكانتها ليحللن محلها ، ولكن على النقيض من ذلك ، ظل الملك الزوج المحب الوفى لها حتى وفاته .

وعظم نفوذها عاما بعد عام . وكان مقرونا بالخير والاحسان قدر ما سمحت به تقواها . وحاولت أن تحد من اسراف الملك وتبذيره ، وأن تصرفه عن الحرب . ومن هنا كان عداء لوفوا لها . ووفرت دى مينتنون اعانات ملكية للصدقات والمستشفيات والأديار ، ومساعدة النبلاء المفلسين ، ومهور البنات (١٤) ولم يحظ بالترشيح للوظائف من جانبها الا الكاثوليك الأخيار ، وكست التماثيل العارية والصور الزيتية العادية التى ازدان بها قصر فرساى بالاستار أو النباتات المعترشة(١٥) . وحولت كلية سان سير الى دير (١٦٩٣) أغلقت أبوابه بعد ذلك أمام العالم . وأصبحت هى نفسها راهبة فى قصر ، « كانت قعيدة القصر تقضي الساعات وحيدة ، ومن ثم بدت وكأن لها قدما فى الدير (١٦) ».

وبدأ الملك بالسخرية من تقواها ، وانتهى بتقليدها فى هذا التواضع . وابتهج القساوسة المحيطون به ليروا مداومته على تأدية طقوس العبادة ، ولكن زوجته كانت تفهمه فهما جيدا ، فقالت « ان الملك لا يخطىء موضعا فى الصليب ، أو موقفا للكفارة أبدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك الحاجة الى الخشوع أو الى اذلال نفسه حتى تتجلى فيه الروح الحقيقية للتوبة والندم (١٧) » . وكان البابا اسكندر الثامن راضيا على أية حال ، وهنا مدام دى مينتنون على هداية الرجل الفرنسي الذى كان يوما معاديا للبابوية ، وربما زاد من تقوى الملك اعتلال صحته وضعف جسمه بعد ١٦٨ ، ومعاناته من ناسور فى الشرج ، حيث ذكره هذا كله بأنه فان ؛ وفى ١٨ نوفمبر ١٦٨٦ استسلم لعملية أليمة ، احتملها فى شجاعة أملاها عليه وعيه الطبقى أو ادراكه أنه ملك لا ينبغى له أن يحور و يضعف . ولفترة من الوقت ابتهج الائتلاف المعادى لفرنسا للشائعات التى راجت بأنه على وشك ن يقضي نحبه (١٨) . ولكنه بقى على قيد الحياة . وعندما قصد الى كنيسة نوتردام (٣٠ يناير

١٦٨٧) ليقدم الشكر لله على شفائه ، حيته كل فرنسا الكاثوليكيـة وابتهجت لابلاله من مرضه وكأنه يوم عيد ٠

قـال فولتير « ومنـذ ذلك الوقت لم يذهب الملك الى المسرح قط (١٩) ، ان المرح المقرون بالوقار والعظمة ، والذى كان يميز النصف الأول من حكمه ، قد ولى ليحل محله وقار ورزانة قاربتا أحيانا الصرامة القاتمة والتزمت ، ولكنه سمح بين الحين والحين بشيء من الافـراط فى النوم والطعام (٢٠) ٠ وقد أضناه الارهاق والتعب ، وحيث شجعته مينتنون ، فانه انقص من حفلات البلاط وعروضه ، وأوى الى حيـاة أكثر انعزالا ، قانعا بألفة الحياة الأسرية التى عودته ياها زوجتـه ٠ وظل مسرفا فى الانفاق على القصور والحدائق ، وظل مزهوا أبيا مثل صولجانه ، حساسا مثل فكيه ٠ وفى مارس ١٦٨٦ أجاز لرجل متذلل خنوع من رجال الحاشية ، فرنسوادى أوبيسون دوق دى لافياد فيمـا بعد ، أن يقيم له فى « ميدان الانتصارات » تمثالا يرمز الى أنه « الرجل الخالد » ٠ على أننا يجب أن نضيف أنه عندما أراد أوبيسون ان يضع ، وفاء بنذر ، امام التمثال مصباحا يضاء ليل نهار ، حظر عليـه الملك فتراض الالوهية والقداسة بهذا الشكل المبتسر غير الجائز ٠

وضربت جماعة محدودة من الارستقراطيين المخلصـين ، على رأسهم دوق ودقة شفريز ، ودوقتى بوفلبير ومورتمار ، وبنات كولبير الثلاث ، ضربت حول الملك وزوجه « نطاقا كريما من الأتقياء » وكان كثير منهم متمسكين بأهداب الدين حقا ، كما نقل بعضهم عن مدام جويون طمأنينتها المتصوفة ٠ وحوالى هذا الوقت ألف شاعر فرنسي غير معروف الترنيمة الذائعة الصيت والمعروفة باسم « المؤمنون الاخيار » وشارك بقية أفراد البلاط ، الملك مزاجه الجديد ، ظاهريا فقط ٠ وتخلوا عن اللهو والعبث ، وكثيرا ما حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس ، وقل شيئا فشيئا ذهابهم الى الاوبرا والمسرح اللذين هبطا آنذاك بسرعة من عليائهما على عهد للى وموليير ، واستمر الصيد والقنص والمآدب الباذخة وحفلات الرقص ، ولعب الورق بمبالغ ضخمة ، ولكن فى جو من الاعتدال تشوبه مسحة من الكآبة ٠ واخفى المعربدون الصاخبـون والمفكرون الاحرار فى باريس رؤوسهم ، انتظار للثـار فى ظل وصي

يرقبون مجيئه بفارغ الصبر . ولكن شعب فرنسا ابتهج لقداسة مليكه ، واحتمل فى صمت ، فى الموت وفى الضرائب ، أعباء الحرب المتزايدة .

٢ ـ الحلف الأعظم ١٦٨٩ ـ ١٦٩٧

زادت الضرائب حتى مع هبوط مستوى الرخاء والازدهار . وكان مشروع كولبير لتنظيم التجارة والصناعة بواسطة الحكومة ، قد بدأ ينهار قبل موته (١٦٨٣) . لقد مات المشروع ، من ناحية نتيجة لسوق الرجال من المزارع والمصانع الى المعسكرات وميادين القتال ، ولكنه انهار أساسا نتيجة الاختناق الذاتى : ذلك أن التنظيمات الحكومية عوقت النمو الذى كان يمكن أن يؤتى ثماره فى ظل رقابة وقيود أخف ، وفى ظل مزيد من الحرية للتنفس والتجريب والخطأ . ووجد حب العمل والمغامرة أنه مقيد بمتاهة من الاوامر والعقوبات . وضجت وتعثرت الآلة المعقدة للنشاط الاقتصادى ، التى يحركها الجوع الكادح فى الكثرة الكاثرة من الناس والجشع المبدع الخلاق عند فئة قليلة منهم، تحت ضغط عبء ثقيل من القواعد ، حتى هددت هذه الآلة بالتوقف . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى ترددت صيحة « اتركه يعمل » ، قبل ظهور فرنسواكسناى وترجو بخمسة وستين عاما ، وقبل ظهور آدم سميث بواحد وتسعين عاما . وقال أحد أتباع لويس الرابع عشر « ان السر الأعظم يكمن فى اطلاق الحرية الكاملة للتجارة . ان أصحاب المصانع لم يصابوا قط بمثل هذا الخراب والدمار فى هذه المملكة الا منذ فكرنا أن ندعمهم بقوانين من الدولة (٢١) » . وثمة عوامل أخرى أسهمت فى هذا الانهيار . وذلك أن الهيجونوت الذين فروا من الاضطهاد ، حملوا معهم مهاراتهم الاقتصادية ، وفى بعض الاحيان مدخراتهم أيضا . وعانت التجارة من رغبة الملك فى الغزو والفتح ، لا الاتجار . وعوقت الرسوم الأجنبية صادرات فرنسا انتقاما من رسوم الواردات الفرنسية . وأثبت الانجليز والهولنديون أنهم رجال بحر واستعمار من الغاليين (الفرنسيين) المتغطرسين النافدى الصبر . وأخفقت شركة الهند ، وعوقت الضرائب الزراعة . وأفسدت العملة المزيفة مرفق المال ، وشلت حركته وأحدثت فيه الاضطراب .

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الوزراء الذين خدموا لويس الرابع عشر بعد وفاة كولبير ، وبين أولئك الذين ورثهم عن ريشليو ومازاران . وتولى ابن كولبير ، جان بابتست ، مركيز سينلى وزارتى التجارة والبحرية ، وتولى كلود بلتييه الشئون المالية ، ولكن سرعان ما خلفه فيها لويس فيليبو سنيور دى بونتشارتران . أما لوفوا فقد بقى وزيرا للحربية . ولكن أرهب الوزراء الجدد ما جمع لويس الرابع عشر من مجد وسلطان ، فقعد بهم الخوف عن اتخاذ أى قرار ، واعتمد دولاب الحكومة على ذهن الملك المكدود المرهـــق . ولم يكن يتصرف بمحض ارادته الا لوفوا ، من أجل الحرب ـ ضد الهيجونوت ، وضد الأراضى الوطيئة ، وضد أى أمير أو شعب اعترض طريق فرنسا المتوسعة . وكان لوفوا قد أنشأ أحسن جيش فى أوربا ، ودربه على النظـام والانضباط والبسالة ، وزوده بأحدث الأسلحة ، وعلمه الفن الرشيق فى استخدام الحراب● . فكيف يتيسر اطعام مثل هذه القوات والمحافظة على روحها المعنوية الا اذا حاربت وانتصرت ؟

ونظرت فرنسا الى الجيش بعين الاعجاب والفخر ، على حين ستشاطت أوربا غضبا وارتعدت فزعا لدى سماعها به . وفى مايو ١٦٨٥ ، عندما طالب لويس الرابع عشر بجزء من أملاك ناخب البـــالاتين ، ميراثا يستحقه عن أخت الناخب المتوفاة شارلوت اليزابث ، دوقـــة أورليان آنذاك ، تساءل أمراء الامبراطور عجبا : ماذا عسي أن تكون مطالب الملك المغامر المعتدى بعد ذلك . وزادت حدة التوتر عندما ربط لويس بالفعل ، كولون وهلدشيم ومونستر بفرنسا ، بضمان انتخـــاب مرشحيه حكاما أسقفيين لهذه البلاد (١٦٨٦) . وفى ٦ يوليـــه انضم الامبراطور الكاثوليكى ليوبولد الاول ، والناخب الكاثوليكى مكسيمليان الثـــانى وامانويل أمير بافـــاريا ، الى ناخب براندنبرج الأعظـــم البروتستانتى ، وفى تكوين عصبة أوجزبرج للدفاع ضد أى هجوم على أراضيهم أو عدوان على دولهم . وكان الامبراطور مشغولا مع الاتراك

● صنعت الحربة فى مدينة بايون (جنوب فرنسا) فى عام ١٥٠٠ . ولكن يبدو نها استخدمت على نطاق واسع لاول مرة فى ايبر (شـــمال غرب بلجيكا) ١٦٤٧ (٢٢) .

المتقهقرين ، ولكن هزيمتهم فى « موهاكز » الثانية (١٦٨٧) وفى بلغراد (١٦٨٨) أطلقت يد القوات الامبراطورية للعمل على الجبهة الغربية للامبراطورية ٠

وارتكب ملك فرنسا آنذاك أكبر خطأ فى سجل حياته العسكرية ٠ وكان حاكم هولنده يتوقع منه أن يجدد هجومه على هولنده ، ولكن لويس ، بدلا من ذلك ، قرر غزو ألمانيا قبل أن تتمكن القوات الامبراطورية من الاحتشاد على جبهته ٠ وفى ٢٢ سبتمبر ١٦٨٨ تقدمت قواته الرئيسية نحو الراين ٠ مع توجيه خاص متميز الى الدوفين ذى السبعة والعشرين ربيعا : « أى بنى ، انى اذ أبعث بك لتتولى أمرة جيوشي ، انما أهيىء لك كل الفرص لتثبت جدارتك ، فاكشف عنها لكل أوربا ، حتى اذا حان أجلى ، لا يشعر أحد بان الملك قد قضي نحبه (٢٣) » ٠ وفى ٢٥ سبتمبر اجتاح الجيش الفرنسي ألمانيا ٠ وفى غضون شهر واحد استولى علـى كايزرسلوترن ، ونيوستاد ، وورمز وبنجن مينز وهيـدلبرج ٠ وفى ٢٩ أكتوبر سـقطت قلعة فيليبسبرج المنيعـة ، وفى ٤ نوفمبر تقـدم الدوفين المنتصر لمهاجمة مانهيم ٠

وربما كان فى هذه الانتصارات بداية سقوط الملك ، لانها ورطت الملك فى حرب طويلة الأجل ضد عدد متزايد من الاعداء ، لقد حرروا هولنده من الخوف من غزو مبكر ، وأقنعوا برلمان المقاطعات المتحـدة بالموافقة على أن يغزو وليم الثالث انجلترا ويعاونه على أعمال الغزو ٠ وما أن وثق وليم من قوته حتى حول انجلترا من بلد تابع لفرنسا الى عدو لها ٠ وعاهد رعاياه الجدد على الوقوف الى جانبهم فى الدفاع عن أوربا السياسية والدينية ٠ وتردد برلمان انجلترا ، مرتابا فى أن وليم معنى فى الدرجة الأولى بانقاذ هولنده ، وهى أكبر منافس تجـارى لانجلترا ، ولكن انصارات فرنسا قوت من جديد حجة وليم ٠

وكان لوفوا قد استحث لويس على السماح له باكتساح البالاتينات وتخريبها حتى يحرم العدو المقترب من أية معونة محلية ، ووافق لويس على كره منه ٠ وفى مارس ١٦٨٩ أعمل الجيش الفرنسي السلب والنهب وأحرق هيدلبرج ومانهيم ثم سبير ، وورمسز وأوبنهايم وأجـزاء من أسقفية تريبه ومنطقة بادن ، حتى دمرت كل أراضي الراين الالمانيـة

تقريبا . ووصف فولتير هذه الفظائع حيث استيقظ فيه ضمير « الرجل الأوربى الطيب » :

> كنا فى قلب الشتاء . وما كان ينبغى للقواد الفرنسيين الا أن يمتثلوا وبناء على ذلك أعلنوا لمواطنى هذه المدن المزدهرة المنظمة أحسن نظام ، ولسكان القرى ، ولأصحاب أكثر من خمسين قصرا ، أن عليهم أن يغادروا مساكنهم التى سيعملون فيها النار والسيف . فاسرع الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الى الرحيل . وهام بعضهم على وجوههم فى الريف ، والتمس بعضهم مأوى فى الأراضي المجاورة ، على حين نهب الجنود المنطقة وأحرقوها ، وبدأوا بمدينتى هيدلبرج ومانهيم ، ومقار الناخبين ، ودمرت قصورهم وبيوت المواطنين العاديين على السواء . وللمرة الثانية اجتاحت جيوش لويس الرابع عشر هذه البلاد الجميلة وخربتها . ولكن ألسنة النيران فى المدينتين والعشرين قرية التى أحرقها تورين عندما اجتاح البالاتينات ١٦٧٤ ، كانت شيئا لا يذكر أو شررا بسيطا الى جانب الحرائق فى هذه المرة (٢٤) .

وتعالت الصيحات تطالب بالانتقام من ملك فرنسا فى كل أنحاء ألمانيا والاراضي الوطيئة وانجلترا ووصم الكتاب الألمان الجنود الفرنسيين بأنهم متوحشون (هون) مجردون من أية مشاعر انسانية . ونعتوا لويس بأنه مسخ كافر مجدف همجى بالغ الهمجية . وعير المؤرخون الألمان الشعب الفرنسي بأنه تلقى حضارته من الفرنجة (أى الألمان) وأنه نقل جامعاته عن الامبراطورية الرومانية المقدسة (أى الألمان كذلك) (٢٥) . وكان بييرجوريو ، أحد المنفيين فى هولنده قد نشر هناك لفوره نقدا ساخرا عنيفا تحت عنوان « منظر فرنسا المستعبدة » ، ودمغ فيه لويس بأنه طاغية شديد التعصب ، وأهاب بالشعب الفرنسي أن يطيح به ، ويشكل ملكية دستورية . وردت الصحافة الفرنسية بتوجيه النداء الى المواطنين ليقذفوا بهذه الشتائم فى وجه العدو ، ويهبوا الى انقاذ مليكهم الشجاع المحبوب المحاصر . وفى ١٢ مايو ١٦٨٩ انضمت انجلترا الى الامبراطورية وأسبانيا والمقاطعات

المتحدة والدنمرك وسافوى ، فى الحلف الأعظم الاول ، الذى تعهد بالدفاع عن أى من أعضائه ضد أى عدوان خارجى . وكانت الحرب آنذاك حرب أوربا ضد فرنسا .

فكان جواب لويس على ذلك أنه زاد عدد جنوده الى أربعمائة وخمسين ألفا ، وبحريته الى مائة ألف ، ولم تشهد أوربا قط من قبل مثل هذه القوات المسلحة . وصهر الملك كل ما لديه من أدوات فضية ليعاون الضرائب على دفع نفقات هذه الحشود الضخمة ، وأصدر أوامره الى كل الافراد المرموقين والى كثير من الكنائس ليفعلوا مثل ما فعل ، وأجاز لبونتشارتران أن يعيد سك الفضة وينقص قيمة العملة بمقدار ١٠ ٪ . وخلق الوزير مناصب جديدة ، وأعاد وظائف قديمة كانت قد ألغيت ، وباعها لطلاب الوظائف المفتونين بالألقاب ، وقال للملك : « كلما خلقتم جلالتكم وظيفة خلق الله مغفلا يشتريها (٢٦) » .

وأشار سينلى على الملك بأن يأمر أسطوله بسلخ ايرلنده عن انجلترا . وكان من الجائز أن يتم ذلك ، ففى ٣٠ يونية ١٦٩٠ هزم أمير البحر تورفيل بخمس وسبعين سفينة ، أسطولا انجليزيا هولنديا فى بيتشي هيد بالقرب من شاطىء سسكس الغربى . ولكن لويس لم يرسل سوى ألفى جندى لمساندة جيمس الثانى فى أيرلندة . وكان من المحتمل أن تكسب قوة أكبر معركة بوين (أول يولية ١٦٩٠) ، وأن تشغل انجلترا ومليكها الهولندى فى أيرلنده ، الى حد يصعب معه الاشتراك فى القتال فى القارة . ولكن انتصار وليم الثالث مكنه من الذهاب الى هولنده ليقود قوات انجليزية وهولندية ضد الفرنسيين (١٦٩١) ، وحاول لويس فى ١٦٩٢ غزو انجلترا ، وصدرت الاوامر الى أسطول فى تولون بالابحار شمالا لينضم الى أسطول تحت أمرة تورفيل فى برست وكان عليهما أن يقضيا على كل مقاومة من جانب الانجليز ، ويحملا ثلاثين الف جندى عبر القنال الانجليزى . ولكن عاصفة فى جبل طارق عطلت مسيرة أسطول طولون ، فأخفق فى اللحاق بتورفيل الذى كان عليه أن يواجه وحده الأسطولين الانجليزى والهولندى مجتمعين ، وهزم فى التحام حاسم عند لاهوج بالقرب من شربورج (١٩ مايو ١٦٩٢) . وتوقف غزو انجلترا . وظلت انجلترا سيدة البحار بعد هذه المعركة ، ومطلقة اليد فى الاستيلاء على مستعمرات

فرنسا الواحدة تلو الأخرى . وحمى القنال انجلترا حتى يومنا هذا .

وتابع الفرنسيون انتصارهم فى البر ، ولكن بأبهظ التكاليف فى العتاد والرجال . وفى أبريل ١٦٩١ استبد بهم الزهو والغرور الى حد الجنون أمام مليكهم حين حاصروا واستولوا على هونز الحصينة . وقضي لوفوا نحبه فى ٧ يوليه ، ولكن الملك لم يأسف كثيرا على تخليصه من وزير حربيته الذى كان ينتهج سياسة العدوان . ورأى منذ ذلك الوقت أن يتولى توجيه السياسة العسكرية بنفسه . واتبع تقليدا فرنسيا قديما حين عهد بمنصب لوفوا الى ابنه ، وكان شابا لطيفا سهل الانقياد فى الرابعة والعشرين من العمر - مركيز باربيزييه . وفى يونيه ١٦٩٢ قاد لويس قواته بنفسه للاستيلاء على نامور . ثم ترك القيادة لدوق دى لكسمبرج وعاد ليرتشف خمرة المجد والنصر فى فرساى . وفاجأ وليم الثالث الدوق فى ستينكرك فى يوليه ، ودارت الدائرة على الفرنسيين فى أول الامر ، ولكنهم أعادوا تنظيم صفوفهم واستعادوا شجاعتهم بفضل توجيه قائدهم الذى كان قدوة حسنة لهم ، وكان مريضا ولكنه كان لا يقهر ، فكانت الغلبة للفرنسيين مرة أخرى ، ولو أنهم حققوها بثمن غال ، وهناك قاتل فى طليعة الجيش فيليب الثانى دى أورليان الوصي على عرش فرنسا فى المستقبل ، والذى لم يبلغ آنذاك الخامسة عشرة من العمر ، فأصيب بجرح ثم عاد فاستأنف القتال . وهناك أظهر لويس الشاب ، ودوق دى بوربون كونديه (حفيد كونديه الأكبر) الذى عرك الحرب فى ثلاثة حصارات ، وفرنسوا لويس دى بوربون وأمير كونتى ، ولويس جوزيف دوق فندوم (ابن حفيد هنرى الرابع) وكثير غيرهممن النبلاء الفرنسيين - أظهر هؤلاء جميعا من ضروب البسالة والشجاعة والشهامة ما جعلهم ، على الرغم من حياتهم المترفة الخاملة زمن السلم ، معبودات فى نظر شعبهم زمن الحرب ، ونماذج حتى لأعدائهم ، حتى لقد تساءل متعجبا أحد أسراهم وهو الكونت سالم : « أية أمة أنتم : أشد الاعداء بأسا ورهبة فى الحرب ، وأكرم الأصدقاء عند النصر (٢٧) » .

وبعد ذلك بعام واحد هزم نفس الجيش تحت أمرة نفس القائد ، وليم فىنيروندن بالقرب من بروكسل ، وهنا أيضا كان عدد القتلى ضخما - عشرون ألفا من الحلفاء وثمانية آلاف من الفرنسيين . ومهما

يكن من أمر الهزائم التى منى بها وليم ، فانه ظهـر على رأس جيش جديد وتوافرت لديه أموال جديدة . فاسترد نامور فى أغسطس ١٦٩٤ ، واكتشفت فرنسا أنها بعد خمس سنوات أريقت فيها الدماء ، عجزت عن غزو حتى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وانتصرت جيوش فرنسية أخرى فى أسبانيا ، ولكنها وجدت من العسـير عليهـا الاحتفاظ بثمـرات انتصاراتها أمام أعداء خرجوا عليها من كل جانب ، وقد اسـتكملوا ما ظهر لديهم من نقص فى العتاد والرجال ، وفى يوليه ١٦٩٤ أبحـر أسطول انجليزى لمهاجمة برست . وكان بعض الأصدقاء فى انجلترا (من بينهم كما يقال مالبرو نفسه (٢٨)) قد أبلغوا جيمس الثانى عن هذه الخطة سرا ، ومن ثم فان الفرنسيين الذين أنذروا بها من قبل ، نصبوا المدافع على الشاطىء عند برست ، وصدوا الانجليز عنها بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

وفى يناير ١٦٩٥ قضي مارشال دى لوكسمبرج نحبه ، فلم يعد مع لويس الرابع عشر الا قواد من الدرجة الثانية ، ان الحلفاء نادرا ما وطئت أقدامهم أرض فرنسا ، ، ولكن فرنسا نفسها كانت تحس بوطأة حرب من نوع جديد ، لم يكن يحارب فيها مرتزقة ماجوروز ، بل أمم بأسرها جندت لينافس بعضها بعضا فى القتـل والتنكيل . وحتى فى الوقت الذى كان الشعب الفرنسي يهتف لقواده وأبطاله ويهلل لهم ويحيى انتصاراتهم ، فانه ، وقد أثقلت الضرائب كاهله بشكل لم يسبق له مثيل ، قارب حد الاستنزاف جسدا وروحا . وانضم القحط الى الفقر والعوز فى ١٦٩٤ فكان ضغثا على ابالة . وفى أبرشية واحدة مات ٤٥٠ شخصا جوعا (٢٩) وكان الاقتصاد القومى على شفا الانهيار . وعمت الفوضي وسائل النقل ، حيث توقف تقريبا اصلاح الجسور والطرق أثناء الحرب . واختنقت التجارة الداخلية نتيجة المكوس التى كانت تجبى فى مائة موقـع عبر الأنهار أو فى البر . وكانت التجارة الخارجية قد شلت حركتها نتيجة لرسوم الصادرات والواردات . وكادت الآن تكون متعذرة تماما لوجود أساطيل الأعداء والقرصان . وساءت أحوال أولئك الذين كانوا يعتمدون على صيد الأسماك والتجارة على الشواطىء . ونضبت موارد مئات من المدن بما كانت تقدم من معونة ومؤونة للفرق العسكرية التى تنزل بها ، وهبط الفقر والقحط والمرض والحرب بعدد سكان فرنسا من نحو ٢٣

مليونا فى ١٦٧٠ الى نحو ١٩ مليونا فى ١٧٠٠ (٣٠) . وفقدت محافظة تورين ربع سكانها . ولم يبق من سكان عاصمتها تور الا ٣٣ ألفا من ٨٠ الفا كانوا يقطنونها فى عهد كولبير . وهاك نموذجا من تقارير المحافظين والحكام من مختلف أقاليم فرنسا فى أخريات القرن السابع عشر :

ان هذه المدينة التى كانت فى سابق أيامها غنية مزدهرة ، باتت الآن بلا صناعة ... وكان فى هذا الاقليم مصانع كثيرة ، ولكنها اليوم هجرت .. .. وكانت الأرض تدر فى سابق الأيام خيرا أكثر مما تفعل الآن ، ومنذ عشرين عاما كانت الزراعة أكثر ازدهارا بشكل غير محدود . وتناقص السكان والانتاج بمقدار الخمس فى السنين الثلاثين الاخيرة (٣١) ...

وفى ١٦٩٤ وجه فنيلون ، الذى سيصبح عما قريب رئيس أساقفة كمبراى ، الى لويس الرابع عشر خطابا غفلا من التوقيع ، يعد أبلغ تعبير عن الروح الفرنسية :

مولاى ، ان هذا الذى يسمح لنفسه أن يكتب اليك هذه الرسالة ، ليس له مصلحة دنيوية ، ولا يكتب بدافع اليأس ولا الطمع ، ولا بدافع الرغبة فى التدخل فى أمهات المسائل. انه يحبك دون أن يكون معروفا لديك ، ويرى الله فى شخصك .. .. انه لا يبالى بأى أذى يحتمله عن طيب خاطر ، فى سبيل ادراكك للحقائق الضرورية لخلاصك . ولا تدهش اذا وجه اليك حديثا شديد اللهجة ، فماذاك الا لأن الحق حر وقوى ، ولو أنك لم تالف سماعه . ويخطىء الذين تعودوا الملق والنفاق ، فيظنون الحق الصراح الخالص استياءا أو مرارة أو افراطا ومبالغا . وقد يكون خيانة للحق أن نحجبه عنك . والله خير شاهد على أن الذى يحدثك الآن ، انما يفعل ذلك بقلب عامر بالغيرة والحماسة وبالاجلال والثقة والاخلاص ، لكل ما فيه مصلحتك الحقيقية ...

ان كبار وزرائك ، طيلة الثلاثين عاما الماضية ، قلبوا المبادىء الأساسية والقواعد العامة فى الدولة ، حتى يرفعوا

من شانك ويزيدوا من سلطتك الى أقصى حد ، لأن هـذه السلطة كانت فى أيديهم . ولم يرتفع صـوت بالكلام عن الدولة وقوانينها ، بل تحدث الجميع عن الملك ووسـائل ارضائه . وزادوا فى مواردك وفى نفقاتك بغير حدود ، انهم رفعوك الى السماكين حتى تمحو ، كما يقولو ، آثار عظمة أسلافك مجتمعين . ولكنهم فى الواقع أفقروا فرنسا بأسرها ، ليمتعوا البلاط بترف رهيب لاشفاء منه . ان هؤلاء الوزراء أرادوا أن يرفعوك على أنقاض كل طبقة فى الدولة، وكانما يمكن أن تكون عظيما حين تدمر كل رعاياك الذين يعتمد عليهم مجدك وعظمتك . انك حقـا حريص على الاحتفاظ بسلطانك .. ولكن الواقع أن كل وزير سيد متصرف فى نطاق اختصاصه . وكانوا قساة متغطرسين ظالمين غلاظا ضعيفى الايمان . ولم يعرفوا فى الشئون الداخلية والخارجية الا مبدأ واحدا ، هو التهديد والوعيد ، أو القضاء على كل ما يقف فى طريقهـم وتدميره . لقد عودوك على أن تتلقى دوما أعظم المدح والثناء ، مما يقارب عبادة للأوثان تأليها لك ، مما كان يجدر بك أن تأباه سخطا وازدراء ، من أجل شرفك وكرامتك أنت . لقد جعلوا اسمك كريها بغيضـا . والامة الفرنسية بأسرها غير محتملة لدى الشعوب المجاورة. ولم يحتفظوا بأى من حلفائك القدامى ، لانهم لم يريدوا الا عبيدا أرقاء . وكانوا طيلة عشرين عاما ، سببا للحروب الدامية - التى لم يكن من دافع لها الا المجد والانتقـام .. ان كل التوسع الذى أتت به الحروب كان غصـبا وظلما . انك أردت دوما أن تملى الصلح وتفرض الشروط ، بدلا من تسوية الأمور فى شيء من الاعتدال . وهذا هـو السبب الذى من أجله لم يدم أى صـلح طويلا . ولم يكن أعداؤك الذين هزمتهم ولطختهم بالعار والخزى ، يفكرون الا فى شيء واحد ، هو أن ينهضوا من جديد ، ويوحدوا أنفسهم ضدك . هل فى هذا ما يدهش ؟ انك لم تتمهل قط فى نطاق شروط الصلح التى أمليتها فى زهو وخيلاء ، وفى زمن السلم قمت بحروب وفتوحات هائلة .. ومثل هذا التصرف

أثار كل أوربا ووحدها ضدك .

وفى نفس الوقت ، فان شعبك الذى كان يجدر بك أن تحبه حبك لأبنائك ، والذى ظل حتى هذه اللحظة مخلصا لك ، يموت جوعا . لقد تخلوا تقريبا عن زراعة الأرض . وهبط عدد السكان فى المدن والريف ، وانحطت الصناعة فلم تعد تفى بحاجيات العمال . وانهارت التجارة بأسرها . انك استنزفت نصف ثروة الأمة وحيويتها للقيام بفتوحات عقيمة فى الخارج والدفاع عنها . ان كل فرنسا عبارة عن مستشفى ضخم مقفر بائس تنقصه المؤن . والحكام مرهقون محتقرون ، وتتزايد الثورات الشعبية التى لم نعهدها منذ زمن طويل ، ولا يستثنى من ذلك باريس القريبة منك جدا . ولزام على موظفيها أن يحتملوا وقاحة العصاة والثائرين . وينثروا عليهم الاموال ليهدئوا من روعهم . لقد انحط بك الحال الى النتيجة المؤسفة المخزية ، وهى التراخى فى عقاب الفتن ، وبذلك تتفاقم ، أو قتل اناسي بلا شفقة ولا رحمة ، زرعت أنت فى قلوبهم اليأس ، حين اختطفت من أفواههم ، بفعل ضريبة الحرب ، الخبز الذى كدحوا للحصول عليه بعرق الجبين .. ..

لقد كان سيف الله مصلتا فوق رأسك منذ أمد طويل ، ولكنه سبحانه تمهل فى أن يهوى به عليك ، لأنه يرثى لأمير أحيط طيلة حياته بمتملقين أذلاء ، وكذلك لأن أعداءك هم أعداؤه .. .. انك لا تحب الله ، ولكنك تخافه فقط ، خوفا حقيرا من قبيل التقليد والمحاكاة . ولا تقوم ديانتك الا على الخرافات ، وعلى بعض طقوس تافهة سطحية ... انك لا تحب الا عظمتك ومكاسبك ، وترد كل شيء الى ذاتك ، وكانما أنت اله هذه الأرض ، وكانما خلقت كل الأشياء للتضحية بها من أجلك . ولكن الأمر على النقيض من ذلك ، فان الله قد أقامك فى هذه الدنيا من أجل شعبك .. ..

لقد راودنا يا مولاى الأمل فى أن يردك مجلسك عن الطريق غير المستقيم . ولكن لم يكن لديه القوة والجرأة . وكان من الجائز أن تستغل مدام دى مينتنون ، ومسيو بوفيلييه ، على الاقل ، الثقةالتى أوليتهما اياها ليمحضاكالنصح دون خداع ولا تضليل ، ولكن ضعفهما وجبنهما خزى وعار وسبة لنا أمام العالم أجمع . وربما تساءلت يا مولاى :

ماذا عساهما أن يفعلا .. والجواب بانه كان عليهما أن يرشداك الى أن تذل وتخشع بين يدى الله القوى القدير ، اذا أردت ألا يفرض عليك سبحانه وتعالى الذلة والهوان ، وأنه يجدر بك أن تطلب الصلح ، وتكفر بهذا الخشوع والتواضع عن العظمة التى جعلت منها معبودا لك . وأنه من أجل انقاذ الدولة ينبغى عليك بأسرع ما يمكن أن ترد الى أعدائك ما لا يحق لك أن تحتفظ به عدلا وانصافا .

مولاى : ان هذا الذى يبسط لك هذه الحقائق ، وهو أبعد ما يكون عن الوقوف فى وجه مصالحك ، مستعد أن يضحى بحياته فى سبيل أن يراك كما يريد الله لك أن تكون، ولن يكف عن الدعاء لك والصلاة من أجلك ●

ولم يجرؤ فنيلون على ارسال هذه الرسالة مباشرة الى الملك ، فرتب أمر تسليمها الى مدام دى مينتنون ، وربما كان يأمل فى أنها قد تتأثر بها ، حتى ولو لم تطلع لويس عليها ، باعتبار أن الرسالة تعكس حالة الشعب ، فتستخدم السيدة نفوذها من أجل الصلح والسلام، ولكنها حولتها الى رئيس الاساقفة دى نواى ، مع تعليق منها نصه : «لقد أحسن الكاتب ، ولكن مثل هذه الحقائق قد تهيج الملك أو تفت فى عضده .. وينبغى علينا أن نوجهه برفق فى الطريق الذى يجب أن

●عن الأصل الفرنسي فى كتاب Fellows and Torrey « عصر الاستنارة » ص ٩١ ــ ٩٥ . ونشرت الرسالة لأول مرة فى دالمبرت ١٧٨٧ . وبقيت مشكوكا فى صحتها حتى ١٨٢٥ . حين وجدت نسخة منها بخط فنيلون نفسه (٣٢) .

يسلكه (٣٣) » · وكانت قد كتبت فى ١٦٩٢ · « أن الملك يدرك ما يعانيه شعبه ، وهو يتلمس كل الوسائل للتخفيف عنه (٣٤) » ، ومما لا شك فيه أنها كانت تعرف ما كان يمكن أن يرد به الملك على فنيلون : ان مبادىء المسيحية لا يمكن أن تستخدم فى ادارة شئون الدول ، وأنه يمكن عدلا التضحية بجيل من الفرنسيين ، اذا كان فى هذه التضحية تأمين لمستقبل فرنسا ، بفضل حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها ، وان أية محاولة للوصول الى الصلح والسلام من أعداء متحالفين متعطشين الى الانتقام، قد تعرض فرنسا للغزو والتمزيق · واذ وقعت السيدة مينتنون فى صراع بين دين الاخوة وبين فلسفة الحرب ، فقد كثر ترددها على سان سير ، والتمست فى رفقة الراهبات الشابات السعادة التى افتقدتها فى الجاه والسلطان (٣٥) ·

وقبيل انتهاء الحرب قدم بييرلى بيزان ، حاكم بواجلبرت ، وقائد المنطقة المحيطة بروان ، الى وزير المالية بونتشارتران مشروعا لتخفيف الفوضي الاقتصادية والضائقة العامة : « أصغ الى فى شيء من الصبر ، انك ستحسبنى أول الامر مجنونا ، ثم تتبين فيما بعد انى استحق أن تعيرنى انتباهك ، وسترضيك آخر الأمر أفكارى » · ولكن بونتشارتران سخر منه وطرده · ونشر الحاكم الغاضب مخطوطته المرفوضة بعنوان « مشكلة فرنسا » (١٦٩٧) واستنكرت هذه الرسالة تعدد الضرائب التى يقع العبء الأكبر فيها على عاتق الفقراء ، ولا يصيب الاغنياء منها الا النزر اليسير ، واتهمت الكنيسة بابتزاز الكثير من الأرض والثروة ، وأنحى بأشد اللائمة على مديرى المال الذين تمتد أصابعهم البغيضة الى الضرائب التى يجمعونها للملك (٣٦) · وأضعف من حجة الرسالة ما جاء بها من مبالغات واحصاءات غير مدروسة ، وآراء خاطئة عن تاريخ الاقتصاد الفرنسي قبل كولبير ، ولكن زاد من قيمة الرسالة ما تضمنته من آراء ثاقبة ليست على استعداد لفهمها أية حكومة تعودت تقنين كل شيء وتحديده · وكان بواجلبرت من أوائل من رفضوا تضليل « المركنتلية » (نظام اقتصادى قائم على تنظيم حكومى استغلالى صارم) ، بأن المعادن النفيسة تشكل فى حد ذاتها ثروة ، وأن الغرض من التجارة هو تكديس الذهب · وكان من رأيه أن الثروة هى توافر السلع والقدرة على انتاجها ، وأن الثروة الاساسية هى الأرض ، وأن الفلاح عماد الاقتصاد ، وأن دمار هذا الفلاح يعنى دمار الجميع ، حيث

أن كل الطبقات فى النهاية ، مرتبطة بمجتمع ذى مصالح . وكل منتج مستهلك ، وأية فائدة يجنيها بوصفه منتجا لا بد عاجلا أو آجـلا أن يفقدها نتيجة لما يلحقه من خسارة باعتباره مستهلكا . وكان نظام كولبير فى التقنين والتحديد ، نظاما خاطئا ، لأنه عوق الانتاج وسد منافـذ التجارة . وأحكم أسلوب هو ترك الناس أحرارا ينتجـون ويبيعون ويشترون ، دون قيود فى نطاق الدولة ، دعوا الطموح وحب الكسب الطبيعيين فى الناس يعملان عملهما بحد أدنى من القيود المشروعة . فانهم حين يتحررون على هذا النحو ، سيبتدعو نأساليب ومشروعات واستخدامات وأدوات جديدة ، وسيضاعفون من خصـوبة الارض ، ومنتجات الصناعة ، ومدى التجارة ونشاطها ، وهذه الزيادة الناتجة فى الثروة ستوفر للدولة دخلا جديدا . ولا بد أن ينشأ عن هذا بعض المظالم والجور ، ولكن العملية الاقتصادية ستعالجها جميعا . وهنا نجد مرة أخرى « اتركه يعمل » قبل أن تبلغ حرية العمل الرأسمالى ذروتها فى عالم الغرب ، بقرنين من الزمان .

وقد يغتفر للملك ووزرائه ، اذا أحسوا أن الحرب ضد نصف أوربا لم تكن وقتا ملائما لمحاولة القيام بانقلاب اقتصادى بعيد المدى ، فزادوا من الضرائب بدلا من اصلاح الاقتصاد . وفى ١٦٩٥ فرضت ضريبـة الرءوس ، وكان المفروض أن تكون على كل ذكر فى فرنسا ، وبرروها بأنها مؤقتة ، ولكنها استمرت حتى ١٧٨٩ . وكان النبلاء ورجال الدين والحكام خاضعين لها من الوجهة النظرية ، ولكن من الوجهة العملية اشترى رجال الدين الاعفاء منها نظير اعانة متواضعة ، على حين وجد النبلاء والماليون ثغرات فى القانون ينفذون منها الى الاعفاء . ولجأوا الى كل الوسائل لابتزاز المال من الشعب . ونظم « اليانصيب » وبيعت المناصب ، وخفضت قيمة العملة ، وتوددوا الى الأغنياء واستحثوهم على عقد قروض للدولة . واحتفى الملك نفسه برجـل من أصـحاب المصارف ، هو صمويل برنارد ، وتقاضي منه الملايين بعد أن بهـرته هالة العظمة التى أحاط بها الملك نفسه ، وفقد وعيـه بسـحر الملك وفتنته ، وعلى الرغم من كل الضرائب ووسـائل الابتزاز ، قديمهـا وجديدها . بلغ مجمـوع دخـل الدولة فى ١٦٩٧ ، ٨١ مليـونا من الجنيهات ، على حين بلغت المصروفات ٢١٩ مليونا .

واعترف لويس آخر الامر بأن انتصاراته استنزفت حياة فرنسا . فأصدر أوامره الى سفرائه ومبعوثيه بمحاولة الوصول الى تفاهم مع أعدائه . وقد انقذته براعتهم ، الى حد ما . فاقنعوا دوق سافوى فى ١٦٩٦ بعقد صلح منفرد مع لويس . وسمح بتناثر الأنباء بأنه سيكف عن تاييده لآل ستيوارت ، ويعترف بوليم الثالث ملكا على انجلترا . وكان وليم نفسه يرى أن المال أغلى من الدماء ، وشكا من أن « فقره أمر لا يصدق » . واشتدت معارضة البرلمان لاعتماد الأموال اللازمة لقواته. وطالب ، تمهيدا لعقد الصلح ، بطرد جيمس الثانى من فرنسا ، ولكن لويس رفض . إلا أنه عرض أن يعيد تقريبا كل المدن والاراضي التى كسبتها قواته أثناء الحرب . وفى ٢٠ سبتمبر ١٦٩٧ أنهى صلح ريزويك (بالقرب من لاهاى) « حرب البالاتينات » مع انجلترا وهولنده وأسبانيا . واحتفظت فرنسا بستراسبورج وفرانش كرمتيه ، واستردت بوندشيرى فى الهند ، ونوفاسكوشيا فى أمريكا ، ولكن الرسوم الجمركية الفرنسية خفضت على تجارة هولندة ، وفى ٣٠ أكتوبر وقع صلح تكميلى مع الامبراطورية . وتوقع الامبراطور والملك كلاهما قرب وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا . وأدرك كل رجال السياسة فى أوربا تمام الادراك أن ما وقع لم يكن الا مجرد هدنة ، استعدادا لحرب أكبر كانت جائزة المنتصر فيها أغنى امبراطورية فى العالم .

٣ ـ المسألة الاسبانية ١٦٩٨ ـ ١٧٠٠

دنا أجل شارل الثانى دون عقب ، فمن ذا الذى يرث ممتلكاته التى تمتد من الفيليبينات عبر ايطاليا وصقلية الى شمال أمريكا وجنوبها ؟ . لقد طالب بها لويس ، لا باعتباره ابن كبرى بنات فيليب الثالث ملك أسبانيا فحسب ، بل كذلك بمقتضي حق زوجته المتوفاة مارى تريز كبرى بنات فيليب الرابع . والحق كل الحق أن مارى تريز تخلت ، عند زواجها ، عن أى حق لها فى عرش أسبانيا . ولكن هذا التخلى كان مشروطا بأن تدفع الحكومة الاسبانية لفرنسا صداقا قدره خمسمائة الف كراون ذهبا . ولكن أسبانيا لم تدفع شيئا من هذا الصداق ، لأنها كانت مفلسة .

وكان للامبراطور ليوبولد مزاعم مضادة : فهو ابن ماريا آنا صغرى بنات فيليب الثالث . وكان قد تزوج فى ١٦٦٦ من مرجريت تريزا

صغرى بنات فيليب الرابع ، ولم تتخل أى من هاتين السيدتين عن حقوقها فى احتمال ارتقاء عرش أسبانيا . ولما كان الاتراك يزعجون ليوبولد دائما بغاراتهم المتكررة ، فانه رغبة منه فى الابقاء على السلام مع فرنسا ، عمد الى حل وسط بالنسبة لمطالبه ، بتوقيع معاهدة سرية مع لويس الرابع عشر ، (فى ١٩ يناير ١٦٦٨) ، نص فيهـا على التقسيم النهائى للامبراطورية الاسبانية . ويقـول مؤرخ انجليزى انه بمقتضى هذه المعاهدة « سلم فعلا بقوة الحجة التى تذرع بهـا لويس الرابع عشر ببطلان تخلى ملكة فرنسا عن حقوقها فى عرش أسبانيا (٣٧) » ولما تزوج ليوبولد للمرة الثانية ، وأنجب له هذا الزواج ابنا ثانيا ، حدد مطالبه ، ولكنه عرض أن يتنازل عنها للارشيدوق كارل الجديد .

ونظرت انجلترا والمقاطعات المتحدة والولايات الألمانية بعـين الفزع الى احتمال أن تؤول مملكة أسبانيا المترامية الأطراف الى فرنسا أو الى النمسا ، وفى كلتا الحالتين اخلال بتوازن القوى ، فلو أن لويس ربح فى هذه الجولة لسيطر على أوربا وعرض البروتستانتية للخطر ، ولو أنها كانت من نصيب ليوبولد ، لهدد الامبراطور ، بحكم استيلائه على الأراضي الوطيئة الاسبانية ، جمهورية هولندة ، وزعزع استقلال الولايات الالمانية . وتدخلت المصالح الاقتصـادية الى جانب مصـالح الأسرات الحاكمة : فالمصدرون الانجليز والهولنديون كانوا يزودون معظم أسواق أسبانيا ومستعمراتها بالمنتجات الصناعية ، ويحصلون منها فى مقابل ذلك على كميات هائلةمن الذهب والفضة ، فكانوا يكرهون أن تصبح هذه التجارة احتكارا لفرنسا . وذكرت الحكومة البريطانيـة فى ١٧١٦ « أن الاحتفاظ بالتجارة بين مملكة بريطانيا العظمى وأسبانيا كان من أهم الدوافع التى حفزت ملكينا السابقين الى دخول الحـرب الأخيرة الطويلة الأجل الباهظة التكاليف (٣٨) » .

ورغبة من وليم الثالث فى ارضاء التجار فى موطنـه الاول وفى البلاد التى آلت اليه ، وفى المحافظة على توازن القوى فى القارة ، اقترح على لويس أن تتخلى فرنسا عن دعواها ، وتتفق مع انجلترا على ترك أسبانيا الأولى » . ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا . وأملا فى صون أمير بافاريا الناخب ، حفيد ليوبولد ، وعلى أن يحصل الدوفين ولى عهد فرنسا على ثغور تسكانيا وايطاليا جنوبى الولايات البابوية . على حين

يمكن التسكين من روع الأرشيدوق كارل وارضاؤه بدوقية ميلان • وقبل لويس الاقتراح ، ووقع فى ١١ أكتوبر ١٦٩٨ مع وليم « معاهدة تقسيم أسبانيا الأولى » • ورفض ليوبولد هذا المشروع غاضبا • وأملا فى صون الامبراطورية الأسبانية من هذه التجزئة والتفتيت ، أعد شارل الثانى فى ١٤ نوفمبر ١٦٩٨ وصيته التى جعل أمير بافاريا الناخب بمقتضاها وريثه الوحيد • ولكن موت الأمير فى ٥ فبراير أحدث ارتباكا وتعقيدا فى الموقف •

وعرض لويس على وليم تقسيما جديدا : يحصل ولى عهد فرنسا بمقتضاه على ثغور تسكانيا ، وايطاليا جنوبى الولايات البابوية ، ودوقية اللورين ، ويعوض دوق اللورين بميلان ، ويؤول باقى الامبراطورية الأسبانية ، بما فى ذلك أمريكا والأراضي الوطيئة الأسبانية ، الى الأرشيدوق كارل ، ووقع لويس ووليم اتفاقية التقسيم الثانية فى ١١ يونيه ١٦٩٩ ، ووافقت عليها المقاطعات المتحدة • ولكن شارل الثانى احتج على أى تفتيت لممتلكاته ، كما ان الامبراطور ، أملا منه فى الحصول على كل شيء لابنه ، أيد موقف أسبانيا ورفض الموافقة على التقسيم ، على أن شارل ، باعتباره من آل هيسبرج ، كان ميالا الى ترك كل شيء للأرشيدوق ، وبوصفه أسبانيا ، على أية حال ، كان يكره النمساويين ، وباعتباره لاتينيا كان يؤثر الفرنسيين ، ومذ كان شارل كاثوليكيا غيورا ، فانه التمس النصح والمشورة من البابا • فاجاب انوسنت الثانى عشر فى ٢٧ سبتمبر ١٧٠٠ بأن خير طريقة هى التوصية بكل الامبراطورية الأسبانية لأمير بوربونى شريطة تخليه عن أى حق فى عرش فرنسا ، وبذلك تحتفظ أسبانيا بوحدتها •وواضح أن الدبلوماسيين الفرنسيين كانوا يفوقون النمساويين حيلة ودهاء ، فى مدريد وفى رومه على حد سواء • ونفر الرأى العام فى أسبانيا من غطرسة مليكتهم الألمانية ، فوافق على مشروع البابا ، وذكر السفير الانجليزى فى مدريد « ان الاتجاه العام فرنسي تماما (٣٩) » • وفى أول أكتوبر وقع شارل الوصية المشئومة ، التى أوصي فيها بكل أسبانيا وممتلكاتها لفيليب ذى السبعة عشر ربيعا ، دوق أنجو ، الابن الثانى للدوفين ، شريطة ألا يجتمع تاجا فرنسا وأسبانيا لملك واحد ، وقضي شارل نحبه فى أول نوفمبر •

ولما ترامت أنباء هذه الوصية الى باريس ، سر بها لويس ، ولكنه

كان مترددا • فقد أدرك أن انتقال أسبانيا من أيدى آل هبسبرج الى أسرة البوربون ، لابد أن يلقى معارضة شديدة من الامبراطور ، وأن انجلترا وهولنده لابد أن تنضما الى صف المعارضة • وأثنى أحد المؤرخين الألمان على هذه الالتفاته من جانب لويس نحو الاهداف السلمية :

قد لا يكون من الانصاف القول بان لويس الرابع عقد العزم منذ البداية على نقض معاهدة التقسيم ، بمجرد الحصول على وصية ملائمة لأسرته ، وحتى وهو على يقين من مثل هذه الوصية ، وكان شارل لا يزال على قيد الحياة ، أمر لويس سفيره فى هولنده ، أن يؤكد لحاكمها أنه يعتزم التمسك بالتزاماته ، ولا يقبل أية عروض تقدم له • وبالاضافة الى هذا ، واصل مساعيه للحصول على انضمام بلاط فيينا الى معاهدة التقسيم (٤٠) •

وفى ٦ أكتوبر أرسل لويس نداءا عاجلا الى الامبراطور ليقبل معاهدة التقسيم الثانية (٤١) • ورفض ليوبولد • ومن ثم اعتبر لويس أن المعاهدة لاغية •

وفور وفاة شارل ، أوفد مجلس الوصاية الأسبانى الى باريس رسولا ليبلغ الملك لويس أن حفيده سيكون ملكا على أسبانيا بمجرد قدومه وتأديته اليمين بمراعاة قوانين المملكة • وصدرت التعليمات الى السفير الأسبانى فى باريس بأنه فى حالة أى رفض من جانب فرنسا ، عليه أن يأمر الرسول بالاسراع الى فيينا ليقدم نفس العرض الى الأرشيدوق (٤٢) • وينبغى ألا تجزأ الامبراطورية الأسبانية على أية حال • وفى ٩ نوفمبر دعا لويس الأمير ولى العهد ، ومستشاره بونتشارتران ودوق دى بوفيلييه ومركيز دى تورسي وزير الخارجية الى اجتماع فى جناح مدام دى مينتنون ، وسألهم الرأى والمشورة • ورأى بوفيلييه أن يرفض العرض الأسبانى ، لأنه يؤدى قطعا الى الحرب مع الامبراطورية وانجلترا والمقاطعات المتحدة ، وذكر الملك بأن فرنسا ليست فى ظروف تهيىء لها مواجهة مثل هذا الائتلاف ، أما تورسي فقد دافع عن فكرة القبول ، حيث اعتقد بأن الحرب لا محالة واقعة على

أية حال ، ولابد أن الامبراطور ليوبولد سيعارض معاهدة التقسيم والوصية كلتيهما . هذا فضلا عن أنه اذا رفض الملك لويس العرض الاسبانى ، فانه من المؤكد أن يرحب به الامبراطور ، وتطوق فرنسا من جديد بنفس النطاق الذى كان مضروبا حولها ـ أسبانيا ، شمال ايطاليا ، النمسا ، الأراضي الوطيئة الأسبانية والذى كلف فرنسا طيلة المائتى عام الأخيرة كثيرا من الدماء لتحطيمه . خير لنا أن ندخل فى حرب بسبب عادل ـ الوصية ـ من أن نحاول فرض تقسيم أسبانيا بالقوة ضد رغبة حكومتها وشعبها (٤٣) .

وبعد ثلاثة أيام قضوها فى مزيد من المشاورات والمداولات ، أعلن لويس الى المبعوثين قبوله الوصية . وفى ١٦ نوفمبر ١٧٠٠ قدم دوق أنجو الى الحاشية المجتمعة فى فرساى قائلا : « أيها الســـادة ، انكم ترون هنا ملك أسبانيا . ان النسب الذى تحدر منه دعاه الى حمل ذاك التاج ، بهذا أمر الملك الراحل فى وصيته ، وهذا ما رغبت فيه الامة الأسبانية بأسرها ، وتوسلت الىّ توسلا جديا أن أقبـله . وتلك ارادة الله ، حققها فى غبطة وسرور ، ثم أضاف موجها الحديث الى الملك الشاب « كن اسبانيا » صالحا ـ فهذا هو الآن واجبك الأول ، ولـكن تذكر أنك ولدت فرنسيا ، وحافظ على الوحدة بين الأمتين ، فهذا هو الطريق لاسعادهما ، وللمحافظة على السلام فى أوربا (٤٤) » ونادى مجلس الوصاية الاسبانى بفيليب ملكا فى مدريد ، وأسرعت كل قطاعات أسبانيا وممتلكاتها باعلان موافقتها ، واعترفت الحكومات ، الواحدة تلو الأخرى ، بالملك الجديد : سافوى ، الدنمرك ، البرتغال ، المقاطعات المتحدة ، انجلترا ، وعدة ولايات ايطالية وألمانية ، بل ان ناخب بافاريا الذى ظن ان الامبراطور دس السم لابنه ـ كان من أول الأمـراء الذين قدموا اعترافهم . وبدا أن الأزمة قد تم التغلب عليها ، وان العداوة التى استعر أوارها طيلة قرن من الزمان بين فرنسا وأسبانيا قد خمدت بطريقة سلمية ، وجثا السفير الأسبانى فى فرساى بين يدى مليكه الجديد اجلالا وولاء ، ونطق بعبارته المشهورة « لا برانس بعد اليوم (٤٥) » .

٤ ـ الحلف الأعظم : ١٧٠١ ـ ١٧٠٢

وكتب لورد تشستر فيلد « ان أسبانيا استقبلت فى هدوء وابتهاج فيليب الخامس الذى استهل عهد البوربون الاسبان ، واعترفت به ملكا

معظم الدول التى انضمت فيما بعد فى تحالف لخلعه (٤٦) » ولكن الامبرامور ليوبولد أحس بأن هذا الاتحاد الفعلى بين فرنسا وأسبانيا ، لابد أن يكون ، اذا تهيأت له أسباب البقاء والاستمرار ، كارثة على أسرة هبسبرج التى ألفت منذ أمد طويل أن تحكم الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة والامبراطورية الأسبانية كلتيهما . وعكس الكتـاب اســتياءه فأهاجو الرأى العام فى النمسا وعبروا عنه ، مرددين أن شارل الثانى لم يكن فى كامل قواه العقلية حين أوصي باسبانيا لعدوتها القديمـــة ، وزعموا أن تشريح جثة الملك أظهر حقا أن قلبه ومخه كانا مصابين بشكل خطير ، ومن ثم تكون وصيته باطلة لاغية ، وتكون ممتلكات اسبانيا تابعة للامبراطور ليوبولد ، بمقتضي حقوق أمه وزوجته التى لم يحدث اى تخل أو تنازل عنها . واستحث ليوبولد حليفيه السابقين هولنـــده وانجلترا الى انكار أو سحب اعترافهما بفيليب الخامس . حتى ولو كان هذا يعنى حربا .

وكان زعيم المقاطعات المتحدة فى هذا الوقت أنطونيوس هينسيوس الذى كان قد اختير حاكما بعد رحيل وليم الى انجلترا ، وكان فى سابق أيامه مبعوثا هولنديا الى فرنسا ، وهدده لوفوا بالقاء القبض عليه ، خرقا للحصانة الدبلوماسية ، ولم ينس قط هذه الاساءة ، وأقام الآن ، وقــد بلغ التاسعة والخمسين ، فى دار متواضعة فى لاهاى ، وأحب المكتب ، وسار يوميا على قدميه الى مكتبه ، واشتغل عشر ساعات فى اليـوم ، وكان بمثابة تحد حى صارخ من جانب البساطة البرجوازية والحكومية الجمهورية للأرستقراطيين المترفين والملوك المستبدين . وفى نوفمـــبر ١٧٠٠ ، وبتوجيه من الجمعية الوطنية الهولندية ، أرسل أنطونيوس هذا الى الملك لويس الرابع عشر مذكرة يرجوه فيها رفض وصية شارل الثانى باعتبارها ضارة أبلغ الضرر بالامبراطور ، والعودة الى سياسة التقسيم. وفى ٤ ديسمبر ١٧٠٠ أجاب لويس بأن الذى جعل من قبوله الوصية أمرا ضروريا حتميا هو تكرار رفض الامبراطور لأى مشروع للتقسيم ، وتأكد فرنسا من أن الامبراطور سيقبل العرض الأسبانى اذا هى رفضته .

وزادت تصرفات لويس من خوف أوربا من قوة فرنسا . ففى أول فبراير ١٧٠١ حمل برلمان باريس على تسجيل مرسوم ملكى ينص على المحافظة على الحقوق التى يمكن أن تنشأ لفيليب وأعقابه فى تاج فرنسا .

وهذا لا يعنى بالضرورة أن لويس تطلع الى وحدة فرنسا وأسبانيا تحت حكم ملك واحد ، وربما قصد به تامين نظام لارتقاء عرش فرنسا فى حالة وفاة الورثة السابقين ، ففى مثل الضرورة الطارئة يمكن لفيليب أن يتخلى عن تاج أسبانيا ليرتقى العرش فى وطنه الأول ، وبذلك يستمر التاج فى أسرة البوربون دون انقطاع . ولكن اجراء آخر اتخذه الملك برر أن يفسر عمله تفسيرا غير ودى . ذلك انه كانت هناك معاهدة مع أسبانيا تثبت حق الهولنديين فى حماية هولندة ضد الغزو ، بالاحتفاظ بحاميات مسلحة فى بعض « مدن الحدود » فى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وفى فبراير ، بناء على تفاهم بين لويس وناخب بافاريا الذى تولى حكم الاراضي الوطيئة الاسبانية آنذاك ، دخلت القوات الفرنسية مدن الحدود هذه ، وأمرت الحاميات الهولندية بمغادرتها . وأبلغ السفير الأسبانى فى لاهـاى الجمعية الوطنية بان هذا العمل تم بناء على رغبة الحكومة الأسبانية . واحتجت الجمعية الوطنية ثم استسلمت ، ولكن هينسيوس اتفق مع وليم الثالث على ضرورة تجديد الحلف الأعظم ضد فرنسا .

ان وليم ارتكز فى موقفه على أن معاهدة التقسيم الثانية كانت اتفاقا بينه وبين لويس ، وأنها ظلت سارية المفعول سواء وقعها أو لم يوقعها ليوبولد ، وأن قبول فرنسا للوصية الأسبانية كان نقضا لهـذا الميثاق القانونى المقدس . وكان البرلمان على أية حال يكره استئناف النزاع الباهظ التكاليف مع فرنسا . وعندما أبلغت الحكومة الفرنسية انجلترا بنبأ ارتقاء فيليب الخامس عرش أسبانيا ، راض وليم نفسه على تهنئة « أخيه العزيز ملك أسبانيا بهذه المناسبة السعيدة ، مناسبة ارتقائه العرش (٤٧) » . وبهذا قدم اعترافا رسميا بنظـام الحـكم الجديد (١٧ أبريل ١٧٠١ (٤٨)) . ولكن عندما تجلت النتائج الخطيرة للاتحاد الفرنسي الاسبانى للعيان بشكل أوضح ، حيث أن احتلال القوات الفرنسية للفلاندرز جعلت لويس قاب قوسين أو أدنى من هولنده ، وأن امتلاكه لثغر أنتورب مكنه من التحكم فى التجـارة الانجليزية التى تستخدم هذا الثغر - فان الانجليز بدأوا يدركون أن المشـكلة لم تكن مجرد مشكلة بين البوربون وآل هبسبرج ، ولا هى مشكلة كاثوليكية تستعيد نشاطها وبروتستانتية يتهددها الخطر ، ولكنها قضـية الصراع بين انجلترا وفرنسا حول السيادة على البحـار ، والسـيطرة عـلى المستعمرات الاوربية وعلى تجارة العالم ، وفى يونيه ١٧٠١ ، ودون

اعلان الحرب ، نعهد البرلمان بتأييد وليم فى أية أحلاف قد يدخل فيها بهدف الحد من سيطرة فرنسا المتزايدة . وتحقيقا لهذا الهدف اقر تجنيد ثلاثين ألفا من جنود البحر واعتمد مبلغ مليونين وسبعمائة ألف جنيه . واستجابة لنداء من الجمعية الوطنية الهولندية أمر وليم عشرين سفينة وعشرة آلاف جندى بالابحار الى هولنده . وفى يوليه عبر هو نفسه البحر الى لاهاى .

وكان الامبراطور الذى يطالب باراضي الامبراطورية الاسبانية بأسرها ، بالفعل فى حرب . وفى مايو ١٧٠١ أرسل جيشا مكونا من ستة آلاف من الفرسان وستة عشر ألفا من المشاة للاستيلاء على ممتلكات أسبانيا فى شمال ايطاليا ، وعهد بقيادة هذا الجيش الى أمير شاب ، قدر له أن ينافس مارلبرو نفسه باعتباره قائدا - هو يوجين سافوى . وكان جده شارل أمانويل دوق سافوى ، أما والده الأمير يوجين موريس فقد استقر به المقام فى فرنسا بلقب كونت دى سواسون . أما والدته فهى أولمب مانسينى احدى بنات أخى مازاران الفاتنات . وطلب يوجين نفسه فى ١٦٨٣ ، وهو فى سن العشرين ، من لويس الرابع عشر أن يوليه قيادة فوج من الجنود ، فأبى عليه ذلك نظرا لصغر سنه ، فهجر فرنسا والتحق بخدمة الامبراطور ، واشترك مع سوبسكى فى تخليص فيينا وتعقب الأتراك ، وجرح فى الاستيلاء على بودا ، وجرح ثانية فى حصار بلجراد ، وقاد القوات الامبراطورية الى الانتصار الحاسم على الاتراك فى سنتا ١٦٩٧ ، وتحلى يوجين بكل المزايا اللهم الا جمال الوجه والجسم . ووصفه فرنسي عدو له بأنه « هذا الرجل القبيح الضئيل الجسم الذى ينقلب أنفه فوق شفة عالية قصيرة الى حد أنها لا تغطى أسنانه (٤٩) » ، على حين تبين فيه فولتير « صفات البطل فى الحرب، ومناقب الرجل العظيم زمن السلم ، وذهنا مشربا بروح العدل والانصاف والاعتداد بالنفس ، وشجاعة لا تلين ولا تهن فى قيادة الجيوش (٥٠)». والآن وهو فى الثامنة والثلاثين قاد قواته فوق الألب ، وتفوق على الكتائب الفرنسية هناك ، ومع توالى انتصاراته على كاتينا وفيلروا ، كسب الامبراطور كل دوقية مانتوا تقريبا (سبتمبر ١٧٠١) ، قبل اعلان حرب الوراثة الاسبانية بزمن طويل .

وفى الوقت عينه كانت الدبلوماسية قد مهدت لعشر سنين من

المذابح . ففى اغسطس منحت أسبانيا فرنسا « عقدا » يدر ربحا وفيرا، لتزويد المستعمرات الأسبانية فى إمريكا بالعبيد . وواضح أن فرنسا قصدت أن تستخدم نفوذها الطاغى فى أسبانيا ، للاستيلاء على تجارة ممتلكاتها فى قارات ثلاث . وفى ٧ سبتمبر وقع مندوبو انجلترا والمقاطعات المتحدة والامبراطورية معاهدة لاهاى بتكوين حلف أعظم ثان . ونصت المادة الثانية منها على أنه من الضرورى لاقرار السلام فى أوربا أن تراعى حقوق الامبراطور فى الوراثة الاسبانية ، وأن تكون انجلترا والمقاطعات المتحدة آمنتين فى ممتلكاتهما وفى تجولهما فى البحار وفى تجارتهما ، ووعدت المعاهدة الامبراطور بممتلكات أسبانيا فى شمال ايطاليا والأراضي الوطيئة ، ولكنها تركت الباب مفتوحا أمام احتمال الاعتراف بفيليب الخامس ملكا على أسبانيا ، وتعهدت الأطراف المتعاقدة بعدم القيام باية مفاوضات منفصلة ، أو توقيع أى صلح منفرد، والحيلولة دون توحيد تاجى فرنسا وأسبانيا . واعتراض طريق التجارة الفرنسية مع المستعمرات الأسبانية والدفاع عن أية فتوحات تقوم بهما انجلترا والمقاطعات المتحدة فى الانديز الاسبانية والمحافظة عليها (٥١). ومنحت فرنسا مهلة مدتها شهران للموافقة على هذه الشروط ، فاذا لم تتم الموافقة ، كان للدول الموقعة أن تعلن الحرب .

وقابل لويس هذا التحدى بكبرياء شديدة متميزة ، فأعلن أنه مرتبط رباطا شرفيا بالدفاع عن وصية شارل الثانى وتصميم الشعب الأسبانى على عدم تمزيق امبراطوريته ، ولثقته التامة فى قوة قضيته وعدالتها ، ظهر الى جانب سرير جيمس الثانى الذى كان يعانى سكرات الموت ، وواسي الملك المحتضر بوعده أنه سيعترف بجيمس الثالث ملكا على انجلترا ويسانده . ولما قضي الوالد نحبه حافظ لويس على عهده ، ولسنا ندرى اذا كان هذا « عملا جليلا يتسم بالشهامة » ، (كما قال عنه مؤرخ انجليزى شهم (٥٢)) أو أنه استسلام لتوسلات الارملة الباكية (٥٣) ، أو أنه خطة عسكرية لتقسيم انجلترا الى معسكرين : فريق يناصر وليم ، وفريق يناصر جيمس ، ويدعو الى عودة آل ستيوارت الى العرش من جديد . وعلى أية حال كانت حرب الوراثة الاسبانية حربا للوراثة الانجليزية أيضا ، بل حرب الكيان الانجليزى كله ، فان عودة ملك من أسرة ستيوارت قد يعنى استئناف المحاولة لتحويل انجلترا الى

الكاثوليكية ، وعلى الرغم من أن فرنسا أحست بأن تصرف الحلفاء نقض الاعتراف الذى كانت قد أعلنته كل دولة بفيليب الخامس ملكا على أسبانيا . فان معظم انجلترا أحست بأن لويس قد نقض معاهدة رزويك التى كان قد اعترف فيها بوليم الثالث ملكا على انجلترا ، واستنكرت الاعتراف بجيمس الثالث على أنه تدخل وقح فى شئون انجلترا . وأضيفت الى شروط الحلف الأعظم فقرة تلزم الموقعين بالا يعقدوا صلحا مع فرنسا ، حتى يتلقى وليم ترضية عن الاساءة التى الحقها به تصرف لويس . وفى يناير ١٧٠٢ جرد البرلمان جيمس الثالث من حقوقه المدنية - أى أعلن أنه خائن خارج على القانون . وفى نفس الوقت أقر باغلبية صوت واحد ، « قانون القسم » الذى يتطلب من كل انجليزى أن يبرأ من « المطالب بالعرش » ويقسم يمين الولاء لوليم الثالث وورثته . وفى ٨ مارس ١٧٠٢ توفى وليم الثالث فى سن الثانية والخمسين . فى وقت مبكر جدا لم يستطع أن يتبين فيه أنه قام بتوثيق عرى تحالف قد يحدد خريطة أوربا لمدة نصف قرن . وفى ١٥ مايو أعلن الامبراطور والمقاطعات المتحدة وبرلمان انجلترا الحرب على فرنسا فى وقت واحد .

٥ - حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠٢ - ١٧١٣

كانت كل أوربا غربى بولنده والامبراطورية العثمانية ، من الناحية العملية ، مشغولة بهذه الحرب . وانضم الى التحالف الدنمرك وبروسيا وهانوفر وأسقفية مونستر ، وناخبا مينز والبالاتينات وبعض الولايات الألمانية الصغيرة . وانضم الى هؤلاء فى ١٧٠٣ سافوى والبرتغال ، وحشدوا جميعا ٢٥٠ ألف جندى ، وجمعوا قوة بحرية تفوق كثيرا القوة البحرية الفرنسية عددا وعتادا وقيادة . وكان لفرنسا آنئذ مائتا ألف جندى ، ولكن هذه القوات كانت موزعة على جبهات مختلفة فى اقليم الراين وايطاليا وأسبانيا . وكان الحلفاء الوحيدون لها أسبانيا وبافاريا وكولون ، ثم سافوى لمدة عام واحد . وكانت أسبانيا عبئا عليها ، تريد من الجيوش الفرنسية أن تدافع عنها ، كما كانت المستعمرات الأسبانية تحت رحمة الاساطيل الهولندية والانجليزية .

ويجدر بنا الا نضل فى متاهات اللعبة الملكية ، الشطرنج البشرى،

التى أعقبت ذلك ، وكانت لعبة دامية الى حد لم يسبق له مثيل تقريبا ، والآن جاءت حملات مارلبرو ويوجين سافوى البارعة المثيرة الملطخة بالدماء ٠ وربما لم تجتمع منذ عهد قيصر عبقرية الحرب وفن الدبلوماسية مثل ما اجتمعا فى مارلبرو : كان بارعا فى استراتيجية تخطيط العمليات وتحريك الجيوش ، وفى أساليب استخدام المشاة والخيالة والمدفعية ، مع سرعة فى تقدير الموقف واتخاذ القرار ، وفق متطلبات المعركة ، ومع ذلك فهو أيضا صبور لبق فى التعامل مع الحكومات من ورائه ، والشخصيات من حوله ، حتى مع الاعداء الذين اعتبروه رجل دولة يدرك الحقائق ، ذا وزن وقوة ونفوذ ٠ وكان فى بعض الأحيان قاسيا لا يرحم ، وفى أغلب الاحيان مجرداً من المبادىء الخلقية والانسانية ٠ وسفك من دماء جنوده أى قدر لازم لتحقيق النجاح ، واتصل بجيمس الثانى وجيمس الثالث ليضمن لنفسه نصيرا باسما مشرقا اذا عاد آل ستيوارت الى الحكم ٠ ولكنه كان منظم وصانع النصر ٠

وحيث أدرك لويس الرابع عشر أن كل عظمة عصره معلقة فى كفة الميزان ، وأن النزاع حول أسبانيا بات صراعا من أجل قارات ، فانه هاب بفرنسا أن تبعث اليه بأبنائها وذهبها ٠ وما وافى عام ١٧٠٤ حتى كان لديه ٤٥٠ ألف رجل مسلحين ــ قدر ما لدى أعدائه مجتمعين (٥٤)٠ وأملا منه فى التبكير بحسم هذا الصراع الباهظ التكاليف ، أصدر أوامره الى قواته الرئيسية بالتقدم عبر بافاريا الصديقة ، ومهاجمة قلعة العدو الأخيرة ، ألا وهى فيينا التى عجزت الحشود التركية نفسها عن الاستيلاء عليها ٠ وانشغلت القوات الامبراطورية فى الشرق بعصيان مسلح وقع فى المجر ، وتركت عاصمتها مجردة من وسائل الدفاع تقريبا ٠ وعلى حين كان مفروضا أن يضيق جيش فرنسي بقيادة فيلروا الخناق على مارلبرو فى الأراضي الوطيئة ، فان القوات الفرنسية بقيادة مارسان وتللارد انضمت الى قوات ناخب بافاريا ، وأسرعت فى التقدم الى النمسا ٠ ومرة أخرى هرب الامبراطور من فيينا ، كما حدث فى ١٦٨٣ ، ادراكا منه بأن وقوعه فى أيدى الاعداء لابد أن يكون كارثة على موقف الحلفاء٠

وفى هذه الأزمة ، وعلى الرغم من توسلات الجمعية الوطنية الهولندية ، ولكن بموافقة سرية من جانب هينسيوس ، قرر مارلبرو أن يغامر بوقوع هولندة فى يد فيلروا ، ويجد السير ليلا ونهارا من بحر

الشمال الى الدانوب (مايو - يونيه ١٧٠٤) لينقذ فيينا . وتظاهر بأنه يسعى لعبور الموزل ، فسار جنوبا فى محاذاة النهر ، مغـريا فيلروا بحركة موازية على الجانب الآخر . وفجاة عند كوبلنز انعطف شرقا وعبر الراين على جسر عائم ، وسار الى مينز ، وعبر المين الى هيدلبرج، وعبر نهر نكر الى راستاد ، فأحدث الآن نقاط اتصال هامة مع الامدادات القادمة من هولنده ، ومع جيش امبراطورى بقيادة يوجين سافوى ، ومع جيش آخر بقيادة الحاكم العسكرى لمنطقة بادن بادن - لويس وليم الأول - ودهش الفرنسيون والبافاريون ليجدوا مارلبرو بعيدا عن المواقع التى كان من المتوقع أن يطبق عليه فيلروا فيها . وجمع مارسان وتللارد وناخب بافاريا ، ٣٥ ألفا من المشاة و ١٨ ألفا من الفرسان بين لوتزنجين وبلنهيم، على الضفة اليسرى للدانوب . وهناك فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ اشتبك معهم مارلبرو ويوجين بثلاثة وثلاثين ألفا من المشاة وتسعة وعشرين ألفا من الخيالة فيما تحاول فرنسا أن تنسي فيه معركة هوستاد وما تحتفـــل به انجلترا باعتباره النصر فى بلنهيم . واخترقت خيالة مارلبرو المتفوقة قلب القوات الفرنسية وساقت جيش تللارد المنهزم الى بلنهيم ، حيث استسلم الاثنى عشر ألفا الباقون منه على قيد الحياة ، وأسر تللارد نفسه . ثم أسرع فرسان مارلبرو لنجدة يوجين ، وكان فى مأزق ، الى اليمـــين ، وعاونوه حتى أجبر مارسان على التقهقر بانتظام ، وكانت الخسارة فى الأرواح جسيمة ، اثنى عشر ألفا من الحلفاء ، و ١٤ ألفا من الفرنسيين والبافاريين . وحطم استسلام سبع وعشرين كتيبة من المشاة واثنتى عشرة سرية من الخيالة سمعة القوات المسلحة الفرنسية . وفر ناخب بافاريا الى بروكسل . واحتل الجيش الامبراطورى بافاريا ، وأخلى نحو ثلثمائة ميل مربع تقريبا من الأرض من القوات الفرنسية ، وعاد ليوبولد فى أمان الى عاصمته .

وفى ٤ أغسطس سجل اسطول انجليزى هولندى يوما مشهودا آخر فى التاريخ باحتلاله صخرة جبل طارق المقفرة . وقد حولها الانجليز الى قلعة ضمنت لهم السيادة على البحر المتوسط لمدة قرنين من الزمان واستمرت الحرب تسع سنوات أخرى ، دون أن يفطن أحـــد الى أن هذين الانتصارين قد حددا مصيرها . وفى ٩ أكتوبر ١٧٠٥ استولى

أسطول انجليزى علي برشلونة ، وساند أحد جيوش الحلفاء ثورة قامت في قطالونيا ضد فيليب الخامس ، وأقام الارشـيدوق كارل فى مدريد ملكا تحت اسم شارل الثالث (٢٥ يونيه ١٧٠٦) . ولكن منظر النمساويين والانجليز يحكمون البلاد أيقظ الاسبان من سباتهم الروحى ، بل ان رجال الدين انفسهم حرضوهم علي المقاومة . وسلح الفلاحون أنفسهم باحسن ما وصلت اليه أيديهم ، وقطعوا خط مواصلات الحلفـاء بين برشلونة ومدرية . وقاد دوق برويك الانجليزى ، وجيمس فتز جيمس الابن غير الشرعى لجيمس الثانى قوة فرنسية اسبانية من الغـرب . استردت مدريد لفيليب الخامس (٢٢ سبتمبر) وردت الأرشيدوق ومن معه من المهرطقين الانجليز الى قاطالونيا .

وفى تلك الاثناء ، وبعـد أن تغلب مارلبرو على بعض العقبـات السياسية فى لندن ولاهاى ، جمع هذا القائد جيشا قوامه ستون ألفا من الانجليز والهولنديين والدنمركيين ، وتقدم به نحو الأراضي الوطيئة الاسبانية ، وفى ٢٣ مايو ١٧٠٦ التقى بالجيش الفرنسي الرئيسي المؤلف من ٥٨ ألف جندى بقيادة فيلروا عند راميه بالقرب من نامور . وفى اشتداد وطيس المعركة ، ناسيا أنه يجدر بالقواد أن يموتوا فى فراشهم، اندفع الى مقدمة الصفوف ، فاسقط عن جواده . وبينما كان الضابط المرافق له يعاونه على امتطاء ظهر الجواد ثانية ، اخترقت رأس الضابط قذيفة ، واسترد مالبرو عافيته وأعاد تنظيم قواته ، وقادها الى نصر دام آخر . وبلغت الخسائر فى جيشه خمسة آلاف رجـل ، وفى جيش الفرنسيين خمسة عشر ألفا . وتقدم وسط مقاومة لا تذكر للاستيلاء على أنتورب وبروجز وأوستند . وهناك توفر له خط مواصلات مباشر مع انجلترا ، وكان على مسافة عشرين ميلا فقط من فرنسا . وآوى فيلروا، وكان آنذاك فى الثانية والستين ، الى ضيعته محزونا ، ولكن دون تأنيب من الملك الذى قال له فى أسي وأسـف « لن يواتينـا الحظ بعـد ذلك (٥٥) » .

وفى كل مكان ، باستثناء أسـبانيا ، كان الفرنسـيون الآن فى خطر ، أو كانوا يتقهقرون . وفى فيينا خلف جوزيف الاول ، وكان فى السابعة والعشرين ، أباه على عرش الامبراطورية (١٧٠٥) ، وشـد من أزر قواده بدرجة كبيرة . ورد يوجين سافوى الفرنسيين عن تورين

(١٧٠٦) وعن ايطاليا (١٧٠٧) . وبمقتضي اتفاق ميــلان أصبحت دوقيتا ميلان ومانتوا جزءا من امبراطورية النمسا ، وانتهى حــكم « جونزاجات مانتوا » الذى كان قد بدأ ١٣٢٨ . أما مملكة نابلى التى كان يحكمها نائب الملك الأسبانى منذ عهد طويل ، فقد ارتمت بدورها فى أحضان النمسا ، ولو أنها استمرت من الوجهــة الشــكلية ولاية بابوية ، واحتفظت الولايات البابوية بأوضاعها باذن من الامبراطور الذى اخترقتها قواته الالمانية ضــد ارادة البــابا الذى لا حــول له ولا قوة (٥٦) . واحتفظت فينيسيا وتسكانيا باستقلال مزعزع الاركان.

وكان لويس الرابع عشر رجلا قد تغير . وكان غرور السلطان قد زال عنه تقريبا ، ولكنه احتفظ بالوقار الهادىء لدولته . وفى ١٧٠٦ عرض على الحلفاء شروطا للصلح كان يمكن أن يتقبلــوها فرحــين مسرورين قبل خمس سنين ، وبمقتضاها تترك أسبانيا للأرشــيدوق كارل ، ويكتفى فيليب بميلان ونابلى وصقلية ، وتعاد مد الحــدود والحصون الى السيطرة الهولندية فى الأراضي الوطيئة الاسبانية . وكان الهولنديون ميالين الى التفاوض ، ولكن الانجليز والامبراطور أبوا . وتولى لويس السأم والضجر ، واتجه الى تجنيد جيوش جديدة وفرض ضرائب جديدة ، حتى التعميد والزيجات لابد أن يدفع عنها ضريبة حتى تصبح قانونية . فلجأ الفرنسيون الذين أضناهم الفقر الى تعميد أبنائهم والى الزواج دون طقوس دينية ، ولو أن نتاج مثل هذا القران دمغ بأنه غير شرعى من الوجهة الرسمية (٥٧) .

وقامت الثورة فى كاهور ، وفى كرسي ، وفى بريجور . واستولت جموع الفلاحين على الحكم فى المدن ، وعلى قصــور الاقطاعيين . وصاحت الهياكل العظمية الحية أى لاهالى الذين يتضورون من الجوع ، عند أبواب قصر فرســاى ، مطالبين بالخبز ، فصــدهم الحــرس السويسرى . وظهرت اللافتات على الجدران فى باريس منذرة لويس بأنه لا يزال فى فرنسا رجــال يريدون قتــل الملك (٥٨) . ومنعت الضرائب الجديدة .

وفى أوائل ١٧٠٧ نشر مركيز دى فوبان الذى كانت هندســته العسكرية عنصرا أساسيا فى الانتصارات الفرنسية فى الجيــل الماضي ،

نشر وهو فى الرابعة والسبعين ، « اقتراحا بضريبة أعدل » · وصف المركيز شقاء فرنسا وبؤسها : « ان عشر السكان تقريبا انحطوا الى درجة التسول ، أما غالبية التسعة الأعشار الباقية منهم فهم أقرب الى تلقى الصدقات منهم الى بذلها ·· ·· يقينا ان السوء قد بلغ أقصي مداه· فاذا لم يتخذ أى علاج فلسوف يقع الشعب فى براثن فقــر لافكاك له منها أبدا » · وذكر الملك بأن « الطبقة الدنيا من الشعب هى التى تثرى الملك ومملكته بكدها وجدها ، واسهاماتها فى الخزانة الملكية » ومع ذلك فان « هذه الطبقة ، نتيجة لمطالب الحرب وفرض الضرائب على مدخراتها ، هى التى تعيش الآن فى أسمال بالية وأكواخ متداعية ، على حين توقفت الزراعة فى أراضيها » لتغيب أبنائها الذين جندوا للحرب (٥٩) · ولانقاذ هؤلاء الناس ، وهم أعظم الطبقات انتاجا ، اقتبس فوبان بعض أفــكار بواجلبرت ، فاقترح الغـــاء كل الضرائب القائمة ، والاستعاضة عنها بضريبة دخل تصاعدية لا تعفى منهـــا أية طبقة ، فيدفع ملاك الأرض ما بين ٥ و ١٠ ٪ ويدفع العمال ما لا يزيد عن ٣ ½ ٪ · وتحتفظ الدولة باحتكار الملح ، وتفرض الرسوم الجمركية عند الحدود الوطنية فقط (٦٠) ·

ويصف سان سيمون هذا الكتاب ، وكيف استقبله الناس ، فيقول :

> كان الكتاب زاخرا بالمعلومات والأرقام ، مرتبة بأقصي درجة من الوضوح والبساطة والدقة · ولكنه وقع فى خطـأ جسيم ذلك أنه يبسط منهجا لو اتبع لكان فيه دمار الجيش من الرأسماليين والكتبة والموظفين من كل الانواع ، ولأرغمهم على أن يعيشوا على حسابهم بدلا من العيش على حســاب الشعب ، وقوض أساس هذه الثروات الضخمة التى نراهــا تنمو وتزداد فى وقت قصير · وكان هذا سببا كافيا لسقوط هذا الكتاب ·· وتعالت الصيحات من جانب أولئــك الذين يهمهم معارضته ··· ولا عجب اذن ، فى أن الملك الذى يلتف حوله هؤلاء الناس ، أصغى الى حججهم ، واستقبل المارشال فوبان أسوأ استقبال حين قدم اليه كتابه (٦١) ·

وأنبه لويس بانه رجل حالم ، قد يقلب مشروعه مالية البلاد رأسا

على عقب ، وسط أزمة الحرب . وفى ١٤ فبراير ١٧٠٧ صدر قرار من المجلس بمصادرة الكتاب وعرضه فى مشهرة . وبعد ستة أسابيع مات المارشال العجوز ، وقدفت فى عضده وأحزنه ما أصاب من خزى وعار . وتفوه الملك ببعض كلمات تعبر عن أسف جاء متأخرا « فقدت رجلا كان يحبنى حبا شديدا كما يحب الدولة (٦٢) » .

واستمرت الضرائب والحروب . وفى أغسطس ١٧٠٧ انضم فكتور أماديوس الثانى دوق سافوى — الذى كان قد بدأ حليفا لفرنسا — الى يوجين سافوى وأسطول انجليزى فى حصار طولون . برا وبحرا ، حتى اذا سقطت فى أيديهم عمدوا الى مهاجمة مرسيليا ، فاذا سقطت هذه أيضا لأصبحت فرنسا معزولة عن البحر المتوسط . وأعد جيش فرنسي جديد وأرسل ليصد الغزاة ، وأفلح فى صدهم ، ولكن فى هذه الحملة بات معظم أراضي بروفانس خرابا بلقعا . وفى ١٧٠٦ حشد الملك جيشا قوامه ثمانون ألفا تحت قيادة مارشال فندوم . ودوق برجندى لمحبوب ابن الدوفين . وسيره ليوقف تقدم الحلفاء فى الفلاندرز فقابله مارلبرو ويوجين بجيش مماثل فى العدد فى أودينارد على نهر شلدت (١١ يوليه ١٧٠٨) ، ودارت الدائرة على الفرنسيين وخسروا ٢٠ ألفا بين قتيل وجريح ، كما أسر منهم سبعة آلاف . وأراد مارلبرو التقدم الى باريس ، ولكن يوجين اقنعه بمحاصرة ليل أولا ، حتى لا تقطع حاميتها خط مواصلات الحلفاء وامداداتهم . وسقطت ليل بعد حصار دام شهرين ، بخسارة فى الأرواح قدرها خمسة عشر ألفا .

وأحس لويس بأن فرنسا لم تعد قادرة على مواصلة القتال . وزاد من بؤس الشعب وشقائه أن شتاء ١٧٠٨ / ١٧٠٩ كاد أقسي شتاء وعته الذاكرة ، وتجمدت الانهار طيلة شهرين ، بل تجمدت مياه البحر على طول الشواطىء ، الى أن العربات ثقيلة الأحمال كأن تسير فى أمان فوق جليد المحيطات (٦٣) . وهلكت كل المزروعات بما فى ذلك أقدر أشجار الفاكهة على احتمال قسوة المناخ ؛ وكل الحبوب فى الأرض . كما مات فى هذا الفصل القاسي معظم الأطفال الحديثى الولادة (٦٤) . باستثناء ابن حفيد الملك ، لويس الخامس عشر فيما بعد ، الذى ولد لدوق أرجندى فى ١٥ فبراير ١٧٠٩ . وفى أعقاب ذلك جاءت المجاعة فى الربيع والصيف ، واختزن المحتكرون الخبز واحتفظوا له بسعر

عال . ويذكر سان سيمون ، وهو عادة لا يحب الملك ، أن لويس نفسه كان متهما باقتسام مغانم الاحتكارات (٦٥) . ولكن هنرى مارتن يقول « ان التاريخ يروى كثيرا الى حد أنه لا يسلم بالوصف البغيض الكئيب الذى أورده سان سيمون دون شيء من الريبة » (٦٦) . وأنقذ الموقف باستيراد ١٢ مليون كيلو جرام من الحبوب من دول المغرب العربى وغيرها ، وزراعة الشعير بمجرد ذوبان الثلوج وعودة الدفء الى الأرض (٦٧) .

وأحس لويس الرابع عشر بالذلة والهوان بسبب هزائم جيوشه ونكبات شعبه ، فأرسل فى ٢٢ مايو ١٧٠٩ المركيز دى تورسي الى لاهاى ، يطلب الصلح . وكان دى تورسي مزودا بالتعليمات ليعرض النزول عن كل الامبراطورية الاسبانية الى الحلفاء ، وعن نيوفوندلند الى انجلترا ، واعادة مدن الحدود الى الهولنديين ، والتخلى عن تأييد حق آل ستيوارت فى العرش . وحاول المركيز أن يرشو مارلبرو ، فأخفق (٦٨) . وفى ٢٨ مايو قدم الحلفاء الى دى تورسي انذارا نهائيا يطالبون فيه ، لا بمجرد التنازل عن كل أسبانيا وممتلكاتها للأرشيدوق، بل كذلك يطالبون بانضمام الجيش الفرنسي الى قوات الحلفاء فى طرد فيليب من أسبانيا اذا لم يكن قد غادرها فى بحر شهرين ، والا ، (كما قدروا) تركت فرنسا حرة فى اعادة تنظيم قواتها الضاربة أثناء انشغالهم فى شبه الجزيرة . وأجاب لويس بأنه يعز عليه أن يطلب منه استخدام القوة لطرد حفيده من أسبانيا التى كانت قد هبت من فورها لمساندة فيليب . وقال « اذا كان لابد من مواصلة القتال ، فلأ قاتل أعدائى ، لا أبنائى (٦٩) » .

وأثارت مطالب الحلفاء شعور الاستياء فى فرنسا . وانضم الرجال عن طيب خاطر الى القوات المسلحة ، وكان كل همهم أن يجدوا الطعام ، وأرسل النبلاء ما لديهم من فضة الى دار سك العملة ، وراوغت السفن الفرنسية الانجليز الهولنديين ، وأحضرت من أمريكا سبائك تقدر قيمتها بثلاثين مليونا من الفرنكات . وحشد جيش جديد قوامه تسعون ألفا ، وضع تحت امرة فلار الذى لم يتمكن الحلفاء من هزيمته من قبل . وفى الوقت نفسه جمع مارلبرو مائة وعشرة آلاف جندى . والتقى الجمعان فى مالبلاكية (على الحدود المواجهة لبلجيكا) فى أعنف

معركة فى القرن الثامن عشر . وفقد مارلبرو ٢٢ ألف رجل فى انتصاره الاخير ، وخسر الفرنسيون ١٢ ألفا ، من بينهم فلار الباسل ، الذى كان فى السادسة والخمسين ، واندفع على رأس قواته ، ثم حملوه من الميدان وقد بترت احدى ركبتيه قذيفة مدفع . وتقهقر الفرنسيون بانتظام واتجه الحلفاء للاستيلاء على مونز . وكتب مارلبرو الى زوجته يقول « الحمد لله والشكر لله ، ان فى مقدورنا الآن أن نحصل على الصلح الذى نريده (٧٠) » .

ويبدو أن الامر كان كذلك . فمن الواضح أن فرنسا كانت قد بذلت أقصي ما فى جعبتها ، فمن أين لها بجيش ثان من بين أسراتها المنهوكة التى استنزفت دماء أبنائها ، وكيف تطعمه وحقولها مهجورة مقفرة ؟. لقد عمت الفوضي الزراعة والصناعة والنقل والتجارة والمالية - لقد أصاب كل هذا المرافق دمار وانحلال ، يهيئان للاعداء المتقدمين احتلال فرنسا وتمزيق أوصالها . ان الملك الذى كان يوما معبود الشعب « الذى بعثه الله اليهم » بدأ يفقد حبهم بل احترامهم له . انه كان ينأى بنفسه عن باريس ، لأنه لم تغب عن ذاكرته جماعة الفروند المعادية . واستاءت المدينة لطول نفوره عنها وتباعده عنها ، وما أشد ما استهجنت النكات والشتائم والنشرات واللافتات كبرياءه الاستبدادية استهجانا لاذعا (٧١) . وتساءل الناس متعجبين ، كيف تكتظ قاعات فرساى ، وسط املاق فرنسا وعوزها ، برجال الحاشية المقامرين الخاملين المترفين ، على حين أن الملك وزوجته قد ركنا الى شيء من التقوى وكبح جماح النفس . « ولم تخفض نفقات الحاشية ولم ينقص عدد موظفيها حتى النهاية (٧٢) » . وأنشد بعض الباريسيين الذين لا يجدون الخبز رواية معدلة من « دعاء الرب » ، لم يستثنوا فيها لويس ولا زوجته ولا وزير خارجيته وماليته الجديد :

يا الهنا الذى فى فرساى ، لم يعد اسمك يقدس ، ولم تعد مملكتك عظيمة ، ولم تعد مشيئتك تنفذ فى البر والبحر ، أعطنا الخبز الذى نفتقد فى كل مكان ، اغفر لأعدائنا الذين قهرونا ، لا لقوادك الذين هيأوا لهم أن يفعلوا ذلك . لا تستسلم لكل اغواءات لامينتنون ، ولكن خلصنا من شاميللارد (٧٣).

وقالت مدام مينتنون ترثى لحال الملك : « انهم يلومونه ويؤنبونه بسبب نفقاته ، انهم يودون الاستغناء عن جياده وكلابه وخدمه ٠٠ ٠٠ انهم يريدون أن يرجمونى بالحجارة لأنهم يتصورون أنى لا أبلغه شيئا كريها خشية ايلامه (٧٤) » ٠

وكان النبلاء لا يزالون على ولائهم للملك الذى أكرمهم وحماهم ، ولكن وطنيتهم تزعزعت ، حين طالب الملك ، كآخر سهم فى جعبته ، بعشر دخولهم (١٧١٠) ٠ ان الضريبة العامة التى اقترحها فوبان قبل ذلك بثلاثة أعوام لتحل محل كل الضرائب الاخرى ، أضيفت الآن الى سائر الضرائب ٠ وكان للفقراء بعض العزاء فى أن يروا جباة الضرائب الكريهين يدخلون بيوت الاغنياء لفحص حساباتهم ٠ وكره الملك أن يقتحم الخزائن السرية الخاصة ، ولكن قسيس اعترافه ، الأب تلبيه ، أكد له أن من رأى أساتذة السوربون « ان كل ثروة رعاياه ثروته ، فاذا أخذها فكأنما يستولى على شيء يخصه (٧٥) » ٠ وبالمثل عانت الطبقات الوسطى العليا شيئا من الخلخلة فى الحماسة العسكرية ، حيث انقطع دفع الفوائد عن السندات الحكومية ٠ وقال سان سيمون : « ان اعادة سك العملة وتخفيض قيمتها » أتاحا للملك بعض الأرباح ، ولكنهما جلبا الدمار على أناس بعينهم ، كما أديا الى الخلل فى التجارة مما كان فيه توقفها التام (٧٦) »٠ وأعلن كبار رجال المصارف ، مثل صمويل برنارد ، الافلاس ، فأدى ذلك الى تعطل كل الأعمال فى ليون ٠ « كان كل شيء ينهار شيئا فشيئا ، واستنزفت المملكة بأسرها ، ولم تدفع للجند رواتبهم ، على أن أحدا لم يكن يتصور ماذا فعل بالملايين التى وصلت الى خزائن الملك (٧٧) » ٠

وفى مارس ١٧١٠ عاد لويس فطلب الى الحلفاء عقد الصلح ، وعرض أن يعترف بالأرشيدوق ملكا على أسبانيا ، وألا يقدم أى عون لفيليب ، بل أن يدفع بعض الأموال للعمل على خلعه ، وأن يتخلى للحلفاء عن ستراسبورج ، وبريزاخ ، والالزاس وليل وتورنى وابير ومينن ، وفورن وموبرج ، ولكنهم لم يعرضوا عليه صلحا ، بل هدنة مدتها شهران ، وكان على لويس بقواته الفرنسية وحدها دون أية مساعدة من أى جانب آخر ، أن يطرد فيليب من أسبانيا ، فاذا عجز عن تحقيق ذلك فى فترة الشهرين ، استأنف الحلفاء القتال (٧٨) ٠

ونشر لويس هذه الشروط على شعبه الذى اتفقت كلمته على أنهـــا شروط يستحيل قبولها .

وحشدت فرنسا ، بطريقة ما جيوشا جديدة ، وعندما غزا الأرشيدوق أسبانيا مرة ثانية بقوات انجليزية ونمساوية ، وشق طريقه لاخـــراج فيليب من مدريد مرة أخرى ، أرسل لويس لحفيده خمسة وعشرين ألف جندى بقيادة دوق فندوم . واستطاع الدوق بمساعدة المتطوعين الأسبان أن يهزم الغزاة فى بريهوجا وفللافيكيوزا (ديسمبر ١٧١٠) . وبهـذا أعاد فيليب بشكل قاطع الى عرشه ، وبقيت أسبانيا تحت حكم البوربون حتى عام ١٩٣١ .

وفى نفس الوقت كانت ريح السياسة تغير اتجاهها فى انجلترا . وكانت الملكة قد كتبت فى ١٧٠٦ « لست أطمع فى شيء .. الا أن أرى صلحا مشرفا ، حتى اذا اقتضت مشيئة الله أن أفارق الحياة ، وجدت كل الارتياح والطمأنينة فى أن أترك بلدى المسكين وكل أصدقائى فى سلام وهدوء (٧٩) » . وكانت الملكة آن تلتزم سياسة الحرب تحت تأثير دوقة مارلبرو العنيفة الملتهبة حماسة ، ولكن ضعف هذا التأثير الآن ، وعزلت الملكة الدوقة (ساره) من خدمتها (١٧١٠) ، وانحـــازت صراحة الى « المحافظين » ، وكان التجار والصناع والرأسماليون قد اقادوا من الحرب (٨٠) ، وأيدوا « الاحرار » صانعى الحـــرب . أما ملاك الاراضي فقد خسروا لأن الحرب أدت الى زيادة فى الضرائب وتضخم فى العملة ، ومن ثم شجعوا الملكة فى تطلعهـــا الى الســـلام . وفى ٨ أغسطس عزلت جودولفين ، مساعد مارلبرو الايمن ، ورأس هارلى وزارة من المحافظين . ومالت انجلترا نحو السلام .

وفى يناير ١٧١١ أرسلت الحكومة الانجليزية الى باريس سرا ، قسيسا فرنسيا ، هو الأب جولتييه الذى كان قد أقام فى لندن زمنـــا طويلا ، وقصد الى تورسي فى فرساى ، وسأله « هل تريد السلام ؟ لقد جئتك بوسائل تحقيقه ، مستقلا عن الهولنـــديين (٨١) » . وتقدمت المفاوضات ببطء ، وفجأة ، وفى سن مبكرة بشكل يثير الدهشة ، سن الثانية والثلاثين توفى جوزيف الاول (١٧ أبريل ١٧١١) وأصبح الارشيدوق امبراطورا يحمل اسم شارل السادس ، ووجد الانجليز والهولنديون الذين كانوا قد وعدوه بأسبانيا كلها ، انهم يواجهون ، نتيجة لانتصاراتهم الباهظة

التكاليف ، امبراطورية هبسبرجية مترامية الأطراف ، تهدد بالخطر الشعوب البروتستانتية وحرياتها ، مثلها فى هذا وذاك مثل امبراطورية شارك الخامس . وهنا عرضت الحكومة الانجليزية على لويس الاعتراف بفيليب ملكا على أسبانيا ومستعمراتها الأمريكية ، مع بعض شروط معتدلة نسبيا : منها الضمانات ضد اتحاد فرنسا وأسبانيا تحت تاج واحد ، وحصون على الحدود لحماية المقاطعات المتحدة والمانيا من غزو فرنسا لها فى المستقبل ، واعادة الفتوحات الفرنسية الى وضعها السابق ، والاعتراف بحق ارتقاء الملوك البروتستانت الى العرش فى انجلترا ، وطرد جيمس الثالث من فرنسا وتجريد دنكرك من السلاح ، وتثبيت ملكية انجلترا لجبل طارق ونيوفوندلند ومنطقة خليج هدسن ، ونقل حق بيع الرقيق للمستعمرات الأسبانية فى أمريكا ، من فرنسا الى انجلترا . ووافق لويس على هذه الشروط مع تعديلات طفيفة . وأبلغت انجلترا لاهاى أنها تحبذ عقد الصلح على هذه الأسس . ووافق الهولنديون عليها ، أساسا صالحا للمفاوضات ، واتخذت الترتيبات لعقد مؤتمر للسلام فى أوترخت . وعزل مارلبرو الذى كان يرى الحرب أكثر ربحا (٣١ ديسمبر ١٧١١) وعين مكانه جيمس بتلر ، دوق أورمند الثانى ، الذى زود بتعليمات تقضي بعدم الاشتباك فى أى قتال الا عند تلقى أوامر جديدة .

وعلى حين انعقد المؤتمر فى أوترخت (أول يناير ١٧١٢) ، واصل القتال يوجين الذى اعتبر الشروط الانجليزية للصلح خيانة لقضية الامبراطورية . وتقدم يوما بعد يوم ليهاجم خط الدفاع الذى أقامه فيلار المجد النشيط . وفى ١٦ يوليه أبلغت لندن أورمند أن انجلترا وفرنسا وقعتا هدنة ، وأنه يجب بناء على ذلك انسحاب قواته الانجليزية الى دنكرك . وامتثلت هذه القوات للأمر ، ولكن الكتائب التى كانت تحت امرة أورمند فى القارة ، اتهمت الانجليز بأنهم آبقون هاربون من الجندية ، ووضعت نفسها تحت قيادة يوجين . وكان لدى الأمير آنذاك نحو مائة وثلاثين ألفا ، ولدى فلار نحو تسعين ألفا ، ولكن فى ٢٤ يوليه انقض المارشال اليقظ على كتيبة قوامها اثنى عشر ألفا من الهولنديين عند دنين (بالقرب من ليل) وأبادها قبل أن يتمكن يوجين من القدوم لنجدتها . وتراجع الأمير عبر الشلدت ليعيد

تنظيم جيشه الصعب الانقياد ، وتقدم فيللار للاستيلاء على دواى ولى كزنوى ، وبوشان ، وتشجع لويس وفرنسا ، لأن هذه كانت الانتصارات الفرنسية الوحيدة على الجبهة الشمالية ، ولكنها ، بالاضافة الى انتصارات فندوم فى أسبانيا أضفت قوة جديدة على المفاوضين الفرنسيين فى أوترخت .

وبعد خمسة عشر شهرا من المراسم والشكليات والمناقشات ، وقع أطراف النزاع ، فيما عدا الامبراطور ، صلح أوترخت (١١ أبريل ١٧١٣) وتنازلت فرنسا لبريطانيا عن كل ما وعدت به من قبل فى المفاوضات التمهيدية ، بما فى ذلك احتكار تجارة الرقيق الرائجة ، التى تعتبر وصمة عار لذاك العصر . وقدم العدوان القديمان تنازلات متبادلة عن رسوم الواردات ، وأعاد الهولنديون لفرنسا ليل واير وبيتون ، ولكنهم احتفظوا بالسيادة على كل الأراضي الوطيئة حتى يتم عقد الصلح مع الامبراطورية ، على حين يستولى ناخب بافاريا على شارلروا ولكسمبرج ونامور ، وأعيدت نامور الى دوق سافوى . واحتفظ فيليب الخامس باسبانيا وأمريكا الاسبانية . ورفض ثم عاد فوافق (١٣ يوليه) على التخلى عن جبل طارق ومينو رقة لانجلترا . وواصل يوجين سافوى القتال ضد البريطانيين لشعوره بالمرارة نحوهم لتوقيعهم صلحا منفردا . ولكن خزانة الامبراطورية أصبحت خاوية ، ونقص جيشه الى ٤٠ ألفا ، على حين كان فيللار يتقدم نحوه بمائة وعشرين ألفا . وأخيرا قبل دعوة لويس الرابع عشر له للقاء فيللار لوضع شروط للصلح . وبمقتضي معاهدة راستات (٦ مارس ١٧١٤) احتفظت فرنسا بالالزاس وستراسبورج ، ولكنها أعادت الى الامبراطورية كل الفتوحات الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الراين ، واعترفت بحلول النمسا محل أسبانيا فى حكم ايطاليا وبلجيكا .

وبذلك حققت معاهدتا أوترخت وراستات أكثر قليلا مما كان يمكن أن تحققه الدبلوماسية بالوسائل السلمية فى ١٧٠١ . وبعد ثلاثة عشر عاما من القتل والابادة والفقر والتخريب ، ثبتت هاتان المعاهدتان خريطة أوربا لمدة ستة وعشرين عاما ، كما ثبتتها معاهدات وستفاليا لمدة جيل واحد بعد حرب الثلاثين عاما . وكانت المهمة فى كلتا الحالتين اقامة توازن القوى بين أسرتى هبسبرج والبوربون . وقد تم هذا بالفعل . وقام شبيه لهذا التوازن بين فرنسا وانجلترا فى أمريكا واستمر حتى نشوب حرب

السنين السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) .

وأهم الخاسرين فى هذا النزاع الدموى حول الوراثة الاسبانية هما هولنده وفرنسا ، لقد كسبت الجمهورية الهولندية أرضا ، ولكنهـــا خسرت سيادة على البحر ، فلم تعد قادرة على مباراة انجلترا فى حمولة السفن أو فى فن الملاحة أو فى الموارد أو فى الحرب ، ان انتصارهـــا استنزفها وأنهكها ، فبدأت تضمحل . كذلك ضعفت فرنسا الى حد يكاد يكون خطيرا . لقد بقت على مرشحها لعرش أسبانيا ، ولكنها أخفقت فى الابقاء على امبراطوريته سليمة لم تمس ، ودفعت ثمنا لهذا النصر القاتم الذى فقد بريقه ، حياة مليون من أبنائها بالاضافة الى ضـــياع سيادتها فى البحار ، وانهيار حياتها الاقتصادية بصفة مؤقتة . ولم تكن فرنسا لتفيق وتلتقط أنفاسها من عصر لويس الرابع عشر ، قبـــل ظهور نابليون ، ولكن لمجرد أن تعيد مأساة لويس .

أما الفائزان فى الحرب فهما النمسا داخل القارة ، وانجلترا فى كل مكان خارجها . فقد استولت النمسا آنذاك على ميلان ونابلى وصقلية وبلجيكا ، وأصبحت أعظم قوة فى أوربا حتى ارتقاء فردريك الأكبر العرش (١٧٤٠) . وفكرت انجلترا فى السيادة على البحار أكثر مما فكرت فى التوسع فى الارض . وحصلت على نيوفوندلند ونوفا سكوشيا، ولكن كان تحكمها فى طرق التجارة أكبر قيمة لديها . وأرغمت فرنسا على تخفيض رسومها الجمركية ، وعلى أن تجرد من السلاح قلعةدنكرك وثغرها اللذين كانا يشكلان خطرا على السفن الانجليزية . وبفضل جبل طارق فى أسبانيا ، وبورت ماهون فى مينورقة استطاعت انجلترا أن تسيطر على البحر المتوسط . ولم يكن لهذه المكاسب مشـــهد مثير فى ١٧١٣ ، ولكن كان لابد أن تدون نتائجها فى تاريخ القرن الثامن عشر . وفى نفس الوقت أمنت العقيدة البروتستانتية وارتقاء البروتستانت الى العرش شر العوادى ، اللهم الا نسبة المواليد .

وثمة نتيجة هامة للحرب ، تلك هى اشتداد الروح القومية ، وروح الكراهية بين الدول ، حيث نسيت كل أمة مكاسبها وتذكرت جراحها . فما كان لألمانيا أن تغفر اجتياح البالاتينات وتخريبها مرتين . ولم تكن فرنسا لتنسي بمرعة المذابح التى لم يســـبق لها مثيل فى انتصـــارات

مارلبرو ، وكانت أسبانيا تعانى كل يوم عار وقوع جبل طارق فى أيد أجنبية • وباتت كل أمة ترقب أن تحين الفرصة للانتقام •

ان بعض ذوى النفوس الكريمـــة الذين اعتقدوا أن أوربا قــارة المسيحيين راودهم حلم الوصول الى بديل عن الحرب • وكان شــارل كاسل ، من رهبان كنيسة القديس بطرس قد رافق الوفد الفرنسي الى وترخت ، فلما عاد نشر خطة لتثبيت دعائم السلام الجديد ، وتمنى لو آن أمم أوربا أتيح لها أن تتحد فى « عصبة امم » مع مؤتمر دائم من المندوبين عنها ، ومجلس للتحكيم فى النزاع ، ونظام لقانون دولى ، وقوة مسلحة مختلطة للوقوف فى وجه أية دولة متمردة ، وتخفيض أى جيش وطنى الى ستة آلاف رجل ، وايجاد مقاييس وعمــلة موحــدة تستخدم فى كل انحـــاء أوربا (٨٢) • وقـــدم الراهب مشروعه الى ليبنتز ، الذى لم يعد يثق بأن هذا أفضل العوالم الممكنة ، فذكر الراهب « بأن ثمة قدرا مشئوما يعترض دوما طريق الانســـان الى تحقيــق سعادته (٨٣) » فالانسان حيوان نزاع الى المنافسة ، وخلقه هو قدره •

٦ ـ أفول نجم الاله : ١٧١٣ ـ ١٧١٥ :

ان لويس الرابع عشر ، لو حكمنا عليه بمعايير عصره ، لم يكن الغول البشع ، الذى صورة المؤرخون المعادون ، وكل الذى اقترفه هذا الملك هو أنه طبق على نطاق أوسع ، ولفترة من الزمن ، مع نجـــاح بغيض ، نفس أساليب الحكم المطلق والتوســـع الاقليمى ، والغـــزو العسكرى التى تميز بها سلوك أعدائه ومطامعهم ، بل ان وحشية جيوشه فى البالاتينات كانت لها سابقة فى أعمال السلب والنهب فى مجدبرج (١٦٣١) ، وخاتمة فى مذابح مارلبرو • على حين أن لويس تميز بأنه قد امتد به الأجل حتى تثار منه فى شخصه ، لا فى أبنائه ، « ربات الانتقام » لكل ما جنى عليه غروره وصلفه وسلطانه من آثام •

ولم يبخسه التاريخ حقه فى شيء من الاعجاب بما أبدى من شجاعة ووقار عند هزيمته ، كما استشعر شيئا من الاشفاق عليه فى الكوارث التى دمرت تقريبا أبناءه وجيوشه وأساطيله فى وقت معا • وفى ١٧١١ مات ابنه الشرعى الوحيـــد « الدوفين الأكبر » لويس ، تاركا وراءه الملك وحفيدين صغيرين لويس دوق برجندى ، وشارل دوق برى • وتحلى

لويس الأصغر بمناقب عظيمة بفضل رعاية فنيلون وسهره على تربيته وتهذيبه ، وأصبح عزاء الملك وسلواه فى شيخوخته • وفى ١٦٩٧ تزوج لويس الأصغر من مارى أدليد سافوى ، التى ذكر جمالهـا وذكاؤهـا ومفاتنها ، الملك بمدام هنريتا وشبابه السعيد معها • ولكن فى ١٢ فبراير ١٧١٢ أودت الحمى المتقطعة بهذه الروح المرحة فى سـن السادسـة والعشرين • وأبى زوجها المخلص أن يتخلى عن سرير مرضها ، فانتقلت اليه العدوى ، ومات بنفس المرض فى ١٨ فبراير وهو فى سن التاسعة والعشرين ، بعد وفاة أبيه بعام واحد • وانتقلت العدوى منهمـا الى طفليهما ، ومات أحدهما فى ٨ مارس فى سن الثامنة ، أما الأصغر فقد بقى على قيد الحياة ، فى حالة من الضعف والهزال لم يكن أحد يحلم معها بأنه سيعيش ليحكم فرنسا حتى ١٧٧٤ باسم لويس الخامس عشر • ولو أن هذا الصبى الهزيل قضى نحبه لكان وريث العرش شـارل دوق برى ، ولكن شارل توفى ١٧١٤ •

وكان ثمة خليفة آخر يمكن أن يؤول اليـه العرش — هو فيليب الخامس ملك أسبانيا الابن الأصغر للدوفين الأكبر ، ولكن نصف أوربا تعهد بالحيلولة بينه وبين الجمع بين التاجين • وكان يليه فى ترتيب الوراثة ، فيليب دوق أورليان حفيـد لويس الثالث عشر ، وابن أخى الملك وزوج ابنته • ولكن فيليب هذا كان له معمل واصل فيه تجـاربه فى الكيمياء • ولذلك تناقل الناس اتهامه بدس السم لدوق ودوقة برجندى وابنهما الاكبر • وقد اختلف الأطباء الذين قاموا بفحص الجثث الثلاث وتشريحها بعد الوفاة حول استخدام السم ، واستشاط فيليب غضبا لهذه الشبهات ، وطلب الى الملك أن يقدمه لمحاكمة علنية ، واعتقد لويس أنه برىء ، وأبى تعريضه للمحاكمـة والتعذيب حتى تثبت براءته أو ادانته ، وأن يلحق به هذا العار •

وكان ثمة ملجأ أوحل أخير ، اذا أخفقت فروع الوراثة هذه • ذلك أن الملك كان قد أضفى الصفة الشرعية على ابنيه غير الشرعيين دوق مين وكونت وف تولوز • وفى ذاك الوقت (يوليه ١٧١٤) أصدر الملك مرسوما سجله برلمان باريس دون معارضة ، ينص على أنه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، يكون لهذين الابنين غير الشرعيين سابقا حق وراثة العرش • وبعد سنة من ذلك ، أصـدر

مرسوما آخر بمساواتهما فى الرتبة من الوجهة القانونيـــة بالأمـــراء الشرعيين ، وكان لهذا القرار وقع الصاعقة على سان سيمون والنبـلاء الآخرين (٨٤) ، وكانت أمهما مدام دى مونتسـبان قد ماتت ، ولكن امهما بالتنشئة ، زوجة الملك ، أحبتهما مثل أولادهـــا . واستخدمت نفوذها للنهوض بهما فى مراقى الشرف والسلطة والجاه .

وفى غمرة هذه المشاكل وفقدان الأولاد ، واجه لويس الأزمة الأخيرة فى الحرب . وعندما كان يودع فيللار الذى كان فى طريقه لملاقاة يوجين الذى كان يتقدم الى جبهة بلجيكا ، انهارت فجاة قوى الملك الذى كان آنذاك فى الرابعة والسبعين ، وهو يقول « انت ترى الآن حالى أيهـــا المارشال ، ليس ثمة الا أمثلة قليلة لما أصابنى – أفقد فى نفس الشـــهر حفيدى وحفيدتى وابنهما وكانوا جميعا واعدين مبشرين بحسن المستقبل ، وكم كنت أحبهم . ان الله يعاقبنى ، وأنا استحق العقاب ، سـيخف عذابى فى الدار الآخرة » . ولما أفاق استطرد يقول : « فلنطرح جانبا المآسي والنوائب المنزلية ، لنرى كيف نتفادى كوارث المملكة . انى أعهد اليك بقوات الدولة وبتخليصها . قد لا يحالفك الحظ ، فاذا حلت الكارثة بالجيش الذى تتولى قيادته ، فماذا فى رأيك هى الخطة التى انتهجها أنا شخصيا ؟ » ولم ينبس فيللارد ببنت شفة . فقال الملك « لا يدهشنى الا تجيبينى على الفور . وفيما انتظر أن تفصح لى عن رأيك ، أبلغك أنا رأيى . انى اعرف تفكير رجال حاشيتى ، انهم جميعـــا تقريبـــا يريدوننى أن آوى الى بلوا (مدينة فى أوسط فرنسا على نهر اللوار) اذا حلت الهزيمة بجيشي . أما بالنسبة لى ، فانا أعلم ، أن جيوشا بمثل هذه الضخامة لا يمكن أبدا أن تنهزم الى الحد الذى لا يستطيع معـــه الجزء الاكبر منها أن يرتد الى السوم . وهو نهر من الصعب عبوره ، وينبغى أن أذهب الى بيرون أو سانت كنتان ، وأجمع هنــــاك كل ما نستطيع جمعه من قوات ، وأبذل معك محاولة أخيرة ، فاما هلكنا معا أو أنقذنا الدولة (٨٥) » .

وخدع انتصار فيللار فى معركة دنين الملك بالأمـــل فى ميتـــة بطولية . ولكنه بقى على قيد الحياة بعد المعركة بثلاثة أعوام ، وبعد الصلح بعامين . وفيما عدا الناصور الشرجى الذى شفى منه منذ فترة طويلة ، ظل الملك يتمتع بالصحة الى حد معقول لمدة سبعين عاما . ولم

يعتدل فى مأكله ، ولكنه لم يصبح بدينا قط . ولم يسرف فى الشراب ، ولم يهمل القيام بتمرينات رياضية قوية فى الهواء الطلق ، الا لأيام قلائل ، حتى فى الشتاء القارس ١٧٠٨ – ١٧٠٩ . ومن العسير ان نجزم بانه كان يمكن أن يعمر أطول مما عاش ، اذا كان عدد اطبائه أقل مما كان عليه ، أو أن الأدوية المسهلة والفصد وامتصاص العرق وغير ذلك مما استخدموا فى علاجه ، كانت أسوأ أثرا من الامراض التى قصدوا الى انقاذه منها . وفى ١٦٨٨ أعطاه أحد الأطباء دواء مسهلا قويا الى حد أن مفعوله ظهر احدى عشرة مرة فى ثمان ساعات ، أحس بعدها بشيء من التعب ، كما قالوا (٨٦) . وعندما رسم ريجو فى ١٧٠١ الصورة المتالقة فى اللوفر ، فانه أبرز لويس وكأنه لا يزال متغطرسا مزهوا بالقوة والنصر والغلبة والملابس الرسمية ، والشعر الأسود المستعار الذى يخفى المشيب ، والوجنات المنتفخة التى تنم على الشهوة ، وبعد ذلك بسبع سنين أبرزه كويسفوكس فى التمثال الضخم فى نوتردام ، راكعا يصلى ، ولكن لايزال أشد شعورا بالملكية منه بالموت ، وربما كساه الفنانون بزهو واعتداد بالنفس أكثر مما أحس هو به ، لأنه كان قد تعلم فى سنوات الخيبة والاخفاق والمحن المتفاقمة ، أن يتقبل اللوم والعتاب فى شيء من التواضع والخضوع ، على الأقل من مينتنون (٨٧) . وأصبح كالطفل بين يدى يسوعى متعصب هو تلييه الذى كان قد خلف الأب لاشيز « كاهن الاعتراف للملك » فى ١٧٠٩ . « ان خليفة شارلمان طلب الصفح عن خطاياه من ابن أحد الفلاحين(٨٨) » وارتفعت الى السطح المبادىء القوية للكثلكة والتقوى التى كان قد تلقاها عن أمه ، حين انحسرت الآن الأهواء والعواطف ، وفقدت العظمة بريقها . وراجت شائعة بأن الملك فى موجة تبتله كان قد انتسب الى جماعة اليسوعيين فى ١٧٠٥ ، وأضافت أنه فى مرضه الأخير أخذ على نفسه العهد الرابع أن يكون عضوا كامل العضوية فى « جماعة يسوع (٨٩) » .

وفى يناير ١٧١٥ فقد الملك شهيته المعهودة ، واشتد توجعه بشكل واضح الى حد المراهنة فى هولنده وانجلترا على أنه لن يعيش عامه(٩٠) فلما قرأ قصاصات الانباء عن هذا الرهان سخر منها وظل على منهجه المعتاد فى حضور المؤتمرات واستقبال السفراء وعرض الجند والصيد ،

وكان يختم يومه مع زوجته المخلصة المنهوكة مينتنون ، وهى آنذاك فى التاسعة والسبعين • وفى ٢ أغسطس كتب وصية عين بمقتضاها دوق مين وصيا على لويس الخامس عشر ، وعين الدوق رئيسا لمجلس وصاية يتولى حكم فرنسا حتى يبلغ الصبى رشده • وفى ١٢ أغسطس انتشرت القروح فى ساقه وتسممت (أصيبت بالغنغرينا) وأصبحت كريهة الرائحة ، وانتابته الحمى ولزم الفراش وفى ٢٥ أغسطس كتب ملحقا للوصية عين فيه فيليب أورليان رئيسا لمجلس الوصاية • على أن يكون له الصوت المرجح عند انقسام الآراء • وقال لاثنين من القضاة تسلما الوثيقة : « لقد كتبت وصية ، انهم ــ (وربما كان يقصد مينتنون ودوق ودوقة مين وأنصارهم) ألحوا علىّ فى كتابتها ، وكان لزاما أن اشترى راحتى • ولكن لن يكون لها أية قيمة بمجرد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة • انني اعلم جيدا ماذا كان من أمر وصية والدى (٩١) » • وقدر لهذه الوصية المضطربة أن تكتب فصلا فى التاريخ الفرنسي •

ومات لويس « ملكا » تكلله كل مظاهر الملكية • وبعد تناول الأسرار المقدسة وجه الى رجال الدين الذين أحاطوا بسريره ، اعترافا اضافيا لم يقابلوه بالترحيب :

يؤسفنى أن أترك شئون الكنيسة فى وضعها الراهن • انى أجهل الموضوع جهلا تاما كما تعلمون • وانى لأدعوكم لتكونوا شهداء على أنى لم أفعل الا ما أردتم أنتم ، وأنى فعلت كل ما أردتم ، وستقفون أنتم بين يدى الله لتجيبوا عن كل ما تم عمله • انى أحملكم مسئولية هذا أمام الله • ان لى ضميرا نقيا • وما أنا الا جهول أسلمت نفسي لتوجيهكم (٩٢)•

ثم وجه الحديث الى رجال الحاشيته :

أيها السادة ، أسألكم الصفح عن المثل السيىء الذى ضربته لكم • وينبغى أن أقدم لكم أجزل الشكر على الطريقة التى خدمتمونى بها ، على الاخلاص الذى ظهرتموه دائما • وأرجوكم أن تقدموا نفس الغيرة والاخلاص اللذين منحتمونى اياها لحفيدى ، انه صبى قد يكون أمامه أن يعانى كثيرا • وكل أملى أن تعملوا جميعا من أجل الاتحاد • فاذا قصر أحد فى هذا فعليكم أن تحاولوا رده الى جادة الصواب والواجب • انى الحظ انى أترك لمشاعرى العنان فتستبد بى ، وانى أسبب لكم شيئا من الضيق ، فاغفروا لى هذا كله • وداعا

أيها السادة ، أنا واثق أنكم ستذكرونني أحيانا (٩٣) .

وطلب الى دوقة فنتادور احضار حفيده وكان فى ســـن الخامسة ، فقال له ، طبقا لرواية الدوقة : -

> اى بنى ، انك ستصبح ملكا عظيما ، لا تتبع مسلكى فى البناء أو فى الحرب ، حـــاول ، على العكس ، أن تكون فى سلام مع جيرانك . اترك ما لله لله ، ووف بالتزاماتك نحـــو الله ، واحمل رعاياك على تقديسه وطاعته ، وحاول أن تخفف عن شعبك ، وهذا ما لم أفعـــله أنا ، لســـوء الحظ . ولدى العزيز ، انى أمنحك بركتى من كل قلبى (٩٤) .

والتفت الى اثنين من الخدم رآهما يذرفان الدمع وقال « لمـــاذا تبكيان ، هل ظننتما أنى مخلد (٩٥) ؟ . ثم اتجه الى مدام مينتنون ليعيد اليها شيئا من الطمانينة وقال : « لقد ظننت أن الموت أصعب من ذلك . أؤكد لك أنه ليس عملية فظيعة ، انه لا يبدو لى شاقا مطلقا (٩٦) » . وطلب اليها أن تتركه ، وكأنما كان يدرك أنها ستصبح بعد موته نفســا ضائعة وسط الوعى الطبقى السائد بين أفراد حاشـــيته . فآوت الى جناحها ، ووزعت أثاثها بين مرافقيها وخدمها ، ورحلت الى سان سير التى لم تبرحه حتى وفاتها ١٧١٩ .

وكان الملك يتحدث فى ثقة بالغة ، ثم قضي ليلة طويلة فى كرب شديد يعانى سكرات الموت وهو فى النزع الأخير ، حتى وافاه الأجـــل فى أول سبتمبر ١٧١٥ ، ومن سنوات عمره السبع والسبعين ، قضي اثنين وسبعين عاما على العرش ، وهذا أطول حكم فى تاريخ أوربا . أما رجال الحاشية القلقون على وظائفهم ، فانهم حتى قبل أن تحـــين اللحظة الاخيرة هجروه ليقدموا ولاءهم واجلالهم الى فيليب أورليان ودوق مين . واجتمع بعض اليسوعيين حول الجثمان ليقوموا بالطقوس المعهودة لمن مات من أبناء طائفتهم (٩٧) . وتلقى أهالى باريس نبـــأ موت الملك على أنه خلاص مبارك من حكم طال أكثر مما ينبغى ، ورأى عظمته يلطخها البؤس والهزيمة . ولم يوفروا الا القليل من مظاهر الأبهة والعظمة للجنازة التى سارت بجثمان أشهر ملك فى تاريخ فرنسا الى سان دنيس فى ٩ سبتمبر . قال فولتير « على طول الطريق رأيت خياما صغيرة منصوبة يشرب فيها الناس ويغنون ويسمرون (٩٨) » وكان دوكلوس آنذاك فى الحادية عشرة ، ولكنه تذكر فيما بعد « أن كثيرا من الناس بلغ من حقارتهم أنهم كانوا يصبون اللعنات والشتائم عند مرور النعش بهم (٩٩) » .

وفى تلك اللحظة تذكر الباريسيون أخطاء الملك الراحل ، وبدت لهم فى وضوح غطى على ما عداها . واحسوا أن حبه للجاه والسلطان والعظمة قاد فرنسا الى حافة الخراب . وكرهوا غطرسته واعتداده بنفسه اللذين دمرا الحكم الذاتى المحلى ، وركزا كل الحكم فى ارادة واحـــدة لا يستطيع أحد أن يتحـــداها . ورثوا لملايين الفرنكات التى أنفقت وآلاف الارواح التى أزهقت فى تجميل فرساى ، وصبوا اللعنات على اهمال الملك شأن عاصمته الشاغبة المتمردة . وابتهجت فئة قليلة لأن اضطهاد الجانسنيين قد يتوقف بعد موته ، على أن أغلبية كبيرة ظلت تمتدح طرد الهيجونوت . وفى استرجاع الأحداث الماضـــية والتأمل فيها ، كان واضحا أن غزو هولنده فى ١٦٧٢ ، وغزو ألمانيا ١٦٨٨ ، والتسرع فى الاستيلاء على مدن الحدود فى ١٧٠١ ، كانت كلها أخطاء جسيمة جلبت على فرنسا عداوة الكثيرين من كل جانب . ولكن كم من الفرنسيين كانوا قد استنكروا هذه الفتوحات ، ونطقوا بكلمة حق فى اجتياح البالاتينات ؟ لقد كانت الامة آثمة مدانة قدر اثم مليكها وادانته ، انها لم تأخذ عليه جرائمه بل هزائمه . انها ، باستثناء بعض القساوسة ، لم تشجب فسقه وفجوره وزناه . ولم تظهر تحمسا لاصلاحه الخلقى ، أو تقواه أو اخلاصه لزوجته غير المتكافئة معه ، ونسيت الآن أنه كان لعدة سنين قد زين سلطانه بشيء من اللطف والكياسة والانسانية (١٠٠) . وانه الى أن ركبه شيطان الحرب ، كان يؤيد كولبير فى تنمية الصناعة والتجارة فى فرنسا ، وأنه كان قد حمى موليير من المتعصبين ، وراسين من عصابات المتآمرين ، وأن اسرافه فى الانفاق لم يكن لحســاب ترفه وبذخه فحسب ، بل انه كذلك هيأ به لفرنسا تراثا ضخما من الفن .

ان ما اختلج فى اعماق الشعب بشكل أوقع وأعدل ، هو ما كانوا قد دفعوه من دمائهم وأموالهم ، ثمنا لمجد تقوضت أركانه بموت الملك وافقار فرنسا وخرابها . فندر أن وجدت فى الامة أسرة لم تفقد أحـــد أبنائها فى الحروب ، ونقص عدد السكان الى حد باتت معه الحكومة تقدم جوائز للوالدين الذين عندهم عشرة أبناء . وكانت الضرائب قد خنقت الحافز الاقتصادى ، كما سدت الحرب منافذ التجارة ، واغلقت الأسواق الأجنبية فى وجه البضائع الفرنسية ، ولم تكن الدولة مفلســة فحســـب ، بل كانت كذلك مدينـــة بنحـــو ثلاثة آلاف مليـــون من الفرنكا ت(١٠١) . وضاع ما كان للنبلاء من نفع وأثر ، حين انصرفوا عن الادارة المحلية الى التسكع فى أروقة البلاط ، ولم يتألقـوا الا فى ملابسهم الثمينة وبسالتهم العسكرية . وظهرت طبقة جديدة من النبلاء

عن طريق بيع الألقاب بالجملة لعامة الناس . وفى سنة واحدة منح الملك لقب النبالة لخمسمائة شخص مقابل ستة آلاف جنيه دفعها كل منهم ، وبذلك أصبح بعض أبناء البيوتات العريقة أتباعا لأبناء رقيق الأرض . ولما لم تعد الحرب صراعا بعيدا بين المرتزقة والمجالدين ، بل اختبارا مضنيا مزعجا للموارد والاقتصاديات ورجل الدين ، وازدهر الرأسماليون وسط الاضمحلال العام . ذلك أنك تجد فى الدول الحديثة أن الرجال الذين يستطيعون أن يسوسوا النـاس ، لا يسوسون الا من يستطيعون أن يدبروا الامور ، وأن يستطيعون تدبير المـال يسوسون الجميع .

وفى حكمنا على لويس الرابع عشر ينبغى أن نتذكر قولة جوتة المأثورة الانسانية ، بأن رذائل المرء هى من تأثير عصره . على حين أن فضائله نابعة منه ، أو كما أوردها الرومان فى ايجاز متميز « الرذائل هى رذائل الزمان لا رذائل الانسان (١٠٢) » ان حكمـه الاستبدادى المطلق ، والتعصب الذى حدا به الى الاضطهاد والتعذيب ، والتلهف على السلطة والميل للحروب ، ركبت كلها فيه باعتباره ابنا لعصره ولكنيسته. أما كرمه وسخاؤه وشهامته وكياسته ، وتقديره وتشجيعه للأدب والفن ، وقدرته على احتمال أعباء حكومة مركزية بعيدة المدى ، فهى كلهـا صفاته الشخصية التى جعلت منه ملكا بكل معانى الكلمة . وكتب جوته : ان الطبيعة أبدعت فى لويس الرابع عشر نوعا كاملا من الطراز الاول للنمط الملكى ، وبهذا أنهكت نفسها وحطمت القياس (١٠٣) . وقـال نابليون « كان لويس الرابع عشر ملكا عظيما ، وهو الذى رفع فرنسا الى المرتبة الأولى بين الأمم . وأى ملك من ملوك فرنسا منـذ عهد شارلمان يمكن أن يقارن به فى كل نواحيه ؟ (١٠٤) » . ومن رأى لورد أكتون أنه « كان الى أبعد حد ، أقدر من ولد فى العصور الحديثة على درجات سلم أى عرش (١٠٥) » . لقد شن حروبا مدمرة ، وسخر كبرياءه فى اسراف فى البناء والترف ، وخنق الفلسفة ، وأثقل كاهل شـعبه بالضرائب الى حد الاملاق والعوز ، ولكنه هيأ لفرنسا حكومة منظمة ، ووحدة وطنية ، وعظمة ثقافية ، بلغت بها مرتبة الزعامة التى لا نزاع فيها على العالم الغربى . وأصبح علما على أسمى عهد زاهر لبـلاده ورمزا له . أما فرنسا التى تعيش على المجد والعظمة ، فقد تعلمت أن تغفر له تدميره لها فى سبيل أن يجعلها عظيمة .



19. Voltaire, *Louis XIV*, 301.
20. Michelet, V, 39.
21. Clark, *Seventeenth Century*, 72.
22. *Enc. Brit.*, III, 242a.
23. *Voltaire*, 148.
24. *Ibid.*, 149.
25. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 314.
26. Martin, II, 106.
27. Voltaire, 157.
28. *Enc. Brit.*, XIV, 923a. Sir Winston Churchill's gallant attempt to exonerate his ancestor is not convincing; *cf.* his *Marlborough*, II, 328, 373-86.
29. Nussbaum, *Economic Institutions*, 108.
30. Martin, II, 288.
31. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 179, Book III, Ch. iv.
32. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 208; Havens, *The Age of Ideas*, 52.
33. Cruttwell, 201.
34. Lewis, *Splendid Century*, 31.
35. Michelet, V, 14-15.
36. *Ibid.*, 36-37.
37. *Camb. Mod. History*, V, 349.
38. *Ibid.*, 378.
39. Ogg, 266.
40. Professor Wolfgang Michael in *Camb. Mod. History*, V, 393.
41. Martin, II, 314.
42. *Camb. Mod. History*, V, 394.
43. *Ibid.*
44. 395; Martin, II, 317.
45. Voltaire, 310; *Camb. Mod. History*, V, 396; Martin, II. 318n.
46. Chesterfield, Letter of May 31, 1752.
47. Martin, II, 325.
48. Ogg, 267; *Camb. Mod. History*, V, 401.
49. Boulenger, 291.
50. Voltaire, 186.
51. Mahan, 204; Ogg, 268; *Camb. Mod. History*, V, 398-9.
52. *Camb. Mod. History*, VI, 9.
53. Martin, II, 335.
54. Voltaire, 330.
55. Guizot, *History of France*, IV, 373.
56. Voltaire, 219.
57. Saint-Simon, I, 370.
58. Michelet, V, 86.
59. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 410; Lacroix, Paul, *Eighteenth Century*, 80.
60. *Camb. Mod. History*, V, 30.
61. Saint-Simon, I, 372.
62. Martin, II, 431.
63. Saint-Simon, II, 61.
64. Boulenger, 306.
65. Saint-Simon, II, 262.
66. Martin, II, 447.
67. *Ibid.*, 448.
68. Voltaire, 229.
69. *Ibid.*, 230.
70. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 68.
71. Saint-Simon, II, 68.
72. Lacroix, *Eighteenth Century*, 22.
73. Boulenger, 307.
74. *Ibid.*
75. Saint-Simon, II, 166.
76. *Ibid.*, 67.
77. *Ibid.*, 66.
78. Voltaire, 233; Michelet, V, 95.
79. Rowse, *Early Churchills*, 254.
80. Trevelyan, *English Social History*, 294.
81. Martin, II, 474.
82. In Hoover, H., and Gibbons, H. A., *Conditions of a Lasting Peace*, 33.
83. In Hazard, 437.
84. Voltaire, 306.
85. Martin, II, 493.
86. Lewis, *Splendid Century*, 181.
87. E.g., *cf.* Cruttwell, 284.
88. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 51.
89. Martin, II, 540n.
90. Cruttwell, 347.
91. Martin, II, 539.
92. Saint-Simon, II, 354; Guizot, *History of France*, IV, 483.
93. Boulenger, 317.
94. Saint-Simon, II, 355.
95. *Ibid.*, 356.
96. Boulenger, 318.
97. Michelet, V, 125.
98. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 7.
99. Duclos, *Secret Memoirs of the Regency*, 21.
100. Voltaire, 308-9.
101. Michelet, IV, 392.
102. Quoted by Voltaire, in *Works*, XIXb, 99.
103. Parton, *Life of Voltaire*, II, 493.
104. Saint-Amand, 53.
105. Acton, 234.

23. Hazard, *Critical Years*, 223.
24. *Jordan*, 81-91.
25. *Ibid.*, 97.
26. Hazard, 224.
27. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 400.
28. Hazard, 228.
29. *Ibid.*, 234.
30. 230; Martin, H., *Histoire de France*, XIV, 292.
31. Hazard, 231.
32. Leibniz, *Sämtliche Schriften*, I, 417, in Smith, P., *Modern Culture*, I, 318.
33. *New Essays*, Preface, p. 42.
34. Locke, *Essay*, II, i, 2.
35. Aristotle, *De anima*, III, 4.
36. Leibniz, *New Essays*, Book II, Ch. i, p. 111.
37. *Ibid.*
38. Preface, p. 43.
39. I, i, pp. 71, 81.
40. Locke, *Essay*, II, 21.
41. Leibniz, *New Essays*, I, ii, pp. 88, 95.
42. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 16.
43. Leibniz, *Monadology*, Nos. 28-30; *New Essays*, Preface, p. 44.
44. *Leibniz-Clarke*, 16.
45. *New Essays*, I, ii, p. 94.
46. I, iii, p. 104.
47. II, i, p. 111.
48. II, i, p. 117.
49. Überweg, II, 107; Meyer, 152.
50. A. G. Langley in Leibniz, *New Essays*, p. 101n.
51. *Monadology*, No. 66.
52. Leibniz, *Système nouveau*, in Überweg, II, 109.
53. Walt Whitman.
54. *Monadology*, No. 9.
55. *Ibid.*, No. 11.
56. Nos. 18, 70.
57. Letter to Christian Wolff, in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, p. 83.
58. *Monadology*, No. 63.
59. *Principles of Nature and Grace*, No. 4.
60. *Monadology*, No. 72.
61. *Ibid.*, No. 78.
62. No. 81.
63. Leibniz, *Explanation of the New System*, in Cassirer, 111.
64. Letter of Mar. 3, 1696, in *Philosophical Writings*, 115.
65. Introd. to the *Theodicy*, 47.
66. *Monadology*, No. 41; *Theodicy*, p. 74.
67. *New Essays*, Preface, p. 52; *Monadology*, No. 77.
68. *Theodicy*, p. 378.
69. *Ibid.*
70. *Monadology*, No. 69.
71. *Philosophical Writings*, 40.
72. *Theodicy*, 134.
73. *Ibid.*, 379.
74. *Principles of Nature and Grace*, No. 10.
75. Letter to Bayle, 1702, in Introd. to the *Theodicy*, 47.
76. Couturat, *Opuscules . . . de Leibniz*, p. 590, in Joseph, H. W., *Lectures on the Philosophy of Leibniz*, 44.
77. *Leibniz-Clarke Correspondence*, x, xiv.
78. Meyer, 97f.
79. *New Essays*, III, vi, p. 333.
80. Preface, 50.
81. Letter to Guhrauer in *Monadology*, 38.
82. Wolf, A., *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 391; *History of Science . . . in the 18th Century*, 352.
83. Leibniz, *Protogaea*, in Locy, *Growth of Biology*, 256.
84. *Ibid.*
85. 257.
86. Meyer, 103.
87. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 14.
88. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 591; Newman, J. R., *World of Mathematics*, III, 1861.
89. Brewster, *Newton*, II, 215.
90. Hazard, 234.
91. Meyer, 164.
92. *Ibid.*, 126.
93. Saw, Ruth, *Leibniz*, 147.
94. Meyer, 152.
95. In Robinson, *Bayle*, 268.
96. Hazard, 303.
97. Spengler, I, 42.
98. *New Essays*, II, xvi, p. 534.
99. *Ibid.*, IV, xvi, p. 535.
100. Lecky, *Rationalism*, I, 148.

CHAPTER XXIV

1. Boulenger, *Seventeenth Century*, 242.
2. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 189.
3. *Ibid.*, 186.
4. *Ibid.*, 195, quoting Lavallée, *Lettres édifiantes*, 149.
5. Saint-Simon, III, 12.
6. *Ibid.*, 13.
7. Acton, *Lectures*, 244.
8. Martin, H., *Louis XIV*, I, 552; Michelet, V, 127-28.
9. Saint-Simon, III, 12.
10. *Ibid.*, 11.
11. Macaulay, *History*, II, 475.
12. Martin, I, 535.
13 *Ibid.*, II, 64.
14. Michelet, V, 16.
15. Benoist, *Coysevox*, 37.
16. Michelet, V, 6.
17. Boulenger, 239.
18. Martin, II, 65.

125. iii, appendix.
126. iii, 11, scholium; iv, 59.
127. iii, appendix.
128. Nietzsche, *Antichrist*, No. 2.
129. *Ethics*, iv, 45, scholium; iv, 50, 53-54.
130. iv, 42, 45, Scholium II.
131. iii, Definition III.
132. iii, Introd.
133. v, 3, corollary.
134. Müller, Johannes, *Physiologie des Menschen* (1840), II, 543-48.
135. *Ethics*, iii, 1, corollary.
136. iii, 59, scholium.
137. iv, 7.
138. iv, 51, scholium; 58, scholium.
139. iii, 59; Definition XXVII.
140. iv, 67.
141. iii, 12, scholium.
142. v, 21.
143. v, 34, scholium.
144. v, 29, scholium.
145. v, 23.
146. v, 31, scholium.
147. v, 3.
148. v, 6.
149. iv, 26.
150. ii, end.
151. iv, 68.
152. iv, 50, scholium.
153. iv, appendix, xiii.
154. iv, 73.
155. iv, 46.
156. iv, 48, scholium.
157. E.g., Bidney, *Psychology and Ethics of Spinoza*, 246.
158. *Ethics*, iv, 14.
159. *Ibid.*, iii, appendix, Definition VI.
160. *Improvement of the Intellect*, Introd.
161. *Ethics*, iv, 28.
162. *Tractatus Politicus*, i, 4.
163. *Ibid.*, ii, 8.
164. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xvi, p. 201; *Tractatus Politicus*, ii, 4.
165. *Ethics*, iv, 37, Scholium I.
166. *Tractatus Politicus*, vi, 1.
167. *Ethics*, iv, 20, 22.
168. *Ibid.*, 35, scholium; 73.
169. *Tractatus Politicus*, i, 5.
170. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx, p. 259.
171. *Tractatus Politicus*, vi, 4.
172. *Ibid.*, xi, 2.
173. *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xxvii.
174. *Ibid.*
175. *Tract. Pol.*, xi, 4.
176. *Ibid.*, vii, 17.
177. *Ethics*, iv, appendix, 17.
178. *Tract. Pol.*, vi, 12.
179. In Bevan and Singer, *Legacy of Israel*, 451.
180. Wolfson, H., *Spinoza*, II, 233f.
181. Letter to Hugo Boxel, in *Correspondence*, 290.
182. *Jewish Encyclopedia*, XI, 517.
183. *Ethics*, iii, preface; v, preface.
184. *Tract. Pol.*, x, 1; v, 7.
185. Oldenburg to Spinoza, in *Correspondence*, Letter III.
186. Uberweg, *History of Philosophy*, I, 64-74.
187. Bayle, article "Spinoza."
188. *Jewish Enc.*, XI, 519.
189. *Ethics*, v, 36.
190. Garland, *Lessing*, 174.
191. Brandes, G., *Main Currents of 19th-Century Literature*, I, 170; III, 257; IV, 75.
192. Robertson, *Freethought*, II, 168.
193. Hume, *Treatise on Human Nature*, Book I, Part iv, No. 5; Vol. I, pp. 228-29.
194. Froude, *Short Studies in Great Subjects*, I, 219-67.
195. Arnold, Matthew, "Spinoza," in *Essays in Criticism*.

CHAPTER XXIII

1. Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 321.
2. Robertson, *Freethought*, II, 296.
3. *Ibid.*, 298.
4. Leibniz, *New Essays on Human Understanding*, Introd., pp. 52 and 93; *Philosophical Writings*, 154, 166.
5. *Leibniz-Clarke Correspondence*, 192.
6. Meyer, *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 50.
7. Spengler, I, 42.
8. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power in History*, 107.
9. Russell, Bertrand, *Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz*, 6n.; *Camb. Mod. History*, V, 717.
10. *Ibid.*, 718; Meyer, 86.
11. Dampier, *History of Science*, 175; *Camb. Mod. History*, V, 717.
12. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 47.
13. *Enc. Brit.*, XIII, 885c.
14. Jordan, G. J., *Reunion of the Churches: A Study of G. W. Leibnitz and His Great Attempt*, 42.
15. Meyer, 162.
16. Leibniz, *Theodicy*, 71.
17. Jordan, 36.
18. Robertson, *Freethought*, II, 300.
19. Piat, in Kayser, *Spinoza*, 206.
20. Russell, *Critical Exposition*, vii.
21. Meyer, 133.
22. *Ibid.*, 77.

14. Lucas, 722.
15. Wolf, A., in Spinoza, *Correspondence*, 49.
16. Kayser, 137.
17. Spinoza, *Correspondence*, 146, Letter XIX.
18. Spinoza, *Ethics*, Part IV, Prop. 45, Scholium II.
19. Waxman, *History of Jewish Literature*, II, 263.
20. Bayle, *Selections*, 305.
21. Spinoza, *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 1-10.
22. *Ibid.*, Nos. 13 and 41.
23. No. 16.
24. Roth, Leon, *Spinoza*, p. 25.
25. Brunschvigg, L., *Spinoza et ses contemporains*, p. 138.
26. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Pref.
27. *Ibid.*, Ch. ix.
28. Ch. ii, p. 33.
29. Ch. i, p. 24.
30. Ch. vi, p. 92.
31. Ch. xiv, p. 186.
32. *Ibid.*, p. 189.
33. Ch. vii, p. 118.
34. Ch. xix, p. 245.
35. Preface, p. 5.
36. *Ibid.*, p. 8.
37. In Kayser, 202.
38. *Correspondence*, 348 (Letter LXXV).
39. *Tractatus*, Ch. i, p. 18.
40. Kayser, 247.
41. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 47.
42. *Ibid.*, 46.
43. Kayser, 168-69.
44. *Ibid.*, 231.
45. Bayle, *Selections*, 305-6.
46. Brunschvigg, 140.
47. *Ibid.*, 146.
48. Lucas, in Clark, 724.
49. Kayser, 249-51.
50. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
51. *Correspondence*, Letter XLVIII.
52. Lucas, 725.
53. Brunschvigg, 141.
54. Kayser, 262-65; *Enc. Brit.*, XXI, 234b.
55. Lucas, 725.
56. *Correspondence*, Letter I.
57. Bayle, *Selections*, 306.
58. *Ibid.*, 307.
59. Spinoza, *Ethics*, iv, 50, scholium.
60. *Correspondence*, Letter LXV.
61. Letter LXVII.
62. *Ibid.*
63. Letter LXXVI.
64. Lett[illegible] LXXIX.
65. Le[illegible]
66. Letter VII.
67. Letter LXVIII.
68. Kayser, 298.
69. Bayle, *Selections*, 308.
70. Letter IX.
71. *Ethics*, i, 8; Scholium II.
72. *Ibid.*, i; Definition IV.
73. ii, 13, scholium.
74. *On the Improvement of the Intellect*, Nos. 99-101.
75. *Ethics*, i, 15.
76. Letter LIV.
77. *Tractatus*, p. 65.
78. *Ethics*, v, 17.
79. *Ibid.*, i, 8; Scholium II.
80. *Cf.* Wolfson, H., *Philosophy of Spinoza*, II, 158.
81. Letter XXXII; *Ethics*, ii, 11, corollary.
82. *Ethics*, i, 17, note.
83. *Ibid.*, i, 31.
84. *Ibid.*, 18.
85. Letter LXXV.
86. *Ethics*, i, 32, Corollary I.
87. *Tractatus*, pp. 44, 92.
88. *Ethics*, i, appendix.
89. *Tractatus*, p. 202.
90. Letter LIV.
91. *Ethics*, i, appendix.
92. Letter LXXIII.
93. Including Wolfson, H., II, 348.
94. Letter XIX.
95. Letter XXX.
96. *Ethics*, v, 24.
97. ii, 13.
98. iii, 2, scholium.
99. *Ibid.*
100. ii, 12.
101. *Ibid.*
102. ii, 17-18.
103. ii, 26.
104. ii, 21.
105. ii, 48, scholium; Letter II.
106. *Ethics*, ii, 49.
107. iii, 2, scholium
108. ii, 49, corollary.
109. iii, Definition I.
110. ii, 48.
111. i, appendix.
112. Letter LVIII.
113. *Ethics*, i, appendix.
114. iii, 6-7.
115. i, 34.
116. i, appendix.
117. iv, Definition VIII.
118. v, 20, scholium.
119. iv, 20, 22, corollary.
120. iv, 18, scholium.
121. *Ibid.*
122. iii, 59.
123. iii, 9, scholium.
124. iv, Definition I

180. Berkeley, *New Theory of Vision*, No. 41.
181. Wolf, *Science . . . in the 18th Century*, 672.
182. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 47.
183. *Ibid.*, Nos. 15-19.
184. 45-46.
185. 34-35; *Dialogues*, in *New Theory of Vision*, 274.
186. *Principles of Human Knowledge*, No. 90.
187. *Ibid.*, No. 57.
188. Chesterfield, Letter of Sept. 27, 1748.
189. Boswell, *Johnson*, 285.
190. Hume, D., *Enquiry concerning Human Understanding*, note to No. 122.
191. Berkeley, *Dialogues*, pp. 268-69.
192. *Ibid.*, p. 270.
193. Hume, *Enquiries*, No. 122, p. 155n.
194. *Camb. History of English Literature*, IX, 314.
195. Berkeley, *Principles of Human Knowledge*, No. 6.

CHAPTER XXI

1. Hazard, *Critical Years*, 330.
2. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 25.
3. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 309.
4. *Récit de Marguerite Périer* (Pascal's niece), in Robertson, *Freethought*, II, 121n.
5. Day, *Ninon*, 211.
6. Smith, P., *Modern Culture*, I, 407.
7. In Vartanian, 57.
8. In Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 23.
9. Malebranche, *Dialogues on Metaphysics*, in Robinson, D.S., *Anthology of Modern Philosophy*, 227-34.
10. Sévigné, Letter of August 4, 1680.
11. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 77.
12. Robinson, H., *Bayle*, 46.
13. *Ibid.*, 19.
14. Bayle, *Pensées diverses sur la comète*, Ch. 100, in Fellows and Torrey, 69.
15. Ch. 25, in Robinson, *Bayle*, 91.
16. Ch. 141, in Fellows and Torrey, 73.
17. Ch. 172, *ibid.*, 75.
18. Luke xiv, 16-23.
19. Bayle, *Selections*, xiv.
20. In Robinson, *Bayle*, 83.
21. Hazard, 93.
22. Disraeli, *Curiosities*, II, 391-92.
23. In Robinson, *Bayle*, 236.
24. Disraeli, II, 393.
25. Bayle, *Selections*, 173 (article "Manichees.").
26. *Ibid.*, 8-25 (article "Adam") and 157-83, ("Manichees"); Robinson, *Bayle*, 208-212.
27. *Selections*, 208 (article "Pyrrho").
28. *Ibid.*, 209.
29. 210.
30. 204 (article "Abdas").
31. 205 ("Pyrrho").
32. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 15.
33. *Selections*, 211 ("Pyrrho").
34. *Ibid.*, 214 ("Pyrrho") and 177 ("Manichees").
35. In Faguet, 18.
36. *Ibid.*, 10.
37. Havens, *Age of Ideas*, 35.
38. Hazard, 444.
39. Havens, 37.
40. *Selections*, Introd., xx.
41. Robinson, H., *Bayle*, 274.
42. *Selections*, Introd., xxx.
43. Faguet, 6.
44. *Selections*, Introd., xxvii.
45. Faguet, 6.
46. Robinson, *Bayle*, 294.
47. Noyes, A., *Voltaire*, 470.
48. Faguet, 54.
49. In Fellows and Torrey, 62.
50. Fontenelle, *Origine des fables*.
51. Fellows and Torrey, 43.
52. *Ibid.*, 60.
53. *Ibid.*, 44-46.
54. Flint, *History of the Philosophy of History*, 215.
55. In Lanfrey, *Historie politique des papes*, II, 138.
56. In Bell, *Men of Mathematics*, p. xix.
57. Bury, J.B., *The Idea of Progress*, 108.
58. Desnoiresterres, III, 239.
59. In Faguet, 21.
60. Havens, 60.
61. Aldis, *Mme. Geoffrin*, 25.
62. *Ibid.*, 30; Havens, 62.

CHAPTER XXII

1. Kayser, *Spinoza*, 41.
2. Maimonides, *Guide to the Perplexed*, I, Introd.; II, Props. 37-46; III, Props. 22, 30, etc.
3. *Ibid.*, II, pp. 17f.
4. II, Prop. 2, Introd.; Zeitlin, Maimonides, 151.
5. *Jewish Encyclopedia*, VIII, 29.
6. Martin, H., *Louis XIV*, I, 403.
7. Lucas, *Life of Spinoza*, in Clark, *Great Short Biographies*, 718.
8. *Ibid.*, 719.
9. 720.
10. Graetz, *History of the Jews*, V, 93.
11. *Ibid.*
12. Lucas, 720.
13. Graetz, V, 94.

84. *Ibid.*, 152.
85. In Robertson, *Freethought*, II, 55.
86. Collins, Anthony, *Discourse of Free-thinking*, 5.
87. *Ibid.*, 88-89.
88. *Ibid.*, 105.
89. Robertson, II, 153.
90. Willey, *Seventeenth-Century Background*, 87.
91. *Leibniz-Clarke Correspondence*, p. xi.
92. In Stephen, *Eighteenth-Century Thought*, II, 210.
93. *Camb. Mod. History*, V, 750.
94. More, Henry, *Philosophical Poems*, in Willey, *Seventeenth Century*, 140.
95. In Willey, 161.
96. Disraeli, I., *Curiosities of Literature*, I, 210.
97. *Camb. Mod. History*, V, 751.
98. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 62-64.
99. In Willey, 175.
100. *Ibid.*, 179.
101. *Ibid.*, 182, 193.
102. Glanvill, *Vanity of Dogmatizing*, in Mumford, *Technics and Civilization*, 58.
103. Glanvill, *Sadducismus Triumphatus*, in Willey, 195.
104. Fox-Bourne, *Locke*, I, 13.
105. Aaron, *Locke*, 6.
106. *Ibid.*
107. Fox-Bourne, I, 198.
108. Locke, *Two Treatises on Government*, Introd. xxxiii.
109. Macaulay, *History*, I, 417.
110. Aaron, 23.
111. *Enc. Brit.*, XIV, 271d.
112. Aaron, 24.
113. Locke, *Two Treatises*, 3.
114. Filmer, *Patriarcha*, in Locke, *Two Treatises*, 255f.
115. Filmer, *Observations upon Aristotle's Politics*, in Hearnshaw, *Thinkers of the Augustan Age*, 37.
116. *Ibid.*, 39.
117. Filmer, *Patriarcha, loc. cit.*, 278.
118. Locke, *Two Treatises*, 3.
119. *Second Treatise*, No. 119.
120. No. 85.
121. No. 94.
122. No. 40.
123. No. 36.
124. No. 138
125. Pollock, *Introd. to the History of the Science of Politics*, 65.
126. Locke, *Second Treatise*, Nos. 228-29.
127. Locke, *Essay concerning Human Understanding*, Epistle to the Reader, p. xx.
128. Lamprecht, S.P., in Dewey, *Studies in the History of Ideas*, III, 217.
129. Locke, *Essay*, II, xii, 17.
130. *Ibid.*, Epistle to the Reader, p. xx.
131. *Essay*, III, x, 5-14.
132. *Ibid.*, II, xiii, 27.
133. II, xxi, 6.
134. III, vi, 12, 37.
135. I, ii, 7.
136. II, xxxiii, 6.
137. I, iv, 8-9.
138. I, iii, 27.
139. II, i, 2.
140. II, ix, 1.
141. II, xxiii, 1-4.
142. *Ibid.*, 5.
143. 14-15.
144. II, xxi, 47-48, 52-53.
145. IV, iii, 6.
146. II, xxvii, 26.
147. Sterne, L., *Tristram Shandy*, 62.
148. Voltaire, *Letters on the English*, in *Works*, XIXb, 36.
149. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 379.
150. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 99.
151. Locke, *Essay*, IV, xviii, 2.
152. *Ibid.*, 10.
153. 5.
154. 6.
155. 10.
156. IV, xix, 1.
157. *Ibid.*, 14.
158. Locke, *Reasonableness of Christianity*, in Willey, 285.
159. *Essay*, IV, x, 12.
160. Aaron, *Locke*, 298.
161. *Ibid.*, 21.
162. Spengler, O., *Decline of the West*, II, 308.
163. Shaftesbury, *Characteristics*, I, xxii.
164. *Ibid.*, I, p. *xii*.
165. P. 237.
166. 263.
167. 267-70.
168. 45.
169. 239-46.
170. I, p. *xxvii*.
171. II, 150.
172. I, 79.
173. 75.
174. Sidgwick, *History of Ethics*, 186-87.
175. Shaftesbury, I, 260.
176. *Ibid.*, I, 86.
177. Cassirer, *Platonic Renaissance in England*, 199.
178. Berkeley, George, *Principles of Human Knowledge*, No. 92, in *New Theory of Vision*, p. 159.
179. Locke, *Essay*, II, ix, 8.

المراجع

CHAPTER XX

1. Aubrey, 157
2. *Ibid.*, 150.
3. *Ibid.*, 151.
4. Hobbes, *Leviathan*, Ch. iv, p. 16.
5. Hobbes, *De Corpore*, i, 2, in *The Metaphysical System of Thomas Hobbes*, ed Mary W. Calkins, p. 6.
6. *Leviathan*, vii, p. 31.
7. *Ibid.*, i, p. 3.
8. *Ibid.*
9. *Elementorum Philosophiae*, in *Metaphysical System*, p. 119.
10. *Leviathan*, ii, pp. 4-5.
11. *Ibid.*, iii, p. 8.
12. Hobbes, *Elements of Law*, i, 3.
13. *Leviathan*, ii, p. 6.
14. *Ibid.*, vi, p. 28.
15. *Elements of Law*, i, 12.
16. *Leviathan*, xxi, p. 111.
17. *Ibid.*, vi, p. 23.
18. *Elements of Law*, i, 11.
19. *Leviathan*, xi, p. 50.
20. *Ibid.*, 49.
21. vi, p. 27.
22. Pp. 23-26.
23. viii, p. 35.
24. xi, p. 49.
25. *Elements of Law*, i, 12.
26. *Leviathan*, xiii, p. 65.
27. *Ibid.*
28. P. 64.
29. *Ibid.*
30. P 65.
31. xvii, p. 89.
32. P. 90.
33. xxi, pp. 114-16.
34. xxix, p. 173.
35. P. 176.
36. xix, pp 99, 101.
37. *Elements of Law*, ii, 2.
38. *Leviathan*, xviii, p. 93; xxix, p 174.
39. P. 172.
40. vi, p. 26; xi, p. 54.
41. xii, pp. 54-55.
42. *Ibid.*
43. xii, p 56.
44. Hobbes, *De Homine*, Ch. 1.
45. *Leviathan*, xi, p. 53.
46. xxxi, p. 194.
47. xxxiv, p. 211.
48. Stephen, *Hobbes*, 151-52.
49. *Leviathan*, xii, p. 59.
50. xxix, p. 175.
51. Hobbes, *De Cive*, in Stephen, *Hobbes*, 222.
52. *Leviathan*, xxxi, p. 196.
53. xxxii, p. 199.
54. Bayle, *Selections*, article "Hobbes."
55. Burnet, *History of His Own Time*, 45.
56. Aubrey, 152.
57. Bowle, *Hobbes and His Critics*, 152.
58. *Ibid.*, 34.
59. *Enc. Brit.*, XI, 613b.
60. Aubrey, 156.
61. *Ibid.*, 153.
62. *Enc. Brit.*, XI, 613d.
63. Aubrey, 153-55.
64. Brewster, *Newton*, II, 149n; Stephen, *Hobbes*, 68.
65. Bayle, article "Hobbes," *loc. cit.*
66. Aubrey, 124.
67. Harrington, *Oceana*, 186.
68. *Ibid.*, 186.
69. 187.
70. 197.
71. *Camb. Mod. History*, VI, 796.
72. Aubrey, 125.
73. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, II, 80.
74. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 87; Psalms XIV, L, LIII, L.
75. Robertson, II, 90.
76. *Ibid.*, 91.
77. *Ibid.*, 95; Smith, P., *Modern Culture*, II, 482.
78. Toland, John, *Christianity Not Mysterious*, 6, 37.
79. Lange, F. E., *History of Materialism*, I, 328-29.
80. *Ibid.*, 325; Wolf, *History of Science . . . in the 18th Century*, 792.
81. *Ibid.*; *Enc. Brit.*, XXII, 270b.
82. Lange, I, 325.
83. Hazard, *Critical Years*, 264.











